السِّيرَةُ النَّبَوِيَّةُ

في العهد المكي

حقوق الطبع محفوظة

الطبعة الأولى
طبعة مزيدة ومنقحة

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م

رقم الإيداع لدى دائرة المكتبة الوطنية
٥٢٥٣ / ١٠ / ٢٠١٨

دار عمار للنشر والتوزيع
عمان. ساحة الجامع الحسيني. سوق البتراء. عمارة الحجيري
تلفاكس ٤٦٥٢٤٣٧. ص. ب ٩٢١٦٩١. عمان ١١١٩٢. الأردن
e.mail: dar_ammar@hotmail.com

السيرة النبوية

في العهد المكي

إعداد

الشيخ نافع بن خالد العلواني

المتوفى سنة ١٣٣٩ هـ ٢٠١٨ م

رحمه الله

دار عمار

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على عباده الذين اصطفى، أما بعد: فمن نعم الله عز وجل علي التي عرفت قيمتها عندما كبرت، أنه عز وجل أتاح لي عالماً ربانياً لازمته منذ صغري، عرفته مدرساً في الإعدادية، يدرسنا مادة التربية الدينية، شعرت بأنه عالم يختلف عن الآخرين بورع حاجز قل أن يكون له نظير، وبعلم غزير، قال فيه أساتذته في الأزهر: الشيخ محمد الحامد بحر علمٍ لا تنزحه الدلاء.

كان له رحمه الله درس خاص في الفقه في مسجد في مدينة حماه، هو الجامع الجديد وكانت نخبة من الطلاب شباباً وشيوخاً يحضرون هذا الدرس.

كنت أحضر هذا الدرس رغبةً بملازمة الشيخ وحرصاً على العلم الشرعي، نقرأ فيه الفقه المقارن.

كان للشيخ ولد صغير يحبه واسمه سالم، يدخل أحياناً فجأةً علينا فيتلقاه الشيخ ويقبله ويقول:

.... وجلدة بين العين والأنف سالمُ

وهذا كناية عن حبه الشديد لولده، ثم يقول بعدها، والله إن محمداً أغلى منك ثم يلتفت إلى الحاضرين ويقول: والله أتمنى أن أرى النبي ﷺ دقيقة واحدة مقابل مالي وروحي وأولادي.

وقد غرس رحمه الله هذا الحب للنبي في قلب تلامذته.

وشاء الله أن أدرس الشريعة وأتخرج من كليتها في دمشق سنة ١٩٦١ م وعُينت مدرساً في ثانويات سوريا وفي محافظات متعددةٍ، فكنت في دروسي أعيش مع رياض السيرة في أفق تربوي كريم أشرح للطلاب معالم السيرة النبوية شرحاً تربوياً يجعلهم يوقنون بأنهم ينبغي أن يكونوا على هذا الطريق.

وشاء الله أن أسافر إلى دولة الإمارات العربية المتحدة لظروف معينة جعلني أترك موطني الأول ولسان حالي يتمثل قول ابن حجة الله الحموي عندما ألجأته الشدائد إلى مغادرة مدينة حماة الجميلة بعاصيها ونواعيرها فقال:

منـــازل أحبابي ومنبت شـــعبتي وأوطان أوطاري بها ورضا ســخطي

نعمـــت بها دهـرا ولـكن سُـلبته　　　برغمي وهذا الدهر يسلب ما يعطي

وقد جاء شرط البين أني أغيب عن　　　حمـــاها لقد أوفى فؤادي بالشــرط

انتقلت إلى دولة الإمارات العربية المتحدة حماها الله، وعينت في وزارة الأوقاف واعظاً وكنت أدرس في مساجد المنطقة الشرقية، وشاء الله أن يكون زادي في هذه الدروس السيرة النبوية في العهد المكي على الخصوص، لما في العهد المكي من وقفاتٍ تربويةٍ تعد المسلم لتحمل أعباء الدعوة وتبليغها، وشاء الله أن أسجل هذه الدروس وأن تنقل مسجلةً، ثم كانت مغادرتي لدولة الإمارات فجأةً، وكنت أنوي إتمام السيرة بالعهد المدني، ولكن لم يتح لي ذلك، فخرجت إلى الأردن العزيز الكريم أدرس فيها هذه السيرة، وملئي حنين إلى طلاب وإخوة ولسان حالي يقول:

يـا قاطعين حبال الوصل مذ رحلوا　　　قطعتمو بسيــــوف الهجر أوصالي

تـركتمـــو كل قلب يـوم فـرقتكم　　　مـا بين محترق بـالنـــــار أو صالي

إن كان يوسف أوصى بالجمال لكم　　　فـإن والـده بالصبـــــر أوصى لي

وهذه الدروس ليس لي فضل فيها وإنما عملي نقل أجمل ما قاله العلماء في السيرة النبوية مع محاولة إبراز الجانب التربوي في السيرة العطرة، وإظهار المعاني الإنسانية السلوكية في أقواله وأفعاله ﷺ وكيف سار الرعيل الأول على هذا الهدي الكريم ونصب أعينهم قـولـه تـعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ ﴾(١).

وفي الختام أسأل الله تعال أن يجعلني وإياكم ممن يسيرون على هدي المصطفى ﷺ لنسعد في الدارين بإذن الله تعالى.

---

(١) الأحزاب: ٢١.

الفصل الأول
الغرض من دراسة السيرة النبوية

الحمد لله الذي لا ناقض لما بناه، ولا مانع لما أعطاه، ولا راد لما قضاه. القائل في محكم كتابه: ﴿ ۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ [1]. خلق محمداً واختاره على الكل واصطفاه، وأوحى إليه من سره المستور ما أوحاه، ووعده المقام المحمود وسيُبلغه مُناه صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه ما تحركت الألسن والشفاه صلاة تدوم بدوام ملك الله، وسلّم تسليماً كثيراً، أما بعد:

فهذه دروس في السيرة النبوية، هيئت تهيئة تجعل سيرته ﷺ شيئاً ينمي الإيمان، ويزكي الخلق، ويُلهب الكفاح الدائم والعمل الدؤوب، وتُغري باعتناق الحق والوفاء له.

هكذا ينبغي أن يكون عرض السيرة كما قال علماؤنا وكتبوا ووضحوا ذلك، فمن جميل قولهم: إن سيرة النبي ﷺ ليست قصة تتلى يوم ميلاده كما يفعل الناس اليوم، ومحبته ﷺ لا تكون بصياغة مدائح له يتلوها العاشقون، ويتأوه عند ذكرها المتأوهون. بل رباطُ المسلم برسوله أقوى وأعمق من هذه الروابط الملفقة، وما مال المسلمون إلى هذا النهج إلا يوم تركوا سبيل العمل، وأعياهم حمل لُباب الدعوة، فاكتفوا بالمظاهر والأشكال؛ لأن هذه المظاهر لا تكلف جهداً، ولأن بذل الجهد يحتاج إلى عزيمة تعود بنا إلى عقيدة الإسلام، وتدفعنا إلى التمسك والتطبيق لمنهجه ﷺ.

فبدلاً من صوت رخيم، يجب أن ينهض المرء إلى تقويم نفسه، وإصلاح شأنه، حتى يكون قريباً من سنن سيرته ﷺ في معاشه ومعاده، وحربه وسلمه، وعلمه وعمله، وعبادته وتعاملاته ولذلك كان من جميل قول علمائنا: إن الذي لا يعيش الرسول في ضميره، ولا يتأسى بالنبي ﷺ في عمله وفكره، لا يُغني عنه أبداً أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة على رسول الله ﷺ.

ومن هنا يجب أن نعلم أن الغرض من دراسة السيرة النبوية هو أن يتصور المسلم الحقيقة الإسلامية في مجموعها متجسدة في حياته ﷺ بعد أن فهمها مبادئ وقواعد مجردة في الذهن. وإذا أردنا أن نصنف أجزاء هذا الغرض من دراسة السيرة فننقل ما قال علماؤنا.

قالوا: من الممكن حصر هذه الأهداف وهذا الغرض من الدراسة فيما يلي:

---

(١) الإسراء: ٢٣.

▪ فهم شخصيته ﷺ من خلال حياته؛ لنتأكد من أنه ﷺ مؤيد بالوحي، وفي ذلك رد على من قال إنه ﷺ عبقري سما بين قومه.

▪ وأن يجد الإنسان بين يديه صورة للكمال الإنساني في كل شأن من شؤون الحياة واضحة جلية، فهو ﷺ ـ كما قال الغربيون ـ هو الوحيد من الأنبياء الذي وُلِدَ تحت ضوء الشمس أي: أن حياته ﷺ كلها واضحة؛ ولذلك جعله الله قدوة بقوله: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (١).

▪ وأن يجد الإنسان في دراسة سيرته ما يُعينه على فهم كتاب الله وتذوق روحه ومقاصده، وأن يجتمع للمسلم من خلال دراسته للسيرة أكبر قدر من الثقافة الإسلامية الصحيحة، سواء كان ذلك في العقائد أو العبادات أو الأخلاق أو الأحكام.

▪ أن يكون للداعية المسلم والمعلم نموذج حي في طرائق التربية والتعليم، فلقد كان ﷺ معلماً ناصحاً، ومربياً فاضلاً في كل مرحلة من مراحل دعوته.

وسنرى من خلال هذه الدراسة للسيرة النبوية بالدليل والبرهان ـ كما قال صاحب كتاب الرسول ـ أن محمداً ﷺ رسول الله حقاً، وأن محمداً أعظم الناس في كل شيء، وأن الذين يتخذون غيره قدوة حمقى وناقصون.

فعلينا ـ نحن المسلمين ـ أن نفقه سيرة رسولنا، وهذا لا يتم إلا بفقه رسالته ﷺ نفسها، والإدراك الحق لحياة صاحبها، والالتزام الدقيق لما جاء به ﷺ.

فما أرخص الحب لرسول الله ﷺ إذا كان كلاماً، وما أغلاه عندما يكون قدوة وذماما، «أي حقاً وعهداً وحرمة» كما قال علماؤنا.

هنا يعرض سؤال هو: لماذا اختار الله محمداً ﷺ من بين البشر لحمل رسالة الإسلام؟ وما هي الصفات التي تميز بها ﷺ حين اصطفاه الله على الخلق برسالة هي منهج الحق إلى كل الخلق؟

وقد أجاب العلماء على هذا السؤال فقالوا: إن الله عز وجل وحده هو الذي يستطيع أن يزن قيمة الرسول ﷺ الوزن الحق، وليس لأحد غيره ـ عز وجل ـ كائناً من كان أن يستطيع ذلك؛ فإن الله تعالى يقول في سورة الملك ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾

---

(١) الأحزاب: ٢١.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (١). أي: ألا يعلم الخالق خلقه؟ فصار معنى الآية ـ كما يقول صاحب اللباب ـ ألا يعلم السِّر من خلق السِّر.

يقول: أنا خلقت السر في القلب أفلا أكون عالماً بما في قلوب العباد، فكان قلبه ﷺ أحظى قلب لتلقي الرسالة. وقد ذكر الفنجري عن عيسى بن إسماعيل بن المسيب قال: بينا رجل واقف بالليل في شجر كثير ملتف، وقصفت الريح، فوقع في نفس الرجل شيء، فقال: أترى الله يعلم ما يسقُط من هذا الورق؟ فنودي من خلفه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وروى محمد بن فضيل عن رزين عن ابن أبي أسماء: أن رجلاً دخل غيضة(٢) فقال: لو خلوت هاهنا بالمعصية، من كان يراني؟ فسمع صوتاً ملأ ما بين لابتي الغيضة ﴿أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾.

وذكر البروسوي: أن جماعة من الفقراء أتوا إلى رجل صالح يطلبون منه شيئاً ولم يكن باستطاعته إعانتهم، فقال: فقلت في نفسي: أذهب معهم إلى الشيخ إبراهيم الخواص وأباسطه بحالهم، فلما وصلنا إلى بيته وقرعنا الباب خرج إلينا ثم قال لي: الحاجة التي جئتني من أجلها يعلمها الله أم لا؟ قال الرجل: فسكَتُّ وانصرفنا. فوالله ما وصلنا المنزل إلا وقد فتح الله عليهم من أعطاهم حاجتهم.

أخي الكريم: وإذا أردنا أن نعرض لتقييم الخالق لرسوله ﷺ فيجب أن نقف وقفات قصيرة مع كتاب الله وكلام الله؛ لنعرف قيمته ﷺ عند ربه، وندرك وزنه عنده.

افتح كتاب الله وانظر إلى خطاب الله الرسلَ، فماذا ترى؟ نرى أن الله حين يخاطب رسله يخاطبهم بأسمائهم مباشرة فيقول عز وجل: ﴿ فَقُلْنَا يَـٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ ﴾ (٣) وقال تعالى: ﴿قَالَ يَـٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَـٰلِحٍ ﴾ (٤). وفي سورة طه أيضاً: ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِىَ

---

(١) الملك: ١٢-١٤.

(٢) الغيضة: الأجمة ومجتمع الشجر في مغيض ماء أي مسيل ماء ومنه قولهم:

غيّضن من عبراتهن وقلن لي ... ماذا لقيت من الهوى ولقينا

(٣) طـه: ١١٧.

(٤) هود: ٤٦.

يَـٰمُوسَىٰٓ﴾[1]. وفي الأعراف ﴿قَالَ يَـٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَـٰلَـٰتِى وَبِكَلَـٰمِى فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّـٰكِرِينَ﴾[2]، وقال في سورة ص: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ﴾[3]، وقال لزكريا: ﴿يَـٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَـٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾[4]. وقال: ﴿يَـٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَـٰبَ بِقُوَّةٍ﴾[5]. ﴿وَنَـٰدَيْنَـٰهُ أَن يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ ٱلرُّءْيَآ ﴿١٠٥﴾﴾[6].. وهكذا..

ولكن حين يتوجه بالخطاب والحديث للنبي ﷺ فإنه لا يقول له: يا محمد، يا أحمد.. وإنما يتوجه إليه بالحديث قائلاً: يا أيها النبي. اقرأ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾[7].

وقال ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾[8]، وقال له وخاطبه بالرسالة ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْكُفْرِ﴾[9]، وناداه بقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾[10]، وبقوله ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ﴾[11].

قال ابن عاشور في تفسيره: والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم المعروف عند المتكلم، ولا يترك اسم العلم إلى غيره من وصف أو إضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم، نحو: يا أيها النبي، يا أيها الرسول، أو ملاطفة وتقرب كما تقول: يا بني، يا أبت، يا أيها المزمل، يا أيها المدثر. فإذا نودي المنادى بوصف هيئة من لبسة أو ضجعة أو جلسة كان المقصود

---

(١) طه: ١١.

(٢) الأعراف: ١٤٤.

(٣) ص: ٢٦.

(٤) مريم: ٧.

(٥) مريم: ١٢.

(٦) الصافات: ١٠٤-١٠٥.

(٧) الأحزاب: ٤٥.

(٨) المائدة: ٦٧.

(٩) المائدة: ٤١.

(١٠) المزمل: ١.

(١١) المدثر: ١.

التلطف. فيسمون الشخص وينادونه باسم مشتق من حالته التي هو عليها كقول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب ـ حين غاضب فاطمة وذهب فاضطجع في المسجد وقد علق تراب المسجد بجنبه ـ: قم يا أبا تراب.

وقوله ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: قم يا نومان، وقوله ﷺ لعبد الرحمن بن صخر الدوسي وقد رآه حاملاً هرة صغيرة في كمه: يا أبا هريرة؛ ولذلك قال صاحب اللباب[1] في خطابه تعالى لنبيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ﴾ إنه تأنيس وملاطفة؛ ليستشعر أنه غير عاتب عليه، وفي ذلك فائدة أخرى، وهي التنبيه على كل متزمل راقد ليله أن يسرع إلى قيام الليل، وذكر الله تعالى فيه؛ حتى يشترك في العمل مع المخاطب (الرسول) كل من عمل ذلك العمل واتصف فيه.

قال النخعي: كان النبي ﷺ متزملاً بقطيفة عائشة بمُرط طوله أربعة عشر ذراعاً، تقول عائشة: نصفه عليَّ وأنا نائمة ونصفه على النبي ﷺ وهو يصلي، والله ما كان خزّاً ولا قزّا ولا مِرعزاء ولا إبريسماً ولا صوفاً، كان سُداه شعراً ولُحمته وبراً.

إذاً، كل الرسل ناداهم الله بالمشخص العلمي الذي لا يعطي إلا التشخيص، ولكن رسول الله ﷺ خاتم الرسل ما ناداه الله باسمه أبداً، إنما ناداه الله بالوصف الزائد عن مشخصات الذات كما يقول العلماء.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ﴾، الجميع رسل لا شك في ذلك، وكلهم مكرمون، ولكن الله أراد أن يبلغنا أن محمداً ﷺ هو الرسول الذي جاء ناسخاً للكل، ومؤمناً بالكل، وهو الرسول الذي تقوم عليه الساعة، فهو الذي يستحق النداء بالوصف الزائد عن مشخصات الذات؛ ذلك لأن السيد إذا دعا أحد عبيده بأوصافه المَرضِيَّة، وأخلاقه العَلِيَّةِ ودعا غيره من العبيد باسمه العلم الذي هو مجرد من الأوصاف الجليلة، دلّ على أن المنادى بأوصافه المَرْضِيَّة أعز عنده ممن لم يناده إلا باسمه العلم، ولذلك خاطب الله المؤمنين خطاباً صريحاً بألا يقولوا: يا محمد ويا أحمد بل عليهم أن يقولوا: يا رسول الله، يا نبي الله، وإن مناداته ﷺ بأسمائه الأعلام، نوع من الحرام في الأحكام.

---

(١) اسم كتاب.

بل ولا يقف الأمر عند هذا الحد من التكريم، وإنما تجد أن الله تعالى حين يُقسم على أمر ليؤكده، فإنه يُقسم بأشياء كثيرة ومن أجناس شتى من جماد وحيوان.. وملائكة ولكننا لم نره ـ عز وجل ـ أقسم بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ حيث قال تعالى: ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ (١).

قال القاضي عياض: اتفق أهل التفسير أن هذه الآية هي قسم من الله تعالى بحياة النبي ﷺ تشريفاً له.

قال أبو الجوزاء عن ابن عباس قال: ما خلق الله نفساً أكرم على الله من محمد ﷺ، وما أقسم بحياة أحد إلا بحياته.

قال البروسوي: وقد أقسم الله بالنبي ﷺ في قوله ﴿ لَعَمْرُكَ ﴾؛ ليعرف الناس مكانته عند الله تعالى، فالقسم: إما لفضيلة، وإما لمنفعة. مثل والتين والزيتون.. فكأن حياته ﷺ لها مكانة ومقام رفيع عند الخالق سبحانه وتعالى. ولعَمرك: أصلها: عُمُرك، وفتحت العين لكثرة الاستعمال للخفة على اللسان والتقدير: لعمرك قسمي، ومعناه وبقائِك يا محمد ﷺ.

وحينما يصف الله تعالى رسوله الأمين بقوله في سورة القلم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾(٢) فليس المراد هنا بالخلق ما تعارف عليه الناس من خُلق البشر.. ولكن المقصود هو الخُلق الذي يصلح لتحمل رسالة الخالق عز وجل. ـ وعلى ـ تفيد الاستعلاء، فدلت على أنه ﷺ مشتمل على الأخلاق الحميدة، ومُستَولٍ على الأفعال المُرضِيَة حتى صارت بمنزلة الأمور الطبيعية له ﷺ، ولهذا قال تعالى ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ (٣) أي المتصنعين فيما يظهر لكم من أخلاقي، وما عرفتموني قط مدّعياً ما ليس عندي، ولا متصنعاً أتحلى بما لست من أهله؛ لأن المتكلف لا يدوم أمره طويلاً بل ينكشف، ويرجع إلى طبعه ولذلك قالوا:

كلُّ امرئٍ صائرٌ يوماً لشيمتِهِ   وإن تَخَلَّقَ أخــــلاقاً إلى حين

وقد روي في الآثار: أن للمتكلف ثلاث علامات: ينازع من فوقه، ويتعاطى ما لا ينال، ويقول ما لا يعلم.

---

(١) الحجر: ٧٢.

(٢) القلم: ٤.

(٣) ص: ٨٦.

وقد روى الدار قطني: أن النبي ﷺ مر في بعض أسفاره على رجل جالس على مقراة له[1]، فقال له عمر: يا صاحب المقراة: أولغت لسباع اليوم في مقراتك، فقال له النبي ﷺ: «**يا صاحب المقراة لا تخبره، هذا متكلّف، لها ما حملت في بطونها، ولنا ما بقي شراب طهور**»، فالظاهر كانت درساً لعمر، فقد روى مالك في الموطأ أن عمر رضي الله عنه خرج في ركب مع عمرو بن العاص حتى ورد حوضاً، فقال عمرو بن العاص: يا صاحب الحوض: هل ترد السباع حوضك؟ فقال عمر: يا صاحب الحوض لا تقل لنا فإنا نرد على السباع وترد علينا.

وتلاحظ أن الآية أفردت (الخلُق) ووصفته بالعظيم كما وُصف القرآن بذلك في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴾[2] لينبه على أن ذلك الخُلُق الذي هو عليه ﷺ جامع لمكارم الأخلاق، حيث اجتمع فيه: شكر نوح، وخلّة إبراهيم، وإخلاص موسى، وصدق وعد إسماعيل، وصبر يعقوب وأيوب، واعتذار داود، وتواضع سليمان وعيسى، وغيرها من أخلاق الأنبياء جميعاً. كما قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[3]، إذ ليس هذا الهدى معرفَة الله تعالى؛ لأن هذا تقليد وهو غير لائق برسول الله ﷺ، ولا المقصود بذلك الاهتداء بشرائعهم، لأن شريعته ﷺ ناسخة لشرائعهم، ومخالفة لها في الفروع ، بل المراد منه أن يقتدي بكل منهم فيما اختص به من الخُلُق الكريم.

فلما أمِرَ ﷺ بذلك: ﴿ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾، فكأنه ﷺ أُمِر بجمع جميع ما كان متفرقاً فيهم، فهذه درجة عالية لم تتيسر لأحد من الأنبياء، فلا عجب إذا وصفه ربه عز وجل بقوله: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾[4]. ولذلك قالوا:

لِكُلِّ نبيٍ في الأنامِ فضيلةٌ ... وجُملتُها مجموعةٌ لمحمدِ

---

(١) حوض يجمع فيه الماء.

(٢) الحجر: ٨٧.

(٣) الأنعام: ٩٠.

(٤) القلم: ٤.

الفصل الثاني
خير في ذاته ﷺ هو خير الكمالات المتعددة

قال العلماء: إذاً فالرسول قد حصل على شهادة الحق ـ عز وجل ـ بأنه على هذا الخلق العظيم القويم. فهو بذلك مؤَهَّلٌ لأن يكون رسولاً من الله يحمل منهجاً، والله يعلم أن هذا المنهج يقيد بعض تصرفات الناس وشهواتهم، والناس دائماً يألفون شهوات النفس، ويميلون إليها، وعندها تطرأ عليهم الغفلة، وحينما تطرأ هذه الغفلة ينسى الإنسان شيئاً من المنهج، وبخاصة عندما يكون المجتمع جاهلاً جاهلياً كمجتمع قريش قبل الرسالة الخاتمة رغم وجود بعض البلغاء والفصحاء بالفطرة هنا، وعند ذلك تتدخل السماء بالمنهج وهو القرآن وترسل رسولاً هو هنا خاتم الأنبياء محمد ﷺ.

ومعنى الخاتم: أن الله أودع في أمته خصائص تقوم مقام تعدد النبوات والرسالات. وما دام محمد ﷺ خاتم الأنبياء ورسالته، خاتم الرسالات؛ فلا بد أن تكون هذه الرسالة متضمنة لعناصر البقاء، وأن تكون أمته ﷺ متضمنة عناصر الحفاظ على هذه الرسالة.

من هنا قال ﷺ: «**الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة**».

والخير الموجود في ذات الرسول ﷺ هو خير الكمالات المتعددة. أما الخير في أمته ﷺ فهو موزع بين الأمة، فلا يمكن لفرد أن يحوز كل صفات الكمال المحمدي. فكماله ﷺ موزع في أمته:

- فواحد يتمتع بصفة كانت موجودة في رسول الله ﷺ.
- وآخر يتمتع بصفة أخرى كانت موجودة في رسول الله ﷺ.
- وثالث يتمتع بصفة ثالثة كانت موجودة في رسول الله ﷺ بحيث إذا تجمّعت أمة محمد ﷺ على منهج رسول الله ﷺ فقد اكتمل فيها خلقه ﷺ وصفاته وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى في سورة الأحزاب: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (١).

وقالت فيه عائشة ـ رضي الله عنها ـ: كان خُلُقُهُ القرآن ، ورحم الله عياضاً حيث قال: لا

---

(١) الأحزاب: ٢١.

خلاف على أنه ﷺ أكرم البشر، وسيد البشر، وأفضل الناس منزلة عند الله تعالى، وأعلاهم درجة وأقربهم زلفى.

روى الطبراني والبيهقي في الدلائل عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله تعالى قسم الخلق قسمين فجعلني من خيرهم قسماً**»، فذلك قوله تعالى في سورة الواقعة ﴿ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡيَمِينِ ٢٧ فِي سِدۡرٖ مَّخۡضُودٖ ٢٨ وَطَلۡحٖ مَّنضُودٖ ٢٩ وَظِلّٖ مَّمۡدُودٖ ٣٠ وَمَآءٖ مَّسۡكُوبٖ ٣١ وَفَٰكِهَةٖ كَثِيرَةٖ ٣٢ ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿ ثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأَوَّلِينَ ٣٩ وَثُلَّةٞ مِّنَ ٱلۡأٓخِرِينَ ٤٠ وَأَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ٤١ فِي سَمُومٖ وَحَمِيمٖ ٤٢ ﴾[2] وقال ﷺ: «**فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير أصحاب اليمين**» ثم قال ﷺ: «**ثم جعل القسمين أثلاثاً، فجعلني خيرها ثلثاً**» وذلك قوله تعالى: ﴿ فَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَيۡمَنَةِ ٨ وَأَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ مَآ أَصۡحَٰبُ ٱلۡمَشۡـَٔمَةِ ٩ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ١٠ ﴾[3]، «**فأنا من السابقين وأنا خير السابقين، ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة**» وذلك قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ ١٣ ﴾[4]. «**فأنا أتقى ولد آدم وأكرمهم ولا فخر، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني من خيرها بيتاً**» فذلك قوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا ﴾[5].

وعن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل بني كنانة، واصطفاني من بني كنانة..**»[6].

وعند الترمذي من حديث أنس أنه ﷺ قال: «**أنا أول الناس خروجاً إذا بعثوا، وأنا قائدهم إذا وفدوا، وأنا خطيبهم إذا أنصتوا، وأنا شفيعهم إذا حُبسوا، وأنا مبشرهم إذا أيسوا، والكرامة والمفاتيح بيدي ولواء الحمد يومئذ بيدي، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر**».

---

(١) الواقعة: ١٧-٣٢.

(٢) الواقعة: ٣٩-٤٢.

(٣) الواقعة: ٨-١٠ .

(٤) الحجرات: ١٣.

(٥) الأحزاب: ٣٣.

(٦) رواه أحمد، وانفرد به مسلم أيضاً.

وأخرج الدارمي والترمذي من حديث ابن عباس أنه ﷺ قال: «**أنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر**».

وأخرج البيهقي من حديث عائشة أن النبي ﷺ قال: «**أتاني جبريل فقال: قلبت مشارق الأرض ومغاربها فلم أر رجلاً أفضل من محمد ﷺ، ولم أر بني أب أفضل من بني هاشم**»، وعند الشيخين أن النبي ﷺ أُتي بالبراق ليلة الإسراء فاستصعب عليه ﷺ فقال له جبريل: بمحمد تفعل هذا؟ فما ركبك أحد أكرم على الله منه.

قال فارفضَّ البراقُ عرقاً. وما أجمل قول الشاعر يشير إلى هذا الحديث:

عرق البراق وقد أراد محمد	يعلو عليه لأجل جُلِّ مصالحِهْ
فكأنه لنفاره خجلاً غدا	لتأسف يبكي بكل جوارحِه

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**أعطيت خمساً لم يعطهن نبي قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لنبي قبلي وأُرسلت إلى الناس كافة، وأعطيت الشفاعة**».

قال العلماء: وهكذا كان اختيار الله لمحمد ﷺ ليحمل الرسالة الخاتمة. وما أعظم قوله تعالى في سورة الأنعام يشير إلى هذا المعنى بقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(١).

قال المفسرون: إن الوليد بن المغيرة قال: والله لو كانت النبوة حقاً لكنت أولى بها منك يا محمد؛ لأني أكبر منك سناً، وأكثر مالاً وولداً. وقال مقاتل: قال أبو جهل: زاحَمْنا بني عبد مناف في الشرف، أطعموا فأطعمنا، كسوا فكسونا، ذبحوا فذبحنا، حتى إذا صرنا كفرسي رهان قالوا: منا نبي يوحى إليه؟!! والله لن نؤمن به ولن نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، ﴿لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ﴾(٢) ويأتي الجواب للجميع: لا تقترحوا على الله ذلك. ﴿الله أعلم حيث يجعل رسالته﴾. كأن الوليد بن المغيرة لم يعلم أن الرسالة ليست رئاسة. فإذا كنت (يا وليد)

---

(١) الأنعام: ١٢٤.

(٢) الأنعام: ١٢٤.

عندك من المال والأولاد والزوج ما ليس عند غيرك؛ فإنك لست على خلق محمد ﷺ الذي فطره الله عليه وأعـده واصطفاه لذلك.

ومع ذلك كلّه وُجد من قال: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾ (١)، وهو قول لأهل مكة أرادوا به الوليد بن المغيرة، أو عروة بن مسعود الثقفي بالطائف ونسمع رد القرآن: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾ (٢).

وما أجمل قول الشعراوي في هذا المقام حيث يقول: أما تستحون من هذا القول، لقد قسمنا بينكم أموركم الحياتية في طعامكم وشرابكم وسُكناكم في الحياة الدنيا. فالعاجز عن إطعام نفسه وسقيها كيف لا يستحي أن يعترض على الله في اختياره لمن هو أهل لنبوته ورسالته؟ ويقترح عليه غيره ـ غير هذا الرسول ـ.

ثم هناك أمر هام ينبغي أن ننتبه له في الآية الكريمة: ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾ (٣) وهو: أتريدون يا أيها المشركون تقسيم رحمة الله؟ إن هناك فرقاً بين الرحمة في الرسالات، وبين امتداد الحياة بالمال والأقوات.. لأن المال والقوت وغيرها عطاءات ربوبية، لكن الرحمة هي عطاءات إلهية ولئن تميز الوليد بن المغيرة وغيره بمال ومزارع؛ فإن ذلك لا لخصوصية فيكم ولكن لأن نظام الكون كله يحتاج إلى مواهب متكاملة، لا مواهب متكررة؛ ولذلك كان أمر الثروة دولاً.. ولو امتلك كل الناس مثل ما عند الوليد فمن يقوم بالفلاحة لك يا وليد وسرج فرسك؟!!.

فالنبوة تكليف ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، وليس جزاؤها هنا بل من عظمة الجزاء أنه سيكون في الآخرة.

والرسالة جاءت لتنشر خيراً في الجميع وهي تُعفُّ نفسها عن آثار الانتفاع من ذلك الخير، والرسول لا يناله من هذا الخير إلا البلاغ به؛ ولذلك فالرسول مأمور ألا يأخذ أهلُه من الزكاة

---

(١) الزخرف: ٣١.

(٢) الزخرف: ٣٢.

(٣) الزخرف: ٣٢.

وأن ما تركه من مال فهو صدقة ولا يرثه أحد من أهله؛ ولذلك فالرسول مأمون على الرسالة.

أما غير الرسول: فهو يريد أن يأتي له الخير ثم يترك بعضاً من الخير للناس، وهكذا كان رؤساء قريش.. إطعام وذبائح؛ ولذلك انظر إلى جمال خاتمة الآية: ﴿ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴾.

فالرسالة وما أعد الله لصاحبها في الآخرة خير من ملك الدنيا كلها. ورحم الله صاحب (التيسير) إذ يقول: وغاية السَّفه أن يُقال لرجل آمِنْ. فيقول: لا أؤمن حتى يجعلني الله نبياً.

وقوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾، قال صاحب اللباب: في الآية تنبيه على أن ما لابد منه في حصول النبوة والرسالة؛ البراءة من المكر والخديعة والغل والغدر والحسد. وقولهم: ﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ﴾ عين المكر وعين الحسد والخديعة، فكيف تحصل لهم النبوة والرسالة على هذه الصفات الذميمة؟!

قال صاحب التحرير والتنوير: وقد أفادت هذه الآية أن الرسالة ليست مما يُنال بالأماني ولا بالتشهي، ولكن الله يعلم من يصلح لها ومن لا يصلح؛ فإن النفوس متفاوتة في قبول الفيض الإلهي، متفاوتة في الاستعداد والطاقة على الاضطلاع بحمله.

ثم قال: فلا تصلح للرسالة إلا نفس خُلقت قريبة من النفوس الملكية، بعيدة عن الرذائل الحيوانية، سليمة من الأدواء القلبية.

ثم قال رحمه الله تعالى: وفي الآية بيان لعظيم مقداره ﷺ، وتنبيهٌ لانحطاط نفوس سادة المشركين عن نوال مرتبة النبوة، وانعدام استعدادهم،كما قيل في المثل (ليس بعشك فادرجي).

ولذلك قال علماؤنا: كان منظره ﷺ يوحي لمن يراه أنه أمام نبي. فقد أخرج الترمذي عن عبد الله بن سلام قال: لما قدم النبي المدينة جئته لأنظر إليه، فلما استبنت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب. وعن أبي رمثة التميمي قال: أتيت النبي ﷺ ومعي ابن لي فأُريته، فلما رأيته قلت: هذا نبي الله.

قال العلماء: أول ما يقع بصر الإنسان على رسول الله ﷺ يشعر أنه أمام جمال مدهش، وهيبة لا مثيل لها، ومظهر يوحي بثقة مطلقة. فهذا الجمال، وهذه الهيبة تُشعران بذلك.

أخرج الدارمي عن جابر بن سمرة قال: رأيت النبي ﷺ ليلة أُضحيانة(١) فجعلت أنظر إليه وإلى القمر، فلهو كان في عيني أحسن من القمر.

وأخرج الدارمي والبيهقي والطبراني وأبو نعيم عن أبي عبيدة قال: قلت للرُبيّع بنت معوذ: صفي لي رسول الله ﷺ قالت: لو رأيتَه قلت الشمس طالعة. وللدارمي من حديث ابن عمر قال: ما رأيت أشجع ولا أجود ولا أوضأ من رسول الله ﷺ.

وأخرج المديني عن أمد بن أبد الحضرمي قال: رأيت رسول الله ﷺ فما رأيت قبله ولا بعده مثله.

وهذه الكمالات في محمد ﷺ رافقته ﷺ من أيام طفولته حيث كانت هذه الطفولة زاخرة بالكمالات الدالة على اختيار الله تعالى له، وأذكر في هذا المقام مثالاً واحداً طلباً لكمال محبته ﷺ، وبحثاً عن اليقين به وبرسالته ﷺ، وهو الاستسقاء به وهو طفل، فقد روى الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مختصره للسيرة ناقلاً عن ابن عساكر عن جُلهُمة بن عُرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق. فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دَجْن تجلت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة، ثم رفع الغلام بين يديه وما في السماء قزعة، فأقبل السحاب من هاهنا وهاهنا، وأغدق، وانفجر الوادي، وأخصب الغادي والبادي..

وفي هذا قال أبو طالب:

وأبيضَ يُستسقى الغمام بوجهه ثمال(٢) اليتامى عصمة(٣) للأرامل(٤)

قال صاحب كتاب (هذا الحبيب يا محب): هذه إحدى الكرامات الإلهية للحبيب ﷺ، وهو مظهر من مظاهر كمالاته ﷺ؛ إذ ألهم الله أبا طالب أن يستسقي به ﷺ وهو طفل، فيأخذه

(١) مقمرة.

(٢) غياث اليتامى وملجأهم.

(٣) عصمتهم: أي يسد حاجتهم ويحفظهم من الضياع.

(٤) الأرامل المساكين من الرجال والنساء.

ويأتي به إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها، ويرفع الغلام بين يديه ولسان حاله يقول: ربنا اسقنا فقد توسلنا إليك بهذا الغلام المبارك، فيسقيهم الله تعالى حتى يجري واديـهم، وتُخصب أراضيهم. فكانت هذه من طلائع النبوة وتباشيرها، وتوسلهم به ومحبتهم له ﷺ وتعظيمهم له، فلذا سقاهم الله تعالى.

ونحن حين نقرر مظاهر الكمالات النبوية نقررها حتى يتعلق القلب به ﷺ، ليكون ﷺ أحبَّ إلينا من أنفسنا وأهلينا والناس أجمعين، وحتى نـترك مـا نحب من أجــل المحبوب ﷺ، وبذلك تتم الطاعة لرسول الله ﷺ، والمتابعة لكل ما جاء به من عقيدة وعبادات، وخلق وأدب ومعاملات، وهذه هي الغاية التي يريدها الصالحون. ورضي الله تعالى عن عبد الله بن رواحة حينما وصف النبي ﷺ فقال:

لو لم تكن فيه آيات مبينة   لكان منظره يُنبيكَ بالخبر

فكل من رآه ﷺ حتى في طفولته أدرك أن له شأناً. فقد حدث ابن إسحاق: أن رجلاً من لِهْب ـ ولِهب من أزد شنوءة ـ كان عائفاً، فكان هذا الرجل إذا قدم مكة أتاه رجال قريش بغلمانهم ينظر إليهم، ويعتاف لهم فيهم. قال: فأتى به أبو طالب وهو ﷺ غلام مع من يأتيه، فنظر الرجل إلى رسول الله ﷺ ثم شغله عنه شيء، فلما فرغ قال: الغلامُ، عليَّ به، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه، فجعل الرجل يقول: ردوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفاً، فو الله ليكونن له شأن. قال فانطلق أبو طالب.

الفصل الثالث
تفرغ ساعة في الأسبوع لدراسة سيرة الرسول ﷺ

أخي الكريم: يا عبد الله: إنك تنفق كل وقتك في هموم دنياك فهلا تفرغت لهذه الساعة معنا لدراسة سيرته ﷺ لتعلم ثم تعمل، فالأجر لك إن عملت بما علمت، واسمع إلى ما ورد عن مكحول قال: حدثني عشرة من أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: إنا كنا ندرس العلم في مسجد قباء، إذ خرج علينا رسول الله ﷺ فقال «**تعلّموا ما شئتم أن تعلّموا، فلن يأجركم الله حتى تعملوا**».

وقال إبراهيم بن أدهم: مررت بحجر مكتوب عليه، اقلبني تعتبر، فقلبته فإذا عليه: أنت بما تعلم لا تعمل، فكيف تطلب علم ما لم تعلم؟ وقال عيسى ـ عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ـ: (من تعلم وعلم وعمل فذلك يدعى عظيماً في ملكوت السماء).

ثم أنت ـ أخي الكريم ـ بالعلم بسيرته ﷺ، تدرك أنه ﷺ بشر مرسل مؤيد بالوحي، وتعلم أن كل رسول متصف بسمو الفطرة، وصحة العقل، والصدق، والعصمة من كل ما يشوه السيرة البشرية، وسلامة البدن مما تنبو عنه الأبصار، وقوة الروح فلا يسيطر عليه نفس إنسانية أو جنّية لأن الوحي الإلهي يمده. أما فيما عدا ذلك فالرسول بشر، فهو يأكل ويشرب وينام، ويتزوج، ويمرض، وقد ينسى في أمر لا علاقة له بتبليغ الرسالة، وقد يخطئ في تصريف بعض الأمور الإنسانية التي تدخل في باب الاجتهاد المأذون به، ولكنه يُنبّه للخطأ عن طريق الوحي حتى لا يكون الخطأ بمقتضى التأسي به هو الصواب. وقد تمتد إليه أيدي الظلمة، وقد يُعذَّب، وقد يُقتل الأنبياء مَنْ لم يؤمروا بالجهاد.كل ذلك لتكون حياته ﷺ دستوراً لنا في شؤون الحياة كلها، ولذلك قال تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾[(١)].

لأن حياته ﷺ كلها تقدم لنا نماذج سامية:

- نموذجاً للشباب المستقيم في سلوكه.
- ونموذجاً للباذل كل طاقته في سبيل دعوته.
- ونموذجاً للقائد الذي يأخذ بيد جنده إلى النصر.

---

(١) الأحزاب: ٢١.

- ونموذجاً للمعاشر الفكِه في أهله ـ كما قال علماؤنا ـ وهكذا..

ظاهرتان اجتماعيتان بارزتان في حياته ﷺ

وفي هذا المقام لابد أن نشير إلى ظاهرتين اجتماعيتين كانتا تسودان حياته ﷺ منذ أن ولد إلى زمن زواجه بخديجة حيث كان عمره خمسة وعشرين عاماً في حينها، ونذكر هاتين الظاهرتين؛ لنحمل أنفسنا على التأسي به فيهما؛ لأننا محتاجون في هذه الأزمان إلى هاتين الظاهرتين ـ وإن كنا لا نستطيع أن نبلغ معشار ما كان عليه ﷺ ـ فما هما هاتان الظاهرتان؟ قال العلماء: هاتان الظاهرتان هما:

الأولى: شظف العيش: وهذه الظاهرة الاجتماعية كانت تسود البيئة العربية كلها، ولكنها بالنسبة له ﷺ فقد كان يحمل عنوان هذا الشظف. فقد ورث ﷺ عن والده خمسة أجمال وغُنيمة، وجارية، وهي شيء ضئيل بالنسبة لما تموج به مكة من تجارات مدبرة وأموال مؤثلة.

والتاريخ يذكر لنا أن مرضعات بني سعد أعرَضْنَ عنه لفقره ﷺ، والتاريخ يذكر لنا أنَّ أظآر[1] هوازن زهدن فيه ﷺ وهو ملتف بلفافة في مهده وقلن: يتيم لا مال له فما عسى أن تصنع لنا أمه أو يصنع لنا جده.

وحدثنا التاريخ أن جده وعمه كفلاه حتى اشتدت قناته فرعى الغنم، ثم أجّر نفسه من خديجة يعمل في مالها تاجراً، وهكذا ظل ﷺ يعاني شظف العيش حتى تزوج خديجة.

قال العلماء: ولهذه الظاهرة أثرها العميق في تمحيص الخلق الإنساني العالي في الأفراد الذين تلزمهم هذه الظاهرة أيام الشباب حيث الفترة التي تجتمع فيها القوى، وتتفتح الغرائز. والصبر على ذلك لا تستطيعه ـ كما قال علماؤنا ـ إلا نفس قوية التركيب البنائي.

وهكذا كان محمد ﷺ إذ تعرّض لهذا الامتحان الممحص في بيئة مادية، وعصر مادي وخرج منها ﷺ أكمل الناس إنسانية، وأعظمهم خلقاً،وأضخمهم أمانة، وأبعدهم عن كل عيب؛ حتى ما يستطيع عدو ولا صديق أن يقول فيه: لو، ولا، وليت. ـ كما قال علماؤنا ومؤرخونا عليهم رحمة الله ـ.

ففي حديث رواه أبو نعيم: أن العباس بن عبد المطلب خرج في تجارة إلى اليمن في قافلة

---

(١) أظآر مفردها ظئر وهي المرضعة الحانية على ولد غيرها.

فيها أبو سفيان بن حرب، وكان أبو سفيان يجلس إلى حبر من اليهود، فسأله الحبر عن رسول الله ﷺ فلم يشفه أبو سفيان. قال العباس: فنادى الحبر فجئت فخرجت حتى جلست ذلك المجلس من الغد وفيه أبو سفيان والحبر، فقلت للحبر: بلغني أنك سألت ابن عمي عن رجل منا زعم أنه رسول الله ﷺ وأخبرك أنه عمه وليس بعمه، ولكنه ابن عمه، وأنا عمه وأخو أبيه. قال الحبر: أخو أبيه؟ قلت: نعم أخو أبيه، فأقبل الحبر على أبي سفيان وقال له: صدق هذا؟ قال أبو سفيان: نعم صدق. قال العباس: فقلت للحبر: سلني فإن كذبت فرُدَّ عليّ، (لأبي سفيان)، فقال الحبر: نشدتك: هل كان لابن أخيك صبوة أو سفهة؟ قلت: لا وإله عبد المطلب، ولا كذب، ولا خان، وإن كان اسمه عند قريش الأمين.

الظاهرة الثانية: تكافؤ الخلق: ومعناه: أن أخلاقه ﷺ كلها تنبع من فطرته بنسبٍ متفقة: فصبره مثل شجاعته، وشجاعته مثل كرمه، وكرمه مثل حلمه، وحلمه مثل رحمته، ورحمته مثل مروءته... وهكذا، فلا تجد له خلقاً في الحياة يزيد أو ينقص عن خلق آخر في موضعه منها، ولهذا كان جماع أمره ﷺ الأمين.

قال العلماء: وهذا التكافؤ الخلقي معجزة، لأن الشباب معترك الغرائز، والتكافؤ الخلقي في الشباب ضرب من المُحالات في الحياة، وهذا التكافؤ لم يُعرف لإنسان غيره ﷺ.

هذا التكافؤ لم يصنعه علم، ولا ثقافة من بيئة؛ لأن البيئة لم تكن بيئة علم ولا ثقافة؛ ولذلك تجد التعبير القرآني حين دافع عن محمد ﷺ ومدحه ماذا قال؟ قال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (١). هذا التعبير القرآني يكافئ التعبير الفطري الذي أطلقه عليه ﷺ قومه حين قالوا: الصادق الأمين، والفرق بين التعبيرين هو الفرق بين محمد المرسل رحمة للعالمين ومحمد الشاب الصادق الأمين.

وفي التعبير القرآني ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ يظهر أثر النبوة والرسالة، وهو معنى أشار إليه الأثر الشريف الذي رواه ابن الأثير في النهاية وهو قوله ﷺ: «**أَدَّبني ربي فأحسن تأديبي**».

وتزوجته خديجة وغدا محمد ﷺ بين عشية وضحاها مالُها ماله، وثراؤها ثراءَه عُرفاً ولكن شظف العيش ـ كما قال علماؤنا ـ لم يفارقه ﷺ، وهذا الشظف لم يكن من قلة المال هنا، بل لأن

---

(١) القلم: ٤.

تكافؤه الخلقي طبعه على الزهادة في الحياة المادية المترهلة التي كانت تعيشها قريش.

ومضى محمد ﷺ ـ كما قال علماؤنا ـ أميناً في حياته الجديدة بعد زواجه، مع نفسه، أمينا مع قومه، أميناً مع زوجته، أميناً لماضيه ومستقبله. وهكذا يجب ان يكون العاملون في حقل الدعوة. وكل هذه القيم دفعت العدو أن يُعجَب بالنبي ﷺ قبل الصديق، وهو لم تأته النبوة بعد.

واسمع معي ـ أخي الكريم ـ إلى ما يؤيد ما ذكرناه.

يروي أبو سفيان هذه الواقعة فيقول: خرجت بتجارة من مكة إلى اليمن، ثم عدت بتجارة لقريش من اليمن إلى مكة، وعندما وصلت إلى منزلي جاءني الناس يسلمون عليّ ويسألون عن بضائعهم،حتى جاءني محمد ﷺ وهند عندي تلاعب صبيانها، فسلّم عليّ ورحّب بي وسألني عن سفري ومقامي في اليمن ولم يسألني عن بضاعته، ثم قام. فقلت لهند: والله إن هذا ليعجبني، ما من أحد من قريش له معي بضاعة إلا وقد سألني عنها، وما سألني محمد عن بضاعته. قال أبو سفيان: فبينا أنا أطوف بالبيت بعد أيام إذ بي ألقاه، فقلت له: إن بضاعتك قد بلغت كذا وكذا ـ وكان فيها ربح وفير ـ فأرسل من يأخذها، ولست آخذ منك فيها ما آخذ من قومي!!

قال أبو سفيان: فأبى عليّ، وقال ﷺ: «**إذاً لا آخذها**». قلت: فأرسلْ من يأخذها وأنا آخذ منك مثل ما آخذ من قومي، فأرسل إلي من استلم البضاعة، وأخذت منه ما كنت آخذه من غيره.

ولهذا لما جاءهم ﷺ بالبعثة وكان قبلها يلقب بالصادق الأمين، قال أبو جهل فيما رواه الحاكم ـ وهو صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ـ من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق قال أبو جهل: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١).

وهذا الكلام من أبي جهل من باب الاستهزاء، وهم كما قال الله تعالى لا يعتقدون أنك كاذب؛ لأنك معروف عندهم بالصدق، وكان يلقب بينهم بالأمين؛ ولذلك لما تشاورت قريش في محمد ﷺ قال النضر بن الحارث في شأنه ﷺ: يا معشر قريش قد كان محمد فيكم غلاماً، أرضاكم فيكم، وأصدقكم حديثاً، حتى إذا رأيتم الشيب في صدغيه قلتم ساحر، وكاهن، وشاعر.. ومجنون. والله ما هو بأولئك...

---

(١) الأنعام: ٣٣

قال العلماء: ولأن الآيات التي جاء بها لا يمتري أحد ولا يشك في أنها من عند الله، ولأن دلائل صدقه ﷺ واضحة، فكان الجواب ولكنكم ظالمون. وهذا قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾.

والظالم هو الذي ينكر الحق مع علمه به وذلك هو الجحود. فهم في الحقيقة يكذبون الله بجحود آياته، فانته عن حزنك كقول السيد لغلامه لم يهينوك وإنما أهانوني.

قال العلماء: وأبشع أنواع الظلم نقل الحق إلى غير مستحقه، وهذا هو الشرك؛ لأن الحق سبحانه هو وحده المستحق للعبادة. وهكذا فعل المشركون؛ فقد نقلوا حق الذات الإلهية إلى غير مستحقها من أوثان وأصنام، أما المؤمنون فهم الذين اعترفوا بحقه عز وجل في العبادة.

وهناك ظلم يسميه العلماء كما ذكر ذلك الشعراوي: ظلم الإنسان لاسمه ، وكيف ذلك؟ افرض أن إنساناً سماه والده (صالحاً) أو (مهدياً) أو (محسناً)، ولكنه في الواقع يملأ الدنيا إيذاء وفساداً لنفسه وللآخرين، فنقول كما قال علماؤنا لمثل هذا الإنسان: إن الواجب يقتضي منك أن تحترم أمل والدك فيك، فلا تظلم اسمك (صالحاً)، أو (مُحسناً)...

ولتكن هناك عدالة وتلاؤم بين الاسم والمسمى، وذلك بأن يكون سلوكك متوافقاً مع الاسم الذي سماك به أبوك أو أهلك.

وقد كان مشايخ الأزهر يوصون تلامذتهم عندما ينزلون إلى القاهرة، يقولون لهم: إياكم ان تطؤوا بأقدامكم شارع (عماد الدين) لأن كل الموبقات في هذا الشارع.

يقول أحد هؤلاء العلماء: وتعجبت أن يكون اسم الشارع (عماد الدين) وفيه كل هذه الموبقات فقلت شعراً في ذلك:

وأقبح الظلم بعد الشرك منزلةً ... أن يُظلم اسم مسمى ضَّده جُبلا
فشارعٌ كعماد الدين تسمية ... لكنه لعناد الدين قد جُعلا

ولكن مع ذلك يبقى أقبح درجات الظلم الشرك بالله ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجۡحَدُونَ﴾ قال أبو صالح وقتادة: أي يعلمون أنك رسول الله ويجحدون.

وروى ابن أبي حاتم عن أبي يزيد المدني أن النبي ﷺ لقي أبا جهل فصافحه، فقال رجل

لأبي جهل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ؟!! فقال أبو جهل: والله إني لأعلم أنه نبي ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعاً؟ وتلا أبو يزيد المدني ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ (١).

وذِكْر هذه الكمالات في النبي ﷺ يقصد منها كذلك تعلق القلب به ﷺ ليكون أحب إلينا من كل شيء.. ومن أحب تأسّى وتابع، فلا يشغله عن التأسي والمتابعة شاغل، وهكذا كان السلف.

يروي القرشي: أن عمر بن عبد العزيز لما توفي ولده عبد الملك نزل في قبره فقال له رجل: آجرك الله يا أمير المؤمنين وأشار الرجل بشماله، فقال له عمر: يا عبد الله أشر بيمينك، فقال الرجل: سبحان الله أما في موت عبد الملك ما يشغلك عن هذا؟!! فقال عمر: لا والله ليس في موت عبد الملك ما يشغلني عن نصيحة مسلم.

هنا يظهر الحب، فمن أحبَّ تابع، فعليك بحبه ﷺ وحبِّ من يحبه ويتأسى به ﷺ.

---

(١) الأنعام: ٣٣.

الفصل الرابع
مصدر من مصادر فقه الواقع

ورد عن إبراهيم بن أدهم ـ وكان من المحبين لرسول الله ﷺ ـ قال: رأيت جبريل في المنام وبيده قرطاس، فقلت: ما تصنع؟ قال: أكتب أسماء المحبين، فقلت: اكتب تحتهم: محب المحبين إبراهيم بن أدهم، فسمعت صوتاً يقول: اكتبه في أولهم.

قال العلماء: ومَنْ تابع أحبه الله وآواه في ظل عرشه تعالى. قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾ ﴾[1].

وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله... الحديث.**». يؤكد هذا ما رواه الإمام أحمد عن عطاء بن يسار أن موسى عليه السلام سأل ربه فقال: (إلهي مَن تؤويه في ظل عرشك؟ فقال تعالى: هم الطاهرة قلوبهم، البريئةُ أبدانهم، الذين ينيبون إلى ذكري، ويغضون عن محارمي، ويكلفون بحبي)، وهل هؤلاء إلا الذين أحبوا الله ورسوله، ثم تابعوا الرسول واتبعوه؟! بل وهذا شأن كل محب متابع وهو شأن سلف هذه الأمة. فقد روى أرباب المواعظ أن (عُتبَة الغلام)، قام ليلة على شاطئ البحر فجعل يقول: إلهي إن تعذبني فإني لك محب، وإن ترحمني فإني لك محب، فلم يزل يرددها ويبكي حتى أصبح.

قال ابن القيم في مدارجه: وأمر المحبة يدور على خمسة أمور هي:

١) الصفاء والبياض، ومنه قيل لبياض الأسنان الحبب.

٢) العلو والظهور، ومنه حبب الماء، وحبب الكأس منه كذلك.

قال الشاعر:

حَفَّ كَأسَها الحَبَبُ   فَهِـــــيَ فِضَّةٌ ذَهَبُ

٣) اللزوم والثبات، ومنه حبب البعير إذا برك.

ومنه قول الشاعر:

---

(١) آل عمران: ٣١.

حلت عليه بالفلاة ضربا   ضرب بعير السوء إذْ أحبّا

٤) اللب، ومنه حبة القلب، كلبه.

٥) الحفظ والإمساك، ومنه حِبّ الماء، للوعاء الحافظ له.

ودراسة السيرة إضافة إلى ما مر هي: مصدر من مصادر فقه الواقع لأن السيرة النبوية تبين لنا سيره ﷺ بالدعوة في مراحلها المختلفة، مع ما في هذه السيرة من حثٍّ على التأمل في تاريخ الأمم وأحوالها، ولذلك نلاحظ أنه ﷺ كثيراً ما كان يقول لأصحابه: «**كان فيمن قبلكم**».كما أن دراسة سِيَرِ السابقين تاريخ يبين سنن الله ـ عز وجل ـ في الأمم. تقرأ في سورة فاطر ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ﴾(١)، والأولون: هم السابقون من الأمم الذين كذبوا رسلهم، والكلام للعرب حين كذبوا برسالته ﷺ فقال لهم: ماذا تنتظرون بعد التكذيب إلا العذاب الذي حلَّ بالمكذبين من قبلكم ثم أفصحت الآية عن اطراد سنن الله تعالى في خلقه فقال: ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾(٢)، والتبديل: تغيير الشيء، والتحويل: نقل من مكان إلى غيره، والمعنى: أن من سنن الله تعالى أنه لا تقع الكرامة في موقع العقاب، ولا يُترك عقاب الجاني. وفي هذا المعنى قول الحكماء: ما بالطبع لا يتخلف ولا يختلف.

وقال تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا﴾(٣) أي لن تجد لسنن الله مع الذين خلوا من قبل ولا مع الحاضرين، ولا مع الآتين تبديلا إن هم كفروا أو نافقوا، أو آذوا الرسل أن يؤخذوا ويُقتَّلوا. قال تعالى في سورة يوسف: ﴿لَقَدۡ كَانَ فِي قَصَصِهِمۡ عِبۡرَةٞ لِّأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِۗ﴾(٤).

قال القاسمي: أي في الأنبياء وأممهم، وفي يوسف وأخوته قال في اللباب: العبرة والاعتبار: الحالة التي يتوصل بها الإنسان من معرفة المشاهد إلى ما ليس بمشاهد.

وما أجمل قولهم: إن دراسة الماضي تلقي الضوء على الحاضر. وقالت الحكماء: من لا

---

(١) فاطر: ٤٣.

(٢) فاطر: ٤٣.

(٣) الأحزاب: ٦٢.

(٤) يوسف: ١١١.

يعرف الماضي لن يفقه الحاضر، ومن لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل.

وجميل قول الشاعر:

اقرأ التاريـــخ إذ فيه العبر ضلَّ قومٌ ليس يَدرون الخبر

ثم إن الأمم جميعاً تعتني بحوادثها ووقائعها، وتؤرخ لذلك، والسيرة النبوية مليئة بهذه الوقائع والحوادث. قال خليفة بن خياط في تاريخه: لم يزل للناس تاريخ، كانوا يؤرخون في الدهر الأول من هبوط آدم، فلم يزل الأمر كذلك حتى بعث الله نوحاً، فأرخوا من دعاء نوح قومه، ثم أرخوا من الطوفان، وبقي الأمر كذلك حتى ألقي إبراهيم عليه السلام في النار، فأرخوا من ذلك، ثم أرخت بنو إسماعيل من بناء الكعبة.

وللفرس تاريخ: قال معمر بن المثنى: لم يزل لفارس تاريخ يعرفون أمورهم به، وتاريخ حسابهم إلى هذا اليوم منذ ملك عليهم يزدجرد وذلك سنة ١٦ هـ.

ولبني إسرائيل تاريخ آخر بسببي ذي القرنين. وحدّث عبد العزيز بن عمران قال: كان بنو إسماعيل يؤرخون ببناء الكعبة حتى مات كعب بن لؤي فأرخوا من موته، وما زال الأمر كذلك حتى عام الفيل فأرخوا من عام الفيل، ثم أرخ المسلمون بعد ذلك من مُهاجر النبي ﷺ.

واتفقت كلمة المهاجرين والأنصار على البدء بالتاريخ من هجرته ﷺ، فقد ورد أن أبا موسى الأشعري كتب إلى عمر بن الخطاب أنه تأتينا كتب ما ندري ما تاريخها، فاستشار عمر أصحاب رسول الله ﷺ فأشار بعضهم من المبعث، وأشـار بعضهم من الوفاة، فقال عمر: أرخوا من الهجرة؛ فإن الهجرة فرّقت بين الحق والضلال.

وقال علي: منذ خرج رسول الله ﷺ من أرض الشرك فهو يوم هاجر، وقال ميمون بن مهران: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ أن يكتبوا التاريخ من هجرته.

قال العلماء: ثم إن الأمم تحرص على كتابة سير أفذاذها وتاريخهم لتربية مستقبل أجيالها وبناء ناشئتها على القيم التي ضحى من أجل غرسها أبطالها، وأفضل طريقة لتربية الأجيال تدريس ذلك التاريخ من خلال سيرة هؤلاء العظماء، ومَنْ أعظمُ من رسول الله ﷺ يُتأسى به، ويُسار على هديه وهدي إخوانه وأصحابه؟ ولذلك قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ

ٱقْتَدِهْ ﴾[1]. والآن تعالوا نستعرض أرض النبوة:

أرض النبوة ـ كما قال العلماء ـ بجبال فاران، بالوادي الأمين بالأرض المباركة حيث بني فيها أول بيت للناس كل الناس.

قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾[2]. وفاران: كلمة مُعرَّبة من العبرانية ومعناها مكة، أو جبال مكة، وقد ورد ذكرها في التوراة: (جاء الله من سيناء، وأشرق من ساعير، واستعلن من فاران) مجيئه من سيناء: تكليمه لموسى فيها، وإشراقه من ساعير وهي جبال فلسطين: هو إنزاله الإنجيل على عيسى، واستعلانُه من فاران ـ جبال مكة ـ: إنزاله القرآن على محمد ﷺ.

قال ابن ماكولا: جبال فاران هي جبال الحجاز. وفي الآية رد على اليهود الذين قالوا إن بيت المقدس أقدم قبلة، وقد ذكر ابن كثير عند قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ ﴾[3] قال: كان إبراهيم عليه السلام يذهب في كل وقت يتفقد ولده وأم ولده ببلاد فاران وينظر في أمرهما.

وبكّة: اسم مكة، وهي لغة بإبدال الميم باء في كلمات كثيرة مترادفة، كما في قولهم: ضربة لازب ولازم ، والنميط والنبيط: وهو اسم موضع في الدهناء. ومنه أمر راتب وراتم، وأغبطت الحمى وأغمطت: إذا دامت، وقالوا كذلك: مكة البلد، وبكة موضع المسجد.

قال صاحب التحرير: بكة بمعنى البلدة، ووضع هذا الاسمَ إبراهيم علماً على المكان الذي عيّنه لسكن ولده بنيّةِ أن يكون بلداً. وهو من اللغة الكلدانية لغة إبراهيم، ألا ترى أنهم سموا (بعلبك) أي: بلد بعل وهو معبود الكلدانيين، ويؤيد هذا القول قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا ﴾[4]، وقوله: ﴿ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَٰذِهِ ٱلْبَلْدَةِ ٱلَّذِى حَرَّمَهَا وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ﴾[5]، أي الله الذي حرّم مكة، واكتفى باسم الإشارة (هذه) دون ذكر اسمها؛ لما في

---

(١) الأنعام: ٩٠.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) الصافات: ١٠٢.

(٤) البقرة: ١٢٦.

(٥) النمل: ٩١.

الإشارة من التعظيم. والذي صفة منصوبة (لرب) ليذكرهم _ للمشركين _ بالنعمة عليهم؛ بأن جعلها حرماً لا يُصاد صيدها، ولا يقاتل بها، ولا يختلى خلاها، ولا تُلتقط لُقطتها إلا لمن يُعرِّفها، مع التعريض بضلالاتهم وعبادتهم للأصنام.

وقوله تعالى ﴿ٱلَّذِى حَرَّمَهَا﴾ والتحريم هو المنع والتحريم نوعان:

١ـ نوع يكون كمالاً للمحرَّم، ونوع يكون نقصاً وتحقيراً على اختلاف اعتبار سبب التحريم وصفته.

- فتحريم الزمان والمكان: مزية تفضيل.
- وتحريم الفواحش والميتة: تحقير لها.
- والمحرمات من الرضاع: زيادة تحريم.
- وتحريم المكان: منع ما يضر بالنّازل والحالِّ فيه.
- وتحريم الزمان: كالأشهر الحرم منع ما فيه ضُرٌّ للموجودين فيه.

ثم قال تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١). قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥ كُلُّ شَىْءٍ﴾ حتى لا يفهم أنه رب هذه البلدة فقط، بل له كل شيء خلقاً وملكاً وتصرفاً، وإنما أضافها عز وجل لنفسه تشريفاً.

نقل الواقدي عن مجاهد قال: تفاخر المسلمون واليهود فقالت اليهود: بيت المقدس أفضل وأعظم من الكعبة؛ لأنه مُهاجَر الأنبياء وفي الأرض المقدسة. وقال المسلمون: بل الكعبة أفضل، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ (٢).

ما هذه الأولوية؟ هل تعني أول بناء على الأرض؟ والجواب: لا. ولكنه أول بيت وضع للعبادة الحقة، أي أنه أول بيت وُضع مسجداً، يؤيد هذا ما ورد عن علي فيما أخرجه ابن أبي حاتم في هذه الآية: أن رجلاً سأل علياً: أهو أول بيت؟ قال علي: لا، قد كان قبله بيوت، ولكنه أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى.

---

(١) النمل: ٩١.

(٢) آل عمران: ٩٦.

وورود الفعل (وُضع) مبنياً للمفعول، لبيان أن الذي وضعه غير الناس؛ لأنه موضوع لهم. ولا شك أن الله واضعه بصورة من الصور، فالبيت وضع قبل آدم، وإبراهيم عليه السلام رفع قواعده: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١). والرفع: هو إيجاد البعد الثالث، وهو الارتفاع، فالطول والعرض موجودان والمطموس هو القاعدة والارتفاع.

ثم إنه وُجد في الأرض - قبل رفع إبراهيم للقواعد - أممٌ وعصورٌ كان فيها البنيان مشتهراً من ذلك:

- برج بابل: بني إثر الطوفان.
- وما بناه المصريون كان قبل عصر إبراهيم.
- وما بناه الكلدان في مدينة (أور) بلد إبراهيم قبل رحلته إلى مصر. ومن ذلك: (بيت أصنامهم)، وذلك قبل أن تصير إليه هاجر التي أهداها له ملك مصر. وقد حكى القرآن عن ذلك: ﴿قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُنْيَانًا فَأَلْقُوهُ فِي الْجَحِيمِ﴾ (٢). فالمعنى أنه أول بنيان أقيم ووضع لإعلان التوحيد. وقوله تعالى (مباركاً).

قال الشعراوي: والبركة تعني: أنه ثابت معطٍ بنماء، الذي مهما أخذت منه فإنه ينمو أيضاً. نقول في واقعنا: إن هذا المال فيه بركة: أي مهما صرفت منه فإنه لا ينتهي، فهو ثابت لا يضيع، ويعطي ولا ينفذ، ومنه كلمة (بِرْكَة) نجمع فيها الماء، فنأخذ منها فيأتي إليها ماء آخر، والبيت الحرام مبارك أيضاً. كيف؟

أليست تضاعف فيه الحسنة.. وما أجمل هذا!! أليست تجبى إليه ثمرات كل شيء ولا تنقطع؟ وقديماً كان الذاهب إلى البيت يأخذ معه كل شيء حتى الملح والكفن والإبرة والخيط، والآن الزائر لبيت الله يذهب ليأتي بكماليات الحياة من هناك كما هو مشاهد.

ويقول الله عز وجل فيه: ﴿وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ فما هو الهدى؟ قال علماؤنا: الهدى هو الدلالة

---

(١) البقرة: ١٢٧.

(٢) الصافات: ٩٧.

الموصلة إلى الغاية، ومنه ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾[1]. ثم إن من يزُر المسجد الحرام يخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه، فهل اهتدى إلى الجنة أم لا؟ والجنة مطلوبة والأنبياء حولها يدندنون. كما ورد في الأحاديث.

والأولوية إنما كانت موجبة للتفضيل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ﴾[2] لا بمجرد العبادة فيها؛ إذ الأماكن في ذلك سواء ن، ولكن الأماكن تتفاضل وتكون أولويتها بما يَحُفُّها من طول أزمان التعبد فيها وبنسبتها إلى بانيها، وبحسن المقصد في ذلك (البناء)؛ ولذلك قال تعالى في مسجد (قباء): ﴿لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾[3].

فالمسألة ليست في بناء المسجد، لكن المسألة فيمن يدخل المسجد ويَعمُره، فهذا مسجد بناه المتقون، وهذا الآخر مسجد الضرار بناه المنافقون.

وقد جمعت الكعبة جميع هذه المزايا، فكانت أسبق بيوت العبادة الحقة، فالكعبة أقامها إبراهيم بيده فهي مبنية بيد رسول كريم، أما بيت المقدس فقد بناه العمال لسليمان بأمره مكان المسجد الصغير الذي بناه إبراهيم مع المذبح بعد اندراسه، ولذلك ورد في الصحيحين من حديث أبي ذر قال: قلت يا رسول الله: أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال ﷺ: «**المسجد الحرام**». قلت: ثم أي؟ قال ﷺ: «**المسجد الأقصى**». قلت: كم بينهما؟ قال ﷺ: «**أربعون سنة. ثم أينما أدركت الصلاة بعدُ فصلّه، فإن الفضل فيه**».

---

(١) الليل: ١٢.

(٢) آل عمران: ٩٦.

(٣) التوبة: ١٠٨.

الفصل الخامس
تاريخ إبراهيم عليه السلام

فالكعبة بناها إبراهيم في حدود سنة ١٩٠٠ ق. م وسليمان أقام بناء المسجد الأقصى في حدود سنة ١٠٠٠ ق.م، وكان إبراهيم عليه السلام بعد أن سلّمه الله من النار عزم على مفارقة قومه، والهجرةِ إلى أرض يَعبد الله فيها ولا يُشوش عليه أحد، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (١).

خرج إبراهيم من العراق من قرية يقال لها (كوثى) من بابل، ولذلك لما سأل رجل علياً عن أصلكم معاشرَ قريش قال عليه السلام: (نحن من كوثى)، وأراد بذلك أن نسبنا ينتهي إلى إبراهيم، ثم مر إبراهيم على (أور) قاصداً (حران)، فمكث فيها زمناً وهي مدينة قديمة تبعد عن مدينة (أورفة) على الحدود التركية السورية بمقدار (٤٠) كم وكانت (حران) مركزاً دينياً لعبادة القمر والكواكب، وهي البلد التي ناقش إبراهيم أهلها بعد موعظة ألقاها بأن هذه الكواكب لا تصلح آلهة، ثم توجه إبراهيم بعدها إلى أرض كنعان (بلاد الشام).

قال المؤرخون: ولما مرَّ إبراهيم ببلاد الشام وعده الله تعالى أن يورّث تلك الأرض نسله، وعيّن الله له الموضع الذي سيكون أكبر مسجد تبنيه ذريته، فأقام إبراهيم مسجداً صغيراً شكراً لله تعالى، وجعله عند الصخرة التي جُعلت مذبحاً للقرابين ـ مكان بأورشليم ـ وضرب قبته هناك شرقي بيت المقدس.

وسليمان أقام بناء المسجد الأقصى بعد أن اندثر المسجد الصغير الذي أقامه إبراهيم لأن أهل البلد كانوا مشركين، وهدى الله سليمان إلى مكان الصخرة فأقام بناء المسجد الأقصى عليها وعندها. قال العلماء: وهذا من العلم الذي أهملته اليهود وكان ذلك البناء في حدود سنة (١٠٠٠ق.م).

وقد أخرج ابن ماجه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص أن رسول الله ﷺ قال: «**لما فرغ سليمان من بناء بيت المقدس سأل ربه ثلاثاً فأعطاه اثنتين، وأنا أرجو أن يكون أعطاه الثالثة. سأله حكماً يصادف حكمه فأعطاه إياه، وسأله مُلكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه إياه، وسأله**

---

(١) الصافات: ٩٩.

أن لا يأتي هذا البيتَ أحدٌ يصلي فيه ركعتين إلا خرج من ذنوبه كيومَ ولدته أمه». ورواه النسائي بإسناد أقوى من إسناد ابن ماجه.

قال المؤرخون: لما وصل إبراهيم إلى بلاد الشام كان قد أصابها القحط وعمَّ فيها الجدب، فرحل إبراهيم مع زوجه سارة وابن أخيه لوط إلى مصر، وسكن كل منهما في ناحية من مصر.

وفي مصر حصل له حادث مؤلم مع أحد جبابرتها وهو أول الفراعنة، وهو أحد العماليق من العرب الذين استبدوا بالملك حيناً من الدهر. وكان الرومان يسمونهم: (الهكسوس)، فقرر الخروج من مصر، والذي حمله على ذلك كون سكان مصر كانوا يعبدون الأصنام، إضافة إلى الحادث المؤسف وهو محاولة أخذ زوجه سارة منه، وكان هذا بلاء عظيماً نجى الله منه إبراهيم وزوجه سارة، قال صاحب كتاب حياة إبراهيم: كما كان جمال يوسف بلاءً عليه، كذلك كان جمال سارة بلاء عليها، ولا عجب ـ فسارة جدة يوسف _ وسنحاول إيجاز هذه القصة لما فيها من عبر.

قال صاحب كتاب حياة إبراهيم: كان لهذا الجبار قوادون يصطادون النساء ويأتونه بأخبارهن، فلما رأوا سارة أتوا إليه يهرعون قائلين: هاهي امرأة دخلت أرضك لم يُر أجمل منها، والجبار اسمه سنان أو عمرو، وتُحمل سارة إلى القصر، ولا يستطيع إبراهيم دفعاً عنها، وليس بيده حيلة، والملك أخذ أبهته وزينته، فماذا يفعل إبراهيم؟ أحسَّ أنه لا ملجأ من الله إلا إليه، أليس هو خليل الله، فلماذا لا يلتجئ إلى خليله؟ فقام فالتجأ إلى الله يصلي ويجأر.. هذا من جهته، أما من جهتها فماذا فعلت؟

قامت إلى الوضوء، فتوضأت وصلَّت واشتدت في الدعاء قائلة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تسلط عليّ الكافر. قال المؤرخون: فلما دنا منها غُطَّ أي كُبس حتى كأنه اختنق، ويتكرر المشهد.. والجبار يُغَطُّ حتى يكاد يختنق، فلما يئس قال لِقَيِّمِ حشمه: إنك لم تأتني بإنسان، ولكنك أتيتني بشيطان، ردوها إلى إبراهيم وأعطُوها هاجر.

قال المؤرخون: فرجعت فقالت لإبراهيم: أشَعَرتَ أن الله رد كيد الكافرين وأخدم وليدة؟ وهذا جزء من حديث أخرجه أحمد وهو صحيح. قال ابن كثير: وقد ورد في بعض الآثار

أن الله تعالى كشف الحجاب فيما بين إبراهيم وبين زوجه سارة فكان مشاهِداً لها منذ خرجت من عنده إلى أن رجعت إليه، كان مشاهداً لها وهي عند الملك، وكيف عصمها الله منه، ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقر لعينه، وأشد لطمأنينته؛ فإنه كان متعلقاً بها لدينها، ولقرابتها، ولحُسنها. فقد قيل: إنه لم تكن امرأة بعد حواء إلى زمانها أحسن منها رضي الله تعالى عنها وأرضاها.

ثم قال ابن كثير: وعندما لجأت إلى الصلاة والدعاء عصمها الله تعالى إكراماً لرسوله ولخليله. ومن هنا تدرك سر قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ [(١)].

هنا سؤال: على أي شيء نستعين بهما؟ والجواب: أي استعينوا على ما يستقبلكم من البلاء، وعلى أعمال الآخرة ـ الطاعات والبعد عن المخالفات ـ بالصبر والصلاة كما قال البغوي، ولذلك ـ كان ﷺ إذا حَزَبهُ أمرٌ فزع إلى الصلاة ـ[(٢)].

وورد عن عبد الله بن عباس أنه نُعي إليه أخوه قُثَم وهو في سفر فاسترجع، ثم تنحى عن الطريق، فأناخ راحلته ثم صلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقرأ: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾، ويروي ابن بطوطة أنه في إحدى رحلاته تردد على أمير كثيراً..

ثم إن الملك غضب على هذا الأمير وقتله وأمر بقتل كل أصدقائه، وكلِّ مَنْ دخل عليه أو زاره، قال ابن بطوطة: فما شككت أني مقتول، فلجأت إلى الدعاء والذكر، فذكرت الله في يوم واحد ثلاثين ألف مرة بقولي: ـ حسبي الله ونعم الوكيل ـ فو الله فُرِّج عني يومها.

وروي أن النبي ﷺ مرّ بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له ﷺ: «**أشكم درد**» أي: أيؤلمك بطنك؟ قال: نعم، فقال ﷺ: «**قم فصلِّ فإن الصلاة شفاء**»، وورد عن ابن جريج في قوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ﴾ قال: إنهما معونتان على رحمة الله.

وفي رواية البخاري ومسلم وغيرهما من حديث أبي هريرة.. وفيه: فرجَعَتْ ـ أي سارة ـ سالمةً وإبراهيم قائم يصلي، فلما أحس بها انصرف، فقال: مهيم؟ فقالت: كفى الله كيد الظالم وأخدمني هاجر!! قال أبو هريرة: فتلك أمكم يا بني ماء السماء ومعنى العبارة: أيها العرب: تلك: أي هاجر هي أمكم؛ لأن هاجر أم إسماعيل وهو أبو العرب كانوا يعيشون على الأمطار.

---

(١) البقرة: ٤٥.

(٢) أحمد وأبو داوود.

قال المؤرخون: وكانت هاجر نعم الهدية، فهي أم إسماعيل وجدة العدنانيين أجمعين، وذلك لأن سارة وهبت جاريتها هذه إلى زوجها إبراهيم فتسراها فأنجبت منه إسماعيل. وإسماعيل كلمة معناها (إجابة الله)؛ لأن أمه هاجر دعت الله أن يرزقها بولد فكان إسماعيل هو الابنَ البكر لإبراهيم من هاجر القبطية.

وقد ذكر ابن شهاب الزهري أن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب الأنصاري حدّثه أن رسول الله ﷺ قال: «**إذا فتحتم مصر فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً**» قال: فقلت لمحمد بن مسلم الزهري: ما الرحم التي ذكرها رسول الله ﷺ لهم؟ فقال: كانت هاجر أم إسماعيل منهم، وإسماعيل وُلد في أرض الكنعانيين بعد عودة إبراهيم من مصر إلى بلاد الشام، وكان مولده سنة (١٩١٠ ق.م) بين (قادش وبارد).

قال العلماء: ويسوق الله أقداراً إلى أقدار، فتضيق بسارة الدار حيث آلمها أن تلد جاريتها غلاماً زكياً وتُحرم هي من ذلك.

وبإذن من الله يخرج إبراهيم بجاريته (أم ولده) مستخفياً، فتُعفّي هاجر آثار أقدامها مبالغة في إخفاء أمرها، وهناك بالوادي الأمين المحاط بجبال فاران من أرضٍ طيبةٍ مباركة، وتحت دوحة عظيمة وضع إبراهيم هاجر وطفلها تاركاً لهما جراباً من طعام، وسقاء فيه ماء، وقَفَل راجعاً، ونظرتْ إليه هاجر والدهشة تأخذها ثم تقول: إلى من تكلنا يا إبراهيم؟ ثم أردفت قائلة: آللهُ أمرك بهذا يا إبراهيم؟ فأجابها السيد الرحيم: نعم، وردّت عـليه وهي قريرة العين: إذن فاذهب فالله لا يضيعنا. ورجعت إلى ولدها. وذهب إبراهيم عائداً إلى أرض الشام، ولما وصل إلى ثنية كداء ـ وهو جبل بأعلى مكة ـ أقبل على الوادي واستقبل بوجهه نحو البيت ورفع يديه ثم قال: ﴿رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ (١).

قوله: ﴿مِن ذُرِّيَّتِي﴾: إسماعيل وبنوه، وذريته اثنا عشر رجلاً وامرأة، ومنهم عرب الحجاز، ولم يسكن مكة من أولاد إبراهيم إلا إسماعيل، أما الباقون فكانوا في الشام.

قال ابن عباس: وُلد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد له إسحاق وهو

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

ابن مائة واثني عشرة سنة. ﴿بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ﴾ لا أمل في زراعة هذا المكان؛ لأنه مكان صخري لا يصلح للزرع، واختيار المكان لم يكن نتيجة بحث من إبراهيم، ولكنه اختيار رباني، وقوله عليه الصلاة والسلام: (عند بيتك المحرم)، هنا أمر يجب أن ننتبه إليه ـ كما قال العلماء ـ وهو: أن هذا أمر تكليفي، وما دام أمراً تكليفياً فيجب أن تنفذه بعشق ومحبة، لماذا؟ لكي تنال ثوابين: ثواب حب التكليف، وثواب القيام به.

يروى عن الأصمعي(١) أنه قابل رجلاً عند البيت الحرام وهو يقول: اللهم إني قد عصيتك، ولكني أحب من يطيعك، فـاجعلها قربة لي.

قال الشعراوي رحمه الله تعالى: قال الأصمعي: ما يعني، أن الله لا بد أن يغفر لهذا الرجل لحسن مسألته، ذلك أنه رجل أحب التكليف وإن لم يقم به هو، ولكن ذلك يسعده، لذلك نقول لمن يفعل المعصية: لا تَغضب من المطيعين لله، بل افرح بذلك، لأن فرحك بالمطيع لله دليل على أنك تحب التكليف، وإن لم تقدر على فعل هذا التكليف أنت؛ فإن في

حبك للتكليف كرامة؛ ولذلك جاء بعدها ﴿رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾، أي مجيء الناس لهذا المكان لن يكون شهوة سياحة ـ كما قال العلماء ـ ولكن لإقامة عبادة؛ لأنه بيت أقيم لله باختيار الله فلابد أن يُعبد فيه سبحانه، وخصَّ الصلاة بالذكر؛ لأنها رأس العبادات ولابد لمن يقيم الصلاة من إقامة حياتها، والمقوِّم للحياة، الأول: المأكل والمشرب؛ ولذلك دعا إبراهيم: ﴿فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾(٢). ولكن ما علاقة الفؤاد بالقصد إلى ذلك المكان والحج إليه؟

قال العلماء: العلاقة قوية، لأن الهوى من الحجيج هوى قلوبٍ لا هوى جيوب، ونحن نرى أن المؤمن يجمع المال للحج وربما حرم نفسه من كثير من مشتهياتها حتى يوفر مصروف الحج ليحظى بتلك الفريضة؛ ولذلك ورد عن مجاهد وابن عباس: لو قـال الله تعالى: أفئدة الناس لازدحم على البيت فارسُ والروم والترك والهند واليهود والنصارى والمجوس، ولكن قال: (من

---

(١) اسمه عبد الملك بن قريب الباهلي، أبو سعيد أحد أعلام العرب ورواتهم، ولد سنة ١٢٢هـ بالبصرة وتوفي فيها سنة ٢١٦هـ).

(٢) إبراهيم: ٣٧.

الناس) فاختص به المسلمون وكلمة (تهوي) مأخوذة من الأصل الثلاثي الهاء والواو والياء فهوى: يهوي بمعنى سقط من مكان عال دون إرادة منه في السقوط وكأنه مقهور عليه، وإن قلت من هوي يهوى وهذا يعني الحب وهو نتيجة لميل القلوب لا ميل القوالب..

ولذلك ذكر ابن أبي حاتم عند تفسير هذه الآية ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ﴾ قال: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسم، فلذلك ليس من مؤمن ولا مؤمنة إلا وقلبه معلق بحب الكعبة.

وقوله: ﴿وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾، وقد رزق البيت من كل الثمرات وكأنه رزق قادم مفروض. ﴿أَوَلَمۡ نُمَكِّن لَّهُمۡ حَرَمًا ءَامِنٗا يُجۡبَىٰٓ إِلَيۡهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَيۡءٖ رِّزۡقٗا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾[1]. إن الرزق والأمن من الله لا بطاقتهم، وإنك لتندهش لمجيء الثمرات إلى مكة حتى لتدرك كأن هذا الرزق القادم من الله جبايةٌ وأمر مفروض؛ فمثلاً تكون في الطائف وتجد الرمان والعنب.. وتحاول أن تشتريه، فيقال لك: هذا يخص مكة المكرمة فإن أردته فاشتره من هناك ونلاحظ أن فيها ثمرات الفصول الأربعة.

---

(١) القصص: ٥٧.

الفصل السادس
هاجر وزمزم

استعرضنا فيما مضى من المحاضرات أن إبراهيم حمل هاجر وولده إسماعيل إلى جبال مكة بالوادي الأمين، وتركهما هناك بأمر من الله عز وجل، ثم غادرهما ودعا لهما بالدعاء الذي قصه الله علينا في سورة إبراهيم ﴿ رَّبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ .... فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ﴾(١).

وننتقل من حال إبراهيم إلى حال هاجر، فماذا جرى لها؟! تقول الأخبار الصادقة: إن هاجر بعد ذهاب إبراهيم أتت إلى وليدها فأرضعته، ثم أمضت أياماً تأكل التمر وتشرب مما معها من الماء حتى نفد ماء سقايتها، وعطشت وعطش إسماعيل طفلها، ودارت تطلب الماء وكبدها ـ كما قال أهل الأخبار ـ كاد يرفض عطشاً وحزناً وهي ترى طفلها يتلوى من شدة العطش، ثم نظرت فإذا أقرب مكان عال إليها هو جبل الصفا فأتته، ولعلها هربت صاعدة فيه حتى لا ترى وليدها على هذا الحال!!.

صعدت إلى الصفا ونظرت يميناً وشمالاً فلم تر ماء ولا أحداً من البشر، ثم نظرت أمامها فإذا أقرب مكان عالٍ إليها هو جبل المروة، فهبطت ذاهبة إليه، فانتهت إلى أسفل الوادي، فرفعت طرف درعها فأسرعت وخبّت حتى اجتازته، وواصلت سعيها حتى انتهت إلى جبل المروة، فرقيته ونظرت يميناً وشمالاً فلم تر شيئاً، فهبطت عائدة إلى الصفا حتى اكتمل سعيها بين الصفا والمروة ـ وهي تطلب الماء لوليدها ـ سبع مرات، وعندها، وهي مشرفة على المروة، سمعت صوتاً غريباً، فتقول في لهفة: أَسْمَعتَ، أَسْمَعتَ، فـهل من غياث؟ ورمت ببصرها نحو ولدها فإذا برجل قائم على رأس الطفل تحت الدوحة، وما إن دنت منه حتى قال بعقبه هكذا يرفس الأرض، وإذا بعين ماء تفور.

كم كانت فرحتها عظيمة برؤية الماء لسُقيا إسماعيل، ثم أخذت تزُمُّها بالتراب والحجارة وتمنع سيلانها على وجه الأرض خشية أن تنضُب، ولو تركتها على طبيعتها ولم تُحطها بما أحاطتها به من تراب وحجارة لكانت زمزم عيناً معيناً ـ أي جارية ظاهرة ـ كما قال بذلك وأخبر حفيدها

---

(١) إبراهيم: ٣٧.

إمام المرسلين وسيد البشر محمد ﷺ: «**رحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم لكانت عيناً معيناً**» فشربت ـ رضي الله عنها ـ وأرضعت وليدها. وقال ابن عباس: لو تُركت لساحت على الأرض حتى تملأ كل شيء وسُميت زمزم لضم هاجر أم إسماعيل لها حين انفجرت.

وقال المسعودي: والفُرس تعتقد أنهم من ولد إبراهيم الخليل، وقد كانت أسلافهم تقصد البيت الحرام وتطوف به تعظيماً لجدهم إبراهيم، وكان آخر من حج منهم ساسان بن بابك، وكان كلما أتى البيت طاف وزَمزم على هذه البئر، وفي ذلك يقول الشاعر:

زمزمت الفُرس على زمزم   وذاك في سـالفها الأقدم

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك حيث قالوا:

ومـا زلنـا نحـج البيـت قِـدْماً   ونُلقـي بالأبـاطح آمنينـا
وساسـان بـن بابـك سـار حتـى   أتـى البيـت العتيـق بأصـيدينا
وطـاف به وزمـزم عند بئر   لإسماعيـل تروي الشـاربينا

والراجح أنها سميت بذلك لأن هاجر زمَّتها وأحاطتها، وفي هذا قالوا:

وجعلتْ تبني لـه الصّفائحا   لو تـركتْه كان ماءً سافِحا

قال العلماء: ومن سعيِ هـاجر بين الصفا والمروة شُرع السعي استناناً بهـاجر.

وروى أهل التفسير، أن الرجل الذي ظهر لهاجر قال لها: لا تخافوا الضيعة فإن ههنا بيت الله يبنيه هذا الغلام وأبوه، وأن الله لا يضيع أهله.

ولا شك أن هذا الرجل هو مَلَك، وهو جبريل، ولذلك كان من أسماء زمزم: ركضة جبريل، وهزمة جبريل، وهزمة المَلَك، وهي سُقيا الله لإسماعيل، وكان من شعر صفية بنت عبد المطلب:

نحن حفرنا للحجيج زمزم   سُقيـا نبي الله في المحرم
ركض جبريل ولما يُفطم

ولا شك بأن زمزم ماء مبارك، وآية من آيات الله تعالى، ولذلك قال مجاهد: ماء زمزم إن شربت منه تريد شفاء شفاك الله، وإن شربته لظمأ رواك الله، وإن شربته لجوع أشبعك الله. كما روي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق**». قال الشيخ عرجون: وانفجرت الرمال عن الوديعة، فإذا هي زمزم عين لا تغيض، وصدق ظنك يا أم إسماعيل حين قلت لإبراهيم: آلله أمرك به؟ قال: نعم. قالت: إذاً لا يضيعنا الله وفي صلبك وديعة الوجود محمد ﷺ.

قال العلماء: ولهذه القصة ثمرة جنية شهية؛ إنها ثمرة التوكل على الله بتفويض الأمر إليه، والاعتماد عليه، فهذا النبع الثَّرُّ (زمزم) ثمرة توَكُّلها، وحُسن ظنِّها بالله عزَّ وجلَّ كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ﴾ (١). أي كافيه في كل أموره، فيعطيه حتى يقول العبد حسبي، أي يكفيني. والتوكل: سكون القلب إلى الله وطمأنينة الجوارح، وعدم الكره لحكم الله عند ظهور الهوائل والمكاره.

والتوكل ـ كما قال العلماء ـ بعد الحركة، كتوكل الزارع بعد إلقاء الحب في الأرض، وكان السلف يقولون: اتجروا واكتسبوا؛ فإنكم في زمان إذا احتاج أحدكم كان أول ما يأكل دينه، وكانوا إذا رأوا رجلاً في جماعة جنازة ـ وهو صاحب دكان ـ قالوا له: اذهب إلى دكانك، وكذلك كان من أسمائه ﷺ المتوكل. وقد قال الله تعالى له ﷺ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ إِنَّكَ عَلَى ٱلْحَقِّ ٱلْمُبِينِ ۝٧٩﴾(٢).

ولذلك كان مجموع الدين في أمرين:

الأول: أن يكون العبد على الحق في اعتقاده ونيته وقوله، وعمله.

الثاني: أن يكون متوكلاً على الله واثقاً به.

وآفة العبد: إما من عدم الهداية، وإما من عدم التوكل، فمن جمع الهداية والتوكل فقد جمع الإيمان كله. وما أجمل قول الرسل الذين أرسلوا إلى قوم نوح وعاد وثمود، والذين من بعدهم

---

(١) الطلاق: ٣.

(٢) النمل: ٧٩.

حين قالوا: ﴿ وَمَا لَنَآ أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنَا سُبُلَنَا ﴾ (١)؛ ولذلك كان التوكل من عمل القلوب بعد أن تؤدي الجوارح ما عليها من عمل وأخذ بالأسباب، ولذلك قالوا: الجوارح تعمل، والقلوب هي التي تتوكل. قال سهل بن عبد الله: من طعن بالحركة فقد طعن بالسنة، ومن طعن بالتوكل فقد طعن في الإيمان.

وهكذا كان توجيه الرسل لأتباعهم في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴾ (٢)، لأن صفة الإيمان تدخل في صفة التوكل ضمناً، ورحم الله عبد الله بن المبارك حين قال: من أخذ فلساً من حرام فليس بمتوكل. فالتوكل يكون مع الحركة، وقد سئل حمدون القصار عن التوكل فقال: إن كان لك عشرة آلاف درهم وعليك دانقُ دينٍ لم تأمن أن تموت ويبقى عليك الدين في عنقك. وإن كان عليك عشرة آلاف درهم من غير أن تترك وفاءً لم تيأس من الله أن يقضيها عنك.

وما أجمل قول الربيع بن خُثَيم حين قال: إن الله قضى على نفسه: ـ أن من توكل على الله كفاه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ﴾ (٣).

ـ ومن آمن به هداه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴿١١﴾ ﴾ (٤).

ـ ومن أقرضه جازاه، وذلك قوله تعالى: ﴿ إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَٰعِفْهُ لَكُمْ ﴿١٧﴾ ﴾ (٥).

ـ ومن وثق به نجّاه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (٦)

ـ ومن دعاه أجابه وتصديق ذلك في كتاب الله ـ عز وجل ـ حيث قال تعالى: ﴿ وَإِذَا

(١) إبراهيم: ١٢.

(٢) آل عمران: ١٢٢.

(٣) الطلاق: ٣.

(٤) التغابن: ١١.

(٥) التغابن: ١٧.

(٦) آل عمران: ١٠١.

﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ (١)

أسماء مكة: لمكة أسماء كثيرة. قال ابن دريد:

سميت أم القرى لأنها توسطت الأرض، ولأنها تُقصد من كل مكان. قال تعالى: ﴿وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَىٰ﴾ (٢).

وسُميت بالبيت العتيق؛ لأنه عُتق من الجبابرة.

وسُميت القادس؛ لأنها تُقدَّس من الذنوب. أي تطهر.

وسميت لَقاح؛ لأنه لم يطأها الملوك، ولم تدفع إتاوة لملك قط.

وسميت البلد الأمين، كما في قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ (٣).

وسميت الوادي الأمين، وكان ابن أم مكتوم يقول وهو آخذ بزمام ناقة رسول الله ﷺ في الطواف:

يا حبذا مكةَ من وادي أرض بها ... أرضٌ بها أهلي وعُوَّادي

ترسخ أوتادي ... أرض بها أمشي بلا هادي

وسميتْ البلدَ الحرام؛ ولذلك اختارها الله تعالى وهو المنفرد بالخلق والاختيار. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ﴾ (٤). أي: يخلق ما يشاء أن يخلقه، ويختار مما يخلق ما يشاء اختياره واصطفاءه، فكما أن الخلق إليه، فكذا الاختيار له في جميع الأشياء؛ وقديما قالوا:

العبد ذو ضجر والرب ذو قدر ... والدهر ذو دُولٍ والرزق مقسومٌ

والخير أجمع فيما اختار خالقنا ... وفي اختيار سواه اللؤم والشُّومُ

والمراد بقوله: ﴿وَيَخْتَارُ﴾ في الآية الاصطفاء. فهو اختيار بعد الخلق، ولذلك كان النبي ﷺ يدعو ويقول: «**اللهم خِر لي، واختر لي**».

---

(١) البقرة: ١٨٦.

(٢) الأنعام: ٩٢.

(٣) التين: ٣.

(٤) القصص: ٦٨.

قال العلماء: خلق الله السماوات سبعاً واختار العليا منها مقراً للملائكة المقربين، وخلق الجنان وفضّل الفردوس الأعلى وجعل عرشه سقفها، وخلق الأماكن واختار أشرفها وهي مكة البلد الحرام، ولو لم يكن البلد الأمين خير بلاده وأحبها إليه، لما جعل ساحتها مناسك لعباده، وفرض عليهم قصدها، وأقسم بها ﴿لَآ أُقۡسِمُ بِهَٰذَا ٱلۡبَلَدِ﴾ (١). ولما هاجر أبو بكر مع رسول اله ﷺ، وهاجر بلال بعد ذلك، كان أبو بكر إذا أخذته الحمى يقول:

كل امرئ مُصبحٌ في رَحْلِه والموت أدنى من شراك نعله

وكان بلال إذا انقشعت عنه الحمى يقول وقد رفع صوته:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وعندي إذخر وجليل
وهل أرِدَن يوماً مياه مجَنَّةٍ وهل يبدُوَن لي شامةٌ وطفيلُ

ثم يقول: اللهم العن شيبة بن ربيعة، وأمية بن خلف كما أخرجونا من مكة.

وعام الفتح وقف رسول الله ﷺ على جمرة العقبة وقال: «**والله إنك لخير أرض الله، وإنك لأحب أرض الله إلي، ولو لم أُخرَج ما خرجتُ. إنها لم تَحِلَّ لأحد كان قبلي، ولا تحلُّ لأحد كان بعدي، وما أُحلّت لي إلا ساعة من نهار، ثم هي حرام لا يُعضد شجرها، ولا يحتشُّ خَلَاها، ولا تُلتقط ضالتها إلا لمنشد**». فقال رجل: يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لبيوتنا وقبورنا؟. فقال ﷺ: «**إلا الإذخر، من صبر على حر مكة ساعة تباعدت عنه جهنم مسيرة كذا، وتقرب منه الجنة مسيرة كذا**». ووجد على حجر كتاب فيه: أنا الله رب بكة الحرام، وضعتها يوم وضعت الشمس والقمر، وحفظتها بسبعة أملاك حنفاء، لا تُزال أخشابها، ومبارك لأهلها في الحمأ والماء.

ومن فضائل مكة أنها لا تدين بدين الملوك، ولا ملَكَها ملك قط، وقيل:

أَبَوا دِيْنَ الملوك فهم لقاح إذا هِيجوا إلى حربٍ أجابوا

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: لولا الهجرة لسكنتُ مكة، فإني لم أر السماء بمكان أقرب إلى الأرض منها بمكة، ولم يطمئن قلبي ببلد قط ما اطمأن بمكة، ولم أر القمر بمكان

---

(١) البلد: ١.

أحسن منه بمكة.

والآن ننتقل إلى الكلام في بداية أمر مكة.

قال المؤرخون: إن أول ما خلق الله في الأرض مكان الكعبة، ثم دحا الأرض من تحتها فهي سرة الأرض، ووسط الدنيا، وأم القرى، أولها الكعبة، ثم بكةُ حول الكعبة، وحول بكة مكةُ، وحول مكة الحرم، وحــول الحرم الدنيا.

وورد عن ابن عباس قال: لما كان العرش على الماء قبل أن يخلق الله السماوات بعث ريحاً فصفقت الماء فأبرزت عن خَشْفَةٍ في موضع البيت كأنها قبة فدحا الأرض من تحتها فمادت فأوتدها الجبال.

وحدّث القاضي أحمد الطبري بسنده إلى جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب قال: إن أول خَلْق هذا البيت، أن الله قال للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [1]. فقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [2].

قال عز وجل: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [3]، فظنوا أنه عز وجل غضب عليهم، فطافوا بعرش الله سبعاً كما يطوف الناس بالبيت الحرام ويقولون: لبيك اللهم لبيك، ربنا معذرة إليك، نستغفرك ونتوب إليك، فرضي عنهم وأوحى إليهم أن ابنوا لي في الأرض بيتاً يطوف به من عبادي من أغضبني فأرضى عنه.

قال المؤرخون: لما أكرم الله أم إسماعيل بماء زمزم مرت رفقةٌ من قبيلة جرهم وقَطُوراء، وهما قبيلتان يمنيتان، وهما ابنا عم، وهم قحطانيون، وقحطان من ذرية سام بن نوح، مرت هذه الرفقة قريباً من وادي مكة، ومن عادة القوافل أن لها رائداً يرتاد الماء، فرأى الرائد طيراً يحوم فعلم أن هناك ماء، فأتى المكان، فإذا فيه هاجر وولدها وهما إلى جنب ماء زمزم، فعاد الرائد وأخبر رفقته فأتوا الماء واستأذنوا هاجر في النزول معها فأذنت لهم، واشترطت عليهم ألا يكون لهم حق في الماء، فقبلوا الشرط ونزلوا، فكانت هذه بداية لعمارة مكة في العهد

---

(١) البقرة: ٣٠.

(٢) البقرة: ٣٠.

(٣) البقرة: ٣٠.

الإبراهيمي السعيد.

عبرة عظيمة في هذه الفقرة الأخيرة:

قال المؤرخون: نزول جرهم على ماء زمزم واقعة تاريخية ثابتة بالوحي الإلهي كذلك، امرأة غريبة الدار، ضعيفة تملك عين ماء في أرض جرداء، تستأذنها القبيلة بكاملها بما فيها من رجال ونساء فتشترط عليهم لينزلوا بجوارها ـ وهي تحب الأنس ـ أن لا يكون لهم حق في الماء، فيقبلون الشرط ويرضونه، فأين الديموقراطية اليوم؟ وأين العدالة؟ هذه خلة كريمة من خلال العرب في الجاهلية، فكيف بهم لما جاء الإسلام..!!؟ لا شك أنهم كانوا على أكمل من ذلك لولا الصُرفة التي صُرِفوها عن أخلاق دينهم بمكر الثالوث الأسود ـ اليهود والنصارى والمجوس ـ كما قال علماؤنا.

الفصل السابع
عمارة مكة وقصة الذبيح

عِمارة مكة:

وهكذا عُمرت مكة بهاجر وولدها أولاً، ثم بنزول قبيلة جرهم ثانياً.

قال أهل السير: وكبر إسماعيل، وعمل بالصيد ورعي الماشية، فكان يصطاد الظباء والطيور، وجاء إبراهيم عليه السلام يتفقد تركته ويتعهدها. ويلتقي بولده إسماعيل، وكان عمره يومئذٍ ثلاث عشرة سنة، وهناك بمكة عند التقاء إبراهيم عليه السلام بولده رأى رؤيته ـ ورؤيا الأنبياء وحي ـ.

وما هذه الرؤيا؟ ذكرها الله عز وجل حيث قال: ﴿ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ قَالَ يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ ﴾ (١) وقوله: ﴿بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْيَ﴾. يمتد ذلك من سن السابعة إلى الخامسة عشرة؛ وقد ورد عن ابن عباس أن الولد كان في الثالثة عشرة.

وذكر صاحب أيسر التفاسير: أن الرؤيا التي رآها إبراهيم كانت ليلة يوم التروية ـ ثامن ذي الحجة ـ. وسمي بالتروية لأن إبراهيم تروى فيه، ويوم التاسع عَرف أن الرؤيا حق؛ لهذا سمي يوم عرفة، ويوم العاشر خرج إبراهيم بإسماعيل ليذبحه؛ فسمي يوم النحر لذلك، والله أعلم.

قلنا: إن رؤيا الأنبياء وحي وحق، وهنا نريد أن نقف عند هذه العبارة: لا شك أن رؤيا الأنبياء حق ووحي؛ لأن أول ما بُدئ به محمد ﷺ الرؤيا الصادقة، ولكن الأمر المهم الذي يجب أن ندركه أن رؤيا الأنبياء وحي في غير التشريع، وأما أمور التشريع فلم يكن الوحي فيها إلا يقظة مع رؤية جبريل.

إذاً رؤيا الأنبياء وحي في غير التشريع، حيث يرى النبي ﷺ بعض ما يحل بأمته، وما أُعد له ﷺ، أو الكشفَ عما يقع لأمته في المستقبل، فقد رأى ﷺ في المنام أنه يهاجر إلى أرض ذات نخل، ولكنه لم يهاجر بمجرد الرؤيا حتى أُذن له ﷺ بالهجرة، وأَعلَم بذلك أبا بكر. ورأى ﷺ بقراً يُذبحون فأولها من استشهد من المسلمين في أحد.

---

(١) الصافات: ١٠٢.

وأمْرُ الله تعالى إبراهيم بذبح ولده أمْر ابتلاء، لا أمر تشريع، إذ لو كان تشريعاً لما كان نُسخ قبل العمل به؛ لأن ذلك ـ النسخ ـ يُفيت الحكمة من التشريع بخلاف أمر الابتلاء، إذ المقصود من هذا الابتلاء إظهار عزمه ﷺ، وإثباتُ عُلُوّ مرتبته في طاعة ربه، وإلى هذا أشار القرآن الكريم: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴾[1].

قد يقول القائل: لماذا لم يكن هذا الأمر يقظة؟ والجواب: إن هذا الابتلاء برز في صورة الوحي المنامي؛ لأن الأمر لم يكن تشريعاً ـ كما قلنا ـ؛ ولأن الله أراد إكرام إبراهيم بأن لا يزعجه بالأمر بالذبح في اليقظة، فكان الوحي المنامي لا وحي اليقظة.

جاءت الرؤيا، يا إبراهيم اذبح إسماعيل قرباناً لنا؛ ويستشير إبراهيم ولده في ذلك قائلاً: ﴿ إِنِّىٓ أَرَىٰ ﴾ أي هل تصبر على إمضائي أمر الرؤيا؟ بماذا..؟ بذبحك.. أم لا تصبر؟ ويأتي الجواب: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[2].

والله إنك لا تدري بأي الشخصين أنت أشد إعجاباً ـ كما قال صاحب كتاب المستفاد من قصص القرآن ـ أبا لوالد الشيخ إبراهيم المكلف بذبح ابنه الوحيد، أم أنت أشد إعجاباً بهذا الولد النجيب إسماعيل الذي يرُدّ على طلب أبيه، إنني مكلف بذبحك فيقول الولد هكذا بكل بساطة: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ ﴾. ماذا نلاحظ في هذا الجواب؟ نلاحظ: أن صورة الوالد لم تتغير في عين الولد، كما لا تتغير العلاقة فقال: (يا أبت). إنه أبوه وله أن يستشيره في ذبحه.

والعجيب أن إسماعيل لم يكتف بالقبول ساكتاً ـ والسكوت في معرض الحاجة إلى البيان بيان ـ ولم يُبدِ ذعراً، ولا اعتراضاً، ولم يسأل لماذا.. وهو أمر خطير تتعلق به حياته، لم يقل: لماذا؟ وأنا لم أفعل معصية، ولم أقترف جناية، ولا بدر منه عقوق نحو والده!!؟ بل صدر منه ما هو أعجب من ذلك

إنه أراد أن يشجع أباه على المُضيِّ بما أُمر به، وما هو عازم عليه وهو الذبح فقال: ـ مذكراً لوالده إنك تنفذ أمر الله، وأمر الله على الرأس والعين ـ: ﴿ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ ﴾، ثم أراد أن يزيد والده تشجيعاً فيما يُقدم عليه، ويُزيل عن والده ما قد يعتريه من قلق لما قد يظنه فيه (في ولده) من

---

(١) الصافات: ١٠٦.

(٢) الصافات: ١٠٢.

قلة صبر وجزع..

فقال: ﴿سَتَجِدُنِيٓ ..مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾. أوفِ يا أبت ستجدني بمعونة الله صابراً، فلم ينسب لنفسه القوة والصبر حتى يساعد أباه على إتمام ما كلف به.

إذاً وعد الولد والده أن سيكون صابراً، ووفى إسماعيل بهذا الوعد حين أمكن أباه من رقبته، فأثنى الله عليه لهذا الوفاء بما وعد، وذلك قوله تعالى: ﴿ وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا ﴾ (١) كان رسولاً: إلى جرهم وإلى العماليق وإلى اليمن، ولم يكن له كتاب، بل كان على شريعة إبراهيم. قد يقول قائل: كيف خُصَّ إسماعيل بصدق الوعد مع أن الأنبياء كلهم كذلك؟ والجواب: إن إسماعيل عانى في الوفاء بالوعد ما لم يعانه غيره من الأنبياء فأُثْني عليه بذلك.

وانتبه إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ ﴾؛ ففيه إشارة على أن الثناء والمدح إنما يتحقق بصدق الوعد وإتيان الواعد بالموعود، ولا يتحقق الثناء بصدق الوعيد وإتيان المتوعِّد بما تَوَعَّدَ به؛ لأنه لا يُثنى على مَنْ يَصدرُ منه الـمَضَرَّات، بل يُثنى على من يصدر عنه الخيرات، والعرب لا تعُدُّ عيباً ولا خُلْفاً أن يعد أحد أحداً شرّاً ثم لا يفعله، بل ترى ذلك كرماً وفضلاً.

كما قيل:

وإني إذا أوعَدتُه أو وعدتـــه ... لـمَخْلِفَ إيعادي ومنجز موعدي

وقيل أيضاً في هذا:

إذا وعد السراء أنجـــز وعده ... وإنْ أوعد الضراء فالعقلُ مانعه

ومن هنا ذهب بعض العلماء: إلى أن الخُلْفَ في الوعيد جائز على الله تعالى دون الوعد، لأن خُلف الوعيد كرم، وما أجمل قول يحيى بن معاذ في هذا المعنى حيث قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله على ما ضمن لهم تفضلاً منه أن يعطيهم ويثيبهم، ومن أولى بالوفاء من الله؟! والوعيد حقه على العباد. قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا، فإن شاء عفا وإن شاء أخذ لأنه حقه، وأولاهما العفو والكرم؛ لأنه غفور رحيم.

---

(١) مريم: ٥٤.

إذا استجاب إسماعيل: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفۡعَلۡ مَا تُؤۡمَرُۖ﴾، وأراد إبراهيم تنفيذ أمر ربه، فخرج بولده على منى ليذبحه قرباناً لربه حيث أمره، وبدأ التنفيذ وصوّره لنا القرآن الكريم بقوله: ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ﴾(١) أي صرعه على الأرض وكبّه كبّاً.

قال ابن كثير: إنما فعل إبراهيم ذلك ليذبحه من قفاه ولا يشاهد وجهه عند ذبحه ليكون أهون عليه. ثم أخذ المدية ووضعها على رقبته، ثم التفت لصوتِ هاتفٍ فجأة يقول: (اترك ذاك وخذ هذا) وإذا بكبش أملح، فترك الولد وذبح الكبش، فكانت آية الله، وفاز بالرضا كلاهما، الولد، والوالد. (أيهما أصبر؟ وأعلى..). لا شك أنه الوالد...

هنا ملاحظة: أثار أهل الكتاب شبهة، أرادوا بها سلب هذا الفضل عن النبي محمد ﷺ فقالوا: إن الذبيح (إسحاق) لا إسماعيل، والصحيح أنه إسماعيل، لأن الذبح كان بمكة، وإسماعيل هو الوحيد الذي عاش بمكة من أولاد إبراهيم مع هاجر، وسارة كانت بالشام مع ولدها.. أو أولادها.

وقد أشار إلى هذا بعضهم فقال:

إن الـــذبيح – هُـــديتَ – إســـماعيلُ ... نطـــق الكتـــاب بـــذاك والتنزيـــل
شرفٌ بـــه خـــصَّ الإلـــه نبيَّنـــا ... وأتـــى بـــه التفـــسيرُ والتأويـــل
إن كنـــــت أمتـه فلا تنكـــــر لـه ... شـرفاً به قـــــــد خصه التفضيل

عبرة: قال العلماء إن في صبر هاجر على ذبح ولدها، وصبر إسماعيل على ذبح نفسه لآيةٌ دالة على طيب الأم وطيب الولد، وطيب المنبت، ولذلك اختيرا ليكونا جدَّين لسيد المرسلين محمد ﷺ، وإن طَيْبوبةَ الأصول تنتقل إلى الفروع، وقد تزهو الفروع على أصولها.

قال العلماء: وجاء إبراهيم مرة أخرى إلى مكة يتعهد تركته ـ بعد استئذان سارة وقد اشترطت عليه ألا ينزل ـ، وكان إسماعيل قد كبر وتزوج امرأة من جرهم، وكانت هاجر الأم قد توفيت وصل إبراهيم مكة وجاء إلى بيت ولده.. فلم يجده ووجد زوجته وسألها عنه، فقالت: إنه في الصيد، فسألها عن حالها مع زوجها فلم تذكر خيراً. فقال إبراهيم لها: إذا عاد زوجك فأقرئيه السلام..

---

(١) الصافات: ١٠٣.

وقولي له: إن والدك أوصاني أن أقول لك: أن تُغيرّ عتبة بابك.. ثم عاد إبراهيم إلى الشام، ومضت سنون ثم بدا لإبراهيم أن يطّلع على تركته، فجاء مكة، وشرطت سارة ألا ينزل، ودخل على زوج إسماعيل الجديدة، وكان إسماعيل في الصيد، فسألها عن حالهم فأثنت خيراً.. فقال لها: إذا عاد زوجك فأقرئيه السلام.. وقولي له: إن والدك أوصاني أن أقول لك: ثبت عتبةَ بابك.

وتمر الأيام، ويعود إبراهيم إلى مكة ليرى ولده، وتوفيت سارة، فوافق عند وصوله أن رأى إسماعيل من وراء زمزمُ يصلح نبلاً يستعد للصيد تحت ظل دوحة، فلما رأى أباه قام إليه وصنعا ما يصنع الوالد بالولد.. بعد غياب طويل..

وبعد لقاء وحديث طويل. قال إبراهيم: يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر.. فقال إسماعيل: اصنع ما أمرك الله به، قال إبراهيم: وتعينني؟ قال: نعم. وأعينك.

قال إبراهيم: فإن الله أمرني أن أبني هاهنا بيتاً، وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها.

نتائج وعبر: مما سبق نأخذ بعض الدروس التي أشار إليها العلماء:

- الانقياد لأمر الله.
- إسماعيل أسوة للشباب لتكون لهم مثل عليا تملأ عيونهم وقلوبهم وتحملهم على طاعة الله والاستعلاء على الشهوات.
- وفي القصة: تفريج الكربات بإحسان الطاعة ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ أَن يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١٠٥﴾﴾ (١).
- ولابد من التحلي بأخلاق الإسلام ﴿وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ إِسۡمَٰعِيلَۚ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلۡوَعۡدِ وَكَانَ رَسُولٗا نَّبِيّٗا﴾ (٢).
- والقيام بحق الأهل: ﴿وَكَانَ يَأۡمُرُ أَهۡلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ﴾ (٣).
- واستعمال الكنايات في المخاطبات (العتبة)، مشروعية المعانقة عند السفر.

---

(١) الصافات: ١٠٤-١٠٥.

(٢) مريم: ٥٤.

(٣) مريم: ٥٥.

- مشروعية استشارة الوالد ولده في طلب العون.
- يدل ذلك على قِدَم البيت العتيق.

<u>**بناء البيت**</u>: لما وافق إسماعيل أباه على إعانته في بناء البيت، شرع إبراهيم في البناء، وهداه الله ـ عز وجل ـ إلى مكانه الذي كان به قبل الطوفان، وهَدْمِهِ بفعلِ السيول الجارفة، وعدم وجود من يقوم ببنائه، فأخذ إبراهيم يبني وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان ما أخبرنا الله به في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١)

وقوله: السميع: أي يسمع دعاءنا وما نقول، العليم: أي فعلنا ذلك ابتغاء وجهك.

قال العلماء: إن الإنسان لا يمكن أن ينتهي من التكليف ثم يطلب تكليفاً غيره إلا إذا كان قد عشق التكليف ووجد فيه حلاوة واستمتاعاً، ويكون هذا الاستمتاع في التكليف عندما تستحضر ثوابه والنعيم عليه.

فإبراهيم وولده بمجرد انتهائهما من رفع القواعد والبناء قالا: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ﴾(٢) وهذا يدل على أنهما أرادا امتداد حلاوة التكليف إلى ذريتهما من بعدهما: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (٣)، ثم يقولان: ﴿وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا﴾، كيف نعبدك، وكيف نتقرب إليك، فكأن إبراهيم يرغب في فتح أبواب التكليف على نفسه؛ لأنه يرى في هذه التكاليف تطهيراً للنفس، وخيراً للذرية، ونعيماً في الآخرة، ولذلك يقول: ﴿وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (٤). ليس هناك معصية منهما، وإنما عَلِمَا أن من سيأتي بعدهما سيقع في الذنب فطلبا التوبة لذريتهما.. لكن قد يقول قائل: من أين عَلِمَا ذلك؟ والجواب: علما عندما قال الله سبحانه لإبراهيم ﴿قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ (٥).

قال العلماء: لما ارتفع البناء جاء إسماعيل بحجر كبير مرتفع، فصار إبراهيم يعلو عليه،

---

(١) البقرة: ١٣٧.

(٢) البقرة: ١٢٨.

(٣) البقرة: ١٢٨.

(٤) البقرة: ١٢٨.

(٥) البقرة: ١٢٦.

ويواصل رفع البناء حتى فرغ وبقي الحجر تحت جدار البيت، وقد ارتسمت عليه قدما إبراهيم ـ رغم صلابته ـ لتكون آية للعالمين ـ كما ذكر البخاري.

ولما جاء الإسلام شرع الصلاة خلفه، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾ (١).

قال أنس بن مالك: رأيت في المقام أثر أصابعه، وأخمص قدميه، غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم. وهذا الحجر يُعرف اليوم بالمقام، وقد ركع النبي ﷺ في موضعه ركعتين بعد الطواف للقدوم، فكان الركوع عنده من سنة الفراغ من الطواف؛ ولذلك قال قتادة ومقاتل والسُّدي: أمروا بالصلاة عنده ولم يؤمروا بمسحه وتقبيله.

قال ابن كيسان: ـ كما في مُسند أبي الجعد ـ: ذكروا أن رسول الله ﷺ مر بالمقام ومعه عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله أليس هذا مقام إبراهيم؟ قال: بلى، قال: أفلا نتخذه مصلى؟ قال ﷺ: لم أومر بذلك. قال: فلم تغب شمس ذلك اليوم حتى نزلت: ﴿وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى﴾(٢).

---

(١) البقرة: ١٢٥.

(٢) البقرة: ١٢٥.

الفصل الثامن
نتائج مما سبق وبداية أمر الحبيب ﷺ

قال العلماء: ولما فرغ إبراهيم من بناء البيت أمره الله تعالى أن يؤذن في الناس بالحج، وذلك قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ (١)، وقد روي عن ابن عباس وابن جبير: لما فرغ من البناء أُمر بالنداء بالحج، فقال: يا رب وما يبلغ صوتي؟ قال: أذن وعليّ البلاغ، فصعد إبراهيم على جبل أبي قبيس وصاح: يا أيها الناس إن الله قد أمركم بحج هذا البيت ليثيبكم به الجنة، ويُجيركم من عذاب النار فحجوا ، فأجابه من كان في أصلاب الرجال، وأرحام النساء (لبيك اللهم لبيك)، فمن أجاب يومئذ فقد حج على قدر الإجابة، إن أجاب مرة فقد حج مرة، وإن أجاب اثنتين فمرتين، وجرت التلبية على ذلك، ومن لم يجب لا يحج أبداً.

وفي بعض الآثار، أن أول من أجابه أهل اليمن، فهم أكثر الناس حجاً، ولذلك جاء في الحديث [الإيمان يمان]، وكان إبراهيم في أذانه يلتفت يميناً وشمالاً كالمؤذن الآن.

<u>**نتائج مما مر**</u>: نستفيد مما مر أن إبراهيم هو الذي جدد بناء البيت العتيق، وعاونه إسماعيل، وأن البناء كان له قواعد قديمةٌ كان عليها قبل الطوفان، مما يرجح أن البيت كان من عهد آدم، وتلمس ذلك من قوله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (٢)، أي اذكر يا محمد وقت جعلنا مكان البيت (الكعبة) مَبَاءة لإبراهيم عليه السلام أي مرجعاً يرجع إليه بالعمارة والعبادة؛ ولذلك أول ما بدأت الآيات بينت أننا أريناه أصل البيت، ووصيناه أن يطهره من الأقذار المعنوية كالشرك والمعاصي وعدم الإخلاص، ومن الأقذار الحسية كالدماء والنجاسات.

قال تعالى: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾؛ قال سهل التستري: وكما يُطهّر البيت من الأصنام والأوثان، يطهر القلب من الشرك والرِّيب، والغل والرياء، والغش، ولذلك قيل:

---

(١) الحج: ٢٧.

(٢) الحج: ٢٦.

لستُ من جملة المحبين إن لم	أجعل القلبَ بيتَه والمقاما
وطوافي إجالةَ السر فيه	وهو ركني إذا أردت استلاما

فكن حارساً لقلبك ـ يا عبد الله ـ أن تُدخل القاذورات المعنوية المذكورة: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١)

ونستفيد أن ارتسام قدمي إبراهيم على صخرة المقام آية خالدة.

ونستفيد أن الأرواح مخلوقة قبل خلق الأجسام، وأن الملك الموكل بالأرحام يَنفخ الروح في المضغة بإذن الله تعالى فتكون خلقاً آخر؛ إذ تسري فيها الروح فتحيا: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ﴾ (٢).

بداية أمر الحبيب محمد ﷺ: أثناء قيام إبراهيم وإسماعيل برفع قواعد البيت العتيق، كانا يتقاولان ويدعوان. بماذا؟ بَيَّنَه الله في قوله: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٣).

قال العلماء: هذا الدعاء يدل على كمال حال من يدعو، إذ هما في حال البناء، والتعب والعرق، ومع ذلك يسألان الله القبول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ (٤).

وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (٥) أي في ذرية إسماعيل وإبراهيم عليهما السلام فكانت هذه الدعوات مبدأ أمر الحبيب محمد ﷺ، أي أول من ذكره إبراهيم.

وقد قرر النبي ﷺ بنفسه هذه الحقيقة حين سئل عن مبدأ أمره فقال فيما أخرجه الحاكم وصححه من حديث خالد بن معدان قال ﷺ: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشارة أخي عيسى،**

---

(١) الأنعام: ١٦٢.

(٢) المؤمنون: ١٢.

(٣) البقرة: ١٢٧.

(٤) المؤمنون: ٦٠.

(٥) البقرة: ١٢٩.

ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نورٌ أضاءت له بصرى من أرض الشام». وعند الإمام أحمد أنه ﷺ قال: «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك، دعوة إبراهيم، وبشارة عيسى، ورؤيا أمي، وكذلك أمهات النبيين يَرَيْنَ**». وقد استجاب الله دعاءهما فبعث في ذريتهما من أولاد إسماعيل إمام المسلمين محمداً ﷺ.

قال صاحب التحرير والتنوير: ومظهر هذه الدعوة: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا﴾ هو محمد ﷺ فإنه هو الرسول الذي من ذريته، وأما غيره من رسل العرب فليسوا من ذرية إسماعيل. فشعيب من ذرية إبراهيم لا من ذرية إسماعيل. وهود وصالح هما من العرب العاربة، فليسا من ذرية إبراهيم ولا من ذرية إسماعيل.

إسماعيل وذريته: عاش إسماعيل بجوار البيت العتيق مع قبيلة جرهم اليمانية القحطانية، التي ينتهي نسبها إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، سكنوا اليمن ثم تفرقت قبائلهم في الجزيرة والشام، ونبئ إسماعيل فيهم وأُرسل إليهم وإلى كافة أهل الحجاز. وأنجب إسماعيل (نابت)، وهو أكبر أولاده الإثني عشر، ومن نابت كانت حلقة السلسلة الذهبية المحمدية المختارة بدعوة إبراهيم وإسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ﴾ (١)، فكان ﷺ هو الرسول.

وانتبه ـ أخي الكريم ـ إلى دقة التعبير ﴿وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ﴾ ولم يقل لهم، لتكون الدعوة بمجيء رسول الله ﷺ برسالة عامة؛ فلا يكون رسولاً لهم وحدهم. وفي العبارة رد على اليهود كذلك (رسولاً منهم)، الذين أحزنهم أن يكون رسول الله ﷺ من العرب لا منهم من اليهود. ونحن نقول لهم: إن جدَّنا وجدكم واحد (إبراهيم)، وأنتم من ذرية يعقوب، ومحمد ﷺ من ذرية إسماعيل وهو أخ لإسحاق، واحذروا أن تقولوا أننا مختارون على سائر الشعوب، ولكنكم لما ظلمتم وأفسدتم، أراد الله أن يسلبكم هذه النبوة لأنها عهد؛ وعهد الله لا يناله الظالمون، وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ (٢).

والمراد بـ (العهد) هي الإمامة في الدين، وهي النبوة التي حُرِمها الظالمون من أمته،

---

(١) البقرة: ١٢٩.

(٢) البقرة: ١٢٤.

ولذلك لم يُبعث نبي من بعده إلا كان مأموراً باتباع ملته، وكان من ذريته. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ (١).

قال صاحب التحرير والتنوير: وفي الآية تنبيه على أن أهل الكتاب والمشركين يومئذٍ ليسوا جديرين بالإمامة لاتصافهم بألوان الظلم والشرك وتحريف الكتاب وتأويله على حسب شهواتهم؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٢). ما كان إبراهيم يهودياً كما ادعى اليهود، ولا نصرانياً كما ادعى النصارى لأن اليهودية جاءت من بعده، وكذا النصرانية ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾. والحنَفُ: العِوج. والحَنَفُ: الاستقامة كذلك.وأصل الحنف: الاعوجاج في الرجلين. فهل كان إبراهيم في العِوج أو الاستقامة؟

والجواب: إن إبراهيم كان على الاستقامة، ولكنه جاء والعالم معوج ومنغمس في الوثنية، وجاء إبراهيم لَيْخرُجَ على هذا العِوَج، وما دام قد انحرف عن العوج فهو مستقيم.

لماذا انحرف عن العِوَج؟ لأن الرسل لا يأتون إلا لمعالجة فساد عقدي، أو تشريع طاغ، وعندها تتدخل السماء بإرسال الرسل..

فيقال: إن السماء تدخلت على عوج لتعدِّله، وما دام إبراهيم مائلاً عن المائل، وعن العوج فهو مستقيم. فالحنيفية السمحة هي الاستقامة، وهنا نفهم معنى الآية: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا ﴾ (٣)، ثم قال: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ فيه تعريض بأنهم مشركون بقولهم: عزير بن الله، وقول النصارى: المسيح بن الله، ورد على المشركين الذين قالوا: إننا على ملة إبراهيم. ثم قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ (٤). وهنا قرر القرآن حقيقةً كبرى ينبغي أن يعلمها الجميع وهي:

أن أحق الناس بالانتساب إلى إبراهيم والانتماء إليه، هم الذين اتبعوه على منهجه في

---

(١) العنكبوت: ٢٧.

(٢) آل عمران: ٦٧.

(٣) آل عمران: ٦٧.

(٤) آل عمران: ٦٨.

التوحيد والعبادة بها شرع، من أمته وغيرهم، ومحمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء ومن معه عملوا بشريعة محمد الموافقة لشريعة إبراهيم فهؤلاء أولى بإبراهيم ممن جاء من نسله وحرفوا المنهج ولم يواصلوا الإيمان. ﴿وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ أي: بالنصر والمعونة والمحبة، وقد روي عن ابن عباس قال: قال رؤساء اليهود: والله يا محمد لقد علمتَ أننا أولى منك بدين إبراهيم، فإنه كان يهودياً، وما بك إلا الحسد.

فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا﴾ وروى ابن مسعود قال: إنه ﷺ قال: «**إن لكل نبي ولاة من النبيين، وإن وليي منهم أبي، وخليل ربي**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِيُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

قال العلماء: وبعد أن بنى إبراهيم الكعبة، جعل حولها مكاناً شاسعاً يحيط بها من كل جوانبها أميالاً كثيرة وهو (الحرم)، فكان الداخل فيه آمناً كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ﴾ (١).

(حرماً آمناً): لا يُغزى أهله، ولا يُغار عليهم مع قلتهم وكثرة العرب.

(ويتخطف الناس من حولهم): أي يُختلسون قتلاً ونهباً وسبياً..

قال صاحب التحرير والتنوير: وجعل الله مكة وأهلها في بُحبوحة من الأمن، وكان غيرهم مَنْ بَعُد عن مكة من القبائل يغزو بعضهم بعضاً، وكان أهل مكة آمنين؛ ولذلك قال تعالى: ﴿۞ جَعَلَ ٱللَّهُ ٱلْكَعْبَةَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ قِيَٰمًا لِّلنَّاسِ وَٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَٱلْهَدْىَ وَٱلْقَلَٰٓئِدَ ۚ ذَٰلِكَ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٢). قياماً للناس: أي صلاحاً ونفعاً، وقواماً في أمر دينهم ودنياهم. قال ابن جبير: من أتى هذا البيت يريد شيئاً للدنيا والآخرة أصابه، فالداخل له يكن في حرم الله، وفي الأشهر الحرم، وكذلك ما يُهدى إلى البيت من أنواع الهدايا، وما يقلد من الأبقار والإبل المهدى إلى الحرم. كل هذا الأمن والأمان من ذلك الزمان ـ زمان إبراهيم ـ؛ لأن الله أراد أن ينشأ إسماعيل وذريته ـ الذين منهم محمد ﷺ ـ على نفوس عزيزة، وليكونوا أمة أصيلة الآراء والأفكار، ثابتة القلوب لأن الله عز وجل قدّر أن تكون هذه الأمة هي

---

(١) العنكبوت: ٦٧.

(٢) المائدة: ٩٧.

التي تحمل الرسالة الخاتمة..

فأقام لها بلداً بعيداً عن زخارف الحياة، فنشؤوا على إباء الضيم وعلى التوحيد، وكانت الكعبة مَعْلماً لهذا التوحيد، وألقى في نفوسهم ونفوس مجاوريهم من الملوك تعظيم هذا البيت، فصار وجود الكعبة عائداً على سكان المكان بالتأنس بالوافدين، والانتفاع بما يجلبونه من الأرزاق إليها، كما أن أهل مكة وأقوامهم يسيرون في بلاد العرب آمنين لا يتعرض لهم أحد بسوء، فكانوا يتجرون ويدخلون بلاد قبائل العرب وهم محترمون.

وبهذا كله بقيت أمة العرب محفوظة الجبلّة التي أراد الله أن يكونوا عليها مجبولين، حيث تهيأت بعد ذلك لتلقي دعوة محمد ﷺ، وحمل هذه الدعوة إلى الأمم كما أراد الله تعالى فتمّ مراده عز وجل.

قال صاحب كتاب محمد ﷺ: ونشأ إسماعيل فلم يعرف غير العرب شعباً ولا غير جزيرة العرب وطناً، ولا غير مكة بلداً، كما روى البخاري.

وشب أولاده وكل من معم وحولهم على تعظيم الكعبة، وحَفِظَ الأبناء تراث الآباء، فعظموا الكعبة، واتخذوها حرماً آمناً يُنزهونه عن المظالم، ويؤمنون الخائف، ويجبرون الكسير، وينصرون المظلوم، ويخافون من الظلم فيه.

روى ابن هشام: أن سُبيعة بنت الأحَبّ قالت لابنها خالد بن عبد مناف الكعبي تبين له حرمة مكة، وتنهاه عن الظلم فيها إذ تقول:

أبُنَيَّ لا تظلم بمكة لا الصغيرَ ولا الكبير
واحفظ محارمَها بُني ولا يغرنْك الغرور
أبني من يظلم بمكة يلق أطراف الشرور
الله أمَّنها وما بُنيت بعرصَتها قصور
والله أمَّن طيرَها والعُصمُ تأمن من ثبير
أبني قد جربتُها فوجدت ظالمها يبور

ومن نسل إسماعيل من ولده نابت، كانت السلسلة إلى رسول الله، وهم العرب المستعربة؛ لأن العرب ثلاثة أقسام:

١ـ **عرب بائدة**: أي الهالكة وهم طسم وجديس (جديس أخو ثمود) وعاد وثمود، أما طسم وجديس فقد اقتتلوا حتى بادوا، وعاد وثمود أصروا على الشرك والتكذيب لرسوليهم (هود وصالح) حتى أهلكهم الله. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ﴾ [(١)] .

٢ـ **والعرب العاربة**: وهم الأصلاء في نسبهم إلى يعرب بن يشجب بن قحطان، ولذلك يقال لهم القحطانيون.

٣ـ **والعرب المستعربة**: وهم أولاد إسماعيل وسُموا بالمستعربة؛ لأن إبراهيم لم يكن من أولاد يعرب وإنما كان من أولاد عامر بن شالخ، ولذا كانت لغته غير العربية، وإنما هي السريانية ـ لغة الكلدانيين في العراق ـ. وإسماعيل بحكم نشأته بين جرهم اليمانية القحطانية تعلم العربية، وفاق أهلَها أدباً وبياناً وفصاحة، كما تعلمها أولاده من بعده.

وإنما قيل لهم العرب المستعربة لأن جدهم إبراهيم غير عربي، وإن ولده إسماعيل استعرب هو وبنوه حيث تعلموا لغة العرب وفازوا فيها، ومن هنا قيل في القبائل العدنانية ـ نسبة إلى عدنان أحد أبناء ذرية إسماعيل ـ العرب المستعربة علماً بأن العرب بأقسامهم الثلاثة يعودون إلى أصل واحد هو سام بن نوح.

ونحب أن نشير إلى حقيقة بَيَّنها رسول الله ﷺ بنفسه وهي أنه ﷺ لما ذكر نسبَه ذكره جازماً به إلى عدنان، وسكتَ عن رفع نسبه إلى إسماعيل، وصح عنه ﷺ أنه انتسبَ إلى عدنان، ووقف عنده ولم يزد. وروى ابن عباس أنه ﷺ لما بلغ عدنان ثم قال بعده: «**كذب النسابون، كذب النسابون، ثلاثاً**». وورد عن عمر قوله: إنما ننتسب إلى عدنان وما فوق ذلك ما ندري ما هو.

هنا نستنتج: أن النسب ما بين عدنان وإسماعيل لا يصح الجزم به ـ وبينهما ستة آباء ـ لأن فيه خلطاً، ومأخوذ من كتب عبرانية ـ كما ذكر المسعودي ـ وصحة النسب من عدنان إلى عبد الله بن عبد المطلب فيُجزم به.

---

(١) الحاقة: ٤.

الفصل التاسع
نبينا محمد ﷺ، والده ووالدته

نبينا محمد ﷺ: هو محمد بن عبد الله، وجده عبد المطلب، ويجدر بنا أن نقف عنده، ـ عبد المطلب ـ وقفة لأنه هو الذي حضن النبي ﷺ عندما كان في سن الحضانة.

اسمه: شيبة الحمد وسُمي بشيبة؛ لأنه ولد وفي رأسه شيبة، والعرب تسمي شيبة كثيراً من باب التفاؤل بأن يكبر ويبلغ سن الحكمة والحنكة. عاش عبد المطلب مائة وأربعين عاماً، وهو أول من خضب بالسواد من العرب، شب في يثرب؛ لأن أمه منها، وتربى في أول شبابه بعيداً عن مكة حتى أتى به عمه ـ المطلب ـ ودخل مكة برفقة عمه، فقيل له عبد المطلب؛ لأنهم ظنوه عبداً للمطلب؛ لأنه كانت فيه سمرة واضحة، فقال ويحكم إنه ابن أخي هاشم أتيت به من المدينة، وأعطته قريش رياستها بحق لقوة خلقه، وسماحته، فهو لشبابهم أب، ولكهولهم أخ، وهو الذي حفر زمزم بعد أن طمتها جرهم، واستمرت مطمورة عبر السنين حتى حفرها هو برؤيا صادقة وإلهام من الله عز وجـل ألهمه به لصفاء نفسه، وولي السقاية والرفادة بعد عمه المطلب.

يروي عبد الله بن زرير الغافقي أنه سمع علياً يحدث حديث زمزم حين أُمِر عبد المطلب بحفرها قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحِجر ـ بجوار الكعبة ـ إذ أتاني آت فقال: احفر طيبة. قلت: وما طيبة؟ فانصرف عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر برة، قلت: وما برة؟ ثم ذهب عني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه فجاءني فقال: احفر المضنونة. قلت: وما المضنونة؟ فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمتُ فيه فجاءني فقال: احفر زمزم. قلت: وما زمزم؟ قال: لا تنـزف أبداً ولا تَذُم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل.

والآن: ما هو تعليل هذه الأسماء لزمزم؟ قال العلماء: سماه في الرؤيا احفر طيبة: سميت طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم وإسماعيل، وسماه في الرؤيا: برة، وهو اسم لزمزم صادق عليها لأنها فاضت للأبرار، وغاضت عن الفجار (عن جرهم لما بغوا عندها)، ولكثرة مائها.

وكلمة المضنونة: لأنها ضُنَّ بها على غير المؤمنين، فلا يتضلع منها منافق، ويؤيد هذا المعنى

قوله ﷺ فيما أخرجه الدار قطني: «**من شرب من زمزم فليتضلّع، فإنها فرق ما بيننا وبين المنافقين لا يستطِيعون أن يتضلعوا منها**» وكذلك لأنه يُضَنُّ بها لنفاستها وعزّتها، ولذلك قيل لِلطيب والخَلوق: المضنونة لأنه يُضَنُّ بهما. وقوله: لا تنزف أبداً ولا تَذُمُّ: أي لا تنقطع ولا تقل، والعرب تقول بئر ذَمَّة: أي قليلة الماء. وفي حديث البراء قال: كنا مع رسول الله ﷺ في مسير فأتينا على ركي ذَمَّة؛ أي بئر قليلة الماء، فنزل فيها ستة ـ أنا سادسهم ـ ماحةً[1] ـ من قلة الماء، فأدليت إلينا دلو، ورسول الله ﷺ على الركي، فجعلنا فيها نصفها أو قريب ثلثيها، فرُفعت إلى رسول الله ﷺ. قال: فجئت بإنائي هل أجد شيئاً أجعله في حلقي فما وجدت، فرُفعت الدلو إلى رسول الله ﷺ فغمس يده فيها، فقال ما شاء الله أن يقول، قال: فأعيدت إلينا الدلو بما فيها، قال: فلقد رأيت أحدنا أُخرِج بثوب خشية الغرق، ثم ساحت[2].

قال العلماء: هذا برهان عظيم وخير حققه الزمن وهو قولها (لا تنزف ولا تذم) ودل عليه إلى اليوم، فلا يزال الحجاج يشربون منها وهي تفيض عليهم في سخاء، وهي عين ثرّة، ومعين لا ينضب، ولا تزال فيها بركة إسماعيل، لم تنزف من حين حفرها عبد المطلب إلى اليوم قط. وقد وقع فيها حبشي فنُزحت من أجل ذلك فوجدوا ماءها يثور من ثلاثة أعين أقواها وأكثرها ماء من ناحية الحجر الأسود ـ كما ذكر الدار قطني ـ وهذا دليل على أن بيت الله تحوطه البركة..

كما قال تعالى: ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴾[3].

وقوله: بين الفرث والدم: أي عند المذبح الذي كانت قريش تذبح قرابينها وذبائحها فيه وهو المكان الذي بين صنمي إساف ونائلة، حيث كانت قريش تنحر عندهما.وقوله: عند قرية النمل ونقرة الغراب الأعصم: أي المكان الذي فيه نمل وغراب ينقر هناك، وكأن هذين كانا علامَة حّدِ المكان ـ كما قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله.

قال المؤرخون: غدا عبد المطلب ومعه ابنه الحارث الذي لم يكن له ولد غيره وقت ذلك، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب عندها ينقر بين الوثنين، (أساف ونائلة)، وجاء بالمعول وقام

---

(١) جمع مائح وهو النازل إلى البئر بدلوه فيملؤه.

(٢) جرت نهراً.

(٣) آل عمران: ٩٦.

ليحفر حيث أُمِر في رؤياه التي رآها، فقامت إليه قريش لمنعه وقالوا: والله لا ندعك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما، فقال لولده الحارث: ذُدْ عني وأنا أحفر، فو الله لأمضين لما أمرت به، فلما رأوا منه التصميم تركوه وشأنه، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطيّ، فكبر وعرف أنه قد صُدِقَ في الرؤيا، وعلمت قريش أنه أدرك ما يريد، ثم نازعوه أن تكون تحت سلطانهم جميعاً فرفض، ثم سلّموا له لما رأوا من طيبته، فسقاهم وسقى الحجيج فيها بلا منة ولا أذى.

وقد ذكر علماء السيرة أن عبد المطلب عندما حفر زمزم لم يكن له إلا ولد واحد هو الحارث بن عبد المطلب. وفي رواية أخرى: وكان معهما غلام عبد المطلب (عبده) واسمه أصرم.

وشأن العرب أنهم كانوا يعتزون بكثرة المال وكثرة البنين، فكان يجري على ألسنتهم في مقام الفخر (أنا أكثر منك مالاً وأعز نفرا) ولم يكن عبد المطلب ثرياً، ولكنه كان قانعاً بما أعطاه الله، كما لم يكن حريصاً على أن يجمع المال، بل كان حريصاً ألا يمنعه عمّن طلبه منه، وكان له شوق إلى البنين، فنذر نذراً فيه شيء من بقايا الجاهلية حيث قال: إذا عاش له عشرة من الولد قدم أحدهم فداء للكعبة.

قال العلماء: وتُحقق أمنيته، ويبلغ أبناؤه عشرةً في العدد، فقرر أن يوفي بنذره!! ولكن من يختار لهذا الفداء؟! فجمعهم ودخل بأولاده جوف الكعبة، وكان قد أعلمهم بنذره فاستجابوا له طائعين غير منافرين واقترعوا بأن كتب كل واحد منهم اسمه على ورقة، فكتبوا الأوراق فيها أسماؤهم ثم وضعت في قداح ثم ساهم بينهم فوقعت القرعة على عبد الله والد الحبيب محمد ﷺ، ورغم أن عبد الله كان احب أولاده إلى قلبه، فقد جزم بالذبح، ودعا بالشفرة يُحدها، وترامى الخبر في مجالس مكة وأنديتها، فجاؤوا سراعاً إليه ورأوا ذلك منه، فصاحوا به: ماذا تريد يا عبد المطلب؟ فقال: إني أذبحه!! فهال الأمرُ قريشاً، وضَعُفت عزيمة الأولاد. أما الشيخ عبد المطلب فقد كان الفداء أحبَّ إليه منهم جميعاً، وأقسمت قريش ألا يذبحه قائلين: لئن فعلت ذلك يا عبد المطلب فلا يزال الرجل يأتي بابنه ليذبحه، فما بقاء الناس على هذا؟! وقالت له ابنة أخته: والله لا تذبحه حتى تُعذِر فيه، أي تبدي العذر عن النذر، فإن كان فداؤه فديناه بأموالنا.

وقد ذكر ابن إسحاق أن العباس اجتذب عبد الله من تحت رجل أبيه عبد المطلب حين وضعها عليه لذبحه، فشُجَّ شجة أثرت في وجهه، ثم ذهبوا إلى عرّافة في أرض الحجاز، فأشارت عليهم أن يقدموا الدّية عشرة من الإبل، ويُقرع بينها وبين الذبيح، فإن كانت القرعة عليه زادوا

في الإبل حتى تكون القرعة عليها ـ أي على الإبل ـ. وفعلوا ما أمرتهم به العرافة، فقرعوا بينها وبين عبد الله فكان السهم عليه، وهكذا فعلوا عشر مرات ووصل العدد في الإبل إلى المائة ثم ضربوا القداح، فخرج القدح على الإبل، فقالت قريش: انتهى الأمر ورضي ربك بالفداء يا عبد المطلب، وأراد عبد المطلب أن يستوثق من الرضى بالفداء، فضرب القرعة مرة ومرة والقدح يخرج على الإبل، ونُحرت الإبل، وتُركت للناس لا يُمنع أحد من الأخذ منها.

هكذا كان عبد المطلب طيباً، سمحاً، وكان مباركاً، وكان ذا عزيمة وإصرار، لا يضعُف ولا يَهنُ، وموقفه مع ملك الحبشة أبرهة الأشرم معروف في التاريخ.

قال علماء السيرة: كان لعبد المطلب منقبتان عظيمتان: حفر زمزم، وإهلاك أصحاب الفيل. ومنذ ذلك اليوم احترمت الناس قريشاً، وقالوا: هم جيران الله يدافع عنهم. وكان يوضع له بساط في ظل الكعبة لا يجلس عليه غيره، وكان يسمى الفياض لسماحته وكرمه. وهنا لابد من كلمة عن عبد الله بن عبد المطلب والد النبي ﷺ الذي افتدته قريش كلها. كان عبد الله أحب أولاد عبد المطلب إليه، وأقربهم منه، وقد اتَّسَمَ بالجمال، فكان أجمل قريش، وأحب الشباب إليها؛ لأنه مع جماله الأخاذ كان طيب النفس عفيفاً، وكان محبوباً من المجتمع القرشي كله، ولذلك لم يُسلموه لأبيه حين أراد ذبحه. كان لشدة جماله موضع اجتذاب النساء، ولكنه كان العفيف الذي لا يريد إلا الحلال، ولم يكن له في الحرام مأرب، مع ما له من مروءة حاجزة عن الحرام أو الميل إليه. تعرضت له امرأة أعجبها طيبته ووسامته، فأرادته لنفسها، وربما راودته عن نفسه، فيردها الشاب القوي الذي لا يستهويه الهوى قائلاً:

أمــا الحرام فالممات دونه	والحِلُّ لا حــــلَّ فأستبينَهُ
فكيف بالأمر الذي تبغينَه	يحمي الكريمُ عرضَه ودينَه

قال الشيخ محمد أبو زهرة رحمه الله تعالى: حفظ عبد الله الشابُّ نفسَه، وصان خلقه وكرامته فلم يهبط كما هبط الكثير من شباب قومه، لأنه أراد أن يعيش طاهراً كريماً، محبوباً، لينقل وديعة الله للإنسانية محمداً ﷺ وذلك بزواج طاهر حلال. قال ابن الدَّيْبَع في سيرته ﷺ: كان عبد الله والد النبي ﷺ أنهد فتى في قريش وأصبحهم وجهاً، وأحسنهم خُلقاً وخَلْقاً، وكان نور النبي ﷺ يلوح في وجهه.

أما الأم: قلنا إن كل فتاة من قريش كانت تتمنى أن تكون زوجاً لعبد الله بن عبد المطلب وأن يكون أباً لأولادها، فهو في العشرين من عمره، أو قاربها عفيفاً لم يعرف نزوعاً إلى الشر، وكان شديد الملازمة لأبيه عبد المطلب لا يفارقه، ويختار عبد المطلب لولده عبد الله زوجاً، هي ابنة عم زوجته، (هالة بن وهيب)، تزوجها عبد المطلب وهي أم حمزة، وخطب ابنة عمها (آمنة بنت وهب) لعبد الله وزوجه إياها، فولدت له رسول الله ﷺ.

وقد ذكر بعض المؤرخين ـ وهو البرقي ـ سبب تزويج عبد الله بآمنة قصةً الله أعلم بصحتها إذ ليس عليها دليل من السنة وهي: أن عبد المطلب كان يزور اليمن أحياناً، وينزل عند كبير من كبرائهم، فنزل مرة عنده، فوافق أن رجلاً ممن قرأ الكتب السابقة كان ضيفاً عند هذا الأمير اليمني، فنظر هذا الرجل إلى عبد المطلب، وقال له: أتأذن لي أن أقيس منخرك؟ فقال عبد المطلب: دونك فانظر، فقال الرجل: إني أرى نبوة وملكاً، وأراهما في المَنَافَيْنْ عبد مناف بن قصي، وعبد مناف بن زهرة، فلما عاد عبد المطلب من اليمن زوج ولده عبد الله من آمنة بنت وهب، وتزوج هو هالة بنت وهيب، فولدت آمنة بنت وهب رسول الله ﷺ وولدت هالة بنت وهيب لعبد المطلب حمزة، وصفية أم الزبير بن العوام.

قال المؤرخون: وبنو زهرة (أهل أم رسول الله ﷺ) يلتقون مع النبي ﷺ في جده (كلاب). وكان المؤرخون يسمونه (الحكيم)، وكان ممن يؤمن بأن نبياً من قريش سيبعث.

قال العلماء: كانت آمنة بنت وهب تشبه مريم البتول في صبرها وسموها وحملها بصاحب الرسالة، بل بصاحب أكبر رسالة في هذا الوجود. لم يمض على زواجها بعبد الله أكثر من ثلاثة أشهر، أو شهرين، حين ذهب ليجلب لهم رزقاًوميرة وتمراً من المدينة من عند أخوال النبي ﷺ بني النجار، أو كان عائداً من تجارة من الشام فأدركته المنية وهو راجع بالمدينة، ولما وصل خبر وفاته إلى مكة نعته آمنة زوجه بأروع المراثي ـ كما قال صاحب الرحيق المختوم ـ وقد ذكر ابن سعد في طباقته قطعة من هذا الرثاء وفيها:

عفا جانب البطحاء من ابن هاشم دعتْه	وجـــاور لحـــداً خارجـــاً في الغماغـــم
المنايـــــا دعـــــوة فأجابهـــــا	ومــا تركــت في النــاس مثـلَ ابــن هاشــم
عـــشية راحـــوا يحملـــون سريـــره	تعـــــاوَرهُ أصـــــحابُه في التـــــزاحم

فــــــــإن تــك غالتْه المنايا وريبُها　　　فقـــد كــــان معطـــــاء كثيرَ التراحم

وهكذا كانت آمنة الزوجة الصابرة المحتسبة التي رضيت باغتراب زوجها أملاً بعودته إلى لقاء ومعها طفل تحمله له، ولكن الله أراد اختبارها فأفقدها زوجها في غربته، فكانت الكريمَة القائمة على تربية ولدها الراضية بأمر ربها دون ضجر أو تململ في حياتها.

الفصل العاشر
نسبه ﷺ ومكانته في قومه

ولما استغنى وليدها عن الرضاع شدت رحالها مع وليدها تقطع قفاراً واسعة؛ لترى قبر زوجها، ولتُزير وليدَها أخواله من بني عدي بن النجار؛ لأنهم أخوال أبيه، وخال الأب خال للابن، ومكثت هناك ثلاث سنوات كان لها في ذلك متعة حيث كانت قريبة من زوجها الحبيب، ثم عادت بولدها إلى مكة لأنها لا تريد أن يكون ولدها بعيداً عن قومه، وبخاصة جدُّه، ولكن الرحلة أجهدتها فماتت وهي في طريقِ عودتها إلى مكة، في مكان يقال له (الأبواء). وهي على بعد خمسة أميال من المدينة، وسميت بالأبواء لتبوُّء السيول بها. وقال كُثيّر: سميت بذلك لتبوء الناس بها المنازل. توفيت وتركت ولدها لرعاية الله مع الجارية وهي مولاة أبيه واسمها (بركة أم أيمن)، ووصل ﷺ مع أم أيمن إلى جده فاحتضنه.

إنها عاشت كالعذراء، لأنها مجاهدة صابرة. . . كأنْ لم يكن لها من هذه الحياة إلا أن تحمل في بطنها أمانةَ النبوة، وكأنها شعرت بذلك فلم تقصر، ولم تني.

إذاً: هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم. وهاشم اسمه عمرو مأخوذة من العَمْر والعُمْر والعُمُر وتجمع على عمور وأعمار من عمور الأسنان، ولحمِ اللثة. ويُطلق (العُمْرُ) على نخل السكر وهو نوع من التمر جيد. وكان ابن أبي ليلى يستاك بعسيب العُمْر، وسُميَّ هاشماً لهشمه الثريد لقومه في سنوات القحط.

قال الشاعر:

عمرو الذي هشم الثريَد لقومه ورجــــال مكة مسنتـــون عجاف

وهاشم هذا هو الذي وفد على قيصر فأخذ منه كتاباً بالأمان لقريش تتحرك في البلاد بحرّية، كما أرسل أخاه (المطلب) إلى اليمن فأخذ كتاباً مماثلاً، ثم سنَّ لقريش التجارَة إلى الشام واليمن، وإلى هذا أشارت سورة قريش: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ﴾ (١) والإيلاف مصدر آلف يؤلف إيلافاً.

---

(١) قريش: ١.

ومنه قول الشاعر:

المُنْعِمينَ إذا النجوم تغيَّرت والظاعنين لرحلة الإيلاف

ابن عبد مناف: واسمه المغيرة بن قصي، من قولهم: مغير على الأعداء، وأُدخِلت الهاء الزائدة عليه للمبالغة مثل: (علامة، نسّابة) وهكذا. وكان اسمه (عبد مناة)، جعلته أمه (حُبَّى) خادماً للصنم، ولكن والده (قصياً) رأى أن اسمه (عبد مناة) يوافق اسم (عبد مناة) ابن كنانة، فحوله إلى (عبد مناف)، وعبد مناف هذا كان يلقب بـ (قمر البطحاء) كما ذكر الطبري.

ابن قصي: وقُصي اسمه زيد، وهو تصغير (قَصِي) أي بعيد، وسُمي بذلك لأنه ابتعد عن عشيرته إلى قبيلة قضاعة حين احتملته أمه معها.

ابن كلاب: وكلاب مأخوذ من المكالبة للعدو، وكان من عادة العرب أن يسموا أبناءهم بأسماء الحيوانات، كسباع، وأنمار. وقد قيل لأبي الرقيش الأعرابي: لم تُسمون أبناءكم بَشرِّ الأسماء؟ نحو كلب وذئب. وعبَيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبناَءنا لأعدائنا، ونسمي عبيدَنا لأنفسنا. أي أن الأبناء سهام في نحور الأعداء.

ابن مرة: ومُرة منقول عن وصف الحنظلة، والعلقمة. وهم يسمون بهذه الأسماء، ومنه (تيم بن مر)، ثم زيدت التاء (مرة) للمبالغة.

وقال أبو حنيفة: (مرة) اسم بْقلة تؤكل بالخل والزيت.

ابن كعب: وهو منقول من كعب القدم. والعرب تقول: فلان ثبت ثبوت الكعب.

وجاء في أخبار ابن الزبير أنه كان يصلي عند الكعبة يوم قُتل، وحجارة المنجنيق تمر بأذنيه وهو لا يلتفت كأنه كعب راتب (أي ثابت).

وكعب هذا هو أول من جمَّع يوم الجمعة، فكانت قريش تجتمع إليه في هذا اليوم فيعظهم ويخطبهم ويذكرهم بمبعث نبي في المستقبل، ويُعِلمُهُم أنه من ولده، ويأمرهم إن بُعث فيهم أن يؤمنوا به ويتبعوه. وقد ذكر أبو نعيم عن أبي سلمة قال: كان كعب بن لؤي يجمع قومه يوم الجمعة ـ وكان يسمى العَروبة ـ فيخطبهم، وكـان مما حُفظ عنه قوله: صِلوا أرحامكم، واحفظوا أصهاركم، وثمرّوا أموالكم، فهل رأيتُم من هالك رجع، أو ميت نُشر. الدار أمامكم، حَرَمَكُم

زينوه، وعظموه، وتمسكوا به، فسيأتي له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبي كريم. ثم يقول:

نهـــار وليـــل كـــل يـــوم بحـــادث سـوــاء علينـــا ليلهـــا ونهارهـــا
يُؤوبـــان بالأحـــداث حتـــى تأوبـــا وبـــالنعم الـــضافي علينـــا ســـتورها
على غفلـــة يأتـــي النبي محمـــدٌ فيخبرُ أخبـــــــاراً صدوقٌ خبيرها

وكان يتمنى أن يشهد مبعث ذلك النبي ويقول:

يا ليتني شاهدٌ فحواء دعوته إذا قريش تُبغِّي الحق خذلانا

وكان بينه وبين بعثة النبي ﷺ خمس مائة وستون سنة.

ابن لؤي: وهو تصغير لأي، وهو البقر الوحشي. أو من اللأي وهو التريث وترك العجلة.

ابن غالب، ابن فهر: وهو الحجر الطويل، ولقبه قريش، ابن مالك، ابن النضر، ابن كنانة، ابن خزيمة.

ابن مدركة واسمه عامر بن الياس.

ابن الياس: مأخوذ من قولهم: رجل أليس أي شجاع لا يفر. قال العجاج يمدح رجلاً: (أَلْيَسُ عن حوبائه ـ أي نفسه ـ سخي). وقيل إنه مأخوذ من مرض السُّل الذي اسمه (ياس) لأن الياس هذا مات بمرض السل.

قال ابن هرمة:

يقول العاذلون إذا رأوني أُصيبَ بداء ياسٍ فهو مودي

والياس هذا: هو أول من أهدى البُدْنَ إلى البيت كما قال أبو بكر بن الزبير.

ابن مضر: مأخوذ من المضيرة وهو اللبن الماخض لشدة بياضه، وهو أول من سنّ للعرب حداء الإبل، وكان أحسنَ الناس صوتاً.

ابن نزار: من النزر وهو القليل، وكان أبوه حين ولد له ونظر إلى ما بين عينيه من نور النبوة الذي كان في الأصلاب ينتقل ليصل إلى محمد ﷺ وفرح بولادته فرحاً شديداً ونحر وأطعم وقال: إن هذا كله نزر لحقِّ هذا المولود فسمي نزاراً.

ابن معد: مأخوذ من اَلمعْدِ: وهو القوة.

ابن عدنان: مأخوذ من الثلاثي (عدن) على وزن فعلان، إذا أقام في المكان، ولهذا صح عن النبي ﷺ أنه انتسب إلى عدنان، ولم يزد على عدنان لما فيه من اختلاف الألفاظ.

قال العلماء: وهكذا نرى أن كل آباء النبي ﷺ وأجداده سادات، ما منهم إلا وهو سيد في قومه في عصر أبيه إلى آدم عليه السلام؛

ولذلك قيل فيهم:

فـــــأولئك السادات لم تَرَ مثلَهم ... عيـــــــنٌ على مُتتابـعِ الأحقـــاب
زُهـــر الـــــوجوه كريمة أحسابُهُمْ ... يُعطُون سائلَهـــــم بغير حســـاب
كانت تعيـــش الطيْرُ في أكنـــــافهم ... والوحش حين يَشُحُّ كــل سحــاب
وكفاهــــــم أن الــــنبي محمـــــداً ... منهـــم فمدحُهُم بكل كتــــاب

قال علماء السيرة: لم يكن قبيلة من العرب إلا ولها صلة بالنبي ﷺ إما ولادة، أو قرابة، وقد قال ﷺ: «**بُعثتُ من خير قرون بني آدم قرناً فقرناً، حتى كنت من القرن الذي كنتُ فيه**».

وهكذا كان بعث النبي ﷺ من أسرة فيها سمو ورفعة من جانب الأب والأم، فقد رأينا أمه، وقلنا إنها تشبه مريم البتول، ولذلك قال ﷺ يوم حنين: «**أنا ابن العواتك من سُليم**».

قال المؤرخون: وبنو سُليم تفخر بهذه الولادة، ولسُليم مفاخر أخرى ذكرها المؤرخون، من ذلك أنهم ألَّفوا يوم فتح مكة: (أي شهد الفتحَ منهم ألفٌ)، وأن رسول الله ﷺ قدم لواءهم يومئذ على الألوية، وكان لواءهم أحمر، وله ﷺ ثلاث جّدات من سُليم، ولذلك قال: «**أنا ابن العواتك من سُليم**». وتسمى المرأة عاتكة لصفائها.

وكان العرب في جاهليتهم حريصين على كرامة النسب، وطهارة الأرحام، ونقاء الأصول، فقد ورد عن أحد فحول خطبائهم، وهو أكثم بن صيفي قوله: لا يفتننكم جمال النساء عن صراحة النسب؛ فإن المناكح الكريمة مَدْرَجةُ الشرف.

ومن جميل أقوال الشعراء قول أحدهم:

وأولُ خُبْثِ الماء خبـــثُ ترابه وأول خبث القوم خبث المناكح

وقد ورد عن أبي عمرو بن العلاء، وهو أحد أعلام القراء السبعة قوله: لا أتزوج امرأة حتى أنظر إلى أولادي منها!! فقيل له: وكيف ذاك؟ قال: أنْظُر إلى أبيها وأمها فإنها تُجُرُّ بأحدهما.

ويدلك على أصالة أمه ﷺ كذلك، ما عانت من وفاة زوجها، وتيتُّم ولدها، ووفاتها بالأبواء بعيدة عن الأهل، وذلك بعد عاصفة رملية قوية هبت على المسافرين ـ كما ذكر المؤرخون ـ قالوا:

وفجأة يتراخى ذراعاها، وينظر غلامها الطاهر محمد ﷺ وكأنه شعر بشيء، وسألها أن تكلمه ويقال: إنها نظرت إلى وجهه ﷺ وقالت:

بــــارك الله فيك مـن غـلام يا ابنَ الذي من حومةِ الحمام

نجـــــا بعون الملك العلام فُودِي غداة الضرب بالسهام

بمائة من إبل سوام

ثم سكتت قليلاً لتستريح فكان آخر كلامها: كل حي ميت، وكل جديد بالٍ، وكل كبير يفنى، وأنا ميتة وذكري باق، فقد تركتُ خيراً، وولدتُ طُهراً.

وفي عمرة الحديبية، زار ﷺ قبرها وبكى، فقال: «**أدركتني رحمتها فبكيت**» وفي صحيح مسلم أنه ﷺ أذن له بزيارة قبرها فزاره، فبكى وأبكى ﷺ.

وقد زار قبرها أناس ممن آمنوا بالنبي ﷺ فسمعوا منشداً عند قبرها يقول:

نبكـي الفتاةَ البَـرَّةَ الأمينة ذاتَ الجمال العَفَّةَ الرَّزِينة

زوجـــة عبد الله والقرينة أمَّ نبـــي الله ذي السكينة

وورد عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: «**لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيبة إلى الأرحام الطاهرة، صفياً مهذباً لا تتشعب شعبتان إلا كنت في خيرهما**».

قال العلماء: وليس المراد بشرف النسب أن تكون عشيرته كثيرةَ المال، فالمال لا يكون نسباً، فقد كان عمه أبو طالب كبيرَ البطحاء وشريفها، وكان قليلَ المال، والنبي كذلك. إنما شرف

النسب أن يكون من كَوْرة يعلو أفرادها عن النقائص، ويخشون العار والوقوع في الرذيلة، وهكذا لم يكن شرفه ﷺ بالمال، إنما كان ﷺ خيرهم نفساً وبيتاً. ولذلك قال ﷺ: «**جعلني في خيرهم نفساً وفي خيرهم بيتاً**».

قال العلماء: ولا شك أنه يجب أن يكون للرسول منعة من قومه، لأنه سيدعوهم إلى مالا يألفون، ولابد أن يقاوموه، وإذا لم يكن له هذه المنعة من قومه، فقد يقتلونه في فجر الدعوة، وتموت الدعوة حينئذ في مهدها، ولذلك انظر إلى قصة قوم شعيب، ما الذي منعهم من قتله؟ منعهم من ذلك رهطُه وعشيرتُه.

اقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ قَالُواْ يَـٰشُعَيۡبُ مَا نَفۡقَهُ كَثِيرٗا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفٗاۖ وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ (١). أي أنك تقول شيئاً لا نصدق به. ـ وهذا القول مقدمة لإدانته واستحقاقه للعقوبة في رأيهم ـ وقولهم: ﴿وَلَوۡلَا رَهۡطُكَ لَرَجَمۡنَٰكَۖ﴾، الرهط: ما بين الثلاثة إلى العشرة وهم القرابة الأدْنَون، ولم يقولـوا لولا قومك. لأن قومه عادوه.

وكان رهط شعيب من خاصة أهل دين قومه، فالإبقاءُ عليه لأن رهطَه هم خاصة أهل دينهم، فالتقدير: لولا رهطُك مكرمون عندنا لرجمناك. وقولهم: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ﴾ لا يعجزنا قتلك، ولا يثقل على نفوسنا؛ لأنك هين علينا غير مُحترم، وليس لك من ينصرك منا لأنه لا عشيرة تنصرك، كما قال الأعشى: وإنما العزة للكاثر: ﴿وَمَآ أَنتَ عَلَيۡنَا بِعَزِيزٖ ﴾ أي: لا تستطيع غلبتنا.

قال في التأويلات: من كان على الله بعزيز فإنه ليس على الجاهل بعزيز. لماذا؟ قالوا: لأن العزة والشرف عند الجهلاء بالجاه والمال لا بالدين والكمال. وقد قال ﷺ: «**إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، بل ينظر إلى قلوبكـم وأعمالكم**».

قال العلماء: ولما كانت سعادة العبد في الدارين معلقة بهديه ﷺ، فيجب على كل من نصح نفسه، وأحب نجاتها وسعادتها أن يعرف من سيرته وهديه وشأنه ﷺ ما يخرج به عن حيز الجاهلين بهذا النبي الكريم، ويدخل في عداد أتباعه وحزبه وشيعته ﷺ، والناس في هذا الباب بين مقلٍ ومستكثر ومحروم، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

---

(١) هود: ٩١.

الفصل الحادي عشر
حالة العرب قبل بزوغ فجر الإسلام

ولما كان الشيء بضده يعرف ويميز، فقد قيل: وبضدها تتميز الأشياء. كان لابد من أن نتكلم بإيجاز عن حالـة العرب على الخصوص قبل بـزوغ فجر الإسلام، ورسالة محمد ﷺ.

والهدف من إعطاء هذه اللمحة هو التعرف على أوضاعهم، وليدرك العاقل الواعي، مدى الحاجة العظيمة إلى فجر النبوة المحمدية؛ لتبديد تلك الظلمات المتراكمة، وإبعاد الويلات عن ديار العرب قاطبة من الشام إلى اليمن، ومن الحجاز إلى نجد، ولنعرف مدى كرم الله ومِنَّتِهِ علينا؛ بإظهار أنوار الإسلام التي غمرت الجزيرة العربية أولاً، ثم الكونَ كلَّه ثانياً بالهداية والنور.

قال العلماء: كان المؤرخون جميعاً قد أرخوا واتفقوا على أن العالم الإنساني كله، والعالم العربي بخاصة، يعيش في ظلمات الجهل والاستبداد، وتتقاسمه إمبراطوريتان: فارسية شرقاً، والرومانية غرباً.

وهذه الحقيقة ذكرها نبينا ﷺ في خطبة لـه ذكرت في صحيح مسلم وكان منها: «. . **إن الله نظر إلى سكان العالم فمقتهم عربهم وعجمهم جميعاً إلا بقايا من أهل الكتاب**»(١). ومعنى مقتهم: اشتد بغضُه لهم.

وبقايا من أهل الكتاب: من اليهود والنصارى. فالأحوال متردية لا سيما في العالم العربي، حيث الفساد من كل جوانب الحياة الدينية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية.

أما الحالة الســياسية في بلاد العرب: فالناظر في الحالة السياسية آنذاك يـلاحظ مـا يلي:

البلدان اليمانية: حكمها ملوك حمير من التبابعة، وأحياناً تُحكم من الأحباش مباشرة أو بواسطة أبنائها تارة أخرى، وآخر ملوك حمير الذين حكموا اليمن (ذو نواس) صاحب الأخدود، كان يهوديَّ العقيدة، وكان من ملوك التبابعة في اليمن (تَبانُ بن أسعد، أبو كرب) الذي غزا المدينة، ودخل مكة فكسا الكعبة المشرفة ثم عاد إلى اليمن فمات فيها.

المناذرة في الحيرة: في الشرق من الجزيرة إلى العراق كانت هناك ولايات تابعة لملوك إيران

---

(١) رواه مسلم.

(فارس) حتى جاء الإسلام، وهؤلاء الملوك من المناذرة لم يكونوا مستقلين، وإنما كانوا تابعين للحكم الفارسي المجوسي، وكان آخرهم ـ أي آخر ملوك المناذرة ـ النعمان بن المنذر. والحيرة: كانت على بعد ثلاثة أميال من الكوفة.

قال ابن السِكّيت: في الحيرة قصر الخورنق المشهور، هذا القصر بناه النعمان بن امرؤ القيس الذي حكم ثمانين سنة، بناه له سنمار في ستين سنة، وكان يبني فيه سنتين أو ثلاث ثم يغيب، ويُظهر الحجج عن غيابه. قال المؤرخون: كان النعمان هذا من أشد الملوك بأساً، وفي يوم كان جالساً في مجلسه في هذا القصر ـ الخورنق ـ حيث أشرف على (النجف) وما يليه من البساتين والنخل والجنان والأنهار، وعلى الفرات من المغرب، والخورنق مقابل الفرات، فأعجبه ما رآه من الخضرة والماء والأنهار والنَّوْر. فقال لوزيره: أرأيت مثل هذا المنظر وحسنه؟ فقال: لا والله أيها الملك ما رأيت مثله لو كان يدوم!!. فقال النعمان: فما الذي يدوم؟ قال الوزير: ما عند الله في الآخرة. قال النعمان: فبمَ يُنالُ ذلك؟ قال الوزير: بالتماس ما عند الله والبعد عن زخارف الدنيا. فنزل الملك النعمان لساعته من القصر مع وزيره، ولم يُعرف لهما مكان بعد ذلك. وجاء الناس لحوائجهم ـ كما جرت العادة ـ فلم يؤذن لهم، واضطرب الأمر أياماً ثم ظهر أن الملك قد تخلى عن العرش، ولحق متنسكاً بالفلوات مع وزيره.

وفي هذه القصة يقول الشاعر عدي بن زيد:

وتبيّنْ ربَّ الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكيرُ
سرّه ما رأى وكثرةُ ما يملك والبحرُ معرضاً والسدير
فارعوى قلبُهُ وقال: فما غِبطةُ حيّ إلى الممات يصير
ثم بعد الفلاح والملكِ والأمة وارتهم هناك القبور
ثـــم صاروا كأنهم ورق جفَّ فَأَلْوتْ به الصبـــا والدبور

هذه القصة ذكرها صاحب كتاب «الروض المعطار» للحميري ص(٢٢٦) وعلق عليها فقال: ففي مثل هذا الوزير الصالح يقول النبي ﷺ: «**من وليَ شيئاً من أمر الدنيا فأراد الله به خيراً جعل معه وزيراً صالحاً إن نسي ذكّره، وإن ذكر أعانه**» وقال ﷺ: «**ما من رجل من المسلمين أعظم أجراً من وزير صالح مع إمام يطيعه فيأمره بطاعة الله تعالى**».

قال الهيثم بن عدي: كان ولاة الكوفة في العصور الإسلامية يبنون في قصر الخورنق إضافات، فلما قدِم الضحاك بن قيس أميراً على الكوفة بيَّض القصر وتفقّده، ودخل شريح القاضي على الأمير فقال الأمير للشيخ القاضي: يا أبا أمية: أرأيت بناء أحسن من هذا؟ قال القاضي: نعم. السماء وما بناها. قال الأمير: ما سألتك عن السماء. أقسم بالله لتسُبَّن أبا تراب. قال القاضي: والله لا أفعل. قال الأمير: لماذا؟ قال القاضي: لأننا نعظم الأحياء من قريش ولا نسب موتاهم. قال الأمير: بارك الله فيك، وجزاك الله خيراً.

أما الغساسنة: فقد كانوا في شمال الجزيرة، وكانوا ملوكاً عرباً تابعين لحكم الروم، وكانت قاعدتهم (دومة الجندل)، وكانوا عمالاً للروم، كما كان المناذرة تابعين للفرس سواء بسواء، علماً بأن ملوك الحيرة وملوك الشام أصلهم يمنيون نزحوا من اليمن بعد خراب سد مأرب بواسطة سيل العَرِم.

وحتى الأوس والخزرج وطيّء في جبل طيء شمالاً، كلهم من مهاجري اليمن بعد خراب سدهم العظيم، الذي كان مصدر غناهم وثروتهم، ثم أرسل الله عليهم سيل العَرِم عقوبة لهم بعدما ظلموا.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ (١). هل استجابوا؟ لا.

قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا﴾ عن طاعة الرسل، وعن الاستجابة لدعوة التوحيد، وعادوا إلى عبادة الشمس، فماذا كانت النتيجة؟ قال تعالى: ﴿فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (٢).

وأما العدنانيون: وهم سكان مكة وما حولها من ديار تهامة والحجاز، فمجمل الحياة السياسية عندهم أن جُرهم استقرت مع هاجر وإسماعيل، وعاشت جرهم في ظل إسماعيل وأولاده وأحفاده زمناً طويلاً، ثم بدأت جرهم بالطغيان، فأخذت الحكم من أبناء إسماعيل، ثم

---

(١) سبأ: ١٥.

(٢) سبأ: ١٦-١٧.

جارت وظلمت واستحلت المحرمات في مكة.

قال المباركفوري: ساء أمر جرهم، وظلموا الوافدين إلى مكة، وفعلوا الفواحش في جوف الكعبة، واستحلوا أموال الكعبة التي تُهدى إليها.

قال المسعودي: كانت الفرس تهدي إلى الكعبة أموالاً وجواهر، وكان «ساسان بن بابك» قد أهدى غزالين من ذهب وسيوفاً وجواهر إلى البيت، فلما طغت جرهم سلّط الله عليهم من كنانة بني بكر وخزاعة فحاصروا جرهم، فلما انسحبوا أمام ضغط خزاعة وبني بكر من كنانة عمدوا إلى بئر زمزم فسدوه، ودرسوا موضعه، ودفنوا فيه الحجر الأسود والكنوز التي أرسلها الملوك.

وخزاعة كانت تنزل «مرَّ الظهران» مهاجرة من اليمن موطِنها الأصلي الأول، وسكنوا «مر الظهران»، وهو واد قرب مكة فيه قرية يقال لها «مرُّ»، تضاف إلى هذا الوادي فيقال: «مرُّ الظهران» فلما رأوا ما فعلت جرهم من الفساد، ورأت غضب العدنانيين من تصرفات جرهم، تحالفت خزاعة مع بطون من عدنان، وهم بنو بكر من كنانة، وأجلوا جرهم عن مكة، وخرجت جرهم من مكة وهم يبكون، فعادوا إلى اليمن ديارهم الأولى.

وقد وصف بعض الشعراء حزن جرهم عند مفارقتهم الكعبة نادمين فقال:

وقائلةٍ والدمع سكبٌ مُبادر ... وقد شرِقت بالدمع منها المحاجرُ
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامرُ
فقلت لها والقلب مني كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائرُ
بلى! نحن كنا أهلها فأزالنا ... صروف الليالي والجدودُ العواثرُ
وكنا ولاةَ البيت من بعد نابت ... نطوف بذاك البيت والخيرُ ظاهرُ
فأخرجنا منها المليكُ بقدرة ... كذلك يا للناس تجري المقادرُ
فصِرنا أحاديثاً وكنا بغبطة ... كذلك عضَّتنا السنون الغوابرُ
فسحّت دموع العين تبكي لبلدة ... بها حرمٌ أمنٌ وفيها المشاعرُ
وتبكي لبيت ليس يُؤذى حَمامُه ... يظل بها أمناً وفيها العصافرُ

وقائل هذا الشعر هو «عمرو بن مضاض الجرهمي» يتشوق مكة حين أجلتهم عنها

خزاعة، ثم اختصمت خزاعة مع حليفتها كنانة، فانتصرت خزاعة أول الأمر، ثم استطاع «قصي» أحد أجداد النبي ﷺ أن يُخرج خزاعة وبني بكر من مكة، واستتب له الأمر في مكة، فكان أول أمير من قريش على مكة، وقام قصي فجمّع قبائل قريش كلها في مكة والحرم، وبـذلك سُميَ «مجمعاً».

قال الشاعر:

قصيٌّ لعمري كان يُدعى مجمعاً   به جمـــــعَ الله القبائلَ من فِهر

وكان لقصي: الرفادة، والحجابة، والسقاية، والندوة، واللواء. فحاز قصي شرف مكة كله.

والخلاصة: كان الوضع السياسي كما يلي:

اليمن: تناوبت على البلاد اليمنية حكومات متعددة أهمها ملوك التبابعة من حمير، وإنَّ كلاً من الفرس والأحباش اسـتعمروا اليمنيين حين كان اليمنيون يسـتنجدونهم في ظروف معينة.

أما **شرق الجزيرة** من الحيرة إلى العراق، فقد كانت ولايات تابعة للحكم الفارسي.

أما **شمالي الجزيرة**، فهو كذلك كان تابعاً للحكم الرومان، ي وكان فيه الغساسنة.

أما **وسط الجزيرة** حيث الحرم وما جاوره من ديار العدنانيين، فقد كان مستقلاً لم تحكمه فارس ولا الأحباش ولم يحكمه الروم. وكان ذلك ـ كما قال العلماء ـ كرامة من الله لحرمه، وسكتان حرمه، وجيران حرمه. وفي هذا عبرة لكل معتبر.

يروي ابن هشام: أنه لما اشتد ظلم الأحباش على اليمن وأهله، خرج «سيف بن ذي يزن الحميري» حتى قدم على قيصر الروم فشكا إليه ما هم فيه من ظلم الأحباش، وسأله أن يُخرج الحبشة عنهم ويأخذ قيصر اليمن، ويعين عليها ملكاً يدين لقيصر بالولاء، فلم يجبه قيصر، فخرج من عنده وأتى «النعمان بن المنذر» وهو عامل كسرى على الحيرة والعراق فشكا له ظلم الأحباش لبلاده اليمن، فقال له: إن لي على كسرى وفادةً في كل عام، فأقم حتى يكون ذلك. ففعل سيف وأُدخل على كسرى، فقال له: أيها الملك غلبت على بلادنا الأغربة؟!

فقال كسرى: أي الأغربة؟ الحبشة أم السند؟ فقال سيف: الحبشة، وجئتك تنصرني، ويكون ملك بلادي لك. فماذا كان جواب كسرى؟ قال: بَعُدت بلادك مع قلة خيرها، فلم أكن

لأورط جيشاً من فارس بأرض العرب، لا حاجة لي بذلك.

ولقد تداركت عناية الله أرض الجزيرة، فأهدت الكعبةَ إلى مكة، فأصبحت البلد الحرام، وكانت حرماً آمناً من كل جبار ينـزهونه عن المظالم، ويؤمِّنون به الخائف، ويُجبرون الكسير، ويخافون من الظلم فيه، وقد مرّ معنا في دروس سابقة وصية «سبيعة بنت لاحب» لولدها تنهاه فيها عن الظلم بمكة.

وتبين له حرمتها ومكانتها وكان من ذلك قولها:

أبنيَّ لا تظلم بمكة لا الصغير ولا الكبير ... واحفظ محارمها بني ولا يغرنك الغَرور

أبني من يظلم بمكة يَلْقَ أطراف الشـرور ... الله أمنها وما بُنيت بعرصتها قصور

قال العلماء: أما وسط الجزيرة حيث الحرم وما جاوره من ديار العدنانيين، فقد كان مستقلاً لم يخضع لأحد، فقد حماها الله من سيطرة الجبابرة، وسياسة المتاجرة، فلم تصل إليها يد الأحباش الأوباش، ولا يد الفوارس الأنجاس، ولا يد الروم الأنكاس. لماذا؟

لأنها ـ كما قال العلماء ـ مشرق الأنوار، ومهبط الأسرار، وعما قريب يطلع نجمها وتسود الدنيا وما فيها.

<u>**الحالة الاقتصادية**</u> في جزيرة العرب: قال المؤرخون: ليس في جزيرة العرب في ذلك التاريخ اقتصاد يذكر، فالبلاد بَوادٍ صحراوية إلا ما كان من بلاد اليمن، فقد كانت خصبة في الجملة ولا سيما أيام سد مأرب.

قال تعالى: ﴿لَقَدۡ كَانَ لِسَبَإٖ فِي مَسۡكَنِهِمۡ ءَايَةٞۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٖ وَشِمَالٖۖ كُلُواْ مِن رِّزۡقِ رَبِّكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥۚ بَلۡدَةٞ طَيِّبَةٞ وَرَبٌّ غَفُورٞ ١٥ فَأَعۡرَضُواْ فَأَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ سَيۡلَ ٱلۡعَرِمِ وَبَدَّلۡنَٰهُم بِجَنَّتَيۡهِمۡ جَنَّتَيۡنِ ذَوَاتَيۡ أُكُلٍ خَمۡطٖ وَأَثۡلٖ وَشَيۡءٖ مِّن سِدۡرٖ قَلِيلٖ ١٦ ذَٰلِكَ جَزَيۡنَٰهُم بِمَا كَفَرُواْۖ وَهَلۡ نُجَٰزِيٓ إِلَّا ٱلۡكَفُورَ ١٧﴾ (١).

قال المؤرخون: كان السد بين ثلاثة أجبل، يصب ماء السيل إلى موضع واحد وليس لذلك الماء مخرج إلا من جهة واحدة، وكان الأولون قد سدوا ذلك الموضع بالحجارة الضخمة والرصاص، فيتجمع في السد ماء العيون وماء السيول فيصير خلف السد كالبحر، فكانوا إذا

---

(١) سبأ: ١٥– ١٧.

أرادوا السقي للزروع فتحوا من ذلك السد بقدر حاجتهم بأبواب محكمة، وحركات مُهندسة، فيسقون حسب حاجتهم ثم يسدونه متى أرادوا. ومن شعر عبيد الله بن قيس الرقَيات:

يـــــا ديـــــارَ الحبائـــــب	بـــين صـــــنعا ومـــــارب
جـــاءك الـــسعد غـــدوة	والثريـــــا بجانـــــب
مـــــن هـــــزيمِ كـــأنها	يرتمـــــي بالقواضـــــب
في اصطفـــــاقٍ ورنَّـــــةٍ	واعتـــــدال المـــــواكب

وقوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾: أي أعرضوا عن قبول التوحيد ودعوة الرسل، وعادوا إلى عبادة الشمس. (بعد سليمان وبلقيس).

قال ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: بعث الله تعالى ثلاثة عشر نبياً إلى ثلاث عشرة قرية باليمن، فدعوهم إلى الإيمان والطاعة، وذكروهم نعم الله عليهم، وخوفوهم عقابه فكذبوهم وقالوا: ما نعرف له علينا من نعمة، فقولوا لربكم فليحبس علينا هذه النعم إن استطاع؟!! فكان الجواب: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ﴾. خرِب سدّ مأرب وأجدبت الأرض، ورحل عنها السكان، قسم إلى العراق، وقسم إلى الشام، وقسم بيثرب وهم الأوس والخزرج.

ونقف قليلاً عند قوله تعالى: ﴿ فَأَعْرَضُواْ ﴾ فهذا يدلك على أن خراب السد كان نقمة إلهية سببها البعد عن طاعة الله، وطاعة رسله حيث عادوا إلى عبادة الشمس بعد بلقيس وسليمان.

وكانت تصب في السد أودية اليمن الكبرى تأتي من «الشَّحْر» وكان أكبرُ هذه الأودية واد يقال له «إذنة» وقد ذكر «الحسن الهمذاني» في كتابه «الإكليل» أنه شاهد هذا السد، وكان ذلك في نهاية القرن الرابع الهجري، ووصف السد كذلك الرحالة الفرنسي «آرنو» سنة ١٨٨٣م والرحالة «غلازر».

وقد وصف الأعشى السد وخرابه بقصيدة منها:

ففـــي ذاك للمُؤتـــسي أُســـوة	ومـــأرب عفّـــى عليهـــا العـــرِم
رخـــام بنتـــه لهـــم حمـــير	إذا جـــاء مـــواره لم يـــرم
فـــأروى الـــزروع وأعنابهـــا	عـــلى ســـعة مـــاؤهم إن قـــسم
فعاشـــوا بـــذلك في غِبطـــة	فحـــاربهم جـــارفٌ منهـــزم

فطـــــار القيـــــول وقيلاتُهـــــا ببهماء فيهـــا سراب يطِـــم
وطاروا ســــراعاً وما يقـــــدر ون منـــــه لشـــرب صبي فُطم

قال صاحب المعجم: فجرت السد فأرة ليكون أظهر في الأعجوبة، كما أفار الله الطوفان من التنور ليكون ذلك أعجب للأمة، وأظهر في العبرة. ولذلك قال خالد بن صفوان التميمي لرجل من أهل اليمن كان قد فخر عليه أمام الخليفة السفاح: ليس فيهم يا أمير المؤمنين إلا دابغ جلد، أو ناسج برد، أو سائس قرد، أو راكب عرد. غرقتهم فأرة، وملكتهم امرأة، ودل عليهم هدهد.

أما الصناعات: فكان في اليمن بعض الصناعات القليلة كالدروع والسلاح والكتان.

أما العدنانيون فكانوا يعيشون في الصحراء فيجمعون الكلأ والعشب لماشيتهم، ويعيشون على ألبانها ولحومها، إلا ما كان من قريش وقبائلها، فإنهم كانوا يعيشون على رحلتي الشتاء والصيف، فقد كانوا في رغد من العيش على خلاف غيرهم، وهذه السّعة في الرزق إنما كانت من أجل حماها للحرم، وتقديسها له، كما هو كرامة لأرحام وأصلاب ينتقل فيها محمد ﷺ؛ ولهذا منَّ الله عليهم بنعمتين عظيمتين ذكرهما في سورة قريش ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ﴾(١). هما الأمن من الخوف، والإطعام من جوع.

كانوا يسافرون رحلتين، ويريحون في الذهاب والإياب، وهم آمنون مطمئنون لا يمسهم أحد بسوء؛ لأن الناس كانوا يقولون: هؤلاء جيران البيت، وسكان حرم الله، وهم أهل الله؛ لأنهم ولاة الكعبة فلا تؤذوهم. وازداد تعظيم الملوك لهم لما أهلك الله أصحاب الفيل، فازدادت تلك المنافع لهم.

قال ابن زيد: كانت العرب يُغير بعضها على بعض، ويسبي بعضها بعضاً، فأمنت قريش لمكان الحرم، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا ءَامِنًا يُجْبَىٰٓ إِلَيْهِ ثَمَرَٰتُ كُلِّ شَىْءٍ﴾(٢).

ونظيره قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ﴾(٣).

---

(١) قريش: ١.

(٢) القصص: ٥٧.

(٣) العنكبوت: ٦٧.

قال صاحب التحرير والتنوير: وكان الذي سنَّ لهم هاتين الرحلتين: (هاشم بن عبد مناف). وسبب ذلك أنه كانت تعتريهم خَصاصة، فإذا لم يجد أهل بيت قوتاً لهم حمل رب البيت عياله إلى موضع معروف، فضُرب عليهم خباء، وبَقُوا فيه حتى يموتوا جوعاً، ويسمَّى ذلك: (الاعتفار). وحدَثَ أن أهل بيت من بني مخزوم أصابتهم فاقة شديدة فهموا بالاعتفار فبلغ خبرهم هاشماً، فقام هاشم خطيباً في قريش وقال: إنكم أحدثتم حدثاً تَقِلّون فيه، وتكثر العرب، وتُذَلّون فيه وتُعز العرب، وأنتم أهل حرم الله تعالى والناس لكم تبع، ويكاد هذا الاعتفار يأتي عليكم. . ، ثم جمع كل بني أب على رحلتين للتجارات، فما ربح الغني قسمه بينه وبين الفقير من عشيرته حتى صار فقيرهم كغنيهم. . .

وفي ذلك يقول مطرود الخزاعي:

يا أيها الرجل المحوِّلُ رَحْلَهُ ... هلَّا نزلتَ بآل عبد مناف
الآخذون العُهْدَ من آفاقها ... والراحلون لرحلة الإيلاف
والخالطون غنيهم بفقيرهم ... حتى يصير فقيرهم كالكافي

وفي قوله: الآخذون العُهْدَ من آفاقها، إشارة إلى العهود التي أخذوها من الملوك لحماية أمنهم وتجارتهم. فقد كان هاشم قد أخذ عهداً من ملك الروم، وأخذ أخوه عبد شمس عهداً من النجاشي، وأخذ أخوه المطلب عهداً من ملك اليمن، وأخذ أخوه نوفل عهداً من كسرى ملك الفرس. فاجتمع لهم بذلك أمن الطريق إلى اليمن والشام، والأمن على أنفسهم، وكان هؤلاء الأربعة يُسمَّونَ: (المُجيرين).

الفصل الثاني عشر
الحالة الاجتماعية عند العرب

الحالة الاجتماعية في بلاد العرب قبل بزوغ الفجر النبوي المحمدي:

قال العلماء: إن الفترة التي عاشتها الأمة العربية بدون وحي إلهي كانت طويلة جداً وهي المدة التي بين إسماعيل ومحمد ﷺ. وكان من نتائجها ظهور عادات في المجتمع العربي، منها ما هو سيئ جداً، ومنها ما هو حسن جداً، ولكن العادات السيئة غلبت على العادات الحسنة وأخفتها، وسنذكر شيئاً من هذه العادات السيئة والحسنة حتى نعتبر ونتأسى، وحتى نحمد الله على ما منّ به على هذه الأمة من نعمة الإسلام. ولعلَّ من أبرز هذه العادات السيئة والأمراض الاجتماعية.

الميسر: وهو القمار الذي كان للعرب في الجاهلية، وأول من ذُكر لُعب الميسر عنه «لقمان بن عاد» وهذا غير لقمان الحكيم. وكان لقمان بن عاد أكثر الناس لعباً بالميسر، فضرب به المثل فقالوا: (أيسر من لقمان). والميسر فيه إثم كبير، وهو ما يوقعه من العداوة والبغضاء بين المقامرين، ومن إضاعة الوقت، والاعتياد بالكسل واللهو البطالة، والصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وعن التفقه وحضور مجالس العلم، وعن التجارة والأعمال الأخرى التي يقوم بها قوام المدنيّة. وتلك آثام لها آثارها الأخروية كذلك، ولهذا الاعتبار حرّمه الإسلام، بل وحرّم كل لعب فيه قمار كالنرد ـ ويسمى في الجاهلية بالكعاب ـ والأَرَن، والنردشير.

ففي صحيح مسلم عن سليمان بن بريدة عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**من لعب بالنردشير فكأنما غمس يده في لحم خنزير ودمه**». وروى مالك من حديث أبي موسى الأشعري أنه ﷺ قال: «**من لعب بالنرد فقد عصى الله ورسوله**» كما ورد عنه ﷺ قوله: «**إياكم وهاتين الكعبتين فإنهما من ميسر العجم**». قال صاحب التحرير: يريد بذلك ﷺ النرد.

وورد عن علي قوله: والشطرنج من الميسر. وورد عنه أيضاً رضي الله عنه: أنه مر على مجلس من مجالس بني تميم، وهم يلعبون بالشطرنج، فوقف عليهم فقال: أما والله لغير هذا خلقتم! أما والله لولا أن تكون سُنة لضربتُ به وجوهكم.

وقال أبو موسى الأشعري: لا يلعب بالنرد إلا خاطئ.

وسئل أبو جعفر عن الشطرنج فقال: دعونا من هذه المجوسية، وهذا قول جمهور الفقهاء

ومالك وأبو حنيفة.

وقال الشافعي: هو خارج عن الميسر؛ لأن الميسر ما يوجب دفع المال وأخذه، والشطرنج ليس كذلك، وهو ليس بحرام إذا توفرت في لعبه الشروط التالية: إذا خلا من الرهان، واللسان عن الطغيان، والصلاة عن النسيان. ولذلك جاءهم الإسلام بتحريم الميسر. وذلك قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ (١).

قال القاسمي في تفسيره: ربما قامر أحدهم بأهله وولده فإذا أخذه الخصم وقعت العداوة بينهما أبداً، ومجرد وقوع العداوة مفسدة عظيمة. أما الغالب الرابح، فتنشرح نفسه، وتمنعه متابعة الكسب الحرام عن ذكر الله، وعن الصلاة، ثم إن الميسر يُهيج أكثر الصفات الذميمة فيبخل ويحقد، ويغضب، ويحسد، ويتكبر ويبطر.

قال العلماء: ويحسن بنا الانتباه إلى دقة الاسم الذي اختاره الله عز وجل في كتابه للقمار، إنه (الميسر) ولم يُسَمِّه (المُعسر) فما هو السر؟

والجواب: أنه ما من أحد يُقدم على لعب الميسر وهو يظن نفسه أنه يخسر، وكل من يلعبون القمار إنما يفعلون ذلك على أمل الربح والكسب، ولذلك جاء الاسم المعبر عن حالة اللاعب، فهو يلعب على وهم الكسب، فإن كسب فالكسب يغريه بالمزيد، وقد يبيع كل ما عنده أملاً في تعويض الخسارة.

ثم كسب الميسر هيّن على النفس ينفقه صاحبه فيما لا ينفعه، بل قد ينفقه فيما يضر، فالخسارة محسوبة على المقامر، والمكسب ليس له.

ثم الذين يلعبون الميسر لا تربطهم صداقة ـ كما قال العلماء ـ، فكل واحد منهم حريص على تفريغ جيوب الآخرين، وهذا اللون من اللعب يُعطل قدرة الفرد على الكسب الحلال، لأن الكسب الحلال يحتاج إلى حركة في الأرض، والمقامر زاهد في العمل يريد الكسب السريع بلا تعب، ثم إن المقامر عند خسرانه تنشل حركته لأنه مهما سعى في الأرض فهو لا يستطيع

---

(١) المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

وفاء ديونه.

الخمر: وهو من الأمراض الاجتماعية التي كانت متفشية عند العرب مع الميسر. قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: كان العرب يتباهون بتعتيق الخمر ويجتمعون على شربها، ويتفاخرون بغلاء ثمن المعتق، وكان ذلك من عادة أهل المدن عندهم أو الأغنياء، أو الشعراء ولذلك يقول الأعشى:

وسبيئةٍ[1] مما تُعَتِّق بابـــــلٌ   كدم الذبيح سلبتُها جريالها[2]

وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ﴾.

والرجس: هو الشيء الرديء القذر الخبيث، والقذارة والخبث هما من الأمور التي قد تكون حسية ـ كما قال علماؤنا ـ مثل الخمر، وقد تكون معنوية كالأنصاب، وجمع الحق عز وجل في الآية القذارتين معاً.

وانتبه يا عبد الله فقد قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ . . ﴾ جاء باسم الخمر عاماً ولم يقل الخمر هي عصير العنب أو التفاح أو التمر إنما جاء بالاسم العام (الخمر)؛ ليشمل كل شيء يخامر العقل ويخالطه ويستره، والعجيب أن هذه الآية نزلت في بلاد ليس فيها شيء من عصير العنب، لكن الحق عز وجل جاء بالتحريم الشامل لكل ما يخالط العقل.

إذاً: ولماذا كان الخمر والميسر رجساً من عمل الشيطان؟ والجواب عند العلماء جميل، وهو: أن الحق تبارك وتعالى خلق الإنسان وجعله خليفة في الأرض، وسخر له كل شيء، وأمره أن يعبده عز وجل وحده، وأراد الله أن يضمن للإنسان سلامة أمور معينة، تكون عوناً له على أداء الخلافة في الأرض والعبادة لله وحده، فحرم الاعتداء على النفس بالقتل أو غيره، وسلامة عرضه لسلامة النسل، وسلامة المال حتى لا يأخذ غيرك كسبك الناتج عن حركتك بغير حق، وسلامة الدين فلا يُكره إنسان على اعتناق ما لا يريد، وسلامة العقل فلا يجني على العقل بما يغلبه، ويفقده التمييز بين البدائل.

---

(١) السبيئة: الخمر.

(٢) الجريال: اللون الأحمر.

قال العلماء: إن الإنسان يحفظ حياته بالعقل فله اختيارات، أما الحيوان فيحفظ حياته بالغريزة، فلا اختيارات له، فمثلاً لو ركبت حماراً فاعترضت قناة صغيرة فيها ماء، وأردت أن تجبر الحمار على القفز عليها، فمهما ضربته لن يستجيب لك لأن الغريزة تمنعه، أما الإنسان فقد ينتابه الغرور، وتكون عنده روح المجازفة، فيقفز فقد ينجو، وقد يقع، فالإنسان يحمي حياته بالعقل. . فلا يصح أن يطمس هذه القدرة العقلية بالخمر؛ لأنه إذا طمس قدرة الاختيار فالغرائز غير مؤهلة عند الإنسان لحمايته كما عند الحيوان، والإنسان يحفظ عقله لذلك حرم الله الخمر لأنها تستر العقل، وكل ما يستر العقل حرام، وإن كان أصله حلالاً، ذلك لأن العقل هو مناط التكليف، والإسلام أمر بحمايته.

والخمر يصدّ عن ذكر الله كذلك، لأنها تجعل العقل في غيبوبة، كما تدفع شاربها إلى الخصومات والجرائم، ولذلك ورد عن عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً بإسناد حسن أنه ﷺ قال: «**شارب الخمر كعابد وثن**». لذلك قطع القرآن بتحريمها بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ۝٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ۝٩١﴾ (١). والمشهور أن تحريمها كان سنة ثلاث من الهجرة النبوية بعد وقعة أحد.

قال بعض المفسرين: إن الله تعالى لم يدع شيئاً من الكرامة والبر إلا أعطاه لهذه الأمة، ومن كرامته وإحسانه عز وجل أنه لم يوجب عليهم الشرائع دفعة واحدة، ولكن أوجب عليهم مرة بعد مرة (بالتدريج) وكذلك تحريم الخمر. فكانت أول آية نزلت في الخمر هي قوله تعالى: ﴿ ۞ يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِۖ قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثۡمُهُمَآ أَكۡبَرُ مِن نَّفۡعِهِمَاۗ ﴾ (٢) ثم نزل قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٣)، ثم نزلت آيات سورة المائدة: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ (٤).

---

(١) المائدة: ٩٠ ـ ٩١.

(٢) البقرة: ٢١٩.

(٣) النساء: ٤٣.

(٤) المائدة: ٩١.

وقد روى الإمام أحمد وأبو داود والترمذي عن عمر أنه قال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً لما نزل التحريم فنزلت آية البقرة: ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ ﴾ (١)، فدعي عمر فقرئت عليه فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً.

فنزلت الآية التي في النساء: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْرَبُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمْ سُكَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا۟ مَا تَقُولُونَ ﴾ (٢)، فكان منادي رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى لا يقربن الصلاة سكران، فدُعي عمر فقرئت عليه، فقال: اللهم بين لنا في الخمر بياناً شافياً، فدعي عمر فقرئت عليه آية المائدة بعد نزولها: ﴿وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴾ قال عمر: انتهينا انتهينا. ولذلك كانت هذه الآية التي في المائدة دالة على تأكيد تحريم الخمر ـ كما قال القاسمي صاحب التفسير المعروف بمحاسن التأويل عليه رحمة الله ـ.

هنا تظهر حكمة التشريع على مراحل، فقد كان تعلق العرب بالخمر شديداً، فقد روى «ابن عبد البر» في كتاب الاستيعاب: أن الأعشى ـ الشاعر الجاهلي ـ توجه إلى المدينة ليُسلم، فلقيه بعض المشركين في الطريق، فقالوا له: أين تذهب؟ فأخبرهم بأنه يريد محمداً ﷺ، فقالوا: لا تَصِلُ إليه، فإنه يأمرك بالصلاة؛ فقال: إن خدمة الرب واجبة، فقالوا: إنه يأمرك بإعطاء المال للفقراء، فقال الأعشى: اصطناع المعروف واجب، فقيل له: إنه ينهى عن الزنى، فقال الأعشى: هو فحش وقبيح في العقل، فقيل له: إنه ينهى عن شرب الخمر، فقال: أما هذا فإني لا أصبر عليه. فرجع، وقال: أشرب الخمر سنة وأرجع إليه، فلم يصل إلى منزله حتى سقط عن البعير فانكسرت عنقه فمات.

وكلكم يعرف شعر «طرفة بن العبد» عندما يقول:

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى   وَجَدِّك لم أحفِ،،ل متى قام عُوَّدي

فمنهن سبقي العاذلات بشَربة   كُميتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزْبد. . .

من هنا تدرك أنه كان لا همّ له إلا هذه الشهوات، مما يدل على شدة تعلقهم بالخمر.

---

(١) البقرة: ٢١٩.

(٢) النساء: ٤٣.

قال صاحب التحرير والتنوير: ولأجل ما في الخمر من مضار حرّمها بعض العرب على أنفسهم في الجاهلية منهم: عفيف بن معدي كرب الكندي، وصفوان بن أمية الكناني، وكثيرون، ومنهم قيس بن عاصم المنقري كان شراباً في الجاهلية، ثم حرّمها على نفسه، وكان سبب ذلك أنه سكر مرة فسب أبويه، وغمز عُكْنَةَ ابنته، وكلَّم القمر بشيء، وأعطى الخمّار مالاً كثيراً، فلما أفاق كلَّموه في ذلك فحرّمها على نفسه،

وفي ذلك يقول:

رأيــت الخمــر صــالحةً وفيهــا ... خــصالٌ تفــسد الرجــل الحلــيما
فــلا والله أشربُهــا صــحيحاً ... ولا أشــفى بهــا أبــداً ســقيما
ولا أعطــي بهــا ثمنــاً حيــاتي ... ولا أدعــو لهــا أبــداً نــديما
فــإن الخمر تفضح شاربيهــا ... وتُجنيهــم بهــا الأمرَ العظيمــا

ثم إن شاربها يعيش في وهم عند سكره، ويظن نفسه ملكاً، أو أشجع أهل الأرض. قال حسان:

ونشربها فتتركنا ملوكاً ... وأُسْــداً ما يُنَهْنِهنا اللقاء

وتلمس ذلك في قول المنخَّل اليشكري يقارن بين سكره وصحوه فيقول:

فــإذا شـربت فإنني ... ربُّ الخورنق والسرير
وإذا صحــوت فإنني ... ربُّ الشويهة والبعيــر

قال القرطبي: وقد تجعل الخمر شاربها ضُحَكَةً للعقلاء، إذ ربما عبث الشارب ببوله، وعذرته، وقد شوهد بعض هؤلاء السكارى يمسح وجهه ببوله ويقول: اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين. ورئي بعض من يشرب والكلب يلحس وجهه وهو يقول: أكرمك الله.

والخمر أم الخبائث، فقد روى النسائي عن عثمان أنه قال: اجتنبوا الخمر فإنها أم الخبائث، إنه كان ممن قبلكم رجل تعبّد، فَعَلِقَتْهُ امرأة غويّة، فأرسلت إليه جاريتها فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها، فصارت كلما دخل بابا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضيئة

عندها غلام وباطية خمر، فقالت: والله ما دعوتك للشهادة، وإنما دعوتك لتقع عليّ، أو تشرب من هذا الخمر كأساً، أو تقتل هذا الغلام. قال: فاسقني من هذا الخمر كأساً، فسقته، فقال: زيدوني، فلم يَرُم ـ أي لم يبرح ـ حتى وقع عليها وقتل النفس. ثم قال عثمان: فاجتنبوا الخمر فإنه والله لا يجتمع الإيمان وإدمان الخمر إلا ليوشك أن يُخرج أحدهما صاحبه.

وروى مسلم من حديث شعبة والبيهقي عن سعد بن أبي وقاص قال: أتيت على نفر من الأنصار، فقالوا: تعال نطعْمك ونُسقِك خمراً ـ وذلك قبل تحريمها ـ قال: فأتيتهم في حُشٍّ[١] وإذا رأس جزور مشوي، وزِقٌّ خمرٍ، فأكلت وشربت معهم،

فذكرت الأنصار والمهاجرين ففضلت المهاجرين، فأخذ رجل من الأنصار لحي جمل فضربني به على أنفي فغرزه، وكانت أنف سعد مغروزة[٢]. فنزلت: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ. .فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾. قال العلماء: والخمر كل ما يُسكر.

قال أبو عبد الله المازري: ذهب جمهور العلماء من السلف وغيرهم إلى أن كل ما يُسكر نوعه، حَرُم شربه قليلاً كان أو كثيراً، نيئاً كان أو مطبوخاً، ولا فرق بين المستخرجة من العنب أو غير العنب، وأنَّ من شرب من ذلك حُدَّ.

والمُستخرج من العنب اتفق الإجماع على تحريمه، ولو نقطة منه، وأما ما عدا ذلك ـ من غير العنب ـ فالجمهور على التحريم، وخالف أبو حنيفة فقال: الخمر لا يكون إلا من العنب أو التمر، وما سواهما لا يسمى خمراً، وإنما يسمى نبيذاً فلا يوجب الحد من سواهما إذا لم يقع الإسكار، فإذا وقع الإسكار استوى الجميع. والصحيح أن كلَّ ما يُسكر نوعه فهو خمر يحرم شُربه. يؤيد هذا قول الحكمي مبيناً أن نبيذ التمر إذا أسكر فهو خمر، ولا يعترض عليه لأن الصحابة هم أعلم بلسان العرب، لأنهم عقلوا أن شراب نبيذ التمر خمراً، إذ ليس لهم شراب غيره وقتها في المدينة. قال الحكمي:

لنا خمر وليســـــت خَمر كرمٍ ... ولكـــن من نتـــاج الباسقات
كرام في السمـــاء ذهبن طولا ... وفـــات ثمارُها أيـــدي الجناة

---

(١) بستان.

(٢) أي منخوسة.

وفي هذا ردّ على الأحناف الذين قالوا: إن الخمر لا يكون إلا من العنب، وإن غيره يسمى نبيذاً قال الشاعر الصيدلاني:

تركــتُ النبيذَ لأهل النبيذ   وصرت حليفــاً لمـــــن عابه
شراب يُدنِّسُ عِرضَ الفتى   ويفتـــــــــح للشـــر أبوابه

وثبت في النقل الصحيح عن عمر، أنه خطب على منبر النبي ﷺ فقال: يا أيها الناس إنه قد نزل تحريم الخمر وهي من خمسة: من العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير. والخمر ما خامر العقل. قال العلماء: وهذا أبين ما يكون في معنى الخمر، يخطب به عمر بالمدينة على المنبر بمحضر من جماعة الصحابة.

الفصل الثالث عشر
واد البنات

وأد البنات: وهي عادة اجتماعية سيئة جداً من عادات العرب.

قال صاحب التحرير والتنوير: الوأد: دفن الطفلة وهي حية. وأصل معنى الوأد: الثقل.

قال تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا ۚ﴾ [1]. أي لا يثقل عليه ولا يشق. وهو هنا: إثقال البنت المدفونة بالتراب.

قال الزمخشري: كان الرجل إذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الإبل أو الغنم في البادية، وإن أراد قتلها تركها حتى إذا كانت سداسية، قال لأمها: طيبيها وزينيها حتى أذهب بها إلى أحمائها، وقد حفر لها بئراً في الصحراء، فيبلغ بها البئر فيقول لها: انظري فيها، ثم يدفعها من خلفها، ويهيل عليها التراب حتى تستوي البئر بالأرض.

وهناك صورة أخرى للوأد. قالوا: كانت الحامل إذا أقربت[2] حفرت حفرة فتمخضت على رأس الحفرة، فإذا ولدت بنتاً رمت بها في الحفرة، وإن ولدت ولداً حبسته.

قال صاحب التحرير والتنوير ابن عاشور: كان بعضهم يئد البنت المولودة حديثاً، وبعضهم يئد البنت إذا يفعت ومشت وتكلمت، وكانوا متمالئين عليه، ويحسبونه حقاً للأب، فلا ينكره الجماعة على الفاعل، لذلك سمى الله هذا الفعل حكماً.

قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴿٥٧﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [3].

قال العلماء: وهذا من سوء أقوالهم، وأقبح معتقداتهم؛ لأنه في جعلهم لله البنات عيبان: الأول أنهم نسبوا لله الولد (سواء كان ذلك ذكراً أو أنثى)؛ فهو افتراء باطل يتنزه الله عنه؛ الثاني: أنهم اختاروا أخس الأنواع في نظرهم. والعاقل لا يقول بل ولا يستطيع إنسان أن يقول: إن

(١) البقرة: ٢٥٥.

(٢) أي اقترب موعد ولادتها.

(٣) النحل: ٥٧ ـ ٥٩.

البنات أخس الأنواع. لماذا؟ قال العلماء: لأن بالبنات يكون بقاء النوع، ولذا قال العباس: لو سمع الله ما قال الناس في الناس لما كان الناس. أي لو استجاب الله لرغبة الناس في أنهم لا يريدون البنات، فاستجاب لهم ولم يعطهم البنات ماذا سيحدث؟ والجواب: سينقطع النسل، وهذا مطلب غبي، فالبنت هي التي تلد الولد، وبها بقاء النوع واستمرار النسل.

وقد ورد عن عمر بن الخطاب قوله: أمران في الجاهلية أحدهما يبكيني والآخر يضحكني، أما الذي يبكيني فقد ذهبت بابنة لي لوأدها، فكنت أحفر لها الحفرة وتنفض التراب عن لحيتي وهي لا تدري ماذا أريد لها، فإذا تذكرت ذلك بكيت. والأخرى: كنت أصنع إلهاً من تمر أضعه عند رأسي يحرسني ليلاً، فإذا أصبحت معافى أكلته، فإذا تذكرت ذلك ضحكت من نفسي.

وإذا سأل سائل: لماذا يفعلون ذلك؟ جاء الجواب من القرطبي وغيره. قال القرطبي: كانوا يدفنون البنات أحياء لخصلتين:

إحداهما: كانوا يقولون: إن الملائكة بنات الله فألحقوا البنات به، وكانت خزاعة وكنانة هما اللتان تقولان ذلك، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ ٱلْبَنَٰتِ سُبْحَٰنَهُۥ ۙ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ ﴾ (١).

الثانية: إما مخافة من إغارة العدو عليهم فيسبي نساءهم، ويسترقهم، وإما مخافة الفقر في سني الجدب، لأن الذَّكر يحتال للكسب بالغارة والنهب، وغير ذلك، أما الأنثى فهي عالة على أهلها، كانوا يكرهون أن تشاركهم في طعامهم.

وكان أحدهم ينشد عند الوأد:

سميتُها إنْ ولدت تموت ... والقبر صهر ضامنٌ زِمّيت

وقد أشار القرآن إلى هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾(٢). ساء ما يحكمون في الحالتين: حالة الإمساك على هون ومذلة، أو حالة دسها في التراب، فكلاهما إساءة. والكظيم: المملوء حقداً وغيظاً على امرأته؛حتى لكأن ولادة الذكور أو

---

(١) النحل: ٥٧.

(٢) النحل: ٥٨ ـ ٥٩.

الإناث راجع إليها، ولذلك فإن المرأة العربية التي عاصرت تلك الأحداث فطنت إلى ما لم نعرفه نحن إلا حديثاً من قريب.

قال علماؤنا: لقد اكتشف العلم الحديث أن أمر إنجاب الولد أو البنت راجع إلى الرجل، وقد ذكر الأصمعي أن أعرابية ولدت أنثى لزوجها أبي حمزة، فهجرها لشدة غيظه من ذلك ولم يعد يجاورها، فلما طال ذلك عليها قالت:

مــــا لأبي حــــــمزة لا يأتينـــا يظــــل بالبيـــت الـــذي يَلِينـــا
غـــضبان ألا نلـــــدَ البنينـــا تـــا الله مـــا ذلـــك في أيـــدينا
فنحـــــن كالأرض لغارِسينـــا نعطي لهم مثـل الــــذي أُعطينا

وقد أشار صاحب التحرير والتنوير إلى ما يشبه قصة أبي حمزة مع زوجته أم حمزة وهجره لها، وبين أن ذلك قد فشا فيهم وانتشر.

فقال رحمه الله: ولما فشا فيهم كراهة ولادة الأنثى نما فيهم وفي نفوسهم بغضها، فتحركت فيهم العواطف الإجرامية، فالرجل يكره أن تولد له أنثى، والمرأة تكره ولادة الأنثى حتى لا يفارقها زوجها، لأن الزوج كان يهجر زوجه إذا ولدت أنثى، ثم قال: وقد توارث هذا الجهل أكثر الأمم على تفاوت بينهم. ومن كلام بعضهم وقد ماتت ابنته: «نعم الصهر القبر».

قال المفسرون: وما ذكره القرآن من بغضهم للبنات مشهور ومعروف؛ حتى في أشعارهم، فهذا «عقيل المري» لما خُطبت ابنته الجرباء فقال:

إني وإن سيـــــق إليّ المهرُ ألف وعُبدان وخور عشر
أحب أصهاري إليّ القبر

وقال عبد الله بن طاهر:

لكل أبي بنتٍ يراعي شؤونها ثلاثـــــــة أصهار إذا حُمد الصّهر
فبـعلٌ يراعيها وخـدر يُكِنُّها وقبر يواريهـــــــا وخيرهم القبر

وكان يقولون: إن موتها خير لها، خوف العار، وخوف تزوج غير الأكفاء، وأنْ تُهان بناتهم بعد موتهم.

وفي ذلك يقول القائل:

تهوى حياتي وأهوى موتها شفقاً   والموت أكرم نزّال على الحُرم

وقد ذكر «الآلوسي» في تفسيره: أن أول قبيلة من العرب وأدتْ ربيعةُ، وسبب ذلك أنه سبي لأميرهم «قيس بن عاصم» بنت بعد غارة عليهم من «الريان بن المنذر» أخي «النعمان بن المنذر» لمنعهم الأتاوة، فخيرت برضاها بين أبيها ومن هي عنده، فاختارت من هي عنده وهو «عمرو بن المشمرج» وآثرته على أبيها، فغضب قيس بن عاصم وسنّ في العرب الوأد ونذره ثم شاع الوأد بعد ذلك.

قال العلماء: ولم يكن الوأد معمولاً به في كل قبائل العرب، ولكن كان يفعله بعضهم، وأولهم ربيعة، وقبائل كندة وبنو تميم كذلك.

قال قتادة: كانت الجاهلية يقتل أحدهم ابنته، ويغذو كلبه، فعاتبهم الله في ذلك بقوله عز وجل: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾ (١).

قال المفسرون: وكان ذوو الشرف من العرب يمتنعون من هذا أو يمنعون منه، وكان «صعصعة بن ناجية» عم الفرزدق، وقيل جده، إذا أحس بشيء من ذلك ـ أحدهم يريد وأد ابنته ـ وجه إلى والد البنت إبلاً يستحييها بذلك، فقال الفرزدق مفتخراً به:

وعمي الذي منع الوائدات   فأحيـــا الوئيدَ فلم تُوْأدِ

كان يفتدي البنت من أبيها إذا كان من قومه بناقتين عشراوين وجمل، فجاء الإسلام وقد أحيا سبعين موؤدة ـ كما قال القرطبي ـ.

وفي الطبراني: أن صعصعة هذا قال للنبي ﷺ: يا رسول الله إني عملت أعمالاً في الجاهلية فهل لي فيها أجر؟ أحييت كذا وكذا موؤدة. فقال ﷺ: لك أجر إذ مَنَّ الله عليك بالإسلام.

---

(١) التكوير: ٨.

وذكر الآلوسي وغيره أن رجلاً قال للنبي ﷺ: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق ما أجد حلاوة الإسلام منذ أسلمت، وقد كان لي في الجاهلية بنت وأَمرتُ امرأتي أن تزينها، ثم أخرجتها فلما انتهيت إلى واد بعيد القعر ألقيتها فقالت لي: يا أبت قتلتني. فكلما ذكرت قولها لم ينفعني شيء!! فقال ﷺ: «**ما في الجاهلية فقد هدمه الإسلام، وما في الإسلام يهدمه الاستغفار**». وكان» زيد بن عمرو بن نفيل» يحيي الموؤدة ويقول لأبيها: أنا أكفيك مؤونتها، فإذا ترعرت خَيَّرَهُ بين إعادتها له أو يبقيها عنده. وقد جاء «قيس بن عاصم» إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني وأدت ثماني بنات كن لي في الجـاهلية، فقال ﷺ: «**أعتق عن كل واحدة منهن رقبة**». فقال قيس: يا نبي الله إني صاحب إبل، فقال ﷺ: «**أهد عن كل واحدة منهن هدياً**» وفي رواية: «**فأهد عن كل واحدة منهن بدنة إن شئت**»(١).

وقوله تعالى ﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ﴾ يدلك على أنهم بلغوا مبلغاً لا مزيد عليه من النّفرة من البنت، فالرجل يسود وجهه، ثم هو يختفي من القوم من شدة نفرته من البنت، ثم يقدم على قتلها مع أن الولد محبوب في الطبع، فهم بذلك يخالفون الفطرة البشرية. وقد تبقى هذه الرواسب الجاهلية من تفضيل الذكر حتى بعد إسلام الرجل.

فقد ذكر صاحب الروضة أن الحجاج سأل بعض جلسائه عن أرق الصوت عندهم ما هو؟ فقال أحدهم: ما سمعت صوتاً أرق من قارئ حسن الصوت يقرأ كتاب الله في جوف الليل. وقال آخر: ما سمعت صوتاً أعجب عندي من أن أترك امرأتي ماخضاً وأتوجه إلى المسجد مبكراً فيأتيني آتٍ يبشرني بغلام، فقال واحسناه. وقال الثالث: ـ وكان اسمه شعبة بن علقمة التميمي ـ ما سمعت صوتاً أعجب عندي من أن أكون جائعاً فأسمع خضخضة الخوان. فقال الحجاج: أبيتم يا بني تميم إلا الزاد.

وقد علّق صاحب التفسير(٢) على قول التميمي ببيت من الشعر قال فيه:

أيها المحبوس في رهن الطعام   سوف تنجو إن تحملت الفطام

---

(١) أخرجه البزار والحاكم والبيهقي عن عمر رضي الله عنه.

(٢) روح البيان.

قال الجزائري[1]: وجاء الإسلام فندد بهذه العادة ووبخ فاعلها فقال: ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ﴾، وذلك يوم القيامة وهو سؤال توبيخ للقاتل، وسؤال إدخال الرعب في قلبه، تسال البنت عن تعيين الذنب الموجب لقتلها دون أن تسأل عن قاتلها؛ وذلك لزيادة التهديد والوعيد، لأن السؤال عن تعيين الذنب مع وجود الوائد الذي يسمع السؤال ـ أنه لا ذنب لها ـ إشعار للوالد بأنه غير معذور فيما صنع بها.

قال ابن عباس: وفي هذه الآية دليل على براءة أولاد المشركين؛ لأنه لابد للعقوبة من ذنب.

ثم بين الإسلام أن الإحسان إليهن يقي من النار: ففي صحيح مسلم من حديث أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**من عال جاريتين حتى تبلغا جاء يوم القيامة أنا وهو، وضم أصابعه ﷺ**».

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: جاءتني امرأة ومعها ابنتان لها، فسألتني شيئاً فلم تجد عندي غير تمرة واحدة، فأعطيتها إياها، فأخذتها فقسمتها بين ابنتيها، ولم تأكل هي شيئاً، ثم قامت وخرجت وابنتاها، فدخل رسول الله ﷺ فحدثته حديثها، فقال النبي ﷺ: «**من ابتلي من البنات بشيء فأحسن إليهن كن له ستراً من النار**».

ومن عاداتهم السيئة كذلك:

قتل الأولاد مطلقاً ذكوراً كانوا أو إناثا، وذلك يكون منهم عندما توجد مجاعة، أو لمجرد توقع الفقر، أو تلوح آثار محل أو قحط بانقطاع المطر أو قلته، فجاء الإسلام فحرّم هذه العادة الشنيعة فقال عز وجل: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ﴾ [2].

وقال: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ﴾ [3]. ففي الآية الأولى: من إملاق هنا إشارة للفقر الذي حل بالفعل والواقع، وفي قوله: خشية إملاق: هنا لفقر متوقع، فهو خطاب لمن كان

(١) في كتابه أيسر التفاسير.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) الإسراء: ٣١.

غنياً في المال خائفاً من الفقر في المستقبل.

قال العلماء: والآيتان تحذران الإنسان أن يتعدى اختصاصه، فيدخل في حسابه قضية الرزق التي تدفعه إلى قتل ولده، فالله يقول: إياكم أن تدخلوا مسألة الرزق في حسابكم، لأنكم لم تخلقوا أنفسكم، ولم تخلقوا ذريتكم، بل الله هو الذي استدعاكم إلى الوجود، وما دام الله هو الخالق، وهو الذي استدعاك للوجود فهو المتكفل برزقك، ورزق أولادك، ورزق الجميع، فالمولود يولد ومعه رزقه فلا تنشغل. وقدم سبحانه في سورة الأنعام خطاب الآباء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ . . ﴾ تعجيلاً بالبشارة للآباء الفقراء بضمان الرزق، وقدم في الإسراء ﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ ..﴾ لتطمين الآباء بضمان رزق الأولاد. وجاء تحريم قتل الأولاد والنهي عنه سواء كان الأب متلبساً بالفقر أو يخاف فقراً مقبلاً.

قال البروسوي وغيره: إنما حرمه الإسلام وعدّه ذنباً عظيماً بقوله: ﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئًا .. ﴾ لأنه بالقتل للولد قد أخطأ في جوانب متعددة:

أولها: إنك بالقتل هدمت بنيان الله، ولا يهدم بنيان الله إلا الله.

ثانيها: بالقتل قد قطعت سلسلة التناسل في الأرض.

ثالثها: أنك تعديت على غريزة الحنان والعطف؛ لأن ولدك بعض منك، ثم في ذلك ترك التوكل في أمر الرزق الذي يؤدي إلى تكذيب الله تعالى القائل: ﴿۞ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا ۚ كُلٌّ فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾ (١).

وفي حديث لأنس قال: خرجت مع رسول الله ﷺ في حاجة فرأينا طيراً يَلْحَنُ بصوت جهوري، فقال ﷺ: «**أتدري ما يقول يا أنس؟**» قلت: الله ورسوله أعلم بذلك، قال ﷺ: «**إنه يقول: يارب أذهبت بصري وخلقتني أعمى فارزقني فإني جائع**»، قال أنس: فبينما نحن كذلك إذ طار رتل من جراد ودخل بعضه في فم الطائر فابتلعه، ثم رفع الطائر صوته وصار يغرد، فقال ﷺ: «**أتدري ما يقول يا أنس**» قلت: الله ورسوله أعلم.

قال ﷺ: «**إنه يقول: الحمد لله الذي لم ينس من ذكره**». وفي رواية: «**من توكل على الله كفاه**».

---

(١) هود: ٦.

قال ابن عباس: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فاقرأ قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓا۟ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُوا۟ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّوا۟ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴾ (١).

(١) الأنعام: ١٤٠.

الفصل الرابع عشر
تبرج النساء وأنواع الانكحة عندهم

ومن مفاسد الجاهلية:

تبرج النساء: وهو خروج المرأة كاشفة عن محاسنها، مارة بالرجال الأجانب، متكسرة في مشيتها كأنها تعرض نفسها وتغري بها غيرها.

قال القاسمي في تفسيره: والتبرج هو التبختر والتكسر في المشي، بإظهار الزينة، وكشف ما يحرك شهوة الرجال، من لبس رقيقِ الثياب التي لا تواري الجسم، وإبداء الجيد والقلائد والقرط، وكل ذلك نهى عنه الإسلام، لما فيه من المفسدة والتعرض لكبيرة الفاحشة، حيث لا دين يمنع، ولا أدب يردع. قال تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾ [1].

ما هي الجاهلية الأولى؟ والجواب ما قاله ابن عطية ـ رحمه الله تعالى ـ والمبرد وغيرهما.

قال ابن عطية: والذي يظهر لي أنه عز وجل أشار إلى الجاهلية التي لحقنها، فأُمرن بالنقلة عن سيرتهن فيها. وهي ما كان قبل الشرع من سيرة الكفرة؛ لأنهم كانوا لا غيرة عندهم.

والجاهلية: هي الفترة التي كان عليها العرب قبل الإسلام وهذه نسبة إلى الجاهل؛ لأنهم كانوا جاهلين بالله وبالتوحيد والشرائع. **والعرب تطلق الجهل على أمرين:**

الأول: على عدم العلم، ويشير السموأل إلى هذا المعنى حين يقول:

سلي ـ إن جَهلْتِ ـ الناسَ عنا وعنهم فليس سواءً عالم وجهول

ومن شعر النابغة قوله: وليس جاهلُ شيءٍ كالذي علما، **والثاني** وقد يطلقون لفظ الجهل على ما يقابل الحلم، فيقال لغير الحليم جاهل.

كقول أبي تمام:

بجهلٍ كجهلِ السيف والسيف مُنتضَى وحلمٍ كحلم السيف والسيفُ مغمد

قال ابن عاشور: وهذا اللفظ (الجاهلية) هو من مبتكرات القرآن الكريم، وصف القرآن

---

(١) الأحزاب: ٣٣.

به أهل الشرك تنفيراً من الجهل، وترغيباً في العلم، ولذلك ورد ذكر لفظ (الجاهلية) في القرآن في مقامات الذم.

قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (٢) وقال تعالى: ﴿وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ﴾ (٣). إضافة إلى الآية التي بين أيدينا ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ﴾ وهكذا فقد كان لفظ الجاهلية لم يُسمع إلا من القرآن الكريم، أو في كلام المسلمين بعد نزول القرآن الكريم، فمن ذلك ما كان من ابن عباس يقول كان أبي في الجاهلية يقول: اِسقنا كأساً دهاقاً، وفي حديث حكيم بن حزام: أنه سأل النبي ﷺ عن أشياء كان يتحنث بها في الجاهلية من صدقةٍ وصلة رحم. وقالوا: شعر الجاهلية، وأيام الجاهلية. وقوله تعالى: (الجاهلية الأولى) قال بعضهم: الأولى معناها القديمة، كقول القائل: أين الأكاسرة الجبابرة الأولى. أي القديمة، كذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُۥٓ أَهْلَكَ عَادًا ٱلْأُولَىٰ﴾ (٤). ولم يكن هناك عاد أخرى.

قال المبرد: المراد بها الجاهلية الجهلاء، حيث كانت النساء في الجاهلية يُظهرن ما يَقبُحُ إظهاره، حتى كانت المرأة تجلس مع زوجها وخليلها، فينفرد خليلها بما فوق الإزار إلى أعلى، وينفرد زوجها بما دون الإزار، وربما يسأل أحدهما صاحبه البدل.

وخير ما يقال في معنى الجاهلية الأولى؛ أنها جاهلية الكفر قبل الإسلام، ويؤيد هذا القول، ما أخرجه البخاري في كتاب الإيمان: باب المعاصي من أمر الجاهلية لا يكفر صاحبها.

ثم أورد البخاري حديث (المعرور. .) قال: لقيت أبا ذر في الرِّبذة، وعليه حُلَّةٌ، وعلى غلامه حلة مثلها، فسألته عن ذلك فقال: إنني ساببت رجلاً فعيّرتُهُ بأمه ـ وكانت أعجمية ـ فقال له النبي ﷺ: «**يا أبا ذر إنك امرؤ فيك جاهلية**».

قال صاحب التحرير والتنوير: من المفسرين من جعل الجاهلية جاهليتين: الأولى ما قبل

---

(١) المائدة: ٥٠.

(٢) الفتح: ٢٦.

(٣) آل عمران: ١٥٤.

(٤) النجم: ٥٠.

الإسلام، ثم تكون جاهلية أخرى بعد الإسلام، وهذا يعني حين ترتفع أحكام الإسلام والعياذ بالله تعالى.

ويؤيد هذا قول البروسوي: وفي آخر الزمان يأتي أقوام يفعلون من فعلهم، وهذه هي الجاهلية الأخرى.

وفي الحديث: «**صنفان من أهل النار لم أرهما بعد ـ أي في عصره ﷺ لطهارة ذلك العهد ـ، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات. .**». **والصنف الأول**: هم الطوافون على أبواب الظلمة – كما قال البروسوي ـ **والصنف الثاني**: وهو اللواتي يلقين ملاحفهن من ورائهن، فتنكشف صدورهن كنساء زماننا، وهو رحمه الله توفي سنة ١١٣٧هـ. والمراد من الآية ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ التنفيرُ من التبرج، وتعريضٌ ببعض نساء المنافقين اللواتي بقين على مسلك الجاهلية، وفي ذلك تحذير للمسلمات أن يسلكن سيرتهن.

أما نساء النبي ﷺ ـ أمهات المؤمنين ـ فمنهيات عن التبرج مطلقاً حتى في الأحوال التي رُخص للنساء التبرج فيها في بيوتهن. . لماذا؟ لأن ترك التبرج كمال، وتنزه عن الاشتغال بالسفاسف، ونسب الله ذلك إلى الجاهلية، لما استقر عند المسلمين من تحقير ماكان عليه أمر الجاهلية إلا ما أقره الإسلام. ومن مساوئهم: اتخاذُ الحرائر من النساء الأخدانَ من الرجال لإتيان الفاحشة سراً.

وجاء الإسلام فحرَّم هذا الأمر فقال في سورة النساء: ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ﴾ (١) وفي الآية: الرخصة بزواج الأمة المؤمنة من سيدها حين لا يملك مهر الحرة وخوفَ العنت. وخاطب الرجالَ في سورة المائدة فقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ

(١) النساء: ٢٥.

﴿فِى ٱلْآخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾[1].

والخدن يطلق على الجنسين. وهكذا أبطل الإسلام المخادنة، وهي: زنا مستمر في السر، كما أبطل الإسلام السفاح وهو الزنا العلني.

قال ابن عاشور: لأن الرجل إذا أراد من المرأة الفاحشة يقول لها: سافحيني، فرجع معنى السفاح إلى التبادل، والمعطاءُ يطلق عليه السّفاحُ، وكان بعض العرب تعيب الزنا العلني، ولا تعيب اتخاذ الأخدان. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ﴾[2]. وقوله تعالى: ﴿ ﴾﴿وَلَا تَقْرَبُواْ . . ﴾ نهيٌ من الدنو من الفعل، فحينما أراد الله أن يحرم على آدم وزوجه الشجرةَ ماذا قال؟

قال: ﴿ وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ ﴾[3]؛ لأن القرب يُغري بالأكل. فلا تأتي إلى مقدمات الفواحش بالنظر إلى المحرمات. وكذلك المرأة التي تتبرج إنها تقوم بالإقبال على مقدماتِ الفواحش، فإذا امتنعتْ عن المقدمات أمنت الفتنة والزلل. والنهيُ يشمل موبقات الجوارح ـ ما ظهر ـ وموبقات السرائر ـ ما بطن ـ كالحسد والحقد.

كما تشمل كلمة (ما ظهر) ما كانوا يظهرونه كالغضب والقذف والسفاح، وما كانوا يخفونه كالزنا مع الأخدان والسرقة، وكان هذان فاشـــيين في العرب السرقة والمخادنة.

وحرم الإسلام كذلك معاشرات أخرى كانت فاشية في الجاهلية مثل نكاح الضماد، أو نكاح الضَّمد وهو أن يخالل المرأة خليلان،

قال أبو ذؤيب:

تريدين كيما تَضْمُديني وخالداً   وهل يُجمَع السيفان وَيْحَكَ في غمد

قال الفراء: الضَّمد: أن تصادق المرأة اثنين أو ثلاثة في أيام القحط لتأكل عند هذا، وعند هذا لتشبع، وكان بعضهم يعيب ذلك.

---

(١) المائدة: ٥.

(٢) الأنعام: ١٥١.

(٣) البقرة:٣٥.

قال مدرك الشاعر:

لا يخلص الدهر خليل عشـــرا　　　إني رأيت الضمد شيئاً نُـكرا

وقال:

أردتِ لكيما تضمديني وصاحبي　　　ألا: لا، أَحِبّي صاحبي ودَعيني

كما أبطل الإسلام عادة أخرى من عادات الجاهلية في النكاح ذكرته عائشة رضي الله عنها وهو: أن يجتمع الرجال دون العشرة على المرأة، فإذا حملت ووضعت حملها، أرسلت إليهم فلا يستطيع أحد منهم أن يمتنع، فتقول لهم: قد عرفتم الذي كان من أمركم، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان. تسمي من أحبت منهم باسمه فيلحق به.

وهناك نوع آخر من هذه القاذورات، ويسمى: (نكاح الاستبضاع) وهو أن يقول الرجل لامرأته إذا طهرتْ من حيضتها: أرسلي إلى فلان فاستبضعي منه، ثم يعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملُها من ذلك الرجل، فإذا تبين الحمل أتاها زوجها بعد ذلك. قالت عائشة رضي الله عنها وإنما كانوا يفعلون ذلك طلباً لنجابة الولد. قال صاحب التحرير والتنوير: وأظن أن هذا كان يقع بتراضٍ بين الرجـلين لنجابة الولد، أو لصحته، أو لمال.

وحرم الإسلام نوعاً آخر من النكاح المحرم وهو (البغاء) أي الزنا بالإماء بأجور معينة، وهو الذي ذكره القرآن الكريم ونهى عنه بقوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُوا۟ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ (١). والآية نزلت في قصة جاريتين لعبد الله بن أُبي بن سلول ـ رأس المنافقين ـ واحدة اسمها معاذة، والأخرى اسمها مُسيكة، أسلمتا فأمرها ابن سلول بالزنا مقابل المال، كما كانت عادة أهل الجاهلية، فشكتا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا۟ فَتَيَـٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ﴾ وقد كان في المدينة إماء بغايا منهن ستٌّ لعبد الله بن سلول هذا، وكانت معاذة من هؤلاء الستة، قد أعدها لضيوفه قبل أن يتظاهر بالإسلام، فإذا نزل به ضيف أرسلها إليه لإكرامه، فأقبلت معاذة إلى أبي بكر فشكت إليه ذلك، فذكر أبو بكر ذلك للنبي ﷺ فأمره النبي ﷺ أن يقبضها، أي الصديق. . فصاح عبد الله بن أبي بن سلول: من يعذرنا من محمد يغلبنا على

(١) النور: ٣٣.

مماليكنا، فأنزل الله عز وجل الآية إلى قوله: ﴿وَمَن يُكْرِههُّنَّ فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[1]. أي لهن ـ للإماء المكرهات ـ كما قال ابن مسعود وابن عباس.

وورد عن الحسن البصري إذا قرأها يقول: لهن والله، لهن والله، أي غفور رحيم لهن لا لمن أكرههن، لأن الله عذر المُكرهات. والبغاء: هو الزنا بأجرة، وكان بمكة تسع بغايا شهيرات يجعلن على بيوتهن راياتٍ مثلَ رايات البيطار ليعرفهن الرجال، وكان الواقدي قد ذكرهن بأسمائهن، وأسماء من يملكهن. . وكانت بيوتهن في الجاهلية تسمى (المواخير).

وفي الصحيح من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: إن النكاح كان في الجاهلية على أربعة أنحاء: نكاح منها هو نكاح الناس اليوم: يخطب الرجل إلى الرجل وليَّته أو ابنته، فيصْدُقُها ثم يتزوجها (ينكحها)، والصداق: هو المهر، لكنهم في الجاهلية كان الزوج يدفع المال لولي المرأة ويسمى ـ حلواناً ـ ولا تأخذ المرأة شيئاً منه، ويسمى هذا زواج البعولة.

فلما جاء الإسلام قرر أن الصداق للمرأة بقوله تعالى: ﴿وَءَاتُوا۟ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحْلَةً ۚ فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾[2]. والخطاب للأزواج والأولياء: فإن كان الخطاب للأزواج فالمعنى: أعطوا النساء اللاتي تزوجتوهن مهورهن التي لهن عليكم، عطية منكم، وفريضة عليكم طيبة بذلك نفوسكم. وإن كان الخطاب للأولياء: أعطوا النساء من قراباتكم اللاتي قبضتم مهورهن من أزواجهن أعطوهن تلك المهور.

قال القرطبي: والآية دليل على أن الصداق واجب على الأزواج، وذلك مجمع عليه. وقوله تعالى: ﴿فَإِن طِبْنَ لَكُمْ عَن شَىْءٍ مِّنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيٓـًٔا مَّرِيٓـًٔا﴾ لكم أيها الأزواج، أو أيها الأولياء عن شيء من المهر فكلوه هنيئاً مريئاً، أي إن أعطينكم شيئاً من غير إكراه ولا إلجاءٍ لسوء العشرة، ولا إخجالٍ بالخلابة والخدعة. وقال ابن عباس: من غير ضرار ولا خديعة. وجميل قول صاحب الفتح حين قال: وفي قوله: ـ طبن ـ دليل على أن المعتبر في تحليل ذلك منهن لهم إنما هو طيبة النفس لا مجرد ما يصدر عنها من ألفاظ التي لا تتحقق معها طيبة النفس.

وقوله: ـ هنيئاً مريئاً ـ والهنيء: الطيب المستساغ الذي لا يُنَغّصه شيء، والمريء: المحمود

---

(١) النور: ٣٣.

(٢) النساء: ٤.

العاقبة، أي لا تخافون في الدنيا من مطالبة، ولا في الآخرة من تبعةٍ ومسؤولية. ودخل رجل على علقمة وهو يأكل شيئاً وهبته امرأته من مهرها، فقال له: كل من الهنيء المريء.

وروي عن علي رضي الله عنه قال: إذا اشتكى أحدكم شيئاً فليسأل امرأته درهماً من صداقها، ثم ليشترِ به عسلاً فليشربْه بماء السماء، فيجمع الله له الهنيء والمريء والماء المبارك.

والنوع الثاني الذي ذكرته عائشة: نكاح الاستبضاع، وقد ذكرناه.

النوع الثالث: يجتمع الرهط ـ ما دون العشرة ـ فيدخلون على المرأة وقد ذكرناه.

والنكاح الرابع: يجتمع الناس فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن جاءها، وهن ـ البغايا ـ ينصبن على أبوابهن الرايات تكون عَلَماً، وذلك بمهر وهو الأجرة على البغاء، ويسمونها مهراً، لذلك ورد في حديث ابن مسعود أنه ﷺ قال: «**مهر البغي خبيث، وثمن الكلب خبيث**». فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت جمعوا لها ودعوا القافة، ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون، فدعي ابنه. قالت عائشة: فلما بعث محمداً بالحق هدم أنكحة الجاهلية كلها إلا نكاح الناس اليوم. وهذا الزواج الذي أقره الإسلام هو الطريق الوحيد والأمثل لإقامة علاقة بين رجل وامرأة يميل كل منهما للآخر لإقامة حياة دائمة وسعيدة، وأنه المسلك المحبب إلى ذوي الفطر السليمة، وجُعل هذا الزواج من سنن المرسلين لحديث أبي أيوب عند أحمد والترمذي: «**أربع من سنن المرسلين الحياء، والتعطر، والسواك، والنكاح**».

الفصل الخامس عشر
زواج الشَّغار والمَقْت والعصبية القبلية

ومن عاداتهم السيئة: **زواج الشغار**. وهو زواج دون مهر حيث يقول الرجل للآخر: (شاغرني) أي زوجني أختك أو ابنتك حتى أزوجك أختي، ولا يكون بينهما مهر، وجاء الإسلام فحرم هذا بقوله ﷺ: «**لا شغار في الإسلام**».

ومن ذلك **زواج الأَسْر**: وهو من عادات الجاهلية التي كانت مألوفة عندهم، ينتزعون الفتاة من أهلها كرهاً، وتسمى (النـزيعة) وهذه تعتبر ملكاً خاصاً لمن أسرها، إن شاء زَوَّجها، أو تَزَوَّجها بلا مهر، وإن شاء باعها. **ومن عاداتهم السيئة في هذا الباب:**

زواج المَقْت: وهو أن يتزوج الرجل زوجة أبيه فيرثها كما يرث المتاع، وقد تزوج كثيرون أزواج آبائهم قبل الإسلام. منهم:

عمرو بن أمية، وقد خَلَفَ على امرأة أبيه. ومنهم صفوان بن أمية، وتزوج امرأة أبيه فاطمة بنت الأسود، ومنظور بن ريان الذي تزوج امرأة أبيه مليكة بنت خارجة، ومنهم حفص بن أبي قيس الذي تزوج امرأة أبيه كبشة بنت معن.

قال الزهري: كان من عاداتهم إذا مات الرجل ألقى ابنه ـ من غيرها ـ ثوبه على المرأة فيصير أحق بها من أوليائها، فإن شاء تزوجها بغير صَداق، إلا ما أصدقها أبوه الميت، وإن شاء زوجها من غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها لتفتدي منه بما ورثته من الميت أو تموت فيرثها.

كما أخرج البخاري عن ابن عباس قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاؤوا زوجوها، وإن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاؤوا لم يزوجوها فكانوا أحق بها من أهلها.

قال العلماء: وكان هذا الأمر عادة عندهم اتفقوا عليه بحيث لو أرادت المرأة أن تتخلص منه صارت سُبّة ولم ينصرها أحد. فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًاۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُواْ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ ﴾ (١).

---

(١) النساء: ١٩.

وقال عز وجل: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾ (١). وبذلك أبطل الإسلام أن يكون ابن الميت أولى بزوجة أبيه التي ليست أمه. وكان يسمون نكاح زوجة الأب نكاح المَقْت، أي البغض، ويسمون فاعل ذلك الضَّيْزَن. وهو الذي يزاحم أباه في امرأته، ويسمى الولد الناتج من هذا النكاح مقيتاً، أو مقتيا. أي المكروه. فحرمه الإسلام؛ لأنه أراد أن تكون هذه القضية ـ زواج الابن بامرأة أبيه ـ بعيدة عن محيط الأسرة. . لماذا؟

الجواب: لأن الأب والابن لهما من العلاقات كالود والحنان والعطف من الأب والبر والأدب والاستكانة وجناح الذل من الولد، فحين يتزوج الرجل امرأة أخرى وله ولد من الأولى فهذه الزيجة الجديدة طرأت على الأسرة ـ كما قال الشعراوي في تفسيره ـ ويريد الله سبحانه ألا يجعل عين الولد تتطلع إلى المرأة التي تحت أبيه، إذ قد تروق هذه المرأة للولد. . فماذا يكون نتيجة ذلك؟ قال العلماء: أقل الأمور أن يقول بينه وبين نفسه عندما يموت أبي سأتزوجها، إذاً سيكون عنده أمل بالزواج منها، فقد يتمنى عندها أن يموت والده ويفرح بذلك، هذا إذا لم يكن يسعى في التخلص من الوالد، وسعار الغرائز لا يخفى على أحد حينما يأتي، فجاء الإسلام بتحريم ذلك لأنه أراد أن يقطع عن الولد أمل الالتقاء ولو بالتمني وأنه يجب عليه أن ينظر إلى الزوجة التي تحت أبيه نظرته إلى أمه وعندها تزول نزعات الشـيطان.

قال القرطبي: وكانت هذه السيرة فاشية لازمة في الأنصار قبل الإسلام، أما في قريش فكانت مباحة قائمة على التراضي.

قال الأشعث بن سوار: توفي رجل من صالحي الأنصار اسمه أبو قيس فخطب ابنه قيس امرأة أبيه فقالت: إني أعدك ولداً، ولكن آتي رسول الله ﷺ أستأمره، فأتته فأخبرته فأنزل الله تعالى قوله: ﴿ وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾.

قال القرطبي: وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾. وهذا الذم البالغ المتتابع دليل على أنه فعل انتهى في القبح إلى الغاية، وقد قال العلماء: القبح أنواع ثلاثة، شرعي، وعقلي، وعادي. والقبيح الذي تجتمع فيه هذه المراتب الثلاثة يكون في أقصى درجات القبح،

---

(١) النساء: ٢٢.

ونكاح امرأة الأب جمع مراتب القبح الثلاثة، فقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً﴾ إشارة إلى القبح الشرعي عُرف بالوحي، وقوله تعالى: ﴿وَمَقْتًا﴾ إشارة إلى القبح العقلي، وقوله تعالى: ﴿وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ إشارة إلى القبح العادي العرفي، لذلك قال الآلوسي: ومما يدل على بشاعته وفظاعةِ أمرِه ما أخرجه عبد الرزاق وأحمد والحاكم: عن البراء قال: لقيت خالي ومعه الراية، قلت: أين تريد؟ قال: بعثني رسول الله ﷺ إلى رجل تزوج امرأة أبيه من بعده فأمرني أن أضرِبَ عنقه، وآخذ ماله.

ومن المفاسد التي كانت في الجاهلية: ***العصبية القبلية***: وهي مبدأ يقول على قولهم: انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، بالعرف الجاهلي.

كقول الشاعر:

وما أنا إلا من غَزِيَّة إن غوت غويتُ وإن تَرشْد غزيُة أرشد

قال المؤرخون: كان الظلم عند العرب قبل الإسلام من صفات القوة التي يستحق صاحبها المديح عليها؛ لأنها علامة العزة، وإذا سمعْتَ وصف قبيلة لا تَظلم، فمعنى ذلك أنها مهانة، ويكون ذلك وصفَ ذَمٍ لها.

قال الشاعر (النجاشي):

قبيلةٌ لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبةَ خردلٍ

فالمسلم حين يقرأ الشطر الثاني من البيت. . ولا يظلمون الناس حبة خردل، يرى ذلك أمراً طيباً مطلوباً، ويراه الجاهلي قبل الإسلام هجاء وذماً، فهذا (قُريط بن أنيف) في الوقت الذي يُعَنِّفُ قومه بأنهم لم يُهبُّوا لدفع الظلم عنه، يمدح في الوقت نفسه من ظَلَمه ويُثني عليهم فيقول مُعنِّفاً لقومه:

لكن قومي وإن كانوا ذوي عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا

ثم يمدح ظالميه فيقول:

لو كنتُ من مازن لم تُستبح إبلي بنو الحفيظة من ذهل بن شيبانا

قــوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليـــــه زرافـات ووحدانا
لا يســألون أخاهم حين يُنْدُبهم	في النائبــــات على ما قال برهانا

وحين يروون فعل الظلم الصادر منهم يروونه وهم مفتخرون به، فعمرو بن هند لا يكلم الناس إلا من وراء حجاب، وللنعمان بن المنذر يوم بؤس ويوم نعيم.

قال المؤرخون: ولا سبب لذلك إلا إظهار الغطرسة، والتجبر الذي هو دليل العزة عندهم، ويعبّر عن هذا قول شاعرهم إذ يقول:

ونشرب إن وردنا الماء صفواً	ويشرب غيرنــا كدراً وطينا
لنا الدنيا ومن أضحى عليها	ونبطش حين نبطش قادرينا

الفصل السادس عشر
شن الغارات والحروب علىٰ بعضهم

ولما جاء الإسلام أمر بنصرة الأخ المسلم قريباً كان أو بعيداً، لأن الأخوة المعتبرة هنا هي أخوة الإسلام. ونُصرة الأخ المسلم تكون بدفع الظلم عنه إن كان مظلوماً، وحجزه عن الظلم إن كان ظالماً. وهذا الاغترار بالعصبية الجاهلية عندهم دفعهم إلى شن الغارات والحروب على بعضهم: قال الخفاجي[1]: كان من دأبهم في الجاهلية: الحرص على الأخذ بالثأر، والاغترار بالعصبية، والاغترار بالقرابة الواشجة، والمفاخرة والمنافرة، ثم قال: كل ذلك كان يدفعهم إلى الحرب، ويجعلها الشيء المفضل عندهم، وكانوا يثيرونها لأوهى الأسباب حتى صارت الحرب عادة مألوفة، وطريقة معروفة، بل ودفعهم حبهم للحرب أنهم صاروا يرون من العار أن يكتسبوا بصناعة أو زراعة، وأنفوا أن يمتهنوا الحدادة والحياكة والحجامة والفلاحة. وإنما كانوا يسندون هذه المهن إلى عبيدهم وإمائهم. أما الأحرار فكان كسبهم في معظمه من أسنة الرماح، وركوب الخيل، وشن الغارات، وإنشاد الشعر في المفاخرات بالحسب والنسب.

ثم قال الخفاجي: فإن لم يجدوا عدواً يغيرون عليه أغاروا على الأقرباء. وفي هذا يقول القطامي الشاعر الجاهلي:

ومــن تكن الحضارة أعجبتْه — فأيَّ رجـــال باديـــة ترانا
ومــن ربط الجحاش فإن فينا — قناً سُلُباً وأفراســاً حسانـــا
أَغَرْن من الضباب على حلول — وضَّبةَ إنه مــن حـــان حانا
وأحيانـــــاً على بكر أخينا — إذا لم نجـــــد إلا أخـــانا

قال المؤرخون: وهذه الحروب كانت تسمى أيامَ العرب، وكانت صورة صادقة لواقعهم وعاداتهم، وأسلوب حياتهم، وشأنهم في الحرب والسلم ولهذا قال عمرو بن كلثوم:

وأيامٍ لنَا غُرٍّ طِـــــــوالٍ — عَصَينا المَلْـكَ فيها أن نَدِينا

ومن هنا كان مثلهم القائل: (يوم لك ويوم عليك).

---

(١) صاحب كتاب الشعر الجاهلي.

وهذه الوقائع والأيام منها ما كان بين العرب والفرس كيوم ذي قار، ومنها ما كان بين النزاريين واليمنيين كيوم خزاز أو خزازى، ومنها ما كان بين اليمنيين مع بعضهم كيوم بُعاث بين الأوس والخزرج، ومنها ما كان بين الغساسنة والمناذرة كيوم حليمة، ومنها ما كان بين النـزاريين كيوم الزوْرين بين ربيعة ومضر، ومنها ما كان بين المضريين مع بعضهم كحرب داحس والغبراء بين عبس وذبيان، ومنها ما كان بين الرَبيعِيّين بعضهم مع بعض، كحرب البسوس بين بكر وتغلب. وسنتكلم بكلمة موجزة عن كل من هذه الوقائع والأيام ونبدأ:

يوم ذي قار: وكان بين بني شيبان وأحلافهم من العرب من جانب، وبين الفرس ومن معهم من قبائل العرب في جانب آخر، وكان قائد بني شيبان» هانئ بن قبيصة» وسبب هذه الوقعة أن «النعمان بن المنذر» طلبه كسرى، فأودع حَلَقته[١] عند «هانئ بن قبيصة»، ثم قتل كسرى النعمان بن المنذر، وطلب من هانئ الحلقة التي أودعها لديه النعمان، فأبى بنو شيبان تسليم ذلك، فخيرهم كسرى بين ثلاث خصال: إما تسليم الحلقة، وإما أن يُعروا الديار، أو الحرب، فاختاروا الحرب. وحرّض هانئ بن قبيصة قومه على القتال، وصمدوا للفرس ومن والاهم من العرب.

وكان مما خطب «هانئ» قوله: يا معشر بكر ـ وشيبان من بكر ـ هالك معذور، خير من ناج فرور، إن الحذر لا ينجي من القدر، وإن الصبر من أسباب الظفر، المنية ولا الدنية، استقبال الموت خير من استدباره، الطعن في ثغر النحور، أكرم من الأعجاز والظهور، قاتلوا فما للمنايا من بد. وقام أحد قادة شيبان وهو «حنظلة بن ثعلبة»، فقطع وُضنَ النساء بادئاً بوضين راحلة امرأته وقال: ليقاتل كل رجل منكم عن حريمه، فسمي مقطِّع الوُضُن، وقطع يومئذ رجل من بني شيبان أيدي أقبيتهم من مناكبها؛ لتخف أيديهم لضرب السيوف، وكانت الهزيمة على كسرى ومن معه من قبائل العرب. وكان هذا اليوم في أول مبعث النبي ﷺ فقال ﷺ: «**هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من الفرس وبي نُصروا**» وفي هذا اليوم قال الأعشى:

لــو أن كلَّ مَـعَدٍّ كان شاركنـا	في يوم ذي قار ما أخطاهـم الشرف
لما رأونـا كشفنـا عـن جمـاجمنا	ليعلموا أننا بكر فينصرفــــــوا

(١) دروع وأسلحة.

لمـا أمـالوا إلى النشاب أيديـهم ملنا ببيض فظلَّ الهاُم يُقتطـــــف
وخيل بكر فما تنفــك تطحنهم حتى تـولَّوا وكاد اليـوم ينتصــف

ومن تلك الأيام: يوم خزازى أو خزاز. وخزاز جبل بين مكة والبصرة، وعنده كانت المعركة، وكانت بين: (معد ومذحج) من اليمن. والسبب أن «أبرهة الحبشي»، طلب من العدنانيين أتاوة فامتنعوا، فأرسل اليهم جيشاً يقوده «زهير بن جناب الكلبي» فحارب العدنانيين وأسر بعضهم، فذهب وفد من وجوه معد إلى زهير وسطاء لإطلاق سراح الأسرى، فأطلق الأسرى ولكنه احتجز بعض أعضاء الوفد، فثارت معد وقادهم «كليب بن ربيعة» وسار إلى خزازى فأوقدوا ناراً، وأقبلت مذحج إلى هناك ودارت المعركة وانتصرت معدّ، وصارت القوة للعدنانيين.

قال الخفاجي صاحب كتاب الشعر الجاهلي: ويكاد يكون هذا معجزة لنبي الإسلام ﷺ، فقد اكتسب العدنانيون القوة والمجد بانتصارهم على القحطانيين، ليُهيئ الله العدنانيين لظهور رسالة نبيه ﷺ وحملها.

وقد قال الشاعر السفاح التغلبي في هذا اليوم:

ونارٍ بتُّ أوقد في خزارى هَدَيْتُ كتائباً متحيرات

وقال ابن الحائك:

كانت لنا بخزازى وقعة عجب لما التقينا وحادي الموت حاديها
ملنــا على وائل في وسط بلدتها وذو الفَخار كليبُ العِزّ حاميها

ومن ذلك حرب البسوس: وهي بين بكر وتغلب، وبقيت أربعين سنة، وسببها تافه، وهو أن «كليب بن ربيعة» قد أصبح ملكاً على معد كلها بعد أن هزم مذحج في معركة خزازى السابقة، فدخله العُجب والزهو، وكان من أعز العرب وحكم ما بين (٤٤٠-٤٩٠م)، وكان ظالماً، حتى كان يحمي مواقع السحاب ـ المطر ـ ولا يمر أحد بين يديه، ولا يحتبي جالس في مجلسه، ولا تورد إبل مع إبله، ولا توقد نار مع ناره، وكان يحمي الوحش فلا يهاج، والطير فلا يُصاد، وكان يقذف بكلبه في الكلأ فلا يجرؤ أحد أن يرعاه، وضُرب بذلك المثل فقيل: (أعز من

كليب وائل).

وتزوج كليب «جليلة بنت مرة» من بني شيبان، فدخل عليها يوماً وقال: هل تعلمين على الأرض أمنع مني ذمة؟ فقالت: نعم. أخواي: جساس وهمام، فقام مغضباً وأعاد عليها الكرة فأعادت عليه الإجابة، فغاظه ذلك، وكان للجليلة عشرة أخوة أصغرهم جساس، وله خالة اسمها «البسوس»، ونزلت البسوس هذه على ابن أختها «جساس» ومعها ابن لها وناقة تسمى «السَّراب»، ومرت إبل لكليب بالناقة سراب والناقة معقولة، فقطّعت الناقة عقالها، وتبعت الإبل، واختلطت بها، ووردت مع الإبل على الحوض لتشرب فرآها كليب في إبله ـ وكان على الحوض ومعه رجالات قريش وكنانة ـ فأنكر الناقة وقال: لمن هذه؟ فقالوا: إنها لخالة جساس «البسوس» فرماها بسهم فاختلط دمها بلبنها، فلما رأتها البسوس قذفت خمارها عن رأسها، وصاحت: واذلاه واجاراه، فأرضاها جساس بعشرة من الإبل بدل ناقتها، فلم ترض، وأخذت تنشد الأشعار تثير الفتنة ...

ومن ذلك قولها:

أيا سعد لا تغرُر بنفسك وارتحل　　　فإنك في قوم عن الجار أموات

فأوغرت صدَر «جساس» بشعرها، ولكنه كظم غيظه. وبالمقابل فإن كليباً بدأ بإذلال جساس حتى منعه من كل ماء يرده، عندها صمم جساس على قتل كليب، ثم تربص له ـ ومع جساس عمرو بن الحارث بن ذهل ـ. فدخلا عليه وهو منفرد وقال له جساس: يا ابن الماجدة: عمدت إلى ناقة جارتي فعقرتها، ومنعتنا من كل ماء نرده، فقال كليب: وما الذي يمنعني أن أدفع عن حماي؟ فازداد جساس غضباً فطعنه برمح كان معه فقتله، فقال له كليب وهو في النزع الأخير: أغثني يا جساس بشربة ماء، فقال جساس: ما عقلْتَ استسقاءك للماء منذ ولدتك أمك إلا ساعتك هذه؟

فالتفت كليب إلى عمرو بن الحارث بن ذهل وقال له: يا عمرو أغثني بشربة ماء، فقام عمرو هذا فأجهز عليه بدل إغاثته بالماء، ومن هذه الحادثة ورد البيت المشهور الذي يقول فيه الشاعر:

المستجيرُ بعمرو عند كُربته　　　كالمستجير من الرمضاء بالنار

وكان مقتله سنة (٤٩٤م)، ثم شاع مقتل كليب فاستعظمته العرب، وشمر أخوه «المهلهل» للثأر، واجتمع نساء الحي يندبنه فقلن لأخت كليب: رحّلي جليلة عن مأتمك، فقالت لجليلة: أُخرجي من مأتمنا، فأنت أخت واترنا «جساس»، وشقيقة قاتلنا، فخرجت إلى قومها فتلقاها أبوها فقال: ما وراءك يا جليلة؟ قالت: ثُكْل العدد، وحزن الأبد، وفقد خليل، وقتل أخ عما قليل، وبين ذلك غرس الأحقاد، وتفتت الأكباد. فقال لها: أفلا يكُفُّ عن ذلك كرم الصفح، وإغلاء الديات؟ فقالت: هيهات. أمنية مخدوع ورب الكعبة، أتظن أنَّ بالبُدن تدع لك تغلب دم ربها؟!! ويروي المؤرخون أن جليلة لمّا رحلت عن بيت زوجها المقتول كليب قالت لها أخته: رحل المعتدي، ويل غداً لآل مرة، الكرة بعد الكرة. ومُرَّة والد جساس القاتل لكليب.

ووصلت هذه المقالة إلى «الجليلة» فقالت شعراً فيه:

يـــا ابنـــة الأقـــوام إن شـــئت فـــلا ... تعجــــــلي بــــــاللوم حتـــــى تـــــسألي
فـــإذا أنـــت تبيَّنْـــت الـــذي ... يوجـــب اللـــومَ فلـــومي واعـــذُلي
فعـــلُ جـــساس عـــلى وجـــدي بـــه ... قـــاطعٌ ظهـــري ومُـــدنٍ أجـــلي
يـــا قتـــيلاً قـــوّض الدهـــرُ بـــه ... ســـقفَ بيتـــيَّ جميعـــاً مـــن عـــلِ
هُـــدِم البيـــت الـــذي اســـتحدثته ... وانثنـــى في هـــدم بيتـــي الأول
لـــيس مـــن يبكـــي ليـــومين كمـــن ... إنـــما يبكـــي ليـــوم يـــنجلي
إننـــــــي قاتلـــــة مقتولـــــة ... ولعـــلّ الله أن يرتـــــاح لـــــي

ثم أرسل قوم كليب قبل المعركة رهطاً إلى «مرة» والد جساس القاتل، وخيروه خصالاً: إحياء كليب، أو دفع جساس ليقتلوه به، أو دفع هَمّام، أو تمكننا من نفسك فإن فيك وفاء دمه.

فقال مرة: أما جساس فغلام حدث السن ركب رأسه وهرب، وأما همام، فأبو عشرة، وأخو عشرة، فلو دفعته إليكم لصاحوا في وجهي، وقالوا: دفعت أبانا للقتل بجريرة غيره، وأما أنا فلا أتعجل الموت، وهل تزيد الخيل أن تجول جولة فأكون أول قتيل، ولكن هل لكم في أحد أولادي فاقتلوه به، أو ألف ناقة تضمنها لكم (بكر بن وائل) فغضبوا وقالوا: لقد أسأت، تسومنا اللبن وتبذل ولدك بدم كليب.

قال الخفاجي (صاحب كتاب الشعر الجاهلي): ودفنت تغلب سيدها وقام أخوه المهلهل

يرثيه على قبره بقصيدة رائعة منها هذه الأبيات:

أجبْنـــي يـــا كليـــب خَـــلاكَ ذَمٌّ — لقـــد فُجعـــتْ بفارســـها نـــزار
ســقاك الغيــث إنــك كنــت غيثــاً — ويُـــسراً حـــين يُلـــتمس اليـــسارُ
كـــأني إذْ نعـــى النـــاعي كليبـــاً — تطـــاير بـــين جنبـــيَّ الـــشرار
خـــذ العـــهد الأكيـــد علـــيّ عمـــري — بتركـــي كـــل مـــا حـــوت الـــديارُ
وهجـــري الغانيـــاتِ وشُربِ كـــأس — ولُبـــسي جبـــةً لا تُـــستعارُ
ولـــست بخـــالع درعـــي وســـيفي — إلى أن يخلـــع الليـــلَ النهـــارُ
وإلا أن تبيـــد ســـراة بكـــر — فلا يبقـــى لها أبـــداً إثـــارُ

وأسرف المهلهل في القتل والانتقام، ولم يبال بقبائل بكر التي كان أكثرها قد اعتزل الفتنة إعظاماً لقتل كليب. وكان ممن اعتزل الفتنة «الحارث بن عباد» وهو من حلماء العرب، وقال قولته المشهورة: «لا ناقة لي فيها ولا جمل».

وظلت قبائل تغلب تلاحق جساساً القاتل حتى أدركته وقتلته، فأرسل «مرة» والد جساس إلى «المهلهل»: إنك قد أدركت ثأرك وقتلت جساساً فاكفف الحرب، ودع الإسراف فهو أصلح للحيين، وأنكأ لعدوهم. فرفض المهلهل، واجتمع بنوبكر إلى «الحارث بن عباد» وقالوا له: لقد فني الحيان من قومك، فاسع في الصلح، فأرسل الحارث ولده «بجيراً» إلى المهلهل سعياً للصلح، فقتله المهلهل وقال له: بؤ بشسع نعل كليب.

فغضب «الحارث بن عباد» وركب فرسه «النعامة» وتولى قيادة بني بكر في حرب تغلب وقال:

قَرِّبـــا مـــربطَ النعامـــة منـــي — لقحـــتْ[1] حـــرب وائـــل مـــن حيـــال
لم أكـــن مـــن جُناتهـــا علـــم اللـــ — ـــهُ وإني بِحرِّهـــا اليـــومَ صـــالِ
قربـــا مـــربط النعامـــة منـــى — إن قتـــل الأحـــرار بالشـــسع غـــالِ[2]

---

(١) أي هاجت بعد سكون.

(٢) رخيص.

يا بُجيرَ الخيرات لا صلح حتى　　نملأ البيدَ من رؤوس الرجال

وكان هذا اليوم الذي دارت فيه المعركة بين «الحارث بن عباد»، وبين المهلهل واسمه «عدي» كان يسمى (يوم قضّة)، أو «يوم تحلاق اللم»؛ لأن الحارث أشار على بني بكر أن تشاركهم نساؤهم في المعركة، فتأخذ كل امرأة إداوة وعصاً، فإن مرت بجريح من عدوهم «تغلب» قتلته بالعصا، وإن مرت بجريح منهم سقته الماء.

وفي هذا اليوم قال «طرفة بن العبد» مفتخراً بالنصر وهربِ المهلهل فقال:

سائلوا عنّا الذي يعرفُنا　　ما لقَوا في يوم تحلاق اللِّمم
يوم تبدي البيضُ عن أسْوُقها　　وتلفُّ الخيل أفواج النّعم

وفي هذا اليوم أسرَ «الحارثُ بن عباد» المهلهَل ـ وهو لا يعرفه ـ فقال له الحارث: دلني على المهلهل وأخلّي عنك. فقال له المهلهل: وعليك العهود بذلك؟ قال الحارث: نعم. قال: أنا المهلهل. فجز ناصيته وتركه، وخرج المهلهل فلحق باليمن حيناً، ثم ملّت تغلب الحروب فصالحت بكراً ورجعوا إلى بلادهم، ولم يحضر المهلهل الصلح. ثم اشتاق المهلهل إلى أهله وقومه ووطنه، فعاد وفي الطريق مرّ على قبر أخيه كليب فخنقتْه العبرة، وغُشي عليه فحمل إلى بلاده ومات بعد قليل.

يوم حليمة: وهو من أيام العرب وحروبهم المشهورة، وفي الأمثال العربية» ما يوم حليمة بسر»، وكانت بين الغساسنة والمناذرة بالشام حيث كان العداء مستحكماً بين الإمارتين؛ لأن كل واحدة تعمل لصالح دولة كبرى (فارس والروم).

دعا «الحارث الغساني» أميرُ الغساسنة ابنته «حليمة» وأعطاها طيباً، وأمرها أن تطيب فرسانه الذين جهزهم للقتال ضد المناذرة، فوقفت ومروا بها وهي تطيبهم، ثم نادى منادي ملكهم: يا فتيان غسان من قتل منكم ملك الحيرة زوجته ابنتي، فقال «لبيد بن عمرو الغساني»: أنا قاتل ملك الحيرة أو مقتول دونه، ولست أرضى فرسي، فأعطني فرسك ـ مخاطباً الملك ـ فأعطاه الملك فرسه، وسار مع الجند، ودارت المعركة فقتَلَ لبيد المذكور ملك الحيرة ثم قُتل قبل أن يظفر بحليمة وانهزمت المناذرة. وكان ذلك سنة (٥٦٠م).

حرب داحس والغبراء: بين عبس وذبيان، ودامت أربعين سنة لم تُنتج لهم فيها ناقة ولا فرس؛ للانشغال بالحروب، والسبب أن «قيس بن زهير العبسي» و«حَمَل بن بدر الذبياني» تراهنا على سباق بين فرسين، هما: (داحس والغبراء)، وكان الرهان على مائة بعير، وعينوا المسافة، وبدأ السباق، وكان داحس فحلاً، لكن «حمل بن بدر» جعل له كميناً في تلك الشعاب التي في الطريق، وكان الكمين فتية من قومه، وأمرهم إن كان داحس هو السابق أن يرُدّوا وجهه عن الغاية، ثم أرسلوا الفرسين فجاء داحس سابقاً، فقام الفتية وردُّوه عن الغاية فوقعت الحرب على أشدّها. . .

وفي ذلك يقول قيس بن زهير:

ألم يأتيـــك والأنبـــاء تَنمـــي   بـما لاقـت لبـون بنـي زيـاد
كـما لاقيـتُ مـن حَمَـل بـن بـدرٍ   وإخوتِـه عـلى ذات الإصـاد
همو فخـروا عليّ بغيـــر فخرٍ   وردُّوا دون غايتـه جـــوادي

واشتدت الحرب بين الحيين، وعمّت المجاعة حتى كاد يفنى الحيّان. فسعى العقلاء في الصلح، وتقدم «الحارث بن عوف» و«هرم بن سنان» المريان، وتم الصلح على يد «عوف ومعقل ابني ثعلبة» وفي ذلك يقول زهير بن أبي سُلمى:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما   تفانوا ودقُّوا بينهم عطر مَنْشَم

الفصل السابع عشر
العادات الحسنة عند العرب قبل الإسلام

بعد الحديث عن هذه العادات الذميمة، ننتقل إلى ذكر العادات الحسنة عند العرب في الجاهلية، وكان من ذلك:

الصدق في الحديث: وهو خلق كريم عُرف به العرب قبل الإسلام، وجاء الإسلام فزاده تمكيناً وتقريراً، ومن أمثالهم المعروفة في الصدق قولهم: سُبّني واصدقني، وقولهم: الكذب داء، والصدق شفاء، وقولهم: صَدقني سِنُّ بَكْرِه. وأصل هذا المثل أن رجلاً اشترى من رجل بعيراً فسأله عن سنّه فقال البائع: إنه بازل[1]. فقال المشتري: أَنِخْه. فلما أناخه قال البائع للبعير: (هِدَعْ، هِدَع) ـ وهذه اللفظة تستعمل عند العرب لتسكين الصغار من الإبل، ـ فلما سمع المشتري هذه العبارة قال: صدقني سنُّ بَكْرِه. وحسبك في صدق أبي سفيان عندما سأله قيصر عن صفة النبي ﷺ وذلك قبل إسلامه. ومن أخلاقهم الفاضلة:

قرى الضيف: أي إطعامه، وهذا من الكرم الممدوح، فالكرم عند العرب: نار مشبوبة، وكلاب لا تنبح في وجه الضيف، وضيفان تذهب وتجيء. قال شاعرهم:

فِراشي فراشُ الضيف والبيت بيتهُ ... ولم يُلهني عنــــه غـــزال مقنّع
أحـــدّثه إن الحديث من القِرى ... وتعلمُ نفســـي أنه سوف يهجعُ

ويقول شاعرهم في إيقاد النار للضيوف:

وليس على ناري حجابٌ يُكِنُّها ... لمستوبصٍ ليـــــلاً ولكنْ أُنيرها

ولحاتم الطائي:

أضـــاحك ضيفي قبل إنزال رحله ... ويُخْصِبُ عندي والمحـــل جَديبُ
وما الخصبُ للأضياف أن يَكثُرَ القِرى ... ولكنّما وجـــهُ الكريمِ خصيبُ

وجاء الإسلام فأكد هذه العادة، وجعلها في سبيلا لله، يؤجر فاعلها بذلك في رواية عن

---

(١) البعير الذي أتم الثامنة وطعن في التاسعة.

البخاري قوله ﷺ: «**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**».

ومن عاداتهم الطيبة قبل الإسلام:

الوفاء بالعهود: مهما كلّف ذلك من ثمن، وكانوا لا يتصورون عظيماً يغدِر، يروي ابن الأثير قصة جميلة في ذلك وهي: أن المنذر[1] أرسل إلى الحارث الغساني[2] يخيّره بين دفع أتاوة له أو الحرب، فأجابه الحارث الغساني برسالة قال فيها: إنا شيخان، فلا تُهلك جنودي وجنودك، ولكن يخرج ولد من أولادي، ورجل من أولادك، فمن قُتل خرج مكانه آخر، فإذا فنيَ أولادنا نزلتُ أنا إليك، فمن قتلَ صاحبَه ذهب بالملك، فتعاهدا على ذلك. ولكن المنذر احتال، حيث أخرج أحد شجعان عسكره، وقال هذا ولدي، فأخرج له الحارث الغساني ولده «أبوكرب»، ولما التقى أبو كرب هذا بخصمه رجع إلى والده الحارث وقال له: يا أبتاه هذا ليس ولده، فقال الحارث لولده: يا بني خفتَ من الموت؟! ما كان الشيخ ليغدر، فعاد أبو كرب إلى الفارس واقتتلا، فقُتل أبو كرب، فأخرج له الملك الحارث الغساني ولداً آخر من أولاده، فقتله الفارس.

قال المؤرخون: وكان في جيش المنذر ملك الحيرة صاحبِ الحيلة شُمُّر بن عمرو، وهو من الحيرة، ولكن أمه غسانية، تضايق هذا الرجل من تصرف مَلِكِه، فقال للملك المنذر: ليس الغدر من شيم الملوك، وقد غدرتَ بابن عمك مرتين، ثم خرج من جيش ملكه المنذر، والتحق بجيش الحارث الغساني، وأخبره بالغدر، وسُرَّ الحارث به وقال له: سل حاجتك. فقال الرجل: حِلَّتُك وخِلَّتك، ولما علم بذلك الحارث عبأ جنده في الغد وقاتل المنذر وقتله، ثم حمل ولديه القتيلين على بعير كالعِدلين، وجعل الملكَ المنذرَ المقتولَ فوقهما فرداً وقال: يا لِعَلاوة دون العدلين.

وكانوا يرفعون لمن يغدر لواء في مجالسهم حتى يُلحقوا به عار الأبد، وكانوا يفتخرون بأنهم لا يغدرون.

ومن شعرهم في هذا قول الشاعر الحادرة:

أَسُمَيَّ ويحك هل سمعتِ بغدرَةٍ ... رُفِع اللــــــواء لنا بها في المجمعِ

---

(١) ملك عرب الحيرة.

(٢) ملك عرب الشام.

وكل منا يسمع بوفاء السموأل حين أودع عنده «امرؤ القيس الكندي» دروعه وسلاحه عندما ذهب امرؤ القيس إلى «قيصر الروم»، ومات امرؤ القيس، وطالب قيصر الروم السموأل بالوديعة، ولكن السموأل رفض تسليم الأمانة، فحاصره، وذبح ولده، ووفى بعهده رغم كل ذلك،

فقال السموأل شعراً يفتخر بذلك:

وفَيْتُ بأدرع الكندي إني إذا ما خـــان أقوام وَفَيْتُ

وكان من أمثالهم قولهم: أوفى من السموأل، وهو السموأل بن عاديا اليهودي صاحبُ الحصن المعروف بالأبلق[1] الفرد، وهو في الطريق بين الشام والحجاز مشرف على تيماء. ولكن الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله ـ يرى أن هذا ليس وفاء من السموأل اليهودي، وإنما لحب اليهود الشديد للمال، وكان السموأل هذا شاعراً، وله قصيدة مشهورة منها يصف نفسه وحصنه..

ومن أبياتها:

إذا المـــرء لم يـــدنَس مـــن اللـــؤم عرضُـــه فكـــــل رداء يرتديـــــه جميـــــل
لنـــــا جبـــــلٌ يحتلـــه مـــن نُجـــيره منيـــع يُـــرد الطـــرفَ وهـــو كليـــل
رســـا أصـــلَه تحـــت الثـــرى وســـما بـــه إلى الـــنجم فـــرعٌ لا يُنـــال طويـــل
هـــو الأبلـــق الفُـــرد الـــذي شـــاع ذكـــره يعِـــزُّ عـــلى مـــن رامـــه ويطـــول

ومن العادات المستحسنة:

احترام الجوار، وتقرير مبدأ الحماية لم يطلبها، وصون الشرف: والجارُ هو المستجير، من الفعل أجار بمعنى مّن، ولا يطلق هذا الفعل على معنى جعل شخصاً جاراً له، وسُميَّ المؤمَّن جاراً، وكانوا يفتخرون بهذه الحماية لمن طلبها.

يقول شاعرهم:

---

(١) الأبلق: بياض وحمرة في اللون.

تُعيّرنا أنّا قليلٌ عَديدُنا | فقلت لها إن الكرام قليل
وما ضرّنا أنا قليل وجارنا | عزيز وجار الأكثرين ذليل

وجاء الإسلام فأقر هذا الخلق. قال تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ﴾ (١). أي جاهلون بالإسلام. وقد أجار المسلمون «أبا العاص بن الربيع» وهو مشرك، حتى دخل المدينة واسترد ودائعه وأمواله وعاد إلى مكة ثم أسلم بعد ذلك.

وقد ذكر الرازي عن ابن عباس: أن رجلاً من المشركين قال لعلي بن أبي طالب: إن أردنا أن نأتي الرسول ﷺ بعد انقضاء هذا الأجل ـ الأشهر الحرم والعهد ـ لسماع كلام الله، أو لحاجة أخرى فهل نقتل؟ فقال علي رضي الله عنه: لا، لأن الله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ ..﴾.

وفي الحديث أنه ﷺ لما أجارت امرأة أحد المشركين قالت: يا رسول الله قد أجرت فلاناً فقال ﷺ: «**أجرنا من أجرت يا أم هانئ**» وروى البخاري في تاريخه والنسائي عنه ﷺ قال: «**من أمّن رجلاً على دمه فقتله فأنا بريء من القاتل وإن كان المقتول كافراً**».

وروى أحمد والشيخان من حديث أنس أنه ﷺ قال: «**لكل غادر لواء يعرف به يوم القيامة**».

قال ابن كثير: من قدِم دار الحرب إلى دار الإسلام في أداء رسالة أو تجارة أو صلح أو هدنة وطلب أماناً يعطى. قال الحاكم: وإنما يُجار ويُؤَمَّن إذا لم يُعلم أنه يطلب خداعاً أو مكراً لأن الله تعالى علّل الإجارة بقوله: ﴿حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾.

أما **صون الشرف** فما هو؟ قال صاحب الوجيز في الأدب العربي: الشرف عند العربي امرأة مصونة، وعدو مقتول، وجار محصّن، ومضارب في مشارق الأرض ومغاربها. وكانوا يقدرون في المرأة خُلُقَها، فالوقور الخجول التي لا يسقط قناعها هي الممدوحة، وهي التي لا تتلفت في سيرها، ولا ترفع رأسها من الأرض حتى ليظن مَنْ يُبصرها أنها تبحث عن شيء ضاع منها، وإذا

---

(١) التوبة: ٦١.

سألها رجل عن شيء أوجزت الجواب، ومضت.

ولنسمع إلى الشاعر الشنفرى يقول في زوجه أميمة:

لقـــد أعجبتنـــي لا ســـقوطاً قناعهـــا	إذا مـــا مـــشت ليـــست بـــذات تلفُّـــت
كـــأن لهـــا في الأرض نِـــسْياً تَقُـــصُّه	عـــلى أَمِّهـــا وإن تخاطبْـــك تَبْلَـــتِ

ومن العادات المستحسنة، الصدق والتحمل، حتى قالوا في المثل: «تجوع الحرة ولا تأكل بثدييها».

وجاء الإسلام فزاد هذا الخلق قوة ومتانة، وفي القرآن قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (١).

قال صاحب التحرير: أمر الإسلام بالصبر الذي هو رأس الفضائل، وأمر بالمصابرة في وجه الصابر، وذلك لأن الصبر في وجه الصابر شديد على النفس، لكن نتيجته طيبة. قال الشاعر:

لا، أنــت معتــادُ في الهيجــا مــصابرةً	يَصلى بها كــل مــن عــاداك نيرانــا

وفي الحديث: «**من صبر ظفر**».

(١) آل عمران: ٢٠٠.

الفصل الثامن عشر
تتمة هذه العادات المستحسنة

ومن خصالهم المحمودة:

الشجاعة والنجدة، وعدم قبول الذل، وإباء الضيم: وهي خلال امتاز بها العرب رجالاً ونساء، كانوا يُمتدحون بإباء الضيم، ورفض الهوان، لأن الضيم والهوان عندهم هنا المَثْلبة العظمى.

واسمع معي إلى قول الشاعر المتلمس:

إن الهـــوانَ حمـــارُ الأهـــل يعرفـــه	والحـــرُّ ينكـــره والرّسْـــلَة[1] الأُجُـــد[2]
ولا يقـــيم عـــلى خـــسف يُـــراد بـــه	إلا الأذلان عَـــيْرُ الأهـــل والوَتِـــدِ
هـــذا عـــلى الخـــسف معقـــول برقبتـــه	وذا يُـــشج فـــلا يبكـــي لـــه أحـــد

قال صاحب البيان: كانت الشجاعة عند العرب صنوَ الكرم في تعشقهم لها، وافتخارهم بها، إنها إقدام في مواطن الإجحام، وعدم مبالاة بالحياة ولا بالمات. وقال الآلوسي في بلوغ الأرب: والعرب لم تزل رماحهم متشابكة، وأعمارهم في الحروب متهالكة، وسيوفهم متقارعة، قد رغبوا عن الحياة، وطيب اللذات. كانوا يتمادحون بالموت، ويتهاجون به على الفراش، ويقولون فيه: مات فلان حتف أنفه. أي مات بلا ضرب ولا قتل. وفي الحديث: «**من مات حتف أنفه في سبيل الله فقد وقع أجره على الله**».

قال أبو عبيد: هو أن يموت على فراشه من غير قتل ولا غرق، ولا سَبُع. وفي رواية: «**فهو شهيد**».

ثم تابع الآلوسي يقول: وقد اختار غالب العرب سكنى البوادي على الحضر لما في الحضر من فقد العز، وإنما ينشأ الجبن من حب رغد العيش، وطيب الحياة.

وإباء الضيم مظهر من مظاهر الشجاعة. واسمع إلى قول عنترة العبسي في هذا:

---

(١) الناقة.

(٢) القوية.

لا تسقِني ماَء الحياة بذِلَّـــــــــةٍ	بـل فاسقني بـالعـز كأسَ الحنظل

والنجدة كذلك مظهر من مظاهر الشجاعة لا يتخلف عنها إلا الجبان فها هو طرفة بن العبد يقول:

إذا القـومُ قـالوا مـن فتـىً خِلْـتُ أننـي	عُنيــت فلــم أكــسل ولم أتبلَّــد
وإن أدعَ للجُـلّى أكـن مـن حُماتهـا	وإن يأتـك الأعـداء بالجهـد أَجْهـد

وها هو بّشامة النهشلي، يعبر عن هذه النجدة ويعبر عن أن كثرة القتلى في الحرب دليل على إلفهم للشجاعة:

إني لمــن معــشر أفنــى أوائلهــم	قيــلُ الكــماةِ ألا أيــن المحامونــا
لــو كــان في الألــف منـا واحـد فَـدَعَوا	مَــنْ فارسٌ؟ خــالَهم إيــاه يعنونــا
ولا تــراهم وإن جلَّــتْ مُــصيبتُهُم	مـع البكـاة عـلى مـن مـات يبكونـا
إنــا بنــي نهــشل لا نــدّعي لأب	عنــه ولا هــو بالأبنــاء يــشرينا
إنا لنرخـــــــص يوم الروع أنفسَنـا	ولو نســام بها في الأمــــن أغلينا

كما أن فيهم الشجاعة الأدبية، إذ يعترفون بما هو سيئ عندهم، فلقد فر «أوس بن حُجْر» في معركة مع جموع بني عبس، واعترف بذلك واعتذر بأنه خاف من كثرة جموعهم، ونحن لا يهمنا اعتذاره، ولكن يهمنا أنه كان صريحاً جريئاً حتى في الاعتراف بالهزيمة

فقال:

أجاعلـــةٌ أُمُ الحـــصين خَزايـــةً	عـليَّ فـــراري إذ لقيــتُ بنــي عــبس
وليـــس الفرارُ اليوم عاراً على الفتـى	إذا جُرّبـــــــت منهُ الشجاعةُ بالأمس

وجاء الإسلام، ووجه هذه الطاقات الشجاعة وجهتها الصحيحة، فبعد أن كانت تُسخَّر للغزو والظلم والثأر، وجهها الإسلام لإحقاق الحقوق ورد المظالم، ونشر العدل.

وصار المسلم يقاتل لإعلاء كلمة الله، ودحر الجبابرة. قال تعالى: ﴿ وَقَـٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ﴾(١).

يقول صاحب كتاب المعتقدات والقيم: وما كانت الشجاعة في الإسلام للتبختر والخيلاء، ولا للاعتداء بالقوة والرياء، وإنما جُعلت لإظهار حقٍ في هذه الحياة، أو طمس باطل أمر الله بطمسه ودفنه. والإسلام جعل الشجاعة عنوان القوة في الرجال، وبها تُعَزُّ الأمم، ثم جعل المتصفين بها هم الأحب إلى الله. قال ﷺ: «**المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير**». كما رغّب الإسلام في هذه الخصلة ونفَّر من الجبن. قال ﷺ: «**شر ما في الرجال شحٌّ هالع، وجبنٌ خالع**» ثم قال صاحب كتاب المعتقدات والقيم: لقد تخرّج على منهج الإسلام في باب الشجاعة قادة عظام خاضوا معارك فاصلة في تاريخ العالم، فخالد بطل اليرموك، وسعد بطل القادسية، وأبو عبيدة قائد فتوح الشام، أخضعوا الدنيا لكلمة لا إله إلا الله.

ويقول صاحب مجلة البيان: ولن يستطيع أبناء القصور الوارفة اليوم، والحلل الوثيرة أن يستردوا ما فتحه هؤلاء القادة الكرام، وما أحوجنا اليوم لغرس أخلاق الرجولة والشجاعة في نفوس أبنائنا بدل التباكي على مقدسات سُلبت وأعراضٍ انتُهِكت، وما ترك المسلمون الجهاد في تاريخهم إلا ذلوا ـ كما قال علي بن أبي طالب ـ.

ثم قال صاحب البيان: وعدَّ الإسلام من الشجاعة قولَ كلمةِ الحق عند سلطان جائر. فقد ذكر السبكي في طبقاته: أن الشيخ «العز ابن عبد السلام» نذر نفسه للجهر بكلمة الحق عند أئمة الجور، وقال السبكي: إن الشيخ المذكور طلع مرة إلى السلطان «أيوب» ويسمى الملكَ الصالح في يوم عيد بالقلعة في القاهرة، والسلطان بموكبه وعظمته، وديدبته، العسكر مصطفون بين يديه، ووجوه السلطنة وراءه والأعلام تلوح على رأسه، والأمراء يقبلون الأرض بين يديه، وإذا بشيخ يخرج من باب مدرسته فيناديه باسمه يا أيوبُ، فالتفت السلطان ودُهش، ووقف الناس وشُدهوا حتى كأن على رؤوسهم الطير ـ كما قال صاحب كتاب رجال من التاريخ ـ ثم ارتفع صوت الشيخ يقول: ما حجتك عند الله إذا قال لك ألم أُبَوِّئ لك ملك مصر ثم تبيع الخمور. قال السلطان: هل جرى ذلك؟ قال الشيخ: نعم، الخمارة الفلانية. قال السلطان: يا سيدي هذا من زمن أبي.

---

(١) الأنفال: ٣٩.

قال الشيخ: أنت من الذي يقولون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ﴾ [1]، ثم أمر السلطان بإبطالها في الحال، ثم دخل الشيخ مدرسته فتلقاه تلميذه «الباجي العظيم» قال: يا سيدي لم فعلت ذلك؟ قال: رأيته في هذه النعمة فخاطبته بذلك حتى لا تصاب نفسه بالكبر فتؤذيه. قال التلميذ الباجي: يا سيدي أما خِفْتَه؟ قال: تصورت هيبة الله فصار السلطان أمامي كالقط. والعز بن عبد السلام هذا لم يكن من أسرة كبيرة، ولا من بيت علم، ولكنه طلب العلم على كبر، ولذلك الطلب قصة يذكرها المؤرخون.

كما ذكرها كتاب رجال من التاريخ وهي: أن العز هذا كان فقيراً يبيت من فقره في مدرسة (الكلاسة)، وتقع بين المسجد الأموي وبين قبر صلاح الدين، وكانت تُغلق المدرسة أبوابها ليلاً، ويبيت فيها وحده، فاضطر في ليلة باردة إلى الاغتسال، فلم يجد إلا بركة المدرسة، فغطس فيها ونام، فعاوده الاضطرار مرة ثانية، فغطس، فأغمي عليه من شدة البرد، ثم شكا ذلك إلى شيخ في المدرسة فقيه، فقال له الشيخ وأفهمه: أنك لو كنت عالماً لما أقدمت على ضرر نفسك، ولعرفت أن التيمم يغنيك عن الغسل إن كان الغسل يؤدي إلى المرض. من هنا تعلم ـ كما قال علماؤنا ـ أن التقيَّ لا يصلح إلا بالعلم، ولا يصلح العلم إلا بالتقوى، فالمتعبد الجاهل يضر نفسه وقومه، والعالم الفاسق يتخذ العلم وسيلة للدنيا والجاه والغنى. سمع العز كلام الشيخ فأقبل من يومه على العلم بهمة لا نظير لها، يسهر ليله كله، فلم تمر عشر سنين حتى كان أحد أفذاذ العلماء، وأعلام الدنيا.

والناظر في أحوالنا اليوم يلاحظ أن شعوبنا ابتعدت عن رجولة العرب في جاهليتها، وابتعدت عن أخلاق السلف الصالح في الشجاعة والعزة حيث استهانوا بالموت فوُهِبت لهم الحياة الكريمة. أما نحن فألفنا الهوان لبعدنا عن مصدر عزتنا، وهو إيماننا، وكتاب ربنا، وانتقلت العزة إلى عدونا.

وبهذا يقول ﷺ كما ورد في صحيح مسلم: «**تقوم الساعة والروم أكثر الناس**». فقال عمرو بن العاص للمستورد القرشي ـ راوي الحديث ـ ما تقول؟ قال: أقول ما سمعتُ من رسول الله ﷺ. فقال عمرو: لئن قلت ذلك إن فيهم لخصالاً أربع: أنهم لأحلم الناس عند فتنة،

---

(١) الزخرف: ٢٢.

وأسرعهم إفاقة من مصيبة، وأوشكهم كرة بعد فرة، وخيرهم لمسكين وضعيف، وخامسة حسنة جميلة، وأمنعهم من ظلم الملوك.

ومن عادات العرب الحسنة: احترام الحرم والأشهر الحُرم: وذلك بعدم القتال فيها إلا للضرورة، وكانوا يؤمّنون الوافدين إلى الحرم، ولو كانوا ذوي سوابق في الشر.

ومن ذلك تحريمهم زواج المحارم، واغتسالُهم من الجنابة، والمداومةُ على المضمضة والاستنشاق، والسواك، والاستنجاء، وتقليم الأظافر، ونتف الإبط، والختان للأطفال، والخِفاض للبنات، وقطعهم يد السارق اليمنى، والحج والعمرة.

هذه هي جملة العادات الحسنة الحميدة التي كانت للعرب في الجاهلية قبل الإسلام، فماذا نستخلص مما تقدم؟

قال العلماء: نستخلص مما سبق:

أن الصفات الذميمة أو الحميدة لا تخلص كاملة في أي أمة من الأمم مهما كان رقيها أو انحطاطها، وإنما العبرة بالحال الغالبة، فمتى غلبت الصفات الحميدة كان المجتمع راقياً صالحاً، ومتى غلبت الصفات الذميمة كان المجتمع هابطاً فاسداً.

ولما جاء الإسلام وهو الدين الذي ارتضاه الله عز وجل أقر العادات الحسنة ورغّب فيها، ووعد عليها بحسن الأجر والثواب حتى أصبحت ديناً يتقرب بها إلى الله عز وجل، وأبطل العادات الذميمة، ونفَّر منها، وتوعّد فاعيلها بالعذاب، ووضع لبعضها حدوداً رادعة، فاقتلع جذورها وطهّر المجتمع العربي منها؛ لأنه لا مكان للفساد الضخم في أمة أجابت دعوة الله وكانت لها قيادة الدنيا.

ونستنتج مما سبق أن شرّ الفساد ما كان فيه أمران:

أولاً: شموله والمجاهرة به.

ثانياً: التقنين له والتخطيط لتقويته. وهكذا كان الفساد في الجاهلية مقنناً محمياً، قد اعتادوا عليه.

ونستنتج كذلك أن العادات الحميدة صفاتٌ يساعد على تقويتها وتثبيتها في الإنسان الإيمانُ والعلم، ومجاهدة النفس، ومقاومة الشيطان والهوى.

والذي يؤصل العاداتِ الذميمة في الإنسان الكفرُ والجهلُ، واتباع الشيطان والهوى.

قال صاحب أيسر التفاسير وهو مؤلف كتاب ـ هذا الحبيب يا محب ـ: ضعف الإيمان، وقلة العلم في الأمة الإسلامية اليوم، وقبل اليوم أَثْبَتَ فيها كثيراً من عادات الجاهلية كالتبرج والفواحش، والخمور والميسر، واستعمال موانع الحمل خوفَ الفقر.

الفصل التاسع عشر
الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام

ونتتقل الآن بعد هذا الحديث إلى الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام:

قال صاحب كتاب ـ الرحيق المختوم ـ: كان العرب على دين إبراهيم موحدين، وذلك حين قام فيهم إسماعيل عليه السلام رسولاً من الله إليهم، وبَقُوا على التوحيد، ثم طال بهم العهد، ونسوا حظاً مما ذكروا به، ولكنهم كانوا لا يزالون موحدين إلى أن جاء «عمرو بن لحي الخزاعي» ـ سيد خزاعة ـ، وكان كريماً يحب الدين، ويصطنع المعروف، فأحبه الناس، ثم سافر إلى بلاد الشام إلى منطقة «الحمّة» التي فيها ماء كبريتي حار، فاستحم فيها، وشفي، فرأى أهلَها على الأصنام والتماثيل، فظن ذلك حقاً؛ لأن أرضَ الشام مكانُ الرسل والكتب، فسألهم قائلاً: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون؟ قالوا: نستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا. فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأذهب به إلى بلاد العرب فيعبدوه؟ فأعطوه «هبل»، وهو من العقيق الأحمر على هيئة إنسان، وبقي هذا الصنم عند الكعبة إلى اليوم الذي فتحت فيه مكة على يده ﷺ. وكان إلى جانب هبل بئر يُجمع فيها ما يُهدى إلى الكعبة، وكان هذا الصنم قد كُسرت يده أثناء نقله، فجعلوا له بدلها يداً من ذهب، ثم وضع «عمرو بن لحي الخزاعي» الصنمَ في جوف الكعبة، ودعاهم إلى عبادته، فأجابه أهل مكة أولاً، ثم سار أهل الحجاز على سير أهل مكة؛ لأن أهل مكة كانوا ولاة البيت، فقلدوهم، وكان هذا أول مبدأ الأوثان والتماثيل عند العرب.

أما الشرك: فقد كان عند العرب المستعربة من أولاد إسماعيل من العدنانيين قبل عبادة الأوثان والأصنام، وذلك أنهم كانوا إذا خرجوا من أرض الحرم لطلب الرزق أخذوا معهم حجارة من الحرم، فإذا نزلوا منزلاً وضعوها عندهم، وطافوا بها طوافهم بالبيت، ودعوا الله عندها، فإذا رحلوا أخذوها معهم.

وهكذا وبموت من أحدث هذا الحدث، وبمرور الزمان الطويل نشأ جيل ينظر إلى تلك الحجارة والأوثان على أنها آلهة يتقرب بها إلى الله رب البيت والحرم، وهكذا كان مبدأ الوثنية في العرب.

وفي الصحيح عن أبي رجاء العُطاردي قال: كنا في الجاهلية إذا لم نجد حجراً جمعنا حثية

من تراب، وجئنا بالشاة فحلبناها عليه ثم طفنا بها. قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: كان «عمرو بن لحي الخزاعي» أول من أتى بالأصنام من الشـام إلى الديـار الحجازية، وكان عمرو هذا مقدساً عند قومه يشرع لهم فيقبلون شرعته، ويبتدع لهم فيحسّنون بدعته، فكان ابن لحيّ هذا أول من بدّل دينَ إبراهيم وإسماعيل في الحجاز، ويشهد لهذا قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: «**رأيت عمرو بن لحي يجر قصَبَه في النار**». وعند الإمام أحمد من حديث عبد الله بن مسعود أنه ﷺ قال: «**أول من سيّب السوائب، وعبد الأصنام عمرو بن لحي، وإني رأيته يجر أمعاءه في النـار**».

وفي مصنف عبد الرزاق عن زيد بن أسلم قال: قال رسول الله ﷺ: «**إني لأعرف أول من سيّب السوائبَ، وأول من بدّلَ دين إبراهيم**». قالوا: ومن هو يا رسول الله؟ **قال** ﷺ: «**عمروُ بن لحي أخو بني كعب، لقد رأيته يجر قصبه في النار، تؤذي رائحته أهلَ النار**».

ثم بعد عمرو بن لحي، هذا انتشرت الأصنام في بلاد العرب، وإليكم أهمها، ومواقعها والقبائل التي عبدتها:

سُواع: كان (بِرُهاط) بساحل (يَنبع) تعبده قبيلة «هُذيل» المضرية.

وَدّ: وهو على صورة رجل شمال المدينة في (دومة الجندل) قريب من الشام تعبده قبيلة «كلب» القضاعية.

يَغوث: على صورة أسد في مدينة (جُرَش)، من مخاليف اليمن من جهة مكة.

قال الحميري في كتابه الروض المعطار: جُرَش من البلاد التي كان أهلها اتخذوا الأصنام بعد دين إسماعيل عليه السلام وهم «مذحج» الذين، قال فيهم القرآن: ﴿وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا﴾[1]. قال أبو عثمان النهدي: رأيت يغوث من رصاص، وكانوا يحملونه على جمل أحرد[2]، ويسيرون معه ولا يُهيجونه حتى يكون هو الذي يبرك، فإذا برك نزلوا وقالوا: قد رضي ربكم لكم المنزل، فيضربون عليه بناء ينزلون حوله.

يعوق: وكان لهمدان في أرض اليمن وهو على صورة فرس، وكانت قبيلة «خيوان» وهي

---

(١) نوح: ٢٣ وانظر ما كتبه ابن عاشور في هذه الآية.

(٢) أي يخبط بيديه إذا مشى.

بطن من «همدان» تعبده في مكان اسمه (بلخع). وفي ذلك يقول الشاعر «نمط الهمداني»

يَريش الله في الدنيا ويبري ولا يبري يعوقُ ولا يريش

والمعنى: أن الله ينفع ويضر، وأن يعوق ليس له من الأمر شيء لا في النفع ولا في الضر.

نَسْر: وهو على صورة النسر من الطير ـ كما ورد في البخاري عن ابن عباس ـ في أرض حمير من اليمن تعبده «حمير وذو الكلاع».

مناة: وكان على ساحل البحر، على صخرة من ناحية المُشلّل[(١)] قرب قُديد[(٢)]. وسُمي قديداً لأن الملك «تبع» بعد أن حارب أهل المدينة ـ قبل الإسلام ـ نزل قُديداً فهبت ريح قدّت خيمَ جنوده فسُمّي قديداً. وكان مناة تعبدها «الأوس والخزرج».

اللات: وكانت بالطائف، وكانت ثقيف تعبدها، ومنهم سدنتها وحجابها.

العُزّى: وكانت بـ«نخلة»، وهي صنم أنثى على بعد (٧٥) كيلاً من مكة عن يمين الصاعد إلى العراق، وكان عليها بيت، وسدنتها من شيبان أي من بني شيبان.

هُبل: وكان صنماً يُستفتى في المشكلات الشخصية كالزواج والطلاق. .

ذو الخَلَصة: بجنوب مكة، وكانوا يُهدون إليها الشعير والقمح، ويصبون عليها اللبن، ويذبحون إليها، ويعلقون عليها بيض النعام.

أساف ونائلة: **وكان موضعهما بجوار الكعبة عند زمزم. كانت تعبدها قريش من جملة أصنامها، وكانوا يذبحون عندهما كما كان على الصفا صنم يقال له: (مجاور الريح)، وعلى المروة آخر يسمى (مطعم الطير).**

فِلْس: كان صنماً بجبل طيء. (أجاوسلمى) بأرض طيئ شمال الحجاز قريباً من مدينة حائل المعروفة، وكانت قبائل طيء تعبده، وتستسقي به، والائتمان بساحته، وتُهدي إليه، وهو على شكل إنسان. وبعث النبي ﷺ علي بن أبي طالب بعد الفتح فهدمه.

رِئام: وهو بيت لحمير بصنعاء يعظمونه وينحرون عنده، وكانت الشياطين تكلمهم عنده

---

(١) المشلل: جبل يهبط منه إلى قديد من ناحية البحر.

(٢) قديد: اسم موضع قرب مكة.

لإتمام الفتنة.

رُضاء: وهو بيت لبني ربيعة، ولما جاء الإسلام هدمها المستوغر. وكان يقول:

ولقد شددتُ على رُضاء شدة ... فتركتهـــا قَفْراً بقاعٍ أسحما

والمستوغر هذا عمّر طويلاً فعاش (٣٣٠) سنة. وهو القائل:

ولقـــد ســئمتُ مــن الحيـاة وطولهـا ... وعُمِـــرْتُ مـــن عـــدد الســنين مئينـا
مائـــةٌ حَـــدَتْها بعـــدها مئتـــان لي ... وازددتُ مـــن عـــدد الـــشهور ســـنينا
هـــل مـــا بقـــى إلا كـــا قـــد فاتنـــا ... يـــــومٌ يمـــــر وليلـــــةٌ تحـــــدونا

ذو الكعبات: وهو بيت لبكر وتغلب ـ بسنداد ـ أسفل سواد الكوفة. قال ابن الكلبي: وكان في سنداد قصر تحج إليه العرب، وهو القصر الذي ذكره «الأسود بن يَعفُر النهشلي» ـ كما قال ابن هشام ـ وفيه:

أهلُ الخورنقِ والسديرِ وبارق ... والقصرِ ذي الشرفات من سَنداد

وكان هذا الشاعر قد ذكر في قصيدته (مَامَةَ وكعباً ولَد مامة) وكانا من ملوك إياد، وذكر كرمهم وترفهم وعزهم، ثم بادوا وهلكوا. فقال:

أهـــل الخورنـــق والـــسدير وبـــارق ... والقـــصر ذي الـــشرفات مـــن ســـنداد
خلُّـــوا بـــأنقرةٍ يـــسيل علـــيهم ... مـــاءُ الفـــرات يجـــيء مـــن أطـــواد
أرض تخيَّرهـــا لِطيـــب مقيلهـــا ... كعـــبُ بـــن مَامَـــة وابـــنُ أم دؤاد[1]
ولقـــد غَنَـــوا فيهـــا بأفـــضل عيـــشة ... في ظـــل مُلْـــكٍ ثابـــتِ الأوتـــاد
جـــرتْ الريـــاح عـــلى عِـــراص ديـــارهم ... فكـــأنما كـــانوا عـــلى ميعـــاد
فـــإذا النعـــيم وكـــل مـــا يُلهـــى بـــه ... يومـــاً يـــصير إلى بـــلىً ونفـــاد

---

(١) شاعر مشهور.

ولقد مر عمر بن عبد العزيز بقصر لآل جفنة، وكان مع عمر مولاه «مزاحم»، فتمثل العبدُ بشعرِ الأسود المذكور، وأسمعه لعمر، فقال عمر بن عبد العزيز: ويحك ألا قرأت قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾﴾ (١).

والنَّعمة (بالفتح) التنعم، وهو استعمال ما فيه النعومة من المأكول والملبوس، وبالكسر (النِّعمة) ما أنعم الله به على العبد.

وفي الأمثال: (كم ذي نِعمة لا نَعمة له)، أي كم ذي مال لا تنعُّم له لبخله. (كذلك): أي كذلك نفعل بمن عصانا.

وكانت الأصنام تباع في مكة فيشتريها أهل البادية، ويخرجون بها إلى بيوتهم.

---

(١) الدخان: ٢٥ ـ ٢٨.

الفصل العشرون
تتمة الحالة الدينية عند العرب قبل الإسلام

قال ابن الكلبي: واستهترت العرب في عبادة الأصنام، فمنهم من اتخذ بيتاً يعظمه، ومنهم من اتخذ صنماً. قال السهلي[1]: كانت العرب قد اتخذت مع الكعبة طواغيت، ـ وهي بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة، وتُهدي إليها، وتنحر عندها ولها ـ مع معرفة فضل الكعبة، ومن لم يقدر على ذلك نصب حجراً أمام الحرم، ثم طاف به كطوافه بالبيت، وسموها (الأنصاب)، فإن كانت تماثيل: سموها الأصنام والأوثان، ويسمون طوافهم حولها (الدّوار).

وكان الرجل إذا سافر ونزل منزلاً أخذ أربعة أحجار، فنظر فيها واتخذ أحسنها رباً، وجعل الثلاثة أسافي قدره، فإذا ارتحل تركها، وإذا نزل منزلاً آخر فعل مثل ذلك، ولكنهم كما قال صاحب كتاب تاريخ الفكر العربي: رغم أنهم كانوا يعتقدون أن هذه الأصنام لها مكانتها في قلوبهم وعقيدتهم، فهي أدنى مرتبة عندهم من الله.

قال أوس بن حجر:

والللات والعزى ومن دان دينها   وبالله إن الله منهـــــن أكبـــــر

وقد يتنبه الوعي الداخلي عند العربي لحظة عابرة، فيدرك أنه بعبادته للأصنام ليس على شيء، ولكنه ـ كما قال صاحب كتاب محمد رسول الله[2]: تنبه عابر قصير.

ومن شواهد ذلك ما روى ابن إسحاق أن رجلاً من بني (ملكان بن كنانة) أقبل بإبل له كثيرة ليقفها على صنم يقال له سعد ـ وهو صخرة طويلة بفلاة من أرض (جدة) ـ التماس بركته كما يزعم، فلما رأت الإبل الصنم سعداً ـ وكان ملطخاً بالدماء التي تهراق عليه من الذبائح ـ وكانت الإبل مرعية لا تُركب ـ فنفرت منه الإبل وذهبت في كل وجه، فغضب الأعرابي صاحب الإبل، وأخذ حجراً ثم قال للصنم: لا بارك الله فيك إلهاً نفّرت عليّ إبلي، ثم خرج في طلب الإبل حتى جمعها.

---

(١) صاحب كتاب الروض الأنف.

(٢) ج ١، ص ٤٦.

فلما اجتمعت قال:

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتّتنا سعدٌ فلا نحن من سعد
وهل سعدُ إلا صخرة بتنوفة[1] من الأرض لا يُدعى لغَيٍّ ولا رُشد

قال ابن الكلبي في كتاب الأصنام: وكان لمزينة صنم يُقال له (نُهْم) ومن هنا تسمى مزينة (عبد نهم)، وكان له سادن يقال له (خزاعي بن عبد نهم) من مزينة، ولما سمع هذا السادن بمبعث النبي ﷺ ثار إلى الصنم وكسره ثم. .

قال:

ذهبت إلى نُهم لأذبحَ عنده عتيرَة[2] نُسكٍ كالذي كنتُ أفعل
فقلت لنفسي حين راجعتُ عقلها أهذا إله؟ أبكمٌ ليس يعقل
أبيتُ، فديني اليوم دين محمد إلهُ السماء الماجد المتفضّلُ

ويذكر ابن الكلبي: أن امرأ القيس بن حجْر الكندي لما قتلَ بنو أسد أباه، وأراد الإغارة عليهم ليثأر لوالده، مرّ على (ذي الخَلَصَةِ)، ـ وكان صنماً بأرض تَبالة[3] تعظمه العرب، وكان عند هذا الصنم ثلاثة أقداح: الآمر، والناهي، والمتربص، فاستقسم امرؤ القيس عندها ثلاث مرات هل يُقدم على الغزو ليثأر ممن قتلوا أباه أم لا؟ قال ابن الكلبي: فخرج له في المرات الثلاث (الناهي)، فكسّر الأقداح، ورمى بها وجه الصنم وقال له عبارة فيها شيء من سوء الأدب. قال: اعضض بـ. . . أبيك، لو كان أبوك قُتل ما عوَّقْتَني؟!!. ثم قال للصنم:

لو كنتَ يا ذا الخَلَص الموتورا مثلي وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العُداة زورا

ثم غزا بني أسد وانتصر عليهم. كما ذكر صاحب كتاب الفكر العربي: أن «غادي بن عبد

---

(١) التنوفة: الأرض المقفرة.

(٢) تذبح في رجب لأصنامهم.

(٣) بلد في اليمن.

العزى» رأى ثُعلباناً يبول على صنم لهم،

فقال:

أربٌّ يبول الثُّعلبان برأســــــه		لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

قال الصادق عرجون رحمه الله تعالى: وإلى جانب هذه الوثنية البلهاء الغامرة، كانت هناك قلة منثورة في أرجاء الجزيرة العربية تدين بديانات أخرى، فكانت اليهودية في اليمن حتى غلبت عليها الحبشة فأدخلت فيها النصرانية التي عاشت في نجران حتى جاء الإسلام، ثم تحولت اليهودية إلى الحجاز، فأقامت بخيبر ويثرب، وهناك لقيها الإسلام عند ظهوره.

قال المؤرخون: وفي غضون هذا البحر الخِضَمّ من الوثنية، كانت توجد حفنة من الناس تنكر على قومها التعبد للأحجار، وتتطلع إلى دين إبراهيم وإسماعيل الذي بقي منه بقايا تمسكت بها هذه القلة، فمضوا على ثباتهم وعقائدهم. قال محمد بن إسحاق: واجتمعت قريش يوماً في عيد لهم على صنم يعظمونه وينحرون له، ويطوفون به. وكان هذا العيد في كل سنة يوماً، فخلص من الجمع أربعة نفر نجياً، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا ولْيَكتُم بعضُكم على بعض. قالوا: أجل. وهؤلاء الأربعة هم: ورقة بن نوفل، وعبد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وزيد بن عمرو بن نفيل. قال بعضهم لبعض: تعلّموا: والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر، ولا يضر ولا ينفع؟ يا قوم: التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شيء، فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.

أما ورقة بن نوفل: فقد استحكم في النصرانية حتى علم علماً من أهل الكتاب، وأما عثمان بن الحويرث فقد قدم على قيصر الروم فتنصر وأقام هناك. وأما عبد الله بن جحش فقد بقي حائراً حتى جاء الإسلام فأسلم، ثم هاجر إلى الحبشة وتنصّر ومات هناك على النصرانية.

قال المؤرخون: وممن كان على الوثنية وتنصّر «النعمان بن المنذر» من ملوك المناذرة والحيرة ـ كما روى صاحب الأغاني وصاحب قصص العرب ـ فقد خرج النعمان بن المنذر يوماً إلى الصيد ومعه «عدي بن زيد»، فمروا بشجرة، فقال عديّ للملك: أيها الملك: أتدري ما تقول هذه الشجرة؟

قال: لا. قال عدي: تقول:

ربَّ ركــــب قــــد أنـــاخوا عنـــدنا ... يـــشربون الخمـــر بالمـــاء الـــزلال
عـــصف الـــدهر بهـــم فانقرضـــوا ... وكـــذاك الـــدهر حـــالاً بعـــد حـــال

ثم جاوزا الشجرة فمروا بمقبرة، فقال عدي للملك: أيها الملك أتدري ما تقول المقبرة؟ قال الملك: لا.

قال عدي: تقول:

أيهـــا الركـــب المخبـــون عـــلى الأرض المجـــدّون
فكـــما أنـــتمُ كنـــا وكـــما نحـــن تكونـــون

فقال الملك النعمان لعدي: إن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان، ولكنك أردت موعظتي، فما السبيل التي تُدرك بها النجاة؟ قال عدي: تدع عبادة الأوثان، وتدين بدين المسيح عيسى بن مريم. قال الملك: أوفي هذا النجاة؟ قال عدي: نعم. فتنصر يومئذ. وأما زيد بن عمرو بن نفيل فوقف. فلم يدخل في نصرانية ولا يهودية، وفارق دين قومه واعتزل الأوثان. قالت أسماء بنت الصديق: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل، شيخاً كبيراً مسنداً ظهره إلى جدار الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري، ثم يقول: اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه، ثم يسجد على راحلته.

وقد قال عنه النبي ﷺ: «**إنه يُبعث أمة وحده**». وفي رواية عند ابن سعد في كتابه الطبقات: «**إني رأيته يسحب ذيله في الجنة**».

قال في قصص العرب: كان زيد بن عمرو بن نفيل يقول لقريش: يا معشر قريش: أيرسل الله قطرَ السماء، وينبت بقلَ الأرض، ويخلق السائمة فترعى فيه، وتذبحوها لغيره.

قال العلماء: وسبب بقائه على دين إبراهيم: أنه خرج إلى الشام يسأل عن الدين ويتبعه، فلقي عالماً يهودياً فسأله عن دينهم قائلاً له: لعلي أدين بدينكم فأخبرني. فقال اليهودي: إنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله!! فقال زيد بن عمرو: لا أفر إلا من غضب الله، وما أحمل شيئاً من غضب الله أبداً وأنا أستطيع، فهل تدلُّني على دين غير هذا؟ قال اليهودي: عليك بالحنيفية! قال زيد: وما الحنيفية؟ قال اليهودي: دين إبراهيم. فخرج زيد من عند العالم اليهودي وتركه، ثم أتى عالماً من علماء النصارى، فقال له مثل ما قال للعالم اليهودي، فقال له

العالم النصراني: إنك لن تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من لعنة الله، فقال زيد: إني لا أحمل من لعنة الله ولا من غضبه شيئاً، وأنا أستطيع ذلك، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟!!. قال العالم النصراني: لا أعلمه إلا أن يكون حنيفاً، فخرج زيد بن عمرو من عنده، وقد رضي الحنيفية دين إبراهيم. فلما خرج من عنده رفع يديه إلى السماء وقال: اللهم إني على دين إبراهيم.

ومن شعره:

أربـــــاً واحـــــداً أم ألــــــف ربٍ　　أَديـــــن إذا تقــــسَّمت الأمـــــور
تركـــتُ الـــلات والعُـــزى جميعـــاً　　كـــذلك يفعـــل الجلْـــد الـــصبور
فـــلا العـــزى أديـــنُ ولا ابنتيْهـــا　　ولا صَـــنَميْ بنـــي غـــنمٍ أزور
ولا هُــــبلاً أزور وكــــان ربـــــاً　　لنـــا في الدهـــر إذ حلمـــي صـــغير

أثر بقاء الحنيفية عند العرب: كان لبقاء آثار الحنيفية تأثير في العرب، حيث أن هذه الآثار جعلتهم يؤمنون بالله، ويُسندون إليه عظائم الأمور، والذي يطلع على أقوالهم وأشعارهم يلاحظ ذلك. .

فمن شعر أمية بن أبي الصلت:

الحمد لله مُمسانا ومُصبحنا　　بالخير صبّحنـــا ربي ومسّانا

وللنابغة:

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبة　　وليس وراء الله للمرء مذهب

ولزهير:

فلا تكتُمُنَّ الله ما في نفوسكم　　ليخفـــى ومهما يُكْتَم اللهُ يعلم

ولطرفة:

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى　　ولا زاجـــراتُ الطير ما الله فاعل

قال العلماء: ومَن تخلّف من العرب كزيد بن عمرو بن نفيل كان موحداً، ولكن لم يكن له ولا لأمثاله شرع يعبدون الله به. وقد رخّص النبي ﷺ لولديه «سعيد وعمر» بالاستغفار لوالدهما زيد بن عمرو بن نفيل. ومات قبل بعثته ﷺ بسنوات قليلة حيث توفي سنة ١٧ قبل الهجرة.

والآن: ما العبر المأخوذة من هذه الفقرة؟ وهي حياة العرب الدينية قبل الإسلام. والجواب: رأينا أن منشأ الشرك عند العرب كان من نقلهم الحجارة من الحرم للتبرك بها، والطواف حولها إذا سافروا، لذلك يجب سدُّ كلِ طريق وكل ذريعة توصل إلى الشرك، فلا يُنقل شيء للتبرك به، ومن هنا قطع عمر بن الخطاب الشجرة التي كانت عندها بيعة الرضوان مخافَة أن تقدَّس بمرور الزمان، اللهم إلا ما كان من آثار النبي ﷺ كشعره، وثوبه، أو سلاحه، كما ذكر ذلك صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب، ثم لم يبق من ذلك شيء لمرور الزمان الطويل، ثم تكون نظرتنا لهذه الأمور نظرية تذكيرية.

قال الشعراوي في هذا المقام: وعندما نرى شعرة من شعر النبي ﷺ أو نرى المكحلة التي اكتحل بها، فإن هذه الرؤية تثير في النفس لوناً من السكينة والاستشراق.

وعندما نرى مصحف عثمان فهو كبقية المصاحف، ولكن يذكرنا بالجهد المبذول في جمع المصحف من العُسُب واللخاف. . ، وعندما نرى سيفَ عليّ بن أبي طالب الذي يعادل عشرة سيوف نشعر بمعونة الله للمؤمنين، ولكن لابد أن تكون نظرتُنا إلى هذه الآثار بعيدة عن الوثنيات، فهذه الآثار لا تشفع لنا، ولكن تُذكرنا بأمور تتصل به ﷺ.

ومن العبر الأخرى أننا رأينا أن طاعة عمرو بن لحي الخزاعي، وتعظيم الناس له هو الذي جرأه على نقلِ الأوثان إلى العرب من الشام، وأمرِهِ لهم بعبادتها، ولذلك يجب علينا الحذر من الغلو، ومن الأقوال التي تخالف الكتاب والسنة، وأن لا نقبل من أحد قولاً مهما كانت منزلته إلا بدليل شرعي من كتاب أو سنة.

ومن العِبر: أننا رأينا أن للعرب بيوتاً كانوا يعظمونها، وفَشَتْ في الأمة عادات هي من الجاهلية، كبناء القباب على الأضرحة. . والذبح لها، والطواف بها، والنذور لها، وإيقاد الشموع

عندها، وربما استغاثوا بها. كما ورد أنه عندما هاجم التتار بلاد المسلمين كان من قول بعضهم[1]:

يا خائفين من التتر، لوذوا بقبر أبي عمر، ينجيكم من الضرر.

(١) انظر كتاب التوحيد ص ٢٢٦.

الفصل الواحد والعشرون
البدع والضلالات عند العرب قبل الإسلام

والآن إلى ذكر بعض البدع الدينية وبعض الضلالات التي كانت في الجاهلية:

قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: وكان عند العرب في الجاهلية أمور ظاهرة في الابتداع، زائدة على أصل الدين الوثني الذي هم عليه.

من ذلك:

البَحيرة: وهي الناقة التي تُشق أذنها نصفين طولاً، وهذا الشق علامة على (تَخْلِيَتِها) أي أنها لا تُركب، ولا تُنحر، ولا تُمنع عن ماء ولا عن مرعى، ويكون لبنها لطاغيتهم (أي لصنمهم). فكل حي من أحياء العرب تكون بحائرهم لصنمهم، ولا يُشرب لبنها إلا لسادن الصنم، أو لضيف يزور الصنم. ولكن متى تكون الناقة بَحيرة؟ تكون بحيرة إذا نتجت عشرة أبطن أو خمسة أبطن وكان الخامس ذكراً. وإذا ماتت حتف أنفِها حلّ أكلُها للرجال، وحُرّم على النساء.

السائبة: وهي الناقة أو البعير يُجعل نذراً عن شفاءٍ من مرض، أو عن قدوم من سفر. فيقول: أَجْعَلُ لله سائبةً إن شُفي المريض. . وكانوا يدفعونها إلى السدنة ليُطعِموا من ألبانها أبناءَ السبيل. وكان للسائبة علامة، وهي أن تقطع قطعة من جلدة فَقار الظهر، فيقال لها (صريم) وإذا ولدت الناقة عشرة بطون كلُّهن إناثٌ متتابعة سيَّبوها كذلك فهي سائبة، فلا يُركب ظهرها، ولا يؤكل لحمها.

الوصيلة: وهي الشاة تلد أنثى بعد أنثى، فتسمى الأمُّ وصيلةً؛ لأنها وصلت أنثى بأنثى. هكذا فسرها الإمام مالك.

وقال الجمهور: الوصيلة أن تلد الشاة خمسة أبطن أو سبعة على اختلاف بين القبائل، فالبطن الأخير إن كان ذكراً ذبحوه لبيوت الطواغيت، وإن كان أنثى استَحْيَوها أي تركوها حية لبيوت الطواغيت، وإن أتأمت[1] استحيوهُما جميعاً وقالوا: وصلت الأنثى أخاها فمنعته من الذبح.

---

(١) أتت بتوأم.

وقد رجّح صاحب التحرير والتنوير: أن الوصيلة عند الجمهور هي التي وصلت سبعة أبطن إناثاً.

أما الوصيلة من الإبل: فهي الناقة التي بكرتْ في إنتاج الإبل بأنثى، ثم تُثنّي بُعد بأنثى في آخر العام، فكانوا يجعلونها لطواغيتهم.

وأما الحامي: فهو الفحل من الإبل الذي نتج من ظهره عشرة أبطن، فيترك فلا يُركب ظهره، ولا يُحمل عليه، ولا يُمنع من مرعى ولا ماء، ويقولون: إنه حمى ظهره أي كان سبباً في حمايته فهو (حام).

قال الإمام مالك: كانوا يجعلون على الحامي ريشَ الطواويس، ويسيّبونه فهو بمنزلة السائبة لا يؤكل حتى يموت، ووبره للأصنام. ثم نزل القرآن فكذبهم في ادعائهم البحيرة والوصيلة والحام. . وبيَّن الفارقَ بين ما شرّع الله من الهدي والقلائد هدياً بالغ الكعبة، وبين ما شرعوه لأنفسهم وغيروا به الحنيفية.

قال تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَفۡتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَۖ وَأَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ﴾ (١). انتبه إلى قوله تعالى (ما جعل الله) ولا حظ الفرقَ بين الخلق وبين الجعل:

فالخلق: ـ كما قال العلماء ـ هو إيجاد من عدم، والجَعل: هو توجيه كل مخلوق خلقه الله تعالى إلى مهمة معينة في الحياة.

والفساد في الكون من أين ينشأ؟

الجواب: إن الفساد ينشأ في الكون حين يأتي البشر إلى مخلوقات الله فيجعل لها مهمةً غير تلك التي جعلها الله لهذه المخلوقات، فالله تعالى جعل لكل مخلوق مهمة فلا تستعملْ ـ يا عبد الله ـ ما خلق الله لك إلا في المهمة التي عينها الله. ولنضرب مثالاً على ذلك: فأنت في حياتك اليومية تحرص على استخدام الأشياء لما هي مخصصة له، وقد ضرب علماؤنا ـ الشعراوي ـ لذلك مثلاً فعندما تأخذ من صانع الجبن قالباً منه، ومن بائع الصابون قالب الصابون، فالأول للأكل والثاني للغسيل، فإذا استعمل بالعكس، أفسدت صحة الأسرة. وكذلك ـ ولله المثل الأعلى ـ منهج الله في

---

(١) المائدة: ١٠٣.

الجَعل، فالله عز وجل خلق الخنزير لمهمة ـ ليأكلوا القاذورات، وليحمي الإنسان من أمراض وأضرار كثيرة ـ فعلى الإنسان أن يخصص الخنـزير لهذه المهمة فلا يحوله إلى غيرها كأن يأكلها، لأن هذا التحويل من التنظيف إلى الأكل يضرُّ بالإنسان.

وأنتم أيها المشركون قد جعل الله هذه الأنعام للناس ليستمتعوا بأكل لحومها، وشُرب ألبانها، وركوب ظهورها، وتسخيرها لما فيه فائدتكم، فشرعتم شرعة حرمتم بها ما أحل الله لكم، واسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (١).

إذاً كيف نجعل من أنفسنا مشرعين نحلل الحرام ونحرم الحلال. فالكافرون المشركون أناس غيروا منهج الله ـ كما قال العلماء ـ وستروا البلاغ عن الله، وهم بذلك يفترون الكذب على الله، ولذلك جاء التذييل في ختام الآية التي تشير إلى هذه المبتدعات: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (٢).

وانتبه إلى جميل الختام في قوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ أي: لو تَعَقَّل هؤلاء المُحَرِّمون لهذه الحيوانات لما فعلوا ذلك، لأننا نقول لهم: هل جعلتم تحريم هذه الحيوانات زهداً فيها أم تكريماً لها؟ فإن كان ذلك زهداً فقد أخرجتموها عما خلقها الله لأجله من أكل وانتفاع، وإن كان تكريماً لها، فكيف تترك هذا الحيوان الذي خدمك دون طعام وشراب؟ ودون حماية من ذئب؟ وقد يُخَرِّب الحيوان مال الغير، ومثل هذا التصرف يعرّض حياةَ هذا الحيوان للخطر، فالعقل السوي يأبى مثل هذا الزهد، ومثل هذا التكريم، ولذلك قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾.

قال العلماء في قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ والكفار فريقان:

الخاصة: وهم الذين ابتدعوا هذه الضلالات، كعمرو بن لحي الخزاعي.

العامة: وهم الذين اتبعوا هؤلاء المضلين على غير بصيرة، ولذلك قال تعالى في الفريقين ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾.

---

(١) يونس: ٥٩.

(٢) المائدة: ١٠٣.

ومن البدع التي كانت سائدة في الجاهلية وأبطلها الإسلام:

١ـ بدعة الوقوف في الحج بمزدلفة لا في عرفة، هذه البدعة أحدثها أشراف مكة من قريش، وهم الذين يُعرفون (بالحُمس)[١].

قالت عائشة رضي الله عنها: كانت قريش ومن دان دينها يقفون يوم عرفة بمزدلفة، وهؤلاء يسمون الحمسَ، وكان سائر العرب يقفون في عرفات، فلما جاء الإسلام أمر الله عز وجل نبيه ﷺ أن يأتي عرفات، ثم يقف بها، ثم يفيض منها، فذلك قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢].

قال العلماء: نزلت؛ لأن قريشاً كانت ترى نفسها أهل الحرم، فلا يُطالَبون أبداً بما يُطالب به الناس، ولذلك لا يذهبون مع الناس إلى عرفات، وإنما يقفون بمزدلفة، والله يريد في الحج المساواة بين الناس، ولذلك قال ﷺ في حجة الوداع: «**كلكم بنو آدم، وآدم خلق من تراب، لينتهين قوم يفتخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله من الجُعلان**» ثم ختم الآية بقوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾. وفي ذلك تعريض بقريش حيث تركوا الوقوف بعرفة...، وفي الآية إشارة من الحكيم الكريم الذي يعلم أن بني آدم في غالبهم لا يراعون حقوقَه عز وجل كما يجب أن تراعى، فلابد أن تفلت منهم أشياء، والله سبحانه وتعالى عالم بذلك، لأنه خالقهم فأمرهم ـ جلت حكمته وعظم كرمه ـ أن يستغفروه ليكفروا سيآتهم. ومن بِدَعهم وضلالاتهم في الجاهلية مع وثنيتهم:

٢ـ بدعة عدم الطواف في ثياب عُصِيَ فيها الله عز وجل: فلا يجوز عندهم أن يطوف أحد حول الكعبة في ثوب قديم (إلا الحمس) وهم قريش وما ولدت، وإلا من استعار من الحمس ثياباً، فإن لم يجد من يعطيه من الحمس ثياباً طاف عارياً حتى المرأة تطوف عارية إن لم تجد من يُعيرها من النساء ثوباً، فتستر عورتها وتطوف.

ويؤكد هذا قول إحداهن:

اليوم يبدو بعضُه أو كله وما بـــــــدا منه فلا أحله

---

(١) جمع أحمس وهو المتحمس للدين وشعائر الدين.

(٢) البقرة: ١٩٩.

وقد أخرج مسلم عن عروة بن الزبير قال: كانت العرب تطوف بالبيت عراة يخلعون ثيابهم من مِنى، وأتوا البيت عراة تفاؤلاً بالتعري من الذنوب كما تَعَرَّيْنا من الثياب، إلا الحمس ـ وهم قريش وما ولدت ـ فكان غير الحمس يطوفون عراة إلا أن يعطيَهم الحمس ثياباً، فيعطي الرجالُ الرجالَ والنساءُ النساءَ، وكان الحمس يقولون: نحن أهل الحرم فلا ينبغي لأحد من العرب أن يطوف إلا في لباسنا، ولا يأكلَ إذا دخل أرضنا إلا من طعامنا.

فمن كان من العرب ليس له صديق في مكة يعيره ثوباً، ولم يكن معه ما يستأجر به ثوباً، فهو بين أمرين: إما أن يطوف عارياً، وإما أن يطوف في ثيابه، فإن انتهى من طوافه ألقاها عنه وتسمى (اللُّقَى): وهو ما يلقى ويطرح لهوانه، ولم يمسَّها أحد.

قال الزمخشري: وكان الحمس يضربون من طاف بثيابه. وقد أبطل النبي ﷺ كل ذلك عام حجته ﷺ سنة ٩ للهجرة، إذ أمر أبا بكر أن ينادي في الموسم: ألاّ يحجَ بعد العام مشرك، ولا يطوفَ بالبيت عريان، وذلك استجابة لقوله عز وجل في إبطال ما كان عليه المشركون الذين زعموا لزوم التعري. ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾ [(١)].

وقد ذكر السدي عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية التزموا تحريم أكلِ اللحم والسمنِ والودكِ أيام الموسم ـ يعظمون بذلك حجهم ـ، ولا يأكلون من الطعام إلا قوتاً، وكان بنو عامر أشدَّ من يفعل ذلك، وقال الكلبي: فقال المسلمون: يا رسول الله نحن أحق أن نفعل ذلك ـ أي نحن أولى أن نمتنع عن اللحم والدسم ـ فنزلت الآية ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾، وعن جابر بن زيد ـ كما عند الطبري ـ قال: كان العرب في الجاهلية إذا حجوا حرّموا الشاة ولبنها وسمنها، وقوله ﴿وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ . .﴾ يعني اللحم والدسم، ﴿وَلَا تُسۡرِفُوٓاْ﴾: بتحريم ما أحل الله لكم من اللحم والدسم. ﴿إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ﴾: الذين يفعلون ذلك.

وفي البخاري: قال ابن عباس: كل ما شئت والبس ما شئت، ما أخطأتك اثنتان: (سَرف أو مَخِيلة[(٢)]).

---

(١) الأعراف: ٣١.

(٢) الكبر.

وورد عند الطبري بلفظ: أحل الله الأكل والشرب ما لم يكن سرفاً أو مخيلة. وقد ذكر بعض الأدباء ـ ومنهم الثعالبي ـ القول المشهور: ينبغي للإنسان أن يأكل ما يشتهي، ويلبس ما يشتهيه الناس.

على حد قول الشاعر:

نـصيحـــــــة نـصيحة قالت بها الأكياس

كُلْ ما اشتَهَيْتَ والبســــنَّ ما اشتهته الناس

وعبارة ما اشتهته الناس أي: البس ما اعتادوه، ولا تخالفهم في لباس يكون من غير عادتهم، فهو عندئذ لباس شهرة.

ومن بدعهم في الجاهلية بدعة:

٣ـ النسيء: وهي تأخير حرمة شهر المحرم إلى صفر من أجل استحلال القتل في شهر المحرم الذي هو من الأشهر الحرم. وأصحاب هذه البدعة يقال لهم (النَّسَأة)، يفاخرون بهذه البدعة الشنيعة حتى. . قال قائلهم:

لقـــد علمــت معـــدٌّ أن قـــومي   كــــرامُ النـــاس أن لهـــم كرامـــا

ألـــسنا الناســـئين عـــلى معـــدّ   شـــهورَ الحِـــلِّ نجعلهـــا حرامـــا

وأول من نسأ الشهور هو «حذيفة بن عبد بن فُقَيم» من قبائل كنانة، وكان زمن ابتداء العمل بالنسيء في حدود سنة (٢٢٠) قبل هجرته ﷺ. وفُقَيم: اسم الجدّ. وبعد حذيفة خلفه في النسيء ولدُه «عبّاد» ثم، «قُلع»، ثم «أمية»، ثم «عوف» ثم ولده «أبو ثمامة» واسمه «جنادة»، وعند جنادة قام الإسلام.

قال ابن حزم: وكل من صارت إليه (مرتبة النسيء) كان يسمى (القَلَمّس)، وقال القرطبي: كان الذي يلي النسيء يظفر بالرئاسة، لترييس العرب إياه، وكان القلمس يقف عند جمرة العقبة ويقول: اللهم إني ناسئ الشهور وواضعها مواضعها، ولا أعاب، ولا أجاب ـ أي لا يرد عليّ أحد وكان آخر النسأةِ فيهم: «أبو ثمامة» جنادة بن عوف، كان يحضر الموسم على حمار له فينادي: أيها الناس: ألا إن أبا ثمامة لا يُعاب، ولا يجابُ، ولا مرَدَّ لما يقول،

فيقولون: أنسِئنا شهراً: أي أخِّر عنا حرمة المحرم إلى صفر، فيحِلُّ لهم المحرم، وينادي: ألا إن آلهتكم قد حرّمت صفر فيحرمونه. وكذلك في الرَّجَبَيْن: أي رجب وشعبان، ثم يقول: انفروا على اسم الله.

وجاء الإسلام فحرّم هذه البدعة، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ يُضَلُّ بِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلُّونَهُۥ عَامٗا وَيُحَرِّمُونَهُۥ عَامٗا لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ فَيُحِلُّواْ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُۚ زُيِّنَ لَهُمۡ سُوٓءُ أَعۡمَٰلِهِمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ (١).

قلنا: إن النسيء يعني تأخير تحريم ذلك الشهر إلى شهر آخر، فكانوا يؤخرون تحريم المحرم إلى صفر، فيستحلون المحرم ويحرمون صفر، فإذا حرّموا صفر واحتاجوا إلى تأخير تحريم صفر أخروه إلى ربيع الأول، وهكذا يصنعون حتى استدار التحريم إلى السنة كلها(٢)، فلما قام الإسلام رجع المحرم إلى موضعه الذي وضعه الله عز وجل فيه، وذلك بعد دهر طويل، وعندها خطب النبي ﷺ وقال: «**إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم.** .» فأمرهم بالمحافظة على ذلك لئلا يتبدل الوقت.

وقوله تعالى: ﴿زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾: بيان بأن العرب بهذا الشيء جمعوا كل أنواع الكفر، فقد أنكروا البعث بقولهم: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلٗا وَنَسِيَ خَلۡقَهُۥۖ قَالَ مَن يُحۡيِ ٱلۡعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٞ ﴾ (٣). وأنكروا إرسال الرسل، قال تعالى: ﴿ فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٗا مِّنَّا وَٰحِدٗا نَّتَّبِعُهُۥٓ إِنَّآ إِذٗا لَّفِي ضَلَٰلٖ وَسُعُرٍ ﴾ (٤)، وكفروا بالرحمن.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسۡجُدُواْۤ لِلرَّحۡمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحۡمَٰنُ أَنَسۡجُدُ لِمَا تَأۡمُرُنَا وَزَادَهُمۡ نُفُورٗا ۩ ﴾ (٥)، وكفروا بجعلهم لله شركاء وأنداداً، كما كفروا بنسبة الولد إلى الله تعالى، ثم هم شرعوا شرعة لم يأذن بها الله، فهم جعلوا أنفسهم شركاء لله في التشريع، لأنهم يعلمون أن الله شرَّع لهم الحج، ووقته بأشهر قمرية معدودة معلومة، فلما شرّعوا النسيء من عند أنفسهم، فقد جعلوا أنفسهم

---

(١) التوبة: ٣٧.

(٢) فاختلطت الشهور وأصبح رجب جمادى، ورمضان شوال..

(٣) يٓس: ٧٨.

(٤) القمر: ٢٤.

(٥) الفرقان: ٦٠.

شركاء لله في التشريع، كما جعلوا له ـ عز وجل ـ شركاءَ في الألوهية، وبهذا نفهم معنى قوله عز وجل: ﴿إِنَّمَا ٱلنَّسِيٓءُ زِيَادَةٞ فِي ٱلۡكُفۡرِۖ﴾.

وقوله عز وجل: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، فهم ارتكبوا أولاً باطل تحريم الشهر الحلال، ثم يزيدون باطلاً آخر بتحليل الشهر الحرام، مما يجعل الحج يقع في غير شهره المعين له، وهو ذو الحجة.

وقوله: ﴿لِّيُوَاطِـُٔواْ عِدَّةَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ﴾، المواطئة: الموافقة، وهذا تعليل منهم بأنهم رغم تبديلهم فإنهم يحتفظون بعدد الأشهر الحرم الأربعة.

قال صاحب التحرير والتنوير: وهذا القول نداء، على فساد دينهم، واضطرابِه فإنهم يحتفظون بعدد الأشهر الحرم، ويفرّطون في نفس الحرمة، فهم احتفظوا بالعدد، وأفسدوا المعدود.

الفصل الثاني والعشرون
تتمة البدع والضلالات عند العرب قبل الإسلام

قال العلماء: ومن البدع والضلالات في الجاهلية بدعة:

٤ـ **الاستقسام بالأزلام:** وهي ثلاثة قداح[١]، وتسمى الأزلام[٢]، وقد كتب على واحد منها: (أمرني ربي) وعلى الثاني: (نهاني ربي)، والثالث: غُفْل مهمل لم يكتب عليه شيء. وكان الجاهلي إذا أراد سفراً، أو زواجاً أو بيعاً أو شراء يذهب إلى سادن الكعبة أو الكاهن، فيخرج له السادن كيساً فيه هذه الأزلام، ويمدُّ المستقسم يده إلى الكيس، ويأخذ واحداً منها، فإن خرج أمرني ربي أقدم على الفعل، أو خرج نهاني ربي فإنه يمتنع عن الفعل، وإن خرج له الغُفل فإنه يعيد الكرة.

وهناك نوع آخر من الاستقسام بالأزلام يستقسمون بها في أهم شؤون حياتهم، وما يدور بينهم من الحوادث والنوازل، وكان منها عند هبل في الكعبة سبعة أزلام قد كتبوا على كل واحد شأناً من شؤونهم، كشأن من يتحمل الدية، وأزلام لإثبات النسب كتب عليه: منكم أو من غيركم، وأزلام لإعطاء حق السقاية في المياه إذا تنازعوا في ذلك. وهناك لون آخر من الاستقسام بالأزلام وصورته / أنه يكون عندهم أقداح عشرة وهي أقداح الميسر وقد كتب عليها ما يلي:

- مكتوب على القدح الأول: (الفذ) وعليه علامة واحدة. أي: حصة واحدة.
- ومكتوب على القدح الثاني: (التوأم) وعليه علامتان. أي: حصتان.
- وواحد مكتوب عليه: (الرقيب) وعليه ثلاث علامات. أي: ثلاث حصص.
- وواحد مكتوب عليه: (الحِلْس) وعليه أربع علامات. أي: يأخذ أربع حصص.
- وواحد مكتوب عليه: (النافر) وعليه خمس علامات. أي: يأخذ خمس حصص.
- وواحد مكتوب عليه: (المُسبل) وعليه ست علامات. أي: يأخذ ست حصص.
- وواحد مكتوب عليه: (المُعلَّى) وعليه سبع علامات. أي: يأخذ سبع حصص.

---

(١) مفردها قدح، وهو عود السهم قبل أن يوضع فيه النصل أو الحديدة.

(٢) جمع ، ومفردها: زلم.

والثلاثة الباقية مكتوب على كل واحد منها (المنيحُ، أو السفِّيحُ أو الوغدُ)، وعندما يقومون بذبح الجمل الذي تقامروا عليه يقسمونه إلى ثمانية وعشرين قسماً، فمن خرج له المنيح أو السفيح أو الوغد، فلا نصيب لهم، وهؤلاء يدفعون ثمن الجمل أو الذبيحة. وهذا لون من الميسر. ولما جاء الإسلام حرّم هذه البدعة بكل طرقها، فقال عز وجل: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَٰلِكُمْ فِسْقٌ﴾ (١).

قال صاحب التحرير والتنوير: وجعل الله الاستقسام بالأزلام فسقاً لأن فيه كذباً على الله. ثم هنا سؤال يُثار: حين كتبتم على القدح (أمرني ربي)، فمن هو الرب الذي أمر؟ أي ربٍّ تقصدون؟ فإذا كان المقصود هو الإله الأعلى فمن أدراكم أن الله أمركم بهذا السفر، أو هذا الزواج وهذه الحرب. . ، وإن كان الذي أمر هو الرب الذي تعبدونه (الصنم)، فهذا أمر باطل من أساسه، فهذا الاستقسام فسق؛ لأنه كذب يوهم الناس أنه كاشف لمراد الله عز وجل ثم هو بعد ذلك، تَطَلُّبٌ للمسببات من غير أسبابها؛ لأن الله جعل لمعرفة المسببات أسباباً عقلية وهي العلوم والمعارف المنتزعة من التجارب.

قال العلماء: وسُميَّ استقساماً؛ لأنهم بهذا العمل يطلبون معرفة ما قُسم لهم.

وهنا نأخذ عبرة يجب أن ننتبه إليها، وذلك أن فينا ـ نحن المسلمين ـ عاداتٍ ـ سببها الجهل، وفقد العلم الصحيح ـ تشبه عاداتِ الاستقسام بالأزلام، فمثلاً: بدعة خط الرمل للتعرف على المغيبات عند جهال المسلمين.

وكذلك بدعة احتيال بعض العلماء على تحليل المحرمات لمصالح خاصة لهم أو لغيرهم، وهو مسلك يشبه مسلك النسيء عند أهل الجاهلية لأن كل فتيا يُراد بها استحلالُ ما حرّم الله بالتأويلات البعيدة هي اتباع لمسلك الجاهلية.

كما كان كثير من أهل الجاهلية ينكرون البعث ـ كما قال صاحب كتاب الفكر العربي ـ قال الشاعر:

حياة ثم موت ثم نشـــر حديثُ خرافةٍ يا أمَّ عمرو

---

(١) المائدة: ٣.

ولما قُتل المشركون في معركة بدر قال شاعرهم شداد بن أوس:

يخبّرنا ابن كبشةَ أن سنحيى   وكيف حياة أصداءٍ وهام؟!

وابن أبي كبشة: هو كنية جدّ الرسول ﷺ لأمّه (وهب بن عبد مناف)، وكان البعض الآخر يؤمن بالبعث كما في قصيدة زهير بن ابي سلمى:

فــلا تكـــتُمُنَّ الله مـــا في نفوســـكم   ليخفـــى ومهـــما يُكـــتَم الله يَعلـــمِ
يـــؤخر فيوضـــع في كتـــاب فيـــدَّخرْ   ليـــوم حـــساب أو يُعجَّـــل فيُـــنقَمِ

قال العلماء: ومن أوابد الجاهلية قبل الإسلام: ـ أي عاداتهم الغريبة واعتقاداتهم العجيبة ـ أن بعضهم إذا حضره الموت قال: ادفنوا معي راحلتي حتى أحشر عليها، وإلا حُشرتُ على رجليَّ.

ومن ذلك قول شاعرهم، وأحد زعمائهم يعبّر عن هذه العادة ويخاطب ولده:

يـــا ســـعد إمـــا أهلِكـــنَّ فـــإنني   أوصـــيك فـــإنَّ أخـــا الوصـــاة لأقـــرَبُ
لا تـــتركنَّ أبـــاكَ يعثُـــرُ راجـــلاً   في الحـــشرِ يُـــصرع لليـــدين ويُنكَـــبُ
واحمـــل أبـــاك عـــلى بعـــيرٍ صـــالحٍ   وتَقـــي الخطيّـــة إنـــه هـــو أقـــربُ
ولعـــل لي ممـــا تركـــتُ مطيّـــةً   في الحـــشر أركبهـــا إذا قيـــل اركبـــوا

وكانوا إذا مات فيهم سيد أتوا بناقة إلى قبره، وربطوا هذه الناقة معكوسة الرأس إلى مؤخرها مما يلي الظهر أو البطن، ويأخذون سرجاً فيشدون وسطها، ويقلّدون بها عنق الدابة، ويتركونها عند القبر حتى تموت.

وكان من عاداتهم العجيبة الاستشفاء من عضة الكلب بشرب دماء الرؤساء والزعماء. قال شاعرهم:

بناةُ مكـــارمٍ وأســـاة كَلْمٍ   دماؤُهم من الكَلَب الشفاءُ

ومن ضلالاتهم: أن الغلام إذا رمى سنَّه إلى الشمس بدّلتْه الشمسُ خيراً منها. قال طرفة بن العبد يعبِّر عن هذه الخرافة:

شـــــادنٌ تجلـــــو إذا ابتـــــسمت	عـــن أقـــاحٍ كأقـــاح الزهـــرِ غُـــرُّ
بدّلتْـــه الـــشمس مـــن مَنْبِتِـــه	بَـــرَداً أبـــيضَ مـــصقولَ الأُشُر

أي أسناناً محزّزة، وأطرافها محددة.

ومن عاداتهم: شؤم الغراب، حتى سمَّوه غرابَ البين، لأنه بزعمهم يُنذر بافتراق الأحبة.

قال النابغة الشاعر في هذا المعنى:

زعم البوارحُ أنَّ رحلتَنا غداً	وبـذاك خبَّرنا الغرابُ الأسود

ومن ذلك: اعتقادهم بالهامة، وهي طائر يقف ـ بزعمهم ـ على قبر المقتول يطالب بالثأر صائحاً: اسقوني، اسقوني. .

قال ذو الإصبع:

يا عمرو إلا تَدَعْ شتمي ومنقصتي	أضـــربْك حتى تقولَ الهامةُ اسقوني

وجاء الإسلام، فأبطل ذلك، فقد روى الشيخان من حديث أبي هريرة أنه ﷺ قال: «**لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر**».

وروى المحدثون: أن «طاووساً اليماني»، خرج مع صاحب له في سفر، فصاح غراب، فقال الرجل: خير خير. فقال طاووس: وأي خير عند هذا؟ ثم قال للرجل: لا تصحبني.

وورد عن عكرمة قال: كنا جلوساً عند ابن عباس، فمر طائر يصيح، فقال رجل من القوم: خير خير، فقال له ابن عباس: لا خير ولا شر. بادَرَهُ بالإنكار عليه؛ لئلا يعتقدَ تأثيرَه بالخير والشر.

ومن غرائبهم:

٥ـ الرَّتم[١]: كان أحدهم إذا خرج في سفر عمد إلى شجرة من الرّتم فشد غصنين منها، فإن رجع ووجدهما على حالهما قال: إن أهَله لم تخنْه، وإلا فقد خانَتْهُ.

قال الشاعر:

---

(١) مفرده ريت، وهو شجر معروف عند العرب أعواده دقيقة ـ كما قال أبو حنيفة.

هل ينفَعنْك اليوم إن همَّت بهم | كثرةُ ما توصـــــي وتعقاد الرَّتَم

ومن غرائبهم: التَّعمِية والتَّفقِية. كان الرجل إذا بلغت إبله ألفاً قلع عين الفحل. يقولون: إن ذلك يدفع عنه العين، فإن زادت عن الألف فقأ عين الفحل الأخرى.

ومن غرائبهم: أنهم إذا أصاب الإبل داء العَرِّ[1]، يكوون السليمةَ، ويزعُمون أن ذلك يشفي الجرباء. وكانوا إذا أوردوا البقرَ على الماء فلم تشرب ضربوا الثورَ الكبير فيها، يزعمون أن الشياطين يركبون الثيران، فيصدون البقر عن الشرب. قال أنس بن مدركة الحنفي:

إني وقتلي سُليكاً ثم أعقلَه | كالثور يُضرَب لمّا عافت البقرُ

وسُليك: اسم رجل أتى منكراً فقتله الشاعر، ثم عقله[2]. والمعنى تلبُس إنسان بالضر والأذى لينتفع سواه.

ومن ضلالاتهم:

٦ـ **فشو الكهانة والعرافة**: والكهانة إحساس بإدراك شيء من المغيبات، إما بسلوك الحيوان، أو الرؤيا، أو باستراق السمع عن الجن، ثم يعطون لمواليهم ذلك. وقد ينسبون إلى الكهان والعرافين المعرفةَ بشفاء الأمراض، خصوصاً العشق.

قال عُروة بن حزام:

جعلـــت لعــــراف اليمامـــة حُكْمَـــه | وعـــرّافِ بنجـــد إن همـــا شـــفياني
فـــما تركـــا مـــن حيلـــةٍ يعملانهـــا | ولا شَرْبـــةٍ وإلا وقـــد ســـقياني
ورشّـــا عـــلى وجهـــي مـــن المـــاء ســـاعة | وقامـــا مـــع العُـــوّاد يبتـــدراني
وقـــالا شـــفاك الله والله مالنـــا | بـــما ضُـــمِّنت منـــك الـــضلوع يـــدان

وجاء الإسلام فقطع دابر هذه الضلالات، قال في المستطرف: وجاء الإسلام فلم يُسمع فيه بكاهن، وذلك من معجزات النبوة وآياتها. وقد ورد من حديث عمران بن الحصين مرفوعاً

---

(١) الجرب.

(٢) أي وضع ديته.

قوله ﷺ: «**ليس منا من تطير أو تُطِيّر له، أو تكهَّن أو تُكُهِّن له، أو سحَرَ أو سُحِرَ له، ومن أتى كاهناً فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد**»[1].

نتائج ما قررناه: قال العلماء: وفيما قررناه من هذه الضلالات يتبين لنا أن الناس ـ عربهم وعجمهم ـ قد ضلوا، إلا بقايا من أهل الكتاب فإنهم بَقَوْا على ما شرّع لهم رسلهم حتى بُعث محمد ﷺ، وهم قليل. وتبين لنا أن حال الناس في ضلالهم وعدم هدايتهم كانت مستوجبة للبعثة المحمدية، بل كانت الحاجة إلى ذلك شديدة ومُلحَّة.

تباشير الصباح: قال العلماء: إن من سنن الله عز وجل في كونه أن الانفراج يكون بعد الشدة، والضياءَ بعد الظلام، واليُسرَ بعد العسر. فبعد ذلك الظلام الحالك في الدنيا من شرك وظلم، وكفر وشر، وفساد، وبعد أن نظر الله إلى الناس فمقتهم عربهم وعجمهم. . في هذا الظرف بالذات أخذت تباشير الصباح تلوح بقرب انبثاق النور المحمدي، تلوح هنا وهناك في الآفاق المظلمة.

هكذا أخي الكريم كانت الجزيرة العربية ـ مكة وما حولها ـ في منتصف القرن السادس الميلادي بحاجة ـ كسائر الأمم ـ إلى النبي المبعوث رحمة للعالمين، ليبدأ الإنذار من مكة، واسمع معي قوله تعالى: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٤﴾ تَنزِيلَ ٱلۡعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٥﴾ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾﴾[2].

وقوله تعالى: ﴿والقرآن الحكيم﴾: أي أقسم بقرآن نزّلتُه، وهذا من زيادة التنويه بعظمة القرآن، وهذا القرآن مُقسمٌ به، وهناك مُقسم عليه، وهو قوله تعالى: (إنك ـ يا محمد ـ لمن المرسلين) وهذا قسم من الله على رسالته ﷺ من خصائصه. قال صاحب كتاب (إنسان العيون): من خصائصه ﷺ أن الله ـ عز وجل ـ أقسم على رسالته، ولم يُقسم الله لأحد من أنبيائه بالرسالة في كتابه الكريم إلا له ﷺ، فقال: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ﴿٣﴾﴾، ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ فَهُمۡ غَٰفِلُونَ ﴿٦﴾ ﴾ اقتصرت الآية على الإنذار دون البشارة. . لماذا؟

---

(١) أخرجه البزار بإسناد جيد.

(٢) يـس: ١ ـ ٦.

قال العلماء: لأن القوم جميعاً كانوا على حالة لا تُرضي الله تعالى، فكان حالهم يقتضي الإنذار ليُسرعوا إلى الإقلاع عما هم فيه من الضلالات، وليتَّبعوا الحق المنزل. وقوله تعالى: ﴿فَهُمْ غَٰفِلُونَ ﴾. والغفلة هنا: كناية عن تراكم الضلالات عاماً فعاماً، وجيلاً فجيلاً، إهمالاً للحق وإعراضاً عنه، وهو الحق الذي ورثوه عن إسماعيل.

ولذلك قال العلماء: أهل الفترة قسمان: قسم عندهم علم من الرسالات السابقة بشهادة النبي ﷺ، ونحكم عليه أنهم من أهل النار، وقسم نتوقف فيهم.

إذاً فالغفلة هنا: إهمال وإعراض.

قال الشاعر:

يقول أناس يجهلـــون خليقَتي لعلّ زيـــاداً ـ لا أبا لك ـ غافل

وقَسَمُهُ عز وجل بأن محمدا رسول ﴿ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾، هو رد على الكافرين الذين قالوا: لست مرسلاً، كما ذكر ذلك الله عز وجل بقوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ (١).

وشهادة الحق لرسوله بصدق البلاغ تتمثل في أنه نشأ بينهم أربعين سنة قبل أن يخطُب أو يتكلَم بموعظة، ولا يمكن أن تتأخر العبقرية إلى الأربعين.

ثم جاء القرآن على لسانه في هذا السن، وهذا في حد ذاته شهادة من الله.

(١) الرعد: ٤٣.

الفصل الثالث والعشرون
ولادته ﷺ أضخم حدث

الرسول أضخم حدث في الوجود: ميلاده ﷺ:

من جميل ما كتبه علماؤنا قولهم: إن ميلاده ﷺ أضخم حدث في الكون كله، بل أضخم من ميلاد هذا الكون. قد يقول قائل: ولماذا؟ والجواب: لأن محمداً ﷺ جاء بالمنهج للإنسان ليتوّج الإنسان كله، وهو نظرةُ الخير للوجود كله، فعلى الإنسان ألا يظلم نفسه!! وكيف يظلم نفسه؟ بأن يتمكن من الخير ولا ينفعل به، وأن يُدَلَّ على النور ولا يهتدي به. ولذلك يجب أن نتكلم عن الميلاد بما يحبه صاحب الميلاد، وبما يحبُّه مَنْ خلق صاحبَ الميلاد. قال العلماء: ما أكثر ما احتفل المسلمون ـ بعد القرون الخيّرة ـ بالمولد، وما أقل ما انتفع المسلمون بها، ولو أن كل ميلاد لرسول الله ﷺ يُستقبل بإحياء شعيرة من شعائر دينه لتمكّن دينه في الآفاق، ولكننا نكتفي بالمناسبة بما يتفق مع شهواتنا، ورغبات نفوسنا من حلوى لذيذة، وسهرة جميلة، ودين الله بعيد عن كل هذه المحدثات وهذه الشكليات.

ولو رأى إنسان الزينات في الموالد، لظنَّ أن الناس يحبون أمورَ الدين، ولو دخل البيوت التي على واجهاتها هذه الزينات لرأى كيف ابتعد الناس عن الدين، وعن مبادئ الدين. وما أجمل قول أحد أعلام[1] المسلمين عليه رحمة الله: ومحمد ﷺ ليس قصة تُتلى يوم مولده كما يفعل الناس الآن، وحبّه ﷺ لا يكون بتأليف مدائح لـه، أو نعوتٍ يتلوها العاشقون، ويتأوهون أو لا يتأوهون عند سماعها، فرباط المسلم الواعي بنبيه ﷺ أقوى من هذه الروابط وأعمق، فهذه روابط ليست من الدين، وما مال المسلمون إلى هذه التعابير في إظهار حبهم للنبي ﷺ إلا يوم أن تركوا شرعه، وابتعدوا عن سننه، وأعياهم حمل دينه، فاكتفوا بهذه المظاهر، والشكليات، لأن هذه الشكليات، وهذه المظاهر لا تكلف جهداً يرفضون حمله.

ثم يقول رحمه الله: إن الجهد المطلوب هو العزم على التمســك بالدين المهجور، والعودة إلى جوهره من كتاب وسنة، فبدلاً من الاستماع إلى قصة المولد يتلوها صوت رخيم، بدل ذلك أن ينهض المرء إلى تقويم نفسه، وإصلاح شأنه حتى يكون قريباً من محمد ﷺ. في معاشه، ومعاده،

---

(١) هو الشيخ الغزالي.

وعلمه وعمله، وعبادته ومعاملاته، وحربه وسلمه. إن المسلم الذي لا يعيش الرسول في ضميره حباًواحتراماً، وإن المسلم الذي لا يقتدي به سلوكاً ةتفكيراً، لا يُغني عنه أن يحرك لسانه بألف صلاة في اليوم والليلة على رسول الله ﷺ، أو ينشد ألف قصيدة في مدحه ﷺ.

لقد ابتعد المسلمون الآن عن الجد في أمورهم، ومالوا إلى اللهو حتى تحول الإسلام عند الكثيرين منا إلى أنغام، فأصبح القرآن ألحاناً عذبة يستمع إليها عُشاق الطرب، وهذا التحول عند المسلمين من الجد إلى اللهو هو الذي جعل اليهود والنصارى يذيعونه في الآفاق، وهم واثقون أنه لن يحرك مسلماً ميتاً، وكذلك أصبحت السيرة قصصاً تتلى وقصائد تنشد، وهذا التحول والتبديل تم على حساب الإسلام فانسحب الدين من ميدان السلوك والتوجيه إلى ميدان اللهو واللعب، وحق على من فعلوا ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمۡ لَعِبٗا وَلَهۡوٗا وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَاۚ ﴾ (١).

هنا نلاحظ أن الله تبارك وتعالى أمر رسوله ﷺ بأن يترك من كان موصوفاً بصفتين، والمراد بالترك هنا هو ترك الملاطفة، والمخالطة، وليس ترك إنذارهم، لأن الله تعالى قال بعده: ﴿وَذَكِّرۡ بِهِۦٓ أَن تُبۡسَلَ نَفۡسُۢ بِمَا كَسَبَتۡ لَيۡسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٞ وَلَا شَفِيعٞ ﴾(٢). فما هما هاتان الصفتان اللتان أمرنا أن نترك من اتصف بهما؟ والجواب:

الأولى: من اتصفوا باتخاذ الدين لهواً ولعباً.

والثانية: وغرتهم الحياة الدنيا. والصفتان مترابطتان.

فصار المعنى: إن الذين ينصرون الدين نوعان: نوع نصروا الدين لأن الدليل قام على أنه حق وصدق وصواب، ونوع نصروا الدين ليتوصلوا به إلى المناصب والرئاسة، وغلبة الخصم، وجمع الأموال، فهم بهذا الوصف نصروا الدين للدنيا، والله حكم في العديد من آيات كتابه بأنها ـ الدنيا ـ لعب ولهو.

قال تعالى: ﴿وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا لَعِبٞ وَلَهۡوٞۖ وَلَلدَّارُ ٱلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ (٣).

---

(١) الأنعام: ٧٠.

(٢) الأنعام: ٧٠.

(٣) الأنعام: ٣٢.

نعم. الحياة الدنيا إذا أخذتها مجردة من منهج الله هي لعب ولهو، ولا طائل تحتها...

ولذلك صدق من قال:

ألا إنــــما الــــدنيا كـــأحلامِ نـــائم　　　ومـــا خـــيرُ عـــيش لا يكـــون بـــدائم
تأمــلْ إذا مــا نلــتَ بــالأمس لــذةً　　　فأفنيْتَهـــا هـــل أنـــتَ إلا كحـــالم

ولكن إن عشتها بمنهج الله، فهي منتجة للخير في الدارين، لأنك جعلتها مزرعة للآخرة، فالمؤمن إذاً له حياتان: حياة صلاحٍ في الدنيا، وحياة نعيم في الآخرة؛ لأنه عاش في الدنيا على مراد الله، ولذلك لاحظ ختام الآية: ﴿وَلَلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾.

قال الرازي: وإذا تأملت حال أكثر الخلق وجدتهم موصوفين بهذه الصفة الأولى، أي من الذين دخلوا تحت حالة: : ﴿ وَذَرِ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا . . ﴾. أما الصفة الثانية: التي يتصف بها الذين اتخذوا الدين لعباً ولهواً هي الغرور بالحياة الدنيا: ﴿وَغَرَّتْهُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾. والمعنى: إنما اتخذوا دينهم لعباً ولهواً بسبب أنهم غرتهم الحياة الدنيا، فاستولى هذا الحب على قلوبهم مما جعلهم يُعرضون عن حقائق الدين، واقتصروا على تزيين الظواهر ليتوصلوا بها إلى حطام الدنيا. فذكِّرهم أن يتخلقوا بحقائق الدين خشية الهلاك.

حادثتان مهمتان في حياة عبد المطلب تتصلان من قريب بسيرته ﷺ وتاريخه:

الحادثة الأولى: وهي قصة حفره لزمزم بعد أن طمتها جرهم، والرؤيا التي رآها عندما كان نائماً في الحجر، وسمع صوتاً يناديه: احفر طيبة، احفر برة، احفر المضنونة. . فقام وحفرها بعد محاولة قومه منعه، وكان معه ولده الحارث، وكيف نذر إن رزق عشرة من الولد فسوف يذبح أحدهم، وكيف وقعت القرعة على عبد الله ولده، وكيف أراد ذبحه، وكيف فُدي بمائة من الإبل، واتصال هذا الحادث بسيرة النبي ﷺ، هو أن الله تبارك وتعالى أراد إبراز والد النبي ﷺ على صورة تشبه ما وقع لجده الأعلى إسماعيل مع والده إبراهيم في قصة الذبح والفداء، ولهذا التشابه أثره في نفوس العرب، ولهذا لُقّبَ عبد الله بالذبيح، كما لقب بهذا اللقب إسماعيل من قبل، ثم كانت نهايته الجمع بين أبويه ﷺ على أكرم أبوة، وأطهر أمومة لخير مولود عرفه الوجود، وهو محمد ﷺ.

ثم إن حفر زمزم كان له أثر كبير في ازدياد مكانة عبد المطلب (جد النبي ﷺ) رفعة في

مكة، بل في العرب، لأن حفرها يسّر عليهم وجودَ الماء، وهو أعز الأشياء في بلد صحراوي كمكة، ومكة معروف منزلتها عند أهل الحرم، وعند الحجيج كله، مع ما لعبد المطلب من المكانة، فهو صاحب الرفادة والسقاية، وهما من مراتب الشرف في قريش جيران الله وسدنة بيته.

أما الحادثة الثانية التي لها أهميتها من حيث الاتصال بسيرته ﷺ فهي حادثة أصحاب الفيل، فهذه الحادثة توضح ـ كما قال الدكتور محمد أبو زهرة صاحب كتاب خاتم النبيين ـ أن محمداً ﷺ كان وجوده بركة على قومه من حيث علِقَتْ به أمه إلى أن قبضه الله عز وجل إليه، وهذه البركة كانت خيراً على الإنسانية كلها؛ لأنها حَمَت البيتَ الذي كان أول بيتٍ وُضع للناس، فهو كعبة المسلمين، ثم قد قدّسته الأديان كلها قبل ذلك.

وحادثة الفيل ـ كما قال العلماء ـ تدلنا على أن قريشاً لا تميل إلى إشعال الحروب، ولم يذكر التاريخ أنها قاتلت إلا عندما تكون هناك ضرورة للدفاع عن النفس، أو لإحقاق حق، والسبب في ذلك لما لها من موقعها من الحرم الذي يأمن فيه الخائف، ويُنصر المظلوم.

وحادثة الفيل هذه تدل على ذلك (عدم الرغبة في الحرب) كما تدل على بركة هذا الجنين الذي كانت أمه حاملاً به عندما أحاط أبرهة الأشرم بمكة يريد هدم البيت، فردهم الله مدحورين ببركة هذا الجنين الذي بُعث برسالة تُشَرِّف البيت الحرام وتحميه.

والآن لنتكلم عن قصة أبرهة الأشرم بإيجاز على الرواية المشهورة القائلة:

إن «أبرهة الأشرم» كان أميراً على اليمن من جهة الحبشة، فصار حاكماً لها كما يشاء، ورأى أبرهة إقبال العرب على الحج إلى مكة، وتعظيمهم للكعبة والبيت الحرام الذي بناه جدهم إبراهيم وإسماعيل، فقام ببناء كنيسة ضخمة في صنعاء سماها (القُلَّيس، أو القَليس)، والسهيلي كتبها بعد اللام بنون من (القَلَنْس)، وهو الارتفاع، ومنه سميت القلنسوة، بناها أبرهة الأشرم؛ ليتقرب بهذا العمل إلى النجاشي ملك الحبشة حيث كان هذا نصرانيا، كما أراد أن يصرف وجه الحُجاج عن مكة إليها، وبخاصة الحجاج النصارى منهم.

فلما تم بناؤها كتب إلى النجاشي: إني بنيتُ لك كنيسة ـ بِيعة ـ لم يُبن مثلها لملك كان قبلك، ولست بمنتهٍ حتى أصرف إليها حجاج العرب. فلما علم العرب بذلك اشتد غضبهم، فذهب بعض الفتية من متديّني العرب واحتال حتى دخل الكنيسة، فعبث بها، وقَذَّرها ـ والذي فعل

ذلك رجل من فُقيم من بني كنانة أهل النسيء ـ، وكان من جراء هذا العمل أن اشتد غضب أبرهة الأشرم، وأقسم ليهدمن الكعبة وليطأن مكة.

وفي رواية للكلبي: أن فتية من قريش خرجوا تجاراً إلى أرض الحبشة، فنزلوا على ساحل البحر إلى جوار بيعة للنصارى يسمونها الهيكل، فأوقدوا ناراً لطعامهم وتركوها وارتحلوا، فجاءت ريح عاصفة أحرقت البيعة، وفيها زيوت وأخشاب، فوصل الصريخ إلى النجاشي، فغضب فأسرع أبرهة الأشرم ـ عامله على اليمن ـ و«حجر بن شرحبيل» و«أبو يكسوم» وضمنوا له إحراق الكعبة، وسبي مكة.

وقد ذكر المؤرخون أن سبب غزو الأحباش النصارى لمكة هو خوفهم من لقاء عرب الجنوب، وهم أهل اليمن، مع عرب الشمال وهم أهل مكة وما حولها، فيعود للعرب وحدتهم، ويكونون خطراً على الحبشة مع تعصب النصارى لنصرانيتهم، كل ذلك دفعهم لاصطناع هذا الغزو لمكة ولبيت الله فيها.

مسيرة جيش أبرهة:

قال المؤرخون: وسار جيش أبرهة بالأفيال الكثيرة يتقدمها الفيل الأعظم، واسمه (محمود)، ـ كما سيأتي معنا ـ، فلما سمع العرب بذلك اعظموه: كيف يُغزى البيت؟

فتحركت بعض قبائل العرب للدفاع عن البيت، وكان أول من تحرك لقتال أبرهة رجل من اليمن يقال له «ذو نفر الحميري»، حيث جمع جموعاً وقاتل أبرهة فهزمهم أبرهة، وأُسر ذو نفر بعد أن قال لأبرهة: استَبْقِني خيراً لك، فاستحياه وأوثقَه، ثم تصدّت قبائل «خثعم»، وبعض القبائل العربية لأبرهة تحت قيادة «نُفيل بن حبيب» فانهزموا أمام أبرهة، وأسر نُفيل هذا، ثم كان دليل جيش أبرهة إلى مكة، حيث قال له نفيل: هاتان يداي بالسمع والطاعة.

ولما وصل جيش أبرهة إلى الطائف ألقت إليه ثقيف وقبائلها بالطاعة، وأرسلت مع جيش أبرهة رجلاً يقال له «أبو رغال» يدلهم على الطريق الموصل إلى الكعبة، فلما أوصلهم إلى قرب مكة عند مكان يقال له (المُغمَّس)، وهو موضع قرب مكة في طريق الطائف، مات «أبو رغال».

قال ابن هشام: إن ثقيفاً بعثت أبا رغال مع أبرهة حتى أنزله «المغمس»، فلما أنزله به مات أبو رغال هناك، فرجمت قبرَه العرب، فهو القبر الذي يرجمه الناس بالمغمس، وكان عاراً على

ثقيف، وقد قال أمية بن أبي الصلت الثقفي يذكر ذلك:

إن آيـــات ربنـــا ظـــاهراتٌ ... مـــا يـــماري فـــيهن إلا الكفـــور
حُـــبس الفيـــل بـــالمغمَّس حتـــى ... ظـــل يحبـــو كأنـــه معقـــور
كـــل ديـــن يـــوم القيامـــة عنـــد ... الله إلا ديـــنَ الحنيفـــة بـــور
غـــادروه ثـــم انـــذعرّوا سراعـــاً ... كلهـــم عظـــم ســـاقه مكـــسور
حولـــه مـــن ملـــوك كنـــدة أبطـــا ... ل ملاويـــث في الحـــروب صـــقور.

الفصل الرابع والعشرون
حادثة الفيل وأبرهة الأشرم

قال المؤرخون: فلما نزل أبرهة «المغمس» بعث رجلا من الحبشة يقال له: «الأسود بن مقصود» على خيل له حتى وصل مكة، فساق إليه أموالَ تهامة من قريش وغيرها، وكان بينها مائتا بعير لعبد المطلب، وهو يومئذ كبير قريش وسيدها، فهمّت قريش ومن معها من قبائل كنانه وهذيل ومن كان بالحرم بقتاله، ثم أدركوا أنهم لا طاقة لهم بذلك فتركوه. ثم بعث أبرهة رسولاً إلى أهل مكة اسمه «حُناطة الحميري» برسالة إلى أهل مكة يقول فيها: إن الملك يقول: إنه لم يأت لحربكم، وإنما جئت لهدم الكعبة وهذا البيت، فإن لم تتعرضوا لي بحرب فلا حاجة لي بدمائكم. فلما دخل رسول أبرهة على عبد المطلب، وبلّغه الرسالة، قال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وما لنا بذلك من طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت خليله إبراهيم، فإن يمنعه فإنه حرمه وبيته، وإن يُخَلّ بينه وبينه فو الله ما عندنا دفعٌ عنه، وهذا الكلام من عبد المطلب ـ كما قال المؤرخون ـ هيّن ليّن في الظاهر، ولكنه يحمل في الواقع تهديداً شديداً لرجل نصراني ينبهه فيه إلى أنه بهدمه للبيت لا يحارب أهل مكة، وإنما يحارب الله الذي أمر إبراهيم وولده إسماعيل ببناء هذا البيت. إنه تهديد بحرب لم يألفها، إنها حرب من الله تعالى.

ثم قال «حُناطة الحميري» ـ الذي هو رسول أبرهة ـ إلى عبد المطلب: انطلق بنا إلى أبرهة، فإنه أمرني أن آتيه بك، فسار عبد المطلب مع رسول أبرهة ليؤكد كلامه الذي قاله لرسول أبرهة «حناطة»، ومع عبد المطلب بعض بنيه، وفي الطريق عند معسكر أبرهة مرَّ عبد المطلب على مجلس فيه «ذو نفر» الذي حاول قتال أبرهة للدفاع عن البيت، ولكنه وقع في الأسر وعفا عنه أبرهة ـ وكان ذو نفر صديقاً لعبد المطلب ـ فقال له عبد المطلب: يا ذا نفر هل عندك من غَناء فيما نزل بنا؟

فقال ذو نفر: وأي غناء لرجل أسير في يد الملك ينتظر قتله في كل لحظة؟!! ما عندي يا عبد المطلب إلا شيء واحد، وهو أن سائس الفيل الأعظم صديق لي، فأُرسل إليه وأوصيه بك وأساله أن يستأذن لك عند الملك، فتكلمه بما بدا لك، ويشفع لك بخير عنده إن استطاع.

فقال عبد المطلب: حسبي حسبي. وفعلاً بعث ذو نفر إلى سائس الفيل الأعظم واسمه «أُنيس» واسم الفيل الأعظم «محمود» وهو أول فيل دخل بلاد العرب، ولم يكن الفيل معروفاً

عند العرب من قبل، ولكنهم كانوا يسمعون أخبار هذا الحيوان، ويتخيلونه مخلوقاً كبيراً ضخماً قوياً.

قال لبيد:

ومقـــــام ضـــــيق فَرجتـــــه ببيـــــان ولـــــسان وجـــــدل
لـــــو يقـــــوم الفيـــــل أو فيّالـــــه زلّ عـــــن مثـــــل مقـــامى ورَحَـــــل

وقال كعب بن زهير:

لقـــد أقـــوم مقامـــاً لـــو يقـــوم بـــه أرى وأســـمع مـــا لـــو يـــسمع الفيـــل
لظـــل يُرعـــد إلا أن يكـــون لـــه مـــن الرســـول بـــإذن الله تنويـــل

بعث ذو نفر برسالة إلى أنيس ـ سائس الفيل الأعظم ـ يقول له فيها: إن عبد المطلب سيد قريش، وصاحب عين ماء مكة، ومُطعم الناس بالسهل، والوحوش في رؤوس الجبال. وقد أصاب له الملك مائتي بعير، فاستأذن له عليه، وانْفَعه عنده بما استطعت. فقال أنيس: أَفعل.

فكلم أنيس أبرهة وقال له: هذا سيد قريش. فأذن له أبرهة ـ وكان عبد المطلب أوسَم الناس وأعظمهم هيبة وجمالاً ـ، فلما رآه ودخل عليه احترمه وأجلّه، ونزل عن سريره وجلس معه على بساطه، ثم التفت الترجمان إلى عبد المطلب وقال له: يقول لك الملك: قل حاجتك. قال عبد المطلب: أن ترد لي إبلاً أُخذت مني. فقال أبرهة: كنتَ أعجبتني حين رأيتُك، ثم زهدتُ فيك حين كلمتني!! أتكلمني في مائتي بعير أصبتُها لك، وتترك بيتاً هو دينك ودين آبائك جئت لأهدمَه، ولا تكلمني فيه؟!! قال عبد المطلب ـ واضعاً أبرهة أمام الله وجبروته الذي فوق كل جبروت ـ: (إني ربُّ الإبل، وإن للبيت ربّاً سيمنعه)!! فقال أبرهة: (ما كان ليمتنع مني)، فقال عبد المطلب: (أنت وذاك). وهنا بدأ التهديد واضحاً، ولكنه هادئ، فرد عليه أبرهة إبله، وانصرف عبد المطلب إلى قريش وأمرهم ان يعتصموا بالجبال والشعاب تخوفاً من أبرهة وجيشه. ثم أتى الكعبة وأخذ بحلقة بابها. . .

وقال:

يـــا رب إن العبـــدَ يمنـــع رحلَـــه فـــامنع رحالـــك
لا يَغلِـــبنَّ صـــليبُهم ومِحـــالهم غَـــدْواً محالـــك
إن يـــدخلوا البيـــت الحـــرام فـــأمر مـــا بـــدا لـــك

وكذلك قال:

يـــا رب لا أرجـــو لهـــم ســـواكا ... يـــا رب فـــامنع مـــنهم حماكـــا
إن عـــدو البيـــت مـــن عاداكـــا ... فـــامنعهموا أن يخربـــوا قراكـــا

ثم باتت قريش تراقب وتنظر ما يكون في الغد. وفي الصباح تهيأ أبرهة لدخول مكة، فلما وصل إلى (مُحسِّر)[1] نكص الفيل على عقبيه، ونكصت الأفيال معه.

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: أرادوا أن يسير الفيل متجهاً إلى البيت الحرام، فحُبس ولم يسر.

وقال صاحب كتاب: محمد رسول الله: لما وصلوا إلى مُحسر سقط الفيل كالبارك، ثم وجهوه إلى اليمن فاتجه ومشى، ثم وجهوه إلى الشام فاتجه ومشى، ثم حاولوا توجيهه إلى البيت الحرام فأبى وامتنع. كما ذكر ذلك ابن كثير وصاحب كتاب الاكتفاء.

وقال صاحب كتاب: حدائق الأنوار: وجهوه باتجاه الكعبة فأبى فأدخلوا الحديد في أنفه حتى خرموه فلم يستجب بالتوجه إلى مكة.

قال العلماء: فبينما هم كذلك إذ أتتهم طير يحمل كل واحد منها ثلاثة أحجار، إذا وقعت

---

(١) وهو واد بين عرفة ومنى، وبالتحديد بين مزدلفة ومنى، وهو ليس من منى ولا مزدلفة بل هو واد برأسه، وكان رسول الله ﷺ إذا مر به أوضع راحلته، وكان عمر يوضع راحلته كذلك في بطن محسر (أي يسرع) ويقول:

إليـــك تـــسعى قلقـــاً وضـــينها ... مخالفـــاً ديـــن النـــصارى دينهـــا
معترضـــاً في بطنهـــا جنينهـــا ... قد ذهب الـشحم الـذي يزينهـا

وكان ابن عمر يفعل ذلك، ومن جميل قول الفضل بن عباس في وادي محسر:

أقـــول لأصـــحابي بـــسفح محـــسر ... ألم يـــأن مـــنكم للرحيـــل هبـــوب
فيتـــبعكم بـــادي الـــصبابة عاشـــق ... لـــه بعـــد نـــوم العاشـــقين نحيـــب

الواحدة على رأس أحدهم خرجت من دبره، وكانت الحجارة تصيب مقاتلهم، فخرجوا يتساقطون بكل طريق، ويهلكون كل مهلك، وقد ورد عن عائشة أن هذا الطير يشبه طائر الخُطاف.

وأصيب أبرهة، فجعل جسمه يتناثر ويتساقط حتى انصدع صدره، ومات بصنعاء. وأبرهة هذا هو جد النجاشي الذي كان في زمنه ﷺ كما قال الواقدي.

وقد ذكر صاحب كتاب: مختصر سيرة الرسول: أن أبرهة لما عبأ جيشه، وهيأ فيله لدخول مكة من المغمس أقبل «نفيل بن حبيب الخثعمي» ـ الذي أسره أبرهة في بلاد خثعم عندما تعرضوا لجيشه، ثم عفا عنه أبرهة وأصبح دليلاً له في الطريق ـ، أتى نفيل هذا إلى الفيل الكبير فأخذ بأذنه وقال له: ابرك محمود. فإنك في بلد الله الحرام، فبرك الفيل، فبعثوه فأبى، فوجهوه إلى اليمن فقام يهرول، ووجهوه إلى الشام فقام يهرول، ووجهوه إلى المشرق فقام يهرول، فصرفوه إلى الحرم فبرك. ثم كانت الطير، وألقت الحجارة، وهلك أبرهة على أبواب صنعاء. قال المؤرخون: وكان الحجر الواحد قدر الحِمَّص.

قال أبو معاوية الديلمي: رأيت الحصى التي رمي بها أصحاب الفيل حصى مثل الحِمَّص حمراء بحُتمة بسواد كأنه جَزْعُ ظَفار[1].

وورد عن ابن عباس أنه قال: رأيت من هذه الحجارة عند أم هانئ نحو قفيز، مخططةٍ مُحْمَرةٍ بالجزْع الظفاري.

وقال عتاب بن أسيد: أدركت سائس الفيل وقائده أعميين مقعدين يستطعمان الناس.

وورد عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: رأيت قائد الفيل وسائقه أعميين. . وقد وصف ابن إسحاق حالهم بعد هذه الطير التي أغارت عليهم فقال: صاروا يتساقطون في

(١) مدينة باليمن قرب صنعاء ينسب إليها الجَزْع الظفاري والجزْع الظفاري: نوع من الخرز فيه بياض وسواد تُشبّه به الأعين، وعود ظفاري وفي المثل: (من دخل ظفار حمّر) قال أرباب اللغة: ولهذا المثل قصة وهي أن رجلاً من بلاد العرب دخل على ملك من ملوك حمير ـ والملك مشرف على سطح له ـ فقال له الملك: ثب فوثب الرجل فتكسّر، فقال الملك: ليس عندنا عربيت، أي ليس عندنا العربية، فوقف على الهاء بالتاء ـ وهي لغة أهل حمير في الوقف ـ وقال المثل: (من دخل ظفار حمّر) أي تعلم الحميرية.

الطرقات، ويهلكون كل مهلك على كل منهل، وأصيب أبرهة في جسده، وخرجوا به معهم يسقُط أنملة بعد أنملة، ثم تتبعها الأخرى قيحاً ودماً، حتى قدموا به صنعاء، وهو مثل فرخ الطائر، ثم مات هناك. وكان ذلك في شهر المحرم الموافق شباط (فبراير) سنة ٥٧٠م.

ثم قال ابن إسحاق: وخرجوا هاربين يبتدرون الطريق التي جاؤوا منها، ويسألون الناس عن «نفيل بن حبيب» ليدلهم على طريق اليمن، فلما رآهم نفيل على تلك الحالة قال:

أين المفر والإله طالـــــب — والأشرم المغلوب ليس غالب

ثم قال:

ردينـــــة لــــو رأيـــت ولم تريـــه — لـدى جنـب المحصَّب مـا رأينـا
إذاً لعــــذرتِني وحمـــدت رأيــــي — ولم تــأسي عــلى مــا فــات بينـا
حمـــدتُ الله إذ أبـــصرتُ طيـــراً — وخفـــتُ حجـارة تُلقـــى علينـا
فكـــل القـــوم يـــسأل عـــن نفيـــل — كـــأن عـــليّ للحُبـــشان دَيْنـا

قال المؤرخون: بعد هذه الحادثة عرفت العرب لقريش هذه المكانة، فقالوا: إنهم أهل الله وجيران بيته يدافع عنهم. وزادت مكانة عبد المطلب، وذاع صيته هو أبناؤه وقومه في قبائل العرب جميعاً، وفي أسواقهم، وما صنع الله لهم من الكرامة. واتصل ذلك بحديث ميلاد حفيدِ عبد المطلب محمد ﷺ ابن ولده الحبيب الذبيح عبد الله.

وهذا الاتصال ربط ذلك الحادث بسيرته ﷺ على شكل ظهر وتجلى في امتنان الله عليه وعلى قومه وأمته وبيته العتيق، فصانه وصان أهل جواره من عبث الغزاة، وأهلكهم هلاكاً هو إلى الاستئصال أقرب، وكان هذا الاستئصال بأمر لم يكن معتاداً للناس، فكان ذلك إرهاصاً لمقدم محمد ﷺ وبعثه، وأنزل الله في ذلك سورة تتلى إلى يوم القيامة، سجّل فيها هذا الحادث خاصة أروع تسجيل، في أوجز عبارة وأوضح أسلوب.

قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَٰبِ ٱلْفِيلِ ۝١ . . فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍۭ ۝٥﴾[1]. والكَيد: هو ما بيتوه من هدم الكعبة مسجد إبراهيم.

---

(١) الفيل ١ ـ ٥.

قال صاحب التحرير والتنوير: وفي السورة تذكير لقريش بما ظهر من كرامة النبي ﷺ عند الله، إذ أهلك أصحاب الفيل في عام ولادته ﷺ. ثم قال: ثم إن ذلك دالّ على عناية الله عـز وجل ببيته؛ لإظهار توطئته لبعثة رسول الله ﷺ بدينه في ذلك البلد، إجابة لدعوة إبراهيم: ﴿رَبَّنَا وَٱبۡعَثۡ فِيهِمۡ رَسُولٗا مِّنۡهُمۡ يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَيُزَكِّيهِمۡۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾[1].

ورحم الله صاحب كتاب (حدائق الأنوار) في سيرته ﷺ وهو» ابن الدّبيع» حين قال: وأنزل الله على نبيه بعد البعثة ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ مذكراً له بنعمته عليه وعلى قومه؛ لأنه ﷺ كان حَمْلاً، وولد بعد هزيمة الفيل بخمسين ليلة.

واسمع معي إلى قول الرازي في تفسيره الكبير: قال: لا شك أن هذه القصة كانت دالة على قدرة الصانع، وعلى شرف محمد ﷺ، ودلت سورة ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ﴾ على أن هذا الحادث ليس من سنن الحياة المألوفة، بل هي من سنن الله المدّخرة لمناسباتها، فهو مُعجزة متقدمة للنبي ﷺ إرهاصاً وتأنيساً بوقوعها، أعْلَم الله بها نبيه ممتناً بها عليه.

ورحم الله الشيخ «محمد أبو زهرة» في كتابه خاتم النبيين إذ قال: سبقت محمداً في الوجود بركاته، فقد ولد بعد مغادرة الفيل وأصحابه مكة مدحورين، بعد أن أباد الله تعالى أكثرهم، وقد ابتلعتهم الأرض بعد أن غرّهم الغرور، ونحب أن نقف لحظة عند السورة مستأنسين بكلامٍ للصادق عرجون صاحب كتاب (محمد رسول الله) إذ يقول في شأن السورة: وفي خطاب الرسول ﷺ، ومفتتح السورة بهذا الأسلوب التقريري التعجبي، وانصباب الاستفهام على الرؤية ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ . . ﴾

والرسول ﷺ لم يكن من شهود الحادث عند وقوعه، دليل على أن الحادث كان مشهوراً معروفاً للعرب جميعاً بشهود آثاره لدى العامة والخاصة، وهو لشهرته يستوي مع المعاينة والمشاهدة، ثم إن إضافة الفعل إلى الله بعنوان الربوبية (ألم تر كيف فعل ربك) المختصة به ﷺ، رمز إلى مزيد اختصاصه به، وإنه كان من أجله، ومن أجل رسالته. . .

ومن هنا اتفقت كلمة أهل الإسلام على أن الله عز وجل قدم هذا الحادث تشريفاً لخاتم

---

(١) البقرة: ١٢٩.

أنبيائه ﷺ.

قال صاحب تفسير (البحر المحيط): كانت هذه الطير آتية من قِبَل البحر، كما قال عبد المطلب: يصف هذه الطيور لأبي مسعود الثقفي الذي كان من عظماء مكة، ومن أهل الرأي فيها، وكان مكفوف البصر، وكان خليلاً لعبد المطلب حين سأله أبو مسعود هل تعرفها ـ أي الطير ـ يا عبد المطلب؟ ـ قال عبد المطلب: والله ما أعرفها. ما هي نجدية، ولا تهامية ولا عربية ولا شامية. وإنها لطير بأرضنا غير مؤنسة.

قال المؤرخون: وكان ممن انفلت من جند أبرهة، (أبو يكسوم وزيره)، فهرب وطائر يتبعه وهو لا يدري حتى وصل إلى النجاشي وأخبره بما جرى للقوم، فرماه الطائر بحجره فمات بين يدي الملك. وكان عسكر أبرهة ستين ألفاً، فأرى الله النجاشي كيف كان هلاك أصحابه.

قال ابن إسحاق: وردّ الله كيد الحبشة عن مكة، وكفاهم مؤونة قتال عدوهم.

وفي هذا قال عبد الله بن عمر بن مخزوم:

أنــــت الجليـــــل ربنـــــا لم تَــــدْنُسْ ... أنـــت حَبَــستَ الفيـــلَ في الُمغمَّــــسْ

مـــن بعـــدِ مـــــا هَـــمَّ بـــشَرٍّ مُـــبلِسْ ... حَبـــــستَهُ في هيئـــــةِ المُكـــــركس[1]

وما لهم من فَرَجٍ ومَنفَسْ

قال المؤرخون والعلماء: وكانت حادثة الفيل في العام الذي ولد فيه رسول الله ﷺ يؤيد ذلك ما ورد عن أبي الحويرث قال: سمعت عبد الملك بن مروان يقول لـ «قُباث بن أشيم الكناني الليثي»: يا قباث، أنت أكبر أم رسول الله؟ قال قباث: رسول الله أكبر مني، وأنا أسن منه.

ولد رسول الله عام الفيل، ووقفت بي امي على روث الفيل محيلاً أعقله.

---

(١) المكركس: المطروح.

الفصل الخامس والعشرون
الحمل والميلاد

الحمل والميلاد: مرّ معنا سابقاً أن عبد الله بن عبد المطلب كان أحب أولاد عبد المطلب إليه، فزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، وسِنُّ عبد الله يومها ثماني عشرة سنة، ودخل بها عبد الله، وحملت بالحبيب محمد ﷺ، ورافق حمله ووضعه آياتِ نبّوته التالية التي سنذكرها.

فهو ﷺ:

١ـ ولد من نكاح شرعي، لا من سفاح جاهلي، وهي ـ لا شك ـ عصمة إلهية لا يقدر عليها إلا رب البشر، فقد أخرج البزار من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «**خرجت من لدن آدم من نكاح غير سفاح**».

إذاً ولد محمد ﷺ من أسرة زاكية المعدن، نبيلة النسب، جمعت خلاصة ما في العرب من فضائل، وترفَّعت عما يشينهم من أوضار، ولذلك قال ﷺ عن نفسه ـ كما ورد في صحيح مسلم من حديث واثلة بن الأسقع ـ: «**إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم**». وعراقة الأصل ـ كما قال الشيخ الغزالي رحمه الله ـ: لا تمنح الرجل الفاشل فضلاً، كالصُّلب إذا تُرِك للصدأ فإنه يُمسي لا غَناء فيه، أما إذا تعهدته يد ماهرة فإنها تُبدع منه الكثير.

ولذلك لما سئل النبي ﷺ: أي الناس أكرم؟ قال: «**فعن معادن العرب تسألون؟**» قالوا: نعم. قال ﷺ: «**فخيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا**».

وقد روى بعض المؤرخين والرواة إرهاصات وأموراً وقعت عند ميلاده ﷺ دخلها الكثير من الوضع، والرواياتُ الواهية. ومحمد ﷺ ـ كما يقول الغزالي ـ: غنيٌّ عن هذا كله، فإن نصيبه الضخم من الواقع المشرقِ يُغنينا عن الروايات الواهية، ويزهّدنا فيها. وسنذكر من هذه الدلائل والإرهاصات ما هو صحيح، وما هو مختلف فيه ثم نذكر الموقف الصحيح من هذه الروايات.

٢ـ جاء في بعض الروايات أن الحمل به ﷺ كان خفيفاً على أمه، فلم تشعر عندما حملت به بوهن أو بضعف، وإنما علمت بحمله من ارتفاع حيضتها، ولكن خفة الحمل ـ كما قال الصادق عرجون ـ ليس من باب العجائب، فهو أمر معهود لكثير من النساء، كما أن ثقل الحمل

على المرأة ليس دليلاً على عدم الرعاية الربانية للوليد وأمه، فقد ورد في هذا الموضوع نصوص تدل على خفة الحمل، ونصوص تدل على ثقله. فقد ذكر ابن سعد في طبقاته أن آمنة لما حملت به ﷺ كانت تقول: ما شعرت أني حملت به، ولا وجدت له ثقلة إلا أني أنكرت رفع حيضتي. وروى الطبراني من حديث العامري عن شداد بن أوس أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، وإني كنت بكر أمي، وأنها حملت بي كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشتكي لصويحباتها ثقل ما تجد**». قال المحققون: ولعل ثقل الحمل إنما كان في الأشهر الأخيرة من الحمل.

٣ـ **ذكر اصحاب السيرة**: أن أمه لما حملت به أتاها آت في المنام وقال لها: لقد حملت بسيد هذه الأمة. وورد عن ابن عباس: أنه ﷺ حملت به أمه تسعة أشهر كُملا، وكانت أمه تحدث عن نفسها فتقول: أتاني آت حين مرَّ بي من حمله ستة أشهر فوكزني برجله وقال لي: يا آمنة إنك قد حملت بسيد العالمين طرا، فإذا ولدته فسميه محمدا.

وفي رواية أخرى: فإذا وضع في الأرض فقولي: أعيذه بالواحد من شر كل حاسد، فإن اسمه في التوراة أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في الإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، واسمه في القرآن محمد.

من هنا سجّل القرآن الكريم على الطائفتين: (اليهود والنصارى) يقينَهم بمعرفة محمد ﷺ لوجود أوصافه في كتابيهم (التوراة والإنجيل) مادحاً من آمن بمحمد ﷺ من هاتين الطائفتين، فقال عز وجل: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [(١)]. هذه الآية تتكلم في تتمة الحديث عن بني إسرائيل، بعد أن عبدوا العجل في غيبة موسى، وما حصل له معهم بعد رجوعه، وكيف سأل موسى ربه المغفرة، فوقّت الله له وقتاً يأتيه فيه إلى الطور مع فئة من خيار بني إسرائيل ليطلب لهم موسى التوبةَ من الله، فلما وصل إلى الطور، وغشيت الجبل غمامة، وناجى موسى ربه وهم يسمعون،

---

(١) الأعراف: ١٥٧.

فقالوا لموسى: أرنا الله جهرة، فأخذتهم الرجفة وماتوا، أو أصابتهم الرعدة حتى كادت أن تُبين مفاصلَهم، ثم طلب موسى الرحمة والمغفرة بعد نزول الرجفة، فماذا قال؟ ﴿قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ﴾(١).

هذا استعطاف من موسى لربه، وتوسُّلٌ إليه بعفوه الأول عنهم حين عبدوا العجل، وهذا كعبدٍ واخَذَهُ سيده بجرم، فيقول لسيده: يا سيدي لو شئت واخذتني قبل هذا بما هو أعظم من هذا الجرم ولكن وسعني عفوك أولاً فليسعني اليوم. ثم قال موسى: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا(٢) إِلَيْكَ﴾(٣) فكان جوابه عز وجل: ﴿قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾(٤).

قال ابن عباس وقتادة وابن جريج: لما نزل قولـه تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ قال إبليس: أنا من ذلك الشيء، فقال تعالى: ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ﴾ فقالت اليهود: نحن نتقي ونؤمن ونؤتي الزكاة، فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنزِلَ مَعَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(٥). فخرج منها اليهود والنصارى، وبقيت كتابة الرحمة لهذه الأمة ومن دخل فيها ممن أسلم، وآمن بمحمد من الأمم الأخرى.

ولذلك قال العلماء: ولم يكتف الحق عز وجل بأن يجعل الإيمانَ برسـالته ﷺ مجردَ خبر، بل وضع لمحمد ﷺ سِمَةً في الكتب التي سبقته، ووصفه لهم مُشَخَّصاً، وحين يصفه مُشخصاً

---

(١) الأعراف ١٥٥.

(٢) رجعنا وتبنا ومنه:

يا راكب الذنب هد هد   واسجد كأنك هدهد

(٣) الأعراف ١٥٦.

(٤) الأعراف ١٥٦.

(٥) الأعراف: ١٥٧.

فهذا أوضح من الخبر عنه بالكلام وحده.

ولذلك قال عبد الله بن سلام عندما سأله عمر عن رسول الله ﷺ فقال عبد الله بن سلام: أنا أعلم به مني بإبني. قال عمر: ولِمَ؟ قال ابن سلام: لأني لا أشك في محمد أنه نبي، فأما ولدي فلعل والدته قد خانت، فقبل عمر رأسَه.

وفي القرطبي: أن عمر قال لعبد الله بن سلام: أتعرف محمداً كما تعرف ابنك؟ قال: نعم، وأكثر، بعث الله أمينَه في سمائه إلى أمينِهِ في أرضه بنعْتِهِ فعرفتُه، وابني لا أدري ما كان من أمه، فقبّل عمر رأسه.

٤ـ **وثمة أخبار يقوي بعضها بعضاً** فتصل إلى مرتبة الحُسن اختصت بمولده ﷺ منها ما يفيد أن أمه آمنة رأت حين وضعته نوراً خرج منها أضاءت منه قصور بصرى من أرض الشام.

فقد سئل ﷺ عن نفسه فقال: «**أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام**»، ورأت عياناً تأويل ذلك، والحديث أخرجه ابن إسحاق قال: حدثني ثور بن يزيد عن خالد بن معدان عن أصحاب رسول الله ﷺ قالوا: وهذا إسناد حسن.

قال المحققون: وتدل الرواية عن الصحابة بصيغة الجمع، وهذا دليل على استفاضة الخبر في جيل الصحابة، وكلهم عدول فلا تؤثر جهالة أسمائهم.

وقال ابن كثير عن الخبر: وهذا إسناد جيد قوي(١)، وقد صححه الحاكم، ووافقه الذهبي، وتوجد كثير من المراسيل تؤيد هذا الحديث، ولكنها لا تقوى على رفعه إلى درجة الصحيح، فبقي الحديث في مرتبة الحسن.

ويذكر صاحب كتاب (هذا الحبيب يا محب)(٢) قال: امتلأ البيت الذي ولد فيه نوراً عند ولادته ﷺ، ورئيت النجوم وهي تدنو منه حتى لتكاد تقع عليه ﷺ، ثم قال: وهذا حق لا باطل، وصدق لا كذب.

وقد ذكر القاضي عياض عن أم عبد الرحمن بن عوف أنها كانت قابلته عند الولادة،

---

(١) السيرة النبوية، ج ١. ص ٢٢٩.

(٢) أبو بكر الجزائري.

وأخبرت به حين سقط على يديها واستهل، سمعت قائلاً يقول: (يرحمك الله). وإنه سطع منه نور رئيت منه قصور الروم.

٥- ومن المرويات في هذا الباب انكسار البُرْمَةِ التي وُضعت عليه بعد ولادته على عادة نساء قريش، إذ وُجِدت البرمة منكسرة على شقتين، ولم يَبِتْ ﷺ تحتها، فكانت هذه من آيات نبوته.

قال البيهقي عن أبي الحكم التنوخي قال: كان المولود إذا ولد في قريش دفعوه إلى نسوة من قريش إلى الصبح، يكفأن عليه بُرمة.

فلما ولد رسول الله ﷺ دفعه عبد المطلب إلى نسوة فكفأن عليه برمة، فلما أصبحن أتين فوجدنها وقد انفلقتْ عنه قطعتين، ووجدنَه مفتوحَ العينين شاخصاً ببصره إلى السماء، فأتاهن عبد المطلب فقلن له: ما رأينا مولوداً مثله، فقال: احفظنه فإني لأرجو أن يكون له شأن. (هذا الحديث إسناده حسن إلى عكرمة، والتنوخي تابعي مجهول).

٦- ورميت الشياطين بالشهب، كما قال ابن الدبيع في حدائق الأنوار. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ (١).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قوله: كانت الشياطين لا يُحجبون عن السماوات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها، فيُلقُون على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه السلام مُنعوا من ثلاث سماوات، فلما ولد محمد ﷺ مُنعوا من السماوات أجمع، فمن استمع رُمي بشهاب، فلما بُعث النبي ﷺ اشتد الرجم ومُنعوا من استراق السمع، فذكروا ذلك لإبليس فقال: لقد حدث في الأرض حدث، قال: فبعثهم فوجدوا رسول الله ﷺ يتلو القرآن فقالوا: هذا والله ما حدث.

قال ابن زيد: لما مُنع الشياطين من استراق السمع قال إبليس: ما ندري أراد الله بهذا المنع أن ينزل على أهل الأرض عذاباً، أو يُرسل إليهم رسولاً. وفي الصحيحين قالت الجن: قد حيل بيننا وبين خبر السماء.

وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴾ لاحظ قوله (استرق)، فهناك فرق

---

(١) الحجر ١٦-١٨.

بين (استرق) و(سرق)، فالذي سرق ـ كما قال العلماء ـ هو من يدخل بيتاً، ويأخذ ما شاء في حقائبه على راحته لينقلها حيث يريد، أما إذا كان في البيت أحد، فاللص يتحرك في استخفاء حتى لا يراه أحد فيضبطه، فيكون معنى (استرق) الحصول على السرقة مقرونة بخوف.

فصار معنى الآيات: (أي حفظنا السماء من الشياطين أن تسمع شيئاً من الوحي)، لقوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ عَنِ ٱلسَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ﴾ (١)، أما غير الوحي ففيه خلاف في السماع.

موقفنا من هذه الروايات: يقول صاحب كتاب خاتم النبيين: نقرر أن العبرة في قبول هذه الروايات هو صدق الرواية، لا بكونها مقبولة في العقل، وخبر الصادق يُقبل وإن كان فيه احتمال الكذب، كما أن الاحتمال لا يكفي لرد أقوال الصادقين، ولو أننا رددنا كل قول لوجود احتمال الكذب، لما ثبت حق، ولا دُفعَ باطل، ولا حُكِم بقضاء. ولكن يكفينا أن نقبل ما لا طعن فيه.

وأما من ناحية قبول العقل للرواية، فإن خوارق العادات تجيء بتقدير الله تعالى الذي لا يتقيد بالعادات، فسبحانه لا يُسأل عما يفعل وهم يُسألون.

ومن كلام صاحب كتاب محمد رسول الله: التسرع في الإنكار خطل في الرأي، والتسرع في التصديق قبل الإثبات غميزة في العقل، والقرآن الكريم سمى كثيراً من هذه المعجزات والبراهين، فعصا موسى، إلى عرش بلقيس. . . وأيد المؤرخون حصولها، فمن أنكرها فهو ذو عتهٍ عقلي. ثم قال رحمه الله: ولا نستطيع أن ننكر كل هذه الإرهاصات في حمله وولادته ﷺ جحوداً مع الجاحدين الذين يريدون إخضاع عظمة الإلوهية لسلطان عقولهم في حدود ما يعرفون من سُنن الحياة، فهذا غرور بليد. لماذا؟ لأن ما عُرف من سنن الحياة قليل تافه إلى جانب ما لم يُعرف، فلله في كونه سنن عامة، وسنن خاصة، ولكل ضوابطها.

إذاً: فما ثبت منها نصدقه، ولا نلزم الناسَ الإيمانَ بها، فليس من الإيمان أن نؤمن بأن إيوان كسرى ارتجف، وأن أربع عشرة شرفة من شرفاته سقطت، وأنه ﷺ ولد مسروراً مختوناً على غير العادة، مع أن سقوط الشرفات أوله العلماء بسقوط أربعة عشر ملكاً من ملوكهم، فسقط عشرة في أربع سنوات، وأربعة سقطوا أثناء الفتح الإسلامي.

وكذلك رؤيا الموبذان لخيل عربية تقطع دجلة وتنتشر في بلاد الفرس، وغَيْضُ بحيرة

---

(١) الشعراء ٢١٢.

ساوة، وخُمود نارِ المجوس.

والنبي ﷺ نفسه لم يدعُ الناس إلى الإيمان بهذه الأمور فهي ليست محلاً للإيمان.

ولو استعرضت ما كتبته الأناجيل عن ميلاد المسيح لوجدت ما تذكره السيرة النبوية لا يُعدُّ شيئاً بجانب ما ذكرته الأناجيل، وأوجبت الإيمان به.

ومن لم يُصدق هذه الوقائع عند النصارى فهو كافر عندهم. فقد جاء في أناجيلهم: أن الملائكة رتلت عند مولده فرحاً وسروراً، وظهر من السحاب أنغام مطربة، وأضاء الغار الذي ولد فيه المسيح بنور أتعب عيني القابلة.

وقالوا: لما ولد المسيح جاء المجوس من الشرق إلى أورشليم، وجاء الرعاة وسجدوا له.

الفصل السادس والعشرون
فرح الكائنات بمولده ﷺ

٧- فرح الكائنات بمولده ﷺ: قال صاحب كتاب أحاديث الجمعة والعيدين: إن الرسالة المحمدية مصدرها السماء، ولا دخل للأرض فيها، وهذه الرسالة قد انتشرت بالإقناع بين هذه الأمة، ثم أضاءت العالم كله بعد ذلك، ومصدر هذا النور هو الحق الذي حمله الرسول الكريم. ثم قال: وإذا تصورنا الوضع قبل ميلاده وقبل مبعثه ﷺ لرأينا أن كل ما في الكون يسبح لله تعالى بلغة خاصة به، وبطريقة يعلمها الله تعالى، وأمة محمد ﷺ غافلة حتى جاءها محمد ﷺ.

وحين يأذن الله بميلاد رسول جاء ليعيد للإنسان انسجامه مع الكون والوجود، فلا غرابة إذاً أن يفرح الكون بهذا النبي الذي يعيد للإنسان هذا الانسجام مع الكون، إذاً فلا عجب أن تفرح الكائنات من إنس وجن. . فإذا جاء حديث يدل على أن ميلاده ﷺ قد اقترن بأمور حدثت في الكون، فيجب ألا نستبعدها لأن خالق الكون قد اختار البشير النذير، وحامل الهدى والانسجام مع الكون. وما صح من هذه الظواهر قابلٌ للتصديق، وأنت حر في تصديقها أو عدم تصديقها. والوجود له حياة ليست كحياتنا، بل حياة من نوع آخر، وللكون أسلوبه في التلقي، فله القدرة على الفرح، وله القدرة على الحزن. وقد عرض الله لنا ذلك عرضاً إجمالياً ليُعرّفنا أن الكون كله خاضع له عز وجل، عابد له.

فقال تعالى: ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبۡعُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمۡدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفۡقَهُونَ تَسۡبِيحَهُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورٗا ﴾ (١). وبين الله تعالى أن هناك أجناساً من الوجود تشترك مع الإنسان في التسبيح. قال تعالى: ﴿وَسَخَّرۡنَا مَعَ دَاوُۥدَ ٱلۡجِبَالَ يُسَبِّحۡنَ وَٱلطَّيۡرَۚ وَكُنَّا فَٰعِلِينَ ﴾ (٢).

قال ابن عباس: كنا نسمع تسبيح الطعام وهو يؤكل. وقال: كان داود يفهم تسبيح الحجر والشجر. وقال وهب: كانت الجبال تجاوبه بالتسبيح وكذلك الطير.

قال البغوي: كان داود إذا فتر أسمعه الله تسبيح الجبال والطير فينشطُ في التسبيح ويشتاق إليه.

---

(١) الإسراء: ٤٤.

(٢) الأنبياء: ٧٩.

ونحن نعرف أن سليمان كان يعرف لغة النمل والطير، وأن الهدهد عرف أن السجود لله وحده في قصة ملكة سبأ. فإذا عَرَضْتْ سيرته وسمعنا أن أشياء قد حدثت في الكون فذلك أمر غير مستبعد من كون يسبح الله تعالى، ويعرف حق الله عز وجل، فكأن الكون أقام عرساً حين ميلاده ﷺ، ولا عجب أن يفرح الكون بمن يعيد الانسجام إليه لأن القرآن الكريم أثبت للسماء بكاء، فقد قال تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا۟ مِن جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ﴿٢٥﴾ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٢٦﴾ وَنَعْمَةٍ كَانُوا۟ فِيهَا فَٰكِهِينَ ﴿٢٧﴾ كَذَٰلِكَ ۖ وَأَوْرَثْنَٰهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿٢٨﴾ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ ﴿٢٩﴾﴾[1].

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: إذا مات المؤمن بكى عليه مصلاه من الأرض، ومصعد عمله من السماء.

وقال مجاهد وسعيد بن جبير وغيرهما: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحاً ، فقال أبو يحيى القتات: فعجبت من قوله وقلت له: أتبكي الأرض؟ قال مجاهد: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد كان يعمرها بالركوع والسجود، وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل.

وفي حديث ذكره ابن كثير عن ابن جرير بعد حديث شريح بن عبيد الحضرمي قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الإسلام بدأ غريباً، وسيعود غريباً كما بدأ. ثم قرأ رسول الله ﷺ ألا لا غرابة على مؤمن، وما من مؤمن مات في غربة عن بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض**» ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ وَمَا كَانُوا۟ مُنظَرِينَ﴾، ثم قال ﷺ: «**ألا إنهما لا يبكيان على كافر**» ومن عادة العرب أن تقول عند موت سيد منهم: بكت له السماء والأرض. أي عمَّت المصيبة الأشياء حتى بكته الريح والأرض والسماء والبرق.

ومن ذلك قول يزيد الحميري:

فالريح تبكي شَجْوها ... والبرق يلمع في الغمامة

ومنه قول ليلى الشيبانية ترثي أخاها الوليد:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

---

(١) الدخان: ٢٥ ـ ٢٩.

وكقول جرير في ديوانه يرثي عمر بن عبد العزيز:

والشمس كاسفة ليست بطالعة   تُبكي عليك نجوم الليل والقمرا

قال صاحب كتاب محمد رسول الله: كانت الإخبارات التي ترويها المصادر المعتبرة بروايات صحيحة عن أهل الكتاب وعن الرهبان، وعن مُتَحّنفة العرب عن زمن ميلاده ﷺ وعن بلده، وعن بعثته من قبيل الأعاجيب التي أشار إليها القرآن الكريم.

وبدأ اليهود على الخصوص ينشرون هذه الأخبار، ويُذيعون هذه البشارات، ويهددون مشركي العرب بقرب مولد نبي يكون مع اليهود عليهم، (أي على المشركين) فقد روى ابن مسعود عن أم المؤمنين عائشة بسند حسنه الحافظ بن حجر في شرح البخاري أنها قالت: كان يهودي قد سكن مكة يتّجر بها، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله ﷺ، قال: يا معشر قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم. قال: الله أكبر، انظروا فإنه ولد في هذه الليلة نبي هذه الأمة، (أحمد الآخر) بين كتفيه علامة. فانصرفوا فسألوا هل ولد لأحد مولود؟ فقيل لهم: ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فسماه جده عبد المطلب محمداً، ثم التقوا بعد يومهم فأتوا اليهودي في منزله. فقالوا: علمنا أنه ولد فينا مولود.

قال اليهودي: أبعد خبري أم قبله؟ قالوا: بل قبله. قال فاذهبوا بنا إليه، فخرجوا معه حتى دخلوا على أمه فأخرجته إليهم، فرأى اليهودي الشامة في ظهره فأغمي عليه، ثم أفاق، فقالوا: ويلك مالَكَ؟ قال: ذهبت النبوة من بني إسرائيل، وخرج الكتاب من أيديهم ـ وهذا مكتوب ـ يقتلهم ويبزُّ أحبارهم، فازت العرب بالنبوة، أفرحتم يا معشر قريش، أما والله ليَسْطونَّ بكم سطوة يخرج نبؤها من المشرق إلى المغرب.

ويحدّث ابن سعد في طبقاته عن بعض الأنصار أن يهود بني قريظة كانوا يدرسون ذكر رسول الله ﷺ في كتبهم، ويُعلمونَه الولدان بصفته واسمه، ومُهاجَره إلينا، فلما ظهر رسول الله ﷺ حسدوا وبغوا، وقالوا: ليس به.

قال الأنصار: فلما بُعث ﷺ آمنا وكفروا ـ أي اليهود ـ، وفينا وفيهم نزل قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمۡ كِتَٰبٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٞ لِّمَا مَعَهُمۡ وَكَانُواْ مِن قَبۡلُ يَسۡتَفۡتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَلَمَّا

جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [1] إذاً اليهود كانوا يعيشون في المدينة، وكان معهم الأوس والخزرج.

وعندما كانت تحدث بينهم خصومات كان اليهود يهددونهم بالرسول القادم، ويقولون للأوس والخزرج ولأهل المدينة: أهلَّ زمن رسولٍ سنؤمن به، ونتبعه، ونقتلكم قتل عاد وإرم. فلما جاء الرسول من العرب كفروا به، وبما أنزل عليه من القرآن.

لكن انتبه ـ أخي الكريم ـ إلى عظيم لطف الله برسوله وبدعوته، فإن اليهود في كفرهم كانوا أحد أسباب نصرة رسول الله ﷺ؛ لأن الأوس والخزرج لما بُعث النبي ﷺ قالوا: هذا هو النبي الذي يهددنا به اليهود، فأسرَعوا وبايعوه، فكأن اليهود سخَّرهم الله لنصرة دينه وهم لا يشعرون. ثم انتبه ـ يا عبد الله ـ إلى قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُواْ كَفَرُواْ بِهِۦۚ فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾. قال تعالى: ﴿فَلَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ ولم يقل: فلعنة الله عليهم. . وهذه إشارة إلى أن سبب اللعنة هو (الكفر) لا الجنس أو العِرق، وليعُمَّ اللعن كل كافر.

قال ابن إسحاق: فلما وضعته ﷺ أمه، أرسلت إلى جده عبد المطلب: أنه قد ولد لك الليلة غلام فأته فانظر إليه. وقولها (ولد لك) وأضافته إلى جده ذلك لأن الجد أب، ولأنها أرادت أن تخفف من حزن جده عبد المطلب على وفاة ولده عبد الله أبي النبي ﷺ، وأحبِّ أولاد عبد المطلب إليه، حيث حزن عليه عبد المطلب حزناً شديداً.

قال ابن إسحاق: فأتاه عبد المطلب، ونظر إليه وحدثته أمه بما رأت حين حملت به، وما قيل لها فيه، وما أمرت أن تسميه، فأخذه عبد المطلب، ودخل به الكعبة، وقام يدعو الله ويشكر له على ما أعطاه، ثم خرج إلى أمه فدفعه إليها، والتمس عبد المطلب للمولود المراضع.

ضيق إبليس من مولده: وقد حكى السهلي[2] عن تفسير (ابن مخلد) الحافظ أن إبليس رنَّ أربع رنّات، والرَّنة: الصيحة الشديدة، والصوت الشديد عند الغناء، وعند البكاء، ولذلك قال أبو زبيد الطائي: شجراؤُه مُغنّة، وأطياره مُرنَّة.

أما في البكاء فقالوا:

---

(١) البقرة: ٨٩.

(٢) صاحب كتاب الروض الأنف.

عمداً فعلـــتُ ذاك أني   أخاف إن هلكت لم تَرُنِّي

إذاً. رنَّ إبليس أربع رنات: رنة حين لُعن، ورنّة حين أهبط، وحين ولد محمد ﷺ، وحين أنزلت الفاتحة.

ثويبة جارية أبي لهب تبشر أبا لهب بمولده ﷺ:

كانت ثويبة جارية لأبي لهب ـ عم النبي ﷺ ـ فلما وُلد ﷺ بشّرته قائلة له: أما شعرت أن آمنة ولدت ولداً لأخيك عبد الله؟ فقال أبو لهب: أنت حرة، فجوزيَ بتخفيف العذاب عنه يوم الاثنين؛ بأن يسقى ماءً في جهنم في مثل النُّقرة التي بين السبابة والإبهام. وفي البخاري عن عروة قال: وثويبة مولاة لأبي لهب أعتقها فأرضعت رسول الله ﷺ، فلما مات أبو لهب أُريه بعض أهله ـ وهو أخوه العباس ـ في النوم بحالة سيئة ـ بشرِّ خيبة ـ فقال لـه: ماذا لقيتَ؟ فقال أبو لهب: لم ألق بعدكم خيراً!! غير أني سُقيت في هذه بعتاقتي ثويبة. وأشار إلى النقرة التي بين الإبهام والتي تليها من الأصابع.

وقد ورد عن العباس أخي أبي لهب قال: مكثت بعد موت أبي لهب حولاً لا أراه في نوم، ثم رأيته فقلت له: ماذا لقيت؟ فقال أبو لهب: لم أذق بعدكم رخاء، وفي رواية أنه قال: بشرِّ خيبة غير أني سُقيت في هذه ـ وأشار إلى النقرة ـ بعتقي ثويبة. ذكر هذا الأثر الحافظ الدمياطي. وفي المواهب: أن أبا لهب رئي بعد موته بشر حال، فقيل له: مـا حالك؟ قال: في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين، وأمص من بين إصبعي هاتين ماءً ـ وأشار برأس إصبعيه ـ وإنّ ذلك بإعتاقي لثويبة عندما بشرتني بولادة النبي ﷺ.

قال المؤرخون: أبو لهب، اسمه عبد العزى، ويقولون: سُميَ بأبي لهب ـ وليس له ولد اسمه لهب ـ لإشراقه، وحُسن وجهه. وقال بعض المفسرين الجدد: إنما سُمي أبا لهب بقضاء وقدر، ثم قال: ليكون من اهل النار ـ لهب ـ، ثم قال: ونظير ذلك اختيار الشيوعيين لون الحمرة، واختاروا كلمة اليسار لما سبق أن أهل الشمال هم اهل النار. وقوله (تبت) أي هلكت، وخسرت، وغُلبت، وصَفِرت على كل خير.

هنا سؤال: لماذا خصَّ اليد بالتباب؟ والجواب:

لأنه أخذ حجراً ليرمي رسول الله ﷺ، فقد روى طارق المحاربي أنه قال: رأيت رسول الله

ﷺ في السوق يقول: يا أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. . ورجل خلفه يرميه بالحجارة يقول: لا تطيعوه فإنه كذاب، فقلت: من هذا؟ قالوا: محمد وعمه أبو لهب.

وروي أن ذكر اليدين هنا لأن النبي ﷺ دعا أبا لهب نهاراً فأبى، فلما نزل الليل ذهب رسول الله ﷺ إلى داره فدعاه إلى الله ليلاً، مستناً بسنة نوح عليه السلام فلما دخل ﷺ على عمه أبي لهب قال له عمه: أجئتني معتذراً؟ فجلس النبي ﷺ أمامه كالمحتاج، وجعل يدعوه للإسلام، ثم قال لعمه: فإن كان يمنعك العار فأجبني في هذا الوقت واسكت. فقال أبو لهب: لا أؤمن بك حتى يؤمن بك هذا الجدْي. فقال ﷺ للجَدْيِ: من أنا؟ فقال الجدي: رسول الله، وأطلق لسانه بالثناء عليه، فاستولى الحسد على أبي لهب، وأخذ يدي الجدي فمزقها. . وقال: تباً لك أثر فيك السحر. وقوله تعالى: ﴿وَتَبَّ﴾[1]: هذا إخبار بهلاك أبي لهب.

قال المفسرون: أصابه مرض يسمى مرض العدسة فمات، وأقام ثلاثة أيام لم يدفن حتى أنتن، ثم إن أولاده غسلوه من بعيد مخافة العدسة إذ كانت العرب تتقي هذا المرض كما يتقى الطاعون.

وهناك بعض الملاحظات نقف عندها قليلاً: قال صاحب الإتقان: ليس في القرآن من الكُنى غير أبي لهب. قد يقال: إن التكنية تكريم. . .

لقول الشاعر:

أُكنيه حين أناديه لأكرمه ولا ألقبه والسوأة اللقب

فكيف، ولماذا خوطب بالكنية دون الاسم؟

والجواب:

أن القرآن لم يسمه باسمه (عبد العزى)، لأن ذلك محرم شرعاً فالعبودية لله وحده، وكذلك، لمَّا أنه كان من أهل النار، ومآله إلى نار ذات لهب، فقد وافقت حالُه كُنيته، فكان جديراً بأن يُذكر بها، كما يقال للشرير: أبو الشر، وللخيِّر أبو الخير. وهذا المعنى ـ أي كونه جهنمياً ـ تفيد الذم، فامتنع كون التكنية هنا تكريماً، ونلاحظ أن القرآن الكريم قال: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ . .﴾ ولم يقل:

---

(١) المسد: ١.

﴿قل تبت. . ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ لماذا؟ لئلا يكون النبي ﷺ مُشافهاً لعمه بالشتم والتغليظ، وإن شَتَمه عمه وآذاه؛ لأن للعم حُرمَةً كحرمة الأب، ولأنه ﷺ مبعوث رحمة للعالمين، وصاحب خلق عظيم، فأجاب الله عنه: ﴿تَبَّتۡ يَدَآ أَبِي لَهَبٖ وَتَبَّ ﴾، أما سورة: ﴿قُلۡ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَـٰفِرُونَ ﴾ فهم ليسوا أعماماً له.

وقد يكون أبو لهب كنية الحطب، لما روي عن أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ أن ابنة أبي لهب قالت للنبي ﷺ: إن الناس يصيحون بي ويقولون إني ابنة حطب النار.

الفصل السابع والعشرون
تسمية الحبيب وإرضاعه ﷺ

تسميته ﷺ: قال صاحب كتاب إنسان العين: أُمرت أمه في المنام أن تسميه محمداً وهي حامل به، فسماه جده عبد المطلب بهذا الاسم، يعني (محمداً)، فقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما ولد رسول الله ﷺ عق عنه جده بكبش في يوم سابعه، وسماه محمداً، فقيل له: يا أبا الحارث: ما حملك على أن تسميه محمداً وليس من أسماء آبائك ولا قومك؟ فقال عبد المطلب: أردت أن يحمده الله في السماء، ويحمده الناس في الأرض.

وقال أهل السير: إن تسميته بمحمد كان إلهاماً من الله عز وجل لجده عبد المطلب تفاؤلاً بأن يكثر حمد الخلق له، لكثرة خصاله الحميدة، فاجتمع هذا الإلهام مع رؤيا أمه.

وقد ذكر القيرواني العابر في كتاب البستان قال: وسماه جده بمحمد لرؤيا رآها، فقد رأى عبد المطلب في منامه كأن سلسلة من الفضة خرجت من ظهره لها طرف في السماء، وطرف في الأرض، وطرف في المشرق، وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق والمغرب كأنهم يتعلقون بها، ثم عرض عبد المطلب الرؤيا على المعبرين فقالوا: إن التعبير هو مولود يخرج من صلبك يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً مع ما حدثَّته به أمه حين قيل لها: إنك حملت بسيد هذه الأمة، فإذا وضعته فسميه محمداً.

وعن أبي نعيم ـ كما ذكر صاحب كتاب إنسان العيون ـ قال: روى عبد المطلب قال: بينما أنا نائم في الحجر إذ رأيت رؤيا هالتني، فزعت منها فزعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش، فلما نَظرت إليَّ عرفت في وجهي التغيّر، فقالت: ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون هل رابه من حدثان الدهر شيء؟

فقلت: بلى. إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء، وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها، وهي تزداد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً آخرين من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخرهم شاب لم أر أحسن منه

وجهاً، ولا أطيب منه ريحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنله. فانتبهت مذعوراً. قال عبد المطلب: فرأيت وجه الكاهنة قد تغير ثم قالت: لئن صدقت رؤياك ليخرجنَّ من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب، ويدين له الناس.

عندها قال عبد المطلب لولده ـ أبو طالب ـ: لعلك أن تكون هذا المولود؟. فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث ويقول: كانت الشجرة محمداً ﷺ.

هل سُميَ بهذا الاسم أحد غيره؟ قال السهيلي في الروض الأنف: لا يُعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم قبله ﷺ إلا ثلاثة. طمع آباؤهم حين سمعوا بذكر محمد ﷺ، وبقرب زمانه وأنه يُبعث في الحجاز، أن يكون هذا المبعوث ولداً منهم. وقد ذكر ابن فورك صاحب كتاب الفُصُول. قال: وهؤلاء الثلاثة هم: محمد بن سفيان بن مجاشع، وهو جَدُّ جَدِّ الفرزدق الشاعر المشهور، والثاني: محمد بن حِمران بن ربيعة. والثالث: محمد بن أحيحة بن الجلاح. وكان آباء هؤلاء الثلاثة قد وفدوا على بعض الملوك الذين عندهم علم من الكتاب الأول، فأخبرهم بمبعث النبي ﷺ وكان كل واحد قد خلّف امرأته حاملاً، فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً، ففعلوا ذلك.

ما معنى محمد؟ معناه الإنسان المحمود مرة بعد مرة، فهو منقول من صفة كقولهم: المكرَّم، وهو من أكرِمَ مرةً بعد مرة، فاسمه ﷺ محمد مطابق لمعناه، وهذه المطابقة عَلَم من أعلام نبوته ﷺ، إذ كان اسمه صادقاً عليه، فهو ﷺ محمود في الدنيا بما نفع الناس بالعلم والهدى والحكمة، وهو محمود في الآخرة بالشفاعة.

قال صاحب كتاب الروض الأنف: ثم إنه ﷺ لم يكن محمداً ـ أي لم يكن محموداً مرة بعد مرة ـ حتى كان قبلها أحمد. وأحمدَ فيه معنى التفضيل ـ على وزن أفعل ـ، فهو منقول عن صفة، فمعنى أحمد أي أنه أفضل الحامدين لربه عز وجل. وبذلك نبأه وشرَفه، تقدم اسمه أحمد على الاسم الذي هو محمد ﷺ ونحن نرى أن عيسى لما ذكره قال: أحمد. كما في قوله تعالى: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ (١).

وذكره موسى من قبل ذلك حين قال له ربه: تلك هي أمة أحمد، فسمي ﷺ بأحمد قبل

(١) الصف: ٦.

تسميته بمحمد لأن حمده لربه كان قبل حمدِ الناس له، فلما وُجد ﷺ، وبُعث كان محمداً بالفعل.

ثم هو ﷺ بالشفاعة في الآخرة يحمد ربه بالمحامد التي يفتحها الله عليه، فيكون أحمد الحامدين لربه، ثم يشفع فيُحمد على شفاعته. فانظر ـ رحمك الله يا عبد الله ـ كيف ترتب هذا الاسم قبل الاسم الآخر في الذكر والوجود، وفي الدنيا والآخرة، تظهر لك الحكمة الإلهية في تخصيصه ﷺ بهذين الاسمين، (أحمد ثم محمد).

ثم انظر بعد ذلك كيف أنزلت عليه سورة الحمد، وخُصَّ بلواء الحمد، وخُصَّ بالمقام المحمود.

ثم انظر كيف شُرّع لنا في القرآن والسنة أن نقول عند اختتام الأفعال وانقضاء الأمور: الحمد لله رب العالمين. قال سبحانه: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (١). وقال: ﴿وَآخِرُ دَعْوَاهُمْ أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٢).

الحمد على الإيجاد، والحمد على الإمداد في الدنيا، والحمد على نعمة البقاء في دار الخلود، وهي قمة الحمد ـ كما قال الشيخ الشعراوي ـ.

وجميل قول الرازي: لما استسعد أهل الجنة بذكر (سبحانك الله وبحمدك)(٣) وعاينوا ما فيه من السلامة من الآفات والمخافات، علموا أن هذه الأحوال السَّنية والمقامات القدسية إنما تيسرت بإحسانِ الحق عز وجل لهم، وإفضاله وإنعامه، فلا جرم أن اشتغلوا بالحمد والثناء.

وقال العلماء: وذلك تنبيه على أن الحمد مشروع عند انتهاء الأمور، ولهذا سنّ لنا رسول الله ﷺ الحمد بعد الأكل والشرب، وعند انقضاء السفر، فقد كان ﷺ إذا فرغ من الأكل والشرب يقول: «**الحمد لله حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه غير مكفيٍّ، ولا مودَّع، ولا مُستغنَى عنه ربنا. الحمد لله الذي كفانا وآوانا وأروانا غير مكفي ولا مكفور**». كما سن ﷺ أن نقول عند انقضاء السفر والعودة: «**آيبون تائبون عابدون لربنا حامدون**».

قال العلماء: ثم انظر لكونه خاتم الأنبياء، ومُؤذِناً بانقضاء الرسالة، وارتفاع الوحي،

---

(١) الزمر: ٧٥.

(٢) يونس: ١٠.

(٣) إشارة إلى قوله تعالى (دعواهم فيها سبحانك اللهم).

ونذيراً بقرب الساعة وتمام الدنيا، مع أن الحمد مقرونٌ بانقضاء الأمور، ومشروع عند انتهائها، تجد معاني اسميه (أحمد، محمد) جميعاً، وما خُصَّ به من الحمد والمحامد مطابقاً للوصف واللفظ، وفي ذلك برهان عظيم على نبوته، وتخصيص الله له بكرامته، وأنه قدّم له هذه المقدمات قبل وجوده تكرمة له، وتصديقاً لأمره.

رضاع الحبيب ومراضعه: قال العلماء: «إن أول مرضع تشرفت برضاعته ﷺ والدته العفيفة الطيبة آمنة بنت وهب الزهرية، التي رأت من آيات النبوة ما رأت».

قال العلماء: الغذاء الأول للجنين بعد ولادته هو الرضاعة، والرضاعة تكون من الأم؛ لأن لبنها يسير مع نموه سيراً مطرداً، فكلما كبر الغلام كبرت دسامة اللبن حتى يستغني المولود بالغذاء، ولذلك كانت الرضاعة من الأم أولى المطلوبات من الأمومة، لذلك قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ ﴾ (١).

ولذلك قيل في الأمثال: (الرضاعة تذهب الضَّراعة(٢))، فكان من مقتضى الفطرة أن تكون آمنة الأم العطوف هي التي تولت إرضاعه أولاً.

قال السهيلي في كتابه الروض الأنف: وكان من عادة العرب دفع أولادهم إلى المراضع لأمور يرونها، ومن هذه الأمور:

١ـ تفريغ النساء إلى الأزواج، إذ قلَّ من يرغب بالزواج من امرأة لها أولاد. ولذلك قيل: النساء ثلاثة: امرأة لك، وامرأة عليك، وامرأة لا لك ولا عليك وهي المرأة المطلقة ذات الأولاد، والأولى البكر، والثانية المطلقة من زوج سابق ولا ولد لها. .

٢ ـ الحرص على أن ينشأ الطفل في الأعراب، فيكون أفصح للسانه، وأجله لجسمه، وقد قال ﷺ للصديق أبي بكر حين قال للنبي ﷺ: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله؟!!. فقال رسول الله ﷺ: «**وما يمنعني وأنا من قريش، وأُرضعت في بني سعد**» وقد يكون الدافع للإرضاع قلة اللبن، كما ذكر ذلك أبو زهرة في كتابه (خاتم النبيين)، وعلل ذلك بكون أمه حزينة لفقدها زوجها الوفي.

---

(١) البقرة: ٢٣٣.

(٢) الضعف.

فكل هذه الأمور والأسباب كان يحملهم على دفع الأطفال الرضعاء إلى المراضع الأعرابيات؛ ليتربوا على تحمّلِ الأجواء، ويتنسموا نسيم البادية، ويعرفوا عادات أهلها، ويخشوشنوا بخشونتها، ولا ينشؤوا في حلية المدينة وليونتها.

ثم كان الرضاع الثاني: من ثويبة مولاة أبي لهب، أرضعته قبل أن ترضعه حليمة السعدية، وأرضعت ثويبة معه عمَّه حمزة بن عبد المطلب، فكان حمزة أخاً للنبي ﷺ من الرضاع، وكان ﷺ يعرف هذا لثويبة، ويصلها من المدينة، فلما كان يوم الفتح سأل عنها وعن ابنها «مسروح» فأخبر أنهما ماتا، وسأل عن قرابتها فلم يجد أحداً منهم حياً.

ثم أرضعته حليمة السعدية بنت أبي ذؤيب من بني سعد بن بكر، رضع مع ابنتها الشيماء بنت الحارث بن عبد العزى، وقد رأت في إرضاعه ﷺ آيات فلنستمع إليها تحدثنا بنفسها عما شاهدت من آيات نبوته ﷺ، وما سنذكره في هذا الباب من روايات تاريخية وردت على لسان حليمة السعدية بما اتفق عليه الرواة أو كاد.

روى ابن إسحاق عن جعفر بن أبي طالب قال: حدثت حليمة بنت الحارث أنها قالت: قدمتُ مكة في نسوة ـ ذكر الواقدي أنهن كنّ عشراً ـ من بني سعد، يلتمسن بها الرضعاء في سنة شهباء [(١)]. تقول حليمة: فقدمت على أتان قمراء[(٢)] كانت قد أذَمَّت[(٣)] بالركب ومعي صبي لنا وشارف[(٤)]، والله ما تبِضُّ بقطرة ، وما نبام ليلتنا أجمع من صبينا ذاك، ما نجد في ثديي ما يغنيه، ولا في شارفنا ما يغذيه، ولكنا كنا نرجو الغيث والفرج، ثم قالت: فقدمنا مكة، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عُرض عليها رسول الله ﷺ فتأباه، إذا قيل لنا إنه يتيم تركناه، وقلنا: ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد، أما أمه فما عسى أن تصنع لنا. ثم قالت: فوالله ما بقي من صواحبي امرأة إلا أخذت رضيعاً غيري، قالت: فلما لم نجد غيره وأجمعنا الانطلاق قلت لزوجي: والله إني لأكره أن أعود من بين صواحبي ليس معي رضيع لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

---

(١) أي جدباء لا خضرة فيها.

(٢) لونها يميل إلى الخضرة.

(٣) أي جاءت بما تُذمُّ عليه.

(٤) الناقة المسنة الهرمة.

فقال زوجها: لا عليك أن تفعلي فعسى أن يجعل الله لنا فيه بركة. قلت: فذهبتُ فأخذته، فوالله ما أخذته إلا أني لم أجد غيره، فما هو إلا أن أخذته فجئت رحلي فأقبل عليّ ثدياي بما شاء من لبن، فشرب حتى روي، وشرب أخوه ـ ولدها عبد الله ـ حتى روي، وقام صاحبي إلى شارفنا تلك فإذا أنها لحافل، فحلب ما شرب، وشربت حتى روينا، فبتنا بخير ليلة، وأقام عندها أربع سنين.

قالت حليمة: فلما أصبحنا بعد أن بتنا بخير ليلة، قال زوجي: والله يا حليمة إني لأراك قد أخذت نسمة مباركة، ألم تري ما بتنا به الليلة من الخير والبركة حين أخذناه؟!!، فلم يزل الله تعالى يزيدنا خيرا.

قالت حليمة: ثم خرجنا راجعين إلى بلادنا، فوالله لقطعت أتاني الركب حتى ما يتعلق بها حمار، حتى إن صواحبي ليقلن: ويلك يا ابنة أبي ذؤيب هذه أتانك التي خرجت عليها معنا؟ فأقول: نعم والله إنها لهي ، فقلن: والله إن لها لشأناً ، حتى قدمنا أرض بني سعد، وما أعلم أرضاً من أرض الله أجدب منها، فإن كانت غنمي لتسرح ثم تروح شباعاً لُبّناً فنحلب ما نشاء، وما حوالينا أحد تبضُّ له شاة بقطرة لبن، وإن أغنامهم لتروح جياعاً حتى إنهم ليقولون لرعاتهم: ويحكم انظروا حيث يسرح غنم بنت أبي ذؤيب فاسرحوا معهم. فيسرحون مع غنمي حيث تسرح، فتروح أغنامهم جياعاً ما فيها قطرة لبن، وتروح أغنامي شباعاً لُبّناً نحلب ما شئنا، فلم يزل الله يرينا البركة نتعرفها حتى بلغ سنتين، فكان يشب شباباً لا يشبُّه الغلمان، فوالله ما بلغ السنتين حتى كان غلاماً جفراً(١).

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: إذا كان محمد قد فاضت بركاته على أهل مكة برد أبرهة الأشرم وفيله مدحورين، فبركته بعد ولادته تسير معه حيث سار.

لقد رضيتْ باليتيم، وطابت نفس زوجها به، فجزاها الله جزاء حسناً، فأطعمهم من جوع، ودرَّ عليهم الأثداء الجافة، وامتلأت أضراع غنمها، فكان الفضل العظيم والخير العميم.

قال ابن كثير: وبركته ﷺ التي حلّت على حليمة وأهلها وهو صغير عادت هذه البركة على هوازن كلّها يوم وقعوا في أسر النبي ﷺ يوم حنين بعد فتح مكة بشهر، فلما جاءت هوازن

---

(١) أي قوياً على الأكل ممتلئاً.

إليه ﷺ وذكروا له أن التي أرضعته ـ حليمة ـ منهم، فأعتقهم وأحسن إليهم.

واسمع معي إلى ما يرويه رئيس القوم ـ زهير بن جرول ـ في ذلك حيث قال: لما أَسَرَنا رسول الله ﷺ يوم حنين، وبينما هو يميز النساء عن الرجال، وثبْتُ حتى قعدت بين يديه فأسمعته شعراً أُذَكِّره فيه إرضاعه في هوازن. . .

وكان من ذلك الشعر:

امنن علينا رسولَ الله في كرم ... فإنك المرء نرجوه وندخرُ
امنن على نسوة قد كنت تَرضعها ... إذ فوك يملؤُه من مخضها دِرَرُ
امنن على نسوة قد كنت ترضعها ... وإذ يزينك ما تأتي وما تذرُ

قال: فقال ﷺ: «**أما ما كان لي ولعبد المطلب فهو لله ولكم**». فقالت الأنصار: وما كان لنا فهو لله ورسوله، فأطلق لهم الذرية والنساء، وكانوا ستة آلاف ما بين امرأة وصبي.

قال أبو الحسين بن فارس: كان قيمة ما أطلقه لهم خمسمائة ألف ألف درهم. ثم قال: فهذه بركته ﷺ العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته ﷺ على من اتبعه في الآخرة؟!!.

ثم تتم حليمة حديثها عنه ﷺ فتقول: ثم قدمنا به على أمه، ونحن أحرص شيء على مُكثه فينا؛ لِما كنا نرى من بركته، فكلمنا أمه، وقلت لها: لو تركت بُنيَّ عندي حتى يغلظ؛ فإني أخشى عليه وباء مكة؟ فلم نزل بها حتى ردّته معنا فرجعنا به.

الفصل الثامن والعشرون
شق الصدر ونتائج هذا القسم من السيرة

شق صدره ﷺ: ثم تتابع حليمة حديثها قائلة: فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر مع أخيه لفي بَهْم لنا خلف بيوتنا، إذ أتانا أخوه ـ أي الذي من الرضاع ـ يشتد، فقال لي ولأبيه: ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعاه فشقا صدره فهما يَسُوطانه(١). قالت حليمة: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه، والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بني؟ قال: جاءني رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعاني وشقا بطني، فالتمسا فيه شيئاً لا أدري ما هو. فرجعنا إلى خبائنا وقال لي أبوه: يا حليمة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب فألحقيه بأهله قبل أن يظهر ذلك فيه. قالت حليمة: فاحتملناه فقدمنا به على أمه، فقالت أمه: ما أقدمك يا ظئر- مرضعه لغير ولدها -، وقد كنتِ حريصة عليه وعلى مُكثه عندك. قالت حليمة: نعم قد بلغ الله بابني، وقضيت الذي عليّ، وتخوَّفتُ الأحداث عليه، فأديته لك كما تحبين. قالت آمنة: ما هذا شأنك فاصدقيني خبرَك، فلم تدعْني حتى أخبرتها، قالت آمنة: أفتخوفتِ عليه الشيطان؟ قلت: نعم. قالت آمنة: كلا والله، ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لابني لشأناً أفلا أخبرك خبره؟ فقالت حليمة: بلى. قالت أمه آمنة: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاءت له قصور الشام. ثم قالت أمه لحليمة: دعيه وانطلقي راشدة.

قال السهيلي في الروضة الأنف: ولم تر حليمة رسول الله بعد ذلك إلا مرتين: إحداهما بعد زواجه بخديجة جاءته تشكو إليه أنّ قومها قد أسنتوا(٢)، فأعطتها خديجة عشرين رأساً من الغنم وبكرات. والثانية يوم حنين.

وقد ذكر النبي ﷺ رضاعه في بني سعد، وذلك حين سأله نفر من أصحابه. قالوا لـه: يا رسول الله: حدثنا عن نفسك، فقال: «**نعم. أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي أنه خرج منها نور أضاء لها قصور الشام**»

---

(١) أي خلطا لحمه بدمه، لأن السوط إذا سيط به إنسان أو دابة خُلط اللحم بالدم ومنه قول عليّ عن فاطمة: مسوط لحمها بدمي ولحمي أي ممزوج ومخلوط.

(٢) أي: أجدبوا.

وقد أوَّل السهيلي هذا النور فقال: وذلك ما فتح الله عليه من تلك البلاد حتى كانت الخلافة فيها مدة بني أمية، واستضاءت تلك البلاد وغيرها بنور هدايته ﷺ.

ثم قال السهيلي: وكذلك رأى سعيد بن العاص قبل بعثة النبي ﷺ بقليل نوراً يخرج من زمزم حتى ظهر له البُسر في نخيل يثرب، فقصها على أخيه عمرو بن العاص فقال عمرو: إن زمزم حفيرة عبد المطلب، وإن هذا النور منهم، فكان ذلك سبب إسراع عمرو بن العاص إلى الإسلام. ثم قال ﷺ: «**واستُرضعت في بني سعد بن بكر، فبينا أنا مع أخي خلف بيوتنا نرعى بهماً لنا، إذ أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بطست من ذهب مملوء ثلجاً، فأخذاني فشقّا بطني، واستخرجا قلبي، فشقَّاه واستخرجا منه علقة سوداء فطرحاها، ثم غسلا قلبي وبطني بذلك الثلج حتى أنقياه، ثم قال** ﷺ: **ثم قال أحدهما لصاحبه: زنه بعشرة من أمته، فوزنني فوزنتهم، ثم قال: زنه بمائة من أمته، فوزنني فوزنتهم. ثم قال: زنه بألف من أمته، فوزنني فوزنتهم. فقال: دعهُ عنك، فوالله لو وزنته بأمته لوزنها**». قال ابن كثير في هذا الحديث: وهذا إسناد جيد قوي.

قال صاحب كتاب محمد رسول الله: وأصح الروايات في قضية شق الصدر ما ورد في صحيح مسلم من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ أتاه جبريل ـ عليه السلام ـ وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، واستخرج منه علقة سوداء، فقال: هذا حظ الشيطان، ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم، ثم لأَمَهُ ثم أعاده إلى مكانه. وجاء الغلمان يسعون إلى أمه أي ظئره فقالوا: إن محمداً قد قتل، فاستقبلوه وهو منتقع اللون. قال أنس: وقد كنت أرى أثر ذلك المخيط في صدره ﷺ.

قال الصادق عرجون: وحادث شق الصدر حادث كوني، ومعجزة عجيبة وقعت لنبينا ﷺ، ولا يردها تشكيك مستشرق، ولا مُستغرب، ولا متعلِّم، ولا متعوقِل. ولم يتخذها ﷺ آية للتحدي والبرهنة على نبوته؛ لأن معجزته ﷺ الخالدة التي حملت بين طياتها التحدي هي القرآن الكريم.

قال العلماء: وهكذا كان استرضاعه ﷺ في بادية بني سعد، ولقد قال ﷺ مرة ـ معتزاً باسترضاعه وشرف نسبه ـ: «**أنا أعربكم، أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد بن بكر**».

نتائج هذا القسم من السيرة النبوية العطرة: نستخلص مما مر من إرضاعه ﷺ مـا يلي:

الأولى: أن مدة رضاعه ﷺ كانت حولين كاملين، وهي المدة التي أقرها الإسلام. قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ ﴾ (١)، وقوله ﴿حَوْلَيْنِ ﴾: أي سنتين، وقوله: ﴿كَامِلَيْنِ ۖ ﴾ قيّد بالكمال، لأن القائل قد يقول: أقمت عند فلان حولين، وهو يريد حولاً وبعض حول آخر. قال تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ . . ﴾، وإنما يتعجل في يوم وبعض يوم.

النتيجة الثانية: أن حليمة السعدية فازت بشرف عظيم بإرضاعه ﷺ، ولذلك فاض عليها الخير والبركة بحبها له ﷺ.

والثالثة: أن حب النبي ﷺ موجب للخير، دافع للشر، فهذا أبو لهب يعذب لشركه، ولكن يخفف عنه يوم الاثنين ويشرب من بين إصبعيه ماء لأنه سُرَّ وفرح بولادته ﷺ حين بشَّرته ثويبة، فأعتقها.

والنتيجة الرابعة: هي أننا نلمس إعداد الله تعالى عبدَه ورسوله محمداً ﷺ لتلقي الوحي عن الله بشق الصدر، ونزع مغمز الشيطان منه حتى لا يبقى له محل للوسوسة.

وفي هذا القسم من السيرة العطرة دلالة على جواز الاعتزاز بالخير الذي يعطيه الله تعالى عبدَه ويكرمُهُ به، لكن مع شكر المُنعِمِ سبحانه قلباً ولساناً ويداً.

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضميرَ المحجبا

كفلاؤه ﷺ وحاضنته: استلمت النبي ﷺ أمه آمنة بعد أن عادت به حليمة السعدية إليها، فتولت أمه كفالته في صباه وتحت رعاية جده عبد المطلب. ثم عزمت أمه على زيارة يثرب، وقررت أن تأخذه ﷺ معها، ومعهما حاضنته المباركة (بركة أم أيمن)، وكانت دوافع هذه الزيارة تنحصر في أمور ثلاثة:

- أن تزور مع ولدها قبر أبيه وفاء منها له.
- أن تعرِّف ولدها بقرابته من ذوي أرحامه وهم (بنو النجار أخواله) ﷺ، وكانوا بالمدينة،

(١) البقرة: ٢٣٣.

وهم أهل شرف ومكانة ومال.

▫ ولعَلَّ هناك سبباً آخر أشار إليه أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين حيث قال: ولعلها أرادت أن تخرجه من زحام مكة.

زارت هذه الصفوة (الثلاثة) قبر عبد الله والده، ولعله ﷺ رأى عبرات أمِّه وأدرك محبتها له، ورأى رمس أبيه، فطُبع المشهدُ في نفسه، ولعلَّه أول حُزن مسَّ قلبه الغض البريء. وأقام ﷺ مع أمه في (أطم)[1] بني عدي بن النجار. والظاهر ـ كما قال أهل السير ـ أن الإقامة لم تكن قصيرة، وقد رسمت هذه الإقامة في ذهن الغلام صوراً، وضّحها الخيال، فقد رويَ عنه ﷺ أنه قال بعد أن حمَلَ أعباء الرسالة، ومرَّ على المكان الذي نزل فيه مع أمه وهو صغير قال: كنت مع غلمان من أخوالي نطيّر طائراً يقع عليه ـ أي على أطم بني النجار ـ.

ثم قال ﷺ عن الدار التي نزل بها مع أمه: هاهنا نزلتْ بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله بن عبد المطلب. ثم قررتْ أمه العودة به إلى جده عبد المطلب كافِلِهِ، وفي طريق عودتها أدركها الموت بمكان اسمه (الأبواء)، ما بين مكة والمدينة، وهو إلى المدينة أقرب، وسُميَ بذلك لتبوء السيول فيه. عندها حضنت الحبيبَ محمداً ﷺ الغلام اليافع مولاةُ أبيه (أم أيمن بركة) باركها الله ورضي عنها، فوصلت به إلى جده عبد المطلب، فكفله فكان ثاني الكفلاء لرسول الله ﷺ، ومن هنا صار رسول الله ﷺ يتيم الأبوين.

قال العلماء: تولى الله عز وجل أمر نبيه محمداً من أول لحظة في وجوده، فنشأ نشأة جمع له فيها خصائص الفطرة الإنسانية في أعلى مراتبها، فلم يكن له أب يكفله، وللأبوة أثرها في الطفولة. ثم وُلد فتناولته حليمة السعدية، وارتحلت به إلى باديتها، وفقد صدر أمـه، وشتّان بين صدر الأم وصدر المرضعة، وشتان بين عاطفة الأم الوالدة، وعاطفة الأم المرضعة. وهذا لون آخر من اليُتم قضت به عادات العرب.

ولكن هذا اليُتم كان رحمة له وللإنسانية، لأن الله ادخره للإنسانية هادياً داعياً إلى الرحمة، فكان ﷺ نبي الرحمة، لأن الرحمة بالناس تنبع من الآلام الذاتية التي تعترض في أثناء الحياة، ولأن الرحمة لا تنبعث إلا ممن ذاق مرارة الضعف، وأي ضعف أشد من اليُتم، وإن القسوة في كثير من

---

(١) قصر بُني في أكمة عالية كأنه حصن، وكانت الآطام معروفة في المدينة.

الأحيان تكون من الذين ينشؤون في الحلية والترف، فاكهين في نعيم الحياة.

قال العلماء: لقد فقد النبي ﷺ أمَّه وهو في وعي يدرك الحياة حيث كان عمره ست سنوات في حينها، وفقد ﷺ أمه بعد أن ذاق حلاوة حنان الأم، فحُرم من شيء موجود شَعَرَ به، ولكن هذا الحرمان عوَّده الصبرَ وعُودُهُ ﷺ أخضر. ذاق حب الأم، وذاق لوعة فراقها، ولذلك زار قبرها بعد أن بلغ أشدّه، وصار رسولاً نبياً، وورد في الحديث أنه ﷺ زار قبر أمه بالأبواء، فبكى وأبكى.

قال السهيلي في الروض الأنف: وهذا حديث صحيح. وفي الصحيح أيضاً أنه ﷺ قال: «**استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنتُه أن أستغفر لها فلم يأذن لي، فزوروا القبور. .**».

وفي مسند البزار من حديث بريدة: أنه ﷺ حين أراد أن يستغفر لأمّه ضرب جبريلُ عليه السلام في صدره وقال: (لا تستغفرن لمن كان مشركاً). فرجع ﷺ وهو حزين.

قال أبو زهرة في كتابه: (خاتم النبيين): بعد وفاة أمهﷺ حلَّ محلها في حضانته جارية حبشية، جارية لم تعطه حنان الأم، ولكنها كلأته ورحمته، وإن ارتباط حياته ﷺ بأمة حبشية كان زاداً من الله تعالى. نعم، كان زاداً إنسانياً ليُشعره بأن الناس سواسية، ولذلك لا عجب إذا رأيت رسول الله ﷺ يكون بعد كبره ورسالته نصير الأرقاء، فهو ﷺ حين سمع بعض صحابته يُعيّر آخر بقوله: يا ابن السوداء، فإذا به ﷺ يقول: «**لقد طفح الكيل، لقد طفح الكيل. ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل إلا بالتقوى**»، فمحمد ابن البيضاء، حضنته بركة أم أيمن السوداء، فكان ابناً لهما معاً.

الفصل التاسع والعشرون
كفلاؤه ﷺ

محمد ﷺ في كفالة جده: استلمه بعد ذلك جده عبد المطلب، وهو ﷺ ابن ست سنين، وزوجُ عبدِ المطلب ذات رحم وقرابة من رسول الله ﷺ؛ لأنها ابنة عم آمنة، فعاملته كولدها، فنشأ في وسط مملوء عطفاً وصلاحاً، وكان جده يرى فيه أعلى صورة للغلمان، وهكذا اجتمع له في قلب جده عبد المطلب محبتان: إحداهما محبة أبيه الذي اهتصره الموت وعوده أخضر، والثانية محبة الغلام الطاهر في ذاته، فكان يُدنيه منه كثيراً، بل كان يبالغ في تقريبه إليه حتى يأنس به دائماً، ولذلك جاء في السيرة لابن إسحاق: قال: لما توفيت آمنة قبضه إليه جده، ورقَّ عليه رقة لم يَرِقَّها على ولده، وكان يدخل عليه إذا خلا، وإذا نام. وكان ﷺ يجلس على فراشه فيقول عبد المطلب: دعوا ولدي إنه يؤسس ملكاً.

كما كان عبد المطلب يحث أم أيمن ـ بركة حاضنته ﷺ ـ على أن تبلغ به الحد الأقصى من العناية فيقول لها: يا بركة، لا تغفلي عن ابني فإني وجدته في غلمان قريب من السدرة، وإنّ أهل الكتاب يزعمون أن ابني نبيَّ هذه الأمة.

وقال ابن إسحاق في سيرته: كان يوضع لعبد المطلب فراش في الكعبة، وكان بنوه يجلسون حول الفراش حتى يخرج عبد المطلب لا يجلس على الفراش أحد من بنيه إجلالاً له، فكان رسول الله ﷺ يأتي وهو غلام جفر(١) حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب إذا رأى منهم ذلك: دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً، ثم يُجلسه معه على فراشه، ويمسح ظهره بيده، ويُسَرُّ بما يراه يصنع.

وكان عبد المطلب من كمال حنّوه عليه ينسبه إليه مباشرة فيقول (ابني)، ولا يقول (ابن عبد الله)، وكان لا يأكل طعاماً إلا ويقول: عليّ بابني، فيؤتى به.

ثم يأتي الامتحان الثالث وهو وفاة الجد العطوف، وهكذا فقد ﷺ الأبوة القريبة أولاً، ثم الأبوة البعيدة، وقد أحسَّ ﷺ بمكانة جده عند فقده، وذلك عندما سمع المراثي في جده، وهو لا يزال حياً. فقد ورد عن محمد بن سعيد بن المسيب كما ذكر ابن إسحاق: أن عبد المطلب لما حضرته

---

(١) ممتلئ.

الوفاة، وعرف أنه ميت جمع بناته وكانوا ست نسوة: صفية، وبرة، وعاتكة، وأم حكيم (البيضاء)، وأميمة وأروى. فقال لهن: ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلن قبل أن أموت، فرثينه، فأُعجب برثائهن وروى ابن إسحاق أنه ـ عبد المطلب ـ بعد أن سمع الرثاء منهن، أشار برأسه وقد أصمت، والمعنى: أن هكذا فابكينني، ومن أسهل الشعر الذي رُثي به. . .

رثاء ابنته أروى إذ تقول:

بكت عيني وحُقَّ لها البكاء ... على سَمْح سجيته الحياءُ
على سهلِ الخليقة أبطحيٍ ... كريم الخِيْم نيَّتُهُ العلاءُ
على الفيّاض شيبة ذي المَعَالي ... أبيكِ[2] الخيرِ ليس له كِفاءُ
طويل الباع، أملسَ شيظمي ... أغرَّ كأنَّ غرته ضياءُ
وكان هو الفتى كرماً وجوداً ... وبأساً حين تنسكب الدّماءُ
إذا هاب الكماة الموتَ حتى ... كأن قلوب أكثرهم هواءُ
مضى قُدُماً بذى رُبَدِ خشيب[1] ... عليه حين تُبصره البهاءُ

وهذا الخبر يدل على أن عبد المطلب كان في وعيه عند الموت، ولم يصبْه خرفُ الشيخوخة، وكان سن النبي ﷺ عندها ثماني سنوات، ثم بعد وفاة الجد كفله عمه أبو طالب، وهو شقيق أبيه بوصية خاصة من جده، لأن أبا طالب ـ واسمه عبد مناف ـ كان أفضل أولاد عبد المطلب نبلاً، وبلاغة، وكرماً وشعراً، وحُسناً، واستسقى برسول الله فسُقي، ويقال له: السَّيد المُملِق، ويُنعت ذا الكفلين لكفالته النبي ﷺ، وكانت له عارضة[3] بمكة، وعند الملوك، ودُوِّن كلامه وشِعرهُ، وكان به عَرَج أصابه يوم الفِجار. وتوفيَّ أبو طالب بعد البعثة بعشر سنين، ودُفِنَ بمكة، وله خمس وسبعون سنة.

وكانت وصية عبد المطلب لأبي طالب وصية خاصة برسول الله ﷺ إذ يقول عبد المطلب:

أوصيك يا عبد منافٍ بعدي ... بمؤتمٍ بعد أبيه فردِ

---

(١) سيف صقيل.

(٢) أي: كثير.

(٣) رأي.

كان أبو طالب ثالث الكفلاء لرسول الله ﷺ في صباه، وما زال في كفالة عمه حتى بلغ سنَّ الرشد، ولازمه أبو طالب بعد ذلك فلم يتركه، ولم يُسلِمهُ لقريب ولا لبعيد حتى قبضه الله تعالى في السنة الحادية عشرة من البعثة النبوية العظيمة. قام أبو طالب بحق الوصية، فكان يرعى النبي ﷺ حق الرعاية، فكان يصاحب النبي ﷺ في غدوه ورواحه، وأحبّه أكثر من أولاده، فكان لا ينام إلا في جواره، ولاحظ عمّه منه يُمناً كالذي لاحظته حليمة فقد كان عيال أبي طالب إذا أكلوا لم يشبعوا ـ لضيق مادي ـ وإذا أكل معهم محمد ﷺ الميمون شبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغذيهم قال: انتظروا حتى يأتي ولدي، فإذا جاء أكلوا معه، فكان الطعام يفضُل منهم، وإذا لم يكن معهم لم يشبعوا، فيقول أبو طالب لمحمد ﷺ: إنكَ لَبارٌّ.

هذا ما ذكره صاحب البداية والنهاية. وقد ورد عن الحسن بن عرفة أن ابن عباس قال: كان أبو طالب يقرب إلى الصبيان صفحتهم فينتهبون ولا ينتهب رسول الله ﷺ، فكان عمه يعزل له طعامه أحياناً، ولا تناقض بين الموقفين، لأن هذا الموقف ـ العزل ـ يدل على أنه ﷺ كان عفيف النفس، لا يزاحم على الطعام، والأول يدل على أن البركة تكون بمجرد أن يكون معهم، وقد تزداد البركة بهذا التخصيص الذي كان يخصه به عمه أبو طالب. ومات أبو طالب على غير ملة الإسلام، ولا راد لقضاء الله عز وجل.

هنا وقفة نقفها عند هذه الفقرة من السيرة، من شق الصدر عند حليمة، إلى وفاة أمه، وكفالة جده له، إلى احتضان بركة الحبشية، إلى كفالة عمه نأخذ منها عبراً ونتائج: ففي حادثة شق الصدر نستطيع أن نستنتج:

أن بشراً ممتازاً كمحمد ﷺ ـ كما قال الغزالي ـ لا تتركه العناية الإلهية غَرَضاً للوساوس التي تُصيب غيره، فإذا كان للشر موجات تملأ الآفاق، وكانت هناك قلوب تُسرع إلى هذه الموجات من الشر لالتقاطها، والتأثر بها، فإن قلوب النبيين ـ بحفظ الله لها ـ لا تستقبل هذه التيارات الخبيئة، وبهذا الحفظ يكون جهدُ المرسلين مُنصباً في متابعة الترقي لا في مقاومة التدني، ويكون جهدهم منصباً كذلك في تطهير العامة من المنكر، لا في التَّطهر منه، ولهذا فقد عافاهم الله من لوثات الشر.

كما يظهر لنا بيان يُتم النبي ﷺ وإظهار عناية الله به من مبدأ نشأته ﷺ ولطفه به في الشدائد باطراد، وهذه العناية لا تكون صُدفة، وإنما هي بتدبير رباني، ولذلك قال تعالى في سورة الضحى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَىٰ ﴿٦﴾ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ ﴿٧﴾ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴿٨﴾﴾ (١). واحذر يا عبد الله أن يخطر ببالك أن النبي ﷺ كان ضالاً بمعنى الضلال الذي هو ضد الرُّشد قبل الوحي إليه. أبداً، فالرسول ﷺ فُطر على الدين الحنيف.

قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (٢)، فهذا يدل على أنه على الفطرة، ومعلوم لدينا أن أبويه لم يهوداه، ولم يُنصّراه، ولم يُمجّساه، فبقي على الفطرة حتى بعثه الله تعالى، ثم تعبُّدُه قبل الوحي في غار حراء دليلٌ على بقائه على الفطرة، فما معنى الضلال هنا؟ والجواب: إن معنى الضلال هنا هو الغفلة: أي كنت يا محمد غافلاً عن العلوم التي علمناكها بعد أن أوحينا إليك، وهذه العلوم لا تُعلم بالعقل ولا بالفطرة، وإنما تُعلم بالوحي. وقد جاء الضلال بمعنى الغفلة في قوله تعالى: ﴿وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ﴾ (٣)، أن تضل: أي لا تضبط ما وقع في التعامل المالي وتغفل عن شيء مما ذكر. . ومنه قوله تعالى: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (٤) والعرب تعرف هذا المعنى. .

وعلى هذا يُحمل قول الشاعر:

وتظن سلمى أنني أبغي بها   بدلاً أراها في الضلال تهيم

فالله عز وجل في خطابه للمصطفى: ﴿أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا. .﴾ يقول له: إنك ـ يا محمد ـ كنت على تربية كاملة مع يتمك، لأن شأن الأيتام أن ينشؤوا على نقائص لأنهم لا يجدون من يعتني بهم وبتهذيبهم، ولذلك ورد في الحديث: «**أدبني ربي فأحسن تأديبي**».

قال صاحب التحرير والتنوير: فكان تكويْن نفسه الزكية على الكمال خيراً من تربية

---

(١) الضحى: ٦ـ٨.

(٢) الروم: ٣٠.

(٣) البقرة: ٢٨٢.

(٤) طه: ٥٢.

الأبوين. وفي هذه الفقرة من السيرة بيانُ مَن شرَّفه الله تعالى بكفالة نبّيه أيام طفولته، وبيان شرف بركة أم أيمن مولاة رسول الله وحاضنته.

وفي هذا القسم من السيرة بيان أن فعل الخير لا يضيع ولا يعدَمُ فاعله جوازيه، فإن أبا طالب قد أخبر عنه النبي ﷺ أنه في النار لموته على غير الإسلام، وأخبر أن يُخفَّفُ عنه العذاب لما قدّم لرسول الله ﷺ من عون وحماية طيلة حياته معه في مكة. .

ولذلك قال الشاعر:

من يفعل الخير لا يَعدم جوازيه[١]   لا يذهبُ العرفُ بين الله والناس

---

(١) الجوازي جمع جازٍ أي لا يُعدم جزاء عليه.

الفصل الثلاثون
مظاهر كمالاته ﷺ قبل النبوة

والآن ننتقل إلى فقرة جديدة وهي:

مظاهر كمالاته ﷺ قبل النبوة: قال العلماء: إن الفترة التي قضاها النبي ﷺ من أيام طفولته إلى أيام مبعثه مليئة بمظاهر الكمالات المحمدية، وكلها دلائل على نبوته ﷺ، وأنه مهيئ لأمر عظيم، وإليك طرفاً من هذه الكمالات، ذكرها كُتَّاب سيرته ﷺ. . .

فمن ذلك:

١ـ الاستسقاء به وهو طفل قبل البلوغ: فقد روى ابن عساكر عن جُلهمة بن عُرفطة قال: قدمت مكة وهم في قحط، فقالت قريش يا أبا طالب: أقحط الوادي، وأجدب العيال، فهلم فاستسق. قال فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنٍ تجلَّت عنه سحابة قتماء، حوله أغيلمة، فأخذه أبو طالب وألصق ظهره بالكعبة ولاذ باصبعه الغلام وما في السماء قُزعة، فأقبل السحاب من ههنا وههنا وأغدق وانفجر الوادي، وأخصب النادي والبادي. .

وفي هذا يقول أبو طالب:

وأبيض يُستسقى الغمام بوجهه ... ثِمالَ[١] اليتامى عِصمةٌ للأرامل[٢]

قال العلماء: هذه إحدى الكرامات الإلهية للنبي ﷺ قبل مبعثه، وهي مظهر من مظاهر الكمال، إذ ألهم الله عز وجل أبا طالب أن يستسقي به ﷺ وهو طفل فيأخذه ويأتي به إلى الكعبة، ويلصق ظهره بها ويرفع الغلام بين يديه ولسان حاله يقول: اسقنا ربنا فقد توسلنا إليك بهذا الغلام المبارك، أي بحبهم وتعظيمهم له، فيسقيهم الله تعالى، فكان هذا من تباشير نبوته ﷺ.

ونستنتج من دراسة هذا المظهر الكمالي: أنه يؤكد نبوته ﷺ، ويقررها ليكون لذلك ثمرة هي: حب النبي ﷺ، والتعلق به، حتى يكون أحب إلى المؤمن من نفسه، وحتى يصبح المحب لرسول الله ﷺ مستعد استعداداً ذاتياً نفسياً لطاعته ﷺ، ومتابعته فيما جاء به عقيدة وعبادة،

---

(١) ثمال: الملجأ والغياث، والمُطعم في الشدة.

(٢) الأرامل: المساكين من الجنسين.

وخلقاً وأدباً. وهذه المتابعة سبيل النجاة في الدارين، وتلك غاية الطالبين الصالحين.

٢ ـ **الأمر الثاني من كمالاته ﷺ: أنه لم تُكشف له عورة قط.** فقد روى أصحاب السِّير أن قريشاً لما أرادت بناء الكعبة أخذ رجال قريش ينقلون الحجارة، وكانوا يرفعون أُزُرَهم على عواتقهم يتقون بها ضرر الحجارة، وكان ﷺ يضع الحجارة على عاتقه وليس عليه شيء، فرآه عمه العباس على ذلك فقال له: لو رفعت إزارك على عاتقك حتى لا تضرك الحجارة، ففعل ﷺ فوقع على وجهه فوق الأرض ونودي: استر عورتك ـ أي ناداه الملك ـ فما رُئيت له عورة بعد ذلك أبداً. وفي البخاري من حديث جابر بن عبد الله قال: لما بُنيت الكعبة ذهب النبي ﷺ وعبّاسٌ ينقلان الحجارة، فقال عباس للنبي ﷺ اجعل إزارك على رقبتك يقِكَ من الحجارة، فلما فعل ﷺ خرَّ إلى الأرض، وطمحت عيناه إلى السماء، ثم أفاق فقال: إزاري إزاري، فشَدَّ عليه إزاره. قال في الفتح: وقد وردت روايات بنحوها وفيها: فما رئي بعد ذلك عُريانا.

وروى الحاكم عن أبي الطفيل قال: لما بُني البيت، كان الناس ينقلون الحجارة والنبي ﷺ ينقل معهم، فأخذ الثوب ووضعه على عاتقه، فنودي: لا تكشف عورتك، فألقى الحجرَ ولبس ثوبه. على ماذا يدل ذلك؟ يدلنا ـ كما قال العلماء ـ على عناية الله تعالى بنبيه وحفظه له من كل ما يُسيء إلى مقامه الرفيع، ويدلنا على أن كشف العورات مما جاء الإسلام بتحريمه ومنعه إلا من ضرورة كتطبيب وغيره، ويدلنا على أن النبي ﷺ كان يشارك قومه فيما هو خير ومعروف، وهو مظهر من مظاهر كماله ﷺ ذاتاً وروحاً وخلقاً. فما أحوجنا إلى التأسي به ﷺ.

٣ ـ **المظهر الثالث من مظاهر كمالاته ﷺ: بغضه ﷺ لكل أنواع الباطل** التي كان يأتيها فتيان قريش ورجالاتها من الأوثان والخمور والغناء والقمار. فقد لاحظ أعمامه وعمّاته ـ كما ذكر عرجون ـ بُعدَه ﷺ وانطواءه عن أعيادهم ومواسمهم وعقائدهم وطقوسهم، ورأوا فيه بُغضاً لآلهتهم، فهو ﷺ لا يطوف، ولا يتمسح، ولا يتبرَّك، فحدّثوه في ذلك. . حتى شوهد الغضب في وجوه أعمامه وعمّاته.

روى ابن سعد عن عكرمة عن ابن عباس قال: حدثتني أم أيمن قالت: كانت بوّانة صنماً تحضره قريش، تعظّمه، تَنسِك له النسائك، ويحلقون رؤوسهم عنده يوماً إلى الليل في السنة، فكان أبو طالب يحضر هذا اليوم مع قومه، وكان يطلب من رسول الله ﷺ أن يحضر فيأبى، فغضبت عماته وقلن له: إنا نخاف عليك مما تصنع من كرهك لآلهتنا. قالت أم أيمن: فلم يزالوا

به حتى ذهب فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوباً فزعاً، فقالت له عمّاته: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لَمٌّ، فقلن: ما كان الله ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟

قال ﷺ: «**رأيت أني كلما دنوت من صنم تمثل لي رجل أبيض طويل يصيح بي: وراء يا محمد، لا تمسه**». قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ ﷺ. وقد أخبر ﷺ عن نفسه فقال: «**لما نشأت بُغِّضت إليَّ الأوثان، وبُغِّضَ إليَّ الشِّعر، ولم أهتم بشيء مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين، كل ذلك يحول الله تعالى بيني وبين ما أريد من ذلك، ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمني الله برسالته. قلت ليلة لغلام كان يرعى الغنم معي: لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة فأسمر كما يسمر الفتيان. قال: نعم. فخرجت حتى جئت أول دار من مكة، سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير، فقلت: ما هذا؟ قالوا: تزوج فلان فلانة. فجلست أنظر، فضرب الله على أذني فنمت، فما أيقظني إلا حر الشمس، ولم أقض شيئاً، ثم عراني مثل ذلك مرة أخرى، فرجعت إلى صاحبي فقال: ما فعلت؟ فقلت: ما فعلت شيئاً**»(١).

ثم قال ﷺ بعد هذا الحديث: «**فوالله ما هممت بعدها أبداً بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله تعالى بنبوته**». وهذا الكمال يدل في هذه الفقرة على مظهر من مظاهر حفظ الله لرسوله ﷺ من كل ما يتنافى مع سيرته المَرْضِيَّة، فالمرشحون لجلائل الأعمال لا تتوجه همتهم إلى هذه الأمور. كما أن في هذه الفقرة بياناً، في أنه ﷺ رعى الغنم في البادية، وهي سُنّة الأنبياء من قبله، فقد قال ﷺ كما في البخاري من حديث أبي هريرة: «**ما من نبي إلا ورعى الغنم**»، فقالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**ولا أنا، فقد كنت أرعاها على قراريط لأهل مكة**».

قال أبو بكر الجزائري وغيره في كتب السيرة: والحكمة في إلهام الأنبياء لرعاية الغنم قبل النبوة، هي الإعداد لسياسة البشر بالرفق والرحمة واللين، لأنهم إذا صبروا على رعيها، وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسرح إلى مسرح، ودفع السباع عنها، وحمايتها من اللصوص، فقد تعلموا من ذلك الصبر على الأمة، وعرفوا تفاوت عقولها، واختلاف طبائعها، فرفقوا بضعفائها، وأحسنوا التعاهد لها. قال في الفتح: وخُصّت الغنم لكونها أضعف من غيرها، ولأن

---

(١) أخرجه الحاكم، وصححه ووافقه الذهبي.

تفرّقها أكثر من تفرُّق البقر والإبل.

٤ ـ **المظهر الرابع من كمالاته ﷺ: تحكيم قريش له ﷺ** في أعظم خلاف بينها كاد يؤدي إلى القتال والحرب، وكان عمره ﷺ خمساً وثلاثين سنة، وقصة ذلك أن السيل كان قد طغى على الكعبة، فغمرها الماء، وزُلزل بناؤها، وكاد يَهدُّ أركانها، وتشاورت قريش طويلاً في إعادة بنائها بعد إصابتها، ولكنهم كانوا يتهيبون مسَّ الكعبة بشيء، لا سيما هدمها مخافة أن تنالهم عقوبة من الله رب الكعبة، وحاميها من كل كيد، كما أرادوا أن يسقفوها، وبعد أخذ ورَدٍّ أقدمت قريش على هدمها وتجديد بنائها بعد أن أعدّت العدة لذلك، وأعدَّت النفقة من المال الحلال تعظيماً لأمر الكعبة.

فقد ورد في الأخبار أن أبا وهب بن عمرو قال: يا معشر قريش: لا تُدخلوا في بنائها إلا طيِّباً من كسبكم، لا يَدخل فيها مهر بغيّ، ولا بيعُ ربا، ولا مظلمة أحد من الناس. وفي لفظ آخر: ولا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً، ولا قطعتم فيه رحماً، ولا أنهكتم فيه ذمَة أحدٍ بينكم وبين أحد من الناس. وأبو وهب بن عمرو هذا، هو خال أبي رسول الله ﷺ، رجل كريم عريق مدحه الشعراء. .

ومن ذلك قول شاعر عربي فيه:

ولو بأبي وهب أنختُ مطيتي ... غدت مِن نداه رحلُها غيرُ خائب
أبيٌّ لأخذ الضيم يرتاح للندى ... توَسَّط جدّاه فروعَ الأطايب
عظيمِ رمادِ القِدرِ يملا جفانَه ... من الخبز يعلوهنَّ مثلُ السباسب
بأبيضَ من فرعي لؤيٍّ بن غالب ... إذا حُصِّلت أنسابها في الذوائب

قال المؤرخون: وفعلاً بدأت قريش في الهد والبناء للكعبة، ووزّعت أركانها على القبائل، ولما ارتفعت جدران الكعبة، وبلغ موضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يتشرف بوضعه بمكانه من الركن اليماني الشرقي، وتنافسوا حتى كادوا يقتتلون، وأخيراً ألهمهم الله تعالى إلى تحكيم أولِ داخل من باب الصفا، وما زالوا كذلك حتى أقبل محمد ﷺ، فلما أن رأوه مقبلاً حتى قالوا: هذا الأمين. رضينا به حَكَماً، ورضي هو ﷺ بتحكيمهم له، فأمرهم أن يبسطوا ثوباً، فوضعه فيه، ثم أمر ممثلي القبائل أن يأخذ كل واحد منهم بطرف من أطراف الثوب، ثم رفعوه، ولما حاذوا به

مكانه من الجدار رفعه ﷺ بيده الكريمتين، فوضعه مكانه، وبذلك حقنت دماء قريش، وعادت الإلفة والمودة بينهم.

قال المؤرخون: فكان هذا التدبير أكبر مظهر من مظاهر الكمال المحمدي قبل بعثته ﷺ، ثم إن وصف قريش له ﷺ بأنه الأمين تقرير لهذا الكمال المحمدي، فهو ﷺ لم يُعرف عندهم بخيانة في عِرض أو مال أو قول أو عمل، ثم إن في تحكيمهم له ﷺ إظهاراً لشرفه على كافة رجالات قريش، وبهذا قامت الحجة على من أنكر نبوته واتهمه بعد ذلك مع علمهم أنه أكملهم على الإطلاق. ثم في تحكيمهم له ﷺ دليل على حسن سياسته فيما قضاه، وهذا إكرام من الله تعالى لرسوله ﷺ بهذه القدرة الهائلة على حل المشكلات بأسهل الطرق.

وهكذا كان في حياته كلِّها، وهذا مَعْلَمٌ من معالم رسالته، فرسالته ﷺ إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحلٌّ للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله.

قال ابن إسحاق: لما أرادوا هدم الكعبة هابوا ذلك وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة المخزومي: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول وهو يقول: اللهم لم تُرع، اللهم لا نريد إلا الخير. ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة وقالوا: ننظر فإن أصيب الوليد لم نهدم منها شيئاً، ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله عنه فشاركناه. فلما أصبح أسرع الوليد إلى عمله، وأسرع معه الناس، حتى إذا انتهى بهم الهدم إلى الأساس، أساس إبراهيم، انتهوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها ببعض، وحاول رجل من قريش ممن كان يشارك في الهدم إدخال عتلة بين الحجرين ليقلع أحدهما، فتنقّضت مكة بأسرها، فانتهوا عن مسِّ ذلك الأساس.

ولّما كانت النفقة من المال الحلال الطيب، لم تكفِ أخرجوا من الجهة الشمالية نحواً من ست أذرع، وهي التي تسمى بالحطيم أو الحِجْر، ورفعوا بابها، وسقفوها على ستة أعمدة.

قال ابن إسحاق: فلما بلغ البنيان الركن ـ الحجر الأسود ـ، اختصموا فيه، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تجادلوا واختصموا فيه، ثم تحالفوا وأعدوا للقتال، فقَرَّب بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً، ثم تعاقدوا مع بني عدي بن كعب بن لؤي على الموت، فأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسُمُّوا: لَعَقَةَ الدم. ومكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً، ثم اجتمعوا في المسجد، وتناصفوا وتشاوروا، فاقترح عليهم أبو أمية بن المغيرة

المخزومي أن يحكموا أول داخل من باب المسجد، فكان محمد ﷺ هو ذاك عندها قام ﷺ بتدبير الأمر كما مرّ معنا، ثم وضع الحجر بيديه الشريفتين، وبنى عليه ﷺ.

وفي ذلك يقول شاعر قريش هبيرة بن وهب المخزومي:

تشاجرت الأحياء في فصل خُطَّةٍ ... جرت بينهم بالنحسِ من بعد أَسعُد
فلما رأينا الأمر قد جدّ جِدُّهُ ... ولم يبقَ شيء غير سلِّ المُهنَّدِ
رضينا وقلنا العدلُ أول طالعٍ ... يجيء من البطحاء من غير موعدِ
ففاجأنا هذا الأمينُ محمد ... فقلنا رضينا بالأمين محمدِ
بخير قريش كلِّها أمسِ شيمةً ... وفي اليوم مع ما يُحدث الله في غدِ
فجاء بأمر لم يرَ الناسُ مثلهُ ... أعمَّ وأرضى في العواقب والبَدِ
أخذنا بأطراف الرداء وكلُّنا ... له حصّة من رفعه قبضة اليدِ
فقال ارفعوا حتى إذا ما علت به ... أكفَّهُمُ وافى به غير مُسندِ
وكل رضينا فعله وصنيعهُ ... فأعظم به من رأي هادٍ ومهتدي
وتلك يدٌ منه علينا عظيمة ... يروح لها هذا الزمان ويغتدي

قال المؤرخون: كان ارتفاع الكعبة تسع أذرع من عهد إسماعيل، ولم يكن لها سقف، فلما بنتها قريش قبل مبعث النبي ﷺ زادوا فيها تسع أذرع، فكانت ثمانية عشر ذراعاً، ورفعوا بابها عن الأرض، فكان لا يُصعد عليها إلا بسلم أو درج، ثم لما بناها ابن الزبير، زاد فيها تسع أذرع، فكانت سبعاً وعشرين ذراعاً، وعلى ذلك هي الآن كما قال صاحب الروض الأنف.

وكانت الكعبة تُكسى القباطي، وهي ثياب بيض تُصنع قي مصر، ثم كُسيت الكعبة بالبرود، وهي نوع من ثياب اليمن، وأول من كساها الديباج، هو الحجاج بن يوسف الثقفي، وأول من عمل لها غَلَقاً هو تُبَّع من التبابعة، وهم ملوك اليمن.

وهكذا كان ﷺ أميناً كارهاً للأوثان، وباطلِ الجاهلية، ورأينا حفظ الله له من اللهو والسّحر، وسماع المعازف، وحاول ﷺ ذلك مرتين فألقى الله عليه النوم.

الفصل الواحد والثلاثون
تتمة مظاهر كمالاته ﷺ قبل النبوة

رؤية الراهب بحيرا له واعترافه بكمالاته ﷺ.

قال المؤرخون: لما بلغ ﷺ الثانية عشرة من عمره، كان عمه أبو طالب ـ وهو كافله ـ يتهيأ للرحيل في تجارة إلى الشام، فلما خرج أبو طالب تعلّق به ﷺ فرقَّ له أبو طالب واصطحبه معه وقال: والله لأخرجن به معي ولا أفارقه ولا يفارقني أبداً. وكان عمّه يستصغر سنَّه في مثل هذه الرحلة الشاقة التي هي فوق طاقته، فلما رأى رغبة المبارك في ذلك المسير معه أخذه. وانطلق أبو طالب ومن معه إلى الشام مجتازين ديار ثمود، وبلاد مَدين، ثم وصلوا إلى مدينة بصرى من بلاد الشام. قال صاحب الروض المعطار: هي مدينة حوران، وقال في معجم البلدان: هي قصبة كورة حوران مشهورةٌ عند العرب قديماً وحديثاً. وكانوا يذكرونها في أشعارهم. .

ومن ذلك قولهم:

أيا رُفقةً من آل بصرى تحمَّلوا ... رسالتَنا لُقّيتِ من رفقةٍ رُشدا
إذا ما وصلتم سالمين فبلِّغوا ... تحيةَ من قد ظنَّ أن لا يرى نجدا
وقولوا لهم ليس الضلالُ أجازنا ... ولكننا جُزنا لنلقاكم عمدا
وإنا تركنا الحارثي مكبَّلاً ... بكبلِ الهوى من ذكركم مُضمراً وجدا

وقال صاحب الروض المعطار: وفي شرقي بصرى بحيرة تجتمع فيها المياه، وتسير منها إلى دمشق في صحراء ورمال مسافة خمسة عشر فرسخاً، فتدخل دمشق.

قال أصحاب السير: وصل الركب إلى مدينة بصرى فنزلوا منزلاً قريباً من صومعة راهب كان على علم بالنصرانية والكتب الأولى، وكان رأساً في المنطقة لعلمه وفضله.

بل كانت هذه الصومعة كما قال أبو زهرة: كان نزلاء هذه الصومعة ذوي علم بالتوراة والإنجيل، يتوارثون ذلك العلم كابراً عن كابر، وكان من طبيعة الرهبان ألا يخرجوا للقاء القوافل، ولا استضافة من فيها، لأن الرهبنة تتطلب منهم العزلة، وهم لا يخرجون عن سُنَّتها، وقوافل العرب تعرف ذلك، وقد تعودته.

قال الجزائري في سيرته: ويشاء الله أن يُطلَّ الراهب بحيرا من على صومعته، فيرى قافلة لقريش وهي تتقدم على مقربة منه، ولفت نظره فيها غلام تظلله غمامة من الشمس، ولما وقفت القافلة للنزول، ونزلت رأى الغمامة تقف فوق الغلام، لا تتعداه، تحفظه من حرّ الشمس، فعلم أن لهذا الغلام شأناً، وأراد أن يعرفه. . من هو؟ ومن يكون؟ ولكن، كيف السبيل إلى الاتصال بالغلام والتعرف عليه ليعرف شأنه؟ وخطرت للراهب فكرة، أرسل إلى القافلة، ودعاهم إلى طعام عشاء، وأقام وليمة تحت اسم ضيافة، وأرسل إليهم يدعوهم، وقال في رسالته لهم: إني صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، فأنا أحب أن تحضروه كلكم، كبيركم وصغيركم، وعبيدكم، وحرمكم. . قال المؤرخون: وقبلت القافلة الدعوة بعد تردد واستفسار عن مثل هذه الضيافة التي لم تكن من قبلُ لقوافلهم قطُّ، مما دفع أحد رجالات قريش في القافلة أن يقول لبحيرى: والله إن لك يا بحيرى لشأناً اليوم، ما كنت تصنع هذا بنا، وقد كنا نمر بك كثيراً، فما شأنك اليوم؟ قال بحيرى: صدقت، ولكنكم ضيف وأحببت أن أكرمكم.

قال أصحاب السير: ولما حضر الطعام، وتقدم الأكلة لم ير بحيرى الغلام الذي رأى الغمامة تظلله فتعجب، وقال للقوم: هل تخلّف من قافلتكم أحد؟ فقالوا: لا. قال: بلى. أين الغلام الذي كان معكم. . فجاؤوا به، وقد تخلّف لصغره وحيائه.

فقال رجل من قريش كان في القافلة: واللات والعزى إن كان للؤم منا أن يتخلف محمد بن عبد الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا ، ثم قام اليه فاحتضنه وأجلسه مع القوم، فلما جاء محمد ﷺ وجلس أخذ الراهب بحيرى يلحظه ويتأمله تأملاً شديداً. ولما فرغ القوم من طعامهم، وتفرقوا قام الراهب بحيرى إلى محمد ﷺ وقال له: يا غلام. أسألك بحق اللات والعزى إلا أخبرتني عما أسألك عنه.

قال المؤرخون: وإنما حلف الراهب بحيرى باللات والعزى جرياً على حلف العرب بهما، ولأنه سمع من العرب هذا الحلف، فقال له ﷺ وهو غلام: لا تسألني باللات والعزى، فوالله ما أُبغض شيئاً بغضهما. فقال بحيرى: أسألك بالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه. فقال ﷺ: سل عما بدا لك.

فجعل بحيرى يسأله عن أشياء في نومه، وهيأته وأموره، والنبي ﷺ يجيبه، فيوافق ذلك ما عند بحيرى من نعوت الرسول ﷺ وصفاته التي عرفها من الكتب السابقة، ثم نظر إلى ظهره

فرأى خاتم النبوة بين كتفيه، وكان مثل أثر المِحجَم (المحجمة)، ثم التفت الراهب إلى عمه أبي طالب فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال أبو طالب: ابني!! قال الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً. . !! فقال أبو طالب: فإنه ابن أخي، قال الراهب: فما فعل أبوه؟ قال أبو طالب: مات وأمه حامل به، قال الراهب: صدقت. ارجع بابن أخيك إلى بلده، واحذر من اليهود فوالله لئن رأوه، وعرفوا منه ما عرفت لَيَبْغُنَّهُ، فإنه كائن لابن أخيك شأن عظيم نجده في كتبنا، وما رُوينا عن آبائنا، واعلم أني قد أديت لك النصيحة.

قال المؤرخون: فقضى أبو طالب حاجته من تجارته بسرعة، وعاد بابن أخيه مسرعاً إلى مكة. وفي كتاب الطبقات لابن سعد: رُويت هذه القصة نفسُها مع اختلاف يسير عما رواه غيره. قال ابن سعد: فلما أراد عمه السير إلى الشام قال له ﷺ: أي عم إلى من تُخلفني ههنا؟ فمالي أم تكفلني، ولا أجد من يؤويني.

قال: فرقَّ له عمه فأخذه خلفه، فلما نزلوا بالراهب سأله الراهب: ما هذا الغلام منك؟ قال: ابني. قال الراهب: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حي، قال عمه: ولم ذاك؟ قال الراهب: لأن وجهه وجه نبي. قال أبو طالب: وما النبي؟ قال الراهب: الذي يوحى إليه من السماء فينبِئُ به أهل الأرض!! فقال أبو طالب: سبحان الله، الله أجل مما تقول، ثم التفت إلى ابن أخيه محمد ﷺ وقال له: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقولون؟ قال ﷺ: «**أي عم لا تنكر لله قدرة**» قال العلماء: هذا المظهر من كماله ﷺ له نتائج:

- تقرير نبوته ﷺ بشهادة بَحيرى.
- تظليل الغمامة له ﷺ.
- مدى حبِّ عمه له ﷺ.
- عصمته من الشرك قبل البعثة لمبغضه الحلف باللات والعزى.
- حرمة الحلف بغير الله. لقوله ﷺ: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**[١]».

٥ ـ **ومن كمالاته ﷺ قبل البعثة حضوره حلف الفضول**. قال المؤرخون: كان هذا الحلف بعد حرب الفِجار، وكانت هذه الحرب عدة حروب، وتسمى بأيام، فكانت أربع معارك. أول

(١) متفق عليه.

معركة كانت بين كنانة وهوازن، وكان الذي هاج هذه المعركة حدثٌ[١] من كنانة يدعى (بدر بن مَعشر)، وكان حدثاً منيعاً في نفسه، وكان له مجلس في سوق عكاظ، قام في مجلسه مرة. .

وقام على رأسه قائم وأنشأ يقول:

نحـــنُ بنـــي مُدركـــة بـــن خِنـــدف　　　مـــن يطعنـــوا في عينـــه لم يَطـــرفِ

ومـــن يكونـــوا قومَـــهُ يغطـــرفِ　　　كـــأنّهم لُجُـــةُ بحـــرِ مُـــسدِفِ

ومدَّ رجله، وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها، فقام إليه (الأحيمر بن مازن) فأندرها من الركبة، وقال: خذها إليك أيها المخندف.

وسُميت حربَ الفِجار لأنها كانت في الأشهر الحُرُم، فانتهكوا حرمتها، ثم كان اليوم الثاني والثالث، وفيها حصل مثل هذه العادات الجاهلية، ثم كان يوم الفجار الآخِر، وهذه الوقعة حضرها النبي ﷺ، وكانت بين قريش ومعها كنانة من جانب، وبين هوازن من جهة أخرى، وكان عمره ﷺ أربع عشرة سنة حين حضر الوقعة مع أعمامه، وقال ﷺ في ذلك: «**كنت أُنبِّل على أعمامي يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة**»، وكانت هذه الوقعة من أشد الحروب يومها، ثم توقف القتال على أن يبدأ في العام المقبل، وفي الـوقت المحدد للقتال، ركب عتبة بن ربيعة ونادى: يا معشر مضر علام تقتتلون؟ فقالت هوازن: إلام تدعو؟ قال: إلى الصلح، فاصطلحوا وانقضت حرب الفجار بصلحٍ كريم.

قال ابن هشام في سيرته: كانت سِنُّه الخامسة عشرة أو الرابعة عشرة، فأخذَ النبيَّ أعمامُهُ معهم في ذلك اليوم.

قال الشيخ أبو زهرة: ولم يُقدِم ﷺ على القتال فيها لأنها ليست حرباً عادلة، وفطرته ﷺ السليمة ما كانت لتسمح له أن يقاتل في حربٍ فاجرة انتهكت فيها الحرمات من الجانبين، فكلاهما آثم، فكيف يشترك الطاهر المطهر الذي ربّاه الله تعالى علي عينه في حرب خالطها الإثم، في سببها، وفي زمانها، وفي وقائعها.

ولذلك بيّن ﷺ دوره في هذه الحرب التي أخرجه أعمامه فيها فقال ﷺ: «**كنتُ أُنبِّلُ على**

---

(١) شاب.

أعمامي» أي أردُّ عنهم نبلَ عدوّهم إذا رموهم بها، فقد كان ﷺ درعاً واقياً لأعمامه وهم ذوو رحِمِه الذين رَعْوه حقَّ الرعاية.

٦ ـ **الدعوة لحلف الفضول**: قال المؤرخون: بعد هذه الحرب الفاجرة الخاسرة دعت قريش إلى حلف الفضول، وسبب الدعوة لهذا الحلف، هو أن رجلاً من (زَبيد) جاء مكة ببضاعة، فاشتراها منه (العاص بن وائل)، ولم يدفع للبائع اليمني الثمن، فاستعدى عليه بني عبد الدار، وبني مخزوم، وبني جُمح، وبني سهم، فأبوا أن يعينوه على العاص، وانتهروا الرجل الزبيدي، فلما لم ينصفوه صعد على جبل أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديتهم حول الكعبة. . فنادى بأعلى صوته:

يا آل فهرٍ لمظلوم بضاعتَه ... ببطن مكة نائي الدار والنفرِ
ومُحرمٍ أشعثٍ لم يقضِ عمرتهُ ... يا للرجالِ وبين الحِجرِ والحَجَرِ
إن الحرامَ لمن تمّت كرامتهُ ... ولا حرامَ لثوب الفاجرِ الغدِرِ

فقام الزبير بن عبد المطلب وقال: ما لهذا مَترَك. أي: لا يصح أن يُترك. فاجتمعت بطون بني هاشم، وزُهرة، وتيم في دار (عبد الله بن جُدعان) وصَنعَ لهم طعاماً ـ وكان كريماً ـ، وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يداً واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدِّي إليه حقّه ما بلَّ بحرٌ صوفةً، وما رسا ثبير وحراء مكانهما، وتعاهدوا على التآسي في المعاش، فسمَّت قريش هذا الحلف حلف الفضول، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر. وقد نُفِّذ هذا التحالف فوراً حيث ساروا إلى (العاص بن وائل)، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه.

فقال الزبير بن عبد المطلب مفتخراً بذلك:

حلفت لَنَعْقِدَنْ حلفاً عليهم ... وإن كنا جميعاً أهل دارِ
نُسميّه الفضولَ إذا عقدنا ... يُعَزُّ بهِ الغريب لدي الجوارِ
ويَعلَمُ مَن حوالي البيتِ أنا ... أباةُ الضَّيمِ نمنعُ كل عارِ

وقال:

إن الفضولَ تعاقدوا وتحالفوا ... ألا يقيم ببطن مكة ظالمُ
أمرٌ عليه تعاقدوا وتواثقوا ... فالجارُ والمُعترُّ[1] فيهم سالمُ

قال أصحاب السِّير: وقد حضر النبي ﷺ هذا الحلف وسنه عشرون سنة، وأثنى على هذا الحلف حين ذكره بعد بعثته ﷺ فقال فيما يرويه الواقدي عن جبير بن مطعم: «**لقد شهدت في دار عبد الله بن جُدعان حلفاً ما أحب أن لي به حُمْر النَّعم، ولو دُعيت به في الإسلام لأجبت، تحالفوا أن يرُدُّوا الفضول على أهلها، وألا يَعُزَّ[2] ظالمٌ مظلوما**».

وعبد الله بن جُدعان هذا، هو الذي كان يكسو في موسم الحج ألف حُلة، وينحر ألف بعير، وقالت فيه عائشة ـ أم المؤمنين رضي الله عنها ـ يا رسول الله: إن عبد الله بن جدعان كان يُطعم الطعام، ويُقري الضّيف، فهل ينفعه ذلك يوم الدين؟ فقال ﷺ: «**لا؛ لأنه لم يقل يوماً من الدهر رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**[3]»، وإنما سألت عائشة عنه لأنه من قرابتها فكلاهما من تيم.

قال المؤرخون في حلف الفضول: ولقد بقي هذا الحلف معمولاً به إلى ما قبل بعثته ﷺ بقليل، فقد ذكروا أن رجلاً (من خثعم) قدم حاجاً أو معتمراً، ومعه ابنةٌ من أوضأ الناس جمالاً، فأخذها منه عنوة رجل اسمه (نبيه بن الحجاج) وغيّبها.

فقال الخثعمي: من يُنصِفني من هذا الرجل؟ فقال الناس: عليك بحلف الفضول، فوقف عند الكعبة المشرفة ونادى: يا آل حلف الفضول، فإذا هم يأتون إليه من كل جانب، وقد انتضَوا سيوفَهم يقولون: جاءك الغوث مالك؟ فقال: إن نبيهاً ظلمني في بنتي وانتزعَها مني قسراً يريد الزواج بها، فساروا معه وما هي إلا لحظات حتى أخرج المعتدي الفتاة ورُدَّت إلى أبيها سالمة.

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: وقد بقي أثر هذا الحلف في الإسلام، فقد روى أصحاب السيرة: أنه كان بين الحسين بن علي، وبين الوليد بن عتبة ـ وكان أميراً على المدينة أيام عمه معاوية ـ منازعةٌ في قضية مالية، فكأن الوليَد تحامل على الحسين في حقه لسلطانه، فقال له

(١) المعتر: السائل.

(٢) أي لا يسلب ظالم مظلوما وهو مأخوذ من قولهم (من عزّ بزّ) أي من غلب سلب.

(٣) رواه مسلم.

الحسين: أحلف بالله لتُنصفني من حقي، أو لآخذنَّ سيفي، ثم لأقومَنَّ في مسجد رسول الله ﷺ، ثم لأدعُوَنَّ بحلف الفضول، وكان في المجلس عبد الله بـن الزبير، وكان جالساً إلى جنب الوليد، فقام وقال: وأنا أحلف بالله لئن دعا الحسين بـه (حلف الفضول) لآخذن سيفي ثم لأقومن معه حتى يُنصَف أو نموت معاً. وبلغ الخبر (المُسوَّر بن مخرمة الزهري) فقال مثل ذلك، فلما وصلت المقالة التي قالها المسور إلى الـوليد أنصف الحسين من حقه، واسترضاه حتى رضي.

ومن نتائج مظهر حلف الفضول:

١) بقي للحلف الذي عقد في دار (عبد الله بن جدعان) أثره. وحضوره ﷺ هذا الحلف في دار عبد الله بن جدعان مظهر وتأكيد للكمال المحمدي ﷺ. وعبد الله بن جدعان هو قريب عائشة ـ كما ذكرنا ـ وكان ذا فضل وسـن، وكان من جملة من حرّم على نفسه الخمرَ في الجاهلية ، وكـان مـغرماً بـها، وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يده على ضوء القمر، ويقبض ليُمسكه، فضحك منه جلساؤه، ثم لما صحا أخبروه فحلف ألا يشربها أبداً.

٢) شعور أهل الجاهلية بالخطيئة وكراهيتهم لها، ولهذا سَموا الحرب التي انتهكت فيها حرمة الأشهر الحرم (الفِجار) من الفجور؛ لأن الفريقين تبادلوا فيها الفجور.

٣) بيان فضل بني هاشم، وكثرة مفاخرهم، وكونه ﷺ منهم، كما يدل على مروءة الزبير بن عبد المطلب، والذي كان سبباً في تشكيل حلف الفضول، وإعادة حق الزبيدي من العاص بن وائل.

٤) بيان ظلم العاص بن وائل وهو من طواغيت قريش، وقد وقف في وجه الدعوة الإسلامية يحاربها حتى مات وهو كذلك إلى جهنم.

قال أهل التاريخ: وكان العاص بن وائل مماطلاً سمجاً دأبه أكل حقوق الناس، فقد حاول أكل مال الزبيدي قبل البعثة، وأنصفَ حلفُ الفضول الزبيديَ، وللعاص بن وائل محاولة أخرى جرت له مع (خباب بن الأرت)، تشبه قصته مع الزبيدي، وقصته مع خباب كانت بعد بعثته ﷺ، وفي أول أمر الإسلام، فقد كان خباب قَيْناً يصنع السيوف، فصنع للعاص سـيفاً وطالبه بثمنه، فقال العاص: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد ﷺ!!

فقال خباب: لا أكفر بمحمد حتى يميتك الله ثم تبعث. قال العاص: وإني لميت ثم

مبعوث؟ قال: بلى. قال: دعني حتى أموت وأبعث فسؤوتى مالاً وولداً، فأقضيك حق السيف، فنزل فيه قوله تعالى: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾ أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا ﴿٧٨﴾ كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا ﴿٧٩﴾ وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا ﴿٨٠﴾﴾(١).

قال علماؤنا: وأمثال العاص هذا في ميدان السياسة والتجارة كثير، ومحمد ﷺ وَمَنْ على طريقته أولى الناس بخصومتهم. وقوله تعالى: ﴿وَنَرِثُهُۥ مَا يَقُولُ﴾ أي سيُحشر كافراً وحده دون أولاده، وسَيُحشر لا مال له، ولا ولد معه لأن أولاده سيكونون مسلمين ويكونون في حزب الله فعلاً، فقد ولد له (عمرو) الصحابي الجليل، و(هشام) الصحابي الشهيد الذي استشهد يوم (أجنادين)، فهذه بشارة له ﷺ، وكمد للعاص بن وائل.

٥) ومن نتائج هذه الفقرة أن العبد لا ينتفع بما يعمله من الخيرات والصالحات إذا مات على الشرك، لقوله ﷺ لما سألته عائشة عن مصير قريبها (عبد الله بن جدعان) وهل ينفعه كرمه وإطعامه؟ فقال ﷺ: «**لا. لأنه لم يقل يوماً رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين**» مسلم.

٦) ونستنتج أن من كماله ﷺ في هذه الفقرة أنه ﷺ لم يكن ينقطع عن قومه في أمور يكون فيها الخير، فكان يشاركهم في الخير ولا يرضى بباطل، وكان يحضر دار الندوة إذا انعقدت، ويستمع إلى كبار العرب، فما كان من حق فيها استبشر به، وما كان منها باطلاً يبدو نفوره منه ﷺ ويبدو عدمَ رضاه.

ونختم لهذه الفقرة من كماله ﷺ بقصة ذكرها صاحب كتاب زهر الآداب: أنه ﷺ في صباه حضر ندوة لقريش، وقد حضر من اليمن كبار أهل اليمن، فنظر إليه (قيل من أقيالهم)(٢) فرأى في نظرات هذا الفتى ـ النبي ﷺ ـ قوة وشدة أحياناً، وأحياناً تكون نظراته ﷺ هادئة مستبشرة، فقال الملك: مالي أرى هذا الغلام ينظر تارة إليكم بعيني لبؤة، وتارة بعيني عذراء خَفِرة؟ والله لو أن نظرته الأولى كانت سهاماً لانتظمت أفئدتكم فؤاداً فؤاداً، ولو أن نظرته الثانية كانت نسيماً لأنشرت أمواتكم.

---

(١) مريم: ٧٧ـ٨٠.

(٢) أي: ملك من ملوكهم.

قال العلماء: وهكذا فمحمد ﷺ ليس من طبعه الاعتزال، بل من طبعه الاتصال بالناس ليعرف مواطن الصحة، ومواطن المرض، فاعتزال الحياة والأحياء ليـس من طبع القوي، بل هو من الوهن العصبي. اللهم إلا أن يكون هذا الاعتزال لعبادةٍ، فإن العبد إذا اعتزل الناس في العبادة استأنس بالله، فيقدِمُ بعد العبادة على الناس وقد ادّخَر.

الفصل الثاني والثلاثون
تتمة الكمالات المحمدية قبل بعثته ﷺ

تتمة الكمالات المحمدية التي ذكرها العلماء قبل بعثته ﷺ ـ كما ذكرها كتاب هذا الحبيب يا محب ـ رغبة خديجة بنت خويلد فيه ﷺ وزواجها به. قال المؤرخون: بلغ محمد ﷺ سنَّ الزواج ومع ذلك لم يتزوج في سن مبكرة كما كانت العادة عند العرب، بل استمر ﷺ لا يتجه إلى الزواج حتى بلغ الخامسة والعشرين.

هنا سؤال: لماذا لم يتزوج محمد ﷺ من صغره على عادة العرب؟ والجواب لقد كان ﷺ عفاً كريماً لم يقع منه ما يشين الكرام، وقد عصمه الله تعالى يوم أراد أن يشاهد عرساً لا يغشى فيه حراماً، ولكن قد يرى فيه حراماً، فصانه الله عن رؤية الحرام، بأن ضرب عليه النوم فما أيقظه إلا حر الشمس.

ثم إنه ﷺ ليس خاملاً في قومه، بل إنه إذا خطب لا يرد، وهو ذو خلق كريم قويم يجعل القلوب تهفو إليه، وهو ﷺ ذو جمال عجيب يجعل الأنظار تتعلق به، وقريش كلها يحبه ويرضاه صهراً.

وهنا سؤال: أكان ﷺ فقيراً لا يجد ما يرجع به على أهله إذا تزوج؟ والجواب: نعم إنه لم يكن غنياً، ولكنه تعود منذ نعومة أظفاره أن يكون عاملاً، فرعى الغنم ، وخَبِرَ البادية ونباتاتها ... فقد ورد عن جابر من حديث الزهري قال: كنا مع النبي ﷺ نجني الكَباث – نضيج الأراك – فقال ﷺ: «**عليكم بالأسود منه فإنه أطيب، فإني كنت أجتنيه إذ كنت أرعى الغنم**».

ثم اتجر ﷺ، ولئن كان الاتجار لم يجعله غنياً ثرياً، ولكن فيه الكفاية، فلماذا تأخر إذا في الزواج؟

قال العلماء: الملاحظ لحياته ﷺ من أولها يجد أنه ﷺ لم تشغله لذات الجسم، وشهواتُ النفس، ولم يكن ذلك عن ضعف ولكن كان ذلك عن قوة في النفس، وعن همة عالية تتجه إلى معالي الأمور فالغايات العليا هي التي تجتذبه، فلا يستولي على نفسه ﷺ مطلب من مطالب البدن، ولكنه لا يتجه إلى الحرمان.

وكأنه كما قال أبو زهرة – رحمه الله تعالى -: كأنه ﷺ لا يعيش إلا في حياة روحية من غير

حرمان، فليست نفسه مثقلة بهموم الجسد. . من هنا تراه يستريح إلى رعي الغنم في الأماكن النائية، واستئناسه للجبال والفضاء، مكتفياً بالدخل القليل الذي تدره عليه تجارته أو رعيه، هل هذا زهد في المال؟ لا. هل هو إعراض عن الدنيا؟ كلا، إنما هو انشغال بالحقائق العليا، والرجال الكبار لا تشبعهم كنوز الذهب والفضة إذا ظمئوا إلى الحق، ولا يريحهم أن يكونوا ملوكاً في الحياة إذا رأوا هذه الحياة تسير إلى منحدر تسقط فيه أقدار الناس، وتخلو الدنيا من كل خير وبِر.

هذه هي المرحلة الثالثة من عمره ﷺ التي استقبلها، والتي تعرف فيها على زوجه (خديجة).

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: لم يتكلم محمد ﷺ في شأن الزواج إلا بعد أن نُبِّىَ إليه، وبعد أن صار مطلوباً لا طالباً، وهذا ما حصل له مع خديجة ـ رضي الله عنها ـ وهي مثلٌ طيبٌ للمرأة التي تُكمل حياة الرجل العظيم، وإنَّ أصحاب الرسالات يحملون قلوباً شديدة الحساسية، ويلاقون عنتاً من الواقع الذي يريدون تغييره، ويجاهدون في سبيل إيصال الخير إلى الناس، وهم ـ الرسل ـ أحوج ما يكونون إلى من يتعهَّد حياتهم الخاصة بالإيناس، بَلْهَ ـ فضلاً ـ عن الإدراك والمعونة!! وكانت خديجة ـ بفضل الله ـ سبّاقة إلى كل هذه الأمور.

كان ﷺ قد اشتهر بالخلق والأمانة، تتحدث عن أمانته وأخلاقه المجالس في مكة أوقات سمرها، وكان لخديجة مال كثير، حتى إن عيرها التي تحمل بضائعها في القوافل التجارية كانت، تعادل عير قريش كلها حجماً ونفاسة في البضاعة، وكانت حكيمة وشريفة، كما كانت أرملة قد تزوجت من رجلين توفيا عنها، ولم تكن تتولى شأن تجارتها بنفسها، لأن ذلك لم يكن من شأن النساء، بل كان السفر والترحال من شأن الرجال لصعوبة السفر، كما ورد في وصف ابن عباس للسفر حيث قال: لولا الأثر لقلت: إن العذاب قطعة من السفر، وليس هو قطعةً من العذاب.

قال المؤرخون: وكانت **خديجة تسلك في تجارتها طريقتين:**

إحداهما: أن تستأجر ناساً يكونون وكلاء عنها في التجارة مقابل أجر معلوم يأخذونه منها ولا علاقة لهم بربح أو خسارة.

الثانية: المضاربة الشرعية مع قسمة الربح بحصة مشاعة.

وكلتا الطريقتين تحتاج إلى أشخاص أمناء، فكانت خديجة تتحرى في العاملين لها الأمانة لأنها لا تراهم إلا في الذهاب والمجيء، ولذلك كانت ترسل أحياناً مع الذين يذهبون بتجارتها غلاماً لها اسمه (ميسرة)، ولما كان محمد ﷺ يعمل في تجارة محدودة بحدود مكة، أو ما يقارب حدود مكة، وقد بلغتها أمانته وعفته، فقد وقع في قلبها اختياره ليعمل لها؛ لأنه لم يكن له نظير بعين العرب جميعاً، وفي نفس الوقت كان عمه أبو طالب يفكر في أن يعرض على خديجة محمداً ليكون عاملاً في تجارتها قبل أن يسبقه المتهافتون.

ولكن العم عرض على محمد ﷺ رغبته في الذهاب إلى خديجة ليكلمها في الموضوع، ثم حفَّ هذا العرض بلونَيْن من الترغيب والإغراء.

وقد بيّن ـ عرجون رحمه الله في كتابه محمد رسول الله ـ هذين اللونين فقال:

الأول: لون عاطفي: تمثل في وصف حال أبي طالب من قلة المال، واشتداد الزمان فقال لمحمد ﷺ: يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مال ولا تجارة، وهذه عِيْرُ قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك يتجرون لها، ويُصيبون منافع، فلو جئتها لفضَّلتك على غيرك لما تعلم من طهارتك وإن كنتُ أكره أن تأتي الشام، وأخاف عليك من يهود، ولكن لا نجد بداً من ذلك.

اللون الثاني لون مادي: تمثل في إشعار محمد ﷺ أن عمّه لا يرضى له أجراً مثل أجر غيره من الرجال، بل لا يرضى له بأقل من ضعف أجر الرجل من الرجال. فماذا كان رده ﷺ؟ كان رده ﷺ عجيباً، إذ لم يكن منه ﷺ إلا أن قال راداً على عمه في هدوء الرجل الذي يشعر أنه فوق المغريات، ولكونه أميناً والأمين لا يجعل الأمانة ولا الشرف مُتَّجَراً يتَّجر به، فقد تلطّف ﷺ مع عمه، واكتفى بأن قال له: «**يا عم، لعلها تُرسل إليَّ في ذلك**». فقال أبو طالب: أخاف أن تولي غيرَك فتكونَ قد طلبتَ أمراً مُدبِرا.

قال أصحاب السير: إن هذا الحوار الذي وقع بين الفتى وعمه وصل خديجة فطلبته ﷺ

قال أهل التحقيق: كانت خديجة تفكر في أن يكون محمد عاملاً في تجارتها، ولكنها كانت تظن أنه لا يريد أن يعمل بعيداً عن مكة، فلما وصلها الحوار بين الفتى وعمه تلاقت رغبتها مع رغبة عمه في ذلك فطلبته.

وقال صاحب كتاب محمد رسول الله: هناك ظواهر مرغِّبة اعتمَلَت واجتمعت في نفس خديجة حيث جعلت هذه الظواهر وهذه العوامل تفكيرها فيه ﷺ أكبرَ من كونه عاملاً في تجارة بمالها فتربح وتُربِح.

إنها عرفت محمداً ﷺ أميناً صدوق الحديث، عزوفاً عن الدنايا، كسوباً للخير، وسمعت عنه من غلامها ميسرة. . كما تذكرت وذكرت حديثاً سمعته عن يهودي في يوم عيد، وهو ما ذكره ابن إسحاق في المبتدأ قال: كان لنساء قريش عيد يجتمعن فيه، فاجتمعن يوماً فجاء يهودي فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكن نبي، فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبْنه وقبَّحْنَه، وأغلظْن له، وأغضت خديجة عن قوله، ولم تتكلم كما تكلمت النساء. فلما سمعت من غلامها ميسرة ما حدَّثَها به عن بركته ﷺ قالت: إن كان ما قال اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا. وتعني محمداً.

قال المؤرخون: ثم أرسلت إليه خديجة برسالة تحمل رغبةَ خديجة فيه لأكثر من أمر التجارة لها بمالها، حيث قالت في رسالتها له ﷺ: دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعِظَم أمانتك، وكرَمِ أخلاقك، وأنا أعطيك ضِعفَ ما أعطي رجلاً من قومك. هذه الرغبة الخفية ظهر فيها الخير بعد ذلك، ثم لما وصل خطابها إلى النبي ﷺ سارع إلى عمه أبي طالب يخبره بما حوى لأنه طُلبته، فسُرَّ عمه وقال له: إن هذا رزق ساقه الله إليك.

المسير بالتجارة إلى الشام: سارت قافلة التجارة إلى الشام وفيها خير خلق الله تعالى محمد ﷺ، وكانت عِيرُ خديجة تعدل نصف عير القافلة، وكان مع محمد ﷺ غلام خديجة ميسرة، لا لِيرقُبه بل ليخدِمه وليُعينه، وكان خروج القافلة بعد انتهاء موسم الأسواق التي تقام بمكة أيام الحج، (سوق عكاظ، وذو مجاز، ومجَنَّة)، وكان عمره ﷺ خمساً وعشرين سنة، وكان ذلك في شهر ذي الحجة.

وقد أقام ﷺ في الشام حتى باع أحمال العير الخاص بخديجة، ثم اشترى بثمن ما باعه بضائع من الشام وقفل راجعاً بها إلى مكة لينقلها التجار بعد ذلك إلى اليمن، فكان الثمن ضعف رأس المال، وكل ذلك بفضل أمانته ﷺ وبركته.

قال صاحب كتاب محمد خاتم النبيين: إن ميسرة أخبر خديجة بكل ما رأى من حُسن

معشره ﷺ وسماحته وطيبه، مع ما تعلم من مكانته في قومها. .

كل ذلك أوجد في نفس خديجة طموحاً لأن تكون زوجاً له، مع أنها رفضت الكثيرين بعد وفاة زوجها الثاني علماً بأن من تقدّم لها كانوا من أهل المال والنسب، ولكنها وجدت في محمد ﷺ ما لم تجده في الشيب ولا الشبان، فرغبت فيه رغبة العاقل دون عشق ولا هيام، ولا رعونة ولا طيش، ولكن في إرادة مقدَّرة، وتفكير في الماضي والحاضر والقابل، فلها من سنها وشرفها ما يمنعها من أن تكون غريرةً أو جاهلة. وأدركت هذه المرأة العاقلة بفطرتها أن محمداً يحتاج إلى من ينبهه إلى أمر الزواج، فما كان هذا الأمر يشغل بـالَه. فتولت هي هذا الأمر ـ تنبيه النبي ﷺ ـ. وللنساء في هذا الأمر قدرة ومعرفة.

ثم قال أبو زهرة رحمه الله: ولكن خديجة قامت به مواجهةً بكل احتشام وبدون إسفاف، فكيف كانت الخطة؟ أرسلت خديجة امرأة اسمها (نفيسة بنت مُنيه)، لتنبه محمداً ﷺ، ولتجسَّ نبضه، فقامت نفيسة بالأمر خير قيام. ولنترك الكلمة الآن لها تحدثنا عن ذلك فتقول: كانت خديجة امرأة حازمة جلدة شريفة، مع ما أراد الله بها من الخير والكرامة، وهي أوسط قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً، وكل قومها كان حريصاً على الزواج منها لو قدر على ذلك، فقد طلبوها وبذلوا لها الأموال. ثم تقول نفيسة: فأرسلتني خديجة دسيساً إلى محمد ﷺ بعد أن رجع من الشام بِعيرها. فقلت: يا محمد ما يمنعك من الزواج؟ فقال ﷺ: «**ما بيدي ما أتزوج به**». قلت له: فإن كُفيت ذلك ودُعيت إلى المال والشرف والجمال والكفاءة. ألا تجيب؟ قال ﷺ: «**فمن هي؟**» قلت: خديجة. قال ﷺ: «**وكيف لي بذلك؟**» قلت: عليَّ ذلك. قالت نفيسة: فذهبت إلى خديجة فأخبرتها، فأرسلت إليه أن ائت لساعة كذا وكذا، وأرسلت إلى عمها (عمرو بن أسد)، وذهب الحبيب ﷺ إلى لقائها، فواجهته بالأمر، وخاطبته بعد أن استوثقت أنه لا يردها فقالت: يا ابن عم: إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسِطَتك[1] في قومك، وصدق حديثك، وحُسن خُلقِكَ. وعند هذا العرض الكريم أعلن ﷺ القبول، فكان ذلك هو الخطبة.

قال العلماء: وخديجة ـ تلك المرأة الحازمة ـ لم تترك الأمر بينهما، بل لابد من تلاقي الأسرتين وتوافقهما؛ لأن الزواج اتصال أسرتين لا لقاء فردين، ولذلك قـالـت للنبي ﷺ: اذهب

---

(١) الوسط في الصميم نسباً وشهامة.

إلى عمك فقل له: عجّل إلينا بالغداة. جاء إليها أبو طالب فقالت: يا أبـا طالب: اذهب إلى عمي فقُل يُزوجني من ابن أخيك، فوافق أبو طالب على الزواج، وعلى أن يقوم من جانبه، وقال لمّا تم الإيجاب والقبول ـ كما سـنرى في خطبة الإملاك ـ (هذا صنع الله).

الفصل الثالث والثلاثون
الإملاك ونتائج هذا المظهر الكمالي وعبره

الإملاك: يطلق الإملاك على التزوج وعلى العقد، يقال: شهدنا إملاكَه ومِلاكه: أي عقدَه أو زواجَه.

قال العلماء: ثم اجتمع رؤساءُ مُضَر، وكبراء مكة لإتمام العقد، وكان وكيل خديجة عمّها، وكان أبو طالب هو المتكلم عن محمد ﷺ فخطب وقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضئ معد، وعنصر مضر، وجعلنا حضنة بيته، وسُوّاس حَرَمِهِ، وجعلَ لنا بيتاً محجوجا، وحَرماً آمنا، وجَعلنا الحكّام على الناس.

ثم قال أبو طالب: إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن برجل إلا رجح به، وإن كان في المال قُلاًّ، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ثم قال: ومحمد مَن قد عَرفتم قرابته، وقد خطب خديجة بنت خويلد، وقد بذل لها من الصداق ما آجله وعاجله اثنتا عشرة أوقية ذهباً، ونشّاً [(١)]، وهو ـ أي محمد ﷺ ـ والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل.

قال المؤرخون: ثم قام ورقة بن نوفل بعد ذلك وخطب فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضّلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب، وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا تُنكر العشيرة فضلكم، ولا يَردُّ أحد من الناس فخركم ولا شرفكم، وقد رغبنا في الاتصال بحبلكم، وشرفكم، فاشهدوا يا معشر قريش بأننا قد زوجنا خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله.

قال المؤرخون: ولكن أبا طالب أراد أن يكون المتكلم بالقبول بهذا الزواج عمها (عمرو بن خويلد)؛ لأنه أقرب إلى خديجة من ورقة بن نوفل، ولذلك قال أبو طالب لورقة بعد أنهى ورقة خطبته: أحب أن يَشْرَكَكَ عمها، فقام عمُّها فقال: اشهدوا يا معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، ثم قال: ومحمد هو الفحل الذي لا يُقدع [(٢)] أنفه. وشهد على ذلك صناديد قريش، ولما تم الإيجاب والقبول، أمرت السيدة خديجة بشاة اتخذت طعاماً، ودعت عمها عمرواً، وجاء الرسول مع عمه أبي طالب، وعمه حمزة بن عبد المطلب، ورؤساء

---

(١) النش: نصف أوقية من الذهب وتعدل عشرين درهماً.

(٢) أي: لا يُضرب أنفه لكرَمِه.

مضر، فأكلوا، ثم كانت الكلمات التي ذكرناها.

قال المؤرخون: وكان الصداق عشرين بكرة، وهو ما قيمته اثنتا عشرة أوقية ونشاً. وقال آخرون: إن الصداق كان من الذهب ما ذكرناه، وهو اثنا عشرة أوقية ونشاً، وزاد محمد ﷺ لها في الصداق عشرين بَكرة لأن الكرام يزيدون على ما هو مفروض. وكانت خديجة أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ ولم يتزوج غيرها حتى توفاها الله، وكل أولاده ﷺ منها وهم: القاسم، وعبد الله الطيب، وفاطمة، وزينب، ورقية، وأم كلثوم. إلا إبراهيم فكان من مارية القبطية.

وفاطمة: أمها خديجة وهي آخر بنات النبي ﷺ وأحبّهن إليه، وماتت بعده ﷺ بستة أشهر، تزوجها عليّ فولدت له الحسن والحسين، وزينب ومحسناً وأم كلثوم التي تزوجها عمر بن الخطاب. وجهَّزها ﷺ بجلد وجرّة ورحى.

زينب: أول من ولد له من البنات، تزوجها أبو العاص بن الربيع، ثم أسلم زوجها فردها النبي ﷺ بالنكاح الأول.

رقية: وهي البنت الثانية من بنات النبي ﷺ عقد عليها عتبة بن أبي لهب، فلما نزل الوحي، ونزل قوله تعالى: ﴿تَبَّتْ يَدَآ . . ﴾ قال أبو لهب لولده: رأسي من رأسك حرام إن لم تطلقها، فطلقها قبل الدخول، ثم تزوجها عثمان بن عفان.

أم كلثوم: وهي البنت الثالثة. تزوجها عثمان بعد رقية، وماتت عنده. وقال ﷺ عند موتها: «**لو كان عندي ثالثة لزوجتها عثمان**».

إبراهيم: أمه مارية القبطية ولد في المدينة سنة ٨ هـ ومات سنة ١٠ هـ، وقال ﷺ عند موته: «**إن له مرضعاً في الجنة**» لأنه مات ابن سبعة عشر شهراً.

القاسم: ولد بمكة قبل النبوة ومات فيها وهو ابن سنتين.

نتائج هذا المظهر الكمالي وعِبَره:

قال صاحب كتاب هذا الحبيب: يظهر لنا من الفقرات التي مرت:

- بيان ما أعطى الله عز وجل نبيه من الكمالات النفسية التي رغِبَت خديجة من أجلها الزواج به ﷺ.

- مشروعية إبداء المرأة رأيها ورغبتها في الرجل الذي تريد الزواج به.
- مشروعية الخطبة للزواج، ولا حرج أن يتولى ذلك قريب الزوج.
- بيان شرف خديجة، وهي حقاً سيدة نساء قريش، وقد جاء جبريل ببشارة لها من أعظم البُشريات وهي أن الله تعالى يقول لَكَ: «**يا محمد أقرئ خديجة مني السلام، وبشرها بقصر في الجنة من القصب**[1]».

دنوّ ساعة النبوة:

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: إن محمداً قبل أن يبعثه الله رحمة للعالمين كان ملتزماً بأمرين:

الأول: أنه لم يكن صاحب لهو ولا عبث، ولم يكن معتزلاً عن الناس، بل كان يُسرع في تقديم عطاء لمحتاج، أو إغاثة لملهوف، أو صلة لرحم، أو قرى لضيف. فكانت حياته هذه قبل النبوة تأسيساً لحياته الثانية بعد البعثة.

الثاني: أنه اتخذ مكاناً يتعبد فيه، وهو (غار حراء). فمحمد ﷺ في المدة التي تقع بين زواجه وبعثته كان معاشه من التجارة، لكنه رتب وضع هذه التجارة حيث كان ﷺ يباشر التجارة الداخلية بنفسه، وكان يؤاجر عليها أهل المعرفة في الرحلات التجارية إلى اليمن والشام، ولم تذكر الروايات أنه اشتغل بشيء غير التجارة في طلب المعاش بعد زواجه. وكان ﷺ كلما تقدمت به السن مال إلى الانطواء عن حياة الناس، وحُبِّبَ إليه الاعتزال والتنسك، واتخذ ﷺ لنفسه شهراً من أشهر السنة يختلي فيها بغار هو غار (حراء). كما جاء في الصحاح أنه ﷺ كان يتحنث الليالي ذوات العدد، وكان ذلك في رمضان.

قال العلماء: كان يبتدئ تعبده بالذهاب إلى البيت الحرام، فيطوف به، ويتصدق بالصدقات العظيمة، ويُطعم الطعام، ثم يذهب إلى الغار، حتى إذا أتم الشهر عاد إلى بيته، وقبل دخوله بيته يمر على البيت الحرام فيطوف به، ويتصدق، ويطعم الطعام مما بقي له، ثم يأوي إلى زوجه الطاهرة.

---

(١) القصب: الجوهر المجوف.

كيف كان تعبده؟

قال العلماء: كان يفكر في جلال الوجود، وعظمة الكون، ويتأمل حال قومه وإغراقهم في وثنيتهم البليدة، وماديتهم المظلمة، وينظر فيرى في طيات الكُسُف الحالكة ومضاتٍ من نور تلمع هنا وهناك، في أشخاصٍ بقايا من المتحنفين ممن خالطوا أهـل الكتاب. . فسمعوا عن الدين الحق شيئاً فطلبوه عندهم، فلم يجدوا معهم إلا أخلاطاً من تأويلاتٍ فاسدة، ومن تحريفات خلطت الحق بالباطل، ثم طلبوا هذا الحق ـ في مجالات فِطَرِهم وعقولهم، فقصّرت بهم عن الغاية ولكنها رفعتْهُم من حضيض الوثنية إلى نوع من المعرفة الحائرة، تظهر جلية في قول زيد بن عمرو بن نفيل: اللهم إني لو أعلم أحب الوجوه إليك عبدتك به، ولكن لا اعلم، ثم يسجد على راحلته.

وكان قد شام اليهودية والنصرانية فلم يرض شيئاً منهما، وكان يقول: آمنت بما آمن به إبراهيم. ويقول: أنفي لك عابد راغم، مهما تُجَشِّمني[1] فإني جاشم. وقد شهد له النبي ﷺ أنه يُبعث يوم القيامة أمة وحده ـ كما ذكر عرجون رحمه الله تعالى ـ.

منذ متى ابتدأت هذه الخلوة؟ كتب الصحاح تذكر أن خلوته ﷺ كانت قبل البعثـة، وبعضهم يقدر ذلك بنحو خمس سنين. والعلماء يقولون: كان ﷺ في تعبده قبل البعثة تفكيراً في آيات الله الكونية، والتأملَ في مظاهر الطبيعة، ودلائل الإبداع الإلهي في نظام الوجود، وسيَره على سنن متناسقة مُقدَّرة تدل على حكمة التدبير، كما كان جانبٌ من تعبده قائماً على أساس ما ثبت عنده من بقايا ملة جَدَّيْهِ إبراهيم وإسماعيل، وما يثبت عنده من معالم الحنيفية، ودليل ذلك القاطع ما التزمه ﷺ من تعظيم الكعبة المشرفة، والطواف بها رغم ما تعج به ساحتها من الأوثان والأصنام التي كانت أبغض شيء إلى نفسه ﷺ المطهرة، وتعظيم الكعبة ليس من نوع عبادات التفكر، وإنما كان من قبيل اتباع ملة إبراهيم، فهو تعبد عملي شرعه الله تعالى في ملة إبراهيم الحنيف، فعبد الله به كما عبده بمحض التفكر والتأمل في بديع جلال الكون.

قال ابن إسحاق: لما بلغ محمد ﷺ أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين، وبعثه للناس كافة بشيراً ونذيراً، وكان الله ـ عز وجل ـ قد أخذ الميثاق على كل نبي قد بُعث قبله ﷺ، أخذ الميثاق والعهد على الإيمان بمحمد ﷺ وعلى نصرته على من خالفه، كما أخذ على الأنبياء العهد أن يبلغوا

---

(١) تجشم الأمر: تكلفه على مشقة من الفعل: جشم الأمر جشماً، وجشامة مثل تجشم الأمر.

كل من آمن بهم، وكل من صدّقهم هذا العهد، وفي ذلك يقول الله ـ عز وجل ـ ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ (١).

وقرأ نافع: آتيناكم وهو أوفق لسياق الجلالة والعظمة كما قال الجعْبري، ونافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو عبد الرحمن أو أبو رويم. قال ابن كثير: ورد عن علي وابن عباس أنهما قالا: ما بعث الله نبياً من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث الله محمداً وهو حي ليؤمنن به، ولينصُرنَّه وأمره الله أن يأخذ الميثاق على أمته لئن بُعث محمد ﷺ وهم أحياء ليؤمنن به ولينصرنه. وقوله تعالى: (لِما) قرئت بالكسر على معنى المصدر أي: لأجل إيتائي، أي شكراً على إيتائي الكتاب لكم، لأن من أوتي الكتاب هو الأفضل، وعليه يؤخذ الميثاق.

وقرئ بالتشديد (لَمَّا) بمعنى الحين، أي حين آتيتكم. وقرأ الأكثرون: (لَما) واللام موطئة للقسم، لأن الميثاق على اليمين بمعنى الاستحلاف. و(ما) بمعنى الذي: أي الذي آتيناكموه، ثم جاءكم بعده رسول (وآتيناكم صلة لـ(ما)، و(لتؤمنن) اللام جواب القسم سدَّت مسد خبر المبتدأ (ما) التي هي اسم موصول. وقوله: ﴿وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى﴾ أي ثقل ما حملتكم من عهدي. قالوا: أقررنا، قال: فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين. أي فاشهدوا على أممكم بذلك، والله بعد ذلك شاهد على الجميع. قال العلماء: وقد أدى الرسل ذلك العهد إلى كل من آمن بهم من أهل هذين الكتابين.

قال المفسرون: وإدخال (مع) على المخاطبين في قوله تعالى ﴿وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾، تأكيد لهذا العهد، وتحذير من الرجوع عنه إذا علموا شهادة الله وشهادة بعضهم على بعض، وأنت ـ يا عبد الله ـ قد أخذ عليك الميثاق في عالم الذر على الطاعة لله، فاحذر مخالفته، ولذلك لما قيل لإبراهيم بن أدهم لو جلست في المسجد حتى تحدثنا ونسمع منك شيئاً؟ قال: إني مشغول عنكم بأربعة أشياء، فلو تفرغتُ منها لجلستُ معكم، قيل: وما هي يا أبا إسحاق؟

قال:

أولها: إني تذكرت حين أخذَ اللهُ الميثاق على آدم فقال: هؤلاء إلى الجنة، ولا أبالي، وهؤلاء

---

(١) آل عمران: ٨١.

إلى النار، ولا أبالي، فلم أدْرِ من أي الفريقينِ كنتُ.

الثاني: تفكّرت أن الولَدَ إذا قضى الله خلقَهُ في بطنِ أمه، ونفخ فيه الروحَ فيقول الملك الموكل به: يا رب أشقيٌّ أم سعيد؟ فأنا لم أدرِ كيف خرجَ جوابي في ذلك الوقت.

الثالث: حين ينزل مَلَكُ الموت فإذا أراد أن يقبض الروح فيقول: يا رب أقبضها مع الإسلام، أو مع الكفر، فلا أدري كيف يخرج جوابي في ذلك الوقت.

الرابع: تفكرت في قوله تعالى: ﴿ وَٱمۡتَٰزُواْ ٱلۡيَوۡمَ أَيُّهَا ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (١) فلا أدري من أي الفريقين أكون، ففي هذا شغل شغلني عن الجلوس لكم والحديث معكم.

---

(١) يس: ٥٩.

الفصل الرابع والثلاثون
أول ما بدئ به من النبوة ومقدماتها

أول ما بدئ به ﷺ من النبوة:

أجمعت الروايات التاريخية على أن بدء الوحي كان الرؤيا الصادقة الصالحة، ففي ليلة الاثنين من شهر ربيع الأول صار لا يرى رؤيا في ليله أو نهاره إلا وجاءت كفلق الصبح، فما يراه في النوم كان يأتي في اليقظة كاملاً تاماً واضحاً، لا يغيب عليه من الرؤيا شيء، كأنما نُقشت في قلبه وعقله.

فقد روى البخاري عن عروة بن الزبير عن خالته عائشة أم المؤمنين قالت: أول ما بدئ به من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم، وكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبَّبَ الله إليه الخلوة، فلم يكن شيء أحبَّ إليه من أن يخلو وحده.

قال عرجون صاحب كتاب محمد رسول الله: هذه الرؤيا أول مراتب النبوة، وكأنها كانت الباعث على حُبِّ الخلوة، والأنسِ بالوحدة لاستجماع الفكر، والسَّيح في ملكوت الله، وبدائع صنعه، لذلك جاء العطف بحرف الترتيب المتعاقب: ثم، الدال على الترتيب والتمهل، فقيل: أول ما بدئ به الرؤيا الصادقة، ثم حبَّبَ الله إلى نفسه الطاهرة المطهرة الخلوةَ ليتفرغ العقل والقلب والروح إلى ما سيتلقى من أعلام النبوة.

قال الصادق عرجون: فتحبيبُ الخلوة إلى النبي ﷺ بعد بدء الوحي بالرؤيا الصادقة أشبهُ بحضانةٍ لميلاد الرسالة في مهد الإعداد لطور الانتقال إلى تحمل أعبائها، والقيام بحق تبليغها عامة شاملة، وقد تحقق له بهذه الخلوة استجماع المشاعر الروحية، والقوى الفكرية، فسمت روحه وعلت، حتى إذا تم استعداده لتلقي الرسالة جاءه أمين الوحي (جبريل) مفاجئاً دون تمهيد لهذا اللقاء الذي لا يماثله لقاء قط بين متلاقيين من طبقتين مختلفتين.

فطبيعة جبريل طبيعة روحانية واحدة، وطبيعة محمد ﷺ مزدوجةُ الخَلْقِ، فهي بشرية روحانية، وبقاء الطبيعة البشرية وراء مشهدِ تلقي الوحي مهمٌّ ليحصل التناسبُ بين الرسول والأمة المُبَلَّغةِ، لأن كل جنس يأتي لجنسه ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا

عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾[1] وأنزِلَت هذه الآية جواباً للمشركين الذين طلبوا أن ينزل على الرسول ﷺ ملك يشاهدونه يصدق النبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾[2].

قال ابن كثير: فمن رحمة الله بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائق رسولاً منهم لينتفعوا بالمخاطبة والسؤال، ولذلك قال تعالى: ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[3].

فقد روى الضحاك عن ابن عباس قوله: لو أتاهم ملك ما أتاهم إلا في صورة رجل لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة من النور.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ . . ﴾ قال العلماء: إن مشركي مكة لما سألوا النبي ﷺ أن يُريَهم ملكاً معه، ظنوا مُقترحهم تعجيزاً، فأخبرهم الله تعالى أنهم اقترحوا أمراً لو أجيبوا إليه لكان سبباً في هلاكهم!! كيف ذلك؟ والجواب: أن الملائكة نوعان: نوع مُسخَّر للأمور المعتادة، مثل الحفظة، وملكُ الموت وأعوانه، والملكُ الذي ينزل بالوحي. . ونوعٌ لا ينزل إلا لتأييدِ الرسل بالنصر على من يكذبهم مثلُ الملائكة التي نزلت يوم بدر لنُصرة المؤمنين، فالملائكة لا تنزل بين القوم المغضوب عليهم إلا لإنزال العذاب، كما نزلت الملائكة في قوم لوط.

قد يقول قائل: وما الحكمة من ذلك؟ نقول: كما قال العلماء: لعلَّ الحكمة في ذلك أن الله فطر الملائكة على الصلابة في الحق، والغضب له بدون هوادة، وجعل الفطرة المَلَكية سريعة التنفيذ للجزاء الرباني على وَفْق العمل، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾[4]، ولذلك حجزهم الله عن الاتصال بغير العباد المكرمين الذين شابهت نفوسهم الإنسانية النفوس المَلَكية، ومن هنا حَجَبهم الله عن النزول إلى الأرض إلا في أحوال خاصة، كما

---

(١) الأنعام: ٩.

(٢) الأنعام: ٨ـ٩.

(٣) الإسراء: ٩٥.

(٤) الأنبياء: ٢٨.

قال تعالى: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ [1].

فقد ذكر المفسرون كما عند البخاري في باب التفسير والترمذي: أن جبريل ـ عليه السلام ـ أبطأ أياماً عن النزول إلى النبي ﷺ، وأن النبي ﷺ ودَّ أن تكون زيارته له أكثر، فقال لجبريل: «**ألا تزورنا أكثر مما تزورنا؟**» فنزلت: ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾. . .

وزاد بعض المفسرين زيادة عن رواية ابن عباس المذكورة، كما عند عكرمة والضحاك ومقاتل والكلبي، قالوا: احتبس جبريل ـ عليه السلام ـ عن النبي ﷺ حين سأله المشركون عن قصة أهل الكهف، وعن الروح، وعن ذي القرنين، وقال ﷺ: غداً أخبركم، ولم يستثن، وشقَّ ذلك على النبي ﷺ، فقال المشركون: ودّعه ربه وقلاه، فلما نزل جبريل بعدها قال له رسول الله ﷺ: «**أبطأت عليَّ حتى ساء ظني، واشتقت إليك**» فقال جبريل ـ عليه السلام ـ إني كنت لك أشوقَ، ولكني عبد مأمور إذا بُعثت نزلت، وإذا حُبست احتبست. ونزلت هذه الآية عندها، وسورة الضحى. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴾ [2].

قال ابن عاشور في تفسيره: فلو أن الله أرسل ملائكة في الوسط البشري لما أمهلوا أهل الضلال والفساد، ولذلك ألا نرى أن الملائكة الذين أرسلهم الله إلى قوم لوط لما لقوا لوطاً . . قالوا: ﴿ قَالُوا۟ يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓا۟ إِلَيْكَ فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ ﴾ [3]، ولما جادلهم إبراهيم في قوم لوط بعد أن بشّروه واستأنس بهم، ماذا قالوا جواباً على جداله؟ قالوا ما قصّه الله علينا في سورة هود: ﴿ فَلَمَّا ذَهَبَ عَنْ إِبْرَٰهِيمَ ٱلرَّوْعُ وَجَآءَتْهُ ٱلْبُشْرَىٰ يُجَٰدِلُنَا فِى قَوْمِ لُوطٍ ﴿٧٤﴾ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾ يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَآ إِنَّهُۥ قَدْ جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ وَإِنَّهُمْ ءَاتِيهِمْ عَذَابٌ غَيْرُ مَرْدُودٍ ﴿٧٦﴾ ﴾ [4]، وهكذا لم يقبلوا ـ الملائكة ـ من إبراهيم مجردَ المجادلة والنقاش في قوم لوط، مع أن مجادلَة إبراهيم للملائكة في عقاب قوم لوط لم تكن رداً لأمر الله، وإنما كانت لأجل أن بينهم مؤمنين، كما كانت مجادلته للملائكة طلباً للإمهال لعلهم يؤمنون، ذلك أن قلب إبراهيم قلب رحيم، ولذلك أتى الله بالعلة التي من أجلها جـادل إبراهيم الملائكة. . .

---

(١) مريم: ٦٤.

(٢) الكهف: ٢٣.

(٣) هود: ٨١.

(٤) هود: ٧٤ـ ٧٦.

فقال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ﴾، فإبراهيم حليم لا يعجل بالعقوبة، فهو رحيم، لذلك قالوا إن اسمه مركب من (أب ورحيم)، وإبراهيم أواه: أي يكثر من قول (أوّه، أوّاه)، وهو اسم فعل مضارع بمعنى أتوجع، والتأوهُ رقة في القلب، تخرج بإخلاص من القلب، فإن كان التأوه من الأعلى فهذا يعني الخوف، وإن كان التأوه للأقل فهو (رحمة ورأفة) فتأوهه عليه السلام هنا لله تعالى خوفاً وخشية، وتأوهه للأقل، هو على هؤلاء الجهلة وما ينتظرهم من العذاب، وقوله تعالى: (منيب) أي: رجّاعٌ إلى الله وإلى الحق في أموره كلها. فصار معنى الآية السابقة: ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ أن ما اقترحتموه لو حصل لكان سيئ النهاية عليكم من حيث لا تشعرون، وكان مثلكم كمثل من يسعى إلى حتفه بظلفه، فاقتراحكم أن تروا الملائكة عياناً، فإن كان على الصورة الحقيقية للملك فستُصعَقون ولم تثبتوا لرؤيته، وإما أن نرسله على صورة رجل، وعندئذ سيقع لهم اللَّبس.

قال العلماء: ثم ظهرت مقدمات النبوة بعد الرؤيا الصالحة.

قال أصحاب السيرة: لما بلغ ﷺ الأربعين، واقتربت ساعة النبوة ودنت مقدماتها، فها هو ﷺ إذا غدا لقضاء حاجة أو راح إلى مكان لا يمر بشجر ولا حجر إلا قال له السلام عليك يا رسول الله، فيلتفت حوله يميناً وشمالاً فلا يرى أحداً يسلم عليه سوى الحجر والشجر، وهذا الأمر كان قبل لقاء الملك في الغار، وعندها قال ﷺ: «**لقد خشيت على نفسي**».

أما بعد ﴿ٱقْرَأْ﴾ فلا خشية.

قال الشيخ أبو شامة: وقد كان ﷺ يرى عجائب قبل بعثته، فمن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه من حديث جابر بن سُمرة أنه ﷺ قال: «**إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أُبعَثَ، إني لأعرفه الآن**». .

وذكر ابن إسحاق أن رسول الله ﷺ حين أراد الله كرامته، وابتدأه بالنبوة كان إذا خرج لحاجته أبعد حتى يَحسِر البيوتَ عنه، ويُفضي إلى شعاب مكة وبطون أوديتها، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: السلام عليك يا رسول الله، قال فيلتفت حوله عن يمينه وعن شماله وعن خلفه فلا يرى إلا الشجرة والحجارة، ومكث على ذلك يرى ويسمع ما شاء الله أن يمكث، ثم جاء جبريل بما جاء من الكرامة، وهو بغار حراء في رمضان.

وهاهو البخاري يحدثنا عن هذا من حديث عائشة كما ورد في الصحيحين: فتذكر أن أول ما بُدئ به ﷺ الرؤيا الصالحة، ثم حبب الله إليه الخلوة، ثم جاءه الحق وهو في غار حراء، فتقول ـ بعد أن ذكرت الرؤيا الصالحة ثم الخلوة ـ فجاءه الملك فقال: اقرأ. قال ﷺ: «**ما أنا بقارئ**»، قال ﷺ: «**فأخذني فغطني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال:** ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (١)».

فرجع بها ﷺ ـ أي رجع بالآيات التي أمليت عليه ـ متلبساً بها، أي قد وعاها ـ يرجف فؤاده حتى دخل على خديجة بنت خويلد فقال: «**زملوني، زملوني**» فزملوه حتى ذهب عنه الروع، فقال لخديجة وأخبرها الخبر: «**لقد خشيت على نفسي**» فقالت خديجة: كلا والله، ما يخزيك الله أبداً؛ إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسِبُ المعدومَ، وتُقري الضيف، وتُعين على نوائب الحق.

وذكر المؤرخون: أن ظهور الخط عند العرب أولُ ما كان عند أهل الأنبار، وأول من أدخل الكتابة إلى الحجاز، هو (حرب بن أمية)، تعلمه من شخص اسمه (أسلم بن سدرة) وأسْلَم تعلمه من (مُرامِر بن مرة) وكان الخط سابقاً عند (حمير) باليمن، ويُسمى (المُسند) وكان العرب يُعظّمون الكتابة، ويعدونها من خصائص أهل الكتاب.

كما قال أبو حيَّة النميري:

كما خُط الكتاب بكف يوماً   يهوديٍ يُقارب أو يُزيلُ (٢)

إخبار خديجة لورقة بن نوفل بما حصل للنبي ﷺ: قال العلماء: لما وصل النبي ﷺ إلى خديجة وقصَّ عليها ما شاهد، وقالت له ما قالت، واصلت خطابها للنبي ﷺ مشجعة له فقالت: أبشر يا ابن عم فو الذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة. ثم جمعت ثيابها عليها، وانطلقت إلى ورقة بن نوفل ـ ابن عمها ـ وكان قد تنصّر، وقرأ الكتب، وسمع من أهل التوراة والإنجيل، وقالت لورقة: يا ابن عم اسمع من ابن أخيك، فقال ورقة: يا ابن أخي ماذا

(١) العلق: ١ ـ ٥.

(٢) يباعد في الخط.

ترى؟ فاخبره ﷺ بما رأى فقال له ورقة: هذا الناموس الأكبرالذي نزل على موسى، يا ليتني فيها جذع، ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.

فقال النبي ﷺ: «**أوَمُخرجيَّ هم؟**». فقال ورقة: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عوديَ، وإن يدركنـي يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

هنا سؤال: لماذا قال ورقة إنه الناموس الأكبر الذي نزل على موسى بالتوراة ولم يذكر الإنجيل وعيسى؟ قال العلماء: الناموس صاحب سر الخير، والجاسوس صاحب سر الشر والجواب: أن التوراة كانت فيها شريعة قائمة، عمل بها النبيون من بعد موسى، وجاء عيسى لإحيائها بعد أن أهمل اليهود تعاليم التوراة. . ولذلك ورد عن عيسى قوله: (جئت لإحياء الناموس) ولأن النصارى لا يقولون عن عيسى إنه نبي مرسـل يـأتيه الوحي (جبريل)، وإنما يقولون هو جزء من الله تعالى، ولذلك عدل ورقة بن نوفل عن عيسى إلى موسى.

قال أصحاب السيرة: وكان ﷺ عندما جاءه الوحي بـ ﴿ٱقۡرَأۡ . . ﴾، لم يتمم المدة التي كان يقضيها في غار حراء متحنثاً متعبداً كما ذكرنا، ولذلك عاد بعد هذه الحادثة إلى غار حراء لإتمام مدة تحنثه، فلما أتمها وعاد، بدأ بالكعبة فطاف بها سبعاً كعادته، فلقيه ورقة وهو يطوف فقال للنبي ﷺ: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره النبي ﷺ. فقال ورقة: والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جـاء موسى، ولتُكذَّبَنّه، ولتُؤذَيَنه، ولتُخرجَنّه، ولتُقاتلَنّه، ولئن أنا أدركتُ ذلك اليوم لأنصرنك نصراً يعلمه الله ، ثم أدنى رأسه من النبي ﷺ وقبل يافوخه(١)، ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى منزله.

ولذلك أخرج الترمذي أن النبي ﷺ رأى ورقة في المنام وعليه ثياب بيض. وورد عنه ﷺ قوله: «**رأيت القسَّ في الجنة وعليه ثياب الحرير لأنه أول من آمن بي**».

حرص خديجة على معرفة الحقيقة: وخديجة ـ رضي الله عنها ـ لحرصها على معرفة الحقيقة في أمره ﷺ، وليكون إيمانها بعلم ويقين، أجرت اختباراً ذكره المؤرخون، فقد رووا: أنها قالت للنبي ﷺ: يا ابن عم، هل تستطيع أن تُخبرني بصاحبك الذي يأتيك إذا جاءك؟ فقال ﷺ: نعم. قالت إذا جاءت فأخبرني به، فلما جاء جبريل كما كان يجيؤه قال ﷺ لخديجة: هذا جبريل قد

---

(١) وسط الرأس، واليافوخ يطلق على رأس الرجل إذا كبر واشتد، ولا يُطلق على رأس الطفل يافوخ حتى يشتد، وإنما يُسمى الغاذية.

جاءني. قالت خديجة عندها: يا ابن عم قم فاجلس على فخذي الأيسر، فقام ﷺ فجلس على فخذها اليسرى، قالت خديجة: هل تراه؟ قال ﷺ: نعم. قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى، فتحول ﷺ إلى الفخذ اليمنى وجلس، قالت خديجة: هل تراه؟ قال ﷺ: نعم. . . قالت فتحول فاجلس في حجري، فتحول ﷺ فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال ﷺ: نعم. فتحسّرت وألقت خمارها، ورسول الله ﷺ في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال ﷺ: لا. وفي رواية: أدخلت رسول الله ﷺ بينها وبين درعها فذهب جبريل عند ذلك، ثم قالت خديجة للنبي ﷺ: يا ابن عم: اثبُت وأبشر، فوالله إنه مَلَك، وما هذا بشيطان.

قال العلماء: وبهذا كانت خديجة أول من استضاء بنور النبوة المحمدية، وأول من آمن برسول الله ﷺ، والوحي الذي جاءه، كما أن ورقة بن نوفل كان من الفائزين بالأسبقية لولا أن المنية اخترمَتْهُ فلم يشهد ضحى الشمس المحمدية وإشراقَها فمات قبل قيامه ﷺ بالدعوة، وكان قد وعد النبي ﷺ بالنصر إذا بقي حياً.

ومن شعره في ذلك:

لَجِجتُ وكنتُ في الذكرى لجوجا ... لهمٍّ طالما بعثَ النشيجا
ووصفٍ من خديجة بعد وصفٍ ... فقد طال انتظاري يا خديجا
ببطن المكتين على رجائي ... حديثُك أن أرى منه خروجا
بما خبّرتنا من قولِ قَسٍّ ... من الرهبانِ أكرهُ أن يعوجا
بأن محمداً سيسود قوماً ... ويخصِمُ من يكون له حجيجا
ويظهر في البلاد ضياء نورٍ ... يُقيم به البرية أن تموجا
فيلقى من يُماريه خساراً ... ويلقى من يُسالِمُهُ فلوجا
فيا ليتي إذا ما كنتُ فيهم ... شهدتُ وكنتُ أوَّلهم ولوجا
ولوجاً بالذي كرهت قريش ... ولو عجَّت بمكتها عجيجا
أرجي بالذي كرهوا جميعاً ... إلى ذي العرش إن سَفلوا عروجا
وهل أمر السّفالة غيرُ كفرٍ ... بمن يختارُ مَنْ سَمَكَ البروجا
فإن يبقوا وأبقَ تكنْ أمورٌ ... يضجُّ الكافرون لها ضجيجا
وإن أهلك فكل فتى سيلقى ... من الأقدار مُتلِفةً حروجا

ما هي النتائج والعبر لهذا القسم من السيرة النبوية العطرة:

- هذه الفقرة تقرر سنة غالبة وهي أن الأنبياء يُرسلون على رأس الأربعين من أعمارهم.
- كما يظهر من هذه الفقرة آية من آيات النبوة المحمدية وهي سلام الأشجار والأحجار عليه ﷺ.
- تقرير أن الرؤيا الصالحة جزء من ست وأربعين جزءاً من النبوة.
- مشروعية العزلة إذا فسد الناس وأصبح المسلم لا يَسْلَمُ من شرِّهم.
- بيان فهم خديجة وكمال عقلها، وبيان صحة علم ورقة بن نوفل، وفضل كل منهما، وكمالِهِ الروحي، وفيه بيان لذكاء خديجة وسلامة فطرتها حين قامت بهذا الاختبار العجيب فآمنت بمحمد ﷺ عن علم ويقين. وقد قال ﷺ في ورقة: «**لا تسبوا ورقة فإن رأيت له جنة أو جنتين**».
- بيان أن الملائكة تكون مع الحياء والسِّتر، وبيان أن الشياطين تكون مع التعري والفحش والوقاحة كما بين ذلك صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب.
- بيان استحباب ستر المرأة رأسها ولو في خلوتها.
- أول ما نبئ به ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . ﴾ قالها الملك حين قال ﷺ: «**ما أنا بقارئ**» أي إني أميّ لا أقرأ الكتب

فقيل له بعدها: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ . . ﴾ أي: إنك لا تقرؤه بحولك ولا بصفة نفسك، ولا بمعرفتك، ولكن اقرأ مُفتتحاً باسم ربك، مُستعيناً به، فهو يُعلمك كما خلقك، وكما نَزَع عنك علَق الدم، ومَغمزَ الشيطان بعدما خلقه فيك كما خلقه في كل إنسان.

قال صاحب الروض الأنف: الآيتان المتقدمتان للنبي ﷺ، ثم تأتي الآيتان الأخيرتان لأمته ﷺ وهما قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾؛ لأنها كانت أمة أمية، لا تكتب، فصاروا أهل كتاب، وأصحاب قلم، فتعلموا القرآن بالقلم، وتعلّمه نبيهم تلقيناً من جبريل، تزّله على قلبه بإذن الله ليكون من المرسلين.

إذاً، النبوة لمحمد ﷺ كانت بقوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ . . ﴾ والنبوة قبل الرسالة، ثم أرسله

الله بالمدثر بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢﴾، ولا شك أن نزول: يا أيها المدثر كان قبل نزول يا أيها المزمل لأن عناد المشركين زاد بعد نزول (يا أيها المدثر)، فكان التعرض لهم ولضلالهم في سورة المزمل أوسع. وفي هذه الفقرة بيان، أن على المسلم أن يقرأ، وأن يطلب العلمَ والتعلُّم، لأن ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب. وتلحظ هنا نعمة الله على الإنسان بالبيانين، البيان النطقي، والبيان الخطي، كما ذكر عز وجل في: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ٥﴾ - خَلْقَين وتَعليمَيْن، خلقاً عامّاً، وخلقاً خاصاً، وتعليماً عامّاً، وتعليماً خاصّاً للنبي ﷺ.

قال الصادق عرجون: خاطبه المَلَك مناماً ويقظةً بـ (اقرأ) وفي كلتا الحالتين لم يتعلق الأمر بمقروء معين. لماذا؟ قالوا: إنما أراد الله بذلك توجيهَ النبي ﷺ إلى عنوان رسالته في عمومها الفكري، واعتمادَها على العلم والمعرفة بأوسع مفهوميها، أما بالنسبة لمحمد ﷺ فكلمة (اقرأ)، فالقراءة المطلوبة قراءة إعجاز، لا قراءة تعلم، أما قراءة غيره فيقرأ بتعلُّم، أما أنت فقراءة إعجاز للقارئين وغيرِ القارئين، ولذلك قال تعالى: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ﴾.

الفصل الخامس والثلاثون
فترة الوحي وعودته

قال أصحاب السيرة: بعد تلك المفاجأة السارة بنزول جبريل له ﷺ ولخديجة ولورقة، وبعد نزول سورتي العلق والقلم، فَتَرَ الوحيُ وانقطع قرابة أربعين يوماً ـ وقيل أياماً ـ ومات ورقة.

قال العلماء: وكان هذا الانقطاع لطفاً من الله بنبيه ﷺ، ورحمة به، ليستجمَّ من عناء ما لاقى من روع المفاجأة، وشدة الغطّ، ليزداد تشوقاً. وشوقاً إلى تتابع الوحي، وأخذِهِ بقوة روحانية مجانسة لروحانية الملأ الأعلى، وتثبيتاً له ﷺ، وتقوية لروحانيته ﷺ. وبلغ الشوق لجبريل مبلغه في نفس رسول الله ﷺ مما دفعه إلى الخروج إلى جبال مكة وشعابها، وكان كلما اشتد به الحزن تبدّى له جبريل يقول له: يا محمد. إنك رسول الله حقاً. فيخف حزنه، ويقلُّ ألمه، حتى انتهت فترة الانقطاع الأول.

وتمضي الأيام، وفجأة وهو يمشي ﷺفإذا به يسمع صوتاً من السماء فيرفع بصره، فإذا الملك جبريل الذي جاءه في غار حراء قاعدٌ على رفرف[1] بين السماء والأرض، فَرَعب منه ﷺ ورجع إلى أهله يقول: «زملوني، زملوني. . دثروني[2]» فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥﴾[3]. فكانت سورة المدثر أول ما نزل من القرآن بعد فترة الوحي الأولى. قال العلماء: ثم تتابع نزول السور، فنزل بعد سورة المدثر ثمانية سور، ثم انقطع الوحي الانقطاع الثاني، فنزلت بعده سورة (الضحى).

ففي البخاري عن حديث جندب بن عبد الله البجلي قال: اشتكى رسولُ الله ﷺ فلم يقم ليلة أو ليلتين أو ثلاثاً، فقالت امرأة: يا محمد: ما أرى شيطانك إلا تركك، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثاً، فأنزل الله ـ عز وجل ـ سورة الضحى.

وقد جاء تعيين المرأة في رواية رواها الحاكم عن طريق زيد بن أرقم قال: إن المرأة هي

---

(١) بساط من استبرق وهو الحرير الغليظ.

(٢) التدثر والتزمل بمعنى واحد وهو التلفف بالثياب للتدفئة وذهاب الفزع.

(٣) المدثر: ١ـ٥.

امرأة أبي لهب العوراء أم جميل، وكان هؤلاء الأعداء جيرانَ سوء لرسول الله ﷺ يستمعون إليه ويرقبون مدخله ومخرجه، وصحوه ونومه. وبيوت العرب لم تكن في حينها كثيفة الحجاب، طويلة الجدران، وكانوا يسمعون قراءته ﷺ في جوف الليل إذا قام للتهجد، فلما اشتكى ومرض رسول الله ﷺ فلم يقم ليلتين أو ثلاثاً، ولم يسمعوا صوته في هذه المدة، ظنوا به ظنّ السوء، وطعنوا بنبوته ﷺ، فأنزل الله (والضحى) تنافحُ عنه تلطفاً، وتثبيتاً لفؤاده، ورداً لتقولات أعدائه وشائنيه، وتحريكاً لعوامل الشوق إلى مثل ما عهد ورأى، وسمع وذاق من حلاوة الاتصال بالملأ الأعلى عن طريق الوحي. وكانت مدة الانقطاع اثني عشر يوماً، أو خمسة عشر يوماً، وقد نزلت سورة الضحى على رسول الله ﷺ، وهي الحادية عشر من السور في ترتيب النزول (العلق والقلم) أولاً، ثم كانت فترة انقطاع الوحي الأولى، ثم عاد الوحي بثماني سور، ثم كان الانقطاع الثاني والذي عاد بسورة (الضحى).

نتائج وعبر من هذه القطعة من السيرة:

أولاً: ظهور علائم نبوته ﷺ كان بالرؤيا الصادقة، ولذلك قال علقمة بن قيس: أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام أولاً حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي ـ أي في اليقظة ـ وقال عياض: وإنما ابتدئ رسول الله ﷺ بالرؤيا الصالحة لئلا يفجأه المَلَك جبريل بالرسالة فلا تتحملها القوى البشرية، فكانت الرؤيا أنيساً له ﷺ، ثم حبب الله إليه الخلوة استعداداً لحضن الرسالة، ولذلك قيل: الخلوة صفوة الصفوة، وقد روى ابن إسحاق: أن جبريل أتى النبي ﷺ أولاً مناماً، وغطّه ثلاثاً، وقرأ عليه أول سورة (اقرأ).

وكان ذلك قبل مجيء جبريل يقظة في الغار بيوم أو يومين، وذلك ليلة السبت أو الأحد، ثم ظهر ذلك يقظة يوم الاثنين، كما ذكر صاحب (الدّحلانية). وقال الشيخ أبو زهرة: وهكذا ننتهي إلى حقيقة ثابتة متفقة مع مجموع النقول، وتتلاقى مع العقول وهي: أن اللقاء بالروح القدس كان مناماً أولاً ثم تكون المشاهدة في اليقظة.

ثم رأينا سلام الحجر والشجر عليه، وإلى هذا أشار في السيرة الحلبية:

لم يبق من حجرٍ صلبٍ ولا شجر   إلا وسلّم بـــل هنّاه ما وُهِبـا

وكل ذلك كان قبل البعثة، وإلى هذا أشار السبكي بقوله:

وما جُزت بالأحجار الا وسلّمت عليـــك بنطقٍ شاهد قبل بَعثه

ثم رأينا كيف حببت إليه الخلوة، فخلا في غار حراء يأكل الكعك بالزيت، ومرات يتزود بالسويق؛ لأن هذه الأطعمة لا تتأثر بطول المدة.

وغار حراء: كهف صغير على جبل (حراء)، وهو جبل في الشمال الشرقي من مكة يبعد عنها قرابة ثلاثة أميال لا زرع حوله ولا غراس، بل الطريق إليه مُدَعثَرٌ لا يصل إليه الراقي إلا بعد ساعتين في طريق غير معبد، فإذا وصل إلى سفح الجبل فلا يستطيع الوصول إليه (أي إلى الغار) بأقل من ساعة، وهو كهف موحش، يشعر الداخل إليه برهبة[أ] وعزلةٍ عن الناس، لأن الغار يقع وراء صخرتيـن كبيرتين تعترضان داخله، قد ضيق الله ما بينهما.

فإذا تجاوزهما الداخلُ أحسَّ بأنه منعزل عن العالم عزلة كاملة، وهذا الاختيار إلهام رباني جمع بين حياتين، الأولى صعبة، والثانية رهبة، وكانت نهايتهما سعيدة. طوله أربعة أذرع، وعرضه ذراعان إلا ربعاً، ثم كان فيه الوحي يقظة بقوله (اقرأ)، وكان ذلك في يوم الاثنين لإحدى وعشرين ليلة من رمضان الموافق ١٦ آب (اغسطس) سنة ٦١٠م.

وفي هذا قال يحيى بن يوسف الصرصري:

وأتت عليه أربعون فأشرقت شمس النبوة منه في رمضان

هنا سؤال: لم اختص عليه الصلاة والسلام بغار حراء يخلو به ويتحنث به دون غيره من المواضع ولم يغيره طول تعبده. . ؟ والجواب: أن ذلك الغار فيه ثلاث ميزات جمعت ثلاث عبادات:

- أولها: الخلوة، والخلوة عبادة كما جاء في بعض الآثار أن الخلوة عبادة.
- وثانيها: زيد على الخلوة التحنث وهو التعبد فكان ذلك نوراً على نور.
- وثالثها: النظر إلى البيت الحرام، والنظر إلى البيت عبادة.

وسؤال آخر يأتي: لماذا غطه جبريل حتى بلغ منه الجهد؟ والجواب: أن كلام الله _ عز وجل _ حين نزوله ثقيل يشهد له قوله تعالى: (إنا سنلقي. .)، فالغطُّ هنا وشدته تدريج لحمل

الثقل وتدريب، كما أن كتاب الله لا يؤخذ إلا بالقوة. قال تعالى: ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ (١). فهناك بالقول، وهنا بالفعل والأمر، وقد ذكر السهيلي في الروض الأُنف: أن الغط كان ثلاثاً. ثم قال: إن الغطَّ ثلاثاً، إشارة إلى أنه ﷺ سيحصل له شدائد ثلاث، ثم يحصل له الفرج بعد ذلك.

وقد وقع له ﷺ مع قريش ثلاث شدائد:

١ـ حصار قريش له في الشعب.

٢ـ محاولة القتل.

٣ـ إخراجه ﷺ من مكة أحب أرض الله إليه ﷺ.

وقال الخطابي رحمه الله تعالى: إنما كان الغط ليبلو صبره ﷺ على تحمل أعباء الرسالة، وقال آخرون: إنما كان الغط ليتنبه إلى عظمة ما يُلقى عليه. قال العلماء: ثم بعد ذلك كان الأمر بالدعوة مع ست وصايا بقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ ٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ ٤ وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ ٥ وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ ٦ وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ ٧﴾ (٢). وقوله: يا أيها المدثر: مناداة للنبي ﷺ بوصف لحالة كان عليها حين نزلت السورة، وذلك أنه لما رأى الملك بين السماء والأرض فَرِقَ من رؤيته فرجع إلى خديجة فقال: «**دثروني، دثروني، زملوني**» فدثرته فنزلت: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ. .﴾. والمزمل نزلت بعد المدثر.

قال العلماء: والأصل في النداء أن يكون باسم المنادى العلم إذا كان معروفاً عند المتكلم، ولا يعدل عن الاسم العلم إلى غيره من صفة أو بإضافة إلا لغرض يقصده البلغاء من تعظيم وتكريم، نحو: يا أيها النبي، أو تلطف وتقرب نحو: يا بني، يا أبت. أو قَصْدَ تهكُّم، نحو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِي نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلذِّكۡرُ إِنَّكَ لَمَجۡنُونٞ ٦﴾ (٣)، فإذا نودي المنادى بوصف هيئة من لِبسة أو جلسة أو ضِجعة كان المقصود ـ غالباً ـ التلطف، والتحبب إليه ولهيئته، ومن ذلك قوله ﷺ لعلي ـ وقد وجده مضطجعاً في المسجد: «**قم يا أبا تراب**»، وقوله ﷺ لحذيفة بن اليمان يوم الخندق: «**قم يا**

(١) مريم: ١٢.

(٢) المدثر: ٧.

(٣) الحجر: ٦.

نومان»، وقوله لعبد الرحمن بن صخر الدوسي ـ وقد رآه حاملاً هرة في كمه ـ: «**يا أبا هريرة**».

والمدثر: اسم فاعل من تدثر، إذا لبس الدّثار، والمدَّثر: أصله المتدثر، وأدغمت التاء بالدال لتقاربهما في النطق مثل: ادعى. والدثار: هو الثوب الذي يلبس فوق الثوب المباشر للجسد المسمى (شعاراً)، وفي الحديث: «**الأنصار شعار، والناس دثار**». وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝١ قُمۡ فَأَنذِرۡ ۝٢﴾ صار معناها كما قال صاحب التحرير والتنوير وغيره: يا أيها المدثر من الخوف لرؤية الملك لا تخف، وأقبل على الإنذار. ولماذا ابتدأ بالإنذار؟ والجواب: لأن الإنذار يجمع معاني التحذير وهو اللائق قبل الأمر بالمحامد، لأن التخلية مقدمة على التحلية، ولأن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح، ولأن أغلب أحوال الناس يومئذ محتاجة إلى التحذير والإنذار. وقوله: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرۡ﴾ أي لا تكبر غيره، فهو قصر إفراد دون الأصنام، وهذا يعني وصف الرب بصفات التعظيم، كما يشمل تنـزيهه عز وجل عن النقص، ويشمل توحيد الإلهية، وتنـزيهه عن الولد، ويشمل وصفه بصفات الكمال، ويشمل التكبير أيضاً، أي مهما يكن شيء فكبر ربك. ولهذا جُعلت هذه الكلمة (الله أكبر) لافتتاح الصلاة. واقتران هذه الآية بالآية التالية: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ إعداد لشرع الصلاة، فالظاهر أن مبدأ الصلاة كان قد فُرض بعد هذه السورة، لأنه ثبت أنه ﷺ صلّى بالحرم وهي غير الصلوات الخمس. وقوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ أي لا تترك تطهير ثيابك، والثياب: تطلق على ما يلبسه اللابس. وقد يُكنَى بالثياب عن الذات كقول عنترة:

فشككتُ بالرمح الأَصمِّ ثيابه ... ليس الكريـمُ على القنا بمحرم

وهذا كناية عن طعنه بالرمح. والتطهير: هو التنظيف وإزالة النجاسات، كما يُطلق التطهير على تزكية النفس كذلك، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ (1).

والآية: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرۡ﴾ تشمل المعنيين، لأنه ﷺ مأمور بالطهارة الحقيقية لثيابه إبطالاً لما كان عليه أهل الجاهلية من عدم اكتراثٍ بذلك. وقد وردت أحاديث بذلك أقواها ما رواه الترمذي: «**إن الله نظيف يحب النظافة**». ثم هو ﷺ مأمور بتزكية نفسه، والعرب تقول: فلان نقي الثوب، إذا كان زكيّ النفس، قال غيلان بن سلمة الثقفي:

---

(1) الأحزاب: ٣٣.

وإني بحمد الله لا ثوبَ فاجرٍ لبستُ ولا مـــن غدرة أتقنَّعُ

ومنه قول امرئ القيس:

ثيابُ بني عوفٍ طَهارى نقيةٌ وأوجهُهم بيضُ المسَافِرِ غُرّانُ

ثم قال تعالى: ﴿وَٱلرُّجۡزَ فَٱهۡجُرۡ﴾ والرجز فيها لغتان بضم الراء وكسرِها بمعنى واحـد، ويشمل الرجز: الأوثان، وأكل الميتة. . وغير ذلك من عقائد الجاهلية، وأفعالها، ويعني: عدم الاقتراب منها، وأن ينفي عنها الإلهيـة. ﴿وَلَا تَمۡنُن تَسۡتَكۡثِرُ﴾ عطـف على ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُر﴾، وما هي المناسبة بين المعطـوف والمعطوف عليـه؟

والجواب: أنه لما أمره ربه بهجر الرجز، نهاه عن أخلاق أهل الرجز (الشرك)، ذلك لأن المنَّ بالعطية كثير في أهل الشرك، فكأن الله تعالى يقول: (تصدق وأكثر من الصدقة، ولا تعدَّ ما أعطيته كثيرا، فتُمسك عن الزيادة، أو تندم على ما أعطيت.

قال العلماء: وفي الآية إيماء إلى التصدق، كما كان في الآيات التي قبلها إيماء إلى الصلاة، ومن عادة القرآن الجمعُ بين الصلاة والزكاة. ثم قال تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَٱصۡبِرۡ﴾ وهذه الآية تثبيت للنبي ﷺ على تحمل ما يلقاه من أذى المشركين، وتحمُّلِ مشاق الدعوة. قال العلماء: وهذه ست وصايا أوصى الله بها رسوله ﷺ في مبدأ رسالته، وهي من جوامع القرآن، أراد الله ـ عز وجل ـ بها تزكية رسوله ﷺ، وجعل هذه الوصايا قدوة لأمته.

الفصل السادس والثلاثون
أنواع الوحي المحمدي وصوره

ذكرت سورة الشورى أنواع الوحي، وكان في ذلك رد على اليهود الذين قالوا للنبي ﷺ: ألا تكلم الله، وتنظر إليه إن كنت نبياً كما كلمه موسى ونظر إليه؟

فقال ﷺ: «**لم ينظر موسى إلى الله عز وجل**». ثم نزلت الآية رداً على اليهود أو على المشركين الذين أشار عليهم اليهود بذلك القول، قال تعالى: ﴿ ۞ **وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ** ﴾ (١).

قال العلماء: الوحي: هو الإعلام السريع الخفي بكلام أو إشارة أو كتابة، ويكون هذا الإعلام: يقظة، أو مناماً، فإن رؤيا الأنبياء وحي، ورؤيا المؤمنين جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة، كما ثبت ذلك في الصحاح، يؤيد ذلك قول عبادة بن الصامت ـ ويروى مرفوعاً كما ذكر ذلك ابن تيمية في مجموعة الفتاوى(٢) ـ: رؤيا المؤمن كلام يكلمه الرب عبده في المنام وقد يكون هذا الإعلام السريع الخفي في اليقظة، كما ثبت في صحيح البخاري عن النبي ﷺ أنه قال: «**قد كان في الأمم قبلكم محدثون، فإن يكن في أمتي فعمر**»، وفي رواية في صحيح البخاري كذلك: (**مكلَّمون**). قال ابن وهب: أي ملهمون. وهذا النوع من الإلهام يقع ويحصل للأنبياء ولغير الأنبياء. . .

ومما ورد على نبينا من هذا النوع ما رواه أبو نعيم في الحلية، وهو صحيح شواهده، وصححه الحاكم أنه ﷺ قال: «**إن روح القُدُس نفث في رُوْعي أنه لن تموت نفس حتى تستوفي رزقها وأجلها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب، ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله، فإن ما عند الله لا ينال إلا بطاعته**».

وقال عز وجل: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى ٱلْحَوَارِيِّـۧنَ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِى وَبِرَسُولِى قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَٱشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴾ (٣). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ﴾ (١). وقوله تعالى:

---

(١) الشورى: ٥١.

(٢) ج ١٢ ص ٢٧٨.

(٣) المائدة: ١١١.

﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴾ (٢). وقال في سورة الزلزلة: ﴿ يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ﴿٤﴾ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ﴿٥﴾ ﴾ (٣). وقال ـ عز وجل ـ في سورة الأنفال: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ ﴾(٤).

فالوحي للجماد وحيُ تسخيرٍ، والوحي لبعض المخلوقات الأخرى وحي إلهام وتسخير: كالنحل والسُّرفةِ(٥)، والعنكبوت، وهو ما فُطر عليه هذا الحيوان من الإلهامِ المُتقن الدقيق، وبعضها بالتسخير والإلهام والعقل المتفق على نظام واحد، كالملائكة. وبعضها بكل ذلك والفكر والتمييز والأعمال المختلفة المبينة على الفكر كالإنسان؛ فالإنسان قد يتوقع قدوم صديق من سفر، أو لوناً من الطعام يشتهيه، فيجده أمامه أو على المائدة.

قال صاحب التحرير والتنوير: وليس الإلهام ـ لغير الأنبياء ـ بحجة في الدين؛ لأن غير المعصوم لا يوثَق بصحةِ خواطره، لأن غير الأنبياء قد يتعرضون لوسوسة الشيطان.

إذاً. الوحي إلى الرسل وإلى محمد ﷺ يكون كما مر معنا بالطرق التالية:

أولاً: بالرؤيا الصادقة.

ثانياً: ما كان الملك يُلقيه في روعه، وهو ما سُميَ بالإلهام.

ثالثاً: أن يتمثل له الملك رجلاً فيخاطبه، وفي هذه الحالة، وهذه المرتبة كان يراه الصحابة أحياناً.

وفي الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ: أن الحارث بن هشام سأل النبي ﷺ: كيف يأتيك الوحي؟ قال ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثلَ صلصلة الجرس، وهو أشده عليّ، فيفْصم**(٦) **عني وقد وعيتُ ما قال، وأحياناً** ـ وهنا الشاهد ـ **يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي**

---

(١) القصص: ٧.

(٢) النحل: ٦٨.

(٣) الزلزلة: ٤ـ٥.

(٤) الأنفال: ١٢.

(٥) اليرقة التي تصنع خيوط الحرير.

(٦) يبتعد يذهب.

ما يقول». فأخبر ﷺ أن نزول الملك عليه تارة يكون في الباطن بصوت مثل صلصلة الجرس، وتارة يكون متمثلاً بصورة رجل يكلمه ـ كما كان جبريل يأتي النبي ﷺ في صورة دحية بن خليفة الكلبي، وكما تمثّل لمريم بشراً سوياً، وكما جاءت الملائكة لإبراهيم ولوط في صورة الآدميين، وقد سمى الله كلا النوعين ـ لقاء الملك وخطابه وحياً ـ لما في ذلك من الخفاء، فإنه في حال رؤيته يحتاج أن يعلم أنه ملك، وإذا جاء مثل صلصلة الجرس يحتاج إلى فهم ما في الصوت كما بيّن ذلك العلماء. وكان الصحابة أحياناً يرون هذه الصورة، وهي مجيء الملك على هيئة رجل، وقد وقع لعائشة أنها رأت جبريل على هيئة دحية الكلبي، فسألها النبي ﷺ: من هذا يا عائشة؟ قالت: دحية الكلبي، فقال ﷺ: إنه جبريل. وهذه الصورة هي التي جاء بها جبريل على النبي ﷺ في غار حراء في أول لقاء له مع النبي ﷺ يقظة، فاستقرأه، واستفرغ بالغط المتكرر بشريَّته، وأقرأه: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ..﴾، وكان دحية الكلبي وسيماً، وجيهاً، إذا قدم لتجارة خرجت الظُعُن لتراه؛ لأن أمينَ الوحي جبريل كان يأتي على صورته.

وقد روى النسائي بسند صحيح عن ابن عمر أن جبريل كان يأتي النبي ﷺ بصورة دحية الكلبي. قال تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلۡبِكَ بِإِذۡنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَهُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ (١). وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلۡأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلۡبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (٢).

والخطاب في قوله تعالى: ﴿قُلۡ مَن كَانَ عَدُوّٗا لِّجِبۡرِيلَ . .﴾ للرسول ﷺ، إذ كان قد جلس أحد أحبار اليهود مع رسول الله ﷺ ـ وهو ابن جوريا ـ كما ذكر المفسرون، قال ابن جوريا للرسول ﷺ: من الذي ينزل عليك بالوحي؟ فقال ﷺ: جبريل. فقال اليهودي: لو كان غيره لآمنا بك. . جبريل عدونا؛ لأنه دائماً ينزل بالخسف والعذاب، ولكن ميكائيل ينزل بالرحمة والغيث، والخصب.

قال العلماء: وجبريل عدوهم، لأنهم اعتقدوا أن بيت المقدس سيخربه رجل اسمه (بختنصر) فأرسل إليه اليهود من يقتله، فلقي اليهودي غلاماً صغيراً، وسأله الغلام ماذا تريد؟ قال اليهودي: إني أريد أن أقتل بختنصر لأنه عندنا في التوراة هو الذي سيخرب بيت المقدس،

---

(١) البقرة: ٩٧.

(٢) الشعراء: ١٩٢ـ١٩٤.

فقال الغلام: إن يكن مقدراً أن يخرب بيت المقدس فلن تقدر عليه؛ لأن المقدر نافذ سواء رضينا أم لم نرضَ. وإن لم يكن مُقدّراً فكيف تقتل نفساً بغير ذنب؟!!

فعاد اليهودي دون أن يقتل بختنصر، وعندما عاد إلى قومه وقصَّ عليهم الأمر قالوا له: إن جبريل هو الذي تمثل لك في صورة طفل وأقنعك ألا تقتل هذا الرجل. وورد أن عمر بن الخطاب كان له أرض في أعلى المدينة، وكان حين يذهب إليها يمر على مدارس اليهود ويجلس إليهم، وظن اليهود أن مجلس عمر معهم إنما يعبر عن حبه لهم، فقالوا له: إنا نحبك ونطمع فيك، ففهم عمر مرادهم فقال: والله ما جالستكم حباً فيكم، وإنما لأستزيد تصوراً لرسول الله ﷺ مما ورد في كتابكم، فقالوا له: من يخبر محمداً بأخبارنا؟ فقال عمر: إنه جبريل ينزل من السماء بأخباركم، قالوا: هو عدونا. . قال عمر: كيف منزلته من الله؟ قالوا: إنه يجلس عن يمين العرش، وميكائيل يجلس عن يساره. فقال عمر: ما دام الأمر كذلك فهما عند الله بمنزلة واحدة، وليس أحدهما عدواً للآخر، فمن كان عدواً لأحدهما فهو عدو لله، فلن تشفع لكم عداوتكم لجبريل، ومحبتكم لميكائيل لأن منزلتهما عند الله عالية.

ثم قال لهم عمر: إنكم أشد كفراً من الحمير، ثم ذهب إلى رسول الله ﷺ فلم يكد الرسول يراه حتى قال له: «**وافقك ربك يا عمر**». فقال عمر: يا رسول الله: إني بعد ذلك في إيماني لأصلب من الجبل.

رابعاً: أن يأتيه الوحي مثل صلصلة الجرس، وكان أشده عليه، فيتلبس به الملك حتى إن جبينه ليتفصد عرقاً في اليوم الشديد البرد، كما ورد في حديث الحارث بن هشام الذي في الصحيحين، وفيه قال ﷺ: «**أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت ما قال**». قال العلماء: وفي هذه الحالة لا تكون إلا في وحي اليقظة، ولقد عبّرت عائشة ـ رضي الله عنها ـ عن هذه الشدة فقالت: ولقد رأيته ينـزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإن جبينه ليتفصد عرقاً. وعبّر عنه ما رواه هشام بن عروة: أن النبي ﷺ كان إذا أوحي إليه وهو على ظهر ناقته وضعت جرانها فلم تستطع أن تحرك حتى يسري.

وعبّر عن تلك الشدة حديث زيد بن ثابت في البخاري قال: أنزل على رسول الله ﷺ وفخذه على فخذي، فكادت تُرَضُّ فخذي. وعبّر عن ذلك حديث أبي أروى الدوسي عند ابن سعد قال: رأيت الوحي ينزل على رسول الله ﷺ وإنه على راحلته، فترغو وتفتل يديها حتى أظن

أن ذراعها ينقصم، فربما بركت وربما قامت موتِّدة يديها حتى يسريَ عنه من ثقل الوحي. وإنه لينحدر منه مثل الجمان.

وفي حديث عبادة بن الصامت: أن النبي ﷺ كان إذا نزل عليه الوحي كرِب وتربد وجهه. وفي حديث عند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو قال: سألت رسول الله ﷺ فقلت: هل تُحسُّ بالوحي؟ فقال ﷺ: «**أسمع صلاصل ثم أسكت عند ذلك، فما من مرة يوحى إليَّ إلا ظننت أن نفسي تُقبض**».

وأجْمَلَ ابن عباس في البخاري التعبير عن هذه الحالة من الوحي فقال: كان رسول الله ﷺ يعالج من التنـزيل شدة. ويشير إلى هذه الشدة قوله تعالى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ (١). والثقل هو الشدة في تلقيه، وعنى به الوحي بنزول القرآن الكريم عليه ﷺ.

قال الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله: وقد تمسَّك بما يظهر من آثار الشدة على بشريته ﷺ من عرق وكرب قوم من أحلاس الشرك والنفاق وعبيد الاستشراق قديماً وحديثاً فقالوا: إن النبي مجنون يُصرع ليشككوا بالرسالة الإلهية.

وقد رد القرآن هذه الفرية بقوله عز وجل: ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ (٢)، ثم يقول رحمه الله تعالى: أي كيف يأتي المصروع المجنون بكلام هو في أعلى درجات البلاغة باعتراف فصحائهم، ويأتي بأسمى الحقائق الكونية، وأزكى الآداب الخلقية، وأفضل الشرائع التعبدية، ثم يبقى طوال حياته ﷺ على أرفع درجات الاستقامة صدقاً ووفاء؟

قال العلماء: ومن اللطائف في هذه الآية أنه عز وجل ذكر محمداً بلفظ الصحبة: ﴿مَا بِصَاحِبِهِم ﴾ أي فهم أعرف الناس به، وقد طالت صحبتُهُم له، وفي ذلك تأكيد للنكير ﴿مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍ ﴾ وتشديد له.

ثم يقول الصادق عرجون بعد ذلك: إن ظواهر الوحي كما حدثت، وعايَنَها أصحاب النبي ﷺ تنفي أن يكون أمراً مُتكَلَّفاً مصنوعاً، بل ثبت أنه أمر إلزامي سوي لا اختيار للنبي ﷺ

(١) المزمل: ٥.

(٢) الأعراف: ١٨٤.

فيه، وإنه تلقين من الله العزيز الحكيم بقوة وقدرة، وحكمة ورحمة ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾﴾ (١).

خامساً: الصورة الخامسة من صور الوحي أن يرى النبي الملك على صورته التي خلقه الله عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يوحيَه، وهذا وقع للنبي ﷺ مرتين. مرة في الأرض، فكانت في الأفق الأعلى من جانب المشرق، وذلك عندما طلب من جبريل أن يُرِيَه نفسَه على صورته التي جُبل عليها ـ كما جاء في سورة التكوير ـ ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ﴾ (٢) وكان ذلك بمكة من جهة جبل أجياد، وهذه كانت بعد أمر غار حراء، ومرة في السماء عند سدرة المنتهى. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾﴾ (٣).

قال الخازن في تفسيره: ولم ير جبريلَ أحدٌ من الأنبياء على صورته الملَكية التي خُلق عليها إلا نبينا محمد ﷺ. وورد عن ابن مسعود أن الأولى عندما سأل محمد ﷺ جبريلَ أن يراه على صورته الملكية، والثانية عند المعراج. وفي الصحيح من حديث عائشة قالت: لك يرَ محمد ﷺ جبريلَ في صورته إلا مرتين. عند سدرة المنتهى، وعند جبل أجياد(٤).

سادساً: القسم الأخير من أنواع الوحي: التكليم من وراء حجاب، كما تمَّ ذلك في ليلة الإسراء والمعراج حين فرضت الصلاة عليه وعلى أمته، وتردد على ربه عدة مرات يسأله التخفيف، وكما تم لموسى ذلك الكلام عدة مرات في الطور.

---

(١) الشعراء: ١٩٤.

(٢) التكوير: ٢٣.

(٣) النجم: ١٤.

(٤) أحد جبال مكة، وهو الجبر الأخضر بغربي المسجد الحرام، وفي رأسه منار يُقال إن أبا بكر الصديق أمر ببنائه ينادي عليه المؤذن في رمضان انظر الروض المعطار ص ١٢ـ١٣ وقال الخوارزمي: أجياد موضع بمكة يلي الصفا قال الأعشى:

فما أنت من أهل الحجون ولا الاصفا ... ولا لك حق الشُّرب من ماء زمزم

ولا جعل الرحمن بيتك في العلا ... بأجياد غربيّ الصّفا والمحرَّمِ

قال تعالى: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمٗا﴾[1]، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾[2]. وقال تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ وَقَرَّبۡنَٰهُ نَجِيّٗا﴾[3].

---

(١) النساء: ١٦٤.

(٢) الأعراف: ١٤٣.

(٣) مريم: ٥٢.

الفصل السابع والثلاثون
بدء الدعوة وأول من أسلم

قال أصحاب السيرة: بعد انقطاع الوحي فترة عاد حاراً حامياً، إذ أُمِر رسول الله ﷺ بإنذار قومه عاقبةَ ما هم فيه من الشرك، وما هم عليه من الكفر والفساد، فبدأ النبي ﷺ يعرض دعوته على من يرى فيه الاستعداد لقبولها، فكان ﷺ يلتقي بالمقربين منه، وبالصفوة المختارة من الصَّحْب الأبرار، وكان ذلك خفية. يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين: وإنما كانت الدعوة ابتداء الأمر خفية لتتكون نواة الإسلام وخليّتُهُ، فكان البذر بالكتمان؛ لأن الجهر يعرضها للهلاك قبل نموها، وقبل أن يشتد ساقها.

ثم قال رحمه الله: ومثل الدعوة الخفية كمثل تكوّن الجنين في بطن أمه، فإنه لا يظهر للوجود قادراً على مقاومة دواعي الفناء، والأخذ بأسباب القوة، وكذلك الدعوة لكل فكرةٍ تقتضي التدبير الخفي، ثم الإعلان الجلي.

ثم قال رحمه الله: والذي يجب أن يُعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة لم يكن استخفاءً بالدعوة، فقد كان ﷺ يعلن ما جاءه من نذير، وما في جعبته من تبشير، لكن الذي يستخفى به هو إقامة العبادة التي أمر بها رب العالمين عز وجل.

أول من أسلم:

اتجه النبي ﷺ إلى تكوين الخلية الأولى للإسلام، فاتجه إلى الذين يعاشرونه ابتداء، أولهم خديجة ـ أم المؤمنين ـ التي هي السكن والمواسية والحانية، والرفيقة، وأم أولاده. قال صاحب الروض الأنف: آمنت به خديجة بنت خويلد، وصدّقت بما جاء به من الله، وآزرته على أمره، وكانت أول من آمن بالله ورسوله، فخفف الله بها عن نبيه ﷺ. . .

فكان ﷺ إذا سمع شيئاً مما يكرهه، من ردٍّ عليه، أو تكذيبٍ له، فيحزنه ذلك إلا فرّج الله عنه بها إذا رجع إليها تثبته، وتصدقه، وتهوّن عليه أمر الناس، ولذلك بُشِّرت ببيت من قصب، ففي الحديث المرُسل، ولكن له شاهد عند مسلم من حديث هشام بن عروة قال: قال رسول الله ﷺ: «**أمرتُ أن أبشِّرَ خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب**».

فسألته خديجة: يا رسول الله هل في الجنة قصب؟ فقال ﷺ: «**إنه قصب من لؤلؤ**

مجبًّى[1]). هنا قد يرد سؤال: لماذا قال في الحديث: ببيت ولم يقل بقصر مع أن المقصود هنا القصر؟ والجواب ـ كما قال العلماء: أن كلمة البيت هنا تليق بصورة الحال، وذلك لأن خديجة كانت ربةَ بيتِ إسلام لم يكن على الأرض بيتُ إسلام غيرَ بيتها حين آمنت به ﷺ، فهي أول من بنى بيتاً في الإسلام برغبتها بالنبي ﷺ وبتزويجها منه.

وفي العربية: جزاء الفعل يذكر بلفظ الفعل، وإن كان أشرف من الفعل، ومن ذلك قوله ﷺ: «**من كسا مسلماً من عُري كساه الله من حُلل الجنة، ومن سقى مسلماً على ظمأ سقاه الله من الرحيق المختوم**».

قال العلماء: قابل الكسوة بالكسوة، والسقيا بالسقيا، وشتان بين كسوة وكسوة، وسقيا وسقيا، وإنما وقعت للماثلة. وكذلك لما كانت أولَ بانيةِ بيتٍ في الإسلام خاطبها بالمماثلة، وإن كان البيت في الجنة فيه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال الخطابي: والبيت في الحديث: هو القصر، وقد يقال لمنزل الرجل: بيتُه، والعرب تقول: هم أهل بيت شرف، وهم أهل بيت عز، أما قوله ﷺ: «**لا صخب فيه ولا نصب**» فهو على المماثلة كذلك، لأنها ـ رضي الله عنها ـ دعاها رسول الله إلى الإسلام فأجابته عفواً.

ولم تحوجه إلى جدال أو صخب كما يصخب الزوج إذا تعصّت عليه حليلته، كما لم تُحوجه إلى أن يَنْصَب، بل هي آزرته، وأزالت عنه كل نصب، وآنسته من كل وحشة، وأراحته بمالها من كل كدٍّ ونصب، فوصف منزلها في الجنة التي بُشرت به بالصورة المقابلة لفعالها. ولماذا قال من قصب ولم يقل من لؤلؤ مع أن القصب هو اللؤلؤ؟ والجواب: أن هنا كذلك للمقابلة بين لفظ الجزاء ولفظ العمل؟ لأنها ـ صلوات الله وسلامه عليها ـ أحرزت قصب السبق إلى الإيمان قبل غيرها من الرجال والنساء. والعرب تسمي السابق (محرزاً للقصب). . .

ومنه قول الشاعر:

مشى ابن الزبير القهقرى وتقدّمت ... أمية حتـــــى أحـــــرزوا القصبات

فكمال البلاغة هنا يقتضي أن يعبر بالعبارة المشاركة لعملها في كل ألفاظ الحديث الذي

---

(١) أي مجوف.

مرّ معنا.

قال صاحب كتاب خاتم النبين: وخديجة هي التي أرسل الله تعالى لها تحية طيبة مباركة، فقد ذكر ابن هشام قال: وحدّثني من أثق به أن جبريل أتى رسول الله ﷺ فقال: أقرئ خديجة السلام من ربها. فقال ﷺ لها: «**يا خديجة هذا جبريل يقرئك السلام من ربك**» فقالت ـ رضي الله عنها: الله السلام، ومنه السلام، وعلى جبريل السلام.

قال العلماء: دل هذا الجواب على فهم دقيق منها؛ إذ علمت أن الله تعالى لا يُرد عليه السلام كما يُرد على المخلوق، لأن السلام دعاء بالسلامة، فكان معنى قولها: الله السلام: أي كيف أقول عليه السلام والسلام منه يُسأل، وهو الذي يعطيه (أي السلام الذي هو دعاء بالسلامة)، ولذلك قالت: وعلى جبريل السلام (لأنه مخلوق) فلا يليق بالله تعالى إلا الثناء عليه، فجعلت مكان رد التحية الثناء على الله.

من هنا ندرك أن الصحابة لما قالوا في التشهد (السلام على الله من عباده) قيل لهم لا تقولوا هذا وقولوا: التحيات لله وهو ـ سبحانه وتعالى ـ السلام؛ لأن أفعاله سلام لا حيف فيها، ولا ظلم ولا تفاوت ولا اختلال. والسلام: مَنْ سُلِمَ منه. والسالم: من سَلِمَ من غيره، وانظر إلى قوله تعالى: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ﴾ (١). إذاً: يقال (سالِم) لمن تجوز عليه الآفة، ويتوقعها ثم يسلم منها، ولا يُقال لله عز وجل (سالم) لأنه تعالى منزه عن توقع الآفات، لأن البعض قال: إن اسم السلام سمي به الله لسلامته من الآفات.

قال المحققون: وهذا قول شنيع لأن السلام: مَنْ سُلِمَ منه، وهو مَنْ سَلم الثقلان من ظلمه. وقولها: «ومنه السلام»، ونحن نقول: (. . ومنك السلام) أي أنت الذي يعطي السلامة، لأن المؤمنين يوم القيامة يعطيهم ربهم السلامة بستر عيوبهم وذنوبهم فيسلمون من الخزي. وهو عز وجل الذي يعطي السلامة، فيسلّمُ العاجزَ من المكاره ويخلصه من الشدائد في الدارين.

هذه المكانة لخديجة جعلت عائشة ـ رضي الله عنها ـ تغار من ذكرها وهي متوفاة، فقد ذكر المخزومي عن أبي نجيح قال: أهدي لرسول الله ﷺ لحم جزور، وناوله الرسول، فقال ﷺ: «**اذهب بهذا إلى فلانة**» فقالت عائشة: لِمَ غمرتَ يدك؟ فقال ﷺ مغضباً: «**إن خديجة أوصتني بها**»

---

(١) الأنبياء: ٦٩.

فغارت عائشة وقالت: لكأنه ليس في الأرض امرأة إلا خديجة، فقام ﷺ مغضباً، فلبث ما شاء الله ثم رجع

فإذا أم رومان ـ والدة عائشة ـ قالت: يا رسول الله مالك ولعائشة؟ إنها حَدَثة، وإنك أحق من تجاوز عنها، فأخذ بشدق عائشة وقال ﷺ: «**ألست القائلة كأنما ليس على الأرض امرأة إلا خديجة؟ والله لقد آمنتْ بي حين كفر بي قومك، ورُزقتْ مني الولد وحُرمتُموه**».

أول من أسلم من الصبيان:

ذكر ابن إسحاق عن أبي الحجاج قال: كان من نعمة الله على عليّ بن أبي طالب، وما أراد الله به من خير، أن قريشاً أصابتهم أزمة ـ سنة قحط ـ شديدة، فقال ﷺ لعمه العباس ـ وكان أغنى بني هاشم ـ يا عباس: إن أخاك أبا طالب كثير العيال، وقد أصاب الناس ما ترى من هذه الأزمة، فانطلق بنا إليه فلنخفف عنه من عياله، آخذُ من بنيه رجلاً، وتأخذ أنت رجلاً فنكفيهما عنه. فقال العباس: نعم. فانطلقا حتى إذا أتيا أبـا طالب قالا له: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه. فقال أبو طالب: إن تركتما لي عقيلاً وطالباً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله ﷺ عليّاً فضمّه إليه، فلم يزل مع رسول الله ﷺ حتى بعثه الله نبياً، فاتَّبعه علي وآمن به وصدّقه، ولم يزل جعفر عند العباس حتى أسلم واستغنى عنه.

وفي رواية: أن عليّاً رضي الله عنه دخل يوماً فجأة على النبي ﷺ وخديجة وهما يُصليّان، فرآهما يركعان ويسجدان ويتلُوان، فوقف الفتى دهشاً حتى أتمّا صلاتهما، ثم سـأل: لمن تسجدان؟ فأجابه النبي ﷺ: «**إنا نسجد لله الذي بعثني نبياً بدين الله الذي اصطفاه لنفسه، وبعث به رُسُله، فأدعوك إلى الله تعالى وحده**» فقال علي: استمهلني حتى أشاور أبا طالب. . ثم قضى ليلته قلقاً حتى أصبح، ثم أتى النبي ﷺ فقال رضي الله عنه لقد اتبعتُك دون حاجة لمراجعة أبي طالب، ثم قال رضي الله عنه لقد خلقني الله من غير أن يشاور أبا طالب، فما حاجتي أنا لمشاورته لأعبد الله.

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: وهكذا وقع الإيمان في قلب علي، طيب النفس رضياً، ثم اتبع محمداً ﷺ في صلاته في شعاب مكة. قال صاحب كتاب مختصر سـيرة الرسول: وكان علي حينئذ ابن ثمان سنين.

أول من أسلم من الموالي:

قال صاحب كتاب محمد رسول الله: ثم كان ثالث أسبق السابقين إلى ساحة الهداية حِبُّ رسول الله ومولاه زيد بن حارثة بن شرحبيل الكلبي الذي أفرده الله بأشرف الشرف، فذكره في القرآن باسمه ممتناً عليه بإنعامه عليه بنعمة التوفيق إلى الإيمان في طليعة أسبق السابقين، وممتناً عليه بإنعام رسول الله ﷺ بالحرية والولاية، وذلك في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ . . ﴾(١) بالحرية والعتق والاصطفاء والمحبة والولاية.

قال ابن كثير: كان سيداً كبير الشأن، جليل القدر، حبيباً إلى رسول الله ﷺ، يقال له (الحِبُّ) ويقال لابنه أسامة (الحِبُّ بن الحِبِّ). قال ابن عبد البر: روي عنه ﷺ أنه قال: «**أحب الناس إليَّ من أنعم الله عليه وأنعمتُ عليه**».

قال الصادق عرجون: وزَيْدٌ الحِبُّ من صميم العرب، وعُليا قبائلهم وقد انتهى نسبه من جهة أمه وهي (سُعدى بنت ثعلبة) من بني معن ينتهي نسبها إلى طيء.

وقد ورد عن ابن عباس، وجميل بن يزيد الكلبي قال: خرجت سُعدى بنت ثعلبة ـ أم زيد بن حارثة ـ، وهي امرأة من طيء تزور قومها وزيد معها، وهو ابن ثمانية أعوام، فأغارت خيل لبني القين بن جسر في الجاهلية فمروا على أبيات بني معن ـ رهط أم زيد ـ فاحتملوا زيداً فوافوا به سوق عكاظ، أو سوق حبّاشة وهو من أسواق العرب في الجاهلية، فعرضوه للبيع فاشتراه منهم حكيم بن حزام بن خويلد لعمته خديجة بنت خويلد بأربعمائة درهم، فلما تزوجها رسول الله ﷺ وهبته له. قال المؤرخون: وقد حزن والده لفراقه، وبكى عليه حين فقده بكاء مراً.

ويرجح صاحب التحرير والتنوير أن والد زيد كان قد توفي عندما اختُطف زيد، وترك ولدين في حجر جدّهما هما زيد وجبلة، وأن الجَدَّ هو الذي قام يضرب في الأرض بحثاً عن زيد ويُنشد أشعار التفجع على غائب لا يُعرف لغيبته نهاية، ولا يَعرف لولده مستقراً أو مقاماً. وقد روى أبو عمر وغيره من أشهر شعر التفجع عليه (من والده أو جده).

ومن ذلك:

---

(١) الأحزاب: ٣٧.

بكيتُ على زيد ولم أدرِ ما فَعَل   أحيٌّ يُرجَّى أم أتى دونَه الأجَلْ
فوالله ما أدري وإن كُنتُ سائلاً   أغالَكَ سهلُ الأرضِ أم غالكَ الجبَلْ
فيا ليت شِعري هل لك الدهرَ أوبةٌ   فحسبي من الدُّنيا رجوعُك لي بَجَلْ
تُذَكِّرُنِيهِ الشّمسُ عند طلوعِها   وتَعرِضُ ذكراه إذا غربها أفَلْ
وإن هبَّتِ الأرواحُ هيَّجنَ ذِكرَهُ   فيا طولَ ما حُزني عليه ويا وَجَلْ
سأُعمِلُ نصَّ العيسِ في الأرضِ جاهداً   ولا أسأمُ التَّطوافَ أو تسأمُ الإبِلْ
حياتيَ أو تأتي عليَّ منيَّتي   وكلُّ امرئ فانٍ وإن غرَّه الأملْ
سأوصي بها قيساً وعمرواً كليهما   وأوصي يزيداً ثم بعدَهُ جَبَلْ

قال المعافري: لما وصلتْ زيداً هذه القصيدة من أبيه، وقف في موسم الحج بحيث يسمعه الركبان، فعرفه بعض قومه وأراد أن يُطمئِنَ أهله أنه حي.

فقال زيد هذا الشعر:

أحنُّ إلى أهلي وإن كنتُ نائياً   بأني قعيدُ البيتِ عند المشاعِرِ
فكفُّوا عن الوجد الذي قد شجاكم   ولا تُعملوا في الأرض نصَّ الأباعِرِ
فإني بحمدِ الله في خير أسرةٍ   كرام معدٍّ كابراً بعد كابِرِ

وبعد موسم الحج بلغت الأبيات والد زيد بن حارثة، فقدم إلى مكة مع عم زيد حتى وقفا على رسول الله ﷺ، وذلك قبل مبعثه ﷺ فقالا له: يا ابن عبد المطلب، يا ابن سيد قومه، أنتم جيران الله، تفكون العاني، وتُطعمون الجائع، وقد جئناك في ابننا عبدك، لتُحسِن إلينا في فدائه. فقال ﷺ: أو غيرَ ذلك؟ فقالا: ما هو؟ فقال ﷺ: أدعوه وأخيّرُهُ فإن اختارَكُما فذاك، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على مَنْ اختارني أحداً. فقالا: لقد زِدتَ على النَّصَف. فدعاه رسول الله ﷺ، فلما جاء قال له: من هذان يا زيد؟ قال زيد: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا عمي كعب بن شرحبيل. فقال ﷺ: قد خيّرتك إن شئت ذهبت معهما، وإن شئت أقمتَ معي. فقال زيد: بل أقيم معك.

فقال له أبوه: يا زيد أتختار العبودية على أبيك وأمك وقومك ووطنك؟ فقال زيد: إني

رأيت من هذا الرجل شيئاً، وما أنا بالذي أفارقه أبداً.

عندها أخذ رسول الله ﷺ بيد زيد وقام به إلى الملأ من قريش عند الحِجْر وقال ﷺ: اشهدوا يا من حضر أن هذا ابني وارثاً وموروثاً. عندها طابت نفس أبي زيد بن حارثة، وصار يدعى زيد بن محمد حتى أنزل الله الآيات التي تُبطلُ التبني وذلك في سورة الأحزاب: ﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ (١). ثم قال: ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾ (٢).

قال الزمخشري: أي ما جمع الله قلبين في جوف، ولا زوجيةً وأمومةً في امرأة، ولا بنوَّة ودعوة في رجل.

فصار المعنى: إن الله سبحانه كما لم يُر في حكمته أن يجعل للإنسان قلبين؛ لأنه لا يخلو إما أن يفعل بأحدهما ما يفعل بالآخر من أفعال القلوب فيكون أحدهما فضلة غير محتاج إليها، وإما أن يفعل بهذا غير ما يفعل بذلك، مما يؤدي إلى اتصاف الرجل بكونه مريداً كارهاً، عالماً ظاناً، موقناً شاكاً في حالة واحدة لم يُر من الحكمة أيضاً أن تكون المرأة الواحدة أماً لرجل زوجاً له، لأن الأمومة مخدومة، مخفوض لها جناح الذل، والزوجة مستخدمة، مُتصَّرفٌ فيها بالاستفراش، وهما حالتان متناقضتان.

وكذلك أن يكون الرجل الواحد دعيّاً لرجل وابناً له؛ لأن البنوةَ أصالة في النسب، وعراقة فيه، والدِّعوةَ إلصاقٌ عارضٌ بالتسمية فقط، لذلك قال تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ﴾. ولا يجتمع في الشيء الواحد أن يكون أصيلاً، غير أصيل.

قال القاسمي: وهذا مثل ضربه الله في زيد بن حارثة، تبناه رسول الله ﷺ قبل البعثة، ثم أنزل الله هذه الآيَة، والآيَة الأربعينَ من نفس السورة: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن

(١) الأحزاب: ٤.

(٢) الأحزاب: ٥.

﴿رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٗا﴾[1].

قال المفسرون: وكان زيد يُدعى «زيد بن محمد» حتى أنزل الله قوله: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ . .﴾، فقال زيد عندها: أنا زيد بن حارثة.

قال المؤرخون: وقُتل زيد في غزوة مؤتة سنة ثمان للهجرة. وقد ورد في البخاري حديث: «**من ادعى إلى غير أبيه، وهو يعلم أنه غير أبيه فالجنة عليه حرام**».

قال صاحب التحرير والتنوير: نزلت هذه الآية: ﴿ٱدۡعُوهُمۡ لِأٓبَآئِهِمۡ هُوَ أَقۡسَطُ عِندَ ٱللَّهِۚ ..﴾ في إبطال التبني، أي إبطال ما يترتب عليها من آثار، كالإرث، وتحريم القرابة. وكانوا في الجاهلية يجعلون للمتبنى أحكام البنُوّة كلَّها، وكان من أشهر المُتبَنَّين في عهد الجاهلية زيد بن حارثة وقد تبناه رسول الله ﷺ، وسالم، وتبناه أبو حذيفة. والمقداد بن عمرو، وتبناه الأسود بن عبد يغوث. فكان كل واحد من هؤلاء الأربعة يدعى ابناً للذي تبناه.

(١) الأحزاب: ٤٠.

الفصل الثامن والثلاثون
إسلام الصديق وعثمان

قال المؤرخون: أسلم الصديق مبكراً، إذ هو أول من أسلم من الرجال الأحرار، وقد وصفه النبي ﷺ بكلمة لم يظفر بها أحد غير أبي بكر، وذلك قوله ﷺ: «**ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه عنده كبوة، ونظر، وتردد، إلا ما كان من أبي بكر بن أبي قحافة ما عَلَمَ**(١) **عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه**».

وقد روى المؤرخون: أنه كان من أسباب توفيق الله إياه ـ للصديق ـ، وإسراعِهِ للإسلام فيما ذكر، رؤيا رآها قبل أن يُسلم ـ أي قبل مبعثه ﷺ ـ. وذلك أنه رأى القمر ينزل إلى مكة، ثم رآه قد تفرق على جميع منازلها ـ مكة ـ وبيوتها، فدخل في كل بيت منه شعبة، ثم كأنه جُمع في حِجْره، فقصها الصديق في حينها على بعض أهل الكتاب، فعُبّرت له بأن النبي المنتظر الذي قد أظل زمانه تتَّبِعهُ، وتكونُ أسعد الناس به، فلما دعاه النبي ﷺ بعد البعثة لم يتوقف، لذلك قال الشعبي في قوله تعالى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ﴾(٢)، لقد عاتب الله أهل الأرض في هذه الآية إلا الصديق رضي الله عنه والمعنى: إلا تنصروه بالخروج إلى غزوة تبوك، فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ـ كفار مكة ـ مكروا به، فصاروا سبب خروجه، فخرج ومعه الصديق أبو بكر ﴿ثَانِيَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي أحد اثنين.

قال الرازي في تفسيره: والعلماء أثبتوا أن الصديق رضي الله عنه كان ثاني اثنين في اكثر المناصب الدينية. فهو ـ الصديق ـ ثاني اثنين في الدعوة إلى الله، وذلك أن أبا بكر لما آمن بالنبي ﷺ ذهب وعرض الإسلام على طلحة والزبير وعثمان، وجماعةٍ آخرين من جُلَّة الصحابة، والكل آمنوا على يديه، ثم جاء بهم بعد أيام قلائل إلى رسول الله ﷺ.

فكان الصديق بهذا ثاني اثنين في الدعوة إلى الله. كما كان رضي الله عنه كلما وقف رسول الله ﷺ في غزوة كان يقف معه لا يفارقه، فكان ثاني اثنين في مجلسه ﷺ، ولما مرض رسول الله ﷺ قام مقامه في إمامة الناس، فكان ثاني اثنين، ولما مات رسول الله ﷺ ثم مات الصديق فدفن بجنبه

---

(١) ما تريّث.

(٢) التوبة: ٤٠.

فكان ثاني اثنين هناك أيضاً.

وقد مدح حسان بن ثابت ـ شاعر النبي ﷺ ـ أبا بكر وسمع النبي ﷺ المدحَ ولم يُنكره، وفي هذا الشعر إشارة إلى أن أول الرجال الأحرار إسلاماً الصديق. .

وفي ذلك يقول حسان:

خــيرُ البرِيَّــة أنقاهــا وأفــضلُها ... بعــدَ النبِــيِّ وأوفاهــا بــها حَمَــلا
والثــانيَ التــاليَ المحمــودُ مــشهدُهُ ... وأوَّلُ النّــاس قِــدماً صــدَّق الرُّسُــلا

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: والحقيقة أن نفس أبي بكر كانت مائلة للإسلام قبل دعوته لِما رأى من إرهاصات النبوة، ولِما سمِعَ من كلام ورقة بن نوفل، إضافة إلى أنه كان الصَّديقَ الوفِيَّ للنبي ﷺ.

قال الجزائري في كتابه هذا الحبيب يا محب: كان الصديق في سِنٍّ قريبة من سن الرسول ﷺ، وكان ذا حسب ونسب في ديار مكة، وبين سكانها، وهو وإن لم يكن هاشمياً، فهو تَيْمِيٌّ قرشي عظيم، يمتاز بحُسن الخلق، وكَرَمِ النفس، والمعرفةِ بأنساب العرب حتى ليُضرب به المثل في ذلك، وكانت صحبته لرسول الله ﷺ تجعلهما كالمتعاشرين في كمال الخلق، حتى إذا بدأت إرهاصات النبوة. .

وابتدأ البعثُ كانت خديجة تسأل الصديق إذا تأخر زوجها محمد ﷺ وتقول له: يا عتيق؛ أين ذهب؟ ولما دخل الصديق في الإسلام استأنس به ﷺ أشدَّ من الأول؛ لأن الصحبة الأولى كانت مبنية على حُسن الخلق، والتجانس النفسي، فصارت بعد إسلام أبي بكر إيناساً بالإيمان بالله وحده، وبالمؤازرة في شدائد الحياة.

كان اسمه عتيقاً، أو عَبد الكعبة فسماه النبي عبد الله، واسم أبيه عثمان، أبو قحافة. واسم أمه: أم الخير سلْمى، وهي من المبايعات لرسول الله ﷺ. واسم امرأته التي منها عبد الله وأسماء قيلة بنت عبد العزى.

قال العلماء: وما أن أسلم الصديق عن قناعة وعلم بما دخل فيه من دين الله تعالى حتى أسرع يتصل بخيار رجالات قريش في مكة، يعرض عليهم الإسلام سراً، فأجابه وأسلم على يديه نخبة مختارة كان لها الأثر الكبير في نشر الدعوة داخل مكة وخارجها. ومن الجميل أن نذكر بعض

هذه النخبة المختارة التي كان منهم:

عثمان بن عفان: ـ ذو النورين ـ أبو عبد الله، وأبو عمرو، استجاب لدعوة رسول الله ﷺ بسرعة على يد الصديق، وهاهو يروي لنا قصة إسلامه فيقول: كنت بفناء الكعبة، فقال الناس إن محمداً ﷺ قد أنكح عتبة بن أبي لهب ابنته رقية. قال عثمان: فلما سمعت بذلك دخلتني حسرة ألا أكون سبقتُه إليها، فقمت فدخلت على أمي» أروى بنت كريز» فوجدت خالتي» سعدى بنت كريز» عندها وأمها البيضاء بنت عبد المطلب فلما رأتني خالتي سُعدى حثتني على اتباع محمد ﷺ والإيمان به، وقالت: يا عثمان إن محمداً بن عبد الله، رسول من الله، جاء إليه جبريل يدعوه إلى الله، فصباحه مصباح، وقوله صلاح، ودينه فلاح. ثم انصرفتْ، وقد وقع كلامها في قلبي وبقيت متفكراً، وكان لي مجلس مع أبي بكر، فأتيته بعد يوم الاثنين فأصبته في مجلسه ولا أحد عنده، فجلست إليه فرآني متفكراً، فسألني عن أمري وكان رجلاً رقيقاً، فأخبرته بما سمعت من خالتي سُعدى فقال لي: ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم ما يخفى عليك الحق من الباطل

هذه الأوثان التي يعبدها قومك أليست حجارة لا تسمع ولا تُبصر، ولا تنفع ولا تضر؟ قلت: بلى والله إنها لكذلك. قال أبو بكر: والله لقد صَدَقَتْكَ خالتك سُعدى هذا محمد بن عبد الله قد بعثه الله تعالى برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟ فقلت: نعم. قال عثمان: فوالله ما كان بأسرع من أن مرَّ رسول الله ﷺ ومعه علي يحمل أثواباً له ﷺ، فلما رآه أبو بكر قام إليه فسارَّه في أذنه، فجاء رسول الله ﷺ فقعد، ثم أقبل عليَّ فقال ﷺ: يا عثمان: أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك، وإلى جميع خلقه.

قال عثمان: فوالله ما تمالكتُ حين سمعت قوله أن أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قال في الإصابة: وقد سُرَّت خالته سُعدى بإسلامه وقالت:

هدى الله عثمان الصفيَّ بقوله ... فأرشدَهُ واللهُ يهدي إلى الحقِّ
فتابعَ بالرأي السديد محمداً ... وكان ابن أروى لا يَصُدُّ عن الحق
وأنكحه المبعوثُ إحدى بناته ... فكان كبدرٍ مازَجَ الشمس في الأفق
فدىً لكَ يا ابن الهاشميين مُهجتي ... فأنت أمين الله أُرسلتَ في الخلقِ

أما زواجه برقية، فقد رأينا أنها لما خُطبت من عتبة بن أبي لهب كيف تأسَّف عثمان ألا يكون سبقه إلى خطبتها، وعقد النبي عليها لعُتبة ـ وكان ذلك قبل البعثة ـ فلما أراد الله أن يُكرِم عثمان وكانت بعثة النبي ﷺ قال أبو لهب لولده عتبة: رأسي من رأسك حرام إن لم تُطلِّق ابنته، ففارقها عتبة قبل الدخول، فتزوجها عثمان، فأسقطت منه سقطاً، ثم ولدت له عبد الله، ونَقَرَهُ ديك وهو صغير فمات، وماتت رقية يوم بَشَّر زيد بن حارثة المسلمين في المدينة بالنصر يوم بدر.

الفصل التاسع والثلاثون
إسلام عدد من كبار الصحابة

ثم كان منهم **طلحة بن عبيد الله التيمي**: أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد السابقين، وسماه النبي ﷺ طلحة الخير يوم أحد، وطلحة الجود يوم حنين، وطلحة الفياض يوم العسرة، وهو من رهط الصديق.

أخرج بن سعد عن طلحة قال: حضرتُ سوق بصرى، فإذا راهب يقول: سَلُوا أهل هذا الموسم أفيهم أحد من أهل الحرم؟ فقال طلحة: نعم أنا. فقال الراهب: هل ظهر أحمد؟ قلت: من أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، ومخرجه من الحرم، ومُهاجَره إلى نخيل وحرّة وسِباخ، فإياك وأن تُسبَق إليه. قال طلحة: فوقع في قلبي. فخرجت سريعاً حتى قدمت مكة، فقلت: هل من حدث؟ قالوا: نعم. محمد الأمين تنبأ، وقد تبعه ابن أبي قحافة (أبو بكر)، فخرجتُ حتى أتيت أبا بكر، فخرج بي إليه ﷺ فأسلمتُ، فأخبرته بخبر الراهب. أمه صَعْبة، أختُ العلاء الحضرمي من المهاجرات، وأبوها عبد الله الحضرمي. قال عنه ابن عساكر في تاريخه: طلحة بن عبيد الله هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الثمانية الذين سبقوا إلى الإسلام، وأحد الخمسة الذين أسلموا على يد الصديق، وأحد الستة أصحاب الشورى الذين توفي النبي ﷺ وهو عنهم راض.

قال عمر فيه يوم أحد:

حمى نبيَّ الهدى بالسيف منصلتاً ... لما تولى جميعُ النـــــاس وانكشَفُوا

فقال النبي ﷺ صدقت يا عمر. ومن شعر حسان في مدحه رضي الله عنه:

أهلي فداؤك يا ابن صــعبة يوم أُحـْد والجبل

تـــــرك الخيـــــارُ نبــــيَّهُم ... وأقـــــام طلحـــةُ لم يـــزل

ســـــتر النبــــيَّ بكفــــــه ... وحمـــــاهُ بَطريـــــقٌ بطــــل

ومن جميل كلامه ـ رضي الله عنه ـ لا تشاور بخيلاً في صلة، ولا جباناً في حرب، ولا شاباً في جارية. وقتل ـ رضي الله عنه ـ وهو ابن أربع وستين سنة، وكان قتله سنة ٣٦ هـ. وروى

الحافظ (ابن عساكر) أن عائشة بنتَ طلحة رأت أباها في المنام فقال لها: يا بنيةُ، حّوليني من هذا المكان فقد أضرَّ بي الندى، فأخرجته بعد ثلاثين سنة وهو طري لم يتغير منه شيء، وكان قد أصيب يوم الجمل بسهم غَرْب أصابه ـ كما قال الحسن البصري ـ في لَبَّتِهِ، فجعل يمسَح الدَم ويقول: وكان أمر الله قدراً مقدورا. .

ويقول:

أرى الموتَ أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ما أقربَ اليوم من غد

فلما أصيب وامتلأ سرج فرسه دماً، وثقل، قال لغلامه: أردفني، وأمسكني، وابغِني مكاناً أنزل فيه، فدخل البصرة ودفن فيها.

الزبير بن العوام بن خويلد: أمه صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ، أسلم قبل البلوغ ـ كما يقول ولده عروة ـ، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو من أهل الشورى، شهد بدراً وأُحُداً، وشهد معركة اليرموك، وكان على بعض الكراديس.

صحب الصِدّيقَ فأحسن صحبَته، وكانت ولادته وولادةُ علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وطلحة في عام واحد، فهم أتراب. وهاجر وهو ابن ثمان وعشرين سنة، وكان عمه نوفل ـ حين أعلن الزبير إسلامه ـ يعلّقه في حصير ويدخّن عليه بالنار، ويقول له ارجع إلى الكفر، فيقول الزبير: لا أكفر أبداً. وكانت أمه صفية تضربه وهو صغير، وتُغلظ عليه، فعاتبها عمُّهُ نوفل وقال لها: ما هكذا يُضرب الولد، إنك لتضربينه ضربَ مُبْغضةٍ، فَرَجَزَتْ به صفية. .

وقالت:

من قال إني أُبغضُه فقد كذب ويهزم وإنـــما أضرُبـــه لكـــي يلـــبّ
الجـــيش ويـــأتي بالـــسلب ولا يكـــن لمالِـــهِ خِبـــأً مُخِـــبْ

يأكل ما في البيت من تمر وحب

قال ابن إسحاق: أخذ أبو بكر الزبير، وعثمان، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف فانطلق بهم إلى النبي ﷺ، فعرض عليهم الإسلام وقرأ عليهم القرآن، وأنبأهم بحق الإسلام، وبما وعدهم الله به من الكرامة فآمنوا.

قال أبو الأسود: كان إسلام الزبير رابعاً أو خامساً، وقاتل وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان أول من سلَّ سيفاً في سبيل الله. وورد عن عروة عن ابن المسيب قال: أول رجل سلَّ سيفه في الله الزبير، وذلك أنه أشيع أن النبي ﷺ قد قتل في أعلى مكة، فخرج الزبير متجرداً بالسيف صَلْتاً.

وذكر ابن عساكر أن النبي ﷺ قال له حينها: مالك يا زبير؟ فقال: أُخبرتُ أنك قد أُخِذت. قال النبي ﷺ: كنت صانعاً ماذا؟ قال الزبير: كنت أضرب به من أخذك، فدعا له رسول الله ولسيفه، وروى ابن سعد بإسناد صحيح عن هشام عن أبيه أن النبي ﷺ قال: إن الملائكة نزلت يوم بدر على هيئة الزبير. قال ابنه عروة: كان على الزبير ملاءةٌ صفراء يوم بدر، فاعتم بها، فنزلت الملائكة معتمين بعمائم صفر، وفي ذلك يقول عامر بن صالح بن عبد الله بن عروة:

جدّي ابن عمة أحمدٍ ووزيرُه   عند البلاء وفارسُ العشواء
وغداة بدرٍ كان أول فارس   شهد الوغى في اللامَةِ الصفراء
نزلت بسيماهُ الملائكُ نصرةً   بالحوض يوم تألُّب الأعداء

وورد عن عروة بن الزبير أنه قال: كان في الزبير ثلاث ضربات بالسيف، كنت أُدْخل أصابعي فيها، ثنتين يوم بدر، وواحدة يوم اليرموك. قال بعض أصحابه: صحبته في بعض أسفاره فأصابته جنابة بأرض قفر، فأخذ يغتسل، فحانت مني التفاتة فرأيته مجدعاً بالسيوف، فقلت له: والله لقد رأيت فيك آثاراً ما رأيتها بأحد قط؟ فقال: أما والله ما منها جراحة إلا مع رسول الله أو في سبيل الله. وفي الحديث عن جابر: «**لكل نبي حواري، وحواري الزبير**» وفي البخاري عن عائشة أنها قالت لعروة: كان أبوك ممن استجابوا لله ورسوله من بعد ما أصابهم القرح. تريد الزبير وأبا بكر.

قال الإمام أحمد وأبو نعيم: قُتل الزبير سنة ست وثلاثين في مكان يقال له وادي السباع، وهو على بعد سبعة فراسخ من البصرة.

وقال أبو عبيد: وادي السباع الذي قتل فيه الزبير بن العوام بين البصرة ومكة، بينه وبين

البصرة خمسة أميال. وهناك مكان اسمه وادي السباع قريب من الكوفة، وهذا غير الأول، وسُمي بهذا الاسم لأن امرأة اسمها أسماء بنت دُرَيم كان يقال لها أم الأسبع، وهم سبعة: كلب، وأسد، وذئب، وفهد، وثعلب، وسرحان، وبَرْك (وهو: الكركدن)، وله قرن واحد. وكانت هذه المرأة تُنزل أولادها بهذا الوادي فسمي وادي السباع.

قال ابن حبيب: ومرَّ وائل بن قاسط بهذا الوادي ورأى أسماء هذه وكانت جميلة، وبنوها يرعون حولها وهو لا يراهم، فرأت في وجهه نيةَ سوء فقالت له: لعلك أسررت في نفسك مني شيئاً؟ فقال وائل: أجل. فقالت له: لئن لم تنته لأستصرخنَّ عليك، فقال: والله ما أرى في الوادي أحداً فقالت: لو دعوتُ سباَعه لمنعتني منك، ولأعانتني عليك، فقال: أوَتفهم السباع عنك؟ قالت: نعم. ورفعت صوتها: يا كلب، يا ذئب، يا فهد. . فجاؤوا يتعادون ويقولون: ما خبرك يا أماه؟ فقالت: ضيفكم هذا أحِسنوا قِراه، ولم تر أن تفضح نفسها عند بنيها، فذبحوا له وأطعموه، فقال وائل: ما هذا إلا وادي السباع، فسمي بذلك.

وقد قتل ابنُ جرموز الزبير غدراً، وقد قالت عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل:

غَدَرَ ابن جرموز بفارس بُهمَةٍ[1] يا عَمرو ... يوم اللقاء وكان يوم معدَّدِ
لو نبّهته لوجَدتَهُ ... لا طائشاً رعشَ الجنان ولا اليدِ
شُلَّت يمينك إن قتلتَ لَمُسلماً ... حلَّت عليكَ عقوبة المُتعَمِّدِ

وممن رثاه الشاعر جرير إذ قال:

إن الرّزية من يَضُمْهُ قبُره ... وادي السباع لكل جنبٍ مصرعُ
لما أتى خبر ابن الزبير تواضعت ... سُورُ المدينة والجبال الخُشَّعُ

وقد ذكر ابن عساكر أن ابن جرموز اختفى فترة، ثم جاء إلى مصعب بن الزبير وقال له: خذ مني القود بأبيك، فأخبر مصعب أخاه عبد الله بن الزبير بذلك، فكتب إليه عبد الله: أنا أقتل ابن جرموز بالزبير وهو لا يساوي شِسعَ نعله؟!! خلِّ عنه.

وقد ذكر المؤرخون أن علياً بكى عليه هو وابناه، وقرئ عليه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) أي: لا يُعلَمُ من اين يُؤخَذ.

﴿سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُوْلَٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [1] فقال علي رضي الله عنه: أنا منهم، وأبو بكر منهم، وعمر وعثمان منهم، وطلحة منهم والزبير منهم، وسعد منهم وعبد الرحمن منهم.

قال الشعبي: أدركت خمسمائة أو أكثر من أصحاب النبي ﷺ كلهم يقول: علي وعثمان وطلحة والزبير في الجنة. ولما وصل خبر مقتله إلى علي قال: بشّر قاتل ابن صفية بالنار.

عبد الرحمن بن عوف الزهري: أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو من السابقين، وأحد الستة اصحاب الشورى الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض، واسم أمه صفية أو الصَّفاء، أو الشفاء.

روى حميد عن أنس قال: كان بين خالد بن الوليد وعبد الرحمن بن عوف كلام، فقال خالد لعبد الرحمن: تستطيلون علينا بأيام سبقتمونا لها؟ قال: فذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: «**دعوا لي أصحابي، فوالذي نفسي بيده لو أنفقتم مثل أحد أو مثل الجبال ذهباً ما بلغتم أعمالهم**»[2].

وذكر الزهري عن إبراهيم ولد عبد الرحمن بن عوف قال: مرض عبد الرحمن فأغمي عليه، فصرخت أم كلثوم، فلما أفاق قال: أتاني رجلان فقالا: انطلق نحاكمْك إلى العزيز الأمين، فلقيهما رجل فقال: لا تنطلقا به، فإنه ممن سبقت له السعادة في بطن أمه. كان رضي الله عنه كريماً، فقد أخرج أبو نعيم في الحلية قال: قال جعفر بن بَرقان: بلغني أن عبد الرحمن بن عوف أعتق ثلاثين ألف نسمة، وكان ـ رضي الله عنه ـ ممن حرّم الخمر على نفسه في الجاهلية. وتوفي سنة **٣٣** هـ ودفن بالبقيع، وصلى عليه عثمان ـ رضي الله عنه.

سعد بن أبي وقاص الزهري: سعد بن مالك وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وآخرهم موتاً، وأول من رمى بسهم في سبيل الله، كان رسول الله ﷺ يقول له «**أنت خالي**».

وفي حديث الترمذي عن جابر قال: أقبل سعد، فقال النبي ﷺ «**هذا خالي فليرني امرؤ خاله**» وكان مستجاب الدعوة، فقد قال لرسول الله ﷺ ادع الله لي أن يجعلني مستجاب الدعوة، فقال ﷺ: «**أطب مكسبك تُجبْ دعوُتك**». أسلم قديماً، وهو من السابقين، وكان سابع سبعة في الإسلام، وكان ممن اعتزل الفتنة بين علي ومعاوية، وجاءه مرة ابن أخيه هشام بن عتبة بن أبي

---

(١) الأنبياء: ١٠١.

(٢) رواه أحمد في مسنده.

وقاص، فقال له: هاهنا مائة ألف سيف يرون أنك الأحق بهذا الأمر. فقال ـ رضي الله عنه: أريد من هذه المائة ألف سيفاً واحداً إذا ضربت به المؤمنَ لم يصنع شيئاً، وإذا ضربت به الكافر قطع، فانصرف من عنده.

فلما قُتل عثمان اعتزل الناس، ونزل في (قَلَهِيّ) واحتفر فيها بئراً عذباً، وأمر أهله ألا يخبروه بشيء من أخبار الناس حتى تجتمع الأمة على إمام، وحتى يصطلحوا، والمكان: ماء لبني سُليم عاديٌّ[1] غزير، روّاء.

قال كثير عزة:

لعزة أطلال أبت أن تكلّما ... تهيج مغانيها الطروبَ المُتيَّما
كأن الرياح الذاريات عشيّة أبت وأبى ... بأطلالها ينسجن ريطاً مُسهَّما
وجدي بعزة إذ نأت ولكن سقى صوبُ ... على عُدَواء الدار أن يتَصرَّما
الربيع إذا أتى ... إلى قَلَهِيَّ الدار والمُتخَيَّما

وقد ورد عن سعد قال: مرضتُ فوضع النبي ﷺ يده على جبهتي، ثم مسح وجهي وصدري وبطني وقال: اللهم اشف سعدا، وأتمَّ له هجرته، فما زلت يُخيل لي أني أجد برد يده على كبدي حتى الساعة.

وروى الإمام أحمد من حديث أبي أمامة قال: جلسنا إلى رسول الله ﷺ فذكَّرنا ورَقَّقنا فبكى سعد بن أبي وقاص فأكثر البكاء، فقال: ليتني مت، فقال رسول الله ﷺ: «**يا سعد عندي تتمنى الموت؟**» فردد ذلك ثلاث مرات، ثم قال ﷺ: «**يا سعد إن كنت خُلقتَ للجنة فما طال عمرك وحسن عملك فهو خير لك**».

وأخرج الحافظ عن المطعم بن مقدام الصنعاني: أن سعداً قال: يا رسول الله ادع الله أن يستجيب دعائي، قال ﷺ: «**يا سعد إن الله لا يستجيب دعاء عبد حتى تطيب طعمته**». قال: يا رسول الله ادع الله أن يطيب طعمتي، فإني لا أقوى إلا بدعائك، فقال ﷺ: «**اللهم أطب طُعمة سعد**»، فإن كان سعد يرى السنبلة من القمح في حشيش دوابه حين أُتي به عليه، فيقول لهم:

(١) أي قديم.
(٢) الأمطار العامة، أو أول المطر إذا كان عاماً.

ردوها من حيث حصدتموها.

وذكر ابن عساكر: أن رجلاً نال من علي بن أبي طالب، فنهاه سعد فلم ينته، فقال له: أَدعو عليك، فلم ينته، فدعا عليه، فما برح حتى جاء بعيرٌ نادّ فخبطه حتى مات.

قال ابن إسحاق: كان أصحاب رسول الله ﷺ في مكة عند مطلع شمس الإسلام يَستَخْفُون بصلاتهم، فبينا سعد في شعب من شعاب مكة في نفر من الصحابة، إذ ظهر عليهم المشركون، فنافروهم وعابوا عليهم دينهم حتى قاتلوهم، فضرب سعد رجلاً من المشركين بِلِحْيِ جمل فشجَّه، فكان أولَ دم أريق في الإسلام، وكان سعد أحد أشد أربعة في الإسلام.

فقد أخرج ابن أبي شيبة في تاريخه بإسناد جيد عن ابن إسحاق قال: كان اشدَّ أصحاب رسول الله ﷺ أربعة: عمر وعلي والزبير وسعد. وعن عائشة بنت سعد عن سعد قال: أسلمت وأنا ابن تسع عشرة سنة.

قال ابن عساكر: قال سعد لابنه: يا بني إذا طلبتَ الغنى فاطلبه بالقناعة، فإنه من لم يكن له قناعة لم يُغنِهِ المال. وبكى ابنه وهو محتضر، فقال له: لا تبك يا بني، فإن الله لا يعذبني أبداً، وإني من أهل الجنة، إن الله يُدين(١) المؤمنين بحسناتهم ما عملوا لله، وأما الكفار فيخفف عنهم بحسناتهم، فإذا نفذت قال: ليطلب كل عامل ثواب عمله ممن عمل لـه.

ولما حضرته الوفاة دعا بجبَّةٍ خَلَقٍ من صوف كانت له، فقال: كفنوني بها فإني لقيت المشركين فيها يوم بدر وهي عليّ، وإنما كنت أخبئُها لهذا اليوم. وتوفي في حمراء الأسد على بعد ثمانية أميال من المدينة، وحُمل إلى المدينة ودفن بها، وكان آخر المهاجرين وفاة، وذلك سنة خمس وخمسين للهجرة.

يقول الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله: كان هؤلاء الخمسة الأبطال: عثمان، وطلحة، والزبير، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد أولَ ثمرة من ثمار الصديق أبي بكر، ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وجاؤوا معه إلى رسول الله فرادى فأسلموا بين يديه ﷺ، فكانوا الدعامات الأولى التي قام عليها صرح الدعوة، وكانوا العدة الأولى في تقوية جانب رسول الله ﷺ، وبهم أعزَّه الله وأيده. وتتابع الناس يدخلون في دين الله أفواجا رجالاً ونساء، وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ

---

(١) يجازي.

في كتابه، شرف هؤلاء الأنفار الثمانية، هؤلاء الخمسة والثلاثة الأوائل ـ خديجة وعلي وزيد ـ، ذكرهم لسبقهم في الإسلام إذ أثنى الله تعالى عليهم في كتابه فقال: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾(١).

قال صاحب كتاب أيسر التفاسير: والسابقون: أي إلى الإيمان والهجرة والنصرة والجهاد، وهم الذين صلّوا إلى القبلتين، ثم قال: وأفضلهم الخلفاء الأربعة ثم الستة الباقون من العشرة المبشرين بالجنة، ثم أهل بدر، ثم أصحاب أحد، ثم أهل بيعة الرضوان في الحديبية. وأفضلهم على الإطلاق أبو بكر.

والأنصار: هم من أسلم من الأوس والخزرج بالمدينة، ولم يُعرفوا في الجاهلية بهذا الاسم، وإنما سماهم الله به في الإسلام، والسابقون منهم هم أهل العقبتين الأولى والثانية.

قال في الإكليل: في هذه الآية تفضيل السابق إلى الإسلام والهجرة، وأن السابقين من الصحابة أفضل ممن تلاهم.

روى حميد بن زياد قال: قلت يوماً لمحمد بن كعب القرظي: ألا تُخبرني عن الصحابة فيما كان بينهم؟ فقال لي: إن الله تعالى قد غفر لجميعهم وأوجب لهم الجنةَ في كتابه العزيز لمحسنهم ومسيئهم. قلت له: وفي أي موضع من كتاب الله تعالى أوجب لهم الجنة؟

فقال: سبحان الله ألا تقرأ قوله تعالى ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾(٢). فأوجب للجميع الجنة والرضوان حيث قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (٣)، فأوحب للجميع الجنة، وشرط على تابعيهم أن يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة وألا يقولوا فيهم إلا حسنا لا سوءاً.

قال العلماء: وذلك في سورة الحشر وهو قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) التوبة: ١٠٠.

(٣) التوبة: ١٠٠.

﴿رَّحِيمٌ﴾[1].

ونلاحظ في قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّـٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ﴾[2] قال العلماء: الإحسان هنا هو العمل الصالح، وخصَّ هنا: (السابقين الأولين)؛ لأن الباعث على الإيمان عندهم كان الإخلاص وحده، فهم محسنون، وأما الذين اتبعوهم فقد كان من بينهم من آمن اعتزازاً بكثرة المسلمين في المدينة، ومنهم من آمن مع ضعف وتردد كالمؤلفة قلوبهم، ولذلك قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَـٰنٍ . .﴾ أي أخلص كما أخلص السابقون والتابعون هم من صحبوا الصحابة.

---

(١) الحشر: : ١٠.

(٢) التوبة: ١٠٠.

الفصل الأربعون
ما هي النتائج والعبر التي يمكن أن نستنتجها من هذا القسم من السيرة؟

قال العلماء: **العبرة الأولى: بيان فضل الصديق** وأثره في مجال الدعوة. قال ابن إسحاق: أسلم أبو بكر وكان رجلاً محبباً، سهلاً، وكان أنسب قريش لقريش، وأعلم قريش بها، وبما كان لها من خير أو شر، وكان رجلاً تاجراً ذا خُلُق ومعروف، كما كان رجال قومه يأتونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجارته وحُسن مجالسته. فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وَثَق به من قومه، وممن يغشاه ويجلس إليه، وهنا يمكن أن نستخلص درساً في الدعوة إلى الله وأن نتعرف على مواصفات شخصية الداعية:

١) خلقه: كان مألوفاً محبباً إلى قومه سهلاً.

٢) ثقافته: كان أنسب قريش، وأعلم قريش بما لها من خير أو شر.

٣) مركزه الاجتماعي وعمله: كان رجلاً تاجراً يقصده قومه لغير واحد من أمر. علماً أنه في النسب من أضعف قريش، يدلك على هذا ما ورد عن أبي سفيان أنه قال حين استلم الصديق الخلافة: ما بال هذا الأمر في أذل حي من قريش؟ ومع ذلك تبوأ هذه المكانة، وبويع بالخلافة؛ فالخُلُقُ المحبب السهل هو الذي يضمن القدرة على الدخول إلى قلوب الآخرين، ويفتحُها، ويضمن البعد عن ردود الفعل حالةَ الموقف السلبي من الدعوة.

والثقافة لا تقل تأثيراً عن الخلق الكريم، والمقصود بالثقافة هنا الخبرة بالمجتمع واتجاهاته وميوله. وللقلوب أقفال، ومهمة الداعية أن يملك المفاتيح لهذه الأقفال، ويعرف كيف يدخل إليها حتى تستجيب له. قال تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ [1]. فقد تكون هذه الأقفال أقفالَ كفر، أو أقفال أهواء، وإذا كان الباب مقفلاً فلا الشك ولا الإنكار الذي فيها يخرج، ولا الصدق ولا اليقين الذي هم يدعون إليه يدخل، ومهمة الداعية أن يوجد لكل قفل مفتاحاً يلائمه كما بين العلماء.

أما المركز الاجتماعي للداعية فيجعله مقبول الكلمة مسموعها من الناس، فترَفُّعُ الداعية

---

(١) محمد: ٢٤.

عن ذل السؤال، وعدمُ التَّطلُّعِ إلى ما في أيدي الناس، كل ذلك يُكسب الداعية الاحترام في مجتمع أعلى قيمة المال والشُّهرة.

وقد وجهنا رسول الله ﷺ لهذه الأمور في حديث أخرجه ابن ماجه بإسناد حسن وهو قوله ﷺ: «**ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد بما في أيدي الناس يحبك الناس**». وأحياناً يكون المركز الاجتماعي بطبيعته ذا صلة وثيقة بالناس، وهذا أدعى إلى التأثير فيهم؛ لأن العلاقة في هذه الحالة تبدو طبيعية وغير متكلفة، ولا يحتاج الداعية ليتصنَّع أسباباً للاتصال بهم، فالمدرس مثلاً والتاجر أقدر على الحركة من الموظف المحصور في إطار محدد.

أما العبرة والنتيجة الثانية التي نستخلصها من هذا القسم من السيرة فهي بيان فضل الدعوة إلى الله، وفضل من يهدي الله على يديه فرداً أو أفراداً. قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾ (١).

قال العلماء: المعنى أن لا أحد أحسن قولاً من هذا الذي يجمع هذه الشروط الثلاثة:

- الدعوة إلى الله تعالى بأن يُعبد فيُطاع، ويُذكَرَ ويُشكر.
- والعملَ الصالح وذلك بأداء الفرائض واجتناب المحارم.
- والشرط الثالث المفاخرة بالإسلام والاعتزاز به، ويدخل في هذا الوصف:

أولا: الرسل.

وثانياً: العلماء.

وثالثاً: المجاهدون.

رابعاً: والمؤذنون.

خامساً: الدعاة الهداة المهديون ـ كما قال صاحب أيسر التفاسير.

قال الرازي: والدعوة إلى الدين الحق أكمل الطاعات ورأس العبادات.

والعبرة الثالثة المأخوذة من هذا القسم من السيرة: فهي بيان شرف هؤلاء الثمانية السابقين في الإيمان والإسلام، إذ أثنى الله عليهم ثناء خاصاً بقوله عز وجل: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ

(١) فصلت: ٣٣.

ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾[1].

أفواج السابقين بعد هؤلاء الأولين تتتابع: بعد إسلام أولئك النفر الكرام تتابع أشراف قريش يدخلون الإسلام، وآمنوا بالله رباً وإلهاً، لا إله غيره ولا رب سواه، وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً، وبالقرآن هدى ونوراً، فأسلم:

أبو عبيدة عامر بن الجراح، وهو أحد العشرة المبشرين بالجنة، والملقب بأمين هذه الأمة ـ كما قال رسول الله ﷺ فيه ـ وأمه: أميمة من بني الحارث أدركت الإسلام وأسلمت. فتح الله على يديه اليرموك، والجابية والرمادة، وسرغ[2]. وكان يسير في عسكره يعظهم ويقول: ألا رب مبيّضٍ لثيابه، مدنِّسٍ لدينه، ألا ربَّ مكْرِمٍ لنفسهِ وهو لها غداً مهين، بادروا السيئات القديمات بالحسنات الحديثات، فلو أن أحدكم عمل من السيئات ما بينه وبين السماء، ثم عمل حسنة لعلت فوق سيئاته حتى تُبْهِرَهُن.

وقد ذكر ابن عساكر عن سعد المقري قال: لما أصيب أبو عبيدة بالطاعون في الأردن، وحضرته الوفاة، دعا من حضره من المسلمين وقال: إني موصيكم بوصية إن قبلتموها لن تزالوا بخير، أقيموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وصوموا شهر رمضان، وتصدقوا وحجوا واعتمروا، وتواصوا وانصحوا لأمرائكم ولا تغشوهم، ولا تلهكم الدنيا، فإن امرأً لو عُمر ألف حول ما كان له بد أن يصير إلى مصرعي هذا الذي ترون، إن الله كتب الموت على بني آدم فهم ميتون، وأكيسهُم أطوعُهم لربه، وأعملُهُم ليوم معاده، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. يا معاذ: صل بالناس، ثم توفي عقب ذلك.

ثم أسلم **عبد الله بن عبد الأسد القرشي،** أبو سلمة، أمه برة بنت عبد المطلب، فهو ابن عمة الرسول ﷺ.

قال ابن إسحاق: أسلم بعد عشرة أنفس، وكان أخاً للنبي ﷺ رضاعاً كما في الصحيحين. وفي حديث ابن عباس: «**أول من يعطى كتابه بيمينه أبو سلمة بن عبد الأسد وأول من يعطى كتابه بشماله أخوه سفيان بن عبد الأسد**». توفي عبد الله سنة ٣ هـ، وتزوج رسول الله ﷺ زوجه

---

(١) التوبة: ١٠٠.

(٢) مدينة بالشام.

أم سلمة إكراماً له، واعترافاً بفضله في إسلامه، فأصبحت أم سلمة من أمهات المؤمنين، وهذا من إكرام الله لها ولزوجها.

وأسلم **الأرقم بن أبي الأرقم**: عبد مناف بن أسيد القرشي، أسلم عاشر عشرة، وكان النبي ﷺ قد استخفى في داره بالصفا يدعو الناس إلى الإسلام سراً حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلاً، وكان آخرهم إسلاماً عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

وعثمان بن مظعون القرشي: أبو السائب، أخو النبي ﷺ من الرضاع، وهو أول مهاجر توفي بالمدينة، وأول من دفن في البقيع، ومات بعد شهود معركة بدر في السنة الثانية للهجرة. ومن فضائله أنه امتنع عن شرب الخمر في الجاهلية قبل الإسلام، وقال: لا أشرب شراباً يُذهب عقلي، ويُضحك بي من هو أدنى مني، وأسلم بعد ثلاثة عشر رجلاً. وروى الترمذي عن عائشة قالت: قبّل النبي ﷺ عثمان بن مظعون وهو ميت وعيناه ﷺ تذرفان، ولما توفي إبراهيم ابن النبي ﷺ قال ﷺ: «**يا إبراهيم الحَقْ بسلفنا الصالح عثمان بن مظعون**».

ومن قول امرأته ترثيه:

يا عين جودي بدمعٍ غير ممنونِ   على رزيّة عثمـــان بن مظعونِ

عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب: كان أسنَّ من رسول الله ﷺ بعشر سنين، أسلم قديماً قبل دخول رسول الله ﷺ دار الأرقم، وكان ممن بارز يوم بدر عتبة بن ربيعة (أخو شيبة) فجَرحَ كل واحد منهما الآخر.

وسعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل: ابنُ عم عمر بن الخطاب وصهُره؛ لأنه زوج فاطمة بنت الخطاب، وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وأسلم قبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم. قال سعيد بن حبيب: كان مقام العشرة المبشرين ـ ومنهم سعيد ـ أمام النبي في القتال وخلفه في الصلاة، ولم يذكر منهم أبا عبيدة.

ومن أفواج السابقين أسماء وعائشة ابنتا الصديق وخباب بن الأرت. وعبد الله بن مسعود: الذي لازم النبي ﷺ فكان صاحب نعليه. قال له ﷺ في أول الإسلام: «**إنك لغلام مُعلّم**» وكان يقول: أخذت من في رسول الله ﷺ سبعين سورة وهو أول من جهر بالقرآن في مكة.

قال الخضري في نور اليقين: كان يرعى الغنم لبعض مشركي مكة، فلما رأى الآيات الباهرة وما يدعو إليه رسول الله ﷺ من مكارم الأخلاق أسلم. كان يمشي أمام رسول الله ﷺ ويستره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويُلبسه نعله، فإذا جلس رسول الله ﷺ أدخل ابن مسعود ذراعية في النعلين.

وصهيب الرومي، ابن سنان، قيل له الرومي لأن الروم سَبَوه وهو صغير، فصار أَلْكَنَ، ثم اشتراه رجل من كلب فباعه بمكة.

وخالد بن سعيد بن العاص، كان أبوه سيد قريش، إذا اعتم لم يعتَمَّ أحد من قريش إجلالاً له، وكان خالد قد رأى في منامه أنه سيقع في هاوية فأدركه رسول الله ﷺ وخلَّصه منها. فجاء إلى النبي ﷺ وقال: إلام تدعو؟

فقال ﷺ: «**أدعوك إلى عبادة الله وحده، وأن تخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر، وأن لا تقرب الفواحش، وأن تُحسن إلى والديك، وأن لا تقتل ولدك خشية الفقر، وأن لا تقرب مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن، وأن توفي الكيل والميزان**». قال المؤرخون: فأسلم لساعته.

وعمير بن أبي وقاص: أخو سعد بن أبي وقاص، قُتل في بدر وهو ابن ست عشرة سنة.

ومسعود بن القاريّ بن ربيعة: من قبيلة قارّة، رماة الحدَق.

قال المؤرخون: وتوالى إسلام من أكرمهم الله فأسلم جعفر بن أبي طالب، وامرأته أسماء بنت عميس، وأسلم عياش، وامرأته، وحاطب بن الحارث وامرأته، وصهيب الذي قال فيه ﷺ «**صهيب سابق الروم**».

الفصل الحادي والأربعون
فرضية الصلاة وسمات هذه المرحلة

قال صاحب كتاب خاتم النبيين: لما أنزل الله عز وجل قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣﴾ [1]، كان هذا أمراً بتبليغ الرسالة، والدعوة إلى دين الله، ولا بد لكل دين من عبادة وصلاة، لأن الصلاة عمود الدين، وركنه الركين. ثم قال: اقترن التبليغ بفرضية الصلاة اقتراناً زمنياً؛ لأن الصلاة مقترنة بالدين اقتراناً عملياً.

قال أهل السيرة: إن الصلاة فرضت ركعتين عند البعثة المحمدية فكانت تصلى ركعتين في الصباح وركعتين في المساء.

قال المزني من الشافعية: إن الصلاة كانت مفروضة قبل الإسراء، كانت صلاة قبل غروب الشمس، وصلاة قبل طلوع الشمس، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ﴾ [2] وقوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ﴾ [3].

قال ابن عطية: أجمع المتأولون على أن التسبيح هنا الصلاة.

قال ابن كثير: كانت الصلاة مفروضة قبل الإسراء، اثنتان قبل طلوع الشمس في وقت الفجر، وقبل الغروب في وقت العصر، وقيام الليل كان واجباً على النبي ﷺ، وعلى أمته حولاً، ثم نُسخ في حق الأمة وجوبه، ثم نسخ الله بعد ذلك كله بالصلوات الخمس.

ليلة الإسراء:

قالت عائشة فيما رواه عنها ابن أختها عروة بن الزبير: فُرضت الصلاة ركعتين ركعتين.

قال الشيخ أبو زهرة: هذا هو المفروض، أما التطوع فبابه مفتوح. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ

---

(١) المدثر: ١ ـ ٣.

(٢) غافر: ٥٥.

(٣) قٓ: ٣٩.

﴿ قُمِ ٱلَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا ٢ نِّصْفَهُۥٓ أَوِ ٱنقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا ٣ أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ٤ ﴾ (١).

قال الشيخ صادق عرجون: ذكر ابن إسحاق أن الصلاة حين فُرضت على رسول الله ﷺ أتاه جبريل وهو بأعلى مكة، فهز له بعقبه في ناحية الوادي فانفجرت فيه عين، فتوضأ جبريل ورسول الله ﷺ ينظر إليه ليريه كيف الطَّهور للصلاة، ثم توضأ رسول الله ﷺ كما رأى جبريل يتوضأ، ثم قام جبريل فصلى به، وصلى رسول الله ﷺ، ثم انصرف جبريل، فجاء محمد ﷺ إلى خديجة فتوضأ ليريها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل، فتوضأت كما توضأ رسول الله ﷺ ثم صلى بها كما صلى به جبريل عليه السلام.

وفي حديث عفيف الكندي الذي ذكره صاحب كتاب إنسان العيون من طريق ابن إسحاق، قال عفيف: كان العباس بن عبد المطلب صديقاً لي، وكان يختلف إلى اليمن فيشتري العطور ويبيعها في أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى أتاه رجل مجتمع، فتوضأ فأسبغ الوضوء، ثم قام يصلي، فخرجت امرأة فتوضأت ثم قامت تصلي، ثم خرج غلام قد راهق فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي. فقلت: ويحك يا عباس ما هذا الدين؟ قال: هذا دين محمد بن عبد الله ابن أخي يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي، علي بن أبي طالب قد تابعه على دينه، وهذه امرأته خديجة قد تابعته على دينه. وتمر الأيام، ويُسلم عفيف فقال حين إسلامه: يا ليتني كنت رابعاً.

وأخرج ابن إسحاق في سيرته: أن رسول الله ﷺ كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه علي مستخفياً عن أبي طالب، وعن أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها، فمكثا ما شاء الله أن يمكثا على ذلك.

نتائج وعبر المرحلة الأولى من الدعوة وسماتها:

قال المؤرخون: هذه المرحلة بدأت من غار حراء مع البعثة، وانتهت بعد ثلاثة أعوام حين نزل قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ (٢). وقوله عز وجل: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ (٣).

---

(١) المزمل: ٤.

(٢) الشعراء: ٢١٤.

(٣) الحجر: ٩٤.

قال أهل السير: أسلم في هذه المرحلة السرية عدد زاد على الأربعين من الرجال والنساء ـ كما ذكر ابن هشام في سيرته ـ وكان ﷺ يجتمع بهم ويرشدهم إلى الدين متخفياً، والدعوة لا تزال سرية متخفية.

ثم تتابع الوحي بعد نزول المدثر، وكانت الآيات تنزل قصيرة ذات فواصل رائعة تشتمل على تزكية النفوس، وتصف الجنة والنار كأنهما راي العين، وتسير بالمؤمن في جو جديد بعيد عن المجتمع البشري آنذاك. مرت ثلاث سنين، والدعوة سرية، تكونت خلالها الجماعة المؤمنة القائمة على الأخوة والتعاون، وتمكين الرسالة وتبليغها، ثم نزل الوحي يأمر بالمجابهة الفكرية والتحقير للأصنام.

أما سمات هذه المرحلة فهي:

السمة الأولى: السرية: والامتداد الزمني لها كان ثلاث سنوات حتى تم تكوين القاعدة الصلبة التي تستعصي على الإفناء وذلك لنوعيتها، ونسبتها إلى المجتمع المكي. وهذا لا يعني الآن أن تبقى الدعوة ثلاث سنوات سراً، فخارج مكة بقي بعض المسلمين على سريتهم أزمنة مختلفة، وأمر السرية متروك تقديره لقادة العمل الإسلامي.

يقول الصادق عرجون: لم يكن الاستخفاء بالدعوة موقفاً سلبياً، ولكنه أبلغ موقف إيجابي؛ لأنه كان موقف التأسيس والإعداد والتربية النضالية، والكفاح الصبور، وتخيّر المواد لبناء المجتمع الإسلامي الذي تحيى في ظله الرسالة الخالدة.

واتخذ رسول الله ﷺ من دار الأرقم بن أبي الأرقم عند الصفا أول معهد لتعليم المسلمين أمور دينهم وقرآنهم، ويستقبل من يريد اعتناق الإسلام. وكان ﷺ دائب الحركة في الدعوة لا يَملُّ ولا يفتر، وكان يُلمُّ بالبيت الحرام كثيراً، ويطوف به والملأ من قريش قعود حول الكعبة يسمرون بعبث وهُجْر، وكانوا قد سمعوا دعوته، وعرفوا قسماً ممن اتبعه، فلم يبادروه بالإنكار، ولكنهم كانوا يشيرون إليه إذا مرَّ بهم ويقولون: غلام بني عبد المطلب لَيُكَلَّمُ من السماء.

السمة الثانية: لهذه المرحلة هي أن **الدعوة فيها قامت على الاصطفاء الشخصي** ـ كما قال علماؤنا ـ وقامت على تقدير الداعية لاستجابة المدعُو، ولكن مع كونها انتقاء فإنها شملت الانتقاء من كل قطاعات المجتمع (أحرار، نساء، غلمان، عبيد).

السمة الثالثة: دور المرأة، فرُبْع المجتمع الإسلامي كان من النساء، ومعظم المتزوجين أسلمت معهم زوجاتهم، وعشن المرحلة السرية ولم يدر بهنَّ أحد.

السمة الرابعة: الصلاة، فلم تخل مرحلة من مراحل الدعوة من الصلاة.

السمة الخامسة: معرفة قريش بخبر الدعوة، ولم تُعرها اهتماماً، ولم تُثر غضبها مادام هؤلاء منكفئين على ذواتهم مكتفين بأنفسهم، ثم كان في مكة بعض المتحنفين، وأهل مكة يعادون هؤلاء المتحنفين لأن هؤلاء كانوا يُعلنون شكَّهم في الأصنام، ويجتنبون عبادتها، وظن أهل مكة أن الإسلام مثل هؤلاء الحنفاء، وطالما أن الدين عقيدة في القلب، وعبادة في المعبد، ولا يتدخل في شؤون حياتهم فلا حرج عندهم.

من هنا ندرك سر المهادنة أحياناً بين الظلمة وبين بعض المتدينين الذين يكتفون من الإسلام بالعقيدة في القلب، والعبادة في المعبد، ولا يُدخلون الدين في شؤون الحياة لأن الظلمة عندئذٍ لا يهابونهم.

السمة السادسة: المعايشة بين المسلمين وغيرهم حيث لم يحصل أي صدام بين المجتمع الجاهلي والمجتمع الإسلامي الناشئ، فالفكرة الإسلامية غير معلنة إلا لمن أراد أن ينضم إليها، والمسلمون لا يتدخلون بأي شأن من شؤون غيرهم في نقد أو مواجهة.

السمة السابعة: التركيز على بناء العقيدة لأنه منها ينبثق السلوك الصحيح والعبادة الصحيحة، ولأن الفهم الصحيح للعقيدة يدفع صاحبها إلى الثبات عليها والتضحية في سبيلها، وكل ما نراه في مجتمعاتنا الإسلامية من التذبذب، والنفاق والتخلي عن طريق الحق مرده إلى ضعف العقيدة. فالإيمان يباشر العقل والقلب معاً، ويربط الفكر بالوجدان ربطاً وثيقاً. فليس الأمر (أي أمر العقيدة) قناعة فكرية باردة فقط، ولا دفعة عاطفية خالية من القناعة ـ كما يقول العلماء ـ بل هو الالتحام الكامل بين الفكر والقلب.

قال العلماء: في هذه المرحلة كانت النواةُ الصلبة التي حملت عبء الدعوة للإسلام في الأرض، وحملت عبء المواجهة مع أعداء الإسلام. لقد كانت هذه القلة (مابين ٤٠ – ٦٠) مستعصية على الإبادة لأنهم كانوا مؤهلين لرضوان الله تعالى، وهم أعلى طبقةً، لم يرتد واحد منهم أيام المحنة. هذه الطبقة هي التي كونت جيل القيادة للمجتمع الراشد، وتوفي رسول ﷺ وهو عنهم راض.

الفصل الثاني والأربعون
فشوُّ الإسلام والجهر بالدعوة
وإهلاك المستهزئين

فُشوُّ الإسلام، وتحدُّث الناس به:

قال العلماء: تسامع الناس بالدعوة المحمدية التي جاءت برسالة إلهية، وسَرت هذه الدعوة تقرع القلوب والآذان، حتى قيل: ما من بيت من بيوت قريش إلا علم بالإسلام ودعوة الرسول ﷺ، وأنه يخاطَب من السماء. وسَرَت الأخبار في خفاء، ودخل كثير من الضعفاء الذين تكون نفوسهم أصفى لأنهم يشعرون بالظلم، ويطلبون التغيير، ولذلك دخل الكثيرون من الرجال والنساء من الضعفاء والعبيد حتى اشتد ساعد المسلمين، وأتم الله تعالى نعمته على رسوله ﷺ في أن الدعوة السرية في سنواتها الثلاث كانت محضناً لتربية الجيل الأول من كتائب الإسلام. هذه الدعوة التي استجاب لها هؤلاء الضعفاء بدون معجزة خارقة للعادة، ولكنهم رأوا الحق فيما نزل من القرآن، ورأوا صدق الداعي المبلغ محمد ﷺ.

قال الشيخ أبو زهرة في كتابه خاتم النبيين: ولما سرت الدعوة المختفية المتربّيةُ في خليَّةِ نمائها، طلب الله عز وجل من رسوله أن يُعلنها وأن يصدع بها ويخرج من استخفائه.

الجهر بالدعوة: ثم أمر الله عز وجل رسوله أن يصدع بحقه باطلَ أهل الشرك والوثنية جميعاً، وعموماً فقال عز وجل ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾ (١). والصَّدع أن تصنع شقاً في شيء متماسك، وقد شاع مُصطلح الصدع في الزجاج؛ لأن أيَّ شقٍ في أي شيء من الممكن أن يلتئم إلا في الزجاج؛ لأنه يصعب عليك أن تجمع القطع الصغيرة التي تنتج من صدعه، وكذلك الإيمان جاء ليصدعَ بنيان الكفرِ والفساد المتماسك الذي يقوى بقوة صناديد قريش.

وقولـه تعالى: ﴿وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾، أي: أعطهم عرض كتفيك، ولا تسأل عنهم، فهم لن يُسلموا لك؛ ذلك لأنهم مستفيدون من الفساد الذي جئت ـ يا محمد ـ لهدمه، ولكنهم سيأتون إليك تباعاً عندما تثبت دعوتك، وتؤمن قلوبهم أنك على الحق.

قال العلماء: وهذا ما حصل، ففي قصة إسلام خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص دليل

---

(١) الحجر: ٩٤.

على ذلك، كما ذكر الكاندهلوي في كتابه حياة الصحابة، ففي قصة إسلام خالد بن الوليد أنه قال: إنما نحن كأضراس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم، فلو قدمنا على محمد واتبعناه فإن شرف محمد لنا شرف. وهذا يعني أنهم قالوا: قد استقر الأمر لمحمد، ولم تعد معارضتنا له تفيد أحداً، ودخل خالد وعمرو بن العاص وغيرهما في الإسلام بعد ذلك. ثم أمره الله عز وجل أن يخص بالإنذار والدعوة عشيرته فقال: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢١٦﴾ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ (١).

قال صاحب كتاب محمد رسول الله: ومن ألطاف الله عز وجل في سير الرسالة أن جعل الجهد بها يسير في طريقين متوازيين تحقيقاً لحكمة تقوية الدعوة:

الطريق الأول: هو الاتجاه بالدعوة في علانيتها إلى عشيرة النبي ﷺ ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾، ذلك لأن التوجه بالدعوة للأقربين بالإنذار، والبطش، وخلع الشرك يحسم أطماع الأبعدين.

الطريق الثاني: الجهر العام بالدعوة لكل من يصله صوت الدعوة من الناس (فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾ ولذلك سارع النبي ﷺ إلى سائر قومه وساكني بلده، ومَن يَرِدُها في الأسواق والمواسم بدعوته إلى توحيد الله، وخلع الأنداد، وترك الأصنام.

قال صاحب التفسير المسمى بالتحرير والتنوير: أمر الله رسوله أن يخص عشيرته بالإنذار، وذلك للاهتمام بهذا الخاص، ووجه الاهتمام أنهم أولى الناس بقبول نصحه ودعوته، وتقوية جانبه لئلا يظنوا أن ما يُنذِرُ به الرسول ﷺ من الوعيد وأهوال القيامة لا يقع عليهم لأنهم قرابة هذا المنذر، وأهله وعشيرته. ويدل على هذا قوله ﷺ في ندائه لهم: «**لا أغني عنكم من الله شيئا**». فأعلمهم ﷺ أن القرابة لن تدفع عنهم عذاب من يكفر منهم، وأعلمهم أنه لا يُكتفى من مؤمنهم بالإيمان حتى يضُم إلى ذلك العمل الصالح. وهذا مما يدخل في الإنذار ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ ولذلك لما نزلت هذه الآية دعا رسول الله ﷺ قرابته مؤمنين وكافرين.

ففي الصحيحين من حديث عائشة وأبي هريرة وابن عباس قولهم: لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ

---

(١) الشعراء ٢١٤-٢٢٠.

عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ قام رسول الله ﷺ على الصفا فدعا قريشاً فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي، لبطون قريش حتى اجتمعوا، فجعل الرجل منهم إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو. فقال رسول الله ﷺ يا معشر قريش. فعمَّ وخَصَّ.

يا بني كعب بن لؤي: أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني مُرَّة بن كعب: أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد شمس: أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد مناف: أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني هاشم: أنقذوا أنفسكم من النار.

يا بني عبد المطلب: أنقذوا أنفسكم من النار.

اشتروا أنفسكم من الله، لا أغني عنكم من الله شيئا.

يا عباس بن عبد المطلب: لا أغني عنك من الله شيئا.

يا صفية عمة رسول الله: لا أغني عنك من الله شيئا.

ويا فاطمة بنت رسول الله: سليني من مالي ما شئت، لا أغني عنك من الله شيئا، غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها.

وكانت صفية وفاطمة مؤمنتين، وإنما كان إنذارهما تطبيقاً لفعل الأمر ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ في معانيه كلها من الدعوة إلى الإيمان، والدعوة إلى صالح الأعمال، فجمع النبي ﷺ بين إنذارين:

إنذار من الشرك، والإنذار من المعاصي، لأن فاطمة وصفية كانتا مسلمتين.

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا نبي فهر، يا بني عدي. . لبطون قريش حتى اجتمعوا فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب، وجاءت قريش فقال ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدّقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقاً. قال ﷺ فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد.

فقال أبو لهب: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا؟!! فنزلت ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ۝٥﴾ (١). وهذه السورة هي السادسة نزولاً، في السنة الرابعة للبعثة، نزلت بعد الفاتحة وقبل التكوير. قال صاحب التحرير والتنوير: وافتتاح السورة بالتَّباب مُشعرٌ بأنها نزلت لتوبيخ ووعيد، مثل ما تُفتتح به قصائد الهجاء بما يؤذن بالذم والشتم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ (٢). ومن ذلك قول أبي تمام في طالعة هجاء:

النار، والعار، والمكروه، والعطب. . . . . . .

والتَّبُّ: الهلاك والخسران، والكلام تقريع لأبي لهب، دافع الله به عن نبيه بمثل اللفظ الذي شتم به أبو لهب محمداً ﷺ جزاء وفاقا.

وهنا سؤال: لماذا أسند الهلاك إلى اليدين فقال: تبت يدا أبي لهب. . . ؟

والجواب: أن أبا لهب لما قال للنبي ﷺ حين جمعهم ليبلغهم الدعوة: تباً لك سائر اليوم ألهذا جمعتنا. أخذ بيده حجراً ليرميه به.

ورُوي عن طارق المحاربي قال: بينا أنا في سوق (ذي مجاز) وإذا برجل حديث السن يقول: أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا. وإذا رجل خلفه يرميه. . ويقول: إنه كذاب فلا تصدقوه. فقلت: مَن هذا؟ فقالوا: هذا محمد يزعم أنه نبي، وهذا عمه أبو لهب. فلما كانت اليدان سبباً لإيذاء النبي ﷺ فوقع الدعاء عليهما: ﴿تَبَّتْ يَدَآ . .﴾ كما يُقال للذي يتكلم بمكروه: بفيك الحجارة، أو بفيك الكُثْكث (٣)، وكما يُقال للذي يتكلم بكلام حسن: لا فُضَّ فوك. وأبو لهب اسمه عبد العزى بن عبد المطلب، وكنيته أبو عتبة، وأما كنيته بأبي لهب فهي كنية غلبت عليه في الجاهلية لحُسن وجهه.

هنا سؤال: لماذا سماه القرآن بكنيته دون اسمه الذي هو عبد العزى؟ والجواب: لأن في اسمه عبد العزى مخالفة للقرآن، وذلك لا يقره الله في كتابه، ولأن في كنيته ما يتأتى به التوجيه

---

(١) المسد: ٥.

(٢) المطففين: ١.

(٣) الكثكث: فتات الحصى والتراب.

بكونه صائراً إلى النار، وذلك كناية عن كونه جهنمياً؛ لأن اللهب ألسنة النار إذا اشتعلت وزال عنها الدخان. فالكنية موافقة لاستحقاقه لهب جهنم، فهو من أهل جهنم.

قال صاحب التحرير والتنوير: ثم أعيد الدعاء على جميعه ـ على جميع أبي لهب ـ لا على يديه فقط فقال: ﴿وَتَبَّ﴾ إغلاظاً له في الشتم والتقريع، وهي كذلك تأكيد للجملة الأولى، وإن اختلفت في الكلية والجزئية. وقوله تعالى: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ. .﴾ فقد ورد عن ابن مسعود أن أبا لهب قال: إن كان ما يقول ابن أخي حقاً فأنا أفتدي نفسي يوم القيامة بمالي وولدي. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿مَآ أَغۡنَىٰ عَنۡهُ مَالُهُۥ. .﴾ قال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَسَبَ﴾ أي من الولد، لأن الولد من كسب أبيه. وقوله تعالى: ﴿وَٱمۡرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلۡحَطَبِ﴾، قال العلماء: أعقب ذم أبي لهب بذم زوجه؛ لأنها كانت تشاركه في أذى النبي ﷺ، وقد جعل الله لها وعيداً مقتبساً من فعلها الذي هو حمل الحطب والشوك في الدنيا لإيذاء النبي ﷺ، فأُنذرت بأنها ستحمل الحطب في جهنم ليوقد به على زوجها، وأي خزي أعظم من أن يُعذب الإنسان من يحب.

وكلمة الأقربين في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ﴾ استجلاب لقلوبهم، وتعريض بأهل الضلال منهم على حد قول الشاعر:

وظلم ذوي القربى أشد مضاضة   على المرء من وقع الحسام المهند

وإلى هذا أشار قوله ﷺ في آخر دعوته لهم حيث قال ﷺ: «**غير أن لكم رحماً سأبلها ببلالها**»، أي: كل ما أملك لكم أن أحسن إليكم هنا، وأنصحكم حين لا أملك لكم من الله شيئاً، فيحق عليكم أن تبلُّوا لي رحمي كما أبل رحمكم، وذلك بأن تستجيبوا لي لأنكم تملكون ذلك.

قال العلماء: لما نزلت سورة ﴿تَبَّتۡ يَدَآ. .﴾ تحمل البشرى لأم جميل أروى بنت حرب أخت أبي سفيان، ولزوجها أبي لهب بالهلاك في الدنيا، والخلود في النار في الآخرة، أقبلت أم جميل ولها ولولة، وفي يدها فهر(١)، ورسول الله ﷺ في المسجد عند الكعبة، ومعه أبو بكر، فلما رآها أبو بكر قال: يا رسول الله: إنها امرأة بذية(٢)، وإني أخاف أن تراك، فقال ﷺ: إنها لن تراني، فجاءت

---

(١) الفهر: حجر يملأ الكف، طويل يدق به في الهاون.

(٢) سليطة اللسان.

فأقبلت على أبي بكر ولم ترَ رسول الله ﷺ فقالت: يا أبا بكر: أين صاحبك؟ قد بلغني أنه يهجوني، والله لو وجدته لضربته بهذا الفهر، والله إني لشاعرة، وجعلت تقول: مذمماً عصينا، وأمره أبينا، ودينه قلينا.

فقال الصديق: لا، وما يقول الشعر. وفي رواية، قال الصديق: لا ورب الكعبة ما هجاك، والله ما صاحبي بشاعر، وما يدري ما الشعر، فقالت للصديق: أنت عندي مصدَّق. وانصرفت وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها ـ أي عبد مناف وكان جد أبيها ـ ومن كان عبد مناف أباه لا ينبغي لأحد أن يتجاسر على ذمه.

فقال الصديق: يا رسول الله أما تراها رأتك؟ فقال ﷺ: «**ما رأتني لقد أخذ الله بصرها عني**» فقال الصديق: يا رسول الله: لِمَ لم ترك؟ فقال ﷺ: «**لم يزل مَلَك يسترني بجناحيه**». قال العلماء: وبنـزول قوله تعالى: ﴿ فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ . ﴾ ترك رسول الله ﷺ الاختفاء في دار الأرقم وأعلن بالدعوة جهراً، ثم طمأنه الله عز وجل بأنه سيكفيه المستهزئين. قال عز وجل: ﴿ إِنَّا كَفَيۡنَٰكَ ٱلۡمُسۡتَهۡزِءِينَ ﴾ (١). أي: اصدع بما تؤمر ولا تخف غير الله، فإن الله كافيك مَن آذاك، كما كفاك المستهزئين.

وقد روى ابن إسحاق عن عروة أن عظماء المستهزئين كانوا خمسة نفر، وكانوا ذوي أسنان وشرف في قومهم، وهم ـ كما أخرج الطبراني، والبيهقي في الدلائل، وابن مردويه بسند حسن ـ الوليد بن المغيرة، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، والعاص بن وائل السهمي، والحارث بن عيطلة، وعيطلة اسم أمه، واسم أبيه قيس.

قال العلماء: وقد ثبت لكل من عاش تلك الفترة أن كل مستهزئ بمحمد ودعوته قد ناله عقاب من السماء.

قال البغوي في تفسيره معالم التنزيل: كان المستهزؤون خمسة نفر من رؤساء قريش، وكان النبي ﷺ قد دعا عليهم، ومنهم الوليد بن المغيرة ـ وكان رأسَهم وهو الذي جمعهم ـ فأتى جبريل النبي ﷺ والمستهزئون يطوفون بالبيت، فقام جبريل وقام النبي ﷺ إلى جنبه، فمر به الوليد بن المغيرة فقال جبريل: يا محمد كيف تجد هذا؟ فقال ﷺ «**بئس عبد الله**»، قال جبريل قد كُفيته وأومأ

---

(١) الحجر: ٩٥.

إلى ساق الوليد، فمر الوليد بن المغيرة برجل من خزاعة نبّال يريش نبلاً له وعلى الوليد برد يمان، وهو يجر إزاره، فتعلقت شظية من نبل بإزاره فمنعه الكبر أن يطأطأ رأسه فينـزعها،

وعند الطبري فتعلقت بثوبه بروة[1] أو شررة، وبين يديه نساء، فجعل يستحي أن يطامن ينتزعها، وجعلت تضرب ساقه فخدشته فلم يزل مريضاً حتى مات.

قال الشعراوي: وتُصاب قدمه بالغرغرينا، ثم يقطعونها له، ثم تنتشر الغرغرينا في كل جسده إلى أن مات.

قال البغوي: ومر بعد الوليد العاص بن وائل، فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: «**بئس عبد الله**»، فأشار جبريل إلى أخمص رجليه وقال: قد كُفيته، فخرج على راحلته ومعه ابنان له يتنزه، فنزل شِعباً من تلك الشعاب، فوطئ على شِبرقة[2] فدخلت منها شوكة في أخمص رجله، فقال: لُدغت، لُدغت، فطلبوا فلم يجدوا شيئاً، وانتفخت رجله حتى صارت مثل عنق البعير، ثم مات.

قال البغوي: ومر به الأسود بن المطلب فقال جبريل: كيف تجد هذا؟ قال ﷺ «**عبد سوء**»، فأشار جبريل إلى عينيه وقال للنبي ﷺ: قد كُفيته، فعمي.

قال ابن عباس: رماه جبريل بورقة خضراء فذهب بصره، ووجعت عيناه، فجعل يضرب برأسه الجدار حتى هلك.

وفي رواية الكلبي: أتاه جبريل وهو قاعد في أصل شجرة، ومعه غلام له فجعل ينطح رأسه بالشجرة، ويضرب وجهه بالشوك فاستغاث بغلامه، فقال غلامه: لا أرى أحداً يصنع بك شيئاً غير نفسك، حتى مات وهو يقول: قتلني رب محمد.

قال البغوي: ومرَّ به الأسود بن عبد يغوث فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال ﷺ «**بئس عبد الله على أنه ابن خالي**»، فقال جبريل: قد كُفيته، وأشـار إلى بطنه، فاستسقى بطنه، فمات حبناً[3].

---

(١) البروة: الحلقة من الصفر وغيره.

(٢) نوع من الشوك المسمى بالضريع.

(٣) يقال حبن حبناً وحُبُن فهو أحبَن، والمرأة حبناء: أي عظم بطنه بالماء الأصفر.

قال البغوي: ومر الحارث بن قيس ـ اسم أمه عيطلة ـ فقال جبريل: كيف تجد هذا يا محمد؟ فقال ﷺ «**عبد سوء**»، وأومأ إلى رأسه وقال: قد كُفيته وأشار إلى رأسه فامتخط من رأسه قيحاً فقتله بعد أن أكل حوتاً مملوحاً فلم يزل يشرب حتى مات.

قال صاحب التحرير والتنوير: كان هلاكهم بمكة متتابعين، وكان هذا الهلاك عجيباً صارفاً أتباعهم عن الاستهزاء لانفراط عقدهم.

وقد ذكر المؤرخون أن رأس المستهزئين كان الوليد بن المغيرة، وهو الذي جمعهم، فلما أصيب وحضرته الوفاة جمع بنيه الثلاثة وأوصاهم فقال: أي بني: أوصيكم بثلاث: دمي في خزاعة فلا تطلبُنَّهُ، والله إني لأعلم أنهم منه برآء، ولكن أخشى أن تُسبوا بعد اليوم. ورِباي في ثقيف فلا تدعوه حتى تأخذوه. وعَقري عند أبي أُزيهر فلا يفوتَنَّكم. وكان أبو أزيهر قد زوج الوليد بنتاً له ثم أمسكها عنه فلم يُدخلْها عليه حتى مات، وكان أبو أزيهر قد قبض عقْرها[1] مقدماً.

قال ابن إسحاق: فلما مات الوليد وثبت بنو مخزوم ـ قوم الوليد ـ على خزاعة يلتمسون منهم دية الوليد، وقالوا لخزاعة: إنما قتله سهمكم، ثم اختصموا وتصالحوا على بعض الدية، ثم وثب هشام بن الوليد على أبي أزيهر فقتله وهو بسوق ذو مجاز. وقد أشار ابن الأثير إلى كثير ممن كانوا شديدي العداوة له ﷺ، كما كانوا شديدي الاستهزاء بالنبي ﷺ وبالمسلمين وعُدَّ فوق من ذكرناهم: أبو جهل، عمرو بن هشام: كناه المسلمون بأبي جهل لخبثه وسوء أفعاله، وهو القائل: لئن سبَّ محمد آلهتنا لنسُبَّنَّ إلهه. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ﴾[2].

قال العلماء: هذه الآية الكريمة تتضمن منهجاً ضرورياً من مناهج الدعوة، وهو الأمر بألا نَسُبَّ ما يعبده الذين أشركوا بالله.

والسب: هو ذكر القبيح، و الشتم، والذم، والهجاء. لأنك إن سببت وقبَّحت ما عبدوه من دون الله؛فإن العابد لهذه الأوثان بغباوته سيسب إلهك، فتكون أنت قد سببت إلهاً باطلاً، وهم

---

(١) صداقها.

(٢) الأنعام: من الآية ١٠٨.

سبُّوا الإله الحق، وبذلك لم تكسب شيئاً.

ولذلك حذرنا الله من الوقوع في ذلك: ﴿ وَلَا تَسُبُّواْ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّواْ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍۗ ﴾. أي سيفعلون ذلك عدْواً وعدواناً وطغياناً بغير علم بقيمة الحق، وقدسيته عز وجل. لذلك يجب أن نصون الألسنة عن سب آلهتهم لأنك تريد أن تكسب قلوبهم، وهذا لا يكون إلا بالأسلوب الطيب، والنُّصح المُخلص.

ولقد قال الحكماء: النصح ثقيل فلا ترسله جبلاً، ولا تجعله جدلا، والحقائق مرة فاستعيروا لها خفة البيان. والخفة في النصح تؤلف قلب المنصوح، فإن أصروا على الشرك فقد قال الله فيهم: ﴿ إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ ﴾(١). إذاً المشركون وأصنامهم التي عبدوها ستكون وقوداً للنار التي يُعذَّبون بها.

قال العلماء: واحذر ـ حفظك الله ـ أن تظن ان هذا عذاب للأحجار!! لا بل هو غيظ ونقمة وغضب من الأحجار على خروج المشركين عن توحيد الله، فتقول الأحجار لقد فُتنتم بنا ولذلك سنكون نحن أداة إحراقكم، وهذه الأصنام والأحجار التي عبدوها تقول لهم بلسان الحال كما ذكر علماؤنا عليهم رحمة الله:

عبدونا ونحن أعبدُ لله	من القائمين بالأسحارِ
أخذوا صمتنا علينا دليلاً	وغدوْنا لهم وقودَ النارِ
للمُغالي جزاؤه والمُغالى	فيه تُنجيه رحمة الغفارِ

قال المربّون: صحيح ان المؤمنين معذورون في حماسهم حين يدخلون مع المشركين في جدل، ولكن ليتذكر المؤمن المطلب الأساسي، والقيمة النهائية وهي الخير للدعوة.

وليسأَل الله أن يرزقه الصَّبرَ على المخالفين والمشركين، لذلك نجد سيدنا نوحاً ـ عليه السلام ـ الذي لبث يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً إلى أن قالوا له في آخر المطاف: أنت تفتري هذا الكلام من عندك. فعلَّمه الله تعالى أن يقول: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَعَلَىَّ إِجْرَامِى وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا

(١) الأنبياء: ٩٨.

تُجۡرِمُونَ ﴾[1].

قال العلماء: وسبب النهي عن سب أصنامهم هو أن السبَّ لا تترتب عليه مصلحة دينية لأن المقصود من الدعوة هو الاستدلال على إبطال الشرك، وإظهار استحالة كون الأصنام شركاء أو آلهة، وبهذا يتميز أهل الحق، ويستطيعونه ـ أي يستطيعون إثبات باطل الشرك ـ ولا يستطيعه المبطلون. ثم إن السب مقدور للمحق والمُبطل، وربما كان أهل الباطل أقدرَ على ذلك فيظن الناس أنه بالسبب قد تغلَّب على المحقِّ.

قال الفقهاء: ومتى كان أهل الكفر في مَنَعَة، وخيف أنه إن سب المسلمون أصنامه، أو أمورَ شريعته أن يسبَّ هو الإسلام، أو النبي أو الله. لم يحلَّ للمسلم أن يسب شيئاً من عقائدهم ومشاعرهم؛ لأنه بمنزلة البعث على زيادة الكفر.

قال صاحب التحرير والتنوير: وليس من السب إبطالُ عقائدهم في مقام المناظرة والمجادلة.

قال المؤرخون: ومن الذين أهلكهم الله النضر بن الحارث، وهو من أشد الناس تكذيباً لرسول الله ﷺ وهو الذي أنزل فيه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذۡ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ مِنۡ عِندِكَ فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾[2].

قال ابن عباس: لما قص رسول الله ﷺ شأن القرون الماضية، قال النضر بن الحارث: لو شئتُ لقلت مثل هذا. إن هذا إلا أساطير الأولين، فقال له عثمان بن مظعون: اتق الله فإن محمداً يقول الحق، قال النضر: فأنا أقول الحق.

قال عثمان: فإن محمداً يقول: لا إله إلا الله، قال: وأنا أقول لا إله إلا الله، ولكن هذه الأصنام بنات الله، ثم قال: اللهم إن كان هذا الذي يقول محمد هو الحق من عندك ﴿فَأَمۡطِرۡ عَلَيۡنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي كما أمطرتها على قوم لوط، ﴿أَوِ ٱئۡتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾.

وفي البخاري عن أنس أن صاحب هذا القول هو أبو جهل، ولا مانع من أن يكون قائل

---

(١) هود: ٣٥.

(٢) الأنفال: ٣١ـ ٣٢.

هذا القول أكثر من واحد، فقد تكررت هذه الأقوال من بعض المشركين.

وقد حكي عن ابن عباس -كما ذكر القرطبي – أنه لقيه يهودي فقال له اليهودي: من أنت؟ فقال ابن عباس: من قريش، فقال: أنت من القوم الذين قالوا: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ فهلا عليهم أن يقولوا: إن كان هذا هو الحق من عندك فاهدنا له. إن هؤلاء قوم يجهلون.

قال ابن عباس: وأنت يا إسرائيلي من القوم الذين لم تجفَّ أرجلُهم من بلل البحر الذي أُغرِق فيه فرعون وقومه، وأنجى موسى وقومه حتى قالوا: ﴿يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (١). فأطرق اليهودي ملجماً.

وورد عن معاوية ـ كما ذكر القاسمي ـ أنه قال لرجل من سبأ: ما أجهلَ قومَك حين ولوا عليهم امرأة! قال السبئي: أجهل من قومي قومك! قالوا لرسول الله ﷺ حين دعاهم إلى الحق: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا. .﴾ ولم يقولوا إن كان هذا هو الحق فاهدنا إليه.

قال علماء السيرة: ومن المستهزئين عقبة بن أبي معيط: وهو الذي وضع فرث الجزور على ظهر رسول الله ﷺ وهو ساجد، كان أُحَيْمر أزرق العينين، شبَّهه رسول الله ﷺ بعاقر ناقة صالح، قدار بن سالف. أُسر هذا الطاغية يوم بدر، وصُلِبَ وهو أول مصلوب في الإسلام.

ومنهم: ركانة بن عبد يزيد: كان من طغاة قريش ، وكان شديد العداوة للنبي ﷺ، كما كان مصارعاً لا يقدر على صرعه أحد، قال يوماً للنبي ﷺ يا ابن أخي بلغني عنك أمر، ولست بكذاب فإن صرعتني علمت أنك صادق، فصارعه النبي ﷺ وصرعه ثلاث مرات، ودعاه النبي ﷺ إلى الإسلام فأبى أن يُسلم وقال: لا أسلم حتى تدعو هذه الشجرة، فقال ﷺ للشجرة: أقبلي، فأقبلت تخُد(٢) الأرض، فقال ركانة: ما رأيت سحراً أعظم من هذا، مُرها فلترجع، فأمر النبي ﷺ فعادت إلى مكانها، فقال ركانة: هذا سحر عظيم، ولم يؤمن.

---

(١) الأعراف: ١٣٨.

(٢) أي تشق الأرض.

الفصل الثالث والأربعون
إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب

قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: بعد أن اكتمل عدد المسلمين نيفاً وأربعين رجلاً وكذا امرأة، أسلم حمزة عم النبي ﷺ وعمر بن الخطاب، وبإسلامهما قويت شوكة المسلمين، وأنزل الله قوله: ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ (١).

وأصحاب السير يقررون أن من أهم آثار المرحلة السرية من الدعوة ونجاحها أنها جذبت إلى ساحة الإيمان برسالة محمد ﷺ أشجع رجلين كانا في قريش، بهما أعز الله دينه، وأيد نبيه، فقد جذبت الدعوة في هذه المرحلة إلى ساحتها في السنة الثانية أو الثالثة من بدء وحي الرسالة ـ لا النبوة إذ بينهما ثلاث سنوات ـ أعزَّ فتى في قريش، أسد الله وأسد رسوله، سيد الشهداء، عم رسول الله ﷺ وأخوه من الرضاع. وكان سبب إسلامه أن أخته صفية بنت عبد المطلب عمة رسول الله ﷺ وأم الزبير بن العوام، ومعها جارية لعبد الله بن جُدعان أخبرتاه وهو ـ أي حمزة ـ عائد من رحلة قنص، أن أبا جهل بن هشام قد آذى ابن أخيه محمداً ﷺ وبالغ في تنقيصه، وهو جالس عند الصفا، فلم يكلمه محمد ﷺ ولم يرد عليه سفاهته، واحتمل حمزة الغضب وخرج يسعى ولم يلتفت إلى أحد حتى أتى أبا جهل وهو جالس في نادي القوم حول المسجد فضربه بقوس كان بيده على رأسه فشجه شجة منكرة وقال لأبي جهل: أتشتمه وأنا على دينه؟ أقول ما يقول، فَـرُدَّ عليَّ إن استطعت، فحمي لأبي جهل رجال من قومه بني مخزوم لينصروه، فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة ـ حمزة ـ فإني والله قد سببت ابن أخيه سباً قبيحاً. وعند ابن هشام: أن الرجال الذي قاموا لنصرة أبي جهل قالوا: يا حمزة: ما نراك إلا قد صَبَوْت؟

قال: وما يمنعني وقد استبان لي منه ما أشهد أنه رسول الله، وأن الذي يقول حق، فوالله لا أنزِع، فامنعوني إن كنتم صادقين.

قال ابن إسحاق: ثم رجع حمزة إلى بيته، فوسوس له الشيطان: أنت سيد قريش، اتبعْتَ هذا الصابئ، وتركتَ دين آبائك، لَلْموتُ خير لك مما صنعت. قال حمزة: فبتُّ لا أكتحل بنوم، وبت من الشك في أمر عظيم حتى أصبحتُ. فلما أصبح طاف بالكعبة، وتضرَّع إلى الله، ثم أتى

---

(١) الحجر: ٩٤.

النبي ﷺ وقال له: يا ابن أخي: إني قد وقعتُ في أمر ولا أعرف المخرج منه، وإقامةُ مثلي على أمر ما أدري هل هو رشد أم غيٌّ شديد، فحدثني حديثاً، فقد اشتهيتُ يا ابن أخي أن تحدثني. فأقبل رسول الله ﷺ عليه، فذكَّره ووعظه، وخوَّفه، وبشَّره، فألقى الله في قلبه الإيمان بما قال رسول الله ﷺ، فقال حمزة: أشهد أنك الصادق شهادة الصدق، فأظْهِر دينك فوالله ما أحب أن لي ما أظلَّته السماء وأني على ديني الأول.

قال ابن إسحاق: ولما أسلم حمزة عرفت قريش أن رسول الله ﷺ قد عزَّ وامتنع، فكفّوا عما كانوا يتناولون منه. وقد ذكر أرباب التاريخ والسير شعراً قاله حمزة بن عبد المطلب حين أسلم ومن ذلك:

حمدتُ الله حين هدى فؤادي ... إلى الإسلام والدين الحنيف
لدينٍ جاء من رب عزيز ... خبيرٍ بالعباد بهم لطيفِ
إذا تُليت رسائلُه علينا ... تحدَّر دمعُ ذي اللُّبِ الحصيفِ
رسائلُ جاء أحمد من هداها ... بآياتٍ مبينةِ الحروفِ

قال الصادق عرجون في كتابه محمد رسول الله: وأسلم حمزة أولاً أَنَفَةً، ثم شرح الله صدره. ثم جذبت سياسة الاستسرار بالدعوة في مطلع شمسها ثاني العظيمين فاروقَ الإسلام، وعبقريَّ الدنيا، عمر بن الخطاب.

إسلام عمر بن الخطاب: قال صاحب الرحيق المختوم: أسلم عمر في شهر ذي الحجة سنة ست من النبوة بعد ثلاثة أيام من إسلام حمزة، وجميع الروايات التي رويت في إسلام عمر تشير إلى أن نزول الإسلام في قلبه كان تدريجياً. ودأْبُ المخلصين في كل زمان ومكان أنهم إذا أيّدوا فكرة، أو نصروا مبدأ بذلُوا في ذلك جهدهم، وهكذا كان شأن عمر رضي الله تعالى عنه.

قال صاحب كتاب أخبار عمر(١): كانت أول شعاعة من نور الإيمان مسَّت نفسَ عمر، يوم هجرة الحبشة حين شاهد نساءَ قريش يرحلن بدينهن إلى بلد بعيد غريب فرق قلبه، وعاتبه ضميره، فرثى لهن، وسمعْن منه كلمةً طيبة لم يكنَّ يطمعْن أن يسمَعْنَ منه مثلها. فقد روت أم عبد الله حنتمة قالت: والله إنا لنرتحل إلى أرض الحبشة مهاجرين وقد ذهب زوجي عامر بن

---

(١) الشيخ علي الطنطاوي ـ رحمه الله.

ربيعة لبعض حاجته، إذ أقبل عمر حتى وقف عليّ ـ وهو على شِركه ـ وكنا نلقى منه البلاء، فقال لي: إنه الانطلاق يا أم عبد الله، قلت: نعم، والله لنَخْرجنَّ في أرض الله، آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجا. قال عمر: صحبكم الله. ورأيتُ منه رقة لم أرها قط، فلما رجع زوجها (عامر بن ربيعة) من حاجته ذكرت له ما رأت من عمر فقال لها عامر: أطمِعْتِ في إسلامه؟ قالت له: نعم. فقال عامر: إنه لا يُسلم حتى يسلمَ حمار الخطاب. يأساً منه.

أما الشعاعة الأخرى من نور الإيمان التي مست قلب عمر فقد ورد عن عمر أنه قال: خرجت أتعرَّض لرسول الله ﷺ قبل أن أسلم، فوجدته قد سبقني إلى المسجد الحرام. ـ وعند صاحب الرحيق المختوم أن ذلك كان ليلاً ـ فدخل عمر في ستر الكعبة، وقام خلف النبي ﷺ والنبي يصلي وقد استفتح بسورة الحاقة.

قال عمر: فجعلتُ أعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ ﷺ ﴿إِنَّهُۥ لَقَوۡلُ رَسُولٖ كَرِيمٖ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوۡلِ شَاعِرٖۚ قَلِيلٗا مَّا تُؤۡمِنُونَ (٤١)﴾ [١]. قلت: كاهن. قال: ﴿وَلَا بِقَوۡلِ كَاهِنٖۚ قَلِيلٗا مَّا تَذَكَّرُونَ (٤٢) تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ (٤٣) وَلَوۡ تَقَوَّلَ عَلَيۡنَا بَعۡضَ ٱلۡأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذۡنَا مِنۡهُ بِٱلۡيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعۡنَا مِنۡهُ ٱلۡوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنۡ أَحَدٍ عَنۡهُ حَٰجِزِينَ (٤٧)﴾ [٢] إلى آخرها، فوقع الإسلام في قلبي [٣].

قال العلماء: ولكن هذه الإشعاعات كانت في مرحلة التردُّد، وكان دين قومه لا يزال متمكناً من نفسه، فلم تلبث هذه الشعاعة الثانية أن اختفَتْ، وعاد إلى أشد ما كان عليه من كره المسلمين حتى عزم على قتل محمد ﷺ؛ لأن هذه الإشعاعات كانت قشرة تحت نزعة الجاهلية.

قال المؤرخون: وكانت قريش قد اجتمعت فتشاورت في أمر النبي ﷺ فقالوا: أي رجل يقتل محمداً؟ فقال عمر بن الخطاب: أنا لها. فقالوا له: أنت لها. فخرج في الهاجرة، في يوم شديد الحر متوشحاً سيفه يريد النبيَّ ﷺ وأصحابه، فيهم أبو بكر، وعلي وحمزة، وغيرهم ممن قد أقاموا مع رسول الله بمكة ولم يخرجوا إلى أرض الحبشة مع من خرج، وقد قيل لعمر: إنهم اجتمعوا في دار الأرقم أسفل الصفا، وفي الطريق لقيه نُعيم بن عبد الله النحّام. فقال: أين تريد يا عمر؟ قال:

---

(١) الحاقة: ٤٠ ـ ٤١.

(٢) الحاقة٤٢ ـ: ٤٧.

(٣) ذكر ذلك الإمام أحمد وفي الإصابة كذلك.

أريد هذا الصابئ الذي فرّق أمر قريش، وعاب دينها، وسفَّه أحلامها فأقتله. قال له نعيم: لبئس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرتك نفسك من نفسك، ففرطت وأردت هلكةَ بني عدي، أتَرى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فتحاورا حتى ارتفعت أصواتهما، فقال عمر لنعيم: إني لأظنك قد صبوت، ولو أعلم ذلك لبدأت بك. فلما رأى نعيم أن عمر غير منته قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل ختنك قد أسلموا وتركوك وما أنت عليه من ضلالتك.

فلما سمع عمر مقالته قال: وأيهم؟ قال: خَتَنُك وابنُ عمك وأختك. وقيل لنعيم النحام؛ لأنه ﷺ قال فيه: «**لقد سمعت نحمته في الجنة**»، أي: حسَّه وصوته.

وفي رواية ذكرها صاحب كتاب «أخبار عمر»: أن الذي لقي عمر في الطريق سعد بن ابي وقاص، فقال لعمر: أين تريد؟ قال: أريد أن أقتل محمداً، قال له سعد: أنت أحقر وأصغر من ذلك!! فكيف تأمن بني هاشم وبني زهرة وقد قتلت محمداً؟ قال عمر لسعد: ما أراك إلا قد صبأت وتركت دينك الذي أنت عليه. قال سعد: نعم، إني أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فسلَّ عمر سيفه، وكشف سعد عن سيفه، وشد كل واحد منهما على الآخر حتى كادا أن يختلطا، فقال سعد: أفلا أدلك على العجب يا عمر؟ إن أختك وختنك قد صبَوَا وتركا دينك الذي أنت عليه.

قال الزرقاني: ولا تضاد بين الروايتين لاحتمال أن يكون كلاهما قد لقيه. وكان رسول الله ﷺ يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند رجل به سعة من المال، فيكونان معه، ويصيبان من طعامه، ويجعل منهم لقاءات تعليمٍ، فمن حفظ شيئاً من القرآن علّم من لم يحفظ فتكون أخوةٌ، ويكون تعليم.

وكان ممن أسلم فاطمة بنت الخطاب، وزوجها سعيد بن زيد، وكان زيد ابن عم عمر، فكان سعيد بن زيد وزوجه فاطمة بنت الخطاب أخت عمر، ونعيم بن عبد الله النحام يلتقون على معلم واحد هو خباب بن الأرت، وكان نعيم بن عبد الله النحام من بني عدي أسرة عمر.

قال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه أخبار عمر: وكان اختفاء المسلمين في تلك الفترة اختفاءَ استعدادٍ وتدريب لا اختفاءَ جبنٍ ولا هرب، وكان اشتغالهم بالقرآن لا يقتصرون منه على

تجويد تلاوته، وضبط مخارج حروفه، ولا على الاستكثار من سرده، والإسراع في قراءته، بل كان همهم مدارسته وفهمه، ومعرفة أمره ونهيه، والعمل به.

قال العلماء: فلما سمع عمر أن أخته وزَوجَها قد أسلما، احتمله الغضب فذهب إليهم، فلما قرع الباب قالوا: من هذا؟ قال: ابن الخطاب. وكانوا يقرؤون كتاباً في أيديهم، فلما سمعوا حس عمر قاموا مسرعين فاختبؤوا ونسوا الصحيفة المكتوبة على حالها، فلما دخل ورأته أخته عرفت الشر في وجهه، فخبأت الصحيفة تحت فخذها وزوجُها إلى جانبها. قال عمر: ما هذه الهينمة[1]التي سمعتها عندكم؟ ـ وكانوا يقرؤون طه ـ فقالا: ما عدا حديثاً تحدثناه بيننا. قال عمر: فلعلكما قد صبوتما، فقال له ختنه: أرأيت يا عمر إن كان الحق في غير دينك؟ فوثب عمر على ختنه سعيد وبطش بلحيته فتواثبا، وكان عمر قوياً شديداً، فضرب بسعيد الأرض، ووطئه وطأً، ثم جلس على صدره، فجاءت أخته فدفعته عن زوجها، فلطمها بيده، فدمي وجهُها، فقالت وهي غضبى: يا عدو الله أتضربُني على أن أوحد الله؟ قال عمر: نعم. قالت: ما كنتَ فاعلاً فافعل، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. لقد أسلمنا على رغم أنفك. فلما سمع عمر كلامها، ورأى الدم على وجهها، ندم وقام عن صدر زوجها، وقعد ثم قال: أعطوني هذه الصحيفة التي عندكم فأقرأها ـ وكان عمر يقرأ الكتب ـ فقالت أخته: لا أفعل. قال عمر: ويحك قد وقع في قلبي ما قلتِ، فأعطينيها أنظرْ إليها، وأعطيك من المواثيق أن لا أخونك حتى تُحرزيها حيث شئتِ. قالت: إنك رجسٌ ولا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فخرج عمر ليغتسل، وخرج إليها خباب بن الأرت ـ معلّمُهُم ـ فقال: أتدفعين كتاب الله إلى عمر وهو كافر؟!

قالت: نعم، إني لأرجو أن يهدي الله أخي، فدخل خباب البيت، وجاء عمر فدفعت إليه الصحيفة، وكان فيها ـ طه ـ، وسورٌ أخرى، فرأى فيها ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾.

فلما مرّ بالرحمن الرحيم ذُعر، فألقى الصحيفة من يده ثم رجع إلى نفسه فأخذها فإذا فيها قوله تعالى من سورة الحديد: ﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢﴾ هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣﴾ هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَ

(١) الصوت الخفي.

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾ . . ﴾[1] إلى قوله تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۙ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَٰقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[2]. فجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذُعِر. قال العلماء: وكان في الصحيفة أيضاً سورة (طه) و(إذا الشمس كورت). ورووا أنه قرأ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى ﴿٧﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ﴿٨﴾ ﴾[3]. فعظُمت في صدره، فقال: من هذا فرّت قريش؟ ثم قرأ فلما وصل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾[4]. قال: ينبغي لمن يقول هذا أن لا يُعبد معه غيره. دلوني على محمد.

فلما سمع خباب قول عمر خرج من البيت فقال: أبشر يا عمر فإني أرجو أن تكون قد سبقتْ فيك دعوةُ رسول الله ﷺ يوم الاثنين، وكان ﷺ قد دعا ليلة يوم الاثنين التي غدا عمر في بكرتها إلى النبي ﷺ في دار الأرقم فأسلم بين يديه.

وكانت الدعوة من رسول الله قوله ﷺ: «**اللهم أعزّ الإسلام بأحبّ هذين الرجلين إليك، بأبي جهل بن هشام، أو بعمر بن الخطاب**» وقد ضَعَّف المحققون هذا الحديث، لأن النبي ﷺ كان قد دعا على الملأ من قريش ثم خصَّ بالوعيد (أبا جهل) وقال له: «**أنت منهم**» وكان الوعيد أني جئتكم بالذبح على الكفر، والرسول لا يقول هذا إلا إذا كان وحياً فكيف يدعو عليه بهذا الدعاء، ثم يقول: اللهم أعز الإسلام بأحب هذين الرجلين إليك بأبي جهل أو عمر؟!!.

قال المحققون: والصحيح الثابت أن النبي ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب خاصة**» وهذا في حديث عائشة، وفي رواية ذكرها ابنُ سيد الناس في كتابه «إنسان العيون» بسنده

---

(١) الحديد: ١ ـ ٤.

(٢) الحديد: ٨.

(٣) طـه: ١ ـ٨.

(٤) طـه: ١٤ ـ ١٦.

عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنه ﷺ قال: «**اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب**».

قال العلماء: لما قال عمر: دلوني على محمد، وعرفوا منه الصدق قالوا: هو في أسفل الصفا، فأخذ عمر سيفه وتوشحه، ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه وضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته وَجلوا ـ وكان حمزة على الباب، وطلحة والنبي ﷺ في الداخل يوحى إليه ـ ولم يجرؤ أحد منهم أن يفتح له لِما قد علموا من شدته على رسول الله ﷺ. فلما رأى حمزة وَجَل القوم قال: ما لكم؟ قالوا: عمر بن الخطاب! قال: عمر بن الخطاب؟! افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يُسلم، وإن يُرد غير ذلك كان قتلُه علينا هيناً، ففتحوا له، وأخذ حمزة ورجل آخر من عضديه حتى أدخلاه على رسول الله ﷺ، فقال ﷺ: أرسلوه، فأرسلوه، فنهض ﷺ فأخذ بمجامع ثوبه، وحمائل سيفه فنتره نترة، فما تمالك عمر أن وقع على ركبتيه، وقد ارتعد من هيبته ﷺ، فقال له ﷺ: ما أنت بمنتهٍ يا عمر حتى يُنزل الله بك ما أنزل بالوليد بن المغيرة ـ يعني الخزي والنكال ـ ثم قال ﷺ له: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهدِ قلبَه. فقال عمر: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فكبّر المسلمون تكبيرة واحدة سُمعت في طرق مكة ـ كما ذكر ابن هشام وغيره من كتّاب السيرة.

الفصل الرابع والأربعون
أثر إسلام عمر علىٰ الدعوة. ومساومة الرسول ﷺ

قال المؤرخون: لما أسلم عمر بإخلاص، عمِل لتأكيد الإسلام بمثل الاندفاع الذي كان يعمل به لمحاربته. فقال للنبي ﷺ: يا رسول الله، ألسنا على الحق إن متنا وإن حيينا؟ قال ﷺ: «**بلى والذي نفسي بيده إنكم على الحق، إن متم وإن حييتم**» قال عمر: ففيم الاختفاء؟ والذي بعثك بالحق لتخرُجَنَّ.

وكان النبي ﷺ قد رأى أنه آن الأوان للإعلان، وأن الدعوة قد غدت قوية تستطيع أن تدفع عن نفسها، فأذِن في الإعلان، وخرج ﷺ في صفين، عمر في أحدهما، وحمزة في الآخر، ولهم كديد ككديد الطحين حتى دخل المسجد، فنظرت قريش إلى حمزة وإلى عمر، فأصابْتهم كآبةٌ لم تُصبهم قط، وسماه رسول الله ﷺ يومئذ الفاروق ـ كما في حليـة الأولياء.

قال صاحب كتاب «السيرة النبوية الصحيحة» لقد كان رد فعل قريش على إسلام عمر عنيفاً، فقد همّوا بقتله، وزحفوا إلى بيته لتحقيق ذلك، فقد روى البخاري عن ابن عمر قال: بينما هو ـ عمر ـ في الدار خائفاً إذ جاء العاص بن وائل السهمي ـ والد عمرو بن العاص ـ وعليه حلة حَبِرة، وقميص مكفوف بحرير، وهو من بني سهم، وكانوا حلفاء لعمر في الجاهلية، فقال لعمر: مالك؟ قال عمر: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت. قال العاص: لا سبيل إليك. قال عمر: فأَمِنتُ بعد أن قالها. ثم خرج العاص فرأى الناس قد سال بهم الوادي، فقال أين تريدون؟

فقالوا: هذا الذي صبأ ابن الخطاب. قال: لا سبيل إليه، فكَرَّ الناس. قال ابن إسحاق: والله لكأنما كانوا ثوباً كُشط عنه.

وقد روى البخاري عن ابن مسعود أنه قال: ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر. وقال أيضاً ـ رضي الله عنه ـ: كان إسلام عمر فتحاً، وكانت هجرته نصراً، وكانت إمارته رحمة؛ لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالبيت حتى أسلم عمر، فلما أسلم قاتلهم حتى تركونا فصلينا.

وقال صهيب بن سنان: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقاً، وطفنا وانتصفنا ممن غلظ علينا ـ كما نقل ذلك صاحب كتاب الرياض النضرة ـ.

قال أصحاب السيرة: وانصرف عمر إلى النبي ﷺ بعد إظهار إسلامه وقال له: ما يحبسك

بأبي أنت وأمي فوالله ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإيمان غير هيَّاب ولا خائف، ولا نعبد سراً بعد اليوم، فأنزل الله ـ عز وجل ـ قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾(١). وهي أول آية نزلت وسمَّت الصحابة مؤمنين.

قال المؤرخون: بإسلام حمزة وعمر عزّ المسلمون، فاستطاعوا أن يصلّوا في الحرم، وأن يتحلقوا حول الكعبة، وأن يدعوا الناس إلى الإسلام، وكان هذا نصراً عظيماً للإسلام، وخطوة كبيرة على طريق الهدف النهائي؛ لأن المسلم استطاع أن يعلن هويته الإسلامية بعد إسلام عمر. صحيح لم تُدمَّرَ الأصنام، ولم يَقُم المسلمون بتدمير مواخير الفواحش، ولم تقم دولة الإسلام، ومع ذلك فبإسلامهما خطت الدعوة خطوات طيبة كحرية العبادة، وحرية الجهر بالدعوة، والإعلان عنها، وكل ذلك خطوات على الطريق المؤدي إلى إقامة شرع الله.

قال علماء السيرة: دخلت الدعوة بعد إسلام حمزة وعمر في طور جديد أقضَّ مضاجع المشركين، وأفزعهم تزايد المسلمين، وإعلانهُم عن دعوتهم وإسلامهم، مما دفع زعماء قريش لمساومة الرسول ﷺ.

ويرسل المشركون عتبة بن ربيعة ليعرض على رسول الله ﷺ ما رأوه حلاً للمشكلة في نظرهم، فيقول عتبة للنبي ﷺ: يا ابن أخي إنك منا حيث علمت من السِّطة(٢) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرَّقت به جماعتهم، وسفَّهت به أحلامهم، وعِبت به آلهتهم ودينهم، وكفَّرت مَن مضى من آبائهم، فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها. فقال ﷺ: «**قل يا أبا الوليد أسمع**». فقال عتبة: يا ابن أخي، إن كنت تريد بما جئت من الأمر مالاً، جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد به شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد به ملكاً ملّكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رِئياً تراه لا تستطيع ردّه عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يُداوى منه. ويفرغ عتبة من كلامه، ورسول الله ﷺ يستمع منه، فقال ﷺ: «**أقد فرغت يا أبا الوليد**»؟ قال: نعم. قال ﷺ: فاسمع مني. قال عتبة: أَفعلُ. فقرأ رسول الله ﷺ أول سورة فصّلت: ﴿ حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ

(١) الأنفال: ٦٤.

(٢) السطة: الشرف.

فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣﴾ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ﴿٤﴾ وَقَالُواْ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ ﴿٥﴾ ﴾ (١) ومضى رسول الله ﷺ يقرأ وقد وضع عتبة يديه وراء ظهره معتمداً عليهما وهو يسمع مُنصتاً، فلما وصل النبي ﷺ في قراءته إلى قوله تعالى: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُواْ فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴾ (٢)، جعل عتبة يضع يده في فم رسول الله ﷺ ويناشده الله والرحم خشية أن تنزل عليه صاعقة لما يعلمه من صدق رسول الله ﷺ.

ومضى رسول الله ﷺ يقرأ حتى انتهى إلى قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُواْ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُواْ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴿٣٧﴾ فَإِنِ ٱسْتَكْبَرُواْ فَٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُۥ بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْـَٔمُونَ ۩ ﴿٣٨﴾ ﴾ (٣). فسجد رسول الله ﷺ ثم قال لعتبة: «**قد سمعتَ يا أبا الوليد ما سمعتَ فأنت وذاك**» ثم عاد عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت كلاماً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر، ولا هو بالسحر، ولا هو بالكهانة، أطيعوني واجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذي سمعتُ منه نبأٌ عظيم، فإن تصبه العرب فقد كُفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملكُكُم، وعزُّه عزكم، وكنتم أسعد الناس به. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه. فقال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب» لما سمعت قريش من عتبة بن الوليد ما سمعت، كوّنوا وفداً من أعظم رجالاتهم، وبعثوا إلى رسول الله ﷺ ليساومه الوفد بنفس مساومة عتبة، وجاء الوفد الجديد، وكرر قول عتبة بن الوليد فردَّ رسول الله ﷺ قائلاً: «**إنه ما بي ما تقولون، ما جئت بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فأبلغكم رسالات ربي، ونصحت**

---

(١) فصلت: ١ـ٥.

(٢) فصلت: ١٣.

(٣) فصلت: ٣٧ ـ ٣٨.

لكم، فإن تقبلوا ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله حتى يحكم بيني وبينكم».

قال المفسرون: ويتنـزل القرآن رافضاً هذه العروض جملة وتفصيلاً. قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا ﴿٢٣﴾ فَٱصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا ﴿٢٤﴾﴾ [1].

وقوله عز وجل: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ تَنزِيلًا﴾ توبيخ للمشركين الذين قالوا: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً﴾ [2]. حيث جعلوا تنزيله مفرقاً شبهة في انه ليس من عند الله، فكان الجواب: ما أنزل القرآن إلا أنا، واقتضت حكمتي أن أنزله عليك منجماً ثم أمره الله ـ عز وجل ـ بالصبر والإعراض عما يعرضونه عليه من صنوف الإغراء واللين والرغبـة، فقال: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾.

قال صاحب التحرير والتنوير: والمقصود من الآية تيئيس الكافرين من استجابة النبي ﷺ لهم في إغراءاتهم؛ لأنهم ظنوا أن ما عرضوه سيكون صارفاً له ﷺ عما هو قـائم من الدعوة؛ لأنهم بُعداء عن إدراك ماهية الرسالة، ونزاهة الرسول ﷺ. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ ءَاثِمًا أَوْ كَفُورًا﴾ أشار بهذين الوصفين إلى زعيمين كبيرين من زعماء الكفر والعناد في قريش وهما: عتبة بن الوليد، والوليد بن المغيرة؛ لأن عتبة اشتُهر بارتكاب المآثِم والفسوق، واشتُهر الوليد بشدة الشكيمة في الكفرِ والعتو. وقد كانا كافرين، وأشير إلى كل واحد منهما بما هو عَلَمٌ فيه بين بقية المشركين من كثرة المآثم للأول، والمبالغة في الكفر للثاني.

قال مقاتل: أراد بالآثم عتبة. قال للنبي ﷺ: إن كنت صنعتَ ما صنعت لأجل النِّساء فأنا أزوجك ابنتي وأسوقُها إليك بغير مهر. وكانت من أجمل نساء قريش. وعرض الثاني ـ الوليد ـ على النبي ﷺ أن يُعطيه من المال ما يُرضيه، ويرجع عن الدعوة، وكان الوليد من أكثر قريش مالاً، وهو الذي نزل فيه ما نزل في سورة المدثر: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْتُ لَهُۥ مَالًا مَّمْدُودًا ﴿١٢﴾ وَبَنِينَ شُهُودًا ﴿١٣﴾ . .﴾.

وكان الوليد بن المغيرة يلقب في قريش (بالوحيد) لتوحُّده وتفرُّده باجتماع مزايا له لم

---

(١) الإنسان: ٢٣-٢٤.

(٢) الفرقان: ٣٢.

تجتمع لغيره من طبقته وهي: كثرة الولد، وسعة المال، ومجدُه ومجد أبيه من قبله حيث كان مرجعَ قريش في أمورهم لأنه كان أسن من أبي جهل، وأبي سفيان.

قال صاحب التحرير والتنوير: لما اشتُهر بلقب (الوحيد) كانت الآية ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا ﴾ إشارة إليه (الوليد)، واستعمال الوصف (خَلَقْتُ) ليلفت النظر إلى أنه (الوليد) مفتقر إلى الله الذي هو حال كل مخلوق، فتكون الآية من قَبيل ومَثيل قوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا . ﴾[1]، ثم هدده الله بقوله: ﴿ سَأُرۡهِقُهُۥ صَعُودًا ١٧ ﴾ أي سينقلب حاله بعد التمهيد والتسهيل والراحة والتنعم إلى حالة أسوأ في الدنيا والآخرة بالعذاب الأليم. وسبب هذا التهديد ما رواه ابن إسحاق: أنه اجتمع نفر من قريش فيهم أبو لهب وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، والوليد بن المغيرة هذا، وأمية بن خلف، والعاص بن وائل، والمطعم بن عدي. . وغيرهم فقالوا: إن وفود العرب سَتَقْدِم عليكم في موسم الحج، وهم سيتساءلون عن أمر محمد ﷺ، وقد اختلفتم في الإخبار عنه، فمن قائل: مجنون، ومن قائل: ساحر، وآخر يقول: شاعر، وآخر يقول: كاهن. والعرب تعلم أن هذا كله لا يجتمع في شخص واحد، فسَمُّوا محمداً باسم واحد تجتمعون عليه، وتُسَمّيه العرب به. فقام رجل منهم وقال: شاعر، فقال الوليد: سمعت كلام الأبرص[2] وأمية بن خلف، وعرفت الشعر كله، وما يُشبه كلام محمد كلام شاعر، فقالوا: كاهن. فقال الوليد: ما قوله بزمزمة الكهان، ولا بسجعهم، والكاهن يصدق ويكذب، وما كذب محمد قط. فقال آخر: مجنون. فقال الوليد: لقد عرفنا الجنون، فإن المجنون يُخنق، فما هو بخنقه ولا وسوسته.

فقالوا: ساحر. قال الوليد: لقد رأيت السحار وسحرهم، فما هو بنفثه ولا عَقده. وانصرف الوليد إلى بيته، ويلحقه أبو جهل فدخل عليه فقال للوليد: ما لك يا أبا عبد شمس. أصبأتَ؟ فقال الوليد: فكرت في أمر محمد وإن أقرب القول فيه أن نَقول ساحر جاء بقول هو سحر يفرق بين المرء وأبيه، وبين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته.

قال ابن إسحاق: فأنزل الله عز وجل: ﴿ ذَرۡنِي وَمَنۡ خَلَقۡتُ وَحِيدٗا . . ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ

---

(١) النحل: ٧٨.

(٢) الشاعر عبيد بن الأبرص.

﴿ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥ سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ ٢٦ ﴾ (١).

قال العلماء: وقد وزع الله وعيده للوليد على حسب أعماله. فلما ذكر عناده وحَسدَه للنبي ﷺ وذلك من الأعراض الدنيوية عقَّبَ بوعيده بعذاب دنيوي ابتداء فقال: عز وجل: ﴿سأرهِقَهُ صَعُودا﴾ قال العلماء: لقد طال به النزع فكانت تتصاعد نفسه ثم لا يموت. ولما طَعَن بالقرآن فقال فيه: ﴿إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ ٢٥﴾ قال عز وجل: ﴿سَأُصۡلِيهِ سَقَرَ﴾.

قال صاحب الرحيق المختوم: ومن المحاولات التي أرادوا بها أن يَلتقوا مع النبي في منتصف الطريق ما ذكره ابن جرير الطبري والطبراني، وذكره ابن إسحاق في السيرة، ورواه الواحدي في أسباب النزول: إن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن عبد المطلب بن أسد، وأمية بن خلف والوليد بن المغيرة، والعاص بن وائل، ـ وكانوا ذوي أسنان في قومهم ـ فقالوا: يا محمد. هلم فلنعبدْ ما تعبدُ سنة، وتَعبُد ما نعبدُ سنة، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبد خيراً مما نعبدُ كنا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبد خيراً مما تعبد كنت قد أخذتَ بحظك فيه. فقال النبي ﷺ: «**معاذ الله أن أشرك به غيره**» وأنزل الله تعالى قوله: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ١ لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ٦ ﴾ (٢).

ويلاحظ أن السورة خاطبتهم بوصف الكفر: ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴾. لماذا؟ لأنه تحقير لهم، وتأييد لوجه التبرؤ منهم، وإيذاناً بأنه لا يخشاهم إذا ناداهم بوصف الكفر لأن الله قد حماه، كما كانوا يغضبون إذا نُسبوا إلى الكفر. كما قال ابن الأنباري.

ثم قال لهم: ﴿ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ﴾ أي: ما أنتم بمغيرين إشراككم، وكانوا قد قالوا للنبي: نبدأ نحن بعبادة إلهك سنة، ثم بعدها تعبد أنت آلهتنا سنة، فأخبره الله أنهم كاذبون في ذلك وأنهم غيرُ فاعلين ما اقترحوه.

قال العلماء: وهذا إخبار من الله لنبيه ﷺ أعلمه بأنهم غير فاعلين ذلك، وهذا مثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن

---

(١) المدثر: ١٨ ـ ٢٦.

(٢) الكافرون: ١ ـ ٦.

﴿كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾[1]. وفعلاً فإن أولئك النفر الأربعة لم يُسلم أحد منهم، وماتوا على الكفر.

وقد روى الكلبي، وزيد بن أسلم، والحسن بألفاظ متقاربة أن المشركين ودُّوا أن يُمسك النبي عن مجاهرتهم بالتحقير والتضليل، فيمسِكوا عن أذاه، ويصانعُ بعضهم بعضاً، فنهاه الله عز وجل عن ذلك، وفي ذلك نزل قوله تعالى: ﴿وَدُّواْ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾[2].

قال العلماء: ودُّوا: معناها أحبوا وتمنوا أن تلين لهم، وليس المراد أنهم أرادوا ذلك في نفوسهم فأطلع الله على ذلك رسولَه. . وفعل تُدهن: مشتق من الإدهان، وهو الملاينة والمصانعة، وهو مأخوذ من دَهَن الشيء بالدهان ليُليِّنَهُ أو ليلوِّنَـهُ، يُليِّنه فيرق، أو يلوّنه فيتغير، والمداهنة محرَّمة، والمداراة جائزة، والفرق بينهما أن المداهن يتنازل عن شيء من دينه ليحفظ شيئاً من دنياه، والمداري عكسه، يتنازل عن شيء من دنياه ليحفظ شيئاً من دينه.

---

(١) البقرة: ٢٣.

(٢) القلم: ٨.

الفصل الخامس والأربعون
التحدي بالمعجزات وطلبهم لها

هنا سؤال: قد يقول قائل: ما هو موقفهم من هذا الصمود؟

أجاب عن ذلك صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: لما سمعوا تلك الردود من النبي ﷺ ورأوا صموده، فقدوا صوابهم، وجُنَّ جنونهم، وأخذوا يهرفون بما لا يعرفون، ومن جملة ما قالوا أنهم طلبوا من النبي ﷺ أن يدعو ربه ليزيل عنهم الجبال المحيطة بمكة، وأن يفجر خلالها الأنهار لتصبح حدائق من نخيل وأعناب، وطالبوا إحياء أجدادهم، وأموراً أخرى ذكر القرآن بعضها في قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾﴾ (١). و«لن» في اللغة العربية تفيدنا تأبيد النفي في المستقبل، تقول: أنا لم أفعل، ولن أفعل. أي في المستقبل، والنفي للمستقبل لا يملكه إلا مالك الملك سبحانه، أما غيره فليس له ذلك، لأن بعض من قالوا: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ. .﴾، كانوا من الذين آمنوا فيما بعد برسول الله ﷺ، فهذا عكرمة بن أبي جهل الذي قال عندما سمع أذان بلال للظُّهر فوق ظَهر الكعبة: لقد أكرم الله أبا الحكم ـ يقصد أباه أبا جهل ـ حيث لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول، يعود إلى النبي ﷺ مؤمناً معتذراً، ويخرج مع خالد بن الوليد في معركة اليرموك، وحين طُعن الطعنة القاتلة، وحمله خالد بن الوليد فإذا به يقول لخالد: أهذه ميتة تُرضي عني رسول الله؟ إذاً فليس للإنسان أن يحكم على شيء حكماً قاطعاً في مستقبل لا يملكه.

قال العلماء: والعجيب أن بعض الناس يتطلعون في نعمة الله إلى التمام فيقول: يا حبذا لو صار معي كذا، أو حدث كذا لتمَّت هذه النعمة، وهم لا يدرون أن هذا النقص في النعمة قد يكون سببَ بقائها، إذ النعمة إذا تمت فماذا تنتظر يا عبد الله بعد التمام إلا النقص.

إذا تم شيء بدا نقصُهُ ترقب زوالاً إذا قيل تم

ولذلك لما أراد المتنبي أن يمدح سيف الدولة، فماذا قال له؟ قال:

---

(١) الإسراء: ٩٠ ـ ٩٣.

شخص الأنام إلى كمالك فاستعذ من شـــــر أعينهم بعيب واحد

أي حتى يَدفع عنك هذا العيب شرَّ أعينهم وحسدهم.

والينبوع: هو الذي يفيض باستمرار دون أن ينقص منسوب الماء فيه.

قال العلماء: والمتأمل في قولهم وطلبهم من رسول الله ما طلبوه يجده تعجيزاً بعيداً كل البعد عن الواقع مما يدلنا على أنهم ما أرادوا الإيمان والهداية، بل قصدوا الجدل والعناد، لذلك يقول الحق رداً عليهم وعلى تعنتهم: ﴿ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَىْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴾ (١).

لذلك قال ابن عاشور: ولما كان اقتراحهم اقتراحَ عناد أمره الله عز وجل بأن يجيبَهم بما يدل على التعجب من كلامهم بكلمة ﴿سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾ (٢)، ثم أعقبها الاستفهام الإنكاري: ﴿هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴾، فصار المعنى: لست رباً متصرفاً أخلق ما يُطلَبُ مني، فكيف آتي بالملائكة. . وكيف أخلق في الأرضِ ما لم يُخلَق فيها.

وكلمة ـ سبحان ـ كلمةُ التنزيه العليا للحق عز وجل ـ كما يقول العلماء ـ وقد تحدى الله بها الكون كله؛ لأنها كلمة لا تُقال إلا لله تعالى، ولم يحدث أبداً بين الناس أن قالها أحد لأحد مع ما في الكون من جبابرة وعتاة يحرص الناس على تَمَلُّقِهم والتزلف إليهم، ومع كونها كلمةً اختيارية يمكن أن يقولها كل إنسان لكن، لم يجرؤ أحد على قولها لأحد آخر.

قال المؤرخون: لما فرغوا من عرضهم وردهم السخيف، وقام رسول الله ﷺ تبعه «عبد الله بن أبي أمية» وهو ابن عمة رسول الله ﷺ فقال للنبي ﷺ: عرضتْ عليكَ قريش كذا وكذا، ورفضتَ كل ذلك، فوالله لا أؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سُلّماً، ثم ترقى منه وأنا أنظر حتى تأتيها، وتأتي معك بنسخة منشورة، ومعك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله: لو فعلت ذلك لظننت أني لا أصدقك. وإلى هذا أشارت الآية: ﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ . . ﴾(٣).

---

(١) الأنعام: ١١١.

(٢) الإسراء: ٩٣.

(٣) الإسراء: ٩٣.

قال العلماء: أرادوا كتاباً كاملاً ينـزل دفعة واحدة؛ لأنهم ألحدوا في نزوله مُنَجَّماً، وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1]. وينصرف رسول الله ﷺ إلى أهله حزيناً أَسِفاً لما فاته بما طَمِعَ فيه من قومه حين دعوه.

قال العلماء: وقد اقتضت الحكمة الإلهية ألا يُجابوا إلى ما سألوا؛ لأن الله علم أنهم لا يؤمنون بذلك، فيكون المصيرُ المعاجلة بالعقوبة بعدها. يؤيد ذلك ما رواه الإمام أحمد عن ابن عباس قال: قالت قريش للنبي ﷺ: ادع لنا ربك يجعل لنا الصفا ذهباً، ونؤمن بك، قال ﷺ «**وتفعلوا؟**» قالوا: نعم. فدعا، فأتاه جبريل فقال للنبي ﷺ: إن ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت أصبح الصفا لهم ذهباً، فمن كفر بعد ذلك أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب توبة ورحمة.

فقال ﷺ: «**بل التوبة والرحمة**». وفي رواية أخرى عن ابن عباس قال: سأل أهل مكة رسول الله ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يُنَحّي عنهم الجبال فيزدرعوا، فقيل له: إن شئت أن نؤتيهم ما سألوا فإن كفروا هلكوا كما هلكت مَنْ قبلهم من الأمم، وإن شئتَ أن تستأني بهم. فقال ﷺ: «**لا، بل أستأني بهم**» فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا ﴾[2]. والآيات: مفردها آية: وهي الأمر العجيب الذي يلفت النظر ويسترعي الانتباه.

والآيات ثلاثة أنواع:

١ـ ***آيات كونية***: يُستدل بها على عظيم قدرة الخالق عز وجل، كما في قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ ﴾[3].

٢ـ **آيات القرآن**: وهي الحاملة للأحكام، وقد تحدى الله بها المشركين أهل البلاغة. وقد تكون الآيات بمعنى: المعجزات التي تُثْبتَ صدق الرسول المُبَلِّغ.

---

(١) الفرقان: ٣٢.

(٢) الإسراء: ٥٩.

(٣) فصلت: ٣٧.

فقوله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾ (١). فأي نوع من الآيات مقصود هنا؟ فالآيات الكونية موجودة لا تحتاج إلى إرسال، والآيات القرآنية موجودة أيضاً يتحداهم بها فبقي النوع الثالث وهو.

٣ـ ***آيات المعجزات***: وهي ما يطلبه هؤلاء المشركون، كما في الآيات السابقة: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعاً﴾(٢).

قال العلماء: والحق سبحانه قادر على أن يُنَـزِّل عليهم ما اقترحوه من الآيات، فهو عز وجل لا يُعجِزُهُ شي، ولكن للبشر قبل ذلك ـ قبل محمد ـ سابقة مع المعجزات، من إنكارها، والكفر بها. . والحق بقول: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرۡسِلَ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلۡأَوَّلُونَۚ وَءَاتَيۡنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبۡصِرَةٗ فَظَلَمُواْ بِهَاۚ﴾، ومبصرةً: أي واضحة، أي: يؤمن بها من رآها أنها آية. . ومع ذلك فقد كذبوا بها ووقع عليهم العقاب، فلو أعطاهم تلك المقترحات لكذبوا بها تكذيب الأولين كعاد وثمود، وعندها تمضي عليهم السنة الإلهية في المكذبين، وهي الاستئصال، وقد قضى الله عز وجل فيهم عدم الاستئصال؛ لأنه عز وجل علم أن منهم من يؤمن، أو يَلِدُ من يؤمن. وقوله تعالى: ﴿وَمَا نُرۡسِلُ بِٱلۡأٓيَٰتِ إِلَّا تَخۡوِيفٗا﴾، أي إن إرسال الآيات القصد منها التخويف من العذاب؛ ليعلموا السنة الإلهية مع العاتين فيتوبوا ويتذكروا، والله أراد الإبقاء على هذه الأمة فقال: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمۡ وَأَنتَ فِيهِمۡۚ﴾(٣).

---

(١) الإسراء: ٥٩.

(٢) الإسراء: ٩٠.

(٣) الأنفال: ٣٣.

الفصل السادس والأربعون
محاولة أبي جهل إيذاء النبي ﷺ

قال صاحب الروض الأنف: لما قام رسول الله ﷺ عنهم، وذهب إلى بيته أسفاً على عدم استجابتهم له، رافضاً كل عروضهم قال أبو جهل: يا معشر قريش: إن محمداً قد رفض كل عروضنا، وقد أبى إلا ما ترون من عيبِ ديننا، وتسفيه أحلامنا، وشتم آبائنا، وآلهتنا، وإني أعاهد الله لأجلِسَنَّ له غداً بحجر لا أطيقُ حمله، فإذا سجد في صلاته فضخْتُ به رأسه، فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم.

قالوا: والله لا نُسلمك أبداً، فامضِ لما تريد.

وتحيَّنَ عدو الله الفرصة، فلما قام رسول الله ﷺ يصلي عند الكعبة بين الركنين، جاء أبو جهل ـ وقريش في أنديتها ينتظرون ما أبو جهل فاعل ـ وأتى عدو الله وقد احتمل الحجر ثم أقبل نحو النبي ﷺ حين سجوده، فلما دنا منه رجع هارباً، مُنتَقِعَ اللونِ مرعوباً قد يبست يداه على الحجر، ثم قذف الحجر من يده. عندها قامت قريش يقولون: ما لك يا أبا الحكم؟ ما أصابك؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرَضَ لي دونه فحلٌ من الإبلِ والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قَصرِهِ(١)، ولا أنيابه لفحلٍ قط فهمَّ بي ليأكلني.

قال ابن إسحاق: فذُكِرَ لي أن رسول الله ﷺ قال: «**ذلك جبريل عليه السلام لو دنا لأخذه**». وكان أبو جهل ينهى النبي ﷺ عن الصلاة، والمفسرون مُجمعون على أن أبا جهل هو المقصود بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ۝١٠ . . ﴾(٢).

ففي البخاري من حديث ابن عباس أن أبا جهل قال: لئن رأيت محمداً يصّلي عند الكعبة لأطأنَّ على عنقه، فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال ﷺ: «**لو فعل لأخذته الملائكة**».

وفي صحيح مسلم من حديث أبي هريرة قال: قال أبو جهل: هل يعفِرُ(٣) محمد وجهه؟ فقيل: نعم. فقال أبو جهل: واللات والعزى لئن رأيتُهُ يفعل ذلك لأطأنَّ على رقبته. ثم أتى

---

(١) أي: عنقه.

(٢) العلق: ٩ ـ ١٠.

(٣) أي: هل يسجد.

رسول الله ﷺ وهو يصلي، زعمَ ليطأُ على رقبته، فما فَجَأهم منه إلا وهو ينكص على عقبيه، ويتقي بيده. فقيل له: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: إن بيني وبينه لخندقاً من نار، وهولاً وأجنحةً. فقال رسول الله ﷺ: «**لو دنا لاختطَفته الملائكةُ عضواً عضواً**». ولما أكثَرَ التهديد والوعيد لرسول الله ﷺ إن هو صلى ردَّ عليه ﷺ رداً شديداً.

فقد روى النسائي والترمذي من حديث ابن عباس قال: كان رسول الله ﷺ يصلي عند المقام، فمرَّ به أبو جهل فقال: ألم أنْهَكَ عن هذا؟ وتوَعَّدَهُ. فأغلظ له رسول الله ﷺ القول وانتهره، فقال أبو جهل: يا محمد بأي شيء تهدّدني، وتنهرني؟ أما والله إني لأكثر أهل الوادي نادياً، ثم قال: فوالله لأملأنَّ عليك هذا الوادي إن شئتُ خيلاً جُرداً، ورجالاً مُرداً ـ كما في الطبري ـ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ . . ﴾[1].

قال صاحب التحرير والتنوير: لما هددَ أبو جهل النبي ﷺ بكثرة أنصاره وهم أهل ناديه[2]، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ ﴿٦٤﴾ لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُم مِّنَّا لَا تُنصَرُونَ ﴿٦٥﴾ قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ تَنكِصُونَ ﴿٦٦﴾ مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾[3].

قال منذر بن سعيد البلوطي الأندلسي ـ قاضي قرطبة ـ إن الضمير في (به) يعود للنبي ﷺ، أي مكذبين للنبي ﷺ لأن استكبارهم هو سبب التكذيب للنبي ﷺ.

وفي قوله تعالى: ﴿ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ ﴾، الأخذ بالناصية كناية عن أخذه بالعذاب أخذاً لا يستطيع أن يَنفَلِتَ منه. كما أن فيه معنى الإذلال؛ لأنهم كانوا لا يقبضون على مقدم شعر الناصية لإنسان إلا لجره منها، أو لضربه. وقوله تعالى: ﴿ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ ﴾.

قال العلماء: لما هدَّدَ أبو جهل النبي ﷺ بكثرة أنصاره ـ وهم أهل ناديه ـ جاء القرآن بالرد عليه بأن أمره بدعوة ناديه، فإنه إن دعاهم ليَسْطوا بالنبي ﷺ دعا الله ملائكة فأهلكوه. وهذه

(١) العلق: ١٥ ـ ١٨.

(٢) النادي: اسم المكان الذي يجتمع فيه القوم نهاراً يقال: ندا القوم نَدواً إذا اجتمعوا، والندوة: الجماعة أما المكان الذي يجتمع فيه القوم ليلاً فيسمى: السامر.

(٣) المؤمنون ٦٤-٦٧.

الآية معجزة خاصة من معجزات القرآن الكريم، إذ فيها تحدى القرآن أبا جهل، وقد سمع أبو جهل هذه الآيات، كما سمع ذلك أنصارُهُ ومع ذلك لم يُقدِم أحد منهم على السَّطوِ بمحمد ﷺ مع أن الكلام فيه إلهابٌ لحمِيَّتهم.

وفي الحديث الذي أخرجه الترمذي وقال فيه حديث حسن صحيح غريب عن ابن عباس أنه ﷺ قال: «**والله لو دعا ناديه لأخذته زبانية العذاب من ساعته**». وكان النضر بن الحارث قد شهد وسمع هذه الواقعة بين أبي جهل وبين النبي ﷺ، فقال عندها: يا معشر قريش إنه ـ والله ـ قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد.

الفصل السابع والأربعون
العرض الجديد أسئلة تطرح علىٰ النبي ﷺ اقترحها اليهود علىٰ قريش

العرض الجديد:

قال المؤرخون للسيرة: لما أعيَتْ الحِيَل قريشاً، ولم تجد ما تدفع به الحقَّ، بعثت وفداً إلى يثرب ـ المدينة المنورة ـ يشرح لليهود حقيقة الموقف، وليتدارس هذا الوفد الموقف مع أحبار اليهود؛ لأنهم أهل كتاب، وذوو علمٍ بالأديان. وكان الوفد يتكون من: «النضر بن الحارث» شيطان قريش وهو الأمير. و«عقبة بن أبي مُعيط» مساعداً له. قالت قريش لهذين المارِدَيْن: اسألا أحبار اليهود عن محمد ﷺ، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله الذي يقول، ودعوته التي يدعو إليها، فإنهم أهل كتاب، وعندهم علم بالأنبياء ليس عندنا. ووصل الوفد إلى المدينة، والتقى بأحبار اليهود، ووصفوا لهم أمره، ونقل إليهم بعض أقواله، وقال الوفد لأحبار اليهود: إنكم أهل توراة، وقد جئناكم لتُخبرونا عن صاحبنا هذا، فقال أحبار اليهود للوفد سلوه عن ثلاث: سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل طوافٍ في الأرض. قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإن أخبركم بذلك فاتبعوه فإنه نبي، وإن لم يفعل فهو مُتَقَوِّل فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. ويعود الوفد إلى قريش قائلاً لهم: قد جئناكم بالقول الفصل ما بينكم وبين محمد ﷺ.

قد أخبرنا أحبار اليهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم بها فهو نبي، وإلا فالرجل مُتَقَوِّل فَرُوا فيه رأيكم. وتُسرع قريش فتسأل النبيَّ ﷺ عن هذه الأمور الثلاثة، ويقول النبي ﷺ: «**غداً أخبركم**» ولم يستثنِ، وانصرفوا عنه.

قال المؤرخون: وحَبس الله الوحي قرابة نصف الشهر حتى حزن رسول الله ﷺ، وفرحت قريش، وكثُر القول، حتى قال بعض الذين هم من كبار المُبغضين لرسول الله ﷺ ولدعوته قالوا: إن الله قد قلاه، وأضاعه مبغضاً له وأنزل الله تعالى سورة: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ ٢ مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ ٣ وَلَلۡأٓخِرَةُ خَيۡرٞ لَّكَ مِنَ ٱلۡأُولَىٰ ٤ . . ﴾ ينفي ما قالته قريش: ودّعه ربه وقلاه، وقوله ﴿مَا وَدَّعَكَ﴾ أي ما تركك وما قطعك قطع المودِّع، أي لم يتركك أصلاً، فإن الله معك أينما كنت، ثم

إن التوديع ـ إن وُجِد ـ إنما يكون لمن يُحبُّ ويُرجى عوده.

وإلى هذا أشار الشاعر بقوله:

إذا رأيـــتَ الـــوداع فاصـــبر ... ولا يُهِمَّنَّـــــــك البِعـــــــادُ
وانتظـــر العَـــودَ عـــن قريـــب ... فـــإن قلـــبَ الـــوداع «عـــادوا»

وقوله تعالى ﴿وَمَا قَلَىٰ﴾ أي ما أبغضك، أي ما هجرك الوحي عن بغض. ثم أنزل الله ـ عز وجل ـ جواب السؤال عن الفتية الذين كان لهم قصة عجيبة في الأيام السابقة، وعن الرجل الطوافة في الأرض في سورة الكهف. قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾ . .﴾[1]، وقال في قصة الرجل الطوافة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾﴾[2]. حتى انتهى إلى آخر القصة، ثم أنزل الله عز وجل جواباً على السؤال الثالث في سورة الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾[3].

وبعد أن أجابه الله تعالى عن الأسئلة أدَّبه بأدب عظيم فقال له: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾[4].

قال العلماء: كان تأخير الوحي عتاباً رمزياً للنبي ﷺ كما عاتب الله سليمان عندما قال: لأطوفن على مائة امرأة ولم يستثن. . ثم جاء العتاب الصريح بقوله: ﴿تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . .﴾.

قال المفسرون: جمعت هذه الآية الكريمة كرامة للنبي من ثلاث جهات:

الأولى: أنه أجاب سؤله، فبين لهم ما سألوه إياه على خلاف العادة مع المكابرين.

الثانية: أنه علّمه علماً عظيماً من أدب النبوة بأسلوب وعظٍ رقيق. ﴿تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى

(١) الكهف: ٩.

(٢) الكهف: ٨٣ ـ ٨٥.

(٣) الإسراء: ٨٥.

(٤) الكهف: ٢٣.

فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا . .وَٱذۡكُر رَّبَّكَ . . ﴾ أي على فرض أنك نسيت ذكر المشيئة ساعة البدء في الفعل، فعليك أن تعيدها ثانية لتتدارك ما حدث منك من نسيان في بداية الأمر، وقد ورد في بعض الآثار أن النبي ﷺ لما نزلت الآية قال: إن شاء الله.

قال الرازي في تفسيره: والسبب في أنه لا بد من ذكر هذا القول ـ إن شاء الله ـ هو أن الإنسان إذا قال سأفعل الفعل الفلاني غداً، لا يَبعُدُ أن يموت قبل مجيء الغد، ولا يبعد أيضاً لو بقي حياً أن يعوقه عن تحقيق الفعل عائق، فإذا لم يقل (إن شاء الله) صار كاذباً في ذلك الوعد، والكذب منفِّر، وذلك لا يليق بالأنبياء، فلهذا السبب وجب عليه (النبي) أن يقول «إن شاء الله» حتى إذا تعذّر عليه الوفاء بذلك لم يصِرْ كاذباً، فلم يحصل التنفير، ثم إن ذكرَ الله عند النسيان، يذكّر العبدَ بما سها عنه. وقوله تعالى: ﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدًا﴾ وهذا أمر من الله لرسوله أن يدعو الله ويرجوه أن يوصله إلى أقرب الطرق الموصلة إلى الرشد، وأن يُعينه فلا ينسى ذكر الله في كل عمل من أعماله.

الثالثة: والكرامة الثالثة للنبي ﷺ في هذه الآية، هي أن التعليم جاء بعد أن أجابه عن الأسئلة استئناساً لنفسه ﷺ أن لا يبدأه بالنهي قبل أن يجيبه كيلا يُفهم من أن النهي يقتضي الإعراض عن جواب أسئلته ﷺ ورفضها.

قال العلماء: وكذلك كان شأن النبي ﷺ أن يؤَدِّبَ أصحابَه بعد إجابة الطلب، ومثاله ما ورد في الصحيح أن حكيم بن حزام قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال ﷺ لي: «**إن هذا المال حلوة خضرة، فمن أخذ بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يُبارك له فيه، وكان كالذي يأكل ولا يشبع، واليد العليا خير من اليد السفلى**»

قال حكيم: والذي بعثك بالحق لا أرزأ أحداً بعدك شيئاً حتى أفارق الدنيا. فعَلِم حكيم أن قول النبي ﷺ ليس القصد منه منعه من سؤله، وإنما القصد إلى تخليقه بخلق جميل، فلذلك أقسم حكيم أن لا يأخذ من أحد غير رسول الله ﷺ، ولذلك لم يقل: لا أسألك بعد هذه المرة شيئاً. والكرامة للنبي في هذه الآية ـ حين أجابه عن أسئلته ثم عاتبه ـ يشبه قول الله تعالى له ﷺ في سورة التوبة، حين استأذن فريق من المنافقين بلغوا تسعة وثلاثين أن يتخلفوا عن غزوة تبوك، واعتذروا بأقوال كاذبة، وأذن لهم النبي ﷺ حملاً لأمرهم على الصدق لأن ظاهرهم الإيمانُ فأنزل

الله عـز وجـل قولـه: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[1] حتى قال سفيان بن عيينة في الآية: انظروا إلى هذا اللطف بدأ بذكر العفو قبل ذكر المعفُوّ.

وقال القاسمي: اعلم أن تصديره تعالى فاتحة الخطاب ببشارة العفو دون ما يوهم العتاب إنما هو مراعاة جانبه عليه الصلاة والسلام.

وقال ابن عاشور: وافتتاح العتاب بالعفو إكرام عظيم، ولطافة شريفة، فاخبره بالعفو قبل العتاب. قد يقول قائل: إن العفو لا يكون إلا عن ذنب؟!والجواب: إن هذا غير صحيح.

قال القشيري: إنما يقولُ العفو لا يكون إلا عن ذنب، مَنْ لا يعرف كلام العرب، ثم قال: ومعنى ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ أي لم يُلزمك ذنباً. قال الشهاب: وهذه العبارة تُستعمل حيث لا ذنب. كما تقول لمن تعظمه: عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ وفي الحديث: «**عجبت من يوسف وصبره وكرمه، والله يغفر له**». وقد تُستعمل هذه التعبيرات» عفا الله عنك» و«أصلحك الله» و«أعزك الله» في التكرمة. قال الداوودي: إنها تكرُمة، ويؤيد ذلك قول علي بن الجهم يخاطب المتوكل حين أمر به إلى المنفى:

عفـــا الله عنـــك ألا حُرْمَـــةٌ	تعـــوذُ بعفـــوِكَ أن أُبْعَـــدَا
ألم تـــرَ عبـــداً عـــدا طـــوره	ومـــولىً عفـــا ورشـــيداً هـــدى
أقلنـــي أقالَـــكَ مَـــنْ لم يَـــزَل	يقيـــكَ ويَـــصرِفُ عنـــكَ الـــردى

وقد تأتي «عفا» بمعنى لا حرج. وليس بمعنى غفر، كما في قوله ﷺ: «**عفا الله لكم صدقة الخيل والرقيق**».

قال العلماء: ولم تجب صدقة الخيل والرقيق عليهم قط، وإنما المعنى أنه عز وجل لم يُلزمهم ذلك، فقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ . . ﴾ أي لم يُلزمك ذنباً.

قال العلماء: كان نزول سورة الكهف في وقت بدأ يشتد فيه إيذاء المسلمين، وذلك في أواسط السنة الخامسة من البعثة، وصَعُب المقامُ في مكة، وبات المسلمون يُفكرون بأمر يفعلونه.

---

(١) التوبة: ٤٣.

في تلك المرحلة نزلت سورة الكهف رداً على أسئلة المشركين، كما ذكرت السورة ثلاث قصص بليغة فيها دروس وعبر لمن آمن بالله ورسوله.

فقد ذكرت السورة: قصة أهل الكهف، تُرشد إلى الهجرة من مراكز الكفر حين يخاف المؤمنون على دينهم حتى يَسْلَموا من الفتنة في الدين. هجرةً يتوكل فيها المؤمن على الله، وإلى هذا يشير قوله تعالى: ﴿وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ (١). هذا حديث أهل الكهف بعضهم لبعض يقولون: ما دمنا اعتزلنا أهل الكفر ومعبوداتهم، وسلكنا مسلك الإيمان بالله، فهيا بنا إلى الكهف نلجأ إليه، ونحتمي فيه مخافة أن يفتننا القوم عن ديننا.

والقرآن يلفت نظرنا إلى أن فرار هؤلاء الفتية ليس إلى بلد فيه متسع من الحياة، بل الفرار إلى كهف ضيق قد يكون في جبل أو صحراء، أو غير ذلك. . فما ينبغي لمن يُهاجر بدينه من الفتن أن يقول: لن أهاجر إلا إلى بلد فيه سعة من العيش أو الرزق. . . لا ولكن اعلم أنك مهاجر في سبيل الله، لاجئ إليه، متوكل عليه. ولذلك ترى الآية تقول: ﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ. . ﴾ وكان الفتية واثقين من رحمة الله، وأنه سيوسع عليهم برحمته، وقد وسّع الله عليهم فعلاً حين أنامهم، والنائم ترتع روحه في الدنيا هنا وهناك ولا تحده حدود ـ كما قال الشعراوي رحمه الله.

ومعنى: ﴿يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾ قال ابن عباس: أي يسهل عليكم ما تخافون من الحاكم الروماني وظلمه، ويأتيكم باليسر والرفق واللطف، فلما أنامهم أغناهم عن مرافق الحياة التي لا يستغني عنها الإنسان.

وذكرت السورة ثانياً قصة موسى مع الخضر والتي أفادت أن الأمور لا تنتج حسب الظاهر دائماً، بل إن النتائج ستكون أحياناً عكس الظاهر، كما في قصة موسى والخضر. وهنا في الصراع بين المسلمين والمشركين ستنعكس الآية، وسينتصر المسلمون بعد الشدة، وسيكونون أقوياء بعد الضعف.

كما ذكرت السورة قصة ذي القرنين والتي تفيد أن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده، وأن الله يرسل بين فترة وأخرى من يُنقذ الضعفاء من براثن الظلمة، وأن الفلاح في الإيمان لا

---

(١) الكهف: ١٦.

في الكفر.

قال تعالى: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ . . ﴾[1] أي أعطيناه وسائل موصلة إلى ما يريد. . أي أعطيناه ملكاً عظيماً فيه من جميع ما يؤتى الملوك من الجنود والآلات والعتاد.

ثم قال: ﴿ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴾. أي سلك الطريق الموصل إلى الغاية المرادة، والسبب هنا الطريق، ومنه قوله تعالى: ﴿ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ ﴾[2]، ثم بين أن هذه القوة ستستعمل في نصرة الحق فقال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾ ﴾[3].

---

(١) الكهف: ٨٣ ـ ٨٤.

(٢) غافر: ٣٧.

(٣) الكهف: ٨٧ ـ ٨٨.

الفصل الثامن والأربعون
الحرب الكلامية

قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: لما فشلت قريش في محاولتها الأخيرة، وهي طرح الأسئلة الثلاثة لجت في الخصومة، وشنّت حرباً كلامية حاول زعماؤها من خلالها إطفاء نور الله بأفواههم، وهاهو أبو جهل يخاطب قريشاً فيقول: يا معشر قريش: يزعم محمد أن جنود الله الذين يعذبونكم في النار ويحبسونكم تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً وكثرة، أفيعجز كل مائة رجل منكم عن رجل منهم، وأنتم الدّهم[1]؟

وقال أبو الأشَدّ بن كلدة الجمحي: لا يهولنكم التسعة عشر، أنا أدفع بمنكبي الأيمن عشرة، وبمنكبي الأيسر تسعة ثم تمرون إلى الجنة. وقال الحارث بن كلدة: أنا أكفيكم سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين.

وفي هذا نزل قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً ۙ وَمَا جَعَلْنَا عِدَّتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيَسْتَيْقِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَيَزْدَادَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِيمَٰنًا ۙ وَلَا يَرْتَابَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۙ وَلِيَقُولَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۚ كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ وَمَا هِىَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْبَشَرِ﴾[2]. وقوله ﴿مَلَٰٓئِكَةً﴾ ـ بصيغة القصر ـ: الفائدة منها قلب اعتقاد ما توهمه أبو جهل وغيره أن المراد بالتسعة عشر أي رجلاً، فطمع هو وأصحابه أن يخلصوا منهم بالقوة.

فقد قال أبو الأشد بن أسيد الجمحي: لا يبلغون ثوبي حتى أجهضهم عن جهنم. أي أنحيهم. فقال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ . .﴾ أي ما جعلناهم إلا ملائكة، أي ما جعلناهم رجالاً يقدرون عليهم، فمن ذا يغلب الملائكة؟؟!!

ويكشف أبو جهل عن حسده وكبريائه حين يأتيه الأخنس بن شُريق ويقول له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟ أي: من قراءة القرآن. فقال: ماذا سمعت؟! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحاذينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه؟ والله لا

---

(١) أي الكثيرون.

(٢) المدثر: ٣١.

نؤمن به أبداً ولا نصدقه. حتى حملهم البغض والخوف على مراكزهم أن يمنعوا سماع القرآن، فاتخذوا في ناديهم قراراً بمنع سماع قراءة القرآن.

وقد ذكر القرآن قرارهم هذا في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (١). فكانوا يأتون بالمكاء والصياح، وإنشاد الشعر والأراجيز يصخبون بها. وقد ورد في الصحيح أن المشركين لما استمعوا إلى قراءة الصديق ـ وكان رقيقاً ـ قالوا: إنا نخاف أن يفتن أبناءنا ونساءنا.

قال العلماء: والغريب أن الذين أصدروا قرار منع الاستماع خرجوا يستمعون سراً، فقد ورد أن الأخنس بن شريق، وأبو سفيان، وأبو جهل خرجوا ليلاً ليستمعوا قراءة النبي ﷺ وهو يقرأ في صلاته في بيته، واتخذوا مجالس لهم يستمعون فيها في الظلام، ولا يدري أحدهم عن الآخر حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعتهم الطريق، فتلاوموا وتعاهدوا ألا يعودوا لمثلها، ولكنهم لم يصبروا فخرجوا في الليلة التالية ولا يدري أحدهم عن الآخر، فاستمعوا ثم عادوا فجمعتهم الطريق، فتلاوموا ثم تعاهدوا. . ثم في الرابعة تعاهدوا ألا يعودوا أبداً.

هنا سؤال: ما السر في هذا الانجذاب للقرآن الكريم؟

والجواب: لأنه مُعجِز. ولأنه تخطى كل شروط البلاغة. لأن البلاغة هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال ـ كما قال علماؤنا ـ.

والقرآن جاء مطابقاً لكل أحوال البشر على اختلاف ظروفهم، ولهذا تحيّر الكفار في هذا الإعجاز في مخاطبة البشر جميعاً، وفي هذا الإعجاز الذي تهتز له قلوب كل من يسمعه ويفهمه. . فقالوا ساحر، وقالوا شاعر، وقالوا كاهن. .

قال العلماء: لو أخذنا أبلغ بلغاء العصر وقلنا له: انظم قصيدة، أو رتّب كلمة تلقيها أمام الناس، فهذا الرجل لا يستطيع أن يعدَّ كلاماً يُلقيه أمام مجموعة من العلماء المتبحرين، وفي نفس الوقت يقوله أمام مجموعة من غير المتعلمين، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال. . ولا يمكن لشاعر ـ مهما كانت بلاغته ـ أن يُعِدَّ قصيدة يمدح بها أميراً من الأمراء، ثم يقول نفس القصيدة في خادم هذا الأمير، ويكون الكلام مطابقاً لمقتضى الحال.

---

(١) فصلت: ٢٦.

أما شأن القرآن الكريم فهو عكس ذلك، فقد وجد المشركون أن القرآن يخاطب المتعلم وغير المتعلم، والعبد والسيد، والأمير والرجل العادي فينفعل به الجميع. ومن هنا كانت المطابقة معجزة.

إن إعجاز القرآن ـ كما يقول العلماء ـ يأتي في أنه يحيط بالحالات النفسية للمخاطبين جميعاً، الغني والفقير، التعيس منهم والسعيد، الخادم منهم والسيد. . إنه يخاطبهم جميعاً، وفي كل حالاتهم النفسية، فالإنسان الغاضب إذا سمع القرآن هدأت نفسه، والإنسان السعيد إن سمع القرآن اهتزَّ في داخل نفسه، وزادت سعادته. . والأميرُ والخادم، والمثقف، وغير المتعلم. . فهؤلاء جميعاً الذين لا يمكن أن يجتمعوا على أي مستوى، ولا تتوحد عقلياتهم بحيث يكلمهم متحدث واحد، وفي نفس الموضوع فيفهمونه. . تراهم في الصلاة وقد اجتمعوا في المسجد، وجلسوا معاً، ويُتلى القرآن فيهز قلوبهم جميعاً رغم اختلاف الثقافة والبيئة، والحالة النفسية، والحالة الاجتماعية، أو رغم اختلافهم في كل شيء اختلافاً بيّناً. . .

ومن هنا كان الإعجاز الأول في بلاغة القرآن الكريم. إنه يخاطب جميع المستويات، ويؤثر في مشاعرهم، ويخاطب وجدانهم، فإذا سألت أحدهم ما الذي أعجبك في القرآن؟ فإنه في الغالب لا يستطيع أن يعطيك جواباً شافياً. . وإنما كل واحد سيعطيك جواباً مختلفاً. . وذلك يدل على أن الإعجاز واصل إلى قلبه، متغلغل في نفسه بما لا يستطيع أن يصفه الوصف الكامل. القرآن نظم فريد ـ كما قال العلماء ـ لا تستطيع أن تقول إنه نثر، ولا شعر، ولا سجع. . وإنما هو كلام فريد يتناسب مع قول القائل سبحانه وتعالى.

إذاً فبلاغة القرآن الكريم تكمُن في مطابقته لحال جميع المخاطبين، وبلاغته في أن قائله ـ عز وجل ـ تحدى أساطين البلاغة. . بل تحدى الإنس والجن في أن يـأتوا بسورة من مثله، وأمام هذا العجز لم يستطيعوا المواجهة لهذا الدين الجديد، ولم يستطيعوا أن يُحوّلوا هذا المواجهة إلى ذات المعجزة (القرآن)؛ لأن التحدي كان أقوى منهم جميعاً، وإذا بهم يُحاولون منع الاستماع إليه ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسۡمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانِ وَٱلۡغَوۡاْ فِيهِ لَعَلَّكُمۡ تَغۡلِبُونَ﴾ كما حولوا غيرتهم وحقدهم عندما لم يستطيعوا مواجهة القرآن إلى من جاءت على يديه هذه المعجزة وهو محمد ﷺ فقالوا: ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَا

﴿نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ [1].

فهنا قالوا: إن آفة القرآن كونُه نُزّل على محمد ﷺ، وكأنهم تجاهلوا أن الأمر صراع بين حق يُنادي به القرآن، وبين باطل هم مقيمون عليه. وهنا تتجلى الحقيقة واضحة، وهي أن المشركين أعمتهم زعامتهم عن الانقياد للحق، فحاربوا الإسلام وأهله كما يحاربه الكفرة اليوم، ولولا أن الله تكَفَّل بنصر دينه لما بقي إسلام ولا مسلمون.

(١) الزخرف: ٣١.

الفصل التاسع والأربعون
موقف أبي طالب

والآن لابد وأن يجول بذهن القارئ للسيرة سؤال وهو: ما موقف أبي طالب عمِّ النبي ﷺ تجاه ابن أخيه في هذه الظروف؟ يقول ابن كثير: كان من لطف الله بنبيّه ﷺ حُنُوُّ عمه أبي طالب عليه، فلما قام ﷺ يدعو إلى الله، ويتعرَّض لأصنام قريش عندها قام وفد من قريش بمقابلة عمه أبي طالب، وقالوا له: إما أن تُخلي بيننا وبينه وإما أن تكفه عنا. فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً فانصرفوا عنه.

قال السهيلي في الروض الأنف: ومضى رسول الله ﷺ في دعوته، واشتد الأمر بينه وبين المشركين، فمشوا إلى عمه أبي طالب مرة أخرى، وقالوا له: يا أبا طالب إن لك شرفاً وسناً ومنزلة فينا، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين. ثم انصرفوا. فعظُمَ ذلك عند أبي طالب، إذ كيف يفارقه قومه، وكذلك لا تطيب نفسه من جهة أخرى بتسليم محمد ابن أخيه إلى الأعداء ليقتلوه. فماذا كان رد أبي طالب؟ والجواب: أن المؤرخين ذكروا روايتين:

الأولى: أن أبا طالب قال لولده عقيل: اذهب فأتني بمحمد ﷺ.

قال عقيل: فانطلقت إليه فاستخرجته من كنسٍ(١)، فجاء به في الظهيرة عند شدة الحر، فلما أتاهم النبي ﷺ قال أبو طالب والمشركون حوله: إن بني عمك هؤلاء زعموا أنك تؤذيهم في ناديهم ومسجدهم ـ الحرم المكي ـ، فانته عن أذاهم.

فحلَّق رسول الله ﷺ ببصره إلى السماء فقال: ترون هذه الشمس؟ قالوا: نعم. قال: فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تُشعلوا منه بشعلة. ـ وهذه رواية البخاري في التاريخ ـ فقال أبو طالب: والله ما كذب ابن أخي قط فارجعوا.

وفي رواية للبيهقي بطريق آخر: أن قريشاً لما قالت لأبي طالب ما قالت، بعث أبو طالب إلى رسول الله ﷺ فقال له: يا ابن أخي إن قريشاً جاؤوني وقالوا كذا وكذا، فأبقِ عليَّ وعلى نفسك، ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق أنا ولا أنت، فاكفف عن قومك ما يكرهون من قولك،

---

(١) بيت صغير.

فظن النبي ﷺ أن عمه قد خذله، وضعف عن القيام معه، فقال النبي ﷺ: «**يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري، ما تركت هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه**» ثم استعبر رسول الله ﷺ وبكى ثم قام. فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبل يا ابن أخي، فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشيء أبداً. ماذا كان موقف قريش من هذا الذي حدث. . ؟

قال المؤرخون: لما عرفت قريش أن أبا طالب رفض تسليم النبي ﷺ إليهم، ولم يخذله، تقدموا إلى عمه بطلب غريب. ماهو؟ مشوا إلى أبي طالب ومعهم «عمارة بن الوليد» وقالوا لأبي طالب: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد أَنْهَدُ فتى في قريش وأجمله، فخذه فلك عقله ونصره، واتخذه ولداً، وأسلم لنا ابن أخيك هذا الذي خالف ديننا، وفرّق جمعنا فنقتله، فإنما هو رجل برجل. فقال أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني! أتعطوني ابنكم أغذوه لكم، وأعطيكم ابني تقتلونه؟!! هذا والله ما لا يكون أبداً.

الفصل الخمسون
إثارة الشبهات حول القرآن الكريم

قال العلماء: لما رأت قريش أن محمداً ﷺ لا يصرفه عن دعوته صارف، أخذوا يفتشون عن أساليب أخرى غير ما مرَّ لصرف الناس عن الدعوة وصاحب الدعوة، وتولى النضر بن الحارث العبدري البدء بذلك، فقد ورد عنه أنه كان يقول: القرآن قصص من قصص الماضين، وكان يقول: (القرآن هو أساطير الأولين). وكان يقول لقريش: أنا والله يا معشر قريش أحسنُ حديثاً من محمد، فهلم أحدثكم، وكان هذا الفاجر قد تعلّم في الحيرة قصص ملوك الفرس، وأحاديث رستم وإسفنديار.

وقد ذكر الله ـ عز وجل ـ لنا هذه الفرية على القرآن الكريم في أنه أساطير الأولين في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴿٤﴾ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٥﴾ ﴾[1].

ففي اجتماع ضم صناديد قريش أبو جهل، وأبو سفيان، والوليد بن المغيرة، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، والنضر بن الحارث، وحرب بن أمية. . ويسأل أحدهم النضر بن الحارث قائلاً: يا نضر ما حكاية الكلام الذي يقوله محمد؟ وكان النضر عالماً بقصص ملوك فارس والروم. . وكان قد جاب الجزيرة من اقصاها إلى أقصاها، فقال: والله ما أدري ما يقول محمد إلا أنه أساطير الأولين. والأساطير جمع أسطورة وهي القصة والخبر عن الماضين كان العرب يطلقونها على ما يتسامرون به من قصص وأخبار على ما فيها من صدق أو كذب، وأراد بها هنا الحوادث الوهمية والقصص العجيبة.

قال الفخر الرازي: اشترى النضر بن الحارث من الحيرة أحاديث «كليلة ودمنة» وكان يقعد مع المستهزئين من أمثال طعيمة بن عدي، وعقبة بن أبي معيط يتصدون للطعن في القرآن، ويريدون بقولهم: أساطير الأولين: أن هذا القرآن لا يستحق أن يُلتفت إليه؛ لأنه مجموعة قصص وأساطير. وبهتانهم وكذبهم في قولهم ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ عجيب. والله ـ عز وجل ـ قد كشف

---

(١) الفرقان: ٤ـ٥.

بهتانهم، وأوضحه لهم بقوله تعالى محدثاً عنهم: ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[1]، فهم قد أدركوا عظمة هذا القرآن فكيف يقولون عنه ﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾؟! وتمنوا أن يكون نزوله على غير محمد ﷺ. لقد كانوا من المعجبين بعظمة اسلوبه وبلاغته. . إذاً ما هو السر؟ والجواب عند علمائنا إذ قالوا: إن المشركين يعلمون عظمة القرآن، ولكنهم يعلمون أن مطلوبات القرآن صعبة على نفوسهم، كما أنهم أرادوا أن يظلوا في السيادة والجبروت والقهر للغير، والقرآن جاء بالمساواة بين البشر أمام الحق الواحد الأحد. ومن عجيب بهتانهم أن الله تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله، فعجزوا وأُفحموا ثم اعتذروا بأن القرآن أساطير الأولين، وأنهم قادرون على ذلك.

وقولهم: ﴿ٱكْتَتَبَهَا﴾ أي: استنسخها، أي أمر أن تُكتب له، ثم اتخذها عنده ﷺ، فهو يناولها لمن يُحسن القراءة. . وقوله: ﴿فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾ أي تُقرأ عليه ليحفظها لا ليكتبها، لأنه ﷺ أمي، ومُراد النضر بن الحارث من هذا الوصف ترويج كذبه وبهتانه؛لأنه لو قال كتبها محمد بيده لانكشف كذبه، لأن الناس يعلمون أن محمداً كان أمياً.

ونلاحظ أن القرآن الكريم قد أسند القول إلى جميع الكفار بقوله تعالى في الافتراء الأول: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ۖ فَقَدْ جَآءُو ظُلْمًا وَزُورًا ﴾[2]. وكذلك في الافتراء الثاني: ﴿ وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴾[3].

لماذا أسند القرآن هذه الأقوال الباطلة إلى جميع الكفار مع أن القائل الأهم هو النضر بن الحارث وقد يكون نوفل بن خويلد، وعبد الله بن أمية قالا قريباً من قول النضر بن الحارث؟

والجواب: لأن هذا الكلام وهذا الافتراء واقع بين أظهرهم، وكلهم يتناقلونه، ويؤيدون قول النضر بن الحارث وغيره، ويجدون في هذا القول معذرة لهم عن عجزهم عن معارضة القرآن. ولقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الافتراء الجديد من المشركين في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ

---

(١) الزخرف: ٣١.

(٢) الفرقان: ٤.

(٣) الفرقان: ٥.

﴿ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌۗ ﴾ (١) إشارة إلى صَيْقَلَين(٢) يعملان السيوف، اسم أحدهما جبر، والآخر نَبْت، ويكنى أبا فكيهة الرومي، كانا يقرآن الكتب السابقة، فكان رسول الله ﷺ إذا مر بهما عند الصفا سمع قراءتهما ودعاءهما فقالوا: إن رسول الله ﷺ يتعلم منهما، ويأخذ عنهما هذا القرآن.. ويرد القرآن عليهم هذه الفرية ويُظهر إفلاسهم الفكري، فيقول في سورة النحل: ﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾ (٣).

واللسان هنا: اللغة التي يُتحدث بها. ويُلحدون إليه: أي يميلون إلى أن هذا الأعجمي هو الذي يعلم الرسول ﷺ. والأعجمي هو الذي لا يُفصح ولا يُبيـّن، كما لو تحدث أجنبي العربية مثلاً.

ونلاحظ هنا أن القرآن استعمل كلمة (أعجمي) ولم يقل (عجمي) فما السبب؟

قال الشعراوي: لأن العجم جنس يقابل العرب، وقد يكون من العجم من يجيد العربية الفصيحة، كما نلاحظ ذلك في إمام النحاة عمرو بن عثمان الحارثي بالولاء وهو «سيبويه» صاحب كتاب «الكتابِ». وهو من أعظم مراجع النحو.

أما الأعجمي فهو الذي لا يُفصح ولا يبين حتى وإن كان عربياً، وقد كان في قبيلة بني لؤي رجل اسمه «زياد» يقال له: زياد الأعجمي؛ لأنه لا يفصح ولا يبيّن، مع أنه من أصل عربي.

فالقرآن يقول لهؤلاء المشركين المفترين: كيف يتأتى لهؤلاء الأعاجم الذي لا يُفصحون، ولا يكادون ينطقون العربية كيف لهم أن يُعلّموا رسول الله ﷺ وقد جاء بمعجزة في الفصاحة والبيان؟ وهم بافترائهم وكذبهم قد ارتكبوا ظلماً وزوراً، ولذلك قـال تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ إِفۡكٌ ٱفۡتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيۡهِ قَوۡمٌ ءَاخَرُونَۖ فَقَدۡ جَآءُو ظُلۡمٗا وَزُورٗا ﴾ (٤).

قال صاحب البحر المحيط: وظلمهم: أن جعلوا العربي يتلقّن من الأعجمي كلاماً عربياً أعجز بفصاحته جميع بلغاء العرب. والزور: أنهم بهتوه بنسبة ما هو بريء منه إليه.

---

(١) النحل: ١٠٣.

(٢) الصيقل: الحداد الذي يصنع السيوف.

(٣) النحل: ١٠٣.

(٤) الفرقان: ٤.

قال العلماء: ـ كما ذكر الرازي في تفسيره ـ وتأتي الشبهة الثالثة إذ ذكروا للرسول ﷺ خمس صفات زعموا أنها تخل بالرسالة وهي:

الأولى: قولهم: ما لهذا الرسول يأكل الطعام.

ثانيتها: ويمشي في الأسواق.

ثالثتها: قولهم: لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا.

رابعتها: أو يلقى إليه كنز. أي من السماء فلا يحتاج إلى التردد في طلب المعاش.

خامستها: قولهم أو تكون له جنة يأكل منها. وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحورا.

ونلاحظ ذلك كله في سورة الفرقان، حيث انتقلوا من الطعن في القرآن إلى الطعن في الرسول ﷺ.

وإلى هذا أشار قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴿٨﴾﴾[1]. وقد ذكر أصحاب السير أن هذه المقالة تداولها المشركون في مجلس لهم مع رسول الله ﷺ.

قال ابن عطية: ثم أشاعوا ذلك بين الناس فنزلت هذه الآية.

قال البغوي: كانوا يقولون للنبي ﷺ: لست أنتَ بملَك ولا بملِك؛ لأنك تأكل، والمَلَك لا يـأكل، ولستَ بمَلِك؛ لأن الملِكَ لا يتسوَّق، وأنت تتسوق وتتبذَّل.

قال أبو السعود في تفسيره: وهل قالوا ذلك إلا لعمههم وركاكة عقولهم، وقصور أنظارهم على المحسوسات، فإن تميز الرسل عمن عداهم ليس بأمور جسمانية، وإنما هو بأمور نفسانية، كما أشار الله تعالى إلى ذلك في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾[2].

قال العلماء: وخص المشركون هاتين الصفتين في الرسول وهما: ما لهذا الرسول يأكل

(١) الفرقان: ٧ ـ ٨.

(٢) الكهف: ١١٠.

الطعام ويمشي في الأسواق لأنها من الأحوال المتكررة المشاهدة، واتخذوا ذلك حجة لرد رسالته ﷺ، وقد رد القرآن الكريم عليهم بقوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّآ إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾[1]. فالرسل كلهم السابقون متصفون بصفات البشر، والمشركون يعلمون ذلك، فلماذا لم يستنكروا بشرية الرسل السابقين، واستنكروا بشريتك يا محمد. . ؟!!

قال العلماء: ومن الأساليب التي اتخذها المشركون لصدّ الناس عن دعوة الحق، ما كان يفعله النضر بن الحارث بن كَلَدَة الذي قتله رسول الله ﷺ صبراً بعد الفراغ من وقعة بدر.

كان هذا الشيطان يشتري القينات المغنيات ـ كما روى ابن عباس ـ، فإذا سمع برجل مال إلى النبي ﷺ سلّط عليه واحدة منهن تُطعمه وتسقيه. . وتغني له حتى لا يبقى له ميل إلى الإسلام. وفيه أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ [2]. يشتري بماله أشياء تضل عن سبيل الله، كالمغنيات، وكتاب كليلة ودمنة.

قال أبو الصهباء البكري: سألت ابن مسعود عن هذه الآية فقال: هو والله الغناء، هو والله الذي لا إله إلا هو الغناء؛ ورددها ثلاثاً. ومثل ذلك روي عن سعيد بن جبير عن ابن عباس.

قال مكحول: من اشترى جارية ضرّابة ليُمسكها لضربها وغناها مقيماً على ذلك حتى يموت لم أصلّ عليه، إن الله تعالى يقول: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ..﴾.

وكان محمد بن المنكدر يقول: بلغني أن الله عز وجل يقول يوم القيامة أين الذين كانوا ينزهون أسماعهم وأنفسهم عن اللهو ومزامير الشيطان؟ أدخلوهم رياض المسك، ثم يقول عز وجل للملائكة: (أسمعوا عبادي حمدي وثنائي، وتمجيدي وأخبروهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

---

(١) الفرقان: ٢٠.

(٢) لقمان: ٦.

قالوا في الفقه: ولا تَقبل شهادة المغني للناس، وأما من تغنّى لنفسه لدفع الوحشة، وإزالة الحزن فتُقبل شهادته إذ به لا تسقط العدالة إذا لم يُسمع غيره.

قال الإمام مالك: إذا اشترى جارية فوجدها مغنيةً فله أن يردها بالعيب.

وفي الأثر: (من ملأ مسامعه من غناء لم يؤذن له أن يسمع صوت الروحانيين يوم القيامة).

قيل: وما الروحانيون يا رسول الله؟ قال: «**قراء أهل الجنة**» أي من الملائكة والحور العين.

الفصل الواحد والخمسون
القرار بالاضطهاد

قال المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم: مضت السنة الرابعة من البعثة والمشركون مقتصرون على أساليب الجدال الفكري، والعروض المغرية والهزء، ولم يجاوزوا هذه الأساليب إلى التعذيب والاضطهاد، ولكن لما رأوا أن أساليبهم السابقة لكها لم تُجدِ في كفِّ الدعوة الإسلامية، اجتمع المشركون مرة أخرى وكوّنوا منهم لجنة عدد أعضائها خمسة وعشرون رجلاً من سادات قريش، وأسندوا زعامتها إلى «أبي لهب» عم النبي ﷺ.

وبعد دراسات ومداولات اتخذوا قراراً حاسماً ضد النبي وضد أصحابه وقرروا: ألا يتهاونوا في محاربة الإسلام، وإيذاء رسوله، والداخلين فيه بألوان النكال والإيلام. اتخذوا هذا القرار وقرروا تنفيذه.

قال العلماء: وكان تنفيذ هذا القرار سهلاً بالنسبة للمسلمين المستضعفين، وأما بالنسبة للنبي ﷺ فالأمر يختلف، فمحمد ﷺ رجل شهم وقور، تتعاظمه النفوس، ولا يَجترئ على إيذائه، وفعل الدنايا ضده إلا أراذلُ الناس، ثم هو في حماية عمه أبي طالب، وهذا أمر يقلقهم، ومع ذلك فقد عادوه وآذوه، وقد مرّ معنا في الدروس السابقة إيذاء عمه أبي لهب وزوجته أم جميل، وكانوا يؤذونه وهو في بيته، بل كانوا يؤذونه حتى في نظراتهم إليه، كما أشار إلى ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَٰرِهِمْ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجْنُونٌ﴾ [(١)]، أي: ليقتلونك كما قال الحسن وابن كيسان. يُقال: (صرعني بطرفه، قتلني بعينه). ومنه قول الشاعر:

ترميك مزلقة العيون بطرفها   وتَكِلُّ عنكَ نصالُ نبل الرامي

قال الزمخشري: يعني أنهم من شدة تحديقهم، ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يُهلكونك. وهذا يشبه قول العرب: نظر إلي نظراً يكاد يصرعني، ويكاد يأكلني. أي لو أمكنه بنظره الصرع، أو الأكل لفعله ومنه قول الشاعر:

---

(١) القلم: ٥١.

يتقارضون إذا التقوا في موطن　　　نظراً يُزلُّ مواطـــئ الأقدام

أي: إذا التقوا في موطن ينظر كل واحد منهم إلى الآخر نظر حسد وحنق يكاد يصرعه. وأنشد ابن عباس ـ وقد مر بأقوام حدّدوا النظر إليه:

نظروا إليّ بأعيـــن محمرّةٍ　　　نظرَ التيوسِ إلى شِفار الجازِرِ

وكانت العين في بني أسد، واشتهروا بالإصابة بها حتى إنّ البقرة السمينة أو الناقة السمينة تمر بأحدهم فيعاينها ثم يقول: يا جارية خذي المِكتَل والدرهم فـأتينا بلحمِ هذه الناقة، فما تبرح حتى تقع للموت، فتُنحر. كما ذكر ذلك القرطبي.

وقال الكلبي: كان رجل من العرب يمكث اليومين والثلاثة بدون طعام، ثم يرفع جانب الخباء، فتمر به الغنم والإبل فيقول: لم أر إبلاً ولا غنماً أحسن من هذه!! فما تذهب إلا قليلاً حتى تسقط منها طائفة هالكة. فسأل الكفار المشركون هذا الرجلَ أن يُصيبَ لهم النبي ﷺ بالعين فأجابهم، فلما مرّ النبي ﷺ أنشد:

قد كان قومك يحسبونك سيداً　　　وإخــــال أنك سيدٌ معيون

فعصم الله نبيه ونزلت الآية: ﴿وَإِن يَكَادُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَيُزۡلِقُونَكَ بِأَبۡصَٰرِهِمۡ لَمَّا سَمِعُواْ ٱلذِّكۡرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُۥ لَمَجۡنُونٞ﴾(١).

قال العلماء: وكان أمية بن خلف الجمحي إذا رأى رسول الله ﷺ هَمَزَهُ ولمَزَهُ، فانزل الله ـ عز وجل ـ قوله: ﴿وَيۡلٞ لِّكُلِّ هُمَزَةٖ لُّمَزَةٍ﴾(٢).

قال ابن هشام: الهُمَزة: الذي يشتم الرجل علانية، ويكسر عينيه عليه، ويغمز به

قال حسان:

همزتك فاختضعت بذل نفس بقافية تأجج كالشواظ

واللُّمَزة: الذي يعيب الناس سراً، ويؤذيهم. وفُعْلَةٌ من أبنية المبالغة، مثل نُوَمَةٌ، وضُحَكة، وعُيَبة. .

قال زياد الأعجم:

---

(١) القلم: ٥١.

(٢) الهمزة: ١.

تدلي بودي إذا لاقيتني كذباً وإن أُغيَّبْ فأنت الهامز اللمزة

قال القاسمي: والآية عنى بها من كان مع المشركين بمكة همازاً لمازاً، وكان من أشهرهم في هذا الوليد بن المغيرة، والأخنس بن شريق. حتى قال ابن قتيبة: لا نعلم أن الله وصف أحداً وذكر من عيوبه، ما ذكر من عيوب الوليد بن المغيرة، فألحق به عاراً لا يفارقه في الدنيا ولا في الآخرة. وفيه وفي أمثاله قال تعالى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عُتُلٍّ بَعْدَ ذَٰلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ (١).

قال ابن عاشور: ذُكرت لهم في الآيات عشر خلال من مذامهم التي تخلقوا بها فهو: (حلاف) كثير الأيمان على وعوده وأخباره ثم لا يبالي بالكذب في هذه الأيمان. وهو(مهين): حقير الرأي والتمييز. (هماز): وهو الطعان ـ كما ذكرنا ـ.

(مشاء بنميم): نقَّالٍ للحديث ليُفسد بين الناس. (مناع للخير): شديد المنع. . لأي شي؟ للمال؛ لأن الخير اسم من أسماء المال، قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (٢) فقد كان بعض المشركين يمنعون الخير عمن أسلم، وكان الواحد منهم يقول لمن أسلم من أهله وقرابته: من دخل منكم في دين محمد لا أنفعه بشيء أبداً.

قال المفسرون: وهذه ـ منع الخير عمن أسلم ـ شنشنة(٣) عُرفوا بها من بعد، كما أنها صفة اتصف بها المنافقون. قال تعالى: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟..﴾(٤)، ثم هم إن أَعطوا أعطوا فخراً وسُمعة، ولا يُعطون الضعفاء والفقراء، وإنما يعطون في المجامع. ولذلك قال تعالى: ﴿وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ (٥). وقد كان الوليد بن المغيرة ينفق في كل حجة عشرين ألفاً يطعم أهل منى، ولا يعطي المسكين درهماً واحداً، وقد

---

(١) القلم: ١٠ ـ ١٥.

(٢) العاديات: ٨.

(٣) صفة، خصلة.

(٤) المنافقون: ٧.

(٥) الفجر: ١٨.

يُراد بقوله تعالى ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾ أي صادٌّ عن الإسلام.

المَذمّتان السادسة والسابعة: (معتد أثيم) أي: كثير الإثم، والإثم هو ما يعد خطيئة وفساداً عند أهل العقول والمروءة وفي الأديان المعروفة، ـ كما قال صاحب التحرير والتنوير ـ.

ثم **الثامنة والتاسعة** (عتلٍّ بعد ذلك زنيم). العُتل: الغليظ الجافي، يمنع السائل ويدفعه ويُغلِظُ له.

قال عبيد بن عمير: العُتل: الأكول الشروب الشديد الخلقة، يوضع في الميزان فلا يزن شعيرة، يدفع المَلَك من أولئك بالدفعة الواحدة سبعين ألفاً. قال معمر: هو الفاحش اللئيم السيء الخلق.

قال الشاعر:

بعُتلٍّ من الرجالِ زنيم　　　غيرِ ذي نجدةٍ وغير كريمِ

وفي الحديث عن مسلم عن حارثة بن وهب أنه سمع النبي ﷺ قال: «**ألا أخبركم بأهل الجنة؟**» قالوا: بلى. «**قال: كل ضعيفٍ مُتضَعِّف يتجبَّر عليه المتجبرون لرثاثة أو لفقر حال لو أقسم على الله لأبرَّه. ألا أخبركم بأهل النار؟**» قالوا: بلى. «**قال: كل عتلٍّ جوَّاظ متكبر**» والجوَّاظ: الجموع المنوع الكثير اللحم المختال في مشيته.

و(الزنيم): اللصيق في قومه، أي ليس من صريح نسبهم، بل يكون في نسبه غضاضة من قبل الأم، ومن ذلك قول حسان بن ثابت في هجاء أبي سفيان ـ قبل إسلام أبي سفيان ـ وكانت أمه مولاة خلافاً لسائر بني هاشم إذ كانت أمهاتهم من صريح نسب قومهن.

قال حسان لأبي سفيان:

وأنت زنيمٌ نيطَ في آل هاشمٍ　　　كما نيطَ خلف الراكب القدحُ الفرد
وإن سنامَ المجدِ من آل هاشم　　　بنو بنت مخزوم ووالدُك العبد

وقوله: (ووالدك العبد): أراد به جدّه أبا أمه واسمه: (موهب) غلام عبد مناف، وكانت (سمية) أم أبي سفيان بنت موهب هذا.

قال المفسرون: وأريد بـ(الزنيم) في الآية، الوليد بن المغيرة؛ لأنه ادعاه أبوه بعد ثمانية عشر

سنة من مولده، وفي رواية أخرى أن المراد بـ(الزنيم) الأخنس بن شريق، وهو لصيق كذلك؛ لأنه كان في ثقيف، فحالف قريشاً وحلَّ بينهم وهو ليس منهم، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿أَن كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾﴾ [1] أي لكونه ذا مال وبنين يكذب بآياتنا، **فالصفة العاشرة** كونه مكذباً بالرسول وبالقرآن، فيكون تعليق الجملة بما بعدها. ويجوز تعليقها بقوله تعالى السابق ﴿فَلَا تُطِعِ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٨﴾﴾. . وختمت الآيات بالتحذير من الكذب. ثم قال تعالى: ﴿سَنَسِمُهُۥ عَلَى ٱلْخُرْطُومِ﴾ [2].

قال القاسمي: هذه عِدَةٌ من الله تعالى بأنه سيُذلُّه غاية الإذلال بعد تناهي عُجبه، وكِبَرِه، وعُتوِّه. تقول العرب: وسمته بميسم السوء، أي: ألصق بـه من العار مـا لا يفارقه، كما أن السمة لا يُمحى.

ومنه قول جرير:

لما وَضَعتُ على الفَرَزدَقِ ميسَمي وعلى البَعيثِ جَدَعتُ أنفَ الأخطَلِ

والبعيث: شاعر معروف اسمه «خداش بن بشير»، وكنيته أبو مالك. والميسم هنا: الهجاء. وذكر (الخرطوم) هنا للجمع بين الإهانة والتشويه لأن أصل الخرطوم يكون للخنزير والفيل.

قال الرازي: الوجه أكرم موضع في الجسد، والأنف أكرم موضع من الوجه لارتفاعه عليه؛ ولذلك جعلوه مكان العزّة والحمية، واشتقوا منه (الأَنَفَة).

وقالوا في الذليل: (رغم أنفه)، ولذلك لما وسم ابن عباس أباعره في وجوهها، قال له رسول الله ﷺ: «**أكرموا الوجوه**» فوسمها في جَواعِرِها. وكانت العرب إذا ضربوا بالسيوف قصدوا الرؤوس والوجوه.

قال النبي ﷺ لعمر بن الخطاب ـ لما بلغه قول أبي حذيفة: لئن لقيت العباس لألجمنه بالسيف ـ فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا حفص أَيُلجَمُ وجه عمّ رسول الله ﷺ بالسيف؟**».

---

(١) القلم: ١٤ـ١٥.

(٢) القلم: ١٦.

وقد وقع هذا الوعيد للوليد بن المغيرة وهو ما ابتلاه به في نفسه، وماله، وأهله من سوء وذل وصَغارٍ؛ وذلك ما نالهم ببدر، وخُطِم أنفه يومها، وبقي مخطوماً إلى أن مـات.

قال أهل السير: وممن تعرّض للنبي ﷺ «أبيُّ بن خلف الجُمَحي» مشى إلى رسول الله ﷺ بعظم بال قد ارفتَّ، فقال للنبي ﷺ: يا محمد أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرمَّ ثم فتّه في يده، ثم نفخه في الريح نحو رسول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: «**نعم أنا أقول ذلك، يبعثه الله وإياك بعدما تكونان هكذا ثم يدخلك النار**». وأنـزل الله عـز وجل قوله: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُۥ قَالَ مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾ (١).

(١) يٓس: ٧٨.

الفصل الثاني والخمسون
الاضطهاد بالنسبة للمستضعفين

قال أهل السير: كان الأمر بالنسبة للمسلمين الضعفاء أشد وأنكى، فقد قامت كل قبيلة تعذب من آمن منها بالإسلام عذاباً شديداً. أما من لم يكن له قبيلة فقد سلّطوا عليه الأوباش، فعذّبوه العذاب الذي يفزع من ذكره قلب الحليم. كان «أبو جهل» إذا سمع برجل أسلم، فإن كان له شرف وبَّخه، وإن كان له تجارة قال له: سنقاطع تجارتك، وإن كان ضعيفاً عذّبه. وكان عم «عثمان بن عفان» يلفُّه في حصير من أوراق النخيل ثم يدخّن من تحته. ولمّا علمت أم «مصعب بن عمير» بإسلام ولدها مصعب أجاعته، وكان من أنعم الناس حتى تخشّف جلده. ولا شك أن كثيرين منكم سمعوا في المدارس، أو قرؤوا في التاريخ عذاب «بلال وعمار» في الرمضاء وحر الهاجرة، وكيف مات ياسر تحت العذاب، وكيف أن أم عمار زوجَ ياسر طعنها أبو جهل في مكان عفتها فقتلها.

كما شددوا على «عمار» بالتغريق، وقالوا: لا نتركك حتى تقول في اللات والعزى خيراً، وحتى تسب محمداً ﷺ. فوافقهم، وجاء معتذراً باكياً إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴾[1].

قال العلماء: «في هذه الآية، يوضح الحق سبحانه أن الإيمان ليس مجرد أن تقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، بل لا بد أن يواطئ القلب اللسان في هذه المقولة، ومن هنا ينشأ عندنا أربع حالات:

الأولى: أن يواطئ القلب اللسان إيجاباً بالإيمان فنقول: إن المؤمن منطقي في إيمانه؛ لأنه يقول ما يُضمِرُهُ قلبه.

الثانية: أن يواطئ القلب اللسان سلباً أي: بالكفر، فيكون الكافر منطقيٌ في كفره لأنه يواطئ قلبه لسانه.

الثالثة: أن يؤمن بلسانه، ويُضمرَ الكفر في قلبه، وهذه حالة المنافق، وهو غير منطقي في

---

(١) النحل: ١٠٦.

إيمانه، حيث أظهر خلاف ما يُبطِن ليستفيد من مزايا الإيمان.

الرابعة: أن يؤمن بقلبه، وينطق الكفر بلسانه. قال العلماء: وهذه الحالة الرابعة هي المرادة في الآية.

فقد بينت الآية: ما للمرتدين من الوعيد الشديد، لإيثار المرتد الضلال على الهدى، واستثنت من هذا التهديد والوعيد المُكره المطمئن قلبُه بالإيمان بالله ورسوله، فإن هذا المُكرَه إذا وافق المشركين بلفظ لإيلامٍ قوي، وإيذاءٍ شديد، وتهديد بقتلٍ، فلا جُناح عليه إنما الجُناح والإثم على من طابت نفسه بالكفر، واعتقده استحباباً للحياة الفانية، وإيثاراً لها على الدار الآخرة، فذاك الذي له من الوعيد ما بينته الآية الكريمة من: غضب الله عليهم أولاً. ولهم العذاب العظيم وهو النار ثانياً. وعدمِ هدايتهم لأنهم اختاروا الكفر ثالثاً. ورابعاً الطبع على قلوبهم بسبب قساوتها فلم ينفتح لهم طريق الفهم لا في القلوب ولا في السمع ولا في الأبصار، حيث لم يؤثر فيهم شيء من أسباب الهداية من طريق الباطن، ـ من فيض العلم وإشراق النور ـ ولا من طريق الظاهر بطريق التعلم والاعتبار من آثار مصنوعات الله. وخامساً وأخيراً بكونهم هم الغافلين بالحقيقة لعدم تيقظهم من نوم الجهل، بسبب من أسباب الفلاح. وواضح أن كل نقمة من هذه الخمس على انفرادها من أعظم الحواجز عن الفوز بالخير والسعادات، فكيف بها كلها؟!! أ. هـ

وجميل قول الرازي: ومعلوم أن الله تعالى إنما أدخل الإنسان الدنيا ليكون كالتاجر الذي يشتري بطاعته سعادات الآخرة، فإذا حصلت له هذه الموانع. . . عظم خُسران التاجر.

لذلك قال تعالى في ختام الآيات: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا عَلَى ٱلْـَٔاخِرَةِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿١٠٩﴾﴾(1).

قال العلماء: وفي التاريخ الإسلامي نماذج متعددة بعضها أخذ بالرخصة، والبعض الآخر آثر الأخذ بالعزيمة فلم ينطق بكلمة الكفر ونال الشهادة عندما صبَّ أعداء الإسلام عليهم العذاب.

وقد ذكر التاريخ أن «ياسر» أبا عمار، وزوجه «سمية» أول شهيدين في الإسلام، فكيف

---

(١) النحل: ١٠٧ ـ ١٠٩.

استُشهِدا؟ والجواب: كانوا من المسلمين الأوائل، وتعرضوا لكثير من العذاب حتى عرض عليهم الكفار النُّطق بكلمة الكفر مقابل العفو عنهما.

فماذا حدث؟ أصرَّ هذان الشهيدان على الصّدع بكلمة الحق حتى نالا الشهادة ولم يأخذا بالرّخصة. أما ولدهما «عمار» فكان أول من أخذ بالرخصة حينما تعرّض للتعذيب، وجاء الخبر إلى رسول الله ﷺ أن: «عمار بن ياسر» كفر، فأنكر رسول الله ﷺ هذا الخبر وقال: «**إن إيمان عمار من مفرق رأسه إلى قدمه، وإن الإيمان في عمار قد اختلط بلحمه ودمه**»[1].

فلما جاء عمار أقبل على رسول الله ﷺ وهو يبكي، ثم قصّ على رسول الله ﷺ ما جرى وقال: والله يا رسول الله ما خلّصني من أيديهم إلا أني تناولتك ـ أي: بشيء من السب والشتم، وذكرِه بالشرـ وذكرت آلهتهم بخير، فما كان من النبي ﷺ إلا أن مسح دموعَ عمار بيده الشريفة وقال له: «**إن عادوا إليك فقل لهم ما قلت**».

وفي رواية للحاكم والبيهقي: أن عمار لما أتى النبي ﷺ قال له ﷺ: «**ما وراءك شي؟**» قال عمار: شر، ما تُرِكْتُ حتى نلت منك وذكرت آلهتهم بخير. قال ﷺ: «**كيف تجد قلبك؟**» قال عمار: مطمئن بالإيمان قال ﷺ: «**إن عادوا فعد**».

قال العلماء: ولا شك أن هاتين منزلتان في مواجهة الباطل وأهله، وأن الصدع بالحق والصبر على البلاء أعلى منزلة، وأسمى درجة من الأخذ بالرخصة، لأن الأول آمن بقلبه ولسانه، والثاني آمن بقلبه فقط ونطق لسانُه بالكفر.

وفي حركة الردة حاول مسيلمة الكذاب أن يطوف بالقبائل لينتزع منها شهادة بصدق نبوته، فقال لرجل: ما تقول في محمد ﷺ؟ قال: رسول الله. قال: فما تقول فيَّ؟ فقال الرجل في لباقة: وأنت كذلك. فأخرج نفسه بلباقةٍ من هذا المأزق دون أن يعترف صراحة بنبوة هذا الكذاب.

ويقابل مسيلمة شخصاً آخر وسأله: ما تقول في محمد؟ قال: رسول الله. قال مسيلمة: وما تقول فيَّ؟ قال الرجل متهكماً: اجهر لأني أصبحت أصمّ الآن. وأنكر على مسيلمة ما يدّعيه، فقتله مسيلمة ولما وصل خبرها إلى رسول الله ﷺ قال ﷺ: «**أحدهما استعمل الرخصة والآخر صدع**

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

بالحق». وقد أخرج هذا الحديث ابن أبي شيبة وذكر أن عيوناً لمسيلمة أخذوا رجلين من المسلمين فأتوا بهما إلى مسيلمة. . فسأل كل واحد منهما عن نبوة محمد ﷺ وعن نبوته هو. . وسمعنا إلى جواب كل منهما، ثم إن الذي نجا أتى إلى رسول الله ﷺ وأخبره، فقال ﷺ: «**أما صاحبك فقد مضى على إيمانه، وأما أنت فقد أخذت بالرخصة**». وذكر ابن كثير القصة، وذكر اسم الأول الذي أخذ بالعزيمة وهو «حبيب بن زيد».

قال صاحب التحرير في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ . . ﴾.

قال: هو ترخيص لعمار بن ياسر وأمثاله حيث اشتد العذاب عليهم.

قال القرطبي: أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل على أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان.

هنا سؤال: هل تكون الرخصة في القول فقط أم بالقول والفعل؟

والجواب: أن للعلماء قولين في هذا، والراجح أن الرخصة تشمل القول والفعل.

ولكن العلماء أجمعوا على أن من أُكرِهَ على قتل غيره أنه لا يجوز له ذلك، كما لا يجوز له أن ينتهك حرمته بجلد أو غيره، ويصبر على البلاء ولا يحل له أن يفدي نفسه بغيره.

كما أجمع العلماء على أن من أكره على الكفر فاختار القتل أنه أعظم أجراً عند الله ممن اختار الرخصة. ولكن ما الحكم في إنسان أخذه سلطان ظالم وحلّفه على نفسه أو على أن يدله على رجل أو على مال رجل؟ قال الحسن: إذا خاف عليه وعلى ماله فليحلف ولا يكفّر عن يمينه؛ وهو قول قتادة. وهو قول الحسن البصري.

يروي المؤرخون كما ذكر ذلك «موسى بن معاوية»: أن» أبا سعيد بن أشرس» صاحب الإمام مالك استحلفه السلطان بتونس على رجل أراد السلطان قتله أنه ما آواه، ولا يعلم له موضعاً؛ قال: فحلّفه السلطان بالطلاق ثلاثاً، فحلف له ابن أشرس، ثم قال لامرأته اعتزلي فاعتزلته؛ ثم ركب ابن أشرس حتى قدم على «البهلول بن راشد» القيروان، فأخبره بالخبر؛ فقال له البهلول: قال مالك: إنك حانث، فقال ابن أشرس: وأنا سمعت مالكاً يقول ذلك، وإنما أردت الرّخصة، فقال له البهلول بن راشد: قال الحسن البصري: إنه لا حنث عليك. قال: فرجع ابن أشرس إلى زوجته وأخذ بقول الحسن.

وقد ورد عن أنس بن مالك عن الرجل يؤخذ بالرجل هل ترى أن يحلف ليقيه بيمينه؟ قال أنس: نعم. لأن أحلف سبعين يميناً وأحنث أحب إلي من أدل على مسلم.

وقال إدريس بن يحيى: كان الوليد بن عبد الملك يأمر جواسيس يتجسسون على الخلق يأتون له بالأخبار، قال: فجلس رجل منهم في حلقة «رجاء بن حيوة» فسمع بعضهم يقع في الوليد، فرفع ذلك إليه ـ إلى الوليد ـ فاستدعى رجاء بن حيوة وقال له: يا رجاء، أُذْكَرُ بسوء في مجلسك ولم تغيّر؟! فقال رجاء: ما كان ذلك يا أمير المؤمنين؛ فقال له الوليد: قل آلله الذي لا إله إلا هو. قال رجاء: آلله الذي لا إله إلا هو؛ فأمر الوليد بالجاسوس فضربه سبعين سوطاً، فكان ذلك الجاسوس إذا لقي الشيخ رجاء قال له: يا رجاء، بك يُستسقى المطر وسبعون سوطاً في ظهري!

فيقول رجاء: سبعون سوطاً في ظهرك خير لك من أن يُقتل رجل مسلم. ولكن ما هو حد الإكراه؟ ورد عن عمر قوله: ليس الرجل آمن على نفسه إذا أخفته أو أوثقته أو ضربته. . وذهب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم إلى أن من أكره على يمين بوعيد أو سجن أو ضرب أن يحلف ولا حنث عليه.

قال أهل السير: واستمرت النقمة من المشركين على المستضعفين، فهذا «أبو فكيهة» ـ واسمه أفلح، أو يسار ـ كان عبداً لصفوان بن أمية بن خلف الجمحي أسلم مع بلال. كان أمية يأخذه ويضع الحبل في رجليه ويجرُّه على الرمضاء، ومرَّ به مرة وهو يُعذَّب جُعْلٌ[1]، فقال له أمية: أليس هذا ربك؟ فقال أبو فكيهة: الله ربي وربك ورب هذا، فخنقه خنقاً شديداً، وكان مع أمية أخوه «أبيٌّ»، فكان يقول لأمية: زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره. وما زالوا يعذبونه كذلك حتى أغمي عليه، فظنوه مات، ثم أفاق فاشتراه أبو بكر الصديق وأعتقه.

وهذا «خبّاب» كان المشركون يجذبونه من شعره، ويلوون عنقه لوياً شديداً. وكان بعض المشركين يلفون من أسلم في جلد البقر أو الإبل ثم يلقونهم في حر الرمضاء، وربما ألبسوا البعض دروعاً حديدية.

قال المؤرخون: وصُبَّ العذاب حتى على الجواري اللواتي أسلمن، فكانت منهن:

---

(١) دويبة معروفة جمعه جُعلان.

«زِنّيزة»، و«النهدية» وابنتها، و«أم عميس»، و«لبيبة»، وغيرهن، فقد عُذِّبنَ من قِبَلِ مواليهن ولم يرجِعْنَ عن دينهن. رضي الله عنهن وأرضاهن. والنهدية وابنتها أعتقهما الصديق، وكانتا لامرأة من بني عبد الدار وقد بعثتهما بطحين لها وهي تقول: والله لا أعتِقُكُما أبدا، وكان الصديق أبو بكر ماراً في تلك اللحظة وسمع كلامها، فقال الصديق لها: حِلّي[1] يا أم فلان. فقالت: حِلّ، أنت أفسدتهما، فأعتِقهما.

قال الصديق: بكم هما؟ قالت: بكذا وكذا. قال الصديق: قد أخذتهما وهما حرّتان. ثم قال الصديق: ردا إليها طحينها. قالتا: أو نفرغ منه يا أبا بكر ثم نرده إليها؟ فقال الصديق: ذلك لكما إن شئتما.

قال المؤرخون: وكثُرَ عَتْقُ الصديق للضعفاء المُعَذَّبين، فلما رأى والده كثرة عَتقِهِ للضعفاء قال له: يا بني: أراك تَعتِقُ رقاباً ضِعافاً فلو أنك أعتقت رجالاً أشداء يمنعونك؟!!، فقال الصديق: يا أبتِ: (إنما أريد ما أريد لله عز وجل. وفي رواية أخرى قال الصديق: (مَنْعَ ظهري أريد). وفيه أنزل الله عز وجل قوله: ﴿وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰ ١ وَٱلنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ ٢ وَمَا خَلَقَ ٱلذَّكَرَ وَٱلۡأُنثَىٰٓ ٣ إِنَّ سَعۡيَكُمۡ لَشَتَّىٰ ٤﴾[2].

قال العلماء: وفي السورة التي قبل هذه السورة ـ سورة الشمس ـ بين الله عز وجل حال من زكَّى نفسه، وحالَ من دسّاها. قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا ۞ وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا﴾[3]. أي أغواها وأفسدها، وأهلكها بخبائث الاعتقاد، وقبائح الأعمال والنيات.

قال العلماء: بين الله في هذه السورة أن الناس مختلفون في السعي، فمنهم ساعٍ في فكاك نفسه، ومنهم ساعٍ في عَطبِها. ثم فصّل هذا السعي فقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ ١٠ وَمَا يُغۡنِي عَنۡهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ١١﴾[4].

(١) أي اجعلي هاتين حلالاً لي.

(٢) الليل: ١ ـ ٤.

(٣) الشمس: ٩ـ١٠.

(٤) الليل: ٥ ـ ١١.

قال العلماء: وسمّى طريقة الخير باليسرى لأن عاقبتها اليُسرُ، وسمّى طريقة الشر بالعسرى لأن عاقبتها العُسرُ. وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ﴾ أي سقطَ في جهنم، أو في القبر، أو تردى من ارْتَدى إذا لبس أكفانه.

ومنه قول مالك بن الريب:

وخُطّا بأطرافِ الأسنَّةِ مَضجَعِي ... ورُدّا على عينَيَّ فَضلَ رِدائِيا

وكقول السّمين في «الدر المصون»[1]:

نصيبُك مما تجمعُ الدَّهرَ كلَّه ... رداءاتُ تُلوى فيهما وحنوطُ

هنا قد يقول مُتَعَنِّت جاهل بعظمة الله عز وجل التي لا اعتراض لأحد عليها: لماذا لا يُيَسِّرُ الكلَّ للحُسنى؟ وجاء الجواب: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ﴾. لقد ألزم الله نفسه تفضلاً منه وكرماً ولطفاً أن يبين للعباد طريق الحق، وأن يُقيم الأدلة الواضحة على ذلك، وأن لا يصادم اختيارَك بما له عز وجل من جبروت وسلطان.

وقوله: ﴿وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾﴾ مُلكاً وخَلقاً، أي ثواب الدارين للمهتدي، فمن طلبهما من غير مالكهما فقد أخطأ الطريق. وقد جمع الله لإبراهيم عليه السلام ثواب الدارين بقوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[2]. والآخرة هنا الجنة.

وقوله تعالى: ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ ﴿٢١﴾﴾[3].

وقوله: الأشقى، والأتقى: المراد الشقي والتقي كقول طرفة:

تمنى رجالٌ أن أموتَ فإن أمُت ... فتلكَ سبيلٌ لستُ فيها بأوحَدِ

---

(١) اسم كتاب.

(٢) العنكبوت: ٢٧.

(٣) الليل: ١٤ ـ ٢١.

أي بواحدِ. ومثل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾(١)، أي هين.

قال الزمخشري: الآيات واردة في الموازنة بين عظيم من المشركين، وعظيم من المؤمنين.

وقال ابن كثير: حكى البعض الإجماع على أن هذه الآيات نزلت في الصديق رضي الله عنه، والآية تدل على العموم. والصديق أولى الأمة بعمومها؛ فهو مقدم هذه الأمة، وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صِدّيقاً تقياً جواداً بَذّالاً لأمواله في طاعة الله ونصرة رسول الله ﷺ، ولم يكن لأحد من الناس عنده مِنَّة، أو يدٌ يحتاج إلى أن يكافئه عليها، بل كان فضل الصديق وإحسانه على السادات ورؤساء القبائل معروفاً، ألا ترى يوم صلح الحديبية حين أغلظ الصديق القول لعروة بن مسعود ـ وهو سيد ثقيف ـ فقال عروة عندها للصديق: أما والله لولا يُد لك عليّ لم أجِزكَ بها لأجبتك، فإذا كان هذا مع سادات العرب فكيف بمن عداهم؟!!. وبذل الصديق لم يكن ابتغاء رياء، ولا سُمعة، وإنما يطلب بهذا العمل (الزكاء)، أي: أن يكون عند الله زاكياً من الشُّح، ودَنَسِ الإمساكِ، ومن آثار الذنوب.

قال صاحب التفسير الكبير: والتزكي هنا أعم من الإنفاق، فأول التزكي، التزكي من الشرك، ومنه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴾(٢)

فالتزكية تنقية ونماء، والتطهير إنما تنفع المُطَهَّرَ لا المُطَهِّر. وذلك كرجل ميسور الحال عنده من كل نوع من أنواع المال، وأراد أن يشجع أولاده على العلم فقال لهم: من نجح منكم في كذا وكذا فسأفعل له كذا وكذا، فهو لا يريد منهم لنفسه وإنما يريد مصلحتهم والتزكي الثاني من الكبائر وبه يكون تمام التقوى لذلك قال تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴾(٣). ومن التزكي، تزكي بالطهارة والصدقة والإحسان.

قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ

(١) الروم: ٢٧.

(٢) آل عمران: ١٦٤.

(٣) النجم: ٣٢.

عَلِيمٌ ﴾(١).

قال صاحب التحرير والتنوير: اتفق المفسرون على أن المقصود الأول بهذه الآيات الصديق؛ فإنه لما أعتق بلالاً قال المشركون: ما فعل ذلك أبو بكر إلا ليد لبلال عنده، فأنزل الله تكذيبهم بقوله: ﴿وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ ٢٠﴾(٢).

قال البروسوي: وفُهِم من الآية أن: أعلى الإعطاء فضيلةً هو ما يكون لرضى الله، وأوسطه فضيلة ما كان لغرض أخروي، وأدناه ما يكون لغرض دنيوي مباح. وأما ما يكون للرياء والسمعة وغير ذلك مما ليس بمباح فهو أخسُّ وأقبح. وقوله تعالى ﴿وَلَسَوۡفَ يَرۡضَىٰ ٢١﴾.

قال البروسوي: ولم ينزل هذا الوعد إلا لرسول الله ﷺ في قوله عز وجل: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾(٣). وللصديق في هذه السورة.

قال المفسرون: وهذه الآية وعد كريم بنيل جميع ما يبتغيه على أكمل الوجوه وأجملها إذ به يتحقق الرضا. وقال بعضهم: أي يرضى الله عنه، ويرضى هو بما يعطيه الله في الآخرة من الجنة والكرامة والزلفى جزاء على ما فعل. وقالوا: والتعبير (بسوف)، لإفادة أن الرضا يحتاج إلى بذل كثير، ولا يكفي القليل من المال حتى يبلغ العبد درجة الرضا الإلهي عنه؛ لأن رضا الله عن عبده أكمل للعبد من رضاه عن ربه.

قال الرازي: وبالجملة لا بد من حصول الأمر كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾(٤)، أي راضية بالثواب، مرضية عندك في الأعمال التي عملتها في الدنيا. ويدلُّ على صحة هذا التفسير ما رُوِيَ أن رجلاً قرأ عندَ النبيِّ ﷺ قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفۡسُ ٱلۡمُطۡمَئِنَّةُ ٢٧ ٱرۡجِعِيٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةٗ مَّرۡضِيَّةٗ ٢٨﴾. فقال أبو بكر: ما أحسن هذا؟!، فقال ﷺ: «**أما إنّ المَلَك سيقولها لك**».

ثم انتبه يا عبد الله إلى هذه اللطيفة في السورة أن جاء عَقيبها سورة (والضحى) التي هي

---

(١) التوبة: ١٠٣.

(٢) الليل: ١٩ ـ ٢٠.

(٣) الضحى: ٥.

(٤) الفجر: ٢٧ ـ ٢٨.

في النبيّ ﷺ وفيها: ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ . . . وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ ۝٥﴾ ، وهذه إشارة إلى أنه ـ الصديق ـ أقرب أمته ﷺ إلى مقامه؛ لأن الصديق هو الأتقى بعد النبيين مطلقاً، وإلى أن خلافة الصديق حقٌّ لا مِريَةَ فيه؛ لأنه ﷺ لم يرض غيرَ الصديق، وذلك حين سمع قراءة غيره في الصلاة قال: «**يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر**».

الفصل الثالث والخمسون
تواصل العذاب والإشارة إلىٰ الهجرة

قال علماء السيرة: وتواصل العذاب على المستضعفين، فقد كان عمر بن الخطاب ـ قبل إسلامه ـ يعذِّب أمةً لبني عبد الدار حتى يملَّ فيترُكَها ويقول: إني لم أتركك إلا ملالة. وكان يزيد الأمر بلاء تلك الحرب النفسية القائمة على السخرية والاستهزاء بالمسلمين ، فقد كان «الأسود بن عبد يغوث الزهري» يقول للنبي ﷺ: أما كُلِّمتَ من السّماء؟ ويقول عن فقراء المسلمين إذا رآهم: جاءكم ملوك الأرض، وفيه وفي أمثاله أنزل الله عز وجل قـوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ كَانُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَضْحَكُونَ ﴿٢٩﴾ وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (١).

قال العلماء: كانت دعوة الحق خافتة في مكة حيث كان المجرمون الذين شَرِيَت نفوسهم في الشر، وصَمَّت آذانهم عن دعوة الحق، هؤلاء كانوا يضحكون من الذين آمنوا، وكان صوت الدعوة لا يرتفع بها إلا صوته ﷺ، ثم يهمس بها بعض من يليه، ويستجيب للدعوة بعض الضعفاء والذين لم تطمس أهواؤهم سبيل الحق فيُسِرُّ بها إلى من يرجوه، ولا يستطيع الجهر بهذه الدعوة لمن يخافه.

قال العلماء: ومن شأن القوي المُستغِرِّ بالقدرة والكثرة أن يضحك ممن يخالفه في المنزع، ويدعوه إلى غير ما يعرفه وهو أضعف منه قوة، كذلك كان شأن كبار قريش من المجرمين، وكذلك يكون شأن أمثالهم في كل زمان متى عمّت البِدَع والشِّيَعُ، وخفِيَ طريق الحق بين طُرُقِ الباطلِ، وجُهِلَ معنى الدين، وأزهِقَت روحه، ولم يبق منه إلا ظواهِرُ لا تُطابِقُها البواطن، وحركاتُ أركان لا تُشايِعُها السرائر، وتحكَّمَت الشهوات فلم تُبقِ في الناس رغبة تدفع بالناس إلى العمل، إلا ما تعلّق بالطعام والشراب، والزينة والرِّياش، والمناصِبِ والألقابِ، وتعلّقت الهمم بالمجد الكاذب، وأحبّ كل واحد أن يُحمَد بما لم يفعَل، وذهبَ الناقِصُ يستكمل ما نقص منه بتنقيصِ الكامل إذا صار الناس إلى هذا الحال، ضعف صوت الحق، وازدرى السامعون منهم بالداعي إليه، وانطبق عليهم نص الآية الكريمة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا۟ بِهِمْ يَتَغَامَزُونَ﴾، وكان أبو جهل يقـول: يا معشر قريش: إن محمداً يخوفكم شجرة الزّقوم فلا تخافوا، إنه ثريد الزبد بالتمر وفيه

---

(١) المطففين: ٢٩ ـ ٣٠.

نزل قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَجَرَتَ ٱلزَّقُّومِ ﴿٤٣﴾ طَعَامُ ٱلْأَثِيمِ ﴿٤٤﴾ كَٱلْمُهْلِ يَغْلِى فِى ٱلْبُطُونِ ﴿٤٥﴾ كَغَلْىِ ٱلْحَمِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ [1].

قال ابن سلام ـ رضي الله عنه ـ: إنها شجرة تحيى باللهب، كما تحيى شجرة الدنيا بالمطر، وثمرها مر له زفرة.

وهكذا كان البلاء والاضطهاد شديداً حتى ورد عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: أكان المشركون يبلغون من أصحاب النبي ﷺ من العذاب ما يُعذَرون به في ترك دينهم؟ فقال ابن عباس: نعم. إن كانوا ليضربون أحدهم، ويجيعونه، ويعطّشونه حتى ما يقدِرُ أن يستوي قائماً من شدة الضُّرِّ الذي نزل به حتى يعطيهم ما سألوه من الفتنة حتى يقولوا له: اللات والعزى إلهك؟ فيقول نعم، حتى إن الجُعَلَ ليَمرُّ بهم فيقولون له: هذا الجعلُ إلهك من دون الله؟ فيقول: نعم؛ ليخلص منهم مما يَصبُّون عليه من العذاب.

والآن ما هي نتائج هذه المقطوعة من السيرة النبوية؟

قال العلماء: تقرر هذه المقطوعة من السيرة وتؤكد قاعدة قررها القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾﴾ [2]. قال مجاهد: نزلت هذه الآية مُسلِّيَةً للمُعذَّبين بمكة إذ كانت صدورهم تضيق بالعذاب، وربما استنكر بعضهم أن يُمكّن الكفار منهم.

قال ابن عطية في تفسيره: هذه الآية وإن كانت نزلت بهذا السبب في هذه الجماعة ـ المستضعفين من المسلمين ـ فهي في معناها باقية في أمة محمد ﷺ موجود حكمها بقية الدهر.

والاختبار بالابتلاء سنَّة إلهية قديمة. . ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾﴾ [3]. هذه السنَّة مبنية على الحِكَمِ والمصالح، وهي جارية في الأمم كلها فلا ينبغي أن يُتوقع خلافها.

---

(١) الدخان: ٤٣ ـ ٤٦.

(٢) العنكبوت: ١ ـ ٢.

(٣) العنكبوت: ٣.

قال ابن عطاء: يتبين صدق العبد من كذبه في أوقات الرخاء والبلاء، فمن شكر في أيام الرخاء، وصبر في أيام البلاء، فهو من الصادقين، ومن بطر في أيام الرخاء، وجَزِعَ في أيام البلاء فهو من الكاذبين.

قال العلماء: والناس في البلاء على ضروب: منهم من يصبر في حال البلاء، ويشكر في حال الرخاء وهذه صفة الصادقين. ومنهم من يضجر ولا يصبر في البلاء، ولا يشكر في النعماء فهو من الكاذبين. ومنهم من يؤثر في حال الرخاء، ولا يَستَمتِعُ بالعطاء، ويستروح إلى البلاء، فيستعذب مقاساة الضر والعناء، وهذا أحد الكبراء.

بعد اشتداد البلاء، وتمادي المشركين في الإيذاء، أراد الله أن يجعل لهؤلاء المستضعفين فرجاً ومخرجاً، فأومأ القرآن الكريم إلى الهجرة. . وفي ذلك قال تعالى كما ذكر ذلك المباركفوري في «الرحيق المختوم» حيث قال: ثم أنزل الله عز وجل سورة الزمر تعلن أن أرض الله واسعة، وليست بضيقة، وتشير بالهجرة. وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ (١).

قال ابن عاشور في تفسيره: إن الله وعدهم أن يلاقوا حسنة إذ هم هاجروا من ديار الشرك، ثم قال: والمراد هنا الإيماءة إلى أرض الحبشة.

قال ابن عباس في الآية: المراد بها جعفر بن أبي طالب والذين خرجوا معه إلى الحبشة.

قال البروسوي في روح البيان في قوله تعالى: ﴿وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ﴾: فيه حثٌّ على المهاجرة إلى الأماكن التي يتمكن فيها المؤمن من إقامة التقوى والإحسان، كما هو سُنَّةُ الأنبياء والصالحين. والإحسان يكون مع الله بالطاعات والبعد عن المخالفات. والإحسان إلى عباد الله يكون ببذل الندى، وكف الأذى، وبشاشة الوجه.

فعلى المسلم أن يغتنم فرصة الأعمار، والهجرة فيما اتسع من الأقطار ليكسب رضوان العزيز الغفار؛ لأن الدنيا مزرعة الآخرة، فينبغي أن يُلقيَ في حرثها بذر المثوبات.

وقديماً قالوا:

---

(١) الزمر: ١٠.

إذا كان أصلي من تراب فكلُّها بـــــلادي وكل العالمين أقاربي

وقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي الصابرون على مشاق الطاعة من احتمال البلاء، ومهاجرة الأوطان لهم. و﴿أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ أي بغير مكيال، وهو تمثيل للكثرة. قال ابن عباس في معناها: أي لا يهتدي حُسَّاب الحساب، ولا يُعرف.

قال قتادة: لا والله ما هناك مكيال ولا ميزان. حدثني أنس أن رسول الله ﷺ قال: «﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ **تُنصب الموازين فيؤتى بأهل الصدقة فيوفون أجورهم بالموازين، وكذلك الصلاة والحج، ويؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، ويُصبُّ عليهم الأجر بغير حساب. . .** قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. **حتى يتمنى أهل العافية في الدنيا أن أجسادهم تُقرض بالمقاريض مما يذهب به أهل البلاء من الفضل**».

ذكره السيوطي في الدر المنثور، وذكر البقاعي في «نظم الدرر» قال: روى البزار وابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة قال: جاءت امرأة إلى رسول الله ﷺ بها لمم(١)، فقالت: يا رسول الله، ادع الله لي، قال ﷺ: «**إن شئت دعوت الله فشفاك، وإن شئت صبرت ولا حساب عليك**» قالت: بل أصبر ولا حساب عليّ. والحديث صحيح. وروى القرطبي، وصاحب الدر المنثور، وفي المعجم الكبير، وفي مجمع الزوائد عن «الأصبغ بن نباتة» قال: دخلت مع علي بن أبي طالب إلى الحسن بن علي نعوده من مرض، فقال لـه علي: كيف أصبحت يا بن رسول الله؟ قال الحسن: أصبحت بنعمة الله بارئاً، وفي رواية بحمد الله بارئاً. قال علي: كذلك إن شاء الله. ثم قال الحسن: أسندوني، فأسنده عليّ إلى صدره ثم قال الحسن: سمعت جدي رسول الله ﷺ يقول: «**يا بنيَّ: أدّ الفرائض تكن أعبد الناس، وعليك بالقنوع تكن أغنى الناس، يا بني إن في الجنة شجرة يقال لها شجرة البلوى، يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان، ولا ينشر لهم ديوان، يصب عليهم الأجر صباً**»، ثم تلا رسول الله ﷺ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾.

قال ابن اسحق: لما رأى رسول الله ﷺ ما يُصيب أصحابه من البلاء، وهو لا يستطيع أن يحميهم، ورأى أن عمه يحميه وحده، ولا يقدر على حماية الآخرين قال لهم رسول الله ﷺ: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة؛ فإن بها ملكاً لا يُظلمُ عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنت.**

(١) طرف من الجنون.

الفصل الرابع والخمسون
الخروج إلى الحبشة
ووفد قريش لمحاولة إعادتهم

قال المؤرخون: فخرج معظم المسلمين مخافة الفتنة في الدين، وفراراً إلى الله تعالى، فكانت أول هجرة في الإسلام، وكان ذلك في شهر رجب سنة خمس من البعثة النبوية، وفي السنة الثانية من البدء بالجهر بالدعوة.

خرج ثلاثة وثمانون رجلاً، وتسع عشرة امرأة سوى أبنائهم الذين خرجوا بهم صغاراً. ولم يخرجوا دفعة واحدة وإنما كان خروجهم تسللاً على دفعات. ففي رجب سنة خمس من البعثة هاجر أول فوج، وهو مؤلف من اثني عشر رجلاً وأربع نسوة، وكان على رأسهم «عثمان بن عفان» رضي الله عنه، ومعه زوجه السيدة «رقية بنت النبي ﷺ»، وقد قال ﷺ في عثمان وزوجه: «**إنهما أول مهاجِرَيْن في سبيل الله بعد إبراهيم ولوط**»(١)، وكانا أجمل زوجين. .

ولذلك كان النسوة يغنين ليلة عُرسهما:

احسنُ شخصينِ رأى إنسان   رقيةُ وزوجُهـــا عُثمان

وكان هؤلاء يرحلون سراً في ظلمة الليل، خرجوا إلى ميناء الشُّعيبة، وهيأت لهم الأقدار سفينتين تجاريتين أبحرتا بهم إلى الحبشة، وفطنت قريش فخرجت في آثارهم، وما كادوا يصلون حتى كان هؤلاء المؤمنون قد انطلقوا آمنين.

قال ابن السكيت: والشُّعَيْبَةُ قرية على شاطئ البحر عن طريق اليمن، على ساحل بحر الحجاز، وكانت مرفأً لمكة قبل جدة.

قال كُثير عزّة:

سأتْكَ وقد أجَدَّ بها البُكورُ   غداةَ البينِ من أسماءَ عيرُ
كأنَّ حمولها بمَلا تَريم   سفينٌ بالشُّعيبَة ما تسيرُ

---

(١) زاد المعاد ١/ ٢٤.

قال المؤرخون: وقد استأذن الصديق رسول الله ﷺ بالخروج إلى الحبشة، فأذن له رسول الله ﷺ فخرج الصديق قاصداً بلاد الحبشة، فلقيه ابن الدُّغُنَّة فرده إلى مكة، وجعله في جواره، فقد روى ابن اسحق والبخاري عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت: حين ضاقت على أبي بكر مكة، وأصابه فيها الأذى، ورأى تظاهر قريش على رسول الله ﷺ وأصحابه استأذن رسول الله ﷺ في الهجرة إلى الحبشة فأذن له، فخرج حتى إذا سار من مكة يوماً أو يومين لقيه ابن الدغنة سيد الأحابيش(١) فقال لأبي بكر: إلى أين تذهب يا أبا بكر؟ فقال الصديق: أخرجني قومي وآذوني، وضيّقوا عليّ. قال ابن الدغنة: ولم؟ فوالله إنك لتُزيِّن العشيرة وتعمل المعروف. ارجع فإنك في جواري، فرجع الصديق معه، فلما دخلا مكة معاً، قال ابن الدغنة: يا معشر قريش إني قد أجرت ابن أبي قحافة فكفوا عنه فلا يعرض له أحد إلا بخير.

قال المؤرخون: فكفوا عنه، وأقام أبو بكر في منزله وكان له مسجد عند باب داره في بني جُمح، فكان يصلي فيه، وكان الصديق رجلاً رقيقاً إذا قرأ القرآن استبكى، فيقف عليه الصبيان، والعبيد والإماء والنساء لما يرون من هيئته، عندها مشى رجال من قريش إلى ابن الدغنة فقالوا له: يا ابن الدغنة: إنك لم تُجِر هذا الرجل ليؤذينا!!

إنه رجل إذا صلى وقرأ ما جاء به محمد يرق ويبكي، وله هيئة، ونحن نتخوف على صبياننا وضعفائنا ونسائنا أن يفتنهم، فمره أن يدخل بيته فليصنع ما يشاء، قالت عائشة: فمشى ابن الدغنة إلى الصديق فقال له: يا أبا بكر: إني لم أجرك لتؤذي قومك، وقد كرهوا مكانك الذي أنت فيه، وتأذوا بذلك منك، فادخل بيتك فاصنع به ما أحببت. قال أبو بكر: أو أردُّ عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى؟ قال: فاردد عليّ جواري. قال الصديق: قد رددته عليك، فقام ابن الدغنة فقال: يا معشر قريش، إن ابن أبي قحافة قد رَدَّ عليّ جواري فشأنكم بصاحبكم، ثم مشى الصديق قاصداً الكعبة، فمر به سفيه من سفهاء قريش فحثا على رأس أبي بكر التراب، ووافق حينها مرور الوليد بن المغيرة، أو العاص بن وائل، فقال له الصديق: ألا ترى ما يصنع هذا السفيه؟ فقال الوليد بن المغيرة: أنت فعلت ذلك بنفسك، ثم مضى أبو بكر وهو يقول: أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك، أي رب ما أحلمك.

---

(١) الأحابيش ثلاثة قبائل: بنوالحارث بن كنانة، والهون بن خزيمة، وبنو المصطلق من خزاعة أنشؤوا حلفاً بينهم في واد يقال له الأحبش ببطن مكة فسموا بالأحابيش.

قال ابن عاشور في تفسيره: عذر الله بعض المؤمنين فيما لقوه من الأذى فأذن لهم بالهجرة، وكانت حكمته عز وجل مقتضية بقاء رسول الله ﷺ بين ظهراني المشركين لبث الدعوة، ولم يؤذن له ﷺ بالهجرة إلى موطن آخر، حتى إذا تم مراد الله تعالى من تقوية نواة الدين في تلك الأرض التي نشأ فيها رسول الله ﷺ وأصبح انتقال رسول الله ﷺ إلى بلد آخر أسعد بانتشار الإسلام في الأرض، أذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة بعد أن هيأ بلطفه دخول أهلها في الإسلام، وكل ذلك جرى بقدر وحكمة ولطف برسول الله ﷺ.

قال صاحب كتاب خاتم النبيين[١]: سافر أولئك المهاجرون إلى أرض الحبشة خوفاً على دينهم، وفراراً من الاستهزاء والسخرية والاضطهاد، فوجدوا حاكماً طيباً أكرم مثواهم، وتركهم في أرضه. ولقد تأثر أبو طالب لفراق ولده جعفر، ولِمَا نَزَل بالمسلمين من أبناء مكة حتى اضطروا للهجرة، فأرسل إلى النجاشي يوصيه بهم.

ومن شعر أبي طالب الذي أرسله إلى النجاشي بعد أن علمَ أن قريشاً أرسلت وفداً إلى الحبشة لكي يطالب النجاشي بإعادتهم إلى ديارهم مكة.

كتب أبو طالب للنجاشي يقول:

ألا ليتَ شِعري كيف في النأي جعفرٌ ... وعَمرو، وأعداءُ العدو الأقاربُ
وهل نالت أفعال النجاشي جعفراً ... وأصحابَه أو عاقَ ذلك شاغِبُ
وتعلَمْ -أَبَيْتَ اللعن- أنَّكَ ماجدٌ ... كريمٌ فلا يشقى لَدَيكَ المُجانِبُ
وتَعلَمْ بأنَّ الله زادك بسطةً ... وأسبابَ خيرٍ كلُّها بكَ لازِبُ
وأنكَ فيضٌ ذو سِجالٍ عزيزةٍ ... ينالُ الأعادي نفعَها والأقاربُ

قال ابن إسحاق: لما نزلوا في ارض الحبشة، وبجوار النجاشي، حمدوا جواره، وعبدوا الله لا يخافون في ذلك أحداً.

وفي ذلك يقول عبد الله بن الحارث بن قيس:

---

(١) محمد أبو زهرة.

يـــا راكِبـــاً بلّغَـــنْ عنّـــي مغلغلـــةً ... مـــن كـــانَ يرجـــو بـــلاغَ الله والـــدينِ

كـــل امـــرئ مـــن عبـــادِ الله مـــضطهدٌ ... بـــبطنِ مكـــةَ مقهـــورٌ وَمَفتـــونْ

أنـــا وجـــدنا بـــلادَ الله واسِـــعَةً ... تُنجـــي مـــن الـــذلِّ والمخـــزاةِ والهـــونِ

فـــلا تَقيمـــوا على ذلِّ الحيـــاةِ ... وخـــزي في المماتِ وعيب غيرِ مـأمـونِ

إنـــا تبعنـــا رســـول الله واطّرَحـــوا ... قـــولَ النبـــي وعـــالوا في المـــوازينِ

فاجعـــل عَـــذابَكَ في القـــومِ الـــذين بَغـــوا ... وعائـــذٌ بـــكَ أن يعلـــوا فيُطغـــوني

وقد روى البيهقي أن النبي ﷺ أرسل كتاباً إلى النجاشي يدعوه فيه إلى الإسلام، ويطلبُ منه البرَّ بهؤلاء المهاجرين، وهذا نص الكتاب كما جاء في رواية البيهقي: «**بسم الله الرحمن الرحيم، من محمد رسول الله إلى النجاشي الأصحم، ملك الحبشة: سلام عليك، فإني أحمد إليك الله الملك القدوس المؤمن المهيمن، وأشهد أن عيسى روح الله، وكلمته ألقاها إلى مريم الطاهرة الطيبة البتول الحصينة، فحملت بعيسى، فخلقه الله من روحه ونفخته، كما خلق آدم بيده ونفخه، وإني أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعني، فتؤمن بي، وبالذي جاءني فإني رسول الله، وقد بعثت إليك ابن عمي جعفراً ومعه نفر من المسلمين، فإذا جاؤوك فأقْرِهم، ودَعْ التّجبر، وإني أدعوك وجنودك إلى الله عز وجل، وقد بلّغتُ ونَصَحتُ فاقبلوا نصيحتي. والسلام على من اتبع الهدى**».

وقد حلل العلماء هذه الرسالة، فقال الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه «خاتم النبيين»: نلاحظ في هذا الكتاب متابعة من النبي ﷺ لأمرين:

أولهما: أنه ﷺ يتابع دعوته، فهو يدعو حيث يجد الوقت المناسب، والرجل المناسب، وقد أدرك ﷺ أن قلب النجاشي مفتوح؛ لأنه ﷺ سمع عن العدل عنده، ولا يعدل إلا صاحب قلب كبير.

من هنا ندرك كيف كانت استجابة النجاشي لدعوته ﷺ سريعةً، فأسلم وكتب إلى النبي ﷺ يقول: (بسم الله الرحمن الرحيم: إلى محمد رسول الله من النجاشي الأصحم بن أبجر: سلام عليك يا نبي الله من الله، ورحمة الله وبركاته، لا إله إلا الله هو الذي هداني للإسلام. فقد بلغني كتابك يا رسول الله فيما ذكرت فيه من أمر عيسى، فورب السماء والأرض إن عيسى عليه السلام ما يزيد

على ما ذكرت، وقد عرفنا ما بعثت به إلينا، وقرّبنا ابن عمك وأصحابه، فأشهدُ أنك رسول الله صادقاً ومصدَّقاً، وقد بايعتك، وبايعتُ ابن عمك، وأسلمتُ على يديه لله رب العالمين، وأرسلتُ إليك بأَرْهَاْ ابن الأصحم بن أبجر، فإني لا أملك إلا نفسي، وإن شئت أن آتيك فعلت يا رسول الله فإني أشهد أن ما تقول حق).

قال المؤرخون: نرى من النص أن النجاشي أرسل ابنه في وفد من الحبشة للالتقاء بالنبي ﷺ، وبيان الخضوع لطاعة الله ورسوله.

والأمر الثاني: متابعته ﷺ العطف على الذين هاجروا، وتلمس ذلك من دعوة النبي ﷺ للنجاشي إلى الإحسان إليهم في إقامتهم، ولا يرهقهم بتجبر ذوي السلطان. كل ذلك يدل على فرط محبته ﷺ للذين هاجروا.

ولعظيم وفائه ﷺ للنجاشي ولغيره ـ فهو ﷺ أوفى الأوفياء ـ فإنه لما جاء وفد النجاشي، قام رسول الله ﷺ على خدمتهم بنفسه فقد روى البيهقي عن أبي أمامة قال: قدم وفد النجاشي على رسول الله ﷺ فقام ﷺ يخدمهم بنفسه، فقال أصحابه: نحن نكفيك يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**إنهم كانوا لأصحابي مكرمين، وإني أحب أن أكافئهم**».

هكذا كانت متابعة النبي لأصحابه المهاجرين، وهي متابعة الحاني الرحيم الذي يريد الاطمئنان عليهم، ثم ما زال بملكهم حتى كرّم المهاجرين تكريم الأخوة، لا تكريم العادل فقط. وهكذا كانت متابعة الأولياء.

قال أصحاب السيرة: ثم كانت متابعة للمهاجرين من نوع آخر، وهي متابعة الأعداء، حيث كانت على النقيض من متابعة الأحبة، فالمشركون لم يكتفوا بإخراج المسلمين من ديارهم وأموالهم، ولكن أرادوا أن يفسدوا عليهم دار هجرتهم ليطردوهم منها، ولكي لا ينشروا دعوة الله هناك، فأرسلوا من يفسد النجاشي عليهم.

قال ابن إسحاق: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد استقروا واطمأنوا في أرض الحبشة، ائتمروا بينهم أن يبعثوا منهم رجلين جلدين من قريش إلى النجاشي فيردهم عليهم فأرسلوا: عمرو بن العاص، وعبد الله بن ابي ربيعة. وأرسلوا معهما هدايا يدفعونها للنجاشي ليُغروه بها.

وقد رُويَ عن أم سلمه أنها قالت: لما نزلنا أرض الحبشة، جاورنا بها خير جار ـ النجاشي ـ أمِنَّا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نُؤذى، ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا بينهم أن يبعثوا إلى النجاشي برجلين منهم وأن يهدوا النجاشي هدايا مما يستطرف من متاع مكة، فجمعوا أدماً كثيراً، ولم يتركوا بطريقاً إلى أهدوا إليه هدية، وبعثوا في ذلك: عمرو بن العاص، وعبد الله بن أبي ربيعة. وقالوا لهما: ادفعا إلى كل بطريق هدية قبل أن تكلما النجاشي فيهم، ثم قدِّما إلى النجاشي هداياه، ثم سلاه أن يُسْلِمَهم إليكما قبل أن يكلمهم. . . . خرج الوفد حتى قدما على النجاشي، ونحن بخير دار عند خير جار. قام الرسولان القرشيان بتنفيذ ما أوصاهما به المشركون من قريش، فقدّموا لكل بطريق هديته، وذكروا لهم عند الإعطاء: أن غلماناً سفهاء من قومنا فارقوا دينهم، ولم يدخلوا في دينكم، وجاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك بأشراف من قومنا ليردوهم، فإذا تكلم الملك فأشيروا عليه بذلك، وأشيروا عليه بألا يكلمهم؛ فإن قومهم أعلى بهم عيناً[1].

قال محمد أبو زهرة في كتابه «خاتم النبيين»: مهدوا للقاء الملك بهذا التمهيد القائم على الرشوة للبطارقة، ثم التقوا بالنجاشي، وقدّموا له هداياهم قبل أن يتكلموا، ثم تكلموا ـ والمهاجرون من المسلمين غائبون ـ فقالوا: أيها الملك: إنه قد ضوى[2] إلى بلدك منا سفهاء، قد فارقوا دين قومهم، ولم يدخلوا في دينكم، وقد بعثنا فيهم أشراف قومهم من آبائهم وقراباتهم لتردّهم إلينا فهم أعلى بهم عيناً، وأعلم بما عابوا عليهم، وعاتبوهم فيه. عندئذٍ تكلم البطارقة وحركت الهدايا لهواتهم ـ كما قال أبو زهرة ـ فقالوا: صدقاً أيها الملك إن قومَهم أبصرُ بهم، فأسلِمْهُم إليهما ليردوهم إلى بلادهم.

شَعَرَ النجاشي أن في الأمر سراً، فكان ردُّه حاسماً فقال: لا أسلمهم إليهم، ولا أكيد قوماً نزلوا في جواري حتى أسألهم عما يقول هذان في أمرهم، فإذا كان ما قيل عنهم حقاً أسلمتْهُم، وإن كانوا على غير ذلك حميتهم وأحسنت جوارهم. ثم أرسل النجاشي إلى أصحاب رسول الله ﷺ وجعلهم في مواجهة وفد قريش ومع الأساقفة ثم قال لهم النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم به قومكم، ولم تدخلوا في ديني ـ وكان لا يزال نصرانياً ـ ولا في دين أحد من الملل؟ فرد

---

(١) أي: أبصر بهم وأعرف.

(٢) أي: لجأ.

عليه جعفر بن أبي طالب قائلاً: أيها الملك كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله فينا رسولاً نعرف نسبه، وصدقه، وأمانته، وعفافه، فدعانا إلى الله لنوحده، ونعبده، وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الرحم، وحُسن الجوار. . فصدقناه، وآمنا به، وحرَّمنا ما حرَّم علينا، وأحللنا ما أحلَّ لنا. . فعدا علينا قومنا، وعذبونا، وفتنونا ليردونا إلى عبادة الأوثان. . وحالوا بيننا وبين ديننا، فخرجنا إلى بلادك، واخترناك على سواك، ورغبنا في جوارك، ورجونا ألا نُظلَم عندك.

قال النجاشي ـ متفهماً دارساً ـ: هل معك مما جاء به عن الله شيء؟

قال جعفر: نعم، فقرأ عليه صدراً من سورة مريم: ﴿كٓهيعٓصٓ ﴿١﴾ ذِكۡرُ رَحۡمَتِ رَبِّكَ عَبۡدَهُۥ زَكَرِيَّآ ﴿٢﴾ إِذۡ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيّٗا ﴿٣﴾ . . . وَٱذۡكُرۡ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَرۡيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتۡ مِنۡ أَهۡلِهَا مَكَانٗا شَرۡقِيّٗا ﴿١٦﴾ فَٱتَّخَذَتۡ مِن دُونِهِمۡ حِجَابٗا فَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرٗا سَوِيّٗا ﴿١٧﴾ قَالَتۡ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمٗا زَكِيّٗا ﴿١٩﴾﴾ (1).

ثم قرأ ولادة عيسى فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته، وبكت أساقفته حتى بللوا كتبهم التي أمامهم حين سمعوا م تلا عليهم، ثم قال لهم النجاشي: إن هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة. ثم قال للوفد القرشي: انطلقا فلا والله لا أسلمهم إليكما ولا يُكادُون. فخرجا.

قال صاحب كتاب «خاتم النبيين»: كانت الجولة الأولى مع الباطل إحقاق الحق، ولكن عمرو بن العاص واسع الباع في الحيلة، ولا يقف عند الهزيمة الأولى في عدائه، فقال لرفيقه الذي كان أنقى نفساً منه: والله لآتينهم غداً بما أستأصل به خضراءهم.

فقال له صاحبه ـ عبد الله بن ربيعة ـ: لا تفعل، فإن لهم أرحاماً وإن كانوا حالفونا. قال عمرو: والله لأخبرنّه أنهم يزعُمون أن عيسى بن مريم عبد.

وجاء الغد والتقى عمرو بالنجاشي، ومعه صاحبه ابن ربيعة، قال عمرو للنجاشي: إنهم يقولون في عيسى قولاً عظيماً، فأرسل إليهم وسَلهُم عما يقولون فيه. فأرسل إليهم النجاشي، وقد

(١) مريم: ١ـ١٩.

وقعوا في حيرة وخوف، فاجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون في عيسى إذا سألكم عنه؟! قالوا: نقول والله ما قال الله عز وجل فيه، وما جاءنا به نبينا كائناً في ذلك ما هو كائن.

قالت أم سلمة: فلما دخلوا عليه قال لهم: ما تقولون في عيسى بن مريم؟ قال جعفر: نقول به ما قاله رسولنا هو عبد الله ورسوله، وكَلِمتُهُ ألقاها إلى مـريم العذراء البتول.

قالت أم سلمة: فضرب النجاشي يده إلى الأرض، فأخذ منها عوداً ثم قال: والله ما عدا عيسى بن مريم مما قلت هذا العود. وكان البطارقة حاضرين، فتناخروا حوله حين قال ذلك.

فقال النجاشي: وإن نخرتم، أو، وإن نفرتم والله. ثم قال للمسلمين: اذهبوا فأنتم شيوم[١] في أرضي، من سبّكم غُرم، من سبّكم غُرم، من سبّكم غُرم، ما أحب أن لي دُبُراً[٢] من ذهب وأني آذيت رجلاً منكم، ثم قال: ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردَّ عليّ ملكي، فآخذ الرشوة فيه، وما أطاع الناس فيَّ فأطيع الناسَ فيه.

قالت أم سلمة: فخرجا من عنده مقبوحين، وأقمنا عنده بخير دار.

وقد روى البيهقي قال: لما قدم عمرو بن العاص من أرض الحبشة خائباً، جلس في بيته فلم يخرج إليهم، فقالوا: ما شأنه لا يخرج؟ فقال: إن أصحمة يـزعم أن صاحبكم نبي.

وهكذا تمت حماية هؤلاء المؤمنين كما بشَّرهم ﷺ حين أشار عليهم بالهجرة إلى أرض الحبشة في قوله ﷺ كما ذكر ذلك ابن إسحاق قال ﷺ: «**لو خرجتم إلى أرض الحبشة فإن فيها ملكاً لا يظلم عنده أحد حتى يجعل الله لكم فرجاً ومخرجاً مما أنتم فيه**».

وفي حديث الزهري قال: لما كثر المسلمون، وتعرضوا للعذاب، بلغنا أنه ﷺ قال لمن آمن به: «**تفرقوا في أرض الله فإن الله سيحميكم**». قالوا: إلى أين نذهب؟ قال ﷺ: «**إلى ههنا**»، وأشار بيده إلى أرض الحبشة. فهاجر الكثيرون.

---

(١) أي: آمنون.

(٢) أي: جبلاً.

الفصل الخامس والخمسون
نوع هذه الهجرة

والآن لابد من سؤال نطرحه في هذا الموضوع ـ الهجرة ـ فنقول: ما نوع هذه الهجرة؟

وقد أجاب العلماء على هذا، فقد قال صاحب كتاب «محمد رسول الله» وهو الشيخ الصادق عرجون: هذه الهجرة لم تكن هجرة جُبنٍ، وإنما هجرة فرار بالدين كان **القصد منها أموراً عدة منها:**

البعد عن أماكن الفتنة في الدين للذين لا يستطيعون ردّ الاعتداء تمسكاً بعُرى الصبر حتى تتمكن الدعوة. فهي هجرة لها عودة، ونقلة لها رجعة، ومخرج من ضيقٍ إلى فرجٍ.

في هذه الهجرة بعدٌ عن إثارة المشاكل في طريق الدعوة؛ لأن أكثر المؤمنين المهاجرين شباب، وعندهم أنفة وحميّة، وربما لا يصبر أحدهم لردِّ الاعتداء ـ كما حصَل لسعد بن مالك وغيره ـ فلو تكررت الحادثة لأدى ذلك إلى كثرة المصادمات، ولم يكتب للدعوة الاستمرار.

تخفيف الأزمات النفسية على رسول الله ﷺ؛ لأنه كان يتألم لما يحدث لأصحابه من الأذى وهو ﷺ لا يستطيع الدفع عنهم.

ثم إن هناك سؤالاً آخر في هذا الموضوع، وهو: لماذا خطّطت قريش لضرب التّجمع الإسلامي في الحبشة؟ والجواب: أن قريشاً لاحظت أن التجمع الإسلامي في الحبشة كان كبيراً، فقد بلغ العدد في المرتين ثلاثمائة وثمانين رجلاً، وتسع عشرة امرأة، بينما لم يزد العدد في مكة يومها عن الأربعين[1]، فمن الطبيعي أن تخاف قريش من هذا التجمع الخطير في الحبشة، وأن تفكر في الإطاحة به.

ورغم البعد، فقد تخوفت قريش من أن يؤثر هؤلاء المسلمون في مجتمع الحبشة، أو أن يُقنع هؤلاء النجاشي فيُسلِمَ، ويغزوَ قريشاً، إضافة إلى تخوّفهم من الأحباش، ولا تزال ذكرى عام الفيل وغزوهم للكعبة عالقة في الأذهان.

من هنا أحكمت قريش الخطة من كل جانب لاسترجاع المسلمين من هناك، وقاموا

---

(١) كما ذكر ذلك صاحب كتاب» المنهج الحركي في السيرة النبوية«.

بالاستعانة بثلاثة عناصر رئيسية كانت كافية لنجاح الخطة لولا لطف الله.

فما هي هذه العناصر؟

العنصر الأول: الكميات الضخمة من الهدايا، وبخاصة الجلود لجهاز الحكم في الحبشة.

العنصر الثاني: اختيار الوفد المكي القرشي على أرفع مستويات الذكاء والحكمة والدهاء.

العنصر الثالث: الصداقة الوثيقة التي تجمع أحد أعضاء الوفد وهو عمرو بن العاص مع النجاشي.

ولكي نعلم مقدار ذكاء ودهاء عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه نقول: إن عمرو بن العاص هو الذي قال عنه عمر بن الخطاب ـ حين طلب الروم وفداً لمفاوضة المسلمين ـ حيث كان عمرو بن العاص رئيساً لوفد المسلمين قال عنه عمر بن الخطاب: لقد رمَيْنا أرطبونَ الروم الداهية بأرطبون العرب، وهكذا كان عمرو بن العاص داهيةَ المسلمين فيما بعد.

كما يظهر إحكام الخطة بتسليم الهدايا إلى من يحيط بالملك قبل تسليم الهدايا للملك، وذلك لتشير الحاشية عليه بتسليم المسلمين إلى وفد قريش ليُعيدوهم إلى مكة، ولذلك قال البطارقة للملك: قومهم أعلى بهم عيناً، أي أبصر بهم وأعلم.

ولكن الشيء الوحيد الذي أفسد خطة المشركين، وحال دون تنفيذها ـ كما قال الصادق عرجون ـ هو: عظمة النجاشي، وأصالة عنصره، وطيب محتده.

ونحن نقول: إن لطف الله هو الذي أفسد الخطة حيث سخر النجاشي لنصرة هؤلاء المستضعفين. قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ (١).

هنا درسٌ يجب أن يفقهه العاملون لهذا الدين!!

قال العلماء: هذا الدرس هو أن تعرف هذه الحركات أقدار الرجال، وموازينهم. إن بعض الحاكمين قد يسخرهم الله تعالى ليكونوا حماةً للإسلام.

وبعضهم قد يكونون على الحياد. وبعضهم يعملون على استئصال الإسلام وأهله، فهل يجوز للمسلمين أن يعاملوهم جميعاً على مستوى واحد؟ لا، إذ لو فعلوا ذلك لكانوا جهلاء، أو

---

(١) الفتح: ٧.

أغبياء، أو لؤماء. وحسبك من عظمة النجاشي، أنه بعد خروج وفد قريش مقبوحاً خائباً، قام عليه رجل من أهل الحبشة ينازعه في الملك فخاف على هؤلاء المؤمنين بجواره أن يتعرضوا للبلاء إذا انهزم جيشه، فهيأ لهم سفناً وقال لجعفر: إن أصبتُ فاركبوا السفن وانجوا عليها حيث شئتم. قالت أم سلمة: فوالله إنا لفي أحسن مقام بعد رجوع وفد قريش خائباً، إذ قام على النجاشي رجل ينازعه الملك. قالت: فوالله إننا لعلى خير حال بعد خيبة وفد قريش، إذ نزل بالنجاشي رجل ينازعه في ملكه، فوالله ما علمنا حُزناً حزنا قط كان أشد من حزننا عند ذلك.

قال صاحب كتاب «المنهج الحركي للسيرة»: لم يغادر عمرو بن العاص الحبشة رغم هزيمته، إلا وقد بذر بذور الحرب الأهلية في صفوف الحبشة، حيث انقسم أهل الحبشة إلى قسمين: فريق مؤيد للوجود الإسلامي ولرسول الله ﷺ، وعلى رأسهم النجاشي. وفريق معارض لذلك على رأسه رجل مغامر، وخلفه البطارقة الذين أخفوا غيظهم على النجاشي، فلما قام هذا المغامر أيدوه، وحركوا الناس ضد النجاشي حتى قامت الثورة، وقول أم سلمة: ما علمنا حزناً قط كان اشد علينا من ذلك يدلك كيف عاشوا على أعصابهم في تلك المدة كلها من الحرب، يرصدونها بحذر ويقظة.

قالت أم سلمة: سار النجاشي إلى عدوه، وبينهما عرض النيل، فقال أصحاب رسول الله ﷺ: من رجل يخرج حتى يحضر المعركة ثم يأتينا بالخبر؟ فقال الزبير بن العوام: أنا، وكان أحدث الموجودين سناً حيث كان عمره ست عشرة سنة. قالت أم سلمة: فنفخوا له قربة، فجعلها في صدره، ثم سبح عليها حتى خرج إلى ناحية النيل التي عندها المعركة، ثم انطلق حتى حضرهم. قالت أم سلمة: فدعونا الله للنجاشي بالظهور على عدوه والتمكين في بلاده، ثم قالت: فوالله إنا لمنتظرين لما هو كائن، إذ طلع الزبير وهو يسعى، ثم أشار بثوبه وهو يقول: ألا أبشروا فقد ظفر النجاشي، وأهلك الله عدوه، ومكّن له في بلاده.

قالت أم سلمة: فوالله ما علمتنا فرحنا قط مثلها. قالت: ورجع النجاشي، وقد أهلك الله عدوه، واستوثق عليه أمر الحبشة، فكنا عنده في خير منزل حتى قدمنا على رسول الله ﷺ بمكة.

قال العلماء: ونلاحظ من سياق الواقعة عبقرية الوفد الإسلامي وكفاءته، بحيث حطموا خطط عمرو بن العاص الداهية. . .

<u>فقد امتاز هؤلاء المسلمون بميزات ثلاث</u> نلاحظها في مقابلتهم للنجاشي، وفي تصرفاتهم:

الميزة الأولى: امتازوا بالمودة والحب فيما بينهم، وقوة الثقة.

الميزة الثانية: لجوؤهم إلى الشورى فيما بينهم. تجد ذلك في قول الرواة: فلما استدعاهم النجاشي اجتمعوا ثم قال بعضهم لبعض ماذا نقول؟ فلم يقطع واحد منهم برأي دون مشاورة الأخوة.

الميزة الثالثة: تقديرهم للكفاءات والطاقات، فاختاروا جعفر ليكون ناطقاً عنهم، وكانت كفاءته عجيبة، إذا استطاع أن يقدم الإسلام بصورة فريدة قلما تجد لها ـ أخي الكريم ـ نظيراً في التاريخ.

<u>فقد عمل جعفر على إبراز أربعة خطوط رئيسية عامة:</u>

أولا: أنه عرض مساوئ الجاهلية عرضاً جامعاً مانعاً تتقزز منه كل نفس بشرية.

ثانيا: عرض قواعد الإسلام عرضاً جامعاً مانعاً تستهوي هذه القواعد كل عاقل حصيف.

ثالثا: أنه عرض الظلم الماحق الذي نزل بالمسلمين، وأبرز وضع المسلمين كأنهم حواريون قديسون تنزل بهم ضربات الوثنيين، وهذه صورة لها أثرها في نفوس النصارى؛ لأنهم يعيشون مفهوم التضحية والفداء.

رابعا: فقد أثنى على الملك ثناءً حصيفاً متزناً، فلم يبالغ في مدحه، ولا تجاهله، بل وضعه في صورة الأمل والملاذ لهؤلاء المستضعفين، وأثار الشهامة في نفس الملك.

كما أننا نجد في حادثة الهجرة إلى الحبشة درساً مهماً ينبغي أن نعيه كل الوعي، ويمكن أن نضع له عنواناً خاصاً به، فنقول: إنه لا مساومة في العقيدة. ونلمس ذلك حين انهزم عمرو بن العاص في الجولة الأولى مع النجاشي، ثم أتى في اليوم الثاني، وقال للنجاشي: إنهم يقولون في عيسى أنه عبد، فاستدعاهم النجاشي، وكانت محنة شديدة للمسلمين، وباتوا بشرِّ ليلةٍ من القلق، إذ ماذا يقولون عن عيسى؟! وكان سبب قلقهم أنهم حققوا مكاسب كبيرة أمام النجاشي في اللقاء الأول، ولكن الاختبار الثاني واللقاء الثاني قد يذهب بكل هذه المكاسب، وهنا يتميز الداعية صاحب العقيدة عن السياسي.

إنهم أمام واقع قد يُفقدهم كل مكاسبهم، والتي منها إسلام النجاشي، وحرية الدعوة، بل

قد يؤدي هذا الواقع إلى التنكيل بهم، وقتلهم، أو تسليمهم لعدوهم.

كيف يتصرف السياسي المسلم هنا؟!

هنا لا مساومة: إما السياسي، وإما المسلم كما قال علماؤنا، وعندها فلا خيار إلا الإسلام، وإلا إعلان العقيدة، ولذلك عندها قال المسلمون على لسان جعفر: هو عبد الله ورسوله كما قال ربنا، وكما بلّغنا رسولنا ﷺ.

ولكن كلمة الحق لها وقع السحر الحلال الذي يغلب دهاقنة السياسة، وهذا ما حصل، فقد أيد الله المسلمين أصحاب مدرسة العقيدة، وانهزم عمرو بن العاص، وبهزيمته غُلب دهاقنة السياسة.

الفصل السادس والخمسون
أنواع الهجرة

فما أنواع هذه الهجرة؟

فقد قال ابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣ هـ وصاحب الكتاب المشهور «أحكام القرآن» قال: قسّم العلماء الهجرة في الأرض إلى قسمين رئيسيين: هجرة هرب، وهجرة طلب.

أما هجرة الهرب فتنقسم إلى ستة أقسام:

١ ـ **الهجرة من دار الحرب إلى دار الإسلام**، وهي هجرة مفروضة، فإن بقي في دار الحرب عصى.

٢ ـ **الخروج من أرض البدعة**. قال ابن القاسم: سمعت مالكاً يقول: لا يحل لأحد أن يقيم في أرض يُسَبُّ فيها السلف. قال ابن العربي في أحكام القرآن: وهذا صحيح فإن المنكر إذا لم تقدر أن تغيره، فزل عنه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [1]. قال ابن العربي: وهذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تحل. وقال ابن خويزمنداد: مَنْ خاضَ في آيات الله تُركت مجالسه، وهُجِرَ مؤمناً كان أو كافراً. وقال بعض أهل البِدَعِ لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة؟ فأعرض عنه وقال: ولا نصفَ كلمة.

قال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله، وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوّج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يُعطَ الحِكمَةَ، وإذا علم الله من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوتُ أن يغفرَ الله له.

وفي حديث ذكره السيوطي في الجامع الصغير، ورواه الطبراني في الكبير بإسناد فيه ضعف من حديث عبد الله بن بُسر. ورواه الحاكم عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**من وقَّرَ صاحبَ بدعةٍ فقد أعانَ على هدمِ الإسلام**».

ولكن لماذا تُفرَضْ؟ والجواب:

---

(١) الأنعام: ٦٨.

أنك يا عبد الله حين تُعرض عن هؤلاء، وتنفر منهم، فأنت بذلك تلفت نظرهم إلى أنَّ ما عندك من إيمان وحق هو أعزُّ عندك مما في مجالسهم من حديث، وما يكون لديهم من نفع، وبذلك تنتفع أنت بهذه التذكرة، وهم أيضاً يلتفتون إلى أهمية الإيمان وأفضليته عند المؤمن على ما عداه من شؤون الدنيا.

٣ ـ **الخروج من أرض غلب عليها الحرام**؛ لأن طلب الحلال فرض على المسلم.

٤ ـ **الفرار من الأذية في البدن**، فقد أرخص الله في ذلك فضلاً ورحمة منه سبحانه؛ ليخلص الإنسان نفسه من الأذية. قال تعالى عن أول من هاجر وهو إبراهيم الخليل من كوثا[1] إلى حرّان، ثم إلى الشام، ومعه ابن أخيه لوط بن تارخ: ﴿ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌۘ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴾[2].

وأول من هاجر من هذه الأمة خوف الأذية عثمان ورقية. وكذلك موسى لمّا هاجر خوف الأذية. قال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنۡهَا[3] خَآئِفٗا يَتَرَقَّبُۖ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[4].

٥ ـ **الهجرة خوف المرض في البلاد** الوخمة، والخروج منها إلى الأرض النَّـزِهَة، وقد أذن النبي ﷺ للرعاة الذين استوخموا المدينة أن يخرجوا إلى السرح ليكونوا فيه حتى يصِحُّوا (حديث العُرنيين)، واستثني من ذلك الخروج من الطاعون.

كما في الحديث الصحيح عن البخاري. . «**فمن سمع به بأرض فلا يقدِمَنَّ عليه، ومن كان بأرضٍ وقع بها الطاعون فلا يخرج فراراً منه**». والنهي نهي كراهة.

٦ ـ **الفرار خوف الأذية في المال**، فإن حرمة مال المسلم كحرمة دمه، والأهل مثل ذلك وأوكد كما قال القرطبي.

أما هجرة الطلب: فقد قال العلماء إنها تنقسم إلى قسمين: **طلب دين، وطلب دنيا**.

أما طلب الدين فيتعدد بتعدد أغراضه، وأنواعه إلى تسعة أقسام:

---

(١) قرية في سواد الكوفة.

(٢) العنكبوت: ٢٦.

(٣) أي من مدينة منف كما ذكر المؤرخون.

(٤) القصص: ٢١.

١) **سفر العِبرَة.** قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِۖ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (١). وقال: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۗ وَلَدَارُ ٱلْأَخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ (٢).

قال العلماء: السير في الأرض هو للسياحة فيها،

والسياحة في الأرض نوعان:

النوع الأول: سياحة اعتبار كما في سورة الروم: ﴿ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ . . ﴾ فهذه السياحة تلفت نظرك إلى قدر الله عز وجل.

النوع الثاني: سياحة استثمار: وذلك قوله تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (٣).

وقال: ﴿ ۞ وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةًۚ ﴾(٤). فلك ـ يا عبد الله ـ أن تستثمر ما تريد شرط ألا يلهيك الاستثمار عن الاعتبار، كما قال العلماء. ولذلك قالوا: إن ذا القرنين إنما طاف في الأرض ليرى عجائبها، وسفرُ العبرة مندوب وليس بواجب.

٢) **سفر الحج:** وهو مفروض لقوله تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًاۚ ﴾ (٥).

٣) **سفر الجهاد:** وله أحكامه الخاصة به.

٤) **سفر المعاش:** قال القرطبي: قد يتعذر على الإنسان معاشه مع الإقامة في بلده، فيخرج في طلب كفايته، وهذا فرض عين.

٥) **سفر الكسب الزائد** عن الكفاية والمعاش، وهذا جائز لقوله تعالى: ﴿ لَيْسَ

---

(١) الروم: ٩.

(٢) يوسف: ١٠٩.

(٣) العنكبوت: ٢٠.

(٤) النساء: ١٠٠.

(٥) آل عمران: ٩٧.

عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ ﴾[1].

قال الراغب: كانت العرب تتحاشى التجارة في الحج حتى سَمَّوا من تولى التجارة في الحج: الدّاج[2]، وفي حديث ابن عمر أنه رأى قوماً في الحج على هيئة أنكرها فقال: هؤلاء الدّاجُّ وليسوا بالحاج. وجاء الإسلام فرَخَّص في التجارة مع الحج؛ لأنك لن تحج إلا وأنت مستطيع، وليس في التجارة استغلال لحاجة الفقراء، ولذلك سماه الله (فضلاً)، قال تعالى: ﴿ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡۚ ﴾[3].

٦) **قصد البقاع المباركة**: كما في حديث النبي ﷺ في البخاري: «**لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد. .**».

٧) **السفر إلى الثغور**[4] للدفاع عنها، وتكثير سواد أهلها المسلمين.

٨) **زيارة الإخوان في الله عز وجل**، ففي الحديث أن النبي ﷺ قال: «**زار رجل أخاً له في قرية، فأرصد الله له ملكاً على مدرَجَتِهِ، فقال: أين تريد؟ فقال: أريد أخاً لي في هذه القرية. قال: هل لك من نعمة تَربُّها عليه؟ قال: لا، غير أني أحببته في الله عز وجل. قال المَلَكُ: فإن رسول الله إليك، بأن الله قد أحبك كما أحببته فيه**».

٩) **الرحلة والسفر في طلب العلم**، وهذا مشهور معروف عند السلف، وفي أخبارهم في هذا الباب ما يُدهِشُ اللبَّ. قال البخاري: ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر في حديث واحد، وقال عطاء بن أبي رباح: خرج أبو أيوب الأنصاري من المدينة إلى عقبة بن عامر في مصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ، فلما وصل أبو أيوب إلى مصر أتى منزل اميرها وهو» مَسْلَمَةُ بن مُخَلَّد»، فأخبر بقدومه، فعجَّلَ، فخرج إليه فعانقه، وقال: ما جاء بك يا أبا أيوب؟ قال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ، لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة بن عامر، فابعث من

---

(١) البقرة: ١٩٨.

(٢) وهو الذي يذهب إلى الحج بنية التجارة فقط.

(٣) البقرة: ١٩٨.

(٤) جمع ثغر وهو الموضع الذي يكون حداً فاصلاً بين بلاد المسلمين والكفار، وهو موضع المخافة من أطراف البلاد.

يدلني على منزله. قال: فبعث الأمير من يدله على منزل عقبة، فخرج عقبة إليه وعانقه وقال: ما أتى بك يا أبا أيوب؟ فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن.

قال: نعم: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من سترَ مؤمناً على خربة**[1]، **ستره الله يوم القيامة**». فقال أبو أيوب: صدقت، ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعاً إلى المدينة، فما أدركته جائزة الأمير مَسْلَمة بن مخلّد إلا بعريش مصر.

وقال أبو العالية «رُفيع بن مِهران الرّياحي البصري»: وكنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة، فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم.

وقال الحافظ ابن كثير في ترجمة البخاري: رحل إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرحلة إليها، وكتب عن أكثر من ألف شيخ.

قال الفِرَبْري» سمع «الصحيح» من البخاري نحو من سبعين ألفاً، لم يبق منهم أحد غيري.

أما الرازي فروي عنه ما يدهش في الهجرة والرحلة في طلب العلم. قال: أول ما رحلت أقمت سبع سنين، ومشيتُ على قدمي زيادة على ألف فرسخ، ثم تركت العدد، وخرجت من البحرين إلى مصر ماشياً، ثم إلى الرملة ماشياً، ثم إلى طرسوس ولي عشرون سنة. وقال:

سأضرِبُ في طولِ البلادِ وعرضِها ... لأطلبَ علماً أو أموتَ غريبا
فإن تلِفَت نفسي فلله دَرُّها ... وإن سَلِمت كان الرجوعُ قريبا

قال صاحب كتاب «علوّ الهمة»: ولم ينتشر العلم في بلاد المغرب والأندلس إلا برجال رحلوا إلى الشرق، ولاقوا في رحلاتهم عناءً ونَصَباً.

---

(١) الخربة: السوأة والمعصية.

الفصل السابع والخمسون
عودة المهاجرين من الحبشة وقصة الغرانيق

قال المباركفوري: وفي السنة الخامسة من البعثة، وفي شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى الحرم، وكان فيه جمع كبير من قريش، فقرأ النبي ﷺ سورة (النجم)، وكان المشركون قد مرّت عليهم فترة طويلة لم يسمعوا تلاوة كتاب الله؛ لأنهم قرروا عدم سماعه، بل قرروا التشويش عليه، كما ذكر ربنا بقوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَا تَسْمَعُوا۟ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْا۟ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ (١)، فلما فاجأهم ﷺ بتلاوته المدهشة، وقرع أسماعهم بكلام الله الرائع تفانوا عما هم فيه، وبقي كل واحد منهم مأخوذاً مُصْغِياً لا يخطر على باله شيء إلا السماع، حتى إذا وصل ﷺ في القراءة إلى خواتيم السورة، وقرأ: ﴿فَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ وَٱعْبُدُوا۟ ۩﴾ (٢)، سجد رسول الله ﷺ، فلم يتمالك أحد ممن في الحرم نفسه حتى خر ساجداً حيث أذهلتهم روعة الحق عن أنفسهم. ثم تابع المباركفوري قائلاً: ثم استفاقوا، فأخذ منهم اللوم كل مأخذ، وخافوا من المشركين الذين لم يحضروا المشهد، عندها اختلقوا كذبة على رسول الله ﷺ وقالوا: إنه ذكر أصنامنا بكلمات تقديس، وأنه قال: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾﴾ (٣). (تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهنَّ لتُرتجى).

وشُبهت الأصنام بالغرانيق وهي طيور بيضاء جميلة ـ وهي الكراكي مفردها كُرْكِيّ ـ وكانوا يزعمون أن هذه الأصنام تقربهم من الله عز وجل، وتشفع لهم إليه فشبهوها بالطيور التي ترتفع وتعلو في السماء فهي كالملائكة.

قال العلماء: وقد ضاق صدره ﷺ بهذه الافتراءات، وبخاصة أنه نتج عنها من عودة المهاجرين من الحبشة حيث أشيع أن قريشاً آمنت بمحمد ﷺ، ووصلت الإشاعة إلى المؤمنين بالحبشة، فاطمأن إلى صدقها البعض من المهاجرين، وطاهر القلب ينخدع كما خدع إبليس من قبلُ أبانا آدم الطاهر. وما كاد هؤلاء يصلون إلى مشارف مكة حتى وجدوا الأذى يستقبلهم أشد من السابق، فمنهم من استقبل الأذى صابراً، ومنهم من دخل في جوار بعض كبراء المشركين،

---

(١) فصلت: ٢٦.

(٢) النجم: ٦٢.

(٣) النجم: ١٩ ـ ٢٠.

ومنهم من حبسه قرابته.

قال العلماء: ولما اشتد الحزن برسول الله ﷺ لمعاداة قومه له ولدعوته، ولافتراءاتهم طمأنه الله وسلاّه بقوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ (١)، فصار معنى الآية: يا محمد لا تحزن لمعاداة قومك لك فهذه سنة المرسلين من قبلك. وتمنِّي الرسل: هو أن يكون قومهم كلهم صالحين مهديين؛ لأن ما يتمناه الأنبياء خير محض. وإلقاء الشيطان في أمنية الرسول هو إلقاء ما يُضادُّ أمنية الرسول في نفوس الناس من وساوس وشكوك وشبهات، ونجاحه في رؤوس أئمة الكفر، فيوسوس الشيطان لهم تكذيب الرسل، وصرفَ عقولهم عن البراهين الواضحة ـ إلقاء السم في الدسم ـ، ولكن الله تعالى بقدرته وحكمته يعيد الإرشاد على لسان رسله، ويكرر دعوة الهدى، ويفضح وساوس الشيطان، وسوء فعله بالبيان الواضح، وإلى هذا أشارت الآية: ﴿فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾. أي ينسخ الله آثار ما يُلقي الشيطان، ويثبت آثار آياته.

من هنا نلاحظ تكرار المواعظ المتماثلة في القرآن الكريم حتى تثبت الهداية في النفوس، وتبطل وساوس الشيطان.

وهناك معنى آخر للآية: وهو أن النبي إذا تمنى هُدَى قومه، وحَرِصَ عليه، ودعاهم بالحجة والمجادلة الحسنة حتى يظن أن أمنيته قد نجحت، ويقترب القوم من الإيمان، فيأتي الشيطان فلا يزال يوسوس في نفوس الكفار فينكصون على أعقابهم، وتلك الوساوس أنواع شتى من تذكيرهم بحب آلهتهم، وتخويفهم بسوء عاقبة ترك أصنامهم، فيعود الكفرة للتمسك بالضلال، ويَصُدُّون عن دعوة الرسول، كما حكى الله عن المشركين قولهم: ﴿وَإِذَا رَأَوۡكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا ٱلَّذِي بَعَثَ ٱللَّهُ رَسُولًا ٤١ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا لَوۡلَآ أَن صَبَرۡنَا عَلَيۡهَاۚ﴾(٢). عندها يحاول الشيطان أن يلقي في نفس النبي خاطر اليأس من هداهم لعله يُخفف من حرص النبي على هدى القوم، أو لعله يضجر، وهذه خواطر قد تلوح في النفس الإنسانية، ولكن العصمة تأتي فتقابلها، فتزول تلك الخواطر، ويرسخ في نفس الرسول ما كُلِّف به من

(١) الحج: ٥٢.

(٢) الفرقان: ٤١ - ٤٢.

الدأب في الدعوة، والحرص على الإرشاد.

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن فريقاً من المفسرين الذين أولعوا بغرائب النوادر دون تأمل ولا تمحيص، وكذلك بعض الضعاف في علوم السنة ألصقوا بهذه الآية قصة قال عنها صاحب التحرير والتنوير: هي ضِغْثٌ على إبّالة، أي بليَّةٌ على أخرى. والضغث: قبضة من حشيش مختلطة الرطب باليابس. والإبالة: الحِزمَة من الحشيش. ثم قال: ولا يلقي إليها النحرير باله. وليس في أسانيد القصة سماع صحابي لشيء منها.

وخلاصة القصة: أن النبي ﷺ جلس بنادٍ من أندية قريش كثير أهله من المسلمين والكافرين، وقرأ عليهم سورة (النجم) فلما بلغ إلى قوله تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ ﴾ ألقى الشيطان بين السامعين بعدها (تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى) ففرح المشركون بأن ذكر آلهتهم بخير، فلما جاء سجود التلاوة في آخرها سجد كل من حضر من المسلمين والمشركين. وتسامع الناس أن قريشاً قد أسلموا حتى وصل ذلك الخبر إلى بلاد الحبشة، فرجع قسم من المهاجرين إلى مكة.

وتقول القصة: إن الرسول ﷺلم يشعر بأن الشيطان ألقى في القوم تلك العبارات. فأعلمه جبريل فاغتم ﷺ لذلك، فانزل الله قوله: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١).

قال القاضي عياض في هذا الحديث الذي روي عن سعيد بن جبير وابن شهاب، والضحاك.

قال: هذا حديث لم يخرجه أحد من أهل الصحة، ولا رواه أحد بسند متصل سليم.

وقال البيهقي: رواة هذه القصة مطعون فيهم. وقال ابن كثير: ذكر كثير من المفسرين قصة الغرانيق، وهي روايات مرسلات ومنقطعات لا تصح.

وقال ابن حزم: والحديث الذي ورد في قراءته ﷺ تلك الغرانيق العلى وإن شفاعتهن لترتجى. فهو كذب بحت موضوع؛ لأنه لم يصح قط عن طريق النقل، ولا معنى للاشتغال به إذ وضع الكذب لا يعجز عنه أحد. وقال إمام أئمة الحديث «ابن خزيمة» إن هذه القصة من

---

(١) الحج: ٥٢.

وضع الزنادقة.

ورد القصة المحققون وقالوا: هذه الرواية باطلة موضوعة. واستدلوا بقوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (١).

وقد قال ابن عاشور: ويكفي تكذيباً لهذه القصة هذه الآية، فلو أنه ﷺ قرأ بعد هذه الآية تلك الغرانيق. . لظهر كذب الله في الحال، وذلك لا يقوله مسلم ولا عاقل. واستدلوا على بطلان القصة بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ ﴾ (٢). أي لو كذب علينا فأخبر أنا قلنا قولاً لم نقله، لأخذناه بقوة دون إمهال. أي أخذاً عاجلاً، فقطعنا وتينه(٣)، وفي هذا تهويل لصورة الأخذ.

وهذا التعبير: ﴿ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴾ من مبتكرات القرآن الكريم، وهي كناية عن الهلاك. واستشهدوا بقوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ (٤). ولولا: تفيد انتفاء الشيء لوجود غيره تقول: لولا علي لهلك عمر، فدل على أن ذلك الركون لم يحصل، فالتثبيت حاصل، والمقاربة منفية، فكان التثبيت مانعاً من حصول الركون.

واحتج المحققون في بطلان هذه القصة بالسنة وقالوا: روى البخاري في صحيحه أن النبيَّ ﷺ قرأ سورة النجم وسجد فيها المسلمون والمشركون، والإنس والجن، وليس فيه حديث الغرانيق.

واستدل المحققون بالمعقول فقالوا: إن سند الحديث مضطرب، ومتنه غير معقول، إذ كيف يسمع إنسان مؤمناً كان أو كافراً ذكر الأصنام بالمدح، ثم يأتي ذمها مباشرة، ويمر عليه ذلك فقد قال الله تعالى بعد ذكر الأصنام: ﴿ إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ﴾(٥)، ثم إنه لو حصل هذا ـ وهو ذكر الغرانيق ـ في تلاوته ﷺ لقلم إليه رجالات قريش

(١) النجم: ٣ ـ ٤.

(٢) الحاقة: ٤٤ ـ ٤٦.

(٣) الوتين: عرق يسقي الجسد بالدم، ويقال له نهر الجسد، وهو إذا قطع مات صاحبه، وهو يقطع عند نحر الجزور.

(٤) الإسراء: ٧٤.

(٥) النجم: ٢٣.

المتصدرون للعناد، ولقالوا: ما لك ذممت آلهتنا بعد أن مدحتها. ولم يثبت أن أحداً من المشركين ناقش النبي ﷺ في هذه القضية مع أنها لو كانت صحيحة لكانت أولى لهم من ضرب السيوف، وبذل المهج ـ كما يقول الخضري في سيرته «نور اليقين» ـ.

ثم لو جوَّزنا وقوع هذه القصة لارتفع الأمان عن الشرع الحكيم، وهذا يبطل قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ (١). ولا فرق في العقل بين النقصان في الوحي أو الزيادة فيه.

قال ابن عاشور: هذه القصة لو رواها الثقات لوجب رفضها، فكيف وهي ضعيفة واهية؟!! وسندها إلى ابن عباس مطعون فيه، إضافة إلى أن ابن عباس يوم نزلت سورة النجم لم يكن يحضر مجالس النبي ﷺ.

ثم هناك نقطة هامة تشير إلى أن هذه القصة واهية، وهي أن ترتيب قصة الغرانيق على الآية الواردة في سورة الحج: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ. . ﴾ من تخليط المؤلفين؛ لأن نزول سورة النجم كان من أوائل ما نزل في مكة، وأما سورة الحج فبعضها من أواخر ما نزل في مكة، وبعضها من أوائل ما نزل في المدينة.

قال الصادق عرجون: والذي نلقى الله عليه أن القصة تنافي العصمة فهي باطلة.

وجميل قول الشيخ «محمد عبده»: الحديث الذي يريد خرم العقيدة ونقضها لا يقبل على أي وجه، وقد عدّ الأصوليون الخبر الذي يكون على تلك الصفة من الأخبار التي يجب القطع بكذبها، حتى لو فُرِضَ اتصال الحديث، فكيف إذا كانت النصوص مراسيل؟! بل ثبت في بعض أسانيد القصة أكذب الكذابين كما قال الصادق عرجون.

قال المباركفوري: ثم اشتد البلاء على الضعفاء عند عودتهم من الحبشة، وبخاصة عندما علموا بإكرام النجاشي لهم، فلم ير رسول الله ﷺ بداً من أن يشير على أصحابه بالهجرة مرة أخرى إلى الحبشة، وكانت هذه الهجرة أشق من سابقتها لتيقظ قريش للأمر، ولكن الله سهل للمسلمين الخروج، وكانت هذه هي الهجرة الثانية للحبشة، وكانت في سنة سبع من البعثة.

---

(١) المائدة: ٦٧.

قال ابن إسحاق: فلما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد نالوا أمناً واستقراراً عند النجاشي، وجعل الإسلام يفشو في القبائل اشتد حنقهم على الإسلام والمسلمين، فاجتمعوا وائتمروا على مقاطعة بني هاشم وبني المطلب.

الفصل الثامن والخمسون
المقاطعة والحصار

قال أبو زهرة في سيرته «خاتم النبيين»: ضاقت قريش بالنبي ﷺ وببني هاشم الذين يحمونه، وكان ضيقهم من أبي طالب بخاصة؛ لأنه وقف كالطود في وجه تهديداتهم لا يضعف ولا يلين، ثم اعتزموا الشطط، وأرادوا أن يركبوا مركباً صعباً، وهو قتل النبي ﷺ. وعلم أبو طالب بما دبروا، فنادى بني عبد مناف أن يناصروه في حماية النبي ﷺ، فلم يجبه من بني عبد مناف إلا بنو المطلب الذين كانوا مع بني هاشم جاهلية وإسلاما. وبنو هاشم كانوا مع أبي طالب إلا أبا لهب الذي رفض إلا أن يكون مع قريش في جبروتها.

ولنترك الحديث إلى الزهري ـ رحمه الله ـ يحدث فيقول: إن المشركين اشتدوا على رسول الله ﷺ أشد ما كانوا، وجمعت قريش مَكرَها وقرروا قتل رسول الله ﷺ علانية، فلما رأى أبو طالب ذلك جمع بني هاشم، وبني المطلب وأمرهم أن يُدخلوا رسول الله ﷺ شِعبَهم، وأن يحموه ممن يريد قتله. فاجتمع على حماية رسول الله مسلمهم وكافرهم، فمنهم من فعَلَهُ حميَّة، ومنهم من فعله إيماناً، فلما عرفت قريش أن القوم قد حموا رسول الله وأجمعوا على ذلك، اجتمع المشركون من قريش فأجمعوا ألا يجالسوهم، ولا يبايعوهم، ولا يدخلوا بيوتهم، وكان اجتماعهم في خيف(١) بني كنانة من وادي المحصب. وفي رواية أخرى: وعلى ألا ينكحوا إليهم ولا يُنكحوهم، حتى يُسْلموا رسول الله ﷺ، وكتبوا على ذلك صحيفة وتعاهدوا عليها وتواثقوا ألا يقبلوا من بني هاشم صلحاً أبداً، ولا يأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا محمداً ﷺ للقتل، ثم علقوا الصحيفة في جوف الكعبة تأكيداً لأمرهم بذلك، وكان الذي كتب الصحيفة «منصور بن عكرمة بن عامر» فدعا عليه رسول الله ﷺ فشلت يده.

قال المؤرخون: ولما قررت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى شعب أبي طالب، ودخلوا فيه برجالهم ونسائهم وأطفالهم، إلا ما كان من الطاغية ابي لهب فإنه لم يدخل معهم؛ لأنه كان مؤيداً لقريش في ظلمها وإجرامها.

بدأت هذه المقاطعة في شهر محرم سنة سبع من البعثة، واستمرت إلى سنة عشر من البعثة

---

(١) الخيف: المتحدر من الأرض.

في المحرم كذلك، عانى فيها المسلمون ومن معهم من المحصورين ما عانوا من الجوع، حتى أكلوا ورق الشجر، وحتى سُمِعَ بكاء الأطفال من وراء الشعب، وعضّتهم الأزمات العصيبة، ومع ذلك فقد تحملوا الويلات في سبيل الله.

هنا سؤال قد يجول في الخاطر بشأن هذه المقاطعة، هو: إن المقاطعة أنزلت بالمسلمين، وبمن كان معهم من بني هاشم وبني المطلب الجوع والعري ـ كما سنرى ـ وكادوا يبادون، ولئن كان المسلمون قد ثبتوا وصبروا بدافع العقيدة، وبوعد الله عز وجل لهم بالجنة، والأجر الجزيل في الآخرة على لسان رسوله ﷺ.

فما الذي جعل الذين معهم من المشركين يلقون هذا العذاب ويصبرون؟

والجواب ـ كما قال العلماء ـ: واضح: من أجل محمد ﷺ فقط. رغم أن مصالحهم قد انهارت، وخسروا، نعم من أجل محمد ﷺ والذي دفع بني هاشم وبني المطلب إلى هذا الموقف نظافة الشخصيات الإسلامية، ومركزُها المرموق عند قبائلها، ولو لم يكن محمد ﷺ على أعلى مستويات من التقدير والاحترام لَمَا غامر البطنان الكبيران في خوض معركة من أجله ﷺ.

ولقد مثّل هذه الصورة عمه أبو طالب حين قال بعد انتهاء الحصار في الشعب:

ولما رأيتُ القومَ لا وُدَّ فيهم	وقد قَطعوا كلَّ العُرى والوسائِلِ
وقد صارحونا بالعداوة والأذى	وقد طاوعوا أمرَ العدوِّ المزامِلِ
صبرت لهم نفسي بسمراء سمحة	وأبيضَ عضبٍ من تراث المَقاوِلِ
وأحضرت عند البيت رهطي وإخوتي	وأمسكتُ من أثوابه بالوصائلِ
أعوذ بربِّ الناس من كلِّ طاعِنٍ	علينا بسوءٍ أو مُلِحٍّ بباطِلِ
كذبتم ـ وبيتِ الله ـ نترك مكة	ونظعنُ إلا أمرُكم في بلابِلِ
كذبتم ـ وبيت الله ـ نُبْزى محمداً	ولَمَّا نطاعِنُ دونه ونناضِلِ
ونُسلِمُهُ حتى نُصَرَّعَ حوله	ونُذهلَ عن أبنائنا والحلائِلِ

ثم يعلل أبو طالب أسباب الدفاع عن محمد ﷺ، ولماذا اتخذ هذا الموقف فيقول:

لَعَمري لقد كلفت وجداً بأحمد	وإخوته دأبَ المحبِّ المواصِلِ
حليمٌ رشيدٌ عادل غير طائش	يوالي إلهاً ليسَ عنهُ بغافِلِ
لقد علموا أن ابننا لا مُكَذَّبٌ	لدينا ولا يُعنى بقول الأباطِلِ
وما تَرْكُ قومٍ ـ لا أبا لك ـ سيداً	يحوطُ الذِّمارَ غيرَ ذَربٍ مواكِلِ
وأبيضَ يُستسقى الغمامُ بوجههِ	ثمالُ اليتامى عصمةً للأراملِ
يلوذ بهِ الهُلاّكُ من آل هاشِمٍ	فهم عندهُ في رحمة وفواضِلِ

فنحن هنا أمام جاهلية تؤمن بقيم ثابتة، فتضحي بمصالحها واستقرارها ووجودها في سبيل محمد ﷺ الذي مثَّلَ هذهِ القِيَم. وهكذا فقد يصادف العاملون في الدعوة بعض هذه النماذج في عصرنا الحاضر مَنْ يعطفُ على الدعوة والدعاة ولو تعرضت مصالحه للضياع لتعلَمَ ـ يا عبد الله ـ أن الله قد يوجد لك من رؤوس الجاهلية من يؤيد عقيدتك. وهل قام بتمزيق الصحيفة التي عُلِّقت في جوف الكعبة من الذين تحالفوا على حصر المسلمين، هل قام بتمزيقها إلا كبار رؤوس الشرك الذين كانوا أسرع الناس إلى توقيعها واقتراحها؟!!

قال السهيلي يصف كيف كانت المعاناة على المسلمين في هذا الحصار فيقول: كانت الصحابة إذا قدمت عِيرٌ إلى مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من القوت لعياله، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار، غالوا على أصحاب محمد حتى لا يُدركوا معكم شيئاً، وقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فأنا ضامن لا خَسارَ عليكم، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع أحدهم إلى أطفاله وهو يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يطعمهم به، ويغدو التجار على أبي لهب فيربحهم فيما اشتروا من الطعام واللباس، حتى جهد المسلمون ومن معهم جوعاً وعُرياً، حتى قال سعد بن أبي وقاص: لقد جعت حتى إني وطئت على شيء، فوضعته في فمي وبلعته وما أدري ما هو إلى الآن.

وقد روى يونس عن سعد بن أبي وقاص قال: خرجت ذات ليلة لأبول فسمعت قعقعة تحت البول، فإذا قطعة من جلد بعير يابسة، فأخذتها وغسلتها ثم أحرقتها ورَخَصتها[1] بالماء فقَويتُ بها ثلاثاً.

---

(١) أي: غسلتها.

قال السهيلي: إنهم جهدوا حتى كانوا يأكلون الخَبْط[١] وورق السَّمُر[٢] حتى إن أحدهم ليضع كما تضع الشاة.

قال العلماء: وكما استفحل الفجور بأبي لهب استفحل بأبي جهل، فكان يترصد كل شيء يدخل الشعب ليمنع ما عسى أن يكون فيه بعضُ المساعدة للمحصورين وهم يقاسون مع نسائهم وأطفالهم مرارة الجوع والعري في محبَسهم وعُزلتهم.

فقد ذكر سائر الرواة: أن أبا جهل لقيَ حكيم بن حزام بن خويلد، ومعه غلام يحمل قمحاً يريد إيصاله إلى عمته خديجة المحاصرة في الشعب، فتعلق به أبو جهل وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم؟ والله لا تبرح أنت ولا طعامك حتى أفضحك بمكة، فجاء أبو البختري بن هشام فقال: ما لك وله؟

قال أبو جهل: إنه يحمل الطعام إلى بني هاشم!! قال أبو البختري: طعام كان لعمته عنده، أفَتمنعُهُ أن يأتيها بطعامها؟ خلّ سبيل الرجل. فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فضربه أبو البختري بعظم بعير فشَجّهُ ووطئه وطأً شديداً، وحمزة يرى ذلك، وهم يكرهون أن يصل ذلك رسولَ الله ﷺ وأصحابه فيشمتوا بهم.

كل ذلك ورسول الله ﷺ دائب على دعوته يدعو ليلاً ونهاراً، وسراً وجهراً.

وفي أيام الحصار في الشعب، كان المسلمون في موسم الحج يَلْقَون غيرهم حيث يُسمَحُ لهم بالخروج في الموسم، ورغم ما عاناه هؤلاء فلم تكن آلامهم وجوعهم يشغلهم عن تبليغ الدعوة، وعرضها على كل وفد، فإن الاضطهاد لا يقتل الدعوات، بل يزيد جذورها عمقاً، وفروعها امتداداً. وقد كسب الإسلام أنصاراً كُثُراً في هذه المرحلة، وكسب أمراً جديداً، وهو أن المشركين قد بدؤوا ينقسمون على أنفسهم، ويتساءلون عن صواب ما فعلوا بهؤلاء، وشرع فريق منهم يعمل على إبطال هذه المقاطعة ونقض الصحيفة.

---

(١) كل ورق يخبط بالعصا.

(٢) شجرة معروفة من أشجار الصحراء.

الفصل التاسع والخمسون
نقضُ الصحيفة وموقف الوحي

قال المؤرخون: وأول من أبلى بلاء حسناً في نقض الصحيفة: «هشام بن عمرٍو بن ربيعة»، فقد ساءته حال المحاصرين وما هم فيه من عناء.

قال ابن إسحاق: «وكان هشام هذا ذا مكانة في قومه، عطوفاً على بني هاشم، فكان يأتي بالبعير ليلاً قد حمّله بالطعام حتى إذا أقبل به فم الشعبِ خلع خطامه من رأسه، ثم ضرب على جنبه فيدخل الشعبَ عليهم، ثم يأتي وقد أوقره بُرّاً فيفعل به مثل ذلك. مشى هشام بن عمرو إلى «زهير بن أمية بن المغيرة» فقال له: يا زهير: أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب، وتتزوج النساء، وأخوالك حيث قد علمت؟! ـ وزهير أُمُّهُ عاتكة بنت عبد المطلب، وكان شديد الغيرة على المسلمين ـ ثم قال هشام: أما إني أحلف بالله، لو كان أخوال أبي الحكم ـ أبو جهل ـ، ثم دعوته إلى مثل ما دعاك إليه ـ من المقاطعة ـ ما أجابك أبداً. فقال زهير بن أمية: ما أصنعُ وأنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لنقضتها؟! فقال هشام: قد وجدت رجلاً آخر. قال زهير: ومن هو؟ قال هشام: أنا قال زهير: ابغنا ثالثاً فذهب إلى (المطعم بن عدي) فقال له: أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف وأنت شاهد ذلك، موافق فيه؟! أما والله لو أمكنتموهم من هذهِ لتجدنّهم إلى مثلها منكم أسرع!! قال المطعم: ما أصنع إنما أنا رجل واحد. قال هشام: قد وجدت ثانياً، قال المطعم: ومن هو؟ قال هشام: «أنا» قال المطعم: ابغنا ثالثاً، قال قد فعلت، قال المطعم: من هو؟ قال: زهير بن أمية بن المغيرة. قال: ابغنا رابعاً، فذهب هشام إلى أبي البختري بن هشام فقال له نحواً مما قال للمطعم، فقال أبو البختري: وهل من أحد يعين على هذا؟ قال هشام: نعم. قال: ابغنا خامساً، فذهب هشام إلى زمعة بن الأسود، فكلمه وذكر له قرابتهم وحقهم. قال زمعة: وهل على هذا الأمر معين؟ قال هشام: نعم، ثم سمى له القوم».

قال المؤرخون: فاتَّعدوا (خَطْمَ الحجون)، وهو مكان بأعلى مكة، فاجتمعوا هناك ليلاً، وتواعدوا وتعاهدوا على القيام بنقض الصحيفة. ثم قال زهير: أنا أبدؤكم وأكون أول من يتكلم. فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم، وغدا زهير بن أبي أمية عليه حُلَّةٌ، فطاف بالبيت سبعاً، ثم أقبل على الناس فقال: يا أهل مكة: أنأكل الطعام، ونلبس الثياب، وبنو هاشم هلكى؟ لا يُباعون ولا يُبتاع منهم. . . والله لا أقعد حتى تُشقَّ هذهِ الصحيفة القاطعة الظالمة! قال أبو جهل: كذبت

والله لا تشق، وكان في ناحية المسجد، فقام زمعة بن الأسود وقال لأبي جهل: أنت والله أكذب، ما رضينا كتابَها حيث كتبت. فقال أبو البختري: صدق زمعة: لا نرضى والله ما كتب فيها ولا نقر به. قال المطعم بن عدي: صدقتما، وكذب من قال غير ذلك، نبرأ إلى الله منها، ومما كتب فيها. وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك. قال أبو جهل عند ذلك: هذا أمر قضي بليل، تُشووِر فيه بغير هذا المكان، وأبو طالب جالس في ناحية المسجد، فقام المطعم إلى الصحيفة ليشقها، فوجد الأَرَضَةَ قد أكلتها إلا (باسمك اللهم) وكانت العرب تستفتح بهذه العبارة كتبها.

قال ابن هشام في سيرته: وقد ذكر بعض أهل العلم أن رسول الله ﷺ قال لعمه أبي طالب: يا عم: إن الله قد سلط الأرضة على صحيفة قريش فلم تدع فيها اسما لله إلا أثبتته فيها، ونفت منها القطيعَة والظلم والبهتان. قال أبو طالب: أربُّك أخبرك بهذا؟ قال: ﷺ نعم. قال أبو طالب: فو الله ما يدخل عليك أحد، ثم خرج أبو طالب إلى قريش فقال: يا معشر قريش إن ابن أخي أخبرني بكذا وكذا، فهلم إلى صحيفتكم، فإن كانت كما قال ابن أخي فانتهوا عن قطيعتنا، واتركوا ما فيها، وإن كان كاذباً دفعت لكم محمداً.

قالوا: رضينا، فتواثبوا ثم نظروا فيها فإذا هي كما قال ﷺ فوبَّخهم أبو طالب، وطأطؤوا رؤوسهم ولم يجيبوا بشيء.

وقال أبو طالب في ذلك شعراً فيه:

وقد كــــان في أمر الصحيفة عبرةٌ   متى مـا يُخَبَّر غــائب القوم يَعجب
محا الله منهـــا كفرَهـم وعقوقهم   ومـا نقموا من نـاطق الحق مُعـرب
فأصبح ما قالــوا من الأمر باطلا   ومـن يَختلق مـا ليس بـالحق يكذب

وقد مدح أبو طالب الخمسة الذين تحالفوا على نقض الصحيفة. .

وكان مما قال:

جزى الله رهطا بالحجـــون تبايَعوا   علــــى ملأ يـهدي لحزم ويُـرشِـدُ
قعودا لدى خَطْم الحجــون كأنهم   مَقاولةٌ بـــــل هـم أعـزُّ وأمجـدُ
أعـان عليها كل صقـــــر كــأنه   إذا مـا مشى في رفرف الدرع أحردُ

وذكر المؤرخون أن مدة الحصار كانت ثلاث سنين كالحة، وكان رباط الإيمان هو الذي يمسك القلوب، ويصبِّرُ على الشدائد. وكان المسلمونَ يستعجلون الخروج من هذا المأزق، وهم قد وُعِدوا بالنصرِ والتمكين. . ولكنهم إلى الآن لم يروا إلا الخوف والضيق، وهم في أرضٍ تنكَّرت لهم، وكفرَ أهلها بكل قِيمِ الخير، كما كفروا باليوم الآخر. وكان طلبهم للنصر لا ليتخلَّصوا من البلاء فقط، بل ليخزوا به المكذبين لوعدِ الله ـ كما قال العلماء.

ولكن الوحيَ كان له مسلك آخر، كان ينزل فيطالب المسلمينَ باليقين والثبات دون انتظار النتائج المتوقعة، وعليهم أن يثبتوا على حقائق الإيمان التي عرفوها، وعليهم أن يستمدوا من سُمُوِّها ما يتغلبون به على الأحداث والهموم.

قال تعالى﴿ وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفْعَلُونَ ﴿٤٦﴾ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ فَإِذَا جَآءَ رَسُولُهُمْ قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٤٧﴾ ﴾[1].

وإما» أصلها (إن) الشرطية، و(ما) الزائدة لتوكيد الكلام. فالمعنى: يا محمد، إن أريناك بعضَ الذي نعِدهم من العذاب في الدنيا فذاك، أو نتوفينك قبل أن ترى عذابهم في الدنيا، فإلينا على كل حال مرجعهم جميعاً بعد موتهم، فنحاسبهم ونجازيهم بحسب سلوكهم في الدنيا، الخير بالخير، والشر بالشر (**ثم الله**) أي بعد وفاتك، الله عز وجل خليفتك فيهم، وسوف يجزيهم بحسب كسبهم. وقوله ﴿ وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولٌ . . ﴾. أي: ولكل أمة من الأمم الماضية رسول يُبعث إليهم بشريعة خاصة مناسبة لأحوالهم يدعوهم إلى الحق فَبَلَّغَهم، فأطاع من أطاع، وعصى من عصى، فإذا جاء رسولها في عرصاتِ يوم القيامة قُضيَ بينهم، أي حوسبوا، وجُوزوا بالقِسطِ والعدلِ، وهم لا يظلمون بنقص حسناتِ المحسنين، ولا بزيادةِ سيآتِ المسيئين، فنُجِّيَ المؤمنون وهؤلاء الفائزون.

وقوله تعالى ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم ﴾ تشعركَ بحدوثِ مُشاقة بين الكافرين والمؤمنينَ والرسول ﷺ منهم، وهـذا المعنى تدلُّكَ عليه كلمة ﴿قُضِىَ﴾، فمادام في الأمر قضاء فلابد أن الكافر يعتبر المؤمنَ منازعاً له، وصارت القضية تتطلب الحكم.

ولذلك قال تعالى: ﴿قُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ . . ﴾ وهذه العبارة تُشعِرُ بأن ذنبهم عظيم لأنه

---

(١) يونس ٤٦ – ٤٧.

قضاءُ زجرٍ؛ لهم لمخالفتهم رسولهم ﷺ وأنه عقاب شديد يكاد من يراه أو يسمعه يظن أنه مبالغ فيه، فجاء التذييل بقوله تعالى ﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . .﴾ لأن ذنبهم جدٌّ عظيم.

كما توحي الآية مُحَذِّرة من مشاقة الرسول ﷺ.

وكما كان المسلمون يستعجلون الخروج من هذا الصراعِ، كان المشركون كذلك يتعجلونَ خاتمةَ الصراعِ بينهم وبين المسلمينَ، يتعجلونَ؛ لأنهم يضحكون من الوعودِ التي وعدها الله ورسوله للمؤمنين من النصر والتمكينِ، فهؤلاءِ الكفرة لا يثقونَ ببعثٍ ولا جزاءٍ، ولا يخطر بباهم أن يوماً قريباً أو بعيداً سيأتي، وإذا مكَّة خالية من الأصنامِ، وإذا أذانُ التوحيدِ يرنُّ في أرجائها، وإذا هؤلاءِ المحصورونَ في الشِّعبِ هم أهل الأمر والنهيِ فيها، والسادةُ الحاكمونَ يصبحونَ أسرى في أيديهم يَرجونَ العفوَ من هؤلاءِ الضُّعفاءِ الآن.

وما أجملَ قولهُ تعالىَ في سورةِ يونس: ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤٨ قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۗ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَلَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ۝٤٩ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوْ نَهَارًا مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ ۝٥٠ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ ۚ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ كُنتُم بِهِۦ تَسْتَعْجِلُونَ ۝٥١ ﴾ (١).

قال المفسرون: وحكى الله قولهم بصيغةِ المضارعِ ﴿ وَيَقُولُونَ ﴾ للدلالةِ على تكرر صدور التكذيب بالعذاب منهم، والسؤال كذلك. . والسؤال منهم. . ﴿ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾، مُستعمل للاستبطاء، ولعدمِ الاكتراثِ، وأنهم لا يأبهونَ له، بل هم مكذبونَ به، ولذلك قالوا بعد ذلك ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾، يريدونَ أننا لا نصدقك. فلو كنتَ صادقاً عيِّن لنا وقتَهُ. وهذا كنايةٌ عن اعتقادهم عدمَ حلولِ العذابِ، وأنهم لا يصدقونَ بِهِ. و﴿ٱلْوَعْدُ ﴾: هو الموعودُ، وهو ما هُدِّدوا به من عذابِ الدنيا. والخطاب بقولهم ﴿إِن كُنتُمْ ﴾ للرسول، فضميرُ التعظيمِ هنا للتهكُّم كقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ﴾ (٢) وكقولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ ﴾ (٣).

وكقولِ أبي بكر بن الأسود:

---

(١) يونس: ٤٨ – ٥٢ .

(٢) الحجر: ٦.

(٣) الفرقان: ٧.

يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام

ثم أمره الله تعالى أن يقولَ لهم جواباً عما استعجلوهُ من وقوعِ العذابِ: ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي ضَرّٗا وَلَا نَفۡعًا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ ﴿٤٩﴾ ﴾. أي: قل لهم: إنما أنا مبلغ عن الله تعالى، ولا أملك لنفسي ضراً ولا نفعاً، فكيفَ أملكُ لكم أنتم ضراً أو نفعاً، فالأمر كله بيدِ الله تعالى.

وقوله: ﴿إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۗ﴾ أي مشيئة الله هي الفاصلةُ ثبوتاً واستمراراً، وهذه الأمور الثابتة الدائمةُ إنما كانت كذلك بمشيئة الله لا بطبيعتها في نفسها، ولو شاء الله أن يغيرها لفعل.

قال العلماء: وذلك لأن الإنسان خُلقَ على هيئة القَسرِ في أمورٍ، وعلى هيئةِ الاختيارِ في أمورٍ أخرى. والاختيارُ إنما يكون في الأمورِ التكليفية وفق قولِهِ تعالى: ﴿فَمَن شَآءَ فَلۡيُؤۡمِن وَمَن شَآءَ فَلۡيَكۡفُرۡۚ ﴾ (١) وأنت حر في أن تطيعَ، أو أن تعصي، وكل ذلك داخل في نطاقِ اختيارِكَ، فإن صنعت طاعةً فقد صنعت لنفسكَ نفعاً، وإن صنعت معصيةً فقد صنعتَ لنفسكَ ضراً. ففي الأمورِ الاختيارية ضرٌّ ونفع، وذلك بمشيئة الله، فمن شنقَ نفسهُ فقد أتى لنفسهِ بالضرر، وقد ينقذهُ أقاربهُ ولكن بمشيئة الله سبحانه.

فيقول الله تعالى بعدها: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌۚ إِذَا جَآءَ أَجَلُهُمۡ فَلَا يَسۡتَـٔۡخِرُونَ﴾ أي قد حدد الله أجلاً لكل أمة فلا تطلبوا أنتم تحديد آجالِ الأمم، لأن آجال الأمم استئصالاً أو عذاباً هي من عند الله، ولا يقدر أحد على تغيير تلك الآجالِ لأنها محددة من عندِ الله. ثم يقول الله: ﴿ قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَتَىٰكُمۡ عَذَابُهُۥ بَيَٰتًا أَوۡ نَهَارٗا مَّاذَا يَسۡتَعۡجِلُ مِنۡهُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ ﴾ (٢).

أي: أخبروني عما يحدث لكم عند مجيء العذاب؟

والبياتُ: هنا الليل. والنهار: محل الظهور. والإنسان في الليل غالباً ما يكون نائماً غافلاً، وإن جاءَ نهاراً، فالإنسان مشغول كذلك بحركة الحياةِ، ولذلك قال في سورة الأعرافِ: ﴿ أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ﴿٩٨﴾ ﴾ (٣).

---

(١) الكهف: ٢٩ .

(٢) يونس: ٥٠ .

(٣) الأعراف: ٩٧ – ٩٨ .

قال العلماءُ: ولو نظرتَ إلى الواقعِ لوجدتَ أن العذابَ يأتي في الليل وفي النهارِ معاً؛ لأن هناك بلادا يكون الوقت فيها ليلاً، وفي نفس الوقت يكون الزمن نهاراً في بلدان أخرى.

وقوله: ﴿مَّاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ ٱلْمُجْرِمُونَ . . . ﴾. أي: لا تستعجلونَ يا أيها المشركون إلا شراً، لأنه سيأتي بإهلاككم فتصيرون بعد ذلك في الآخرةِ حيث تنتهون إلى العذابِ الخالد، كمن يقول للجاني ماذا جنيت على نفسك؟ ثم إن إيمانكم عند نزول العذابِ لا ينفعكم ولذلك قال تعالى مشيراً إلى أن الإيمان لحظة وقوعِ العذابِ لا يفيد: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ . . .تَسْتَعْجِلُونَ ﴾. أي تكذيباً واستهزاءاً فقد كان المشركون يقولون» نكذب بالعذابِ ونستعجله، ثم إذا وقع آمنا به «. فقال عز وجل لهم: ﴿ أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ ءَامَنتُم بِهِۦٓ . . . ﴾ كمثل فرعون قال: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓاْ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾. ثم بعد نزول العذابِ الدنيوي بكم أيها المشركون ستنتقلونَ إلى عذابِ الآخرةِ الدائم، ولذلك قال: ﴿ ثُمَّ قِيلَ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلْخُلْدِ هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا بِمَا كُنتُمْ تَكْسِبُونَ ﴾ (١). والذين ظلموا هم القائلون: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ ﴾، وأظهر في مكان آخر الإضمارَ لتسجيلِ وصف الظلم عليهم، وهو ظلم النفس بالإشراكِ.

قال صاحب كتاب «فقه السيرة»:

لقد علم هؤلاءِ المؤمنون السابقون أن أول ما يلقاه المؤمن بهذه العقيدةِ هو التضحيةُ بالمنافع والمصالحِ، ولا شيءَ يُربي النفوس على التجردِ كهذا التفاني في الحق، وللحق. ولذلك كان القرآن صارماً في قمعِ المتاجرةِ بالعقائدِ والإثراءِ على حسابها، والعلو في الأرضِ باسمها، واسمع معي إلى قوله تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (٢).

قال العلماءُ: الكافرون مشغولونَ بنعيم الدنيا وزينتها ولذلك كانوا يقولـون عن محمد ﷺ ﴿ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ . . ﴾ (٣) والحياةُ تتطلب مقوماتٍ طبيعية للوجودِ، من سترٍ، وأكل وبيتٍ يؤوي.

---

(١) يونس: ٥٢.

(٢) هود: ١٥-١٦ .

(٣) هود: ١٢.

والزينةُ: تختلف عن المقومات الطبيعية من ستر العورة وسد الحاجة من الطعامِ، والبيت الذي يقي الإنسان من الحر والقرِّ. فالزينةُ تحسن طارئٌ على الذاتِ، فالإنسان يطلب الصوفَ الناعمَ شتاءً، والحريرَ الأملسَ صيفاً، وبدلَ الحجرةِ يطلب القصرَ. لذلك قال تعالى: ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ . . . . وَٱلْأَنْعَـٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَـٰعُ ﴾ (١) فعندنا ـ كما قال العلماء ـ ذاتٌ، وعندنا تحسين طارئ على الذاتِ، فالمرأة المغالية في زينتها بالذهبِ وغيرِهِ. . إنها لا تفعلُ ذلك إلا إذا كانت تشك في جمالها. أما المرأة الجميلة بطبيعتها وذاتها فهي ترفض أن تتزين ولذلك يسمونها الغانية، أي التي استغنت بجمالها الطبيعي عن الزينة، فهي لا تحتاجُ إلى مداراة كبر أذنيها بقرط ضخم. ولا تحتاج إلى مداراة رقبتها بعقد ضخم، وترفض أن تُخفي جمال أصابعها بخاتم.

ولذلك يقولون عن جمال نساء الحضر أنه جمال مصنوع بالمساحيق، والمعاجين.

ويقول الشعراوي ـ رحمه الله ـ ولحظة يسيح هذا المعجون ترتبك، ويختل مظهر وجهها بخليطِ الألوانِ.

من هنا قالوا:

حُسنُ الحضارَةِ مجلوبٌ بتطريةٍ وللبـــــداوَةِ حُسنٌ غير مجلوبِ

فالله تعالى يقول: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴾(٢). أي: إن كفرتم بالله أيها المشركون، فهو سبحانه وتعالى لن يضن عليكم في أن يعطيكم مقوماتِ الحياةِ وزينتها لأنه رب، وهو الذي استدعاكم للوجود وألزم نفسه تفضلاً بإعطائكم مقومات الحياة وزينتها، وهو عز وجل قادر أن يوفي بما وعد ﴿ نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَـٰلَهُمْ . . ﴾.

قال ميمون بن مهران: ليس أحد يعمل حسنةً إلا وُفي ثوابها، فإن كان مسلماً وُفيَ في الدنيا والآخرة، وإن كان كافراً وُفِيَ في الدنيا.

قال المؤرخون: وقد أفاد الصحابةُ من ذلك الحصارِ عِفّةً ونقاء وإخلاصاً لا يُعرَفُ لها في التاريخِ نظير، فلما تعثرت تيجان الملوكِ بأقدامهم كانت دوافع العقيدةِ هي التي تشغل بالهم قبل

---

(١) آل عمران: ١٤.

(٢) هود: ١٥.

الفتحِ وبعده، فلم يكترثوا لذهب ولا لفضة، ولا لأرض ولا لشهوات، إنما عناهم (أولاً وآخراً) إقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وكان لهذه الفترة من السيرة نتائج وعبر ذكرها أهل السيرة وبخاصة صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب.

وكان من هذه النتائج والعبر:

١) بيان ما وصلت غليه قريش في الظلم والجور بهذه المقاطعة.

٢) بيان ما لقي الرسول ﷺ من كفار قريش من اضطهاد.

٣) بيان صبر المؤمنين وثباتهم.

٤) بيان أن أهل المروءة والكرم لا يخلو منهم زمان ولا مكان.

٥) وفيها آية نبوية في أكل الأرضة للصحيفة.

الفصل الستون
عودة النشاط إلىٰ مسيرة الدعوة

قال العلماء: لما انتهى أمر الصحيفة الظالمة القاطعة، وأفسدها الله بتدبيره وحكمته بأن جعل فسادها على أيدي قوم من صناديد قريش، وفرّق كلمة الكفر، خرج رسول الله ﷺ ورهطه إلى الدعوة من جديد، فخالطوا الناس، وعادت الدعوة إلى سيرتها الأولى يحملها رسول الله ﷺإلى مضارب القبائل، ومجتمعات الناس في المجامع والمواسم والأسواق.

قال الصادق عرجون في سيرته (محمد رسول الله): ازداد تحركه ﷺ واتصاله بالناس بعد خروجه من حصار الشعب مُظفّراً، مما أحرق قلوب أهل الوثنية، فلم يكن ﷺ يسمع بشريف في قوم إلا جاءه ودعاه ودعا قومه، فتسامعت العرب لدعوته ﷺ وبتفاصيل محنته ومحنة أصحابه في الحصار، وكيف قرر المشركون اغتياله، وسمعوا بتأييد الله له في نقض الصحيفة، وانتشر ذلك في أسواق العرب.

ولكن هنا سؤال: كيف كان موقف الناس حينئذ منه ﷺ ومن دعوته؟

والجواب: كان الناس يسمعون من رسول الله ﷺ، فمنهم من كان يُؤخذُ ويُعجب بما يسمع من هداية إلى الحق، ويُحسِن الرد على رسول الله ﷺ، ولكن يقف حائراً لا يخطو إلى ساحة الإيمان خطوة واحدة. ومنهم من كان يستمع ويُسيءُ الرد في جفوةٍ جاهلية، فيقول له ﷺ: «**إني لا أُكره أحدا منكم على شيء، ومن رضيَ منكم بالذي أدعوه إليه فذلك، ومن كره لم أكرهه، إنما أريد أن تحرزوني مما يُراد بي من القتل حتى أبلغ دعوة ربي، وحتى يقضي الله لي ولمن صحبني بما شاء**». وكان ممن يستمعون إليه ﷺ صنف من الناس طمع في الدنيا، ورأى في عرض الرسول ﷺ وطلبه المأوى حتى يبلغ الرسالة، فرصة سانحة لتحقيق مآربهِ من العلو في الأرض، والنبي ﷺ فَطِنَ لهؤلاء، فكان ﷺ يُفهمهم في هدوء ويقين أن أمر دعوتهِ ليس أمر دنيا تُحاز، وإنما أمر هذه الدعوة إلى الله الحق مالك الدنيا والآخرة، وهو ﷺ ليس له من الأمر شيء.

قال ابن إسحاق: حدثني الزهري أن النبي ﷺ أتى بني عامر بن صعصعة، فدعاهم إلى الله عز وجل، وعرض عليهم نفسه، فقال رجل منهم يقال له «بيحرة بن فراس»: والله لو أني أخذت هذا الفتى من قريش لأكلت به العرب، ثم قال للنبي ﷺ أرأيت إن نحن بايعناك على

أمرك، ثم أظهرك الله على من خالفك، أيكون الأمر لنا من بعدك؟ فقال النبي ﷺ: «**الأمر لله يضعه حيث يشاء**». قال بيحرة عندها: أفنهدف نحورنا للعربِ دونك فإذا أظهرك الله كان الأمر لغيرنا؟!! لا حاجة لنا بأمرك.

قال ابن إسحاق: فلما رجع الناس من الموسـمِ، ورجع بنو عامر بن صعصعة إلى مضاربهم، وكان عندهم شيخ كبير قد كانت أدركته السن ـ الشيخوخة ـ حتى لا يقدر أن يوافي معهم الموسمَ فلما قدموا عليه ذلك العام، سألهم عما كان في الموسم فقالوا: جاءنا فتى من قريش، وهو من أبناء عبد المطلب، يزعم أنه نبي يدعونا إلى أن نحميه ونقوم معه، ونخرج به إلى بلادنا حتى يُبَلِّغ دعوته!! فوضع الشيخ يده على رأسهِ ثم قال: يا بني عامر بن صعصعة هل لها من تلافٍ؟ هل لذُناباها من مطلب؟ والذي نفسي بيده ما تَقوَّلها إسماعيليٌّ قط، وإنها لحق فأين رأيكم كان عنكم؟!!

وقد روى ابن سيد الناس في كتابه (عيون الأثر) عن جابر بن عبد الله قال: كان رسول الله ﷺ يعرضُ نفسه على القبائل في الموقف ويقول: «**ألا رجل يعرض عليَّ قومه، فإن قريشاً منعوني أن أبلغ كلام ربي**».

وفي حديث محمد بن المنكدر، أنه سمع «ربيعة بت عباد الدؤلي» يقول: رأيت رسول الله ﷺ يطوف على الناس قبل أن يهاجر إلى المدينة يقول: «**يا أيها الناس إن الله يأمركم أن تعبدوه ولا تُشركوا به شيئاً**». ووراءه رجل يقول: يا أيها الناس إن هذا يأمركم أن تتركوا دين آبائكم. فسألتُ: من هذا الرجل؟ فقيل: أبو لهب.

وكان ﷺ يُصابر من يدعوهم، ويصبر على جفوة الجفاةِ، ويُقدِّرُ المهذبين، ويعرف لهم مكانتهم وإن لم يجيبوه إلى دعوتهِ. وكثيراً ماكان الصِّديقُ يصحبهُ في دعوتهِ غلى وفودِ العربِ ومنازِلهم، وكان عليٌّ أحياناً يصحبهُ كذلك. وسنذكر مقابلة واحدة جرت بين رسول الله ﷺ، وبين قوم من وجوه العرب دعاهم فيها رسول الله ﷺ إلى الدعوةِ والنصرة. ننقل هذه المقابلة لما فيها من دروس وقيم، وصدقٍ، بل هيَ روضة من رياضِ السيرةِ النبويةِ كما قال «الصادق عرجون»

فقد ذكر صاحب عيون الأثر (وهو ابن سيد الناس) وغيره من رواية ابن إسحاق عن

عليّ: أنه خرجَ هو والصديق أبو بكر مع رسول الله ﷺ ليعرضَ نفسه على القبائل، ويبلغ رسالته، وقد لقوا قوماً من وجوه العرب فجلسوا إليهم.

قال علي: كان أبو بكر في كل خير مقدماً، وقد تكلم أبو بكر ـ وكان نسيج وحده في معرفة أنساب العرب وشمائلهم ـ فسأل: ممن القوم؟ فقالوا: (من شيبان بن ثعلبة).

فالتفت الصديق إلى رسول الله ﷺ فقال: بأبي أنت وأمي يا رســول الله، هؤلاء غُرَرٌ في قومهم. وفيهم: «مفروق بن عمرو» وقد غلبهم لساناً وجمالاً، وكانت له غديرتان ـ ذؤابتان ـ وكان أقرب القوم مجلساً من الصِّديق. فقال له أبو بكر: كيف العدد فيكم؟

فقال مفروق: إنا لنزيد على الألف، ولن تُغلب الألف من قلة. قال الصِّديق: كيفَ المَنَعَةُ فيكم؟ فقال مفروق: علينا الجَهد، ولكل قوم جِدٌّ. فقال الصِّديق: فكيف الحرب بينكم وبين عدوكم؟ فقال مفروق: إنا لأشد ما نكون غضباً حين نلقى، وإنا أشد ما نكون لقاء حين نغضب، وإنا لنفضِّل الجيادَ على الأولاد، والسلاح على اللقاح، والنصرُ من عند الله يُديلنا مرةً، ويُديلُ علينا أخرى، لعلَّك أخو قريش؟ فقال الصديقُ: أوقد بلغكم أنه رسول الله ﷺ؟ فهاهو ذا. فقال مفروق للنبي ﷺ: وإلامَ تدعو يا أخا قريش؟ فتقدم رسول الله ﷺ فقال: «**أدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده، وأني رسول الله. وأن تؤوني وتنصروني، فإن قريشاً قد تظاهرت على أمر الله، وكذَّبت رسله، واستغنت بالباطل عن الحق، والله هو الغني الحميد**».

فقال مفروق: وإلام تدعو يا أخا قريش؟ فقال رسول الله ﷺ: قارئاً عليهم آياتٍ من سورة الأنعام. وسورة الأنعام كما قال الأصوليون: **اختصت بفضيلتين:**

الأولى: أنه شَيَّعَها عند نزولها سبعون ألف ملك، والسبب أنها اشتملت على دلائل التوحيد، والعدلِ، والنبوةِ، والمعادِ، وإبطال مذاهب الملحدين.

الثانية: أنها نزلت دفعة واحدة في مكة، واستدعى رسول الله ﷺ الكُتاب فكتبوها من ليلتها ـ كما ورد عن ابن عباس ـ وهي بمقدار كتاب من الكتب التي يعرفونها كالإنجيل والزبور ليعلموا أنه عز وجل قادر على الإنزال منجَّماً، ودفعة واحدة، إلا أن حكمة تنزيل القرآن منجَّما أولى بالمراعاة.

ثم ليحصل الإعجاز بمختلف أساليب الكلامِ من قِصر، وطولٍ، وتوسطٍ، فإن طول

الكلامِ قد يقتضيه الكلام كما قال» قيس بن خارجة» يفخر بما عنده من الفضائل: وخطبةٌ من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب. . الخ.

وكقول أبي دؤاد بن جرير الأيادي يمدح خطباء إياد:

يرمونَ بالخطبِ الطِّوالِ وتارةً وحيَ الملاحظِ خشيةَ الرُّقباءِ

وتشييع الملائكة لها ثابت بما رواه الحاكم في مستدركهِ من حديثِ جابر قال: لما نزلت سورة الأنعامِ سبَّح رسول الله ﷺ ثم قال: «**لقد شيَّعَ هذه السورةَ من الملائكةِ ما سَد الأفق**». وهذا الحديث صحيح على شرط مسلم. وأخرج ابن مردويه من حديثِ أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «**أنزلت سورة الأنعامِ معها موكب من الملائكةِ سدَّ ما بين الخافقين لهم زَجَلٌ بالتسبيح، والأرض بهم ترتجُّ**». ورسول الله ﷺ يقول: سبحان الله العظيم، سبحان الله العظيم.

إذاً قرأ رسول الله ﷺ عليهم من سورة الأنعام، فماذا قرأ؟ قرأ قوله تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۖ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُم مِّنْ إِمْلَاقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ۖ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ۖ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ۖ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾(١).

ماذا قال العلماء في هذه الآيات التي تلاها رسول الله ﷺ على زعماء بني شيبان؟ لاحظ العلماء أنه لا يوجد في الآية الأولى شيئاً من المحرمات من الأطعمة التي بها قوام الحياةِ، ولكن فيها المحرمات التي إن اتبعناها تهد القيم المعنوية التي هي مقومات الحياة الروحية.

وقد ختم الله الخمسة الأشياء المذكورة في الآية الأولى بقوله: ﴿ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ. . ﴾ وعندما نذكر خمسة أشياء كان من الواجب أن يُقال: ذلك وصاكم بها، فلماذا قال ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾؟ والجواب عند أهل التفسير: قالوا: كأن أوامر الله ونواهيه أمر واحد متلازم، تتمثل كلها في: التزم ما أمر الله، واجتنب ما نهى الله عنه.

وقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾، أي أن العقل لو تُرك ليبحث هذه الأشياء بحثاً مستقلاً

(١) الأنعام: ١٥١ – ١٥٢.

عن منهج السماء، لوجد أن ضرورة العيشِ على الأرض تتطلب وجود هذه الأشياء، بحيث لو أبيحت هذه المحرمات لتعذَّرَ العيش السوي.

قال المؤرخون: وبعد قراءة طرف من سورة الأنعام على وفد بني شيبان، قال مفروق للنبي ﷺ: وإلام تدعو أيضاً يا أخا قريش؟ فوالله إنَّ ما تكلمت به ليس من كلام أهلِ الأرضِ، ولو كان كلامهم لعرفناه. عندها تلا رسول الله ﷺ قولـه تـعالى من سورة النحل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ . . . . .تَذَكَّرُونَ ﴾[1].

فقال مفروق عندها: دعوتَ والله يا أخا قريش إلى مكارم الأخلاقِ، ومحاسن الأعمالِ، ولقد أفِكَ قوم كذبوك، وظاهروا عليك. وهكذا دخلت هذه الآية قلوب هؤلاء القومِ، واستقرت في أفئدتهم؛ لأنها آية جامعة مانعة، دعت لكل خير، ونهت عن كل شر.

وكان إلى جانب مفروق «هانئ بن قبيصة» وكان هانئ شيخهم والمقدم عندهم في أمر الدين، فقال مفروق للنبي ﷺ: هذا هانئ بن قبيصة شيخنا وصاحب ديننا، وكأنَّ مفروقاً أراد أن يشاركه هانئ في الكلام مع النبي ﷺ فقال هانئ: قد سمعنا مقالتك يا أخا قريش، وإني أرى أن ترك ديننا واتباعنا إياك على دينكَ لمجلس جلسته إلينا ليس له أول ولا آخر زلة في الرأي، وقلة نظرٍ في العاقبة، وإنما تكون الزلة مع العجلة، ومن ورائنا قوم نكره أن نعقِد عليهم عقداً، ولكن نرجع وترجع، وننظر وتنظر. وأحبَّ هانئ أن يشاركه في الكلام «المثنى بن حارثة الشيباني» فقال للنبي ﷺ وهذا المثنى بن حارثة شيخنا وصاحب حربنا.

فقال المثنى: قد سمعت مقالتك يا أخا قريش، والجواب هو جواب هانئ في تركنا لديننا في مجلس واحد جلسناه معك هو زلة في الرأي، وإنما نزلنا بين صيّري اليمامة والسَّماوة (الحيزين) فقال رسـول الله ﷺ: ما هذان الصيران (الحيزان)؟ فقال: أنهار كسرى ومياه العرب، فأما ما كان من أرض فارس وأنهار كسرى فذنب صاحبه غير مغفور، وعذره غير مقبول.

وأما ما كان من مياه العرب فذنب صاحبه مغفور، وعذره مقبول، وإنا نزلنا على عهد أخذه علينا كسرى ألا نُحدِثَ حدثاً، ولا نُؤوي مُحدثاً، وإني أرى أن الأمر الذي تدعونا إليه أنت، هو مما يكرهه الملوك، فإن أحببت أن نؤويك وننصركَ مما يلي مياه العربِ فعلنا. فقال ﷺ «**ما**

---

(١) النحل: ٩٠ .

أسأتم الرد، إذ أفصحتم في الصدق، وإن دين الله لن ينصره إلا من أحاطه من جميع جوانبه، أرأيتم إن لم تلبثوا إلا يسيراً حتى يورثكم الله أرضهم وديارهم وأموالهم، ويُفرشكم نساءهم، أتسبحون الله وتُقدِّسونه؟».

فقال النعمان بن شريك: اللهم لك ذا يا أخا قريش. فتلا رسول الله ﷺ قوله تعالى ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا . . . وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ (١). ثم نهض رسول الله ﷺ.

قال علي: فأخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال» **يا أبا بكر، يا أبا الحسن، أية أخلاق للعرب كانت في الجاهلية؟ ما أشرفها! بها يدفع الله بأس بعضهم عن بعض، وبها يتحاجزون فيما بينهم».**

وقد ذكر ابن كثير في تاريخه «البداية والنهاية»: أنه ذكر هذا الحديث لما فيه من دلائل النبوة، ومحاسنِ الأخلاقِ، ومكارم الشيم، وفصاحة العرب. ونلمس في الآية الأخيرة التي تلاها رسول الله ﷺ على وفد بني شيبان قبل أن تنتهي المقابلة، أن الله نادى النبي ﷺ هذا النداء مبيناً له أركان رسالته ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَـٰكَ شَـٰهِدٗا . . . وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ فذكر للنبي ﷺ خمس صفاتٍ هي: شاهد، ومبشر، ونذير، وداعٍ إلى الله، وسراج منير. فهذه الأوصاف تنطوي على مجامع رسالته ﷺ كما يقول صاحب تفسير «التحرير والتنوير» ثم يقول ـ رحمه الله ـ: فالرسول شاهد بصحة ما هو صحيح من الشرائع، وبقاء ما هو صالح للبقاء منها، ومحمد ﷺ شاهد على أمته، وعلى المستجيبين لدعوته، وعلى المعرضين عنها حال حياته، ويوم القيامة.

والرسول مبشر لأهل الإيمان بمراتب الفوز، وقدَّم البِشارةَ لأنه ﷺ رحمة للعالمين، ولكثرة المؤمنين في أمته. والرسول منذر للكافرين وللعصاة، والداعي إلى الله: هو من يدعو الناس إلى ترك عبادة غير الله، ويدعو للاستجابة لله.

والسراج المنير: أي كالسراج المنير في الهداية الواضحة، ويشمل ذلك ما في الشريعة من علوم، فإن العلم يُشَبَّهُ بالنور، فناسبه السراج. ووصف السراج بأنه منير أي أبلغ في الهدى، مثل ليلٍ أليل أي حالك السواد.

---

(١) الأحزاب: ٤٥.

الفصل الواحد والستون
عام الحزن واشتداد المحن
علىٰ رسول الله ﷺ

قال العلماء: ما إن تَنفَّس المسلمون من الشدة التي لاقوها بالحصار، والتي دامت ثلاث سنوات، حتى أصيب ﷺ بوفاة زوجه خديجة ـ رضي الله عنها ـ، ثم بوفاة عمه أبي طالب. وهذان الحدثان كانا نكبة للنبي ﷺ في حياته الخاصة، وحياته العامة معاً. فأبو طالب كان الأسد الحامي، والحصن الواقي، وها قد ولى الرجل، وأصبحت قريش لا تهاب في محمد أحداً بعده.

ولذلك ورد عن عروة بن الزبير مرسلاً كما ذكر ابن إسحاق: أن رسـول الله ﷺ قال: «**ما نالت مني قريش شيئاً حتى مات أبو طالب**». وذلك حين أقدم سفيهٌ على صَبّ التراب على رأس رسول الله ﷺ بعد وفاة أبي طالب، وقامت إحدى بناته ترفع التراب باكيةً، فقال لها النبي ﷺ: «**لا تبكي يا بنية فإنّ الله مانعٌ أباك**».

مرض أبو طالب مرضه الذي مات فيه، وثقل مرضُه، وعلمت قريش بذلك. فجاؤوا إليه يطلبون منه أن يفاوض لهم ابنَ أخيه محمداً ﷺ علّهم يظفرون بصلحٍ أو اتفاق معه ﷺ قبل وفاة عمه، فبعث أبو طالب إلى النبي ﷺ فحضر.

وقد روى الترمذي من حديث ابن عباس أن قال: وكان عند رأس أبي طالب مكان لرجل واحد، فلما جاء ﷺ قام أبو جهل وجلس فيه كي يمنع محمداً ﷺ من الجلوس إلى جانب عمه، فتكلم أبو طالب وقال مخاطباً النبي ﷺ: يا ابن أخي: هؤلاء أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك، فقال رسول الله ﷺ: «**نعم كلمةً واحدةً تعطونها تملكون بها العرب، وتدين لكم بها العجم**». فقال أبو جهل: وأبيك وعشرَ كلمات.

قال ﷺ: «**تقولون لا إله إلا الله، وتخلعون ما تعبدون من دونه**». فصفَّقُوا بأيديهم وقالوا يا محمد: أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن أمرك لعجبٌ. ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل يعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلِقوا وامضُوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه، ثم تفرّقوا.

وفي هذه الواقعة نزلت الآيات الأولى من سورة ص: ﴿صٓ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ ۝١ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ

﴿فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ ۝٢ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ ۝٣ وَعَجِبُوٓا۟ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ ۝٤ أَجَعَلَ ٱلْـَٔالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ۝٥ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْـَٔاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ۝٧﴾ [1] وقوله تعالى: ﴿ذِى ٱلذِّكْرِ﴾ أي: التذكير، أي يذكر الناس بما عنه غافلون. أو: الذي يُذْكَر أي الممدوح المستحق للثناء، ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ﴾ أي شرفكم. أو به يذكر الله تعالى.

وقوله ﴿فِى عِزَّةٍ..﴾. العزة يدور معناها على ثلاثة أمور: المنعة، والغلبة، والتكّبر. وإن كان ذلك جارياً على أسباب واقعة فهي العزة الحقيقية، وإن كان عن غرور وإعجاب فهي عزة مزورة، قال تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾ أي: أخذته الكبرياء وشدة العصيان فهي عزة باطلةٌ؛ لأن الله عندما يقول: ﴿أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ﴾ فمعنى ذلك أن هناك عزة بلا إثم، وهذه هي التي حكم الله بها لنفسه ولرسوله وللمؤمنين، فقال: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فهذه عزة بالحق، لا عزة بالإثم، والفرق بينهما واضح، ألم يقل سحرة فرعون فيما حكاه الله عنهم: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ فهذه عزة بالإثم والكذب.

وكذلك قوله تعالى هنا: ﴿ بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ فهي عزة بالإثم والكذب أيضاً، أما العزة الحقيقية فتراها في قوله تعالى: ﴿ سُبْحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾ والعزةُ هنا، هي القوة التي تغلب ولا يغلبها أحد، أما العزة بالإثم فهي أَنَفَةُ الكبرياء المقرونة بالمعصية والذنب. فالذين قالوا: ﴿ بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾ هم أنفسهم الذين خروا سجدا أمام موسى وقالوا: ﴿ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۝٤٨﴾.

قال العلماء: والذي تكون عزته بالإثم، فعزته ليست عزةً، بل هي عين الذلة، فلا خير في عمل بعده النار، ولذلك قال تعالى بعد قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴾ [2].

وقوله تعالى: ﴿ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾، والشقاق العناد والخصام، والمراد: شقاقٌ لله بالشرك، ولرسوله بالتكذيب. فصار المعنى: أن الحائل بينهم وبين التذكير بالقرآن هو ما في قراره نفوسهم

---

(١) ص: ١-٧.

(٢) البقرة: ٢٠٦.

من العزة والشقاق.

قال العلماء: واشتد مرض أبي طالب، فعاده النبي ﷺ فوجد عنده بعض رؤوس الشرك، فعرض عليه رسول الله ﷺ الشهادة قائلاً» **يا عم: قل لا إله إلا الله، كلمةً أُحاج لك بها عند الله يوم القيامة**». فنظر أبو طالب إلى أشياخ قريش حوله، فقالوا له: أترغب عن ملة عبد المطلب؟. فقال أبو طالب: هو على ملة عبد المطلب، وفي هذا الموقف نزل قوله تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهۡدِي مَنۡ أَحۡبَبۡتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ﴾ (١).

قال الزجاج: أجمع المسلمون على أنها نزلت في أبي طالب، من أجل امتناعه عن إجابة النبي ﷺ حين دعاه إلى الإيمان بالله وحده.

وفي صحيح مسلم عن حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ أمر عمه بالتوحيد فقال أبو طالب: لولا أن تعيرني نساءُ قريش لأقررت بها عينك. فأنزل الله الآية المذكورة.

وبعد إلحاح المرض على أبي طالب وافته المنيةُ في شهر رجب سنة عشر للبعثة النبوية بعد الخروج من الشعب بستة أشهر وكان قد تجاوز الثمانين.

وقد ورد في الصحيح عن العباس بن عبد المطلب أنه قال للرسول ﷺ ما أغنيتَ عن عمك فإنه كان يحوطك ويغضب لك، فقال ﷺ: «**هو في ضحضاح من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار**»، وفي صحيح البخاري عن حديث أبي سعيد الخدري أنه سمع النبي ﷺ وقد ذُكر عنده عمه أبو طالب فقال ﷺ: «**لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة، فيُجعل في ضحضاح من النار تبلغُ كعبيه**».

ولما مات أبو طالب قال النبي ﷺ: «**لاستغفرن لك ما لم أُنه عن ذلك**»، فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ (٢).

قال العلماء وبعد خمسين يوماً على التقريب من موت أبي طالب ماتت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد ـ رضي الله تعالى عنها وأرضاها ـ، وتتابعت المحن على رسول الله ﷺ ولذلك سمي

---

(١) القصص: ٥٦.

(٢) التوبة: ١١٣.

هذا العام عامَ الحزن.

مات الحامي، ثم مـاتت المؤنسة ساعة الوحشة، والمؤمنة المطمئنة ساعة القلق والخوف، وهكذا نُكب ﷺ في حياته الخاصة بموت خديجة وبحياته العامة بموت أبي طالب، وفي اشتداد المصائب إيذان بالفرج القريب، وفيما أصاب النبي ﷺ من مصائب عزاءٌ لكل مؤمن فيما يصيبه في هذه الحياة مهما عظُمت، إذ رسول الله ﷺ أسوة للمؤمنين والمؤمنات جميعاً.

الفصل الثاني والستون
خروجه ﷺ إلىٰ الطائف

قال صاحب كتاب (محمد رسول الله): بعد وفاة أبي طالب الذي كان القوة القاهرة في حماية النبي ﷺ خلا الجو لأحلاس الشرك، فلم يجد النبي بعد ذلك في مكة متنفساً لدعوته؛ لأنهم نالوا منه بعد وفاة عمه ما لم يستطيعوه حال حياته، فكان لا بد للنبي ﷺ أن يلتمس أرضاً غيرها بعد أن وقفت مكة سداً منيعا في سبيل دعوته وفي طريق نشرها وبعد أن دبروا المؤامرات لاغتياله ﷺ، لكن الله عز وجل يأبى إلا أن يتم نوره كما قال: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطْفِئُواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ (١).

قال العلماء: فمحاولة إطفاء نور الإسلام عبثٌ، ويدلك على ذلك أن الله أضاف النور إلى ذاته ـ نور الله ـ، وأن أصحاب تلك المحاولة لا يبلغون مرادهم.

سعى رسول الله ﷺ إلى الطائف وهي تبعد عن مكة قرابة خمسين ميلاً، سارها رسول الله ﷺ على قدميه جيئة وذهاباً. والطائف تلي مكة في الأهمية واتساع العمران ورفاهية السكان. وكانت مُستَقَرَّ عبادة (اللات)، وهو صنم يُعبد ويُقصد، كما أنّ (هُبل) صنم قريش الأكبر.

وكانت الطائف مصيفاً للمتنعّمين، وظلّت كذلك إلى ما بعد العهد الإسلامي، وقد عبّر عن كونها مركزاً لاصطياف المتنعمين الشاعر «محمد بن عبد الله النميري» عندما وصف أختَ الحجاج «زينَب» في شعر له حيث قال:

تشتو بمكة نعمةً ومصيفُها بالطائف

كان سكانها من ثقيف، ملكوا عليها، وتحصّنوا بها، وسُميّت بالطائف لأنه يُطيف بها جدار مُحَصّن. ومن شعر أبي طالب يشير إلى هذا المعنى قوله:

منعنا أرضنا من كل حيٍ كما امتنعت بطائِفِها ثقيفُ

وكان أهلها أثرياء، فأورثهم هذا الثراء بطراً وكِبراً، فهم أصحاب بساتين وأملاكٍ ورخاءٍ، وزراعةٍ واسعةٍ، ولذلك لما مر بها «سليمان بن عبد الملك» حين قصد الحجَّ رأى بيادر الزبيب

---

(١) التوبة: ٣٢.

فظنها تلالاً من حجارة سود فقال: ما هذه الحرار؟ فقالوا: «يا أمير المؤمنين ليست حِراراً، وإنما هي بيادر الزبيب، فقال: لله درّ قُصيٍّ بأيِّ أرضٍ وضع سِهامه؟ وبأيِّ أرضٍ مهّد عِشّ فُروخِه؟

قال المقريزي: وثقيفُ الذين يسكنون الطائف، هم أخواله ﷺ من الرضاعة، لأن بني سعد الذين أرضعوه ﷺ كانوا قريبين من الطائف، ثم ليس بينهم وبينه ﷺ عداوة.

ذهب ﷺ يلتمِسُ النُصرةَ عندهم، فأقام فيهم شهراً يدعوهم إلى الله تعالى، وفي رواية أنه أقام عندهم عشرة أيام.

قال محمد بن سعد: ذهب النبي ﷺ إلى الطائف ومعه زيد بن حارثة يقيه بنفسه، تعرف ﷺ على أحوالها، ثم قصد إلى ثلاثة نفر من سادتها، وهم: عبد ياليل بن عمرو، ومسعود بن عمرو، وحبيب بن عمرو، وكانوا إخوة، فجلس إليهم رسول الله ﷺ وكلمهم بأنه النبي جاء إليهم لينصروه على حمل الإسلام، والدعوة إليه. فماذا كان ردهم؟

قال المؤرخون: رَدُّوا عليه أقبح رد في عنجهية جافيةٍ، وجاهلية جهلاء، وغرور مستكبر.

قال أحدهم: هو يمرُطُ أثواب الكعبة، إن كان الله أرسلك (أي يسرقها).

وقال الثاني: أما وجد الله أحدا يرسله غيرك؟

وقال الثالث: والله لن أكلمك أبداً، لئن كنت رسول الله كما تقول، لأنت عندئذ أعظم خطراً من أن أرد عليك الكلام، ولئن كنت تـكذب على الله فما ينبغي لي أن أكلمك. ثم قالوا له وقد خافوا من تأثير كلامه في الشباب: يا محمد اخرج من بلدنا. فقام ﷺ وقد يئس من خيرهم وخير بلـدهم، ثم طلب إليهم ﷺ إذ تنكروا لدعوتهِ ونصرته، وأساؤوا الرد، أن يكتموا أمره حتى لا يصل الخبر قريشاً، فيشتدوا عليه، ويشمتوا به.

قال الصادق عرجون: ولكن أهل الطائف في حينها كانوا ألأمَ قومٍ في مكرمة عربية، إذ أَفْشَوا هذا اللقاءَ ونشروه، وزادوا في مقابحهم أنهم سلَّطوا عُبْدانَهم، وسفهاءَهم عليه يشتمونه، ويصيحون به استهزاء، ثم قعدوا له صفين وهو خارج يرمونه بالحجارة، فكان ﷺ لا يرفع رجليه ولا يضعهما إلا رضخوه بالحجارة حتى اختضبت نعلاه بالدماء.

كما روى ذلك صاحب البداية والنهاية من رواية «موسى بن عقبة»، وزادوا في اللؤم أنهم كانوا إذا اضطرته الجراحةُ للاستراحة يأخذون بِعضُديه فيقيمونه، فإذا مشى عادوا إلى إيذائه ثم

يضحكون. وحاول زيد بن حارثة الدفاع عنه فلم يستطع، واضطره المطاردون أن يلجأ إلى بستان في ظل حُبلَةٍ من شجر العنب، وهـو مكروب، والدماء تسيل من قدميه الشريفتين، كما شُجَّ رأس زيد بن حارثة رضي الله عنه.

قال العلماء: واستوحش الرسول ﷺ من هذا الحاضر المرير، وعادت إليه ذكريات ما عانى في مكة، إنه ﷺ يذكر سلسلة ثقيلة من الهموم المتلاحقة فيهتف ﷺ بعدما اطمأن. . . .

قائلاً: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي، ولكن عافيتك أوسع لي، أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت له الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بي غضبك، أو يحل علي سخطُك، لك العتبى حتى ترضى، ولا حول ولا قوة إلا بك**».

قال علماء السيرة: وكان ذلك البستان لعتبة وشيبة ابني ربيعة، فلما رآهما رسول الله ﷺ عندما جلس في ظل البستان، كره مكانَهما لما يعلم من عداوتهما لله ولرسوله، فلما رأياه على هذا الحال تحركت له رحِمُهُما وعاطفةُ القرابة، فَدَعَوا غلاماً لهما نصرانياً يُدعى «عداساً» وقالا له: خذ قِطفاً من هذا العنب فضعه في طبق ثم اذهب به إلى ذلك الرجل، فقل له ليأكل منه. ففعل «عداس» ما أمراه به، ثم أقبل على رسول الله ﷺ حتى وضع الطبق بين يدي رسول الله ﷺ وفيه قِطْفٌ العنب، ثم قال له: كل. فلما وضع رسول الله ﷺ يـده ليأكـل قـال: «**بسم الله**» ثم أكل. فنظر «عداس» في وجه النبي ﷺ ثم قال: والله إن هذا الكلام ما يقوله أهل هذه البلاد!! فقال له رسول الله ﷺ: (ومن أي البلاد أنت يا عداس؟ وما دينك؟) قال عداس: أنا نصراني من أهل نينوى. فقال له رسول الله ﷺ: (من قرية الرجل الصالح يونس بن متّى؟) قال عداس: وما يدريك ما يونس بن متى، والله لقد خرجت من نينوى، وما فيها عشرة يعرفون ما متّى، فمن أين عرفتَه وأنت أميٌّ من أمة أمية؟ قال ﷺ: «**ذاك أخي كان نبياً وأنا نبي**». فأكب عداس على رسول الله يقبل رأسه ويديه وقدميه.

وقد ذكر البيهقي في الدلائل قال: وكان رسول الله ﷺ لا يحقر أحداً، فقال لعداس يبلّغه رسالةَ ربه: «**أنا رسول الله، والله أخبرني خبرَ يونس بن متى**». عندها خرَّ عداس ساجداً لرسول الله، وجعل يقبل قدميه وهما يسيلان بالدماء، فلما أبصر عتبة وشيبة صاحبا البستان ما يصنع

غلامهما سكنا حتى جاءهما عداس فقالا لـه: ما شأنك سجدت لهذا الرجل، وقبَّلت قدميه، ولم نرك فعلت ذلك بأحد منا؟ قال عداس: يا سيدي، ما في الأرض من شيء خير من هذا، لقد أعلمني بأمر لا يعلمه إلا نبي، فضحكا به، وقالا له يريدان الحط من شأن محمد ﷺ: ويحك يا عداس، ولا يصرفنك عن دينك، فإن دينك خير من دينه.

وقد ذكر السهيلي في كتابه «الروض الأُنُف» أن عداساً لما أراد سيداه الخروج إلى بدر أمراه بالخروج معهما، فقال: أقتالَ ذلك الرجل الذي رأيته ببستانكما تريدان؟ قالا: نعم. قال: والله ما تقوم له الجبال.

والرحلة إلى الطائف، وما عانى رسول الله ﷺ فيها من الشدة، ثابتة في الصحيحين من حديث عائشة ـ رضي الله عنها ـ قالت: قلت للنبي ﷺ: هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد؟ فقال ﷺ: «**لقد لقيت من قومك، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضتُ نفسي على عبد ياليل بن عبد كلال ـ من أكابر أهل الطائف من ثقيف ـ فلم يجبني إلى ما أردت فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب ـ وهو ميقات أهل نجد والمسمى بقرن المنازل وهو على يوم وليلة من مكة ـ فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله ـ عز وجل ـ قد سمع قول قومِك لك، وما ردّوا عليك، وقد بعث إليك مَلَكَ الجبال لتأمره بما شِئت فيهم. قال ﷺ: فناداني ملك الجبال وسلم علي ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا مَلَكُ الجبالِ وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إن شئتَ أن أُطبق عليهم الأخشبين ـ هما جبلا مكة أبو قبيس والذي يقابله وهو قعيقعان أو الجبل الأحمر المشرف على قعيقعان، وسُميا بالأخشبين لغلظ حجارتها ـ فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئاً**». هذا الحديث في الصحيحين، وهو يكفينا لإثبات صحة هذه الرحلة، أما ما يخص الدعاء الذي دعا به رسول الله ﷺ فقد رواه الطبراني، وهو حديث مرسل، والمرسل من أنواع الضعيف.

أما قصة عداس فقد ذكرها ابن هشام في سيرته بسند صحيح لكنه مرسل، وهو ضعيف لأنه مرسل محمد بن كعب القرظي، والضعيف لا يحتج به إلا مع قرائن.

هنا نقف قليلاً عند قوله ﷺ لملك الجبال: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده**» هنا درس يجب أن ينتبه إليه العاملون، وهو أنه يجب أن نميز بين السياسي وصاحب الدعوة،

فمهمة السياسي أن ينتصر، ومهمة الداعية أن تنتصر دعوتُهُ، وحين يختار بين الأمرين فإنه يختار دعوته على شخصه. .

ولهذا قال ﷺ: : «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحده**»، ولهذا قال له الملك عندما قال النبي ﷺ هذا القول: أنت يا محمد كما سمّاك ربُك رؤوف رحيم. كما ورد في بعض الآثار.

ثم إن في خروجه ﷺ إلى الطائف، وما لاقاه من أهلها عِبرٌ بينها العلماء، واستخلصوا من هذه الرحلة دروساً كثيرة لعل من أهمها ما ذكره صاحب فقه السيرة حيث قال ما معناه:

إن الرسول ﷺ جاء مبلغاً عن الله، فبلّغنا العقيدةَ الصحيحة عن الكون وخالقه، وبلّغنا أحكام العبادات والمعاملات والأخلاق، كما جاء يبلغ المسلمين ما كلفهم الله به من الصبر على مشاق الدعوة، فما عاناه الرسول من أهل الطائف كان من جملة أعماله التبليغية.

ولقد علمنا رسول الله ﷺ القيام بالعبادات بالوسيلة التطبيقية فقال: «**صلوا كما رأيتموني أصلي**»، وفي الحج: «**خذوا عني مناسككم**»، وبناء على هذه القاعدة فقد قاسى ﷺ أشد أنواع المحن في الدعوة ليقول بلسان الحال لجميع الدعاة من بعده: (**اصبروا كما رأيتموني أصبر**) تطبيقاً لقوله عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ . . . ﴾[1].

واحذر أخي الكريم أن تتوهم أن رسول الله ﷺ قد ناله الضجر في تلك الرحلة، واستعظم المشقة، فالحقيقة أنه عليه الصلاة والسلام قد استقبل تلك المحن راضياً، وتجرع تلك الشدائد صابرا محتسباً. وإلا كان بوسعه ﷺ لو شاء أن ينتقم من السفهاء الذين آذوه، ومن الزعماء الذين أمروا بإيذائه، وذلك حين وضع ملك الجبال تحت إمرته، ليبطش بهم، فقال ﷺ: «**أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يوحد الله عز وجل**» وهو بهذا يعلم أمته فن الصبر على كل المكاره.

وقد يقول قائل: فما معنى ارتفاع صوته ﷺ بالدعاء والشكوى؟

والجواب: أن الشكوى لله تعبد، والتذلل على بابه والتضرع له قربة وطاعة، وللشدائد حكم، لعل من أهمها أنها تسوق العبد إلى باب الله، وإلى التوبة، فليس بين الصبر على المكاره والشكوى إلى الله تعارض.

---

(١) آل عمران: ٢٠٠.

وجميل قول من قال:

قالوا أتشكو إليه   ما ليسَ يخفى عليه
فقلتُ ربّي يرضى   ذلَّ العبيد لــديه

وهذه هي **العبرة الأولى**.

بل الواقع ـ كما قال صاحب كتاب «فقه السيرة» أن الرسول ﷺ كان يُعلِّم أمته في حياته كلا الأمرين، الصبر على المحن، واللجوء إلى الله ودوام الضراعة له عز وجل، ومع العلم بأن النفس البشرية مهما تسامت فهي لا تتجاوز دائرة بشريتها، والإنسان مجبول على الركون للنعيم، والفزع من الألم والعذاب، ولكن المؤمن مع هذا يفضل الألم على النعيم واللذائذ إذا كان إرضاءً لوجه الله، وهذا هو مناط استحصال الثواب، وظهور معنى التكليف، كما قال السيوطي: وإذا تأملت مشاهد السيرة عموماً، والخروج إلى الطائف خصوصاً نلاحظ أنه في كل مشهد إيذاء للرسول ﷺ مشهداً آخر فيه مواساة ربانية للرسول ﷺ لكي لا يدخل اليأس إلى النفس، ففي مشهد ما عاناه الرسول في الطائف نجد رداً إلهياً واضحاً على سفاهة من آذوه، نجد ذلك في مظهر الرجل النصراني «عداس» حين سعى إلى رسول الله ﷺ بطبق العنب ثم انكب على تقبيل رأسه ويديه ورجليه، وذلك حين أخبره ﷺ أنه نبي، وما أجمل قول «مصطفى صادق الرافعي» عندما قال في قصة الطائف

ـ **وهذه العبرة الثانية** ـ: لقد أسرع الخير والكرامة ـ إشارة إلى قصة عداس ـ وأقبلت تعتذر عن الشر والعداوة، وجاءت القبلات بعد كلمات العداوة.

والعبرة الثالثة التي نلاحظها في رحلة الطائف، وهي ما كان يفعله زيد بن حارثة من حمايته للنبي ﷺ ووقايته له بنفسه من حجارة المعتدين حتى شُجَّ عدة شجات. وهذا نموذج لما ينبغي أن يكون عليه حال المسلم بالنسبة لقائد الدعوة، من حمايته له بنفسه، والدفاع عنه وإن اقتضى ذلك التضحية بالحياة.

الفصل الثالث والستون
العودة إلىٰ مكة واستماع الجن لقراءته

قال كتاب السيرة:

وانصرف النبي ﷺ عائدا من الطائف إلى مكة بعد، أن أَيس من خير ثقيف عاد إلى البلد الذي لفظه حتى إذا كان بنخلة قام من جوف الليل يصلي فمر به ﷺ نفر من جِنّ نصيبين اليمن وهم يهود، ولم يشعر ﷺ بوجودهم واستمعوا إلى قراءته ﷺ ثم رجعوا إلى قومهم منذرين، بعد ذلك، وفدوا إليه ﷺ أرسالاً قوماً بعد قوم، وفوجاً بعد فوج. وإلى هذا أشار القرآن الكريم في سورة الأحقاف ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾ [1] ونصيبين: مكان بين الطائف ومكة، وكان رسول الله ﷺ قد دعا لأهلها فقال ﷺ: «**رُفعت إلي نصيبين حتى رأيتها فدعوت الله أن يُعذِبَ نهرها، ويُنضِّرَ شجرها، ويُكثر مطرها**».

وقولهم: أنصتوا. هذا أدب منهم. وقوله تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، نلاحظ أنهم لم يذكروا عيسى ـ عليه السلام ـ فلماذا؟ الجواب: لأن عيسى أُنزل عليه الإنجيل فيه مواعظ ورقائق، وقليل من الحرام والحلال، فهو كالمتمم لشريعة التوراة المنزل على موسى، فالعمدة هو التوراة، ولهذا قالوا أنزل من بعد موسى، كما نلاحظ أن ورقة بن نوفل حين أخبره النبي ﷺ بقصة نزول جبريل ـ عليه السلام ـ أول مرة قال ورقة: بخٍ بخٍ. . هذا الناموس الذي نزل على موسى، ونلاحظ أن الجن أحسنوا دعوة قومهم حيث جمعوا في دعوتهم بين الترغيب والترهيب، وذلك قولهم: ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾ ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ وهذا أفضل أسلوب لأنه طريقة القرآن الكريم في الدعوة إلى الله.

وعاد رسول الله ﷺ بعد هذه الواقعة إلى مكة، وفي الطريق يقول له زيد بن حارثة: يا رسول الله كيف تدخل عليهم وقد أخرجوك؟ ويأتي جواب النبي ﷺ لزيد جواب المطمئن الواثق بربه عز وجل: «**يا زيد، إن الله جاعل لما ترى فرجاً ومخرجا، وأن الله ناصر دينه، ومُظهر**

---

(١) الأحقاف: ٢٩- ٣١.

نبيّهِ». وفي هذا الحديث فائدة تعليمية للعاملين والدعاة هي أن لا تصدنا العقبات والمحن التي تكون في طريق الدعوة التي أمر الله أن نسير فيها، وأن لا تحملنا المحن على الكسل والتواني ما دمنا نسير على هدي من الإيمان بالله وتوفيقه ـ كما قال صاحب كتاب فقه السيرة ـ وعودته ﷺ إلى مكة ضرورية لمصلحة الدعوة؛ لأن النبي ﷺ كان قد خطط منذ مسيرته إلى الطائف أن يعود إلى مكة ليلتقي بوفود القبائل في موسم الحج.

الفصل الرابع والستون
دخوله مكة في جوار المطعم بن عدي

ووصل النبي ﷺ عند رجوعه قريباً من مكة عند غار حراء، ومعه زيد بن حارثة، ويخاف زيد على رسول الله ﷺ فطلب من النبي ﷺ ألا يدخل مكة إلا في جوار أحد سادتها حتى لا يؤذى، فنزل ﷺ على رأي زيد وأرسل إلى «الأخنس بن شريق» يطلب منه أن يجيره ليدخل مكة، فأجابه الأخنس: إني حليف قريش ـ أي تابعها ـ ولا أجير على صحيحها. ثم بعث النبي إلى «سهيل بن عمرو» ليجيره، فقال سهيل: إن بني عامر بن عامر بن لؤي لا يجيرون على بني كعب بن لؤي. فبعث رسول الله ﷺ إلى «المُطعم بن عدي» ليجيره، فقال المطعم لرسول رسول الله ﷺ: نعم، قل له فليأت، فذهب رسول لله ﷺ إلى المُطعم وبات عنده تلك الليلة، ثم لما أصبح الصبح خرج المطعم وبنوه الستة أو السبعة وهم متقلدو السيوف جميعاً فدخلوا المسجد، وقال المطعم للنبي ﷺ: طف، واحتبى هو وأولاده ـ اشتملوا ـ بحبائل سيوفهم في المطاف، فصلى رسول الله ﷺ ثم انصرف إلى بيته، وكان هذا إعلاناً قوياً بهذا الجوار.

وجاء أبو سفيان بن أمية بن عبد مناف، وأقبل على مطعم بن عدي فقال له: أمجير أن تابع؟ قال المطعم: بل مجير، فقال أبو سفيان: لا تخف أجرنا من أجرت. وقول أبي سفيان: أتابع أم مجير، فيه إشارة إلى أنه إن كان المطعم قد أسلم وتبع محمداً فهم سيحاربونه مع محمد ﷺ، وأما إن كان مجيراً فهو لا زال على دينهم فلا يحاربونه. ولما نزل النبي ﷺ في جوار المطعم بن عدي استغلها أبو جهل فرصة للتهكم من نبي يحتاج إلى جوار فقال: لِمَ لَمْ تنزل كوكبة من الملائكة لحفظه؟ ولما رأى أبو جهل النبي ﷺ بعد هذا الجوار التفت إلى عتبة بن ربيعة وقال: هذا نبيكم يا بني عبد مناف؟ فرد عليه عتبة قائلاً: وما يُنْكَرُ أن يكون منا نبي ومَلِك؟

ولما أخبر النبي ﷺ بكلام أبي جهل وردِّ عتبة قال ﷺ: «**أما أنت يا عتبة فما حميت لله، وإنما حميت لنفسك**»، لأن عتبة قال هذه العبارة عصبية لبني عبد مناف لا إيماناً برسول الله ﷺ، «**وأما أنت يا أبا جهل فوالله لا يأتي عليك غير بعيد حتى تضحك قليلاً، وتبكي كثيرا، وأما أنتم يا معشر قريش: فوالله لا يأتي عليكم غير كثير حتى تـدخلوا فيما تُنكرون**». ذكره الطبري بدون سند.

قال صاحب كتاب «فقه السيرة»: وفي هذا التعليق من رسول الله ﷺ ما يدل على ثقة الرسول ﷺ بالمستقبل مهما اكتنفه في الحاضر من آلام وقد حفظ النبي ﷺ للمطعم هذا الصنيع الجميل، فقال يوم أسرى بدر ـ وكانوا سبعين ـ: «**لو كان المطعم حيا لتركت له هؤلاء النتنى**». في هذه الواقعة قد يتساءل البعض بحيرةٍ: ما الحكمة بدخول النبي ﷺ مكة في جوار كافر، وما الحكمة في قوله ﷺ لزعماء القبائل: «**من يؤويني حتى أبلغ دعوة ربي؟**» وهو ﷺ سيد المتوكلين، وسيد الموقنين بنصر الله وحمايته له؟. والجواب: أن هؤلاء المتحيّرين السائلين غفلوا عن أمرين اثنين ـ كما قال العلماء ـ، أولهما: أنه ﷺ بشر من الناس احتاج إلى أن ينزل عليه قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ [1] بعد الأمر بالتبليغ، وذلك قوله تعالى: ﴿ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ . . . . ٱلۡكَٰفِرِينَ ﴾ [2].

قال الزهري: مِنَ الله الرسالة، وعلى الرسول البلاغ، وعلينا التسليم. فالله يقول لرسوله: اطمئن يا محمد؛ لأن من أرسلك هداية للناس لن يُخلّي بينك وبين الناس، ولن يجرؤ أحد على أن ينهي حياتك، ولكني سأمكنك من الحياة إلى أن تكتمل الدعوة، فكأن الله تعالى يقول: يا محمد قد تتألم، وقد تتعرض للأذى يا محمد، ولكن أحداً لا يقدر أن يأخذ حياتك، وكلنا يعلم كم عانى رسول الله ﷺ، ألم تكسر رباعيته؟ ألم يشج وجهه؟ ألم تدم إصبعه؟ فقال ﷺ «**إن أنت إلا إصبع دميت، وفي سبيل الله ما لقيت**». كما ذكر البيهقي في دلائل النبوة.

وجميل بنا أن نقف قليلاً مع ما رواه الإمام أحمد من حديث عائشة أن رسول الله ﷺ سهر ذات ليلة وهي إلى جنبه، قالت: فقلت ما شأنك يا رسول الله؟ قال: «**ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة**».

قالت: فبينا أنا على ذلك إذ سمعتُ صوتَ سلاح. فقال ﷺ من هذا؟ فقال: أنا سعد بن مالك، فقال ﷺ: «**ما جاء بك؟**» قال سعد: جئت لأحرسك يا رسول الله!! فنام رسول الله حتى سُمع غطيطه. وقد ورد عند الإمام أحمد أنه ﷺ كان يُحرس قبل نزول قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾.

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) المائدة: ٦٧.

وعند الترمذي والحاكم وغيرهما أنه ﷺ كان يُحرس قبل نزول هذه الآية، فلما نزلت أخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة فقال لأصحابه: «**أيها الناس! انصرفوا فقد عصمني الله**». والعصمة هنا: هي الحفظ من اغتيال المشركين له؛ لأن ذلك هو الذي كان يُهِم النبي ﷺ إذ لو حصل الاغتيال أو القتل لتعطل الهُدى الذي كان يحبه رسول الله ﷺ للناس؛ لأنه ﷺ كان حريصاً على هدايتهم.

هنا سؤال يرد: وهو أن هذه الآية من سورة المائدة وهي سورة مدنية، فكيف كانت العصمة للنبي ﷺ وهو في مكة والآية مدنية؟ والجواب: أن هذه العصمة وهذا الحفظ قد تكرر الوعد به في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ . ﴾ (١) وفي هذا القول وعد ووعيد من الله تعالى.

كما تكرر الوعد بهذه العصمة وهذا الحفظ من القتل في غير القرآن الكريم، فقد أخبر النبي ﷺ وهو بمكة أن الله عصمه من المشركين، فقوله تعالى: ﴿**وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ**﴾، تثبيت للوعد بالحفظ وإدامةٌ له، وأن الحفظ قائم لا يتغير بتغير العدو، ففي مكة محفوظ والعدو مشرك، وفي المدينة محفوظ والعدو يهود ومنافقون.

أما ثاني الأمرين الذي غفل عنه المتحيّرون المتسائلون الذين قالوا: ما الحكمة في دخول النبي ﷺ بجوار مشرك، وفي قوله ﷺ: «**من يؤويني**» وهو ﷺ سيد المتوكلين؟

الأمر الثاني: هو أن النبي ﷺ مُشرِّع، وله أصحاب لاقَوا من العذاب ألواناً، فهو ﷺ يفعل ما يفعل ليكون لهم أسوة، وليقتدوا به، ولولا ذلك لوقفت الدعوة، ولتعرض هؤلاء الدعاة للفناء، والقتل، ولما أتيح له ﷺ أن يلقى الأنصار ويبايعهم على إيوائه ونصرته، فكانوا كتيبة الإسلام الأولى التي حقق الله على يديها أعظم انتصار فتح أمام الدعوة أبواب الدنيا. ولم يكن ذلك اللجوء، وطلب الحماية والنصرة ليُنقِصَ من يقين رسول الله ﷺ وصِدْقِ اعتمادِه على الله عز وجل.

ولابد في ختام هذه اللوحة من السيرة النبوية أن نشير إلى أن باحثةً بلجيكية عكفت على دراسة سيرة النبي ﷺ وعندما وصلت إلى هذه النقطة من السيرة توقفت لتقول ـ كما ذكر

---

(١) البقرة: ١٣٧.

الشعراوي رحمه الله ـ لو كان هذا الرجل ـ تعني محمداً ﷺ ـ يخدع الناس جميعاً ما خدع نفسه في حياته حين قال لحراسه: «**انصرفوا فقد عصمني الله**»، ولو لم يكن واثقاً من أن الله يعصمه ويحفظه لما فعل ذلك كتجربة واقعية تدل على ثقته بخالقه، ثم قالت: ولذلك أنا أقول بملء اليقين أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله. قال الشيخ معلقاً على هذه القصة: لقد أسلمت المرأة لمجرد وقوفها عند لمحة واحدة من لمحات حياة وسيرة محمد ﷺ.

يروي المؤرخون: أن أبا دلامة دخل على المنصور الخليفة العباسي وعليه قلنسوة طويلة، ودرَّاعة مكتوب بين كتفيها: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ وسيف معلق في وسطه؛ وكان المنصور قد أمر الجنود بهذا الزي من اللباس، فقال له المنصور: كيف حالك يا أبا دلامة؟ قال: بشَرٍّ يا أمير المؤمنين! قال: وكيف ذاك؟ قال: ما ظنك برجل وجهه في وسطه، وسيفه في إسته، وقد نبذ كتاب الله وراء ظهره؟!! فضحك المنصور وأمر بتغيير ذلك الزي فوراً.

قال صاحب تفسير المنار في قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ قال: وهذا الوعد بالكفاية عام للمؤمنين، وإن كان الخطاب خاصاً فإن أهل الكتاب وغيرهم ما عادوا النبي لذاته، فالإيذاء كان متوجهاً إليه من حيث هو نبي يدعو إلى دين غير ما كانوا عليه، وقد أنجز الله وعده للنبي ﷺ والمؤمنين عندما كانوا على ذلك الإيمان، وكان الناس يعادونهم لأجل هذا الإيمان. ثم قال ـ رحمه الله تعالى ـ: فلما انحرفوا ـ المؤمنون ـ من بعدهم عنه ـ عن الإيمان ـ خرجوا عن الوعد، ولو عادوا ـ إلى الإيمان ـ لعاد الله عليهم بالكفاية والنصر وفق قوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ . . .﴾ (١).

قال القاضي: وقد أنجز الله وعده بأن سلط الله المهاجرين والأنصار على صناديد العرب، وأكاسرة العجم وقياصرتهم، وأورثهم أرضهم وديارهم.

(١) الحج: ٤٠.

الفصل الخامس والستون
الإسراء والمعراج

المقصود بالإسراء: هو الرحلة العجيبة التي بدأت من المسجد الحرام بمكة إلى المسجد الأقصى بالقدس بشخصه ﷺ الكامل.

والمقصود بالمعراج: هو ما بعد هذه الرحلة من الارتفاع في طبقات السماوات من المسجد ألأقصى إلى سدرة المنتهى بل إلى ما فوق ذلك مما استأثر الله بعلمه، وخص به نبينا ﷺ وقد أشار القرآن الكريم إلى الرحلتين في سورتين مختلفتين.

ذكر قصة الإسراء وحكمته بقوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (١). ونلاحظ أن الآيـة التي معنا نصت على أن الله يريد أن يري عبده بعض آياته كما قال العلماء. ثم أوضحتْ آياتُ المعراج في السورة الثانية، وهي سورة النجم أن الرسول ﷺ رأى فعلاً بعض هذه الآيات، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (٢). فآية الإسراء نصت على الرحلة إلى بيت المقدس حيث المسجد الأقصى الذي بناه سليمان ـ عليه السلام ـ بوصية من والده نبي الله داود عليه السلام، وداود توخى ذلك الموضع، ونصب فيه خيمة وحياً. وهذا المكان في الأصل هو المكان الذي نصب إبراهيم فيه خيمته وجعل مذبحاً للقرابين. وإبراهيم عليه الصلاة والسلام هو أول من بنى بيت المقدس بعد أن بنى المسجد الحرام بأربعين سنة كما ثبت في الصحيحين من حديث أبي ذر.

قال العلماء: كان الإسراء والمعراج مكافأة ربانية على ما لاقاه الحبيب ﷺ من الآلام والأحزان؛ لأن الإسراء قد سبقه كما مر معنا حصار في شعب أبي طالب دام ثلاث سنوات كلها جوع وحرمان ومقاطعة، كما سبقه خيبة أمل من رحلته إلى الطائف، وقبل هذا وذاك كان وفاة الحاميين عمه أبي طالب، وزوجه خديجة. في هذه الرحلة قرَّبه ربه وأدناه، وخلع عليه من حلل

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) النجم: ١٣-١٨.

الرضا ما أنساه كل ما كان من نَصَبٍ وتعب.

كما كان الإسراء والمعراج مكرمة فريدة للنبي ﷺ شرفه بها، ودرساً تربوياً لتوضيح معالم الرسالة في مستقبلها بعد أن بلغت مبلغاً من التمحيص هيأهـا للسير قدماً في طريق الجهاد، وفَتحٍ لأبوابِ الفرج والخلاص من مشاق الأذى الذي لقيه رسول الله ﷺ وأصحابه.

قال العلماء: وقد اتسع اختلاف الروايات في واقعة الإسراء والمعراج من زيادة في الروايات أو نقصان، ومن تقديم وتأخير، وإسهاب وإيجاز فقد بلغ مجموع ما رواه البخاري في صحيحه قريباً من عشرين رواية. والذي نؤمن به، ونلقى الله عليه أن آية الإسراء والمعراج كانت حفاوة وتكريماً له ﷺ أسري به جسماً وروحاً إلى المسجد الأقصى، ثم عرج به جسماً وروحاً، فسما في عروجه حتى سمع صريف أقلام الغيب تجري بمقادير الخلق في الكون، وفرضت عليه الصلاة، وأوتي من المنح الإلهية علماً وعملاً وبهاء ما لم يؤت أحد مثله من العالمين. هذا اعتقاد كافة المسلمين، وهو ما ندين به، ونعتقده كما قال «الصادق عرجون».

كيف كان الإسراء؟

قال العلماء: كان الإسراء من بيت أم هانئ بنت ابي طالب، واسمها فاختة، أسلمت يوم فتح مكة، وهرب زوجها هبيرة إلى نجران ومات على كفره. أُخرج الحبيب من بيتها الكائن في شعب أبي طالب إلى المسجد الحرام إلى ما بين الحجر والحطيم حيث أجريت له ﷺ عملية شق الصدر، فأُخرج القلب وغسل بماء زمزم المبارك.

قال ابن حجر: نام ﷺ في بيت أم هانئ، وبيتها في شعب أبي طالب، ففرج عن سقف البيت الذي نام فيه المصطفى ﷺ، والسر في انفراج السقف هو التمهيد لما سيقع بعد إخراجه من البيت من شق الصدر، فكأن الملك أراه بانفراج السقف والتئامه في الحال كيفية ما سيصنع به لطفاً وتثبيتاً له ﷺ. انفرج السقف، فنزل الملك وأخرجه إلى المسجد، وبه ﷺ أثر النوم، فاضطجع في الحجر، وتولى جبريل شق صدره كما ذكر ذلك صاحب كتاب «إنسان العيون» بدون آلة، وبدون دم، وبدون ظهور ألم؛ لأن ذلك من خرق العادات، وظهور المعجزات، ثم غسل القلب بماء زمزم، ثم أتي بطست من ذهب مملوء حكمة وإيماناً فحشي القلب بذلك ثم أعيد كما كان.

قال صاحب كتاب «فقه السيرة» ـ الغزالي ـ: لا بد من إعداد خاص لهذا السفر البعيد، إعداد يحصّن أجهزة الجسم ومسامه، فكانت حادثة شق الصدر تهيئة لهذه الرحلة.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: ثم أتي ﷺ بدابة، وهي البراق، وهو كائن يضع خطوه عند أقصى طرْفه، كأنه يمشي بسرعة الضوء، وكلمة براق تشير إلى اشتقاقها من البرق. ركبه ﷺ إلى بيت المقدس، فربطه في حلقة باب المسجد، ودخله فصلى فيه، ثم وضع له معراج ممتد ما بين السماء والأرض، فعرج بصحبة جبريل ـ عليه السلام ـ فانتهيا إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل، فسئل عمن معه؟ فأخبر أنه محمد ﷺ وقد أذن له، ففتح لهما. وهكذا سماء بعد سماء حتى انتهيا إلى السماء السابعة، وقد لاقاهما في كل سماء مقربوها من الملائكة والأنبياء، فلقيا في السماء الأولى آدم عليه السلام، وفي الثانية يحيى وعيسى وهما ابنا الخالة، وفي الثالثة يوسف، وفي الرابعة إدريس، وفي الخامسة هارون، وفي السادسة موسى عليه السلام، وفي السابعة إبراهيم.

قد يسأل سائل: لماذا اختص كل نبي بسماء، وما الحكمة من هذا الترتيب؟

والجواب: نقول: في التسليم كمال العبودية، ولكن العلماء ذكروا شيئاً من حكمة هذا الترتيب، فقالوا: إن أول ما رأى آدم الذي كان آمنا في الجنة فأخرجه منها عدو الله إبليس بكيده، وهذه إشارة إلى الحالة الأولى التي سيلاقيها الرسول ﷺ من قومه، وهي إخراجه من حرم الله، ومن جوار بيته المحرم.

وفي السماء الثانية: «عيسى» و«يحيى» وهما ابنا الخالة، وقد ابتليا باليهود فكذبوا الأول وقتلوا الثاني، وهموا بقتل عيسى كذلك، ولكن نجاه الله، ورسول الله بعد هجرته إلى المدينة ابتلي باليهود، فآذوه، وهموا بقتله فنجاه الله كما نجى عيسى ابن مريم ثم سَمّوه بالشاة.

وأما لقاؤه بـ«يوسف» في الثالثة: فهو إشارة إلى عفو يوسف عن إخوته بعد أن فعلوا ما فعلوا، وكذلك صفح نبينا محمد ﷺ عمن آذاه يوم بدر، ويوم الفتح.

وأما مع «إدريس» في الرابعة فهو دلالة على علو الشأن.

وأما اللقاء بـ «هارون» في الخامسة فهو إيذان بأن قومه سيحبونه كما كان هارون محبوباً في قومه.

وأما مع «موسى» في السادسة، فهو إشارة إلى أن الله سيظهره على الجبابرة كما أظهر موسى على الجبابرة، وأعاد بني إسرائيل إلى بلاد الشام التي أخرجوا منها، وكذلك غزا رسول الله ﷺ تبوك، ودومة الجندل وأسر ملكها، وفتح مكة.

وفي السابعة «إبراهيم» رآه عند البيت المعمور الذي تجتمع فيه الملائكة، وإبراهيم هو الذي بنى الكعبة وأذن بالحج، كما أن آخر أعماله ﷺ الحج قبل وفاته.

وكان ﷺ يلقى في كل سماء من الترحيب ما تقر به عينه، وينشرح له صدره، وتطيب له نفسه.

وقد ذكر صاحب كتاب «الروض الأنف» أن النبي ﷺ قال: «**تلقتني الملائكة حين دخلت السماء الدنيا، فلم يلقني ملك إلا ضاحكاً، حتى لقيني ملك، فقال كما قالوا، ولكنه لم يضحك، ولم أر منه البِشرَ مثل ما رأيت من غيره، فقلت لجبريل: من هذا الملك الذي لم يضحك، ولم يُر منه البِشر؟**» قال جبريل: أما لو ضحك لأحد كان قبلك، أو لأحد كان بعدك لضحك إليك، ولكنه لا يضحك أبداً، هذا مالك خازن النار، فقال ﷺ لجبريل «**وهو من الله تعالى بالمكان الذي وصف لكم؟**» فقال جبريل: (مطاع ثم أمين) أي تطيعه ملائكة العذاب، كما تطيع الملائكة كلها جبريل.

وقد ذكر صاحب «الدر المنثور» ـ السيوطي ـ وعزاه إلى ابن المنذر أن ابن عباس قال: من طاعة الملائكة جبريل أنه لما أسريَ برسول الله ﷺ قال جبريل لرضوان خازن الجنة: افتح له ففتح، فدخلها، ورأى ما فيها وقال لمالك خازن النار: افتح له ففتح، فدخلها ورأى ما فيها. وقد قال ﷺ لجبريل: «**ألا تأمره أن يريني النار؟**» فقال جبريل: بلى، فقال جبريل: يا مالك أرِ محمداً النارَ، فكشف غطاءها ففارت وارتفعت حتى ظننتُ لتأخذن ما أرى، فقلت لجبريل: «**مره فليردها إلى مكانها**»، فأمره، فقال مالك للنار: اخْبِي، فرجعت إلى مكانها الذي خرجت منه ثم رد عليها غطاءها.

ثم رفعت له سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، ونبقها كقلال هجر، وغشيها عند ذلك أمور عظيمة، وألوان متعددة باهرة، وركبتها الملائكة مثل الغربان على الشجرة كثرة، وفراش من ذهب، وغشيها من نور الرب جل جلاله ما غشيها، ورأى النبي جبريلَ في ذلك المكان وله ستمائة جناح، ما بين كل جناحين كما بين السماء والأرض، وهذا ما دل عليه قوله تعالى

من سورة النجم ﴿ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ (١٥) إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ (١٦) مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ (١٧) لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ (١٨) ﴾ (١).

والمعنى كما ذكر ابن عاشور: أي إن كنتم تجحدون رؤيته ﷺ لجبريل في الأرض فلقد رآه رؤية أعظم منها، إذ رآه في العالم العلوي مصاحباً.

وسدرة المنتهى: اسم أطلقه القرآن على مكان علوي فوق السماء السابعة، وقد ورد التصريح بها في حديث المعراج الصحيح عن جمع من الصحابة.

والسدرة: هي شجرة النبق، ويختص هذا الشجر بثلاثة أوصاف: ظل مديد، وطعم لذيذ، ورائحة زكية. فجعلت السدرة مثلا لذلك المكان، كما جعلت النخلة مثلاً للمؤمن، وجُعلت السدرة مضافة إلى المنتهى لكونه ـ المنتهى ـ مكاناً ينتهي إليه علم الخلائق، ولا يتجاوزه أحد؛ لأن ما وراء ذلك لا تطيقه المخلوقات، وهو المكان الذي انتهى إليه قرب النبي ﷺ الذي لم يبلغه قبله ملك، ولعل كونها سِدرة مبني على عرف واصطلاح عند العرب بأن يجعلوا في حدود البقاع سدراً.

وقال المعافري: وسميت بذلك (سدرة المنتهى)؛ لأن أرواح المؤمنين تنتهي إليها، فيصلي عليها هناك الملائكة المقربون. وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ﴾، بيان لما حف المكان من الجلال والجمال. وفي حديث الإسراء قال ﷺ: «**حتى انتهى إلى سدرة المنتهى، وغشيها ألوان لا أدري ما هي**» وفي رواية «**غشيها نور من الله ما يستطيع أحد أن ينظر إليها**».

قال المعافري: ـ لو غطيت بورقة من ورقها هذه الأمة لغطتهم ـ أي ورق السدرة. وجاء في حديث الإسراء قوله ﷺ «**ثم أخلت الجنة**»، وذلك قوله تعالى: ﴿ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴾ وهي مأوى المتقين، ثم حصل له التشريف بتلقي الوحي مباشرة من الله دون واسطة الملك، ففي حديث الإسراء قال ﷺ: «**حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، ففرض الله على أمتي خمسين صلاة**».

ولما رجع ﷺ عائداً مرَّ على موسى، فسأله موسى فأخبره ﷺ بما فرضه عليه ربه، فطلب إليه موسى أن يعود إلى ربه يسأله التخفيف لأن موسى جرَّب بني إسرائيل، ولم يجد لهم عزما،

---

(١) النجم: ١٣-١٨.

فخشي أن يحصل لأمة محمد ما حصل لأمته، فعاد الحبيب ﷺ إلى ربه ـ عز وجل ـ يسأله التخفيف، فما زال يراجعه سائلاً التخفيف حتى كانت خمساً بدل خمسين.

قال العلماء: ومع أن النبي ﷺ أفضل الناس، قال له موسى: أنا أعلم بالناس منك ، وبين له العلة قائلاً: عالجت بني إسرائيل أشد المعالجة. والتجربة أمر زائد على العلم لأنها لا تحصل إلا بالتجربة ـ كما قال العلماء ـ.

ثم إن في هذا الأمر ـ طلب موسى من الحبيب محمد أن يراجع ربه لطلب التخفيف ـ بيان لفضله ﷺ حيث إن موسى على مكانته فقد كان كلامه هنا خدمة للنبي ﷺ ولأمته.

ثم إن النبي ﷺ بخطابه لربه، ومراجعته له يزداد شرفاً، كما يدل على كرمه ـ عز وجل ـ وأنه يحب الملحين في الدعاء، كما أن في ذلك دليلاً على أن من طلب حاجة من الله فقضاها عز وجل له، فعليه ألا يستحي من طلب حوائج أخرى؛ لأن طلب الحوائج منه عز وجل قربةٌ، ويرضى الله بذلك.

وما أجمل قول القائل:

الله يغضبُ إن تركت سؤاله   وَبُنيُّ آدم حينَ يُسأل يغضبُ

ثم كانت العودة بعد ذلك، فصحبه جبريل إلى بيت المقدس، فنزلت الأنبياء يشيعون الحبيب ﷺ، فصلى بهم صلاة الصبح بالمسجد الأقصى، وركب البراق وعاد إلى مكة في صبيحة تلك الليلة، وقد ذهب عنه ﷺ كل كرب وهم وغم، وعاد أوفر ما يكون ثقة وطمأنينة، وتلك ثمرة هذه الرحلة المباركة إلى الملكوت الأعلى، إذ رأى ﷺ بأم عينيه ما كان قد أُخبر به، وتلقَّاه وحياً من ربه فصدَّق الخَبَرُ الخُبْرَ، وما راءٍ كمن سمع.

قال الصادق عرجون في كتابه «محمد رسول الله»: هذه الإراءة لملكوت السموات هي في الحقيقة موطن الحفاوة بالنبي ﷺ، والإكرامِ له؛ ليمسح الله تعالى بهذا الإكرام كل أثر لقيه النبي ﷺ من آثار طغيان الشرك، وفجور الوثنية، علماً بأن رسالته ﷺ رسالةُ كفاحٍ صبور مستمر ما استمرت الحياة غلى ظهر الأرض؛ لأنها دعوة تستهدف إخراج الإنسانية من ظلمات الجهل والظلم إلى نور العدل والعلم، وحتى يعلم حملة هذه الدعوة الذين ورثوا منهج النبي ﷺ أنهم يحملون أثقال ما حُمِّل رسول الله ﷺ، وحتى ينادُوا أن رسالةَ المصطفى ﷺ قد عُقد لواء انتصارها

عند سدرة المنتهى ليلة الإسراء، وما عُقد في السماء فلن يُحل في الأرض، وستنتصر رغم عُتُوِّ المعاندين.

ويوم يتقاعس حاملو أمانة الدعوة مُخلدين إلى الأرض تلمُّظاً للدنيا وزخارفها فلن يأخذوا منها إلا ما يتساقط من فتاتِ موائد المفتونين فيها، ولن يبقى لهم من وراثة الدعوة إلا عبءُ التحمل في الدنيا، وعُسر الحساب في الآخرة.

وقد ضرب الله لهم ـ للدعاة ـ الأمثالَ ليلة الإسراء، ليعقل الدعاة هذا، وليعلموا أن بأيديهم مفاتيحَ الخلود إن اتَّبعوا محمداً ﷺ بحق قال تعالى: ﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ ﴾ (١) ثم قال تعالى بعد ذلك: ﴿ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (٢) أي الراسخون في العلم، المتدبرون في الأشياء على ما ينبغي.

والأمثال والتشبيهات طرق تَبرز فيها المعاني المحتجبة للأفهام. وهذه الآية ترد على المشركين الذين قالوا عندما سمعوا الآيات التي فيها ذكر الذباب والبعوض والعنكبوت.

قالـوا: ـ أما يستحي محمد أن يّمثل بهذه ـ، وما علم هؤلاء أن لكل مقام مقال.

والمؤمن يسلم بهذه الأمثال، فقد تخفى علينا الحكمة، والحكمة موجودة في كل مخلوق. يروي أهل المواعظ أن رجلاً رأى خنفساء، فقال: ماذا يريد الله تعالى من خلق هذه؟ أحسن شكلها، أم طيب ريحها؟ فابتلاه الله بقرحة عجز عنها الأطباء حتى يئس وترك علاجها، فسمع مرة صوت متطبب من الطُرْقيين ينادي في الدروب فقال: هاتوه حتى ينظر في أمري، فقالوا: ما تصنع بطُرْقِيّ وقد عجز عنك حُذّاقُ الأطباء؟ فقال: أحضروه. فلما حضر ورأى القرحةَ استدعى الخنفساء، فضحك الحاضرون. . فتذكر الرجل المصاب بالقرحة في تلك اللحظة ما قال عن الخنفساء. . فقال للخدام: أحضروا للرجل ما طلب، فقتلها ثم أحرقها ووضع رمادها على قرحته أياماً فبرئ بإذن الله تعالى، فقال للحاضرين: إن الله أراد أن يعرفني أنَّ في أخسِ المخلوقات

---

(١) العنكبوت: ٤١-٤٣.

(٢) العنكبوت: ٤٣.

أعزَّ الأدوية.

ولذلك قالوا المشاهدة ثمرة المجاهدة، فلا بد من استعمال العقل الذي هو القوة المتهيئةُ لقبول العلم، ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ والعلم المستفاد من هذه القوة عقل أيضاً. .

ولذلك قال علي ـ رضي الله عنه ـ:

رأيت العقل عقلين فمطبوع ومسموع

ولا ينفع مسموع إذا لم يكُ مطبوع

كما لا تنفعُ الشمسُ وضوءُ العين ممنوع

وفي صدد الإسراء والمعراج يَعرض سؤال: وهو: لماذا كانت الرحلة من بيت المقدس، ولم تكن من المسجد الحرام إلى سدرة المنتهى؟

والجواب: أن النبوات بقيت دهوراً طويلة في بني إسرائيل، وظل مهبط الوحي في بيت المقدس هذه الدهور الطويلة، فلما أسقط اليهود أحكامَ السماء، ولم يستجيبوا للوحي المنزل على الأنبياء، حلَّت بهم اللعنة، وتقرر تحويله عنهم إلى الأبد، ومن ثم كان مجيء الرسالة إلى محمد ﷺ انتقالاً للقيادة من أمة إلى أمة، ومن بلد إلى بلد، ومن ذرية إسرائيل إلى ذرية إسماعيل، وكان غضب اليهود شديدا لهذا الانتقال؛ ولذلك أسرعوا في إنكار نبوة محمد ﷺ، ووضح القرآن ذلك في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا ٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾﴾ (١).

قال صاحب تفسير التحرير والتنوير: اليهود كفروا حسداً على خروج النبوة منهم للعرب، ولذلك قال تعالى: ﴿..بَغْيًا﴾ أي حسداً لرسول الله ﷺ أن تأتي إليه الرسالة. ولذلك قال تعالى: ﴿فَبَآءُو بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ﴾، أي باؤوا بغضب شديد مضاعف، وهذا كقوله تعالى:

(١) البقرة: ٨٩-٩٠.

﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾[1] أي نور عظيم، أو أنهم باؤوا بغضبين:

الأول: أنهم لم ينفذوا ما جاءهم في التوراة.

والثاني: حين كفروا بالنبي ﷺ وكان المفروض أن يؤمنوا به لورود ذكره في التوراة وقوله تعالى: ﴿وللكافرين عذاب مهين﴾. هذا العذاب بعضه هنا في الدنيا، ولماذا بعضه هنا؟ والجواب: حتى يرى الظالم، أو الباغي ما حل بأمثاله فيتوب من بغيه وظلمه، وحتى لا ينتشر الفساد في الأرض ممن لا يؤمن بالله ولا باليوم الآخر. ولهذا وضع الله القصاص في الدنيا ﴿ وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾[2].

والله عز وجل جعل مصارع الظالمين والباغين في الدنيا لمن لا يتعظ بمنهج الله. فكم من إنسان أقبلت عليه الدنيا بنعيمها ومجدها ثم رأيتَه آخر أيامه يعيش على الصدقات، وكم من مرابٍ امتص دماء الناس تأتيه كارثة ماحقة لا يجد بعدها ما ينفقه، وكم من امرأة سألت الناس وهي غير محتاجة، وجمعت من حلال وحرام، وفي آخر أيامها تزول عنها الدنيا فجأة فلا تجد ثمنَ الدواء، وتموتُ فيجمع لها الناسُ تكاليفَ جنازتها ـ كما قال أحد علمائنا رحمه الله تعالى ـ. وهذا ما حصل لليهود، فهم كانوا زعماء المدينة، وتجار السلاح والحرب، ينتهي بهم الحال إلى الطرد من ديارهم، وتؤخذ أموالهم. . وتسترق نساؤُهم. أليس هذا خزي في الدنيا قبل الآخرة؟

قال العلماء: وفي الإسراء تلمس أواصر القربى بين رسل الله، كما قال صاحب كتاب «فقه السيرة» وهذا المعنى أصل من أصول الإسلام، تقرؤه في قوله تعالى: ﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَـٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ . . ٱلْمَصِيرُ ﴾[3]. وتجد آصرة القربى بين رسل الله كذلك، في التحيات المتبادلة بين الرسول وبين إخوانه السابقين، فكان ﷺ يُستقبل في كل سماء بهذه العبارة: مرحباً بالأخ الصالح، والنبي الصالح.

قال العلماء: والخلاف بين الأنبياء لا وجود له، وإنما كان الخلاف من صنع الكهان، وتجار

---

(١) النور: ٣٥.

(٢) البقرة: ١٧٩.

(٣) البقرة: ٢٨٥.

الأديان.

أما محمد ﷺ فقد بين للدنيا كلها أنه مرسل لتكملة البناء الذي قام به من سبقوه من الرسل، ففي البخاري أنه ﷺ قال: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتاً فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنةٍ من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون به ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ فأنا تلك اللبنة وأنا خاتم النبيين**».

الفصل السادس والستون
قريش والإسراء

قال العلماء: وعاد رسول الله ﷺ إلى المسجد الحرام، وجلس فيه وهو يتفكر بم تقابل قريش هذا النبأَ العظيم، والحدث الجَلل، وكان النبي ﷺ قد أخبر أمَّ هانئ برحلته، وقال لها: «**إني سأحدث قريش بذلك**». قالت أم هانئ: فعلِقتُ بردائه ﷺ وقلت: أَنشِدُكَ الله ـ أي أسألك بالله ـ ألا تُحدثَ قريشاً بهذا فيكذِّبك من صدَّقك. قالت: فضرب رسول الله ﷺ بيده على ردائه فانتزعه من يدي وإذا نور سطع عند فؤاده ﷺ كاد يخطف بصري، فخررت ساجدة، فلما رفعت، رأسي إذ هو قد خرج، فقلت لجارية حبشية عندي اسمها «نبعة» اتبعيه وانظري ماذا يقول، فرجعت وقالت: إنه أتى الحطيم والتقى نفراً من قريش.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: جلس رسول الله ﷺ في المسجد الحرام حتى مر به أبو جهل، فسأله قائلاً مستهزئاً: هل استفدتَ الليلة شيئاً؟ فقال المصطفى: «**نعم، أسريَ بي إلى بيت المقدس**». قال أبو جهل: ثم أصبحتَ بين ظهرانينا؟ قال ﷺ «**نعم**». فقال له أبو جهل: أتحدث قومَك بهذا؟ قال ﷺ: «**نعم**» فقال أبو جهل: يا معشر بني كعب بن لؤي، هلُموا فأقبلوا، فحدثهم النبي ﷺ بذلك، فمن مصدق، ومن مكذب مصفقٍ واضعٍ يده على رأسه إنكاراً للخبر، واستعظاماً له، وتعجباً منه، حتى إن المطعم بن عدي ـ وكان بين الموجودين وهو من رؤساء قريش ـ قال: إن أمرك قبل اليوم كان أَمَماً ـ يسيراً ـ غير هذا اليوم فإني لا أصدقك. ولما وصل رد المطعم هذا إلى الصديق والتقى بالمطعم قال له الصديق: يا مُطعم، بئس ما استقبلت به ابنَ أخيك، استقبلته بالمكروه، وكذَّبته، أنا أشهد أنه صادق. ومشى رجال إلى الصديق، وكانوا من المشركين الذين سمعوا ما قاله رسول الله ﷺ وقالوا: إن صاحبك يزعم أنه أُسرِيَ به إلى بيت المقدس، فقال الصديق: إن كان قال هذا فقد صدق، إني لأصدقه فيما هو أكبر من ذلك، أصدقه في خبر السماء يأتيه في غدوة أو روحة. فلُقّب أبو بكر بالصديق من ذلك الوقت.

قال أصحاب السيرة: واجتمع القوم من قريش وأرادوا امتحان النبي ﷺ فقالوا له: انعت لنا المسجد الأقصى، فأخذ يصفه باباً باباً، ونافذة نافذة. عندئذٍ قالوا للنبي ﷺ: أخبرنا عن عيرنا القادمة من الشام. فقال ﷺ: «**قد مررت على بني فلان بالروحاء، وقد أضلوا بعيراً لهم وهم في طلبه فسلوهم عن ذلك. ومررت بعِيرٍ بني فلان وفلان، ورأيت راكباً قعوداً** «بذي مّر»

فنفر بكْرُهُ منه فسقط فلان فانكسرت يده فسلوه. ومررت بعيركم في التنعيم يقدمها جمل أورق ـ وهو البعير الذي في لونه بياض إلى سواد، وهو من أطيب الإبل لحماً لا سيراً وعملا ـ **عليه غرارتان تطلع عليكم طلوع الشمس»**.

فخرجوا إلى الثنية فجلسوا ينتظرون طلوع الشمس ليكذبوه، وفجأة قال قائل: هذه الشمس قد طلعت، فقال آخر: والله هذه العير قد أقبلت يَقْدَمُها بعير أورق كما قال ﷺ. فقالوا: إن هذا إلا سحر مبين ولو يؤمنوا، وأنزل الله مصداق ذلك فاتحة سورة الإسراء: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا . . . ﴾ (١).

قال العلماء: والملاحظ لسورة الإسراء يرى أن الله تعالى ذكر الإسراء في آية واحدة فقط، ثم أخذ يذكر فضائح اليهود، وجرائمهم، ثم نبههم بنفس السورة إلى عظمة القرآن فقال عز وجل: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ . . ﴾ (٢).

ونلاحظ أن آية الإسراء جاء بعدها توبيخ لبني إسرائيل على جرائمهم. وفي هذا إشارة إلى أن الإسراء إنما وقع لبيت المقدس لأن اليهود سيُعزلون عن قيادة الإنسانية، وأن الأوان قد حان لنقل القيادة من أمةٍ غرقت في الخيانة للقيم، والحق إلى أمة تسارع في الخيرات والطاعات.

ولكن كيف تنتقل القيادة إلى محمد ﷺ، وهو ﷺ يطوف في جبال مكة مطروداً؟

والجواب ـ كما قال علماؤنا عليهم رحمة الله ـ: إن دوراً جدياً بدأ للدعوة الإسلامية بعد الإسراء، هذا الدور يشمل الإنذار السافرَ للمشركين، نقرؤه في سورة الإسراء نفسها: ﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا . . ﴾ (٣).

فقد قال صاحب التحرير والتنوير في هذه لآية: هذا تهديد لأهل مكة من المشركين، وتعليم للمؤمنين، إذ المعنى أن بعثة المصطفى تتضمن أمراً بشرع، وأن سبب هلاك المُرسَلِ إليهم بعد بعثة الرسول هو عدمُ امتثالهم للأمر، وتعليقُ أمر الهلاك على المترفين مع أن الخطاب لجميع الناس؛ لكون المترفين قادةَ الناس، فإذا فسقوا عن أمر الله تبعهم العامة فعم الفسوق، فاستحقت

---

(١) الإسراء: ١.

(٢) الإسراء: ٩.

(٣) الإسراء: ١٦.

الأمة الهلاك.

إذن هناك دور جديد للدعوة بعد الإسراء، هو التهديد للمعادين لها، وتقرأ ذلك في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ ﴿٤٤﴾ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ ﴿٤٥﴾ ﴾ (١). وكانت هذه الآية بشارة للنبي ﷺ وإخبار بالغيب، وهذا ما حصل يوم بدر، وهو أمر مستقبل مما دفع عمر إلى أن يقول عندما سمعها: أي جمع سيهزم؟ حتى سمعها من رسول الله ﷺ يوم بدر. وتقرأ في سورة الصافات: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾ ﴾ (٢).

كما أنزل الله فيمن هاجروا إلى الحبشة قوله: ﴿ وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾ ﴾ (٣).

هذه الآية تعويض للمهاجرين عما تعرضوا له من مفارقة الأوطان، والأموال في الله، وكان عمر إذا أعطى رجلاً عطاء قال له: هذا ما وعدك ربك في الدنيا ـ حسنة ـ وما ذَخرَ لك في الآخرة أكبر. وقد أبدلهم الله وطناً بدل أوطانهم.

وكذلك يقص الله تعالى على رسوله ﷺ وعلى الناس أخبار الرسل مع أقوامهم لتوضيح النتائج، ولبيان أن النتيجة للمؤمنين بقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (٤).

قال الشعراوي في تفسيره: ولا يتأثر الرسل ومن معهم بهذا الكلام، ويرفضون هذه المساومة، وعندها يأتي القانون السماوي بالعدل وهو إهلاك الظالمين، وهذا ما تعبر عنه الآية: ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . . . ﴾، ثم يكمل الله وعده لرسله وللمؤمنين بقوله: ﴿ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِن بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . . ﴾. كل هذا يؤكد أن من

---

(١) القمر: ٤٤-٤٥، قالها أبو جهل يوم بدر.

(٢) الصافات: ١٧٣-١٧١.

(٣) النحل: ٤١-٤٢.

(٤) إبراهيم: ١٣- ١٥.

يثبت على الإيمان ويخشى الله والحساب، ولم ينكص عن دعوة الحق سيورثه الله أرض من كفرَ بالله، وهذه سُـنة إلهية نقرؤها في قوله تعالى في سـورة الأحزاب: ﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَـٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ. . ﴾[1].

(١) الأحزاب: ٢٧.

الفصل السابع والستون
معجزات أخرىٰ للنبي ﷺ

يقول صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: وبعد الإسراء والمعراج تَحْدُثُ ثلاث آياتٍ من آيات نبوته ﷺ نذكرها لِعِظَم دلالتها، وقوة برهانها على صدقه ﷺ.

أولها: انشقاق القمر:

فقد روى أحمد في مسنده من حديث أنس بن مالك أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ آية فانشق القمر فرقتين.

وفي البخاري عن قتادة عن أنس أن أهل مكة سألوا النبي ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حِراء بينهما، ومصداق هذا في كتاب الله عز وجل في سورة القمر: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا۟ ءَايَةً يُعْرِضُوا۟ وَيَقُولُوا۟ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا۟ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣﴾ (١).

روى السيوطي في الدر المنثور أن ابن عباس قال: اجتمع المشركون إلى رسول الله ﷺ فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، فقال لهم رسول الله ﷺ: «**إن فعلت تؤمنون؟**» قالوا: نعم ، فسأل رسول الله ﷺ ربه أن يعطيه ما قالوا، فانشق القمر فرقتين، ورسول الله ﷺ ينادي: «**يا فلان، يا فلان، اشهدوا**» وذلك بمكة قبل الهجرة.

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود قال: انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ شقتين فقال رسول الله ﷺ: «**اشهدوا**» قال ابن مسعود: لما انشق القمر قالت قريش: سحركم ابن أبي كبشة، فاسألوا السُّفار خارج مكة فإن محمداً لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فسألوا السفار فأخبروهم أنهم رأوا ليلة كذا أن القمر انشق فرقتين. فأنزل الله عز وجل قوله: ﴿ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ . ﴾.

وخطب حذيفة بن اليمان بالمدائن يوماً فقال بعد حمد الله والثناء عليه: ألا وإن القمر قد انشق، ألا وإن الدنيا قد آذنت بفراق، ألا وإن اليوم مضمار، وغداً السباق. وحذيفة صاحب سره ﷺ. وقال ابن مسعود: رأيت حِراء بين فلقي القمر، وكانت ليلة البدر. وقال مقاتل: انشق القمر

---

(١) القمر: ١-٣.

ثم التأم بعد ذلك.

وقال السبكي:

وبدرُ الدياجي انشق نصفين عندما ... أرادتْ قريـــش منك إظهارَ آية

وقال غيره:

شُق عن صدره، وشقَّ له البدر ... ومِنْ شرطِ كل شرط جزاءُ

والمعنى: لأنه ﷺ لما شق صدره في حادثة الإسراء، جوزي وكوفئ على ذلك بأعظم مشابه له في الصورة وهو شق القمر الذي هو من أظهر المعجزات، بل أعظمها بعد القرآن الكريم، وشاهد المشركون هذه الآيةَ الباهرة ولم يؤمنوا، وهو معنى قوله عز وجل: ﴿ وَإِن يَرَوْاْ ءَايَةً يُعْرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ . . ﴾ أي: إن يروا آية من آيات الله دالة على قدرته، وصدق نبوة رسوله مثل انشقاق القمر وغيرها يُعرضوا عن التأمل فيها، ويقولوا: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾. أي سحرٌ مُطَّرد يأتي به محمد ﷺ على مر الزمان لا يكاد يختلف، والمطرد: هو الذي يتبع بعضُه بعضاً. وقد يكون معنى: ﴿سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴾ أي سحر قوي شديد مأخوذ من المِرَّة، أي سحر قوي شديد لا يمكن إزالته، وذلك من قولهم: مَرَّ الحبل إذا صلب واشتد. وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَّبُواْ وَاتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ ..﴾ أي كذبوا بالنبي وما ظهر على يديه من المعجزات، واتبعوا أهواءهم وقالوا: سَحَرَ أعيننا، أو سحر القمر، وقالوا: خسوف ظهر في القمر، وما شاكل ذلك.

والنهاية قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴾ أي لكل أمر نهاية ينتهي إليها لا محالة، وهذا وعد وبشارة للرسول ﷺ وللمؤمنين، ووعيد للمشركين، ونظيره قولُه تعالى: ﴿لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون. . ﴾ (١) والنبأ: هو الخبر المدهش العظيم،

ومنه قوله تعالى: ﴿عَمَّ يَتَسَآءَلُونَ ۝١ عَنِ ٱلنَّبَإِ ٱلْعَظِيمِ ۝٢ . . ﴾ (٢) ولا أعظم من منهج سماوي يخلص الناس من جبابرة الأرض، ويحررهم من أهوائهم. أي لكل حدث زمان ومكان ينتهي إليه من نصر الحق ودحر الباطل، وقد كان.

---

(١) الأنعام: ٦٧.

(٢) النبأ: ١ - ٢.

وثاني هذه المعجزات دعاء النبي ﷺ على أهل مكة بالقحط

عندما لجّوا في العناد والطغيان والاستهزاء، فقال ﷺ «**اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف**»، فأمره ربه أن ينتظر ذلك، فقال: ﴿ فَٱرْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى ٱلسَّمَآءُ بِدُخَانٍ مُّبِينٍ ﴿١٠﴾ يَغْشَى ٱلنَّاسَ هَٰذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١﴾ . . ﴾ [1] واستجاب له ربه، فأصابهم بقحط حتى أكلوا العشب وشربوا الدم. وكلمة ﴿ فَٱرْتَقِبْ ﴾ تدل على أن الدخان لم يكن عند نزول الآية ولكن وقوعه مرتقب. والدخان المقصود في الآية هو الغبار الذي يتصاعد من الأرض من جراء الجفاف بفعل الرياح، والعرب تسمي الغبار دخاناً.

قال أبو بكر الجزائري في تفسيره: كان الرجل يرفع رأسه إلى السماء فلا يرى إلا دخاناً يغشى بصَره من شدة الجوع، حتى ضرعوا إلى الله، وأتوا إلى رسول الله ﷺ يطلبون منه أن يدعوَ الله تعالى ليرفع عنهم العذاب، فذلك قوله تعالى: ﴿ رَّبَّنَا ٱكْشِفْ عَنَّا ٱلْعَذَابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ . . ﴾ [2] يقص علينا دعاءهم. ثم ماذا بعد ذلك؟ يـأتي بعده بيان من الله تعالى وهو قوله تعالى: ﴿ أَنَّىٰ لَهُمُ ٱلذِّكْرَىٰ وَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مُّبِينٌ ﴿١٣﴾ ثُمَّ تَوَلَّوْا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ مُعَلَّمٌ مَّجْنُونٌ ﴿١٤﴾ . . ﴾ [3] أي كيف تحصل لهم الذكرى والمخافة والموعظة عند ظهور الدخان المبين.

وقد سدوا على أنفسهم طرق الذكرى بتكذيبهم للرسول ﷺ وبوصفه بهتاناً بأنه ساحر مرة، ومجنون مرة أخرى، ومرة يقولون إن أحداً يعلمه كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ . . ﴾ [4].

قال المفسرون: إن الله كشف عنهم القحط استجابة لاستسقاء من النبي ﷺ فَحَيُوا وحيِيَتْ أنعامهم، ثم عادوا إلى ضلالهم فعاودهم القحط كمال سبع سنين، وذلك قوله تعالى إعلاماً لنبيه ﷺ بذلك: ﴿ إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ عَآئِدُونَ ﴿١٥﴾ . . ﴾ [5].

---

(١) الدخان: ١٠ – ١١.

(٢) الدخان: ١٢.

(٣) الدخان: ١٣– ١٤.

(٤) النحل: ١٠٣.

(٥) الدخان: ١٥.

أي إنكم عائدون إلى الذم والطعن بعد مدة وهي الفترة التي بعثوا وفدهم إلى المدينة ليسأل الرسول أن يدعو الله بكشف القحط عنهم، ولما سمعوا: ﴿إِنَّا كَاشِفُوا۟ ٱلْعَذَابِ قَلِيلًا ۚ إِنَّكُمْ . . ﴾ تطلع المشركون إلى ما سيكون بعد هذا القليل، وتطلع المؤمنون إلى ما تصير إليه حال المشركين بعد كشف العذاب هل يتعظون ويقلعون؟ هنا قد يُثار سؤال في نفس السامع، وهو ماذا سيكون جزاؤهم إن عادوا إلى الطعن والتكذيب؟ فالجواب يأتي في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَبْطِشُ ٱلْبَطْشَةَ ٱلْكُبْرَىٰٓ إِنَّا مُنتَقِمُونَ . . ﴾ (١)

وأصل التركيب، إنا منتقمون يوم نبطش البطشة الكبرى، وكان ذلك يوم بدر؛ فإن ما أصاب صناديد قريش كانت بطشة كبرى بالشرك لأنهم فقدوا سادتهم وأهل الرأي فيهم الذين كانوا يُسيِّرون مكة كما يريدون.

والبطش: الأخذ الشديد بعنف، ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ . . ﴾ (٢) عندما يتكلم عن الأصنام ويقارنها بمن يعبدونها. إذ كيف يجوز عقلاً أن يكون الأعلى وهو البشر مربوباً للأدنى وهو الصنم، في حين أن المعبود لا يبصر ولا يسمع ولا يعمل بجوارح. . ؟

والثالثة من آيات نبوته ﷺ: إخباره أن الروم ستنتصر على فارس:

خلال بضع سنين من نصرٍ سبقَ لفارس على الروم، وذلك في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ① غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ② فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ③ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ④ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ⑤ . . ﴾ (٣).

قال المفسرون: لما أخبر الله في كتابه أن الفرس انتصرت الآن على الروم، وأن الروم ستنتصر بعد بضع سنين.

قال المؤرخون من المسلمين ومن أهل الكتاب: إن ملك فارس غزا بلاد الشام ففتح دمشق سنة ٦١٣ م، وفتح بيت المقدس سنة ٦١٤م أي قبل الهجرة النبوية بسبع سنين، ووصل

---

(١) الدخان: ١٦.

(٢) الأعراف: ١٩٥.

(٣) الروم: ١-٥.

الخبر إلى أهل مكة بانتصار الفرس على الروم ففرح المشركون وشمِتوا بالمسلمين وقالوا: أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن والفرس وثنيون، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم، ولنظهرن عليكم. نزلت الآية وتُليت على المشركين فاستبعد بعضهم ذلك وقالوا للصديق رضي الله عنه وقد خرج إليهم قائلاً: فرحتم بظهور إخوانكم، فلا تفرحوا فوالله لَيَظْهَرُنّ على فارس، أخبرنا بذلك نبينا ﷺ، فقام إليه أُبَيُّ بن خلف الجمحي فقال للصديق: كذبت، فقال الصديق: أنت أكذب يا عدو الله.

فقال أبي: اجعل بيننا أجلاً أُناحِبُكَ عليه ـ أي أراهنك عليه ـ على عشر قلائص مني وعشر منك، فإن ظهرت الروم على فارس غرِمتُ، وإن ظهرت فارس غَرِمتَ، ففعلوا، وجعلوا الأجل ثلاث سنين، فجاء الصديق إلى النبي ﷺ فاخبره بذلك، وكان قبل تحريم القمار، فقال النبي ﷺ: «**ما هكذا ذكرتْ إنما البضعُ مابين الثلاث إلى التسع فزايدْه في الخطر، ومادَّه في الأجل**».

فخرج الصديق ولقي أُبيّا، فقال أبي للصديق: لعلك ندمْتَ؟ قال الصديق: لا، فتعال أزايدك في الخطر وأُمادُّك في الأجل، فاجعلها مائة قلوص إلى تسع سنين ـ أو سبع سنين ـ. قال أبي: قد فعلت.

قال أهل السير: وخاف أُبَيّ أن يخرج الصديق من مكة، فأتاه ولزمه، فقال: إني أخاف أن تخرج من مكة فأقِم لي كفيلاً، فكفل عبد الله بن أبي بكر أباه.

قال الشعبي: لم تمض تلك المدة التي عقدوا فيها الرهان، حتى غلبت الروم فارس، وربطوا خيولهم بالمدائن، وبنوا رومية، فقمر أبو بكر أُبيًّا وأخذ مال المراهنة، وجاء يحمله إلى النبي ﷺ. فقال له ﷺ: «**تصدق به**». وكان ذلك ـ كما ذكر المؤرخون ـ سنة ٦٢١ م أي قبل الهجرة بسنة، حيث كان هرقل قد نظَّم جيشه، وغزا بلاد فارس فدخلها، وأجبر ملكها على الهرب، وعاد بالغنائم الوافرة.

قال القاسمي: ولا ريب أن ذلك من أعظم معجزات القرآن الكريم إذ أخبر عن غيب وقع مصداقه. وما أجمل تلك الكلمة التي قالها الزبير الكلائي، قال: رأيت غلبة فارس على الروم، ثم رأيت غلبة الروم على فارس، ثم رأيت غلبة المسلمين على فارس والروم، كل ذلك في خمس عشرة سنة، أي من أواخر غلبة فارس إلى أوائل غلبة المسلمين.

كما قال القاسمي: ويمكن أن نستنتج من هذه المقطوعة من السيرة النبوية عبراً لعل منها كما قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب:

أولاً: أن المعجزات ليست ضرورية لحصول الإيمان، فقد رأى المشركون الآيات ولم يؤمنوا.

ثانياً: أن الإسراء والمعراج كانت بالروح والجسد في الكتاب والسنة.

ثالثاً: سْبقُ الصديق وفضله وعظمة إيمانه ـ رضي الله عنه ـ.

رابعاً: انشقاق القمر آية ضخمة ثابتة بالكتاب والسنة والأخبار المستفيضة.

خامساً: بيان أن دعوته ﷺ لا تُردُّ حيث استجاب الله له في رفع القحط.

سادساً: بيان أن أهل الكتاب أقرب إلى المسلمين من أهل الإشراك والملاحدة.

الفصل الثامن والستون
فتح الآفاق أمام الدعوة

قال أرباب السيرة: بعد هذه الرحلة، ما زال النبي ﷺ يعرض دعوته وتأتي التدابير الإلهية لتفتحَ الآفاق لظهور هذه الدعوة ونصرتها، وكان من ذلك أن أناساً ذوي مكانة اتصل بهم النبي ﷺ بعد موسم سنة عشر من البعثة، ودعاهم إلى الإسلام فاستجابوا، وكان من هؤلاء الأفراد:

سُويد بن الصامت:

كان سُويد شاعراً لبيباً من سكان يثرب، وكان يُسمى في قومه الكامل؛ لشرفه، ونسبه وجمال شعره، وحكمته. جاء حاجاً أو معتمراً، فالتقى النبي ﷺ فدعاه إلى الإسلام، فقال سويد: لَعلَّ الذي معك مثل الذي معي، فقال رسول الله ﷺ: «**وما معك؟**» قال سويد: حِكمة لُقمان، قال رسول الله ﷺ: «**اعرضها عليَّ**». فعرضها فقال له رسول الله ﷺ: «**إن هذا كلام حسن، والذي معي أحسن من هذا. قرآن أنزله الله عليَّ هو هدى ونور**». ثم تلا عليه رسول الله ﷺ شيئاً من القرآن الكريم، ودعاه إلى الإسلام فأسلم، وقال في القرآن: هذا قول حسن جميل.

ومن شعره المشهور الجميل قصيدة يصور فيها غدر بعض الأصدقاء.

ومنها:

ألا رُبَّ من تدعو صديقاً ولو ترى ... مقالتـــه بالغيبِ ساءَك ما يفري[1]

يـــسُركَ باديهِ وتحتَ أديمهِ تَميمةُ ... غش تبتـــــــري عقبَ الـظهرِ

تُبين لك العينان ما هو كـــاتــم ... من الغل والبغضـاء بالنظر الشزرِ

فَرِشـــني بخيرٍ طالما قد بَرْيتَنــي ... وخيرُ الموالي مـــن يريشُ ولا يبري

ثم عاد هذا الكامل إلى المدينة، ودخلها، فلما كان يوم بُعاث بين الأوس والخزرج وكان سُويد أوسياً قُتلَ في هذه المعركة، فكان قومه يقولون: قُتل الكامل وهو مسلم.

قال صاحب كتاب هذا الحبيب يا محب: وهذا تدبير رباني لظهور الإسلام في غير مكة. وهناك تدبير رباني آخر، وآخر، وآخر كثير، تجلت كلها في إسلام أفراد من غير مكة كانوا طليعة

---

(١) يكذب.

وصول الإسلام إلى غير مكة، ومن هؤلاء:

إياس بن معاذ:

كان غلاماً من يثرب، قدم في وفد من الأوس يلتمسون أن يعقدوا حلفاً مع قريش ضد الخزرج، لأن الأوسيين كانوا أقل عدداً من الخزرج، ولأن العداوة بلغت أوجها بين القبيلتين قبل هجرته ﷺ إلى المدينة.

قال أصحاب السيرة: ولما علمَ الرسول ﷺ بمقدمهم جاءهم فجلس إليهم، وعرف ﷺ أنهم جاؤوا لعقد حلف مع قريش ضد الخزرج، فقال ﷺ لهم: «**هل لكم في خير مما جئتم له؟**» فقالوا: وما ذاك؟ قال ﷺ: «**أنا رسول الله بعثني إلى العباد أدعوهم أن يعبدوه وحده، وأنزل علي الكتاب**» ثم تلا عليهم شيئاً من القرآن.

فقال إياس للوفد من قومه: أيْ قوم، هذا خير مما جئتم له، فقام رجل من الوفد الأوسي اسمه: أنس بن رافع ـ أبو الحَيْسَر ـ وأخذ حفنة من تراب البطحاء فرمى بها في وجه إياس بن معاذ، وقال: دعنا منك لقد جئنا لغير هذا. فَصمتَ إياس وقام رسول الله ﷺ وانصرف الوفد إلى المدينة من غير أن ينجح في عقد حلف مع قريش ضد الخزرج، ورجع إياس معهم، فكان يهلل ويسبح، ويحمَد ثم فاجأه المرض واشتد عليه فمات، وكان لسانه عند وفاته رطباً بالتسبيح، فلم يشك قومه أنه مات على الإسلام.

ومن الأفراد الذين آمنوا من خارج مكة:

الطفيل بن عمرو الدوسي:

كان شاعراً لبيباً شريفاً رئيساً لقبيلة دوس، قدِمَ مكة سنة ١١ من البعثة النبوية، فاستقبله أهل مكة وأكرموه، ثم أسلم بعد لقائه برسول الله ﷺ، وقُتل يوم اليمامة في معركة المسلمين مع كذاب اليمامة مسيلمة، ولقد حدَّث هو عن نفسه كيف كان إسلامه بعد لقائه برسول الله ﷺ. فتعالوا نستمع إليه: قال: لما وصلت على مكة عظَّمه أهلها من المشركين، وكنَّوه أبا الطفيل ـ تعظيماً له ـ ثم قالوا لي: يا طفيل، إنك قد قدمت بلادنا، وهذا الرجل ـ محمد ـ قد أعضل أمره بنا، شتت شملنا، قولُهُ كالسحر فلا تكلمْه ولا تسمْع منه.

قال الطفيل: فو الله ما زالوا بي حتى قررت ألا أسمع منه أمراً حتى حشوت أذني كُرْسُفاً،

ثم دخلت المسجد، فإذا رسول الله ﷺ قائم يصلي عند الكعبة، فقمت قريباً منه، فأبى الله إلا أن أسمع بعضَ قوله، فسمعت كلاماً حسناً، فقلت في نفسي: ما يمنعني أن آتيه فأسمع منه، فلما انصرف إلى بيته تبعته وقلت له: لقد قال لي قومك كذا وكذا، فاعرض عليَّ أمرك، فعرض عليَّ الإسلام، وتلا القرآن. فقال الطفيل: ما سمعت أحسن من هذا قط، ولا أعدل منه. فأسلمت وقلتُ: يا رسول الله، إني امرؤ مُطاع في قومي وأنا راجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام. فادع الله أن يكون عوناً لي عليهم. فقال ﷺ: «**اللهم اجعل له آية**».

قال الطفيل: فخرجت حتى إذا كنت بثنية تُطْلِعُني على الحاضر ـ هم المقيمون على الماء لا يرحلون ـ وكان ذلك ليلاً، وقع نور بين عيني مثل المصباح، فقلت: اللهم في غير وجهي فإني أخشى أن يظن قومي ذلك مُثلَةً لتركي دينهم، فتحول النور إلى رأس سوطي، فجعل أهل الحاضر يتراءون ذلك كالنور المعلق عند نزولي من الثنية، ومنذ ذلك الحين عُرف الطفيل بذي النور. . .

وإلى هذا أشار السبكي في تائيته:

وفي جبهة الدوسيّ ثم بسوطه　　　جَعلْتَ ضياءً مثلَ شمسٍ منيرة

ثم دعا الطفيل والده وزوجه فأسلما، ثم دعا دوساً فأبطأت حتى دعا لهم رسول الله ﷺ وقال: «**اللهم اهدِ دوساً**» فأسلموا بعد ذلك وأتوا رسول الله ﷺ في خيبر. يقول الطفيل: ولم أزل مع رسول الله ﷺ في المدينة حتى كان فتح مكة، فأُرسل إلى صنم يقال له ـ ذو الكَفَيْن ـ فحرَّقه الطفيل وهو يقول:

يا ذا الكَفَيْنِ لستُ من عُبادِكا　　　ميـــــلادُنا أقدم من ميلادكا

إني حشوتُ النار في فؤادكا

فعلم قومُه بتفاهة معبودهم فأسلموا.

ثم لما ارتدت العرب، كان الكفيل في جيش المسلمين الذين ساروا إلى اليمامة ومعه ابنه عمرو فرأى رؤيا كأنّ رأسَه قد حُلق، وكأن طائراً خرج من فمه، وكأن امرأة أدخلته في فرجها، ثم رأى ولده حُبس عنه، فأولها: أما حلق رأسي فوضعه، والطائرُ خروج روحي، والمرأة: الأرض أدفن فيها، وابني سيُصاب. وفعلاً أصيب ولده، ثم شُفيَ واستُشهد بعدها في معركة اليرموك.

وكانت إصابة ابنه عمرو قبل استشهاده في معركة اليمامة حيث جُرحَ وقطعت يده.

ودخل عمرو هذا على عمر بن الخطاب يوماً بعد إصابة يدهِ، وأتى عمر بطعام للحاضرين، وقال للحاضرين: كلوا، فتنحى عمرو بن الطفيل عن الطعام، فقال عمر بن الخطاب: مالك؟ لعلك تأخرت لمكان يدك، قال: أجل. قال عمر: والله لا أذوقه حتى تسوطَه بيدك، فوالله ما في القوم بعضه في الجنة غْيرك. ثم خرج في اليرموك في عهد عمر واستشهد.

وذكر الواقدي: أن الرسول ﷺ لما أرسل الطفيل بن عمرو إلى صنمهم ليهدمه قال للنبي ﷺ: يا رسول الله أوصني. فقال ﷺ: «**أفشِ السلام، وابذل الطعام، واستحيي من الله كما يستحيي الرجل ذو الهيئة من أهله، إذا أسأت فأحسن** ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾». وقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴾ ذلك أي ما ذُكر من فعل الحسنات والاستقامة على الطاعات موعظة للمتعظين في امتثال الأوامر واجتناب المناهي وقد قال الحكماء: مثل المستقيم كمثل الجبل؛ لأن الجبل له أربع علامات:

- ❖ لا يُذيبه الحر.
- ❖ لا يُجمده البرد.
- ❖ لا تحركه الريح.
- ❖ لا يذهب به السيل.

فكذا المستقيم لا يتأثر بشيءٍ يزحزحه عن الحق **أولا**، فإذا أحسن إليه إنسان فلا يحمله ذلك أن يميل إليه بغير الحق كما يفعل أرباب الجاه والمناصب، فإنهم بالشيء اليسير من الدنيا الذي يصل إليهم من رجل أو امرأة يتخطَّون الحد، ويتركون الاستقامة.

والثاني: إذا أساء إليه إنسان لا يحمله ذلك على أن يقول بغير الحق.

والثالث: إنَّ هوى نفسه لا يحوله عن أمر الله، فأمر الله هو السعادة.

والرابع: أن حطام الدنيا لا يُشغله عن طاعة الله، أي لا تخرجه القدرة المالية، أو المكانة من جاه وسلطان عن حدود الطريق المستقيم.

واعلم بعد ذلك أن ما تُحسنُ به محفوظ وتُجازى عليه في الآخرة. ولذلك جاء بعد هذه

الآية قوله تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ . . ﴾ (١)

وكان أهل الخير من السلف يكتب بعضهم إلى بعض بمواعظ وإرشادات، ومنها ما ذكره صاحب «روح البيان» أنهم كانوا يكتبون لإخوانهم بثلاث عبارات: من عمل لآخرته كفاه الله أمر دنياه، ومن أصلح سريرته أصلح الله علانيته، ومن أصلح فيما بينه وبين الله أصلح الله ما بينه وبين الناس.

وكان أبو بكر الوراق يقول: طلبنا أربعة أشياء سنين فوجدناها في أربعة:

- **طلبنا رضى الله فوجدناه في طاعته.**
- **وطلبنا سَعةَ العيش فوجدناها في صلاة الضحى.**
- **وطلبنا سلامة الدين فوجدناها في حفظ اللسان.**
- **وطلبنا نور القبر فوجدناه في صلاة الليل.**

وما أجمل قوله تعالى فيما مر من الآيات: ﴿ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيۡلِۚ إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ ذَٰلِكَ ذِكۡرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ ﴿١١٤﴾ وَٱصۡبِرۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴿١١٥﴾ . . ﴾(٢).

ومن طلائع النصر إسلام ضِمام الأزدي:

كان من أزد شنوءة من اليمن، وكان راقيا من الريح، للنبي ﷺ إني أعالج من هذه الأرواحِ، ويعني الجن وسُمِّيت بذلك لأنها لا تُرى فهي بمنزلة الأرواح. قدِم ضمام مكة، فسمع سفهاء قريش يقولون: إن محمداً مجنون، فقال: لو أني أتيت هذا الرجل لعل الله يشفيه على يدي، فالتقى برسول الله ﷺ وقال له: إني راق من الأرواح فهل لك؟ فقال النبي ﷺ: «**إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه، وأشـهد أن محمداً عبده ورسوله**».

فقال ضمام: أعد عليَّ كلماتك، فأعادها رسول الله ﷺ ثلاث مرات ، فقال ضمام: لقد سمعت قول الكهنة، وقول السحرة، وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلَغَنْ

---

(١) هود: ١١٥.

(٢) هود: ١١٤ – ١١٥.

قاموس البحر ـ أي وسطه ومعظمه ـ هات يدك أبايعك على الإسلام فبايعه.

ومن طلائع الظفر إسلام: أبي ذر الغِفاري:

فقد ذكر مسلم في صحيحه في باب «قصة زمزم» كيف أسلم أبو ذر، ويروي لنا ابن عباس قصة إسلامه فيقول: قال أبو ذر: كنت رجلاً من غِفار، فبلغنا أن رجلاً قد خرج بمكة يزعم أنه نبي، فقلت لأخي: انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وائتني بخبره، فانطلق فلقي النبي ﷺ ثم رجع، فقلت لأخي: ما عندك؟ فقال: والله لقد رأيت رجلاً يأمر بالخير، وينهى عن الشر. فقلت لم تشفني من الخبر، فأخذت جراباً وعصا، ثم أقبلت إلى مكة فجعلت لا أعرفه، وأكره أن أسأل عنه، وأشرب من ماء زمزم، وأكون في المسجد، فمر بي علي فقال: كأن الرجلَ غريب، قلت: نعم، قال: فانطلق إلى المنزل، فانطلقت معه لا يسألني عن شيء ولا أخبره، وبقيت على ذلك ثلاث ليال، فقال لي علي: ما أمرك؟ وما أقدمك هذه البلدة؟ فقلت له: إن كتمت عليَّ أخبرتك. قال: فإني أفعل، فقلت: بلغنا أنه خرج هاهنا نبي. فأردت أن ألقاه. فقال علي: أما إنك قد رُشدت، فأنا متوجه إليه فاتبعني، ادخُل حيث أَدخل، فإن خفتُ من أحد عليك قمتُ إلى الحائط كأني أصلح نعلي، ثم امضِ أنتَ في سبيلك. حتى وصلنا إلى النبي ﷺ فقلت: اعرض عليَّ الإسلام فعرضه فأسلمت مكاني، فقال لي رسول الله ﷺ: «**يا أبا ذر اكتم هذا الأمر، وارجع إلى بلدك، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل**». فقلت: والذي بعثك بالحق، لأصرخن بها بين أظهرهم، فجاء المسجد وقريش فيه فقال: يا معشر قريش: إني أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله. فقاموا إليَّ وضُربت لأموتَ، فأدركني العباس فأكب عليَّ ثم أقبل عليهم وقال: ويلكم أتقتلون رجلاً من غِفار، وممر تجارتِكم عليهم، فأقلَعوا عني. فلما أصبحتُ من الغد رجعت إلى المسجد فقلت كما قلت أول يوم، فقاموا إليَّ فأكب عليَّ العباس وقال مثل مقالته فتركوني. قال أهل السيرة: فكان هذا أول إسلام أبي ذر ـ رضي الله عنه ـ.

الفصل التاسع والستون
بدء إسلام الأنصار

في السنة الحادية عشرة من البعثة، الموافق ليوليو ٦٢٠ م، وفي موسم الحج، عرض النبي ﷺ نفسه على القبائل كعادته ﷺ في كل عام، وكان خروجه ﷺ للدعوة غالباً ما يكون في الليل حتى لا تعترض له قريش. وخرج ليلة ومعه الصِدّيق وعلي، فمر على منازل قبيلة ذُهَل، وغيرِهم، ثم مر في تلك الليلة بعقبة منى، عقبة الجمرة الأولى، فسمع أصوات رجال يتكلمون، فقصدهم حتى لحقهم، وكانوا رهطاً من اليثربيين عددُهُم ستَّةٌ كما ذكر ابن إسحاق، وكانوا من الخزرج فيهم: ـ رافع بن مالك بن العجلان الزرقي من بني زريق ـ، وهو أول من أعلن إسلامه في المدينة، وهو أول من حمل سورة يوسف إليهم، وأول من قرأ القرآن في مسجده الصغير الذي اتخذه فيها. وكان النبي ﷺ يعجبه اعتدال قبلته. وكان رافع حريصاً على أخذ القرآن من النبي ﷺوتلقيه عنه منذ التقى به في العقبة، ولذلك أعطاه النبي ﷺ ما أنزل عليه من القرآن في عشر سنين التي خلت من بعثته ﷺ. قدِم رافع إلى المدينة بعد لقائه بالنبي ﷺ في مكة فجمع قومه وقرأ عليهم القرآن في موضع مسجدهم قبل أن يُقام المسجد، وكان منهم أسعد بن زرارة، وجابر بن عبد الله. . وغيرهم.

قال المؤرخون: وكان اليهود يكثرون من ذكر نبي قَرُبَ مبعثه، ويقولون لأهل يثرب ذلك، كما كانوا يقولون لهم: إن هذا النبي ستعاون معه على قتلكم كما قتلت عاد وإرَم. ولما التقى بهم رسول الله ﷺ بمكة ليلاً، قال لهم ﷺ: «**من أنتم؟**» قالوا: نفر من الخزرج، فقال ﷺ: «**من موالي اليهود؟**» قالوا: نعم، فقال ﷺ: «**أفلا تجلسون أكلمكم؟**» قالوا: من أنت؟ فانتسب لهم رسول الله ﷺ وأخبرهم خبره، فقالوا: بلى. . . فجلسوا معه، وحدثهم ﷺ وشرح لهم الإسلام ودعوته، ودعاهم إلى الله، وتلا عليهم شيئاً من القرآن، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله يا قوم إنه لَلْنَبِيُّ الذي توعدْتكم به يهود فلا تسبقُنَّكم يهود إليه. فأسرعوا واستجابوا للنبي ﷺ وأسلموا.

كان هؤلاء النفر من عقلاء يثرب، قد أنهكتهم الحرب الأهلية بين الأوس والخزرج، فتأملوا أن تكون دعوته ﷺ سبباً لإنهاء الحرب بين الفريقين وقالوا للنبي ﷺ: إنا تركْنا قومنا، والشر بينهم عظيم، فعسى أن يجمعهم الله بك على هذا الدين، فإن يجمعهم الله على هذا الدين فلا رجلَ أعز منك. ورجعوا إلى المدينة، وحملوا هذا الدين إلى أهلها، فلم تبق دار من دور الأنصار إلا دخلها

الإسلام، وكان هؤلاء أول الغيث المنهمر لنشر الدعوة.

ولما جاء موسم الحج التالي في السنة الثانية عشرة من البعثة النبوية الموافق لشهر يوليو ٦٢١ م جاء إلى الحج اثنا عشر رجلاً من المدينة فيهم خمسة من الستة الأوائل الذين اتصلوا بالنبي ﷺ، وكان فيهم أوسيان هما: أبو الهيثم بن التيهان وعويم بن ساعدة واتصلوا برسول الله ﷺ عند العقبة بمنى وبايعوه بيعة النساء، ونترك الحديث لعبادة بن الصامت ليحدثنا على أي شيء بايعوا رسول الله ﷺ.

قال عبادة: كنت ممن شهد العقبة الأولى وكنا اثني عشر رجلاً فبايعنا رسول الله ﷺ على بيعة النساء، أي على نمط بيعة النساء التي كانت ثاني يوم الفتح لمكة على جبل الصفا بعدما فرغ من بيعة الرجال والمعنى أنه ﷺ يبايعهم على الحرب والجهاد، فهي كبيعة النساء.

يقول عبادة بن الصامت: وذلك قبل أن يفرض الجهاد، وكانت البيعة: على أن لا نشرك بالله شيئاً، ولا نسرق ولا نزني، ولا نقتل أولادنا ولا نأتي ببهتان نفتريه بين أيدينا وأرجلنا، ولا نعصى رسول الله في معروف. وقال لنا رسول الله ﷺ: «**فإن وفَّيتم فلكم الجنة، وإن غشيتم من ذلك شيئاً فأمركم إلى الله إن شاء عذب، وإن شاء غفر**».

قال عبادة: فبايعناه على ذلك. وقد جاء في الصحاح من حديث الليث بن سعد نحوه.

وروى أبو نعيم أن النبي ﷺ قرأ عليهم في تلك الليلة من سورة إبراهيم وذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا ٱلْبَلَدَ ءَامِنًا وَٱجْنُبْنِى وَبَنِىَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾ . . ﴾ (١)

قال ابن إسحاق: ولما أرادوا الانصراف بعث رسول الله ﷺ معهم مصعب بن عمير، وأمره أن يقرئهم القرآن، ويعلمهم الإسلام، ويفقههم في الدين، فكان يُسمى المقرئَ بالمدينة، وكان يصلي بهم لأن الأوس والخزرج كره بعضهم أن يؤمه البعض الآخر.

قال العلماء: والمدقق في هذه البيعة يلاحظ ما يلي:

أولاً: توجه الخط الإسلامي للبناء الداخلي فكان الاهتمام بيثرب، وكان لهؤلاء الاثني عشر رجلاً أثر كبير في نشر الدعوة في المدينة. ولذلك قال ابن إسحاق: فلما رجع هؤلاء إلى المدينة دعوا

---

(١) إبراهيم: ٣٥ -٣٦.

قومهم إلى الإسلام فلم تبق دار من دور الأنصار إلا وذكر فيها الإسلام.

ثانياً: سُميت البيعة بيعة النساء لأنها لم تشتمل على فكرة القتال والحرب؛ لأن الحرب لا تكون إلا بعد البناء الفكري والعقدي للإنسان، ولأنه بدون الفهم لرسالة الإسلام ستختلط المفاهيم في الذهن؛ إذ قد يتحمس الإنسان عندها لأهل أو قريب أو غير ذلك.

ثالثاً: حضور هذه البيعة اثنان من الأوس يعتبر تطوراً عظيماً لصالح الدعوة الإسلامية، فمع شدة الصراع الدموي بين الأوس والخزرج استطاع الخزرجيون الستة الأوائل أن يُحضروا معهم اثنين من الأوس، وهذا يدل ـ كما قال العلماء ـ على وفاء وإخلاص من هؤلاء الخزرجيين بوعدهم رأبَ الصدع وإصلاح الأمر بين القبيلتين.

رابعاً: كما أن إرسال مصعب بن عمير ممثلاً للنبي ﷺ تطور معهم، حيث قام مصعب بدوره خير قيام، وسوف نرى كيف استطاع مصعب بحصافته بعد توفيق الله عز وجل أن يجر قيادات الأوس إلى الإسلام.

خامساً: ونلاحظ أن نضوج البيعة ـ وإن لم تذكر الحرب والقتال ـ ففيها التزام خلقي وتربية معينة يتهيأ فيها المسلم لأمور منها: المفاصلة العقدية، بايعنا رسول الله على أن لا نشرك بالله شيئاً، وهذا في الواقع إعلان حرب على الوثنية من جانب واحد، بل على عقيدة ذلك المجتمع. ومنها المفاصلة السلوكية فلا سرقة ولا زنى ولا بهتان. والإنسان الذي يفاصل مجتمعه مفاصلة سلوكية فلا كذب ولا زنى هو إنسان مؤهل لأن يكون جندياً حقيقياً في المستقبل.

ونلمس في نصوص البيعة تغيُّرَ الولاء، حيث انتهت في هذه البيعة الطاعة للقبيلة، وأصبحت الطاعة لله وللرسول، وأصبحت المعصية هي الخروج على أوامر النبي ﷺ وليست المعصية هي الخروج عن أوامر القبيلة.

كما نلمس في نصوص البيعة اعتماد الوازع الأخلاقي الداخلي، فعقوبة المعصية من الله لا من سلطان الدولة، وأجر الوفاء بها الجنة لا عطاء السلطان والحاكم، وما أحوج الحركات الإسلامية الآن إلى اعتماد هذا الفهم الدقيق للتربية الإسلامية.

ثم علينا أن نلاحظ أمراً مهماً، وهو أن ثمار دعوته ﷺ بعد إحدى عشرة سنة جاءت من خارج قريش بعيدةً عن قومه ﷺ على الرغم من مجاورته ﷺ لهم واحتكاكه بهم، فلماذا؟

والجواب كما قال صاحب الكتاب» فقه السيرة» للبوطي إذ يقول: اقتضت حكمة الله عز وجل أن يكون أنصاره ﷺ أُوَلَ من غير بيئته وقومَه، حتى لا يظن ظان بأن دعوته ﷺ دعوة قومية حاكتها رغبات قومه، وظروف بيئته ﷺ، وهذا من أدل الدلائل وأوضح البراهين التي تكشف من متأمل أن يداً إلهية تحوط حياةَ الدعوة وظروفَها من كل جانب كي لا توجد في أي جهة من جهاتها ثغرةٌ للطعن يقوم به متشكك أو محترفُ غزوٍ فكري. وهكذا كانت الدعوة الإسلامية تسير في سبيل لا تدع مجالاً للشك في مصدرها وفي طبيعتها حتى يسهل الإيمان بها وحتى لا يقع التباس بينها وبين غيرها من الدعوات الأخرى، فقد كان ﷺأمياً لا يقرأ ولا يكتب، وبُعث في أمةٍ أميةٍ لم تقتبس حضارة أو ثقافة معينة.

كما كان ﷺ مثالاً للخلق الكريم والأمانة والنزاهة. ثم قال البوطي: في بيعة العقبة الأولى تم إسلام عدد من كبار أهل المدينة كما ذكرنا فكيف كانت صورة إسلامهم؟ لقد رأينا أن إسلامهم لم يكن مجرد نطق بالشهادتين، بل كان جزماً قلبياً، ونطقاً لسانياً، ثم التزاماً ببيعة أخذها رسول الله ﷺ عليهم، وهي أن ينصبغوا سلوكياً بالصبغة الإسلامية عن طريق التمسك لنظمه وأخلاقه، وبعامة مبادئه. أخذ عليهم أن لا يشركوا بالله شيئاً. . ولا يسرقوا. . . وهذه أهم معالم المجتمع الإسلامي الذي بعث الرسول ﷺ لإنشائه، فليست مهمته أن يلقن الناس كلمة التوحيد ثم يتركهم يرددونها بأفواههم وهم عاكفون على انحرافاتهم وفسادهم وبغيهم.

ويكفي أن تدرك نوعية هؤلاء الرجال ومدى استجابتهم لدعوته ﷺ عندما تعلم من هو مصعب بن عمير الذي اختاره ﷺ ليكون مع الاثني عشر من أهل المدينة ليدعو أهل المدينة ويعلمهم. . . إنه مصعب بن عمير الذي كان أنعمَ أهل مكة، وأجودَ شبانها بهاءً، فلما دخل الإسلام طوى تلك الرفاهية، وانطلق وراء رسول الله ﷺ يستعذب كل عذاب حتى قضى نحبه شهيداً في أحد، وليس له مما يلبسه إلا ثوب واحد أرادوا أن يكفونه به فكانوا إذا غطوا رأسه خرجت رجلاه لقصر الثوب، وإذا غطوا رجليه خرج رأسه فأخبروا بذلك رسول الله ﷺ فبكى ﷺ للذي كان فيه من النعمة في صدر حياته، ثم قال ﷺ: «**ضعوه مما يلي رأسه واجعلوا على رجليه شيئاً من الإذخر**» ـ الإذخر ـ نبات معروف.

قال أصحاب السيرة: وكان تأثير مصعب في المدينة عجيباً، فقد كان الرجل يدخل عليه وبيده الحربة يريد قتله، فما هي إلا برهة يسيرة يتلو على الرجل شيئاً من كتاب الله، أو يذكر له

أحكام الإسلام حتى يلقي حربته ويتخذ مجلسه مع من حوله موحداً متعلماً حتى انتشر الإسلام في المدينة.

قال المؤرخون: وصل مصعب إلى المدينة وأقام فيها عند أسعد بن زرارة فأنزله أسعد في حيّ بني ظفر في بستان، فجلس مصعب فيه مع رجال ممن أسلموا، وسمع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير بهذا الوافد الغريب مصعب بن عمير وأنه أقام عند أسعد بن زرارة وأن الرجال يجتمعون إليه في بستان بني ظفر عند بئر يقال له بئر مرق وكان سعد وأسيد مشركين، فقال سعد لأسيد انطلق إلى هذين الرجلين ـ يقصد مصعباً وأسعد بن زرارة ـ الذين أتيا حينا وعشيرتنا فانههما، فإنه لولا أن أسعد بن زرارة ابن خالتي لكفيتك ذلك. فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل على مصعب بن عمير وأسعد بن زرارة، فقال أسعد لمصعب: هذا سيد قومه فاصدق الله فيه. فقال مصعب: إن يجلس كلمته. فلما وصل أسيد قال لهما: ما جاء بكما تُسفهان ضعافنا، اعتزلا عنا إن كان لكما بأنفسكما حاجة. فقال له مصعب: أفتجلسُ فتسمع، فإن أمراً قبلته، وإن كرهته نكف عنك ما تكره.

فقال أسيد: أنصفت، ثم ركز حربته وجلس، فكلمه مصعب بالإسلام، وقرأ عليه القرآن. قالا: فوالله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله، ثم قال: ما أحسن هذا وأجمله؟ كيف تصنعون إن أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟ قالا له» تغتسلُ وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق لا إله إلا الله محمد رسول الله. ثم تصلي ركعتين، فقام واغتسل وشهد شهادة الحق، وصلى ركعتين ثم قال لهما: إن ورائي رجل إن تبعكما لم يتخلف أحد من قومه عنكما، وسأرسله إليكما وهو سعد بن معاذ. ثم أخذ أسيد بن حضير حربته وانصرف عائداً إلى سعد بن معاذ الذي أرسله، وكان قومه حوله جلوساً في ناديهم، فلما نظر سعد إلى اسيد مقبلاً نحوهم قال: أحلف بالله لقد رجع أسيد بن حضير بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

ولما وصل أسيد إلى سعد بن معاذ والناس حوله سأله سعد: ما فعلت يا أسيد؟ قال: كلمت الرجلين ووالله ما رأيت بهما بأساً، فقام سعد مُغضباً وقال لأسيد: ما أراك أغنيت شيئاً، ثم أخذ حربته وخرج إليهما، أي إلى مصعب وأسعد بن زرارة. . . فلما أقبل سعد نحوهما قال أسعد لمصعب: لقد جاءك سيد من وراءه من قومه، إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان، فلما وصل إليهما سعد وقف عليهما وقال لأسعد بن زرارة: والله لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت مني

هذا، أتغشانا في دارنا بما نكره؟ فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع؟ فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته عُزل عنك ما تكره. قال سعد: أنصفْتَ، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه مصعب الإسلام، وتلا عليه القرآن. قالا: فعرفنا والله في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتهلله، ثم قال: كيف تصنعون إذا أسلمتم؟ قالا: تغتسل، وتطهر ثوبك، ثم تشهد شهادة الحق، ثم تصلي ركعتين. ففعل ذلك. ثم أخذ سعد حربته فأقبل على نادي قومه، فلما رأوه قالوا: نحلف بالله لقد عاد سعد بغير الوجه الذي ذهب به فلما وقف عليهم قال: يا بني عبد الأشهل، كيف تعلمون أمري فيكم؟ قالوا: سيدنا، وأفضلنا رأياً، وأيمننا نقيبة ـ مشورة وبركة وأمراًـ قال: فإن كلام رجالكم ونسائكم علي حرام حتى تؤمنوا بالله ورسوله.

فوالله ما أمسى في دار بني الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلماً أو مسلمة، إلا رجل واحد يقال له الأصيرم، واسمه: عمرو بن ثابت بن وقش كما ذكر ابن عبد البر، فإنه تأخر إسلامه إلى يوم معركة أحد فأسلم واستُشهد ولم يسجد لله سجدة، فأخبر النبي ﷺ عنه أنه من أهل الجنة، وقال ﷺ: «**عمل قليلاً وأجر كثيراً**».

قال البوطي في كتابه» فقه السيرة»: ونجح مصعب في نشر الإسلام، وجمع الناس عليه، وتخطى كل الصعاب التي يلاقيها في طريقه كل نازح غريب يحاول أن ينقل الناس من موروثات ألفوها إلى نظام جديد يشمل الحاضر والمستقبل، ويعم الإيمان والعمل، والخلق والسلوك.

قال العلماء: ومن هنا يظهر لنا الفرق بين مصعب الداعية المسلم، وبين المرتزقة من المنصِّرين الذين يُسمون بالمبشرين، والذين دسهم الاستعمار الغربي أمام زحفه لاستعمار الشرق ترى الواحد من هؤلاء يقبع عند سرير مريض ليقول له: هذه القارورة تقدمها لك العذراء مريم، وهذا الرغيف يهديه إليك المسيح عيسى، وربما فتح أحدهم مدرسة ظاهرها الثقافة، أو ملجأ ظاهره البر والإحسان، وفي الباطن مراده أن يخرب أذهان الناشئين من حيث لا يدرون، ويميل بهم إلى حيث يريد.

وهذا في الواقع ليس تبشيراً، وإنما هو نوع من التلصص الروحي يتوارى تحت اسم الدعوة إلى الدين، وقد يظهر لك من هؤلاء جرأة في عملهم وإصرار، وعندها لا تنسى القوى التي تُساندهم بحراً وبراً وجواً. أما مصعب؛ فكان وراءه نبي مضطهد، لا يملك من وسائل الدنيا أي مغريات يطمح طلاب الدنيا فيها، كل ما عند مصعب إخلاص لله عز وجل جعله يضحي بحياته

الناعمة في أسرته، ويملك فطانة اقتبسها من محمد ﷺ رسول الإسلام، ثم عنده هذا القرآن الذي يتألق في تلاوته، فترق القلوب له، وتنفتح لهذا الدين الجديد.

قال صاحب الرحيق المختوم: وقبل حلول موسم الحج التالي أي حج السنة الثالثة عشرة من مبعثه ﷺ عاد مصعب بن عمير إلى مكة، يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، وما لقي الإسلام من القبول الحسن في جموع اليثربيين الذين دخلوا في الدين عن قناعة مست قلوبهم، وعلى بصيرة أنارت أفكارهم، وسوف يرى ﷺ بنفسه حين حلول موسم الحج ما تقر به العين من قوة ومَنَعَةٍ.

الفصل السبعون
بيعة العقبة الثانية «الكبرىٰ»

قال العلماء: لما انتشر الإسلام في المدينة بين الأنصار، اجتمع جماعة منهم وقرروا أن يأتوا النبي ﷺ في موسم الحج للسنة الثالثة عشرة من البعثة الموافق شهر يونيو ٦٢٢ م ويجتمعوا معه سراً؛ ليتدارسوا عن قرب منه ﷺ موضوع هجرته إليهم، ونجاحه وهم يدركون الصعاب التي لقيها ﷺ في مكة، وأرادوا إنقاذه وإخوانه ﷺ مما هم فيه ـ كما قال صاحب «فقه السيرة» ـ وتحرك منهم لهذا الغرض سبعون رجلاً، واتجهوا إلى مكة أيام الموسم، وكان تحركهم مع المشركين من قومهم وكانوا خمسمائة. قال جابر بن عبد الله: فرحل إلى رسول الله ﷺ منا سبعون رجلا حتى قدموا الموسم في مكة، واتصلوا بالنبي ﷺ سراً، وواعدوه وسط ليالي التشريق في الشعب الذي عند العقبة حيث الجمرة الأولى من منى، وكان الاجتماع في سرية تامة في ظلام الليل. والآن لنستمع إلى حديث أحد قادة الأنصار يصف لنا هذا الاجتماع الذي كان له أثر كبير في دحر الوثنية. هذا القائد الأنصاري هو كعب بن مالك الأنصاري، قال رضي الله عنه: واعدنا رسول الله ﷺ في العقبة من أوسط أيام التشريق، فلما فرغنا من الحج، وكانت الليلة التي واعدنا فيها رسول الله ﷺ نمنا مع قومنا في رحالنا، حتى إذا مضى ثلث الليل خرجنا من رحالنا لميعاد رسول الله ﷺ نتسلل تسلل القطا مستخفين، حتى اجتمعنا في الشعب عند العقبة ونحن ثلاث وسبعون رجلاً ومعنا امرأتان من نسائنا هما: نسيبة بنت كعب ـ أم عمارة ـ من بني مازن بن النجار، وأسماء بنت عمرو بن عدي ـ أم منيع ـ من بني سلمة.

قال كعب بن مالك: وكان معنا سيد من سادتنا هو عبد الله بن عمرو ابن حرام، أخذناه معنا، وكنا نكتم أمرنا على من معنا من رفاقنا المشركين، فكلمناه، وقلنا له: يا أبا جابر إنك سيد من سادتنا، وشريف من أشرافنا، وإنا نرغب بك عما أنت فيه أن تكون حطباً للنار غداً، ثم دعوناه إلى الإسلام، وأخبرناه بميعاد رسول الله ﷺ إيانا في العقبة من منىً، قال كعب بن مالك: فأسلم عبد الله بن عمرو بن حرام، وشهد معنا العقبة وكان نقيباً.

قال كعب: فاجتمعنا في الشعب ننتظر رسول الله ﷺ حتى جاءنا ومعه عمه العباس بن عبد المطلب، وهو يومئذ على دين قومه إلا أنه أحب أن يحضر أمر ابن أخيه، ويتوثق له، وكان العباس أول متكلم في هذا اللقاء، فقال: يا معشر الخزرج ـ يقصد بذلك أهل المدينة لأن العرب كانوا

يسمون هذا الحي من الأنصار الخزرج خزرجها وأوسها ـ إن محمداً منا حيث علمتم عزاً وَمَنَعَةً، وقد منعناه من قومنا، وقد أبى إلا الانحياز إليكم، واللحوق بكم، فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه، ومانعوه مِمَّن خالفهُ، فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم خاذلوه ومسلموه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه، فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.

قال كعب بن مالك متكلماً بلسان الأنصار: قد سمعنا ما قلت يا عباس. فتكلم يا رسول الله، وخذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتكلم رسول الله ﷺ وتلا القرآن، ودعا إلى الله، ورَغّب في الإسلام، ثم قال رسول الله ﷺ: «**أبايعكم على أن تمنعوني مما تمنعون منه نساءكم وأولادكم**». فأخذ البراء بن معرور بيد النبي ﷺ وقال: نعم، والذي بعثك بالحق نبياً لنمنعك مما نمنع منه أُزُرنا ـ كناية عن النفس والمرأة ـ فبايْعنا يا رسول الله، فنحن أبناء الحرب، وأهل الحلقة ـ السلاح ـ ورثناها كابراً عن كابر.

قال المؤرخون: عند هذا الكلام، اعترض أبن التيهان أبو الهيثم فقال: يا رسول الله: إن بيننا وبين هؤلاء الرجال ـ يعني اليهود ـ حبالاً وإنا قاطعوها، فهل عسيت إن فعلنا ذلك، ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟

قال: فتبسم النبي ﷺ ثم قال: «**الدم الدم، والهدم الهدم. أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالمتم**» أي: ذمتي ذمتكم، وحرمتي حرمتكم. كما قال ابن هشام.

وروى الإمام أحمد من حديث جابر بنود العقبة بالتفصيل. قال جابر: قلنا يا رسول الله: على ما نبايعك؟ قال ﷺ: «**على السمع والطاعة في النشاط والكسل. وعلى النفقة في العسر واليُسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى أن تقوموا لله لا تأخذكم في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم، وتمنعوني مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم، ولكم الجنة**». رواه أحمد بإسناد حسن، وصححه الحاكم.

وقد روى ابن إسحاق من حديث عبادة بن الصامت ما يشبه هذه البنود مع زيادة بند واحد وهو قوله ﷺ: «**وأن لا ننازع الأمرَ أهله**». كما ذكر ابـــن هشام.

قال أصحاب السيرة: بعد أن تمت المحادثة على شروط البيعة، واجمعوا على عقدها قام رجلان ممن أسلموا في الموسمين السابقين سنة ١١ إحدى عشرة وسنة ١٢ اثنتي عشرة من البعثة

قاما يؤكدان للقوم خطورة المسؤولية ومدى استعداد القوم للتضحية.

كان الأول هو العباس بن عبادة بن نضلة الأنصاري، قام فقال: يا معشر الخزرج: هل تدرون علامَ تبايعون هذا الرجل؟ تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس، فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالَكُم مصيبةٌ وأشرافكم قتلا أسلمتموه، فمن الآن فهو والله إن فعلتم خزي الدنيا والآخرة. وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه على نهكة الأموال وقتل الأشراف فخذوه فهو والله خير الدنيا والآخرة. قالوا: فإنا نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف، فما لنا بذلك يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك؟ قال ﷺ: «**الجنة**». قالوا: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه.

وفي رواية جابر عن الإمام أحمد قال: فقمنا نبايعه، فأخذ بيده أسعد بن زرارة ـ وكان أصغر السبعين ـ فقال ـ وهذا هو المتحدث الثاني ـ: رويداً يا أهل يثرب، إنا لم نضرب إلى هذا الرجل أكبادَ الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله ﷺ وأن إخراجَه اليوم مفارقةُ العرب كافة، وقتلُ خياركم، وأن تعضَّكم السيوفُ، فإما أنتم تصبرون على ذلك فخذوه، وأجركم على الله، وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة، فذروه فهو أعذر لكم عند الله.

وبعد إقرار بنود البيعة، وبعد التأكيد والتوضيح لخطورة هذه البيعة قام الناس وقالوا لأسعد ابن زرارة الذي كان قد وضع يده بيد رسول الله ﷺ: يا أسعد، أمط عنا يدك، فو الله لا نذر هذه البيعَة ولا نستقيلُها. قال جابر: فقمنا إليه رجلاً رجلاً، فأخذ علينا البيعة، يعطينا بذلك الجنة.

وأما بيعة المرأتين اللتين شهدنا الحادثة فكانت قولاً. ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قط. صحيح مسلم ـ باب كيفية بيعة النساء ص١٣١.

قال كعب: ولغَطُوا، فقال العباس: أخفُوا جِرسكم، فإن علينا عيوناً، ثم إذا بايعتم فتفرقوا إلى ممالككم. وبعد البيعة قال رسول الله ﷺ «**إن موسى أخذ من بني إسرائيل اثني نقيباً فلا يجدَنَّ منكم أحد في نفسه أن يؤخَذ غيرُه، وإنما يختار لي جبريل**».

قال مالك بن أنس: حدثني شيخ من الأنصار أن جبريلَ كان يشير إلى من يجعله نقيباً، وكنت أعجب قبلها كيف جاء من قبيلة رجلان، ومن قبيلة رجل حتى حدثني الشيخ الأنصاري. كان هؤلاء النقباء تسعة من الخزرج، وثلاثة من الأوس.

قال صاحب كتاب «الرحيق المختوم»: ولما تم انتخاب النقباء، أخذ النبي ﷺ منهم ميثاقاً

آخر بصفتهم رؤساء مسؤولين، قال ﷺ لهم «**أنتم كفلاء على قومكم بما فيهم، كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى بن مريم، وأنا كفيل على قومي**». أي على المسلمين منهم، قالوا: نعم.

قال الصادق عرجون: كانت هذه البيعة فتحَ الفتوح؛ لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها مشدودة إلى هذه البيعة إذ هي بيعة لها بواعثها، فباعثها الإيمان بالحق ونصرته، ولها ملابساتها، فهي قوة تناضل قوى هائلة لم يغب عن الأنصار قدرها ووزنها في ميادين الحروب، ولهذا البيعة آثارها، فهي تشمير بكل ما يملك أصحابها من وسائل الجهاد القتالي في سبيل الله، وإعلاء كلمته على كل مستكبر في الأرض ليكون الدين كله لله.

قال الصادق عرجون رحمه الله تعالى: وكانت البيعة في واقعها التاريخي صدقاً، ونصراً واستشهاداً، وتبليغاً لرسالة الإسلام.

قال صاحب الروض الأنف وغيره: لما تم إبرامُ البيعة، وكان القوم على وشك الانفضاض صرخ الشيطان من رأس العقبة: يا أهل الجباجب، وفي رواية: يا أهل الأخاشب ـ أي المنازل ـ هل لكم في مُذَمَّم ـ أي محمد ـ والصباة معه، قد اجتمعوا على حربكم. فقال رسول الله ﷺ: «**هذا أَزَبُّ العقبة، ها ابن أزيب، استمع أي عدو الله، أما والله لأفرغن لك. ارفَضُّوا إلى رحالكم**». فقال العباس بن نضلة: يا رسول الله، والذي بعثك بالحق نبياً إن شئت لنميلن غداً على أهل منى بأسيافنا، فقال رسول الله ﷺ: «**إنا لم نؤمر بذلك، ارفضوا إلى رحالكم**».

قال كعب بن مالك: فرجعنا إلى رحالنا، فاضطجعنا على فرشنا، فلما أصبحنا أقبلت جلَّة من قريش إلى منازلنا، فيهم الحارث بن هشام فتى شاب وعليه نعلان جديدتان، فوقفوا علينا في رحالنا وقالوا: يا معشر الخزرج: إن قد بلغنا أنكم جئتم إلى صاحبنا ـ محمد ﷺ ـ لتُخرجوه من بين أظهرنا، وتبايعوه على حربنا، وإنه والله ما من حي من العرب أبغض إلينا أن تنشب الحرب بيننا وبينهم منكم، فقام من كان معنا من المشركين يحلفون لهم بالله ما كان من هذا الأمر شيء، وما فعلناه، وأنا أنظر إلى ـ أبي جابر عبد الله بن حرام ـ وهو صامت وأنا صامت، فلما تهيأ القوم للانصراف قلت: يا أبا جابر، أنت سيد من سادتنا لا تستطيع أن تتخذ مثل نعلَيْ هذا الفتى من قريش؟!!

قال كعب: سمعنا الفتى ـ الحارث بن هشام ـ فخلع نعليه فرمى بهما إليه وقال: والله

لتلْبَسَهُما. فقال أبو جابر عبد الله بن حرام: مهلاً، أخجلت الرجلَ، اردد إليه نعليه، فقال القرشي: والله لا أردهما، ثم انصرف المشركون. فأتوا عبد الله بن أُبي بن سلول فسألوه وكلموه في الأمر فقال: هذا أمر جسيم، وما كان قومي ليتفوتوا علي بمثله فانصرفوا عنه.

قال كعب: ثم انصرف الناس من منى، وتحسّس المشركون من أهل مكـة الخبر فوجدوه صحيحاً، فانطلقوا في طلب القوم، فأدركوا اثنين من المبايعين لرسول الله ﷺ وهما ـ سعد بن عبادة ومنذر بن عمرو ـ وكلاهما كان من النقباء الذين عينهم رسول الله ﷺ، فأما المنذر فقد هرب وتفَلَّت منهم، وأما سعد بن عبادة فأخذوه وشدوا يديه إلى عنقه بنسع رحله، وكان إلقاء القبض عليه بمكان يقال له (**أذاخر**) وهي ثنية بين مكة والمدينة، كما قال صاحب الروض المعطار، وكان سعد كثير الشعر فجذبوه من جُمَّته ـ مجتمع شعر الرأس ـ إلى أن جاء المطعم بن عدي والحارث بن أمية فخلَّصاه؛ لأن سعداً كان يحرس تجارتهما حينما تمر بيثرب، فحفظوا له هذا الجميل، ثم عاد إلى يثرب.

بعد هذا الاستعراض، قد يعرض لنا سؤال يخطر على البال، وهو: ما سبب تهيئ الأوس والخزرج لقبول هذا الإسلام؟

والجواب: كان من لطف الله تعالى:

أولاً: أنْ هيَّأَ لنصرة دينه ونبيّه هاتين القبيلتين العربيتين لتسبقا أهل الجزيرة العربية إلى نعمة الإسلام، والله عز وجل يـقول: ﴿وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ . .﴾ (١).

وثانياً: إن هاتين القبيلتين تنتميان إلى قحطان، هاجرتا من اليمن إلى المدينة بعد خراب سد مأرب سنة ١٢٠ ق. م.

وفي هؤلاء الذين سُمّوا بالأنصار صفات تختلف عن صفات أهل مكة. من ذلك:

أولاً: الرقة واللين، وعدم الكبرياء، وعدم جحود الحق.

قال العلماء: ولعل هذه الخصائص سلالية أشار إليها النبي ﷺ حين وفد إليه وفد اليمن فقال ﷺ: «**أتاكم أهل اليمن أرق أفئدة وألين قلوباً**». والرقة: هي نتيجة الخشية من الله تعالى والخوف منه، والبكاء هو الأثر العملي الدال عليها، قال مالك بن دينار: ما ضُرب عبد بعقوبة

(١) البقرة: ٢١٣.

أعظم من قسوة القلب، وما غضب الله على قوم إلا نزع الرحمة من قلوبهم.

وقد مدحهم الله تعالى في سورة الحشر فقال: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ . . ﴾[1]. فقوله: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَـٰنَ ﴾ أي توطنوا دار الهجرة، أي قبل مجيء المهاجرين إليها، ولزموا الإيمان كذلك، وأقاموا جميع شعائره. وقوله تعالى: ﴿ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ . . ﴾ أي لا يجدون في أنفسهم حسداً لهم، أي طلباً لما في أيديهم مما أعطاهم رسول الله ﷺ من الفيء الذي غنمه من بني النضير فخصَّ به المهاجرين دون الأنصار، ولم يُعطِ من الأنصار إلا ثلاثة نفر محتاجين. وقوله تعالى: ﴿ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . ﴾. أي يقدّمون إخوانهم المهاجرين على أنفسهم في كل شيء من أسباب المعاش جوداً وكرماً. والإيثار: عطاؤك ما أنت محتاج إليه، والأنصار كذلك.

قال القاشاني: كانوا كذلك لتجردهم وتوجههم إلى جناب القُدُس، وترفعهم عن مواد الرجس، وكون الفضيلة لهم أمرا ذاتياً باقتضاء الفطرة، وفرط محبة الإخوان بالحقيقة، فتقديمهم أصحابهم على أنفسهم لكمال المروءة، ولقوة التوحيد، والاحتراز عن حظ النفس.

ومن هذا الباب في الإيثار ما عَرَضَ لِعكرمة وأصحابه يوم اليرموك لما طلب عكرمة الماء وهو بأشد الحاجة إليه، ثم دفعه إلى صاحبه قبل أن يشرب هو، ثم دفعه الثاني إلى الثالث إيثاراً حتى مات الثلاثة ولم يشربه واحد منهم.

قال ابن كثير: وهذا المقام ـ الإيثار ـ أعلى من حال الذين وصفهم الله عز وجل بقوله في سورة الإنسان: ﴿ وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ﴿٨﴾ . . ﴾[2]. فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه، وهؤلاء ـ الأنصار ـ آثروا على أنفسهم مع حاجتهم إلى ما أنفقوه.

قال أبو زيد: غلبني شاب من أهل بلخ حين سألني: ما حد الزهد عندكم؟ فقلت: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا، فقال: هذا فعل كلاب بْلخ عندنا، ونحن إذا فقدنا شكرنا، وإذا

---

(١) الحشر: ٩.

(٢) الإنسان: ٨.

وجدنا آثرنا. ثم قال تعالى مبيناً فوز هؤلاء: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ . . ﴾.

قال ابن زيد: من وُقِيَ شُحَّ نفسه فلم يأخذ من الحرام شيئاً، ولم يَقْرِبْه ولم يحملهُ الشح على أن يحبس من الحلال شيئاً فهو من المفلحين.

وروى ابن جرير من حديث أنس بن مالك أنه ﷺ قال: «**بريءَ من الشح من أعطى الزكاة، وقرى الضيفَ، وأعطى في النائبة**».

وعند النسائي من حديث أبي هريرة أنه سمع النبي ﷺ يقول: «**لا يجتمع غبار في سبيل الله ودخان جهنم في جوف عبد أبداً، ولا يجتمع الشح والإيمان في قلب عبد أبدا**».

ثانياً: ومن الأمور التي ميزت الأنصار عن أهل مكة، أن الحروب الداخلية أنهكتهم، وبخاصة يوم بعاث، وكان قبل الهجرة النبوية بحوالي خمس سنين مما دفعهم إلى الرغبة في الإلفة، والاجتماع لما عانوه من هذه الحروب بينهم.

ثالثاً: كانت قريش قد طال عهدها بالنبوات، فجهلوا معانيها مع أمية ووثنية، إضافة إلى بعدهم عن الأمم ذات الكتب السماوية، أما الأوس والخزرج فكان يسمعون من جيرانهم اليهود أحاديث النبوة والأنبياء والكتب، فكان جهلهم بالنبوات أقل من جهل قريش.

وطالما نتكلم عن الأنصار وإخلاصهم لدعوة الحق، فلابد من ذكر قصة تدل على قوة يقين هؤلاء، كما تدل في الوقت ذاته عن تفاهة الفكر الوثني. هذه القصة هي كيفية إسلام عمرو بن الجموح.

هذه القصة رواها البيهقي في الدلائل عن ابن إسحاق قال: كان معاذ بن عمرو بن الجموح قد شهد العقبة وبايع رسول الله ﷺ بها، وكان أبوه عمرو بن الجموح سيداً من سادات بني سلمة ـ وهم بطن من الأنصار ـ وشريفاً من أشرافهم

وكان قد اتخذ في داره صنماً من خشب يقال له مناة ـ وهذه العادة خَصيصة من خصائص السيادة في الجاهلية كما يقول الصادق عرجون رحمه الله تعالى ـ فلما أسلم فتيان بني سلمة، معاذ بن جبل، ومعاذ بن عمرو بن الجموح وغيرهما كانوا يدلجون بالليل ـ أي يسيرون من أول الليل ـ على صنم عمرو بن الجموح فيحملونه فيطرحونه في بعض حفر بني سلمة وفيها عُذَرُ الناس ـ ما يخرج منهم من الفضلات ـ منكساً على رأسه، فإذا أصبح عمرو بن الجموحِ قال: ويلكم من عدا على إلهنا

هذه الليلة؟ ثم يغدو يلتمسه حتى إذا وجده غسله، وطهره وطيبه، ثم قال: أما والله لو أعلم من يصنع هذا بك لأُخْزِينَّهُ، فإذا أمسى ونام عمرو بن الجموح عَدَوا على الصنم ففعلوا به مثل ذلك، فلما ألحوا عليه استخرجه من حيث ألقوه فغسله وطهره وطيبه، ثم جاء بسيفه فعلقه عليه، ثم قال: إني والله ما أعلم من يصنع بك ما ترى فإن كان فيك خير فامتنع، فهذا السيف معك، فلما أمسوا ونام عمرو عدوا عليه فأخذوا السيف من عنقه، ثم أخذوا كلباً ميتاً فقرنوه به بحبل ثم ألقوه في بئر من آبار بني سلمة فيها عُذَرُ الناس. وغدا عمرو بن الجموح فلم يجده فخرج يتبعه حتى وجده في البئر منكساً مقروناً بكلب ميت فلما رآه أبصر شأنه وكلمه من أسلم من قومه، فأسلم عمرو بن الجموح وحسُن إسلامه، وقال حيث أسلم وعرف من الله ما عرف من الحق، قال يذكر صنمه:

تالله لو كنت إلهاً لم تكن   أنت وكلبٌ وسط بئر في قَرن

إلى أن قال حامداً الله تعالى على إنقاذه من الوثنية والشرك:

الحمد لله العلي ذي المِنَن   الواهب الرزاق ديّان الدِّيَن

هو الذي أنقذني من قبل   أن أكون في ظلمة قبر مُرْتَهَن

بأحمد المهدي النبي المؤتمن

الفصل الواحد والسبعون
بدء هجرة الصحابة من مكة إلىٰ المدينة

يقول صاحب كتاب (محمد رسول الله): بعد أن تمت بيعة السبعين من الأنصار لرسول الله ﷺ وهي بيعة العقبة الكبرى، والتي سماها المؤلف فتح الفتوح؛ لأنها نقلت الدعوة الإسلامية من مضايق الحياة إلى وسع آفاقها، كما كانت بيعةً العقبة لحرب الأسود والأحمر لإعلاء كلمة الله، وَمنعِ نبيه ﷺ. طابت نفسه ﷺ بهذه البيعة كما ورد في الحديث الذي ذكره الزرقاني في شرح المواهب من حديث عائشة وأبي أمامة بن سهل، قال: لما صدر السبعون من عنده ﷺ طابت نفسه وقد جعل الله له مَنَعَةً ونجدَةً.

قال علماء السيرة: ثم بدأ المشركون يُضيِّقون على المسلمين لما كانوا يعلنون من الخروج، ونالوا من أصحاب رسول الله ﷺ ما لم يكونوا ينالون من الشتم والأذى، فشكوا للنبي ﷺ فقال لهم: «**لقد أُريتُ دار هِجرتكم سبخة**» ثم مكث ﷺ أياماً، ثم خرجَ مسروراً فقال: «**قد أُخبرتُ بدارِ هجرتكم وهي يثرب، فمن أراد منكم أن يخرج فليخرج إليها**». كما قال ﷺ: «**إن الله عز وجل قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها**».

فخرج أصحابه ﷺ أرسالاً ـ أي جماعة إثر جماعة ـ وخرجوا أحياناً فرادى، وكانوا يخفون ذلك، فاستقبلهم الأنصار أطيب استقبال وأكرمه، وأنزلوهم من أنفسهم منازلَ الحب والإيثار، وقد خلّد الله هذا الموقف للأنصارِ فأنزل فيه قرآناً يُتلى ويُتعبَّدُ به كما قال الصادق عرجون ـ رحمه الله تعالى ـ وذلك في آية مرت معنا وشرحناها وهي قوله تعالى في سورة الحشر: ﴿ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . . ﴾(١).

قال أرباب السيرة: وكان أول المهاجرين إلى المدينة أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي، أحد السابقين الأولين إلى الإسلام، أسلم بعد عشرة أنفس، وهو واحد من ذوي الهجرتين، هجرة الحبشة وهجرة المدينة، أبت عليه شجاعتُه أن يُسرَّ هجرته، بل هاجر معلناً تحت سمع وبصر قومهِ الذين كانوا يؤذونه، ويمنعه إسلامه أن يردَّ عليهم عدوانَهم؛ لأن السابقين كانوا

---

(١) الحشر: ٩.

مأمورين بالصبر والتحمل والعفو.

ومن هنا كانت قصة هجرة أبي سلمة، وهجرة زوجه أم سلمة التي شرفها الله بعد استشهاد زوجها أبي سلمة فصارت أماً للمؤمنين إذ تزوجها رسول الله ﷺ، وكانت القصة مثلاً يُحتذى في مواقف الشجاعة وقوة العقيدة والوفاء، ولنترك الحديث لأم سلمه تحدثنا عن ذلك فتقول: لقد فرقوا بيني وبين زوجي، ولكن كيف كان هذا التفريق؟ والجواب كما قال أصحاب السيرة: أن أبا سلمة لما عاد من هجرته إلى الحبشة آذته قريش فقرر الهجرة إلى المدينة بعد علمه بأن المدينة تعج بمن أسلم من أهلها، فحمل زوجه أم سلمة وطفله على الراحلة وقاد الراحلة وخرج فلحقه رجال من بني مخزوم فقالوا له: هذه نفسك قد غلبتنا عليها، أرأيتك صاحبتك هذه علامَ نتركك تسير بها في البلاد؟ ونزعوا خطام البعير من يدهِ وأخذوا الراحلةَ وعليها أم سلمة وولدها. أغضب هذا التصرف رهط أبي سلمة، وهم بنو عبد الأسد فقالوا: لا والله لا نترك ابننا عندها إذ انتزعتموهما من صاحبنا فتجاذبوا الطفل حتى خلعوا يده.

تقول أم سلمة: لما فرقوا بيني وبين زوجي وهاجر أبو سلمة إلى المدينة كنت أخرج كل غداة فأجلس بالأبطح ـ وهو مسيل وادي مكة فيه حصى رقاق ـ فما أزال أبكي حتى أمسي، وبقيت على ذلك سنة أو قريباً حتى مر بي رجل من بني عمي من بني المغيرة فرأى ما بي فرحمني، فقال لبني المغيرة: ألا تُخرجون هذه المسكينة، فرقتم بينها وبين زوجها، وبينها وبين ولدها؟ فقالوا لي: الحقي بزوجك إن شئتِ، ورد بنو أسد علي ولدي، فارتحلت بعيري، ثم أخذت ولدي ووضعته في حجري، ثم خرجت أريد زوجي في المدينة، وما معي أحد من خلق الله، فقلت أتبلغ ـ أكتفي ـ بمن لقيت حتى أقدم على زوجي.

حتى إذا كنت بالتنعيم ـ وهو موضع في مكة في الحل ـ ليس من الحرم ـ على بعد عدة فراسخ من مكة بين مكة وسرف، وسُميَّ بذلك لأن جبلاً عند يمينه يقال له نُعيم وآخر عن يساره يقال له ناعم والوادي نعمان وبالتنعيم مساجد حول مسجد عائشة، يُحرم المقيمون بمكة منه للعمرة.

قال محمد بن عبد الله النميري:

فلم تَرَعيني مثلَ سرب رأيتُهُ   خرجْنَ من التنعيم معتمراتِ
مرَرْن بفخ ثم رحن عشيــة   يُلبينَ للرحمــــن مــؤتجراتِ

قالت: لقيت عثمان بن طلحة فقال لي: إلى أين يا بنت أبي أمية؟ فقلت: أريد زوجي بالمدينة. قال: أوما معك أحد؟ فقلت: لا والله، إلا الله وبني هذا، قال: والله ما لك من مترك، فأخذ بخطام البعير فانطلق معي يهوي بي، فوالله ما صحبت رجلاً من العرب قط أرى أنه كان أكرم منه، كان إذا بلغ المنزل أناخ بي، ثم استأخر عني، حتى إذا نزلتُ استأخر ببعيري فحط عنه ثم قيده في الشجرة، ثم تنحى إلى شجرة أخرى فاضطجع تحتها، فإذا دنا الرواح قام إلى بعيري فقدمه فرحَّله، ثم استأخر عني وقال: اركبي فإذا ركبت واستويت على بعيري أتى فأخذ بخطامه فقاده حتى ينزل بي، فلم يزل يصنع ذلك بي حتى أقدمني المدينة، فلما نظر إلى قرية بني عمرو بن عوف بقباء قال: زوجك في هذه القرية ـ وكان أبو سلمة نازلاً فيها ـ فادخليها على بركة الله، ثم انصرف راجعاً على مكة، وهو يومئذٍ مشرك، وأسلم يوم هدنة الحديبية. وكانت أم سلمة تقول: والله ما أعلم أهل بيت في الإسلام أصابهم ما أصاب آل أبي سلمة وما رأيت صاحباً قط كان أكرم من عثمان بن طلحة.

قال الصادق عرجون في قول أم سلمة هذا: وقد صدقت رضي الله تعالى عنها فما قاسته من التفريق بينها وبين زوجها، وما رأته في نزع ابنها من حجرها حتى خلعت يده، وما عانته من خروجها كل يوم إلى الأبطح تبكي نهارها مدة سنة أو قريباً من السنة، أمور عظيمة احتملتها حتى قيَّض الله لها الفرج.

وما رأته من عثمان بن طلحة العبدري ـ وهو مشرك ـ وليس من عائلتها بيت آل المغيرة، ولا من عشيرتها بني مخزوم من كرم النفس، ونخوة الرجولة، وتحمل المشقة البالغة في سبيل النجدة، أخلاق لا توجد إلا في الأكرمين أحساباً.

وقد منَّ الله تعالى على عثمان بن طلحة العبدري بنعمة الإسلام في هدنة الحديبية، وكان ثالث ثلاثة من الأبطال الذين اتفقوا على الهجرة إلى رسول الله ﷺ وهم: خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعثمان بن طلحة بن أبي طلحة.

فلما رآهم رسول الله ﷺ قادمين عليه مسلمين قال: «**رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها**».

وإلى عثمان بن طلحة وإلى ابن عمه شيبة بن أبي عثمان بن أبي طلحة دفع رسول الله ﷺ مفاتيح الكعبة وقال: «**خذوها تالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم**». وهي إلى اليوم لا تزال في أيدي بني شيبة.

قال المؤرخون: ثم تتابعت أفواج المهاجرين إلى المدينة، فالرجل وأهله، والرحل وصحبه، والرجل وحده، يجدون في سيرهم، ويستسرون بحركتهم، يركبون متن الليل سُرى، ولا يفوتنا أن نذكر واحداً من هؤلاء الأعلامِ قدم كل شيء ليشتري نفسه في سبيل الله ألا وهو صهيب الرومي، هاجر وحده، وفدى نفسه وعقيدته وهجرته بجميع ما يملك. وصهيب هذا هو صهيب بن سنان عربي من بني النمر بن قاسط، وهو من بيت رفيع في قومه، ناله سباء من الروم قرب الموصل وهو صغير، واشتراه بنو كلب، فغلب عليه لسان الروم فعُرف بصهيب الرومي، كما قال بن عبد البر في كتاب الاستيعاب.

قال الحافظ ابن حجر في كتاب الإصابة: يقال إن صهيباً لما هاجر تبعه نفر من المشركين، فقال لهم: يا معشر قريش إني من أرماكم، ولا تصلون إلي حتى أرميَكُم بكل سهم معي، ثم أضربكم بسيفي، فإن كنتم تريدون مالي دللتكم عليه، فرضُوا، فعاهدهم ودلهم على ماله فرجعوا وأخذوا ماله، فلما وصل الخبر للنبي ﷺ قال: «**ربح البيع**».

وقد ذكر ابن هشام قال: وذُكرَ لي عن أبي عثمان النهدي أنه قال: بلغني أن صهيباً حين أراد الهجرة قال له كفار قريش: أتيتنا صعلوكاً فقيراً لا مال لك، فكثر مالك عندنا، وبلغت الذي بلغت ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك. والله لا يكون ذلك، فقال صهيب: أرأيتم إن جعلت لكم مالي أتخلون سبيلي؟ قالوا: نعم، قال: فإني جعلت لكم مالي، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال: «**ربح صهيب، ربح صهيب**». وفيه وفي أمثاله نزل قوله تعالى: ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡرِي نَفۡسَهُ ٱبۡتِغَآءَ مَرۡضَاتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ . . ﴾ (١) ولننتبه هنا إلى لطيفة في الآية، وهي أن الله تعالى أخبر عن هؤلاء المؤمنين الخُلَّص بكونهم شروا أنفسهم ولم تأت بصيغة الأمر، لماذا؟ لأنَّ الإخبار بذلك أقوى في طلبه من الأمر، وأدَلُّ على تقريره؛ لأن الأمر به لا يدل على امتثال المأمورين، والإخبار هو الذي يدل على الوقع؛ لأنه يصور لنا القرآن بهذا الأسلوب ـ المؤمنين العاملين بمقتضى الإيمان ـ.

ولكن هنا سؤال: ما العلاقة بين ما سبق وبين رؤوف بالعباد؟ والجواب: أن الله ما شرع هذا إلا رأفة بعباده؛ لأن الله بهذا يرفع هِمَم بعضهم، ويُعلي نفوسهم حتى يبذلوها في سبيله لدفع الشر والفساد، وتقرير الحق والعدل والخير بينهم، ولولا ذلك لغلب شر المفسدين ولفسدت الأرض.

---

(١) البقرة: ٢٠٧.

﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّفَسَدَتِ ٱلۡأَرۡضُ . . ﴾[1]. وجميل قول صاحب تفسير المنار في الآية حين يقول: ووجود جماعة من هذا الطراز في الناس رحمة عامة للعباد لا خاصة بهذه الجماعة؛ لأن كثيراً ما ينتفع الناس بعمل المصلحين حين تظهر ثمرات أعمالهم من بعدهم.

ثم يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: وليس المقصود بهذا الشراء ـ **يشري نفسه** ـ إهانة النفس ولا إذلالها وإنما المُراد دفعُ الشر وتقرير الخير العام رأفة بالعباد، وإيثاراً للمصلحة العامة، وبهذا تظهر العلاقة بين أول الآية وبين ختامها، وهو قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ رَءُوفُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾ ثم يقول ـ رحمه الله تعالى ـ: وإن أمة يتصف أفرادها أو أكثرهم بهذا الوصف ـ **يشري نفسه** ـ لجدير بأن تسود العالمين، وكذلك سادَ سلفنا الصالحون، وإن أمةً تُحرم من هذا الصنف لخليقة بأن تكون مستعبدة لجميع المتغلّبين، وكذلك استعبد خلفنا الطالحون، ثم يقول: فهل نحن معتبرون؟

قال أهل السيرة: ومن اللطائف الربانية التي حصلت قبل هجرته ﷺ أن المهاجرين جميعهم ما منهم أحد إلا نزل عند أحد من الأنصار، فأي كرم أعظم من هذا؟ وأي إيمان أعظم من هذا؟، وأي إخاء أصدق من هذا الإخاء، ثم يقول الجزائري في كتابه «هذا الحبيب يا محب»: وأين نحن اليوم من ذا وذاك يا عباد الله؟

ومن اللطائف الربانية التي حصلت قبل هجرته ﷺ ما قاله عبد الرحمن بن كعب بن مالك قال: كنت أقود أبي لما كُفَّ بصره فكنت إذا خرجت به إلى الجمعة فسمع الأذان صلى على أبي أمامة أسعد بن زرارة، فسألته يوماً عن ذلك قائلاً: يا أبت ما لك إذا سمعت الأذان للجمعة صليت على أبي أمامة أسعد بن زرارة؟ قال: يا بني إنه كان أول من جَمّع بنا في المدينة في هزم النّبيت ـ جبل على بعد بريد من المدينة من حرة بني بياضة يقال له نقيع الخضِمات ـ قلت له: وكم كنتم يومئذ؟ قال: أربعون رجلاً.

قال الصادق عرجون: واستكمل المجتمع الإسلامي في دار الإيمان المدينة عناصر القوة، واستعدت المدينة برسوخ إيمانها، ووحدة المجتمع الموحد فيها، وقوته المادية والمعنوية لتستقبل أخطر وأعظم حدث في تاريخ الحياة وهو هجرته ﷺ إليها.

هنا سؤال: ما الحكم البارزة في اختيار المدينة دارا للهجرة؟

---

(١) البقرة: ٢٥١.

أجاب صاحب الرحيق المختوم: على ذلك فقال:

أولاً: امتازت المدينة بتحصين حربي طبيعي حيث تكثر حولها الحرات، كما بين ذلك الفيروزبادي في كتابه «المغانم المطابة في معالم طابة» والمنطقة المكشوفة منها هي من الجهة الشمالية، والتي حصنها النبي ﷺ بالخندق سنة (٥) للهجرة في غزوة الأحزاب، كما أن كثرة أشجار النخيل لا تساعد على اقتحامها لوجود حراسات ومخافر عسكرية عندها. وإلى هذا أشار النبي ﷺ بقوله: «**إني أريت دار هجرتكم ذات نخيل بين لابتين**» أي بين حرتين، وهو حرم المدينة.

ثانياً: لأن الأوس والخزرج أهل إباء ونخوة ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وأهل فروسية لم يخضعوا لأحد، وقد قال ابن خلدون فيهم: ولم يزل هذان الحيان ـ الأوس والخزرج ـ قد غلبوا اليهود على يثرب، وكان الاعتزاز والمنعة تعرف لهم في ذلك. ونحن نلمس هذه العزة في قول سعد بن معاذ سيد الأوس للنبي ﷺ لما أراد أن يصالح اليهود على قسم من ثمار المدينة. .

وجميل ما قاله صاحب العقد الفريد حين يقول فيهم: ومن الأزد الأنصار وهو الأوس والـخزرج، وهم أعز الناس نفوسا وأشرفهم هماً، ولم يؤدوا أتاوة قط لأحد من الملوك. رضي الله تعالى عنهم وأرضاهم.

الفصل الثاني والسبعون
تتابع أفواج المهاجرين إلىٰ المدينة

قال صاحب كتاب «محمد رسول الله»: ثم تتابعت أفواج المهاجرين إلى المدينة، وكانت بعض الأسر قد هاجرت بكاملها رجالاً ونساء، صغاراً وكباراً، وغلّقوا أبواب دورهم في مكة هجرة إلى الله ورسوله.

قال المؤرخون: ومن أوائل المهاجرين بعد الإذن من رسول الله ﷺ بالهجرة، عبد الله بن جحش، أخو أم المؤمنين زينب بنت جحش، حمل أهله، وحمل أخاه عبد بن جحش المعروف بأبي أحمد، وكان ضرير البصر، مرهف الحس، كما كان شاعراً مُجيداً، وكان يطوف مكة أعلاها وأسفلها بدون قائد، ومن شعره الذي يذكر فيه هجرةَ عشيرته بني أسد ابن خزيمة إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ حين دعاهم إلى الهجرة فقال:

إلى الله تغدو بين مثنى وواحدٍ ... ودينُ رسول الله بالحق دينُها

ولأبي أحمد الضرير هذا، قصيدة أخرى يذكر هجرته فيقول:

ولما رأتْني أم أحمد غادياً ... بذمَّةِ من أخشى بغيبٍ وأرهبُ
تقول: فإما كنت لابدَّ فاعلاً ... فيمّم بنا البلدان ولتنْأَ يثربُ
فقلت لها: بل يثربُ اليوم وَجْهُنا ... وما يشأِ الرحمن فالعبد يَركبُ
إلى الله وجهي والرسول ومن يُقم ... إلى الله يوماً وجهه لا يُخَيَّبُ
دعوت بني غَنْمٍ لحقن دمائهم ... وللِحقّ لما لاح للناس مَلْحَبُ
أجابوا بحمد الله لما دعاهم ... إلى الحق داعٍ والنجاحُ فأوْعَبوا
وكنا وأصحاباً لنا فارقوا الهدى ... أعانوا علينا بالسلاح وأجلَبوا
كفوجين: أما منهما فموفَّقٌ ... على الحق مَهدِيٌّ وفوجٌ مُعَذَّبُ
طغَوا وتَمنّوا كِذْبَةً وأزلَّهم ... عن الحق إبليسٌ فخابوا وخيَّبوا
ستعلم يوماً أيَّنا إذ تزايلوا ... وزُيِّلِ أمر الناس للحقِ أصوبُ

وهكذا غُلّقت دار بن جحش هجرة، فمر بها عتبة بن ربيعة، والعباس بن عبد المطلب، وأبو جهل هشام بن المغيرة، وهم مُصعدون إلى أعلى مكة، فنظر إلى الدار عتبة بن ربيعة تخفق أبوابها يباباً ليس فيها ساكن، فلما رآها كذلك تنفس الصعداء ثم قال:

وكل دار وإن طالت سلامتها　　　يوماً ستُدركها النكباءُ والحوب

ثم قال عتبة: أصبحت دار بني جحش خلاء من أهلها، فقال أبو جهل للعباس: هذا من عمل ابن أخيك، فرق جماعتنا وشتت أمرنا، وقطع بيننا.

قال صاحب كتاب «فقه السيرة» الغزالي ـ رحمه الله ـ معلقاً على كلمة أبي جهل قال: وأبو جهل بهذا الكلام تبرز فيه طبائع الطغاة كاملة، فهم يُجرمون ويرمون الوزر على أكتاف غيرهم، ويقهرون المستضعفين، فإذا أبى هؤلاء المستضعفون الخضوع والذل فإباؤهم علة المشكلات، ومصدر القلاقل.

قال أهل السيرة: بدأ المشركون بمكة يُحسون بالخطر العظيم عليهم من هذه الهجرة، فبدؤوا يشددون على من يشعرون منه الميل إلى الهجرة، فيمنعون من يستطيعون منعه منها، وأحياناً يحتالون على بعض المهاجرين ليردوهم، كما حدث لعياش بن أبي ربيعة، وكان قد هاجر مع عمر بن الخطاب. . .

ولنترك الحديث لعمر ليحدثنا عن قصة عياش بن أبي ربيعة، فيقول عمر: لما أردنا الهجرة إلى المدينة، اتَّعدْت أنا وعياش بن أبي ربيعة الملقب بذي الرمحين لشجاعته، وهشام بن العاص اللقاء عند التناضب.

قال ياقوت الحموي في معجمه: وتَنْضُبُ اسم قرية من أعمال مكة بأعلى نخلة فيها عين جارية. قال عمر: اتفقنا نحن الثلاثة أن من لم يُصبح عند التناضب فقد حُبس، فليمض صاحباه. قال: فأصبحنا أنا وعياش عند التناضب، وحُبس عنا هشام، وفُتِنَ فافتتن، فلما قدمنا المدينة نزلنا في بني عمرو بن عوف بقباء، وخرج أبو جهل والحارث بن هشام من مكة إلى المدينة للقاء عياش بن أبي ربيعة، وكان أخاهما لأمهما، فلقياه فيها ورسول اله ﷺ بمكة لم يهاجر بعد، فكلما عياش قالا له: إن أمك قد نذرت أن لا يمس رأسها مشط حتى تراك، وألا تستظل من شمس حتى تعود إليها. قال: فرقَّ عياش لأمه. قال عمر: فقلت له: يا عياش، إنه والله يريدك القوم إلا ليفتنوك عن دينك

فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمك القملُ لامتشطتْ، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت.

فقال عياش: أَبَرُّ قسم أمي، ولي هناك مال فآخذه. قال عمر: فقلت له: والله إنك لتعلم أني لمن أكثر قريش مالاً، فلك نصف مالي ولا تذهب معهما. قال: فأبى عليَّ إلا أن يخرج معهما، فلما أصرَّ قلت: أما إذا فعلت ما فعلت فخذ ناقتي هذه فإنها نجيبة ذلول، فالزم ظهرها، فإن رابك أمر من القوم فانجُ عليها، فأخذها، حتى إذا كانوا ببعض الطريق قال له أبو جهل: والله يا أخي لقد استغلظتُ بعيري هذا أفلا تُعقبني على ناقتك هذه؟ قال عياش: بلى. قال: فأناخ وأناخا ليتحول عليها، فلما استووا بالأرض عَدَوَا عليه فأوثقاه وربطاه ثم دخلا به مكة، وفَتَنَاْه فافتتن، ولما دخلا به مكة نهاراً موثوقاً قال بعض أقارب عياش: يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا.

وكان رسول الله ﷺ ـ كما ورد في الصحيحين ـ يدعو لعياش وللوليد بن الوليد ولسلمة بن هشام في قنوت صلاة العتمة، وكان ﷺ يقول بعد هجرته: «**اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين**».

قال ابن القيم في الهدي: قال أبو هريرة: وأصبح رسول الله ﷺ ذات يوم فلم يدع لهم ـ وكان ذلك بعد هجرته ﷺ إلى المدينة ـ فقلت: يا رسول الله، لم لا تدعو لفلان؟ فقال: «**أوما تراهم قد قدموا**».

وقد ذكرت بعض الروايات أن الله سبحانه وتعالى استجاب دعاءَ رسول الله ﷺ في الوليد ابن الوليد أولاً، ثم كان هو سبباً في إنقاذ الاثنين الآخرين، فقد ورد أن رسول الله ﷺ بعد أن هاجر قال «**من لي بعياش بن ربيعة، وهشام بن العاص**»؟ فقال الوليد بن الوليد الذي نجا قبلهما: أنا لك بهما يا رسول الله، فخرج الوليد مستخفياً فلقي امرأة تحمل طعاماً، فقال لها: أين تريدين يا أمة الله؟ قالت: أريد هذين المحبوسين، فتبعَها حتى عرف موضعهما، وكانا قد وُضعا في بيتٍ لا سقف له، فلما أمسى تسوَّر عليهما، ثم أخذ مروة فوضعها تحت قيدهما، ثم ضرب القيدين بسيفه فقطعهما، ثم حملهما على بعيره وساق بهما إلى المدينة، وسمي سيفه منذ ذلك الوقت بذي المَرْوَة. وقد ذكر ابن هشام أن الوليد لما ساق بهما البعير ساقه بشدة وسرعة، عثرت رجله فدميت إصبع من أصابع قدمه...

فقال:

هل أنتِ إلا إصبع دَميتِ   وفي سبيل الله ما لقيت

قال الصادق عرجون معلقاً على هذه القصة: وهكذا كان الإخاء الإيماني يفرض على أهله التعاون والمواساة في سبيل عقيدتهم، وافتداء دينهم بأرواحهم.

قال الصادق عرجون: ثم جاءت هجرة القوي الأمين، فاروق الإسلام عمر بن الخطاب في عشرين راكباً منهم أخوه زيد بن الخطاب وأخوه عبدا لله بن عمر.

قال الزرقاني في شرح المواهب: أخرج ابن عساكر عن علي قال: ما علمت أن أحداً من المهاجرين هاجر إلا متخفياً، إلا عمر بن الخطاب فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكّب قوسه واختصر عَنَزَتَهُ - أي حملها مضمومة إلى خاصرته وأخرج أسهماً من كنانته وجعلها في يده للرمي بها، ومضى قِبلَ الكعبة فطاف بالبيت سبعا، ثم أتى المقام فصلى ركعتين، ثم وقف على الحِلق حلْقةً حلْقة، واحدةً واحدةً. فقال لهم: شاهت الوجوه، لا يُرغم الله إلا هذه المعاطس، من أراد أن تثكله أمه أو يؤتم ولده أو تُرَمَّل زوجته، فلْيلقني وراء هذا الوادي. قال علي: فما تبعه أحدٌ من أهل الحِلق.

هنا لا بد من الإشارة إلى سؤال مهم طرحه صاحب كتاب فقه السيرة للغزالي: ما معنى هذه الهجرة، وما أبعادها؟ ثم أجاب رحمه الله تعالى بقوله: ليست الهجرة انتقال موظف من بلد قريب إلى بلد بعيد، وليس ارتحال طلب قوتٍ من أرضٍ مجدبةٍ إلى أرضٍ مخصبةٍ. إنها إكراه إنسان آمناً في سربه ممتد الجذور في مكانه، على إهدار مصالحه واستباحة أمواله.

كما أن الهجرة ليست نجاة لشخص مهاجر، إذ قد يهلك في أول الطريق أو في نهايته، فهو يسير في مستقبل مبهم لا يدري ما بعده.

وليست هذه الهجرة مغامرة فردٍ طائش، لا، وإنما هم أُناس يحملون أولادهم وأهليهم في طول البلاد وعرضها وهم راضو الضمير وضاؤو الوجوه. ولكن بأي شي هم كذلك؟ والجواب: بالإيمان الذي يزن الجبال ولا يطيش، وبمن هذا الإيمان؟ بالله الذي له ما في السموات والأرض، وبالذي له الحمد في الأولى والآخرة وهو الحكيم الخبير.

هذه الصعاب لا يطيقها إلا مؤمن. أما الهيّاب الخوّار القلق فما يستطيع أن يفعل شيئاً من ذلك - أي الهيّاب الخوّار -

من أولئك الذين قال الله عز وجل فيهم: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِن دِيَارِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِّنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾ (١)

ونلاحظ هنا أن الله عز وجل ساوى بين الأمر بقتل النفس، والأمر بالإخراج من الديار؛ لأن الجسم دار الروح والوطن دار الجسم، فهما متقاربان وساعة يُقتل الإنسان فهو يتألم، وساعة يُخرج من وطنه فهو يتألم وكلاهما شاقٌ على الإنسان، والآية تشير إلى أن المؤمن الصادق هو من يطيع الله ورسوله في المنشط والمكره، والسهل والشاق، ولو قتل النفس والخروج من الديار. أما المنافق فهو يعبد الله على حرف واحد وهو ما يوافق هواه، وأنه قلما يوجد من المنافقين من يصبر على هذا الامتحان، فيطيع فيما يُكتب عليه ولو كان التعرض للقتل والجلاء عن الوطن.

قال أبو إسحاق السبيعي: لما نزلت هذه الآية قال رجلٌ: لو أُمرنا لفعلنا. والحمد لله الذي عافانا.

قال مالك: القائل ذلك أبوبكر رضي الله وتعالى عنه، وذُكر عن أبي بكر أنه قال: لو كُتب علينا ذلك لبدأتُ بنفسي وأهل بيتي.

وذكر النقاش أن الذي قال ذلك عمر.

وذكر أبو الليث السمرقندي أن عمار بن ياسر وابن مسعود وثابت بن قيس قالوا: لو أن الله أمرنا أن نقتل أنفسَنا أو نخرجَ من ديارنا لفعلنا. فبلغ ذلك النبي ﷺ فقال: «**إن من أمتي رجالاً الإيمان أثبت في قلوبهم من الجبال الرواسي**». ذكره ابن كثير والطبري والغرناطي.

وورد عن شريح بن عبيد قال: لما تلا رسول الله ﷺ هذه الآية، أشار إلى عبد الله بن رواحة فقال: «**لو أن الله كتب ذلك لكان هذا من أولئك القليل**».

وورد عن عامر بن عبد الله بن الزبير أن هذه الآية لما نزلت قال رسول الله ﷺ: «**لو نزلت ـ أي بهذا التكليف ـ لكان ابن أم عبد منهم ـ ابن مسعود.**».

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا . .﴾ أي لو فرضنا أن الله تعالى قال: اقتلوا أنفسكم، أو اخرجوا من دياركم، ثم فعلتم ذلك لوجدوا في ذلك الخير، خلافاً لما كان في أذهانهم؛ لأن الإنسان عليه أن يفطن ـ كما قال الشيخ الشعراوي ـإلى سؤال يسأله نفسه

(١) النساء: ٦٦.

وهو: ما غاية المؤمن حين يؤمن بالله؟ وما غاية هذا الإيمان؟

فأنت تعش في الدنيا مع أسباب الله المخلوقة، وحين تنتقل إلى الله تعيش مع المسبب، فما الذي يحزنك عندما يقول لك: اقتل نفسك؟ إنه أراد بذلك أن ينقلك من الأسباب إلى خالق الأسباب فتحيا عنده بدون تعب، كما تتعب في الدنيا؛ لأن الحكم من الله ارتقاء، ففي الدنيا تستطيع أن تقرع الجرس من وراء الطاولة فيأتيك الطعام، أو الشاي، أو الحلوى. لكن مهما حاولت في الدنيا فلن ترتقي إلى الحياة في الجنة بحيث إذا خطر الشيء على بال الإنسان وجد الشيء أمامه، فلا يحتاج إلى دق جرس ولا إلى جهد، فأي الخيرين أفضل؟ وذلك أشد لتثبيت الإيمان في قلوبهم وتثبيت عزهم. أ. هـ كلامه

قال صاحب كتاب فقه السيرة الغزالي ـ رحمه الله ـ وهكذا أخذ المهاجرون المسلمون يتركون مكة زرافات ووحدانا حتى كادت مكة تخلو ممن أسلم، وشعرت قريش بأن الإسلام أصبحت له دار يأوي إليها، وحصن يحتمي به، وخافت من عواقب هذه المرحلة في دعوة الرسول ﷺ، وهاجت في دمائها غرائز السَّبُعِ المفترسة حين يشعر بشيء يهدد حياته، ويؤكد المباركفوري في كتابه الرحيق المختوم تتابع المسلمين في الهجرة إلى المدينة إذ يقول.

وبعد شهرين وعدة أيام من بيعة العقبة لم يبق بمكة من المسلمين إلا رسول الله ﷺ وأبو بكر وعلي، وبقيت قلة قليلة من المسلمين احتبستها قريش كرهاً، وقد أعد رسول الله ﷺ جهازه ينتظر متى يُؤمر بالخروج، كما أعد أبو بكر جهازه ليتوجه إلى المدينة حين سمع من رسول الله ﷺ قوله: «**إني أريت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين**».

فقال له رسول الله ﷺ «**على رسلك فإني أرجو أن يؤذن لي**»، فقال أبو بكر: وهل ترجو ذلك بأبي أنت يا رسول الله؟ قال ﷺ: «**نعم**». فحبس أبو بكر نفسه على رسول الله ﷺ وعلف راحلتين ـ كانتا عنده ـ ورق السَّمُر أربعة أشهر لأن النبي ﷺاعتزم الهجرة منذ بيعة العقبة الأولى.

الفصل الثالث والسبعون
قلق قريش ولقاؤهم في دار الندوة للتأمر علىٰ الرسول ﷺ

رأت قريش خلاء مكة من المسلمين، ولم يبق إلا من حُبس منهم في مكة، ولكن النبي ﷺ لا يزال بين أظهرهم، وهو ـ لابد ـ سيتبع أصحابه ويدركهم اليوم أو غداً أو بعد أيام، فَلْتُعَجِّل به قريش قبل أن يترك مكة مهاجراً، وهذا يتطلب لقاء غير عادي في دار الندوة وهو مكان برلمان قريش.

قال صاحب الرحيق المختوم: لما رأت قريش أن أصحاب رسول الله ﷺ قد خرجوا وحملوا الأطفال والأموال مهاجرين إلى الأوس والخزرج وقعت فيهم ضجة وأصابهم القلق بشكل لم يسبق له مثيل؛ لأنهم شعروا أن خطراً حقيقياً بات يهدد كيانهم الوثني، والاقتصادي، فهم يعلمون قوة تأثير محمد ﷺ مع كمال القيادة فيه، ويعرفون عزيمة المؤمنين وتصميمهم مع ما للأوس والخزرج من قوة ومنعة، ثم لاحظوا كيف تآلفت القبيلتان على يد رسول الله ﷺ، كما لا يخفى عليهم حصانة المدينة وموقعها التجاري حيث تمر قوافلهم الآتية من اليمن إلى السام، وكانت تجارتهم إلى الشام وحدها تعادل ربع مليون دينار من الذهب سنوياً عدا تجارة أهل الطائف وغيرها، ويعلمون أنه لابد من أمن الطريق لضمان سلامة هذه الأموال وهذه التجارات. فأدركوا الخطر من وجود المسلمين في المدينة فبدؤوا يبحثون عن أنجع الوسائل لدفع هذا الخطر، وخلصوا إلى أن كل الخطر يكمن في حـامل لواء دعوة التوحيد، في محمد رسول الله ﷺ.

كان اجتماع طواغيت قريش في دار الندوة يوم الخميس السادس والعشرين من شهر صفر من السنة الرابعة عشرة من بعثته ﷺ الموافق الثاني عشر من أيلول (سبتمبر) سنة٦٢٢ م ليتخذوا قراراً حاسماً في أمر محمد ﷺ ودعوته، وكان أبو جهل وأبو سفيان والنضر بن الحارث ممن حضروا هذا الاجتماع.

قال العلماء: ودارت المناقشة في هذا الاجتماع للبحث عن حل ومخرج. قال بعضهم: إن هذا الرجل ـ يعنون محمداً ﷺ ـ قد كان من أمره ما رأيتم، وإنا والله ما نأمنه من الوثوب علينا فيمن تبعه من غيرنا فأجمِعوا فيه رأياً.

قال بعضهم وهو أبو البحتري: إذا أصبح محمد فأثبتوه بالوَثاق، وسُدُّوا عليه بابَ بيتٍ غيرَ كوة تلقون إليه منها بالطعام والشراب. والمقصود أن يُحبس حتى يموت.

وقد ورد عن الضحاك ومجاهد. أن قريشاً لما اجتمعوا في دار الندوة فكثرت آراؤهم بمحمد ﷺ قال بنو عبد الدار: هو شاعر تربَّصوا به ريب المنون، فسيهلك كما هلك زهير والنابغة والأعشى، وأورد الطبري عن قتادة نفس المقالة، ولكن لم يذكروا فيها أسماء الشعراء السابقين، وفي ذلك يقول عز وجل في سورة الطور: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ . .﴾ (١).

قال أبو حفص الحنبلي في تفسيره المسمى اللباب: كانت العرب تحترَز عن إيذاء الشعراء، فقال بعضُهم: لا نعارضُهُ مخافةَ أن يغلبنا بشعره، وإنما نصبرُ ونتربَّص موته ويهلك، ويتفرق أصحابه، وإن أباه مات شاباً، ونحن نرجو أن يكون موته كموت أبيه.

وقالوا: هو شاعر، والذي يذكره شعر، ولا ناصر له، وسيصيبُه من بعض آلهتنا الهلاكُ فنتربَّص به ذلك. والمنون اسم للموت، وهو يذكر ويؤنث، فإن أَنَّثته حُمِلَ على معنى المنية، وإن ذكَّرته حُمل على معنى الموت.

ومنه قول أبي ذؤيب:

أمن المنون وريبِها تتوجَّـــع   والدهُر ليس بمعتبٍ مَنْ يجزع

حملاً على معنى المنية، ورويَ ـ أمن المنون وريبه تتوجع ـ حملاً على معنى الموت.

وتتابع النقاش في برلمان الشرك في دار الندوة وانبرى هشام بن عمر، واقترح ما يلي حيث قال: نحمل محمداً على بعير ونخرجه من بين أظهرنا، فننفيه من بلادنا، فإذا أُخرج عنا فو الله ما نبالي أين ذهب، ولا حيث وقع، ثم بعد فراغنا منه نصلح أمرنا ونُعيد إلفتنا كما كانت. هذه العروض، وهذه الآراء لم تُعجب أَحَدَ أَبالستهم، وكان شيخاً نجديّاً حضر إلى ندوتهم وكان واقفاً على باب دار ندوتهم فقالوا له: من الشيخ؟ قال: شيخ من أهل نجد سمع بالذي اتّعدتُم عليه فحضرت معكم لأسمع ما تقولون، وكان المشركون من قريش يحبون أهل نجد، ويكرهون أهل تِهامة، ولذلك قالوا حين اجتمعوا ـ كما روى صاحب الروض الأنف ـ لا يدخَلنَّ في المشاورة أحد من أهل تهامة؛ لأن هواهم مع محمد ﷺ.

---

(١) الطور: ٣٠.

هذه الآراء التي عُرضت من التربص بالنبي ﷺ حتى يموت، أو الحبس في الحديد أو الإخراج لم تُعجب هذا الشيخ النجدي والذي قال عنه بعض أهل السير إنه إبليس، وهذا القول مروي عن ابن عباس في رواية مرسلة لم يثبت لها سند يُعتمد عليه كما قال المحققون من أمثال الصادق عرجون رحمه الله تعالى.

قال أبو زهرة في كتابه «خاتم النبيين»: وهذا الشيخ وإن لم يكن إبليسَ، فهو مثله خبثاً، وسواء كان هذا الشيخ الأعرابي إبليساً أو لم يكن هو إبليس، فالمسألة لا تتغير معالمها الحاقدة ـ كما قال عرجون ـ. هذه العروض لم تعجب كبارهم، ولا شيخهم النجدي، فانبرى يُفَنّد رأي من اقترح الحبس قائلاً: لا والله ما هذا برأي، والله لئن حبستموه كما تقولون ليخْرُجَنَّ أمره من وراء الباب الذي أغلقتموه دونه إلى أصحابه، فأوشكوا أن يثبوا عليكم فينتزعوه من أيديكم ثم يكاثروكم به حتى يغلبوكم على أمركم، ما هذا لكم برأي فانظروا غيره.

ثم بدأ الشيخ يفند رأي القائلين بالإخراج فقال: لا والله ما هذا برأي، ألم تروا حُسْنَ حديثه، وحلاوَة منطقهِ، وغلبَتِه على قلوب الرجال بما يأتي به، فوالله لو فعلتم ما أمنتم أن يحل عليه جماعة من العرب فيأخذهم بقوله وحديثه حتى يتابعوه عليه، ثم يسير بهم إليكم ويأخذُ أمركم من أيديكم، ثم يفعل بكم ما أراد، دبروا فيه أمراً غير هذا.

قال أهل السيرة: فانبرى أبو جهل بن هشام فقال: والله إن لي فيه رأياً ما أراكم وقعتم عليه أبداً!! قالوا: وما هو يا أبا الحكم؟ قال: إني أرى أن نأخذ من كل قبيلة فتى جلداً شاباً نسيباً وسيطاً فينا، ثم نعطي كل واحد منهم سيفاً صارماً ثم يَعْمَدوا إليه فيضربوه ضربة رجلٍ واحد فيقتلوه، فنستريحَ منه، فإنهم إذا فعلوا ذلك تفرق دمُهُ في القبائل جميعاً فلم يقدرْ بنو عبدِ مناف على حرب قومهم جميعاً، فيرضون منه بالعقل ـ أي الدية ـ. فقاموا وقد أجمعوا على تنفيذ هذا الرأي، وبخاصة عندما قال الشيخ النجدي المتأبلس: القول ما قال هذا الرجل ـ يعني أبا جهل ـ هذا الرأي الذي لا رأي غيرُه.

الفصل الرابع والسبعون
ويمكرون ويمكر الله

أجمعوا على هذا الرأي، وقاموا يُعِدُّون العدةَ للقيام بما مكروا به، وكان هذا الرأي قد اتُّخذ في اجتماع عام، فمن الطبيعي أن يعلم به رسول الله ﷺ وأن يعرفَ حقيقَة وضعه في مكة، إنهم الآن ينتظرون موعد التنفيذ، ثم يُقدّمون دمَ المصطفى ﷺ قرباناً لآلهتهم، وسُمي هذا يومَ الزحمة لتزاحم غوغائهم انتظاراً لمقررات كبارهم.

ويأتي جبريل للنبي ﷺ فأمره ألا يبيت في فراشه الذي كان يبيت فيه، وأخبره بمكر القوم، فلم يبتْ رسول الله ﷺ في بيته تلك الليلة، وأذن الله له عند ذلك بالخروج، وحدّد له جبريل الوقت، وأنزل الله عز وجل عليه بعد وصوله ﷺ إلى المدينة يَذْكُر نعمتَه العظمى عليه في قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ . . ﴾ (١).

هنا نلاحظ في الآية أن الله تعالى عندما خاطب النبي ﷺ لم يأت بكلمة ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ . . ﴾ ولكنه عندما يكون الكلام للصحابة تأتي في الآيات مادة الذكر، كما قال العلماء، وذلك كما في قوله تعالى: ﴿وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ . . ﴾ (٢)، فلماذا جاء هنا بالذِّكر وفي جانب الرسول لم يأت بالذكر؟

والجواب عند العلماء: أن رسول الله ﷺ لا يغفل عن ذكر الله تعالى أبداً؛ لأن الذِّكرَ والتَذَكُّر هي مهمته ﷺ وهذا ما ذكره الله تعالى في سورة الغاشية: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ . . ﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ . . ﴾ والمكر، هو التبييت بشيء خفيّ يَضُرّ بالخصم، والذي يُبيت شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه لا يملك القدرة على المواجهة، لذلك لا يمارس المكرَ إلا الضعيف ولهذا يقول الله تعالى عن الشيطان: ﴿إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا . . ﴾ (٤)

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) الأنفال: ٢٦.

(٣) الغاشية: ٢٢.

(٤) النساء: ٢٧.

ونجد الشاعر العربي يقول:

وضعيفةٍ فإذا أصابَتْ فرصةً   قتلتْ كذلك قدرةُ الضعفاء

قال العلماء: لأن الضعيف إذا أصاب فرصة استغلها؛ لأنه يظن أنه قد لا تُتاح له فرصةٌ أخرى؛ لذلك يندفع لقتل خصمه، أما القوي فهو يثق بقدراته ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة. ثم يــعاقب خصمه على قدر إساءته إليه.

قال البروسوي: واعلم أن للخلق مكراً، وللحق مكراً، فمكر الخلق من العجز والحيلة، ومكر الخالق من الحكمة والقدرة، فمكر الخلق مع مكرِ الحق عز وجل باطلٌ زاهق، ومكرُ الحقّ حق ثابت.

قال أبو العيناء: كانت لي خصماء ظَلَمَةٌ، فشكوتُهم إلى أحمد بن أبي دؤاد، وقلت: إنهم تظاهروا عليَّ فصاروا يداً واحدة، فقال: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (1) فقلت: لهم مكر، فقال: ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (2) فقلت: هم كثير، فقال: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ (3). والله عدل يعاقب الخلق بما كسبت أيديهم.

قال البروسوي: وُجد في وقائع الإسكندر مكتوباً بماء الذهب: إذا كان الله هو غايةَ الغايات، فالمعرفة أجلُّ العبادات، وإذا كان الموتُ حقاً، فالركون إلى الدنيا غرور، وإذا كان الغدر في النفوس طبعاً فالثقة بكل أحدٍ عجز، وإذا كان الله عدلاً في أحكامه، فعقوبات الخلق بما كسبت أيديهم.

وهذه مواعظ جميلة، فاحذر يا عبد الله من الثقة بكل أحد، فما أكثر من يخون هذه الثقة، ولذلك قال ابن عباس: كلب أمين خير من صاحب خائن. فقد كان للحارث بن صعصعة ندماء لا يفارقهم، وكان شديدَ المحبة لهم، فخرج يوماً في بعض منتزهاته ومعه ندماؤُه، فتخلَّف منهم واحد، فدخل على زوجة الحارث، فأكلا وشربا ثم اضطجعا، فوثب كلبُ الحارث عليهما فقتلهما، ورجع الحارث فرآهما كذلك، فعرف الأمر. . . فأنشد:

---

(1) الفتح: ١٠.

(2) فاطر: ٤٣.

(3) البقرة: ٢٤٩.

وما زال يرعى ذِمتي ويحوطُني ويحفظُ عِرسي والخليل يخون

فيا عجباً للخِلّ تحليل حُرمتي ويا عجباً للكلب كيف يصون

والله عدل يعاقب العبد بما اكتسب، فها هو أبو جهل قصد الإضرار بالنبي ﷺ بالقتل، فقتله الله عز وجل في بدر وأزال شره عن المسلمين.

قال العلماء: أُعلِمَ النبي ﷺ بالمكيدة وحياً، فقال لعلي ربيبِ النبوة: «**نم على فراشي، وتسج ببُردي الحضرمي الأخضر فنم فيه، فإنه لا يخلُص إليك شيء تكرهه منهم**». وكان ﷺ إذا نام تسجى بهذا البرد.

أما المشركون المجرمون، فقد قضَوا نهارهم في الإعداد لتنفيذ الخطة التي رسمها برلمانهم في دار الندوة صباحاً، واختاروا لذلك أحد عشر رئيساً من أكابرهم وهم: أبو جهل بن هشام ـ الحكم بن أبي العاص ـ عقبة بن أبي معيط ـ النضر بن الحارث ـ أمية بن خلف ـ زمعة بن الأسود ـ طعيمة بن عدي ـ أبو لهب ـ أبي بن خلف ـ نبيه بن الحجاج ـ وأخوه منبه بن الحجاج.

قال المباركفوري: فلما كانت عَتَمَةُ الليل، اجتمعوا على بابه يرصدونه حتى ينام فَيثِبُوا عليه، وكانوا على ثقة ويقين جازم بنجاح المؤامرة الدنيئة. ورصد رسول الله ﷺ تحركهم وهو في داخل البيت فقال لعلي: «**نم على فراشي، وتسج ببردي الحضرمي الأخضر فنم فيه، فإنه لا يخلص إليك شيء تكرهه منهم**». وصدع علي بالأمر غير عابئ بالعواقب يفدي النبيﷺ بنفسه، وكان سن علي وقتها في نحو الثالثة والعشرين من عمره.

وكان النبي ﷺ قد اتخذ قرار الهجرة سراً ولم يُعلم بذلك إلا الصديق وأهلَ الصديق، وعلياً، وهذه خِصّيصَة لعلي، لمكانه من رسول الله ﷺ، ومكانته الخاصة في قرابته وبيئته؛ لأن علياً ربيبَ النبي، وأعرفَ الناس برسول الله ﷺ مَدخلاً ومخرَجاً، وأعلمهم بأحواله، وفي ثقة الناس به كما يقول صاحب كتاب محمد رسول الله.

كان ميعاد التنفيذ بعد منتصف الليل بقليل، وبات المشركون متيقظين ينتظرون لحظة التنفيذ، ووقف أبو جهل بينهم يخاطبهم بصوت كفحيح الأساود حقداً، يخالط قوله شيء من الاستهزاء والسخرية، وهو على يقين من النجاح، ولذلك كان همسه لشياطينه متصفاً بالتحدي والخيلاء فقال لهم: إن محمداً يزعم أنكم إن تابعتموه على أمره كنتم ملوك العجم والعرب، ثم

بُعثتم من بعد موتكم فجُعلت لكم جنان كجنان الأردُن، وإن لم تفعلوا كان له فيكم ذبح ثم بُعثتم من بعد موتكم، ثم جُعلت لكم نار تُحرقون فيها، كما ذكر ابن إسحاق في السيرة عن محمد بن كعب القرظي، وسمع محمد ﷺ كلامه فقال: «**نعم أنا أقول ذلك وأنت أحدهم**».

دنت ساعةُ الاغتيال، وكانوا قد طوقوا المنزل، كما كانت أعينهم تتطلع من شقوق الباب، فيرون علياً على فراش رسول الله فيظنونه إياه، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً على برده.

كان جدارُ بيتِ النبي ﷺ قصيراً، ومن السهولة أن يتسلقوا عليه ثم يدخلوا إلى النبي ﷺ فيقتلوه، فلماذا اكتفوا بتطويق المنزل والانتظار حتى الصباح حيث قام علي من الفراش فسُقِطَ في أيديهم وسألوه عن رسول اله ﷺ فقال: لا علم لي به.

إذاً ما هو السبب الذي جعلهم لا يتسلقون الجدار القصير؟

والجواب ذكره السهيلي في الروض الأُنُف حيث قال: لقد ذكر أهل التفسير في الخبر أن المجرمين قد حاول بعضهم اقتحام الجدار القصير والدخول على النبي لاغتياله، فلما هموا بذلك واعتلى بعضهم الجدار فصاحت امرأة من الدار، فقال بعضهم لبعض: والله إنها لسُبَّةٌ ـ أي عار يُسب من يفعله ـ في العرب أن يتحدث عنا أننا تسوَّرْنا الحيطان على بناتِ العم وهتكنا سَتْرَ حُرمتنا، فهذا الذي أقامهم بالباب حتى أصبحوا ينتظرون خروجه ﷺ ليغتالوه عند الخروج، ثم طُمست أبصارهم عن النبي ﷺ حين خرج.

قال الصادق عرجون: وخرج رسول الله ﷺ على المتربصين به في رسوخ اليقين، وثبات الرواسي الشامخات، وهم ينظرون بعيون مفتَّحة ولكنها لا تُبصر، وأبدانٍ يقظى ولكنها مخدرةٌ الإحساسِ كأنها أشباحُ نخل خاوية، وأخذ رسول الله ﷺ حفنة من تراب وجعل ينثره على رؤوسهم وهو خارج عليهم تحقيراً لشأنهم واستهانةً بمكرهم وهو يتلو: ﴿يسٓ ﴿١﴾ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣﴾﴾ . . . . . إلى قوله تعالى. . . ﴿ وَجَعَلْنَا مِنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا ﴾[1]. فلم يبق منهم أحد إلا وُضِع على رأسه تراب.

قال ابن إسحاق وغيره ممن ألفوا في السيرة قديماً: ثم انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد أن يذهب، وكانت مغادرته ﷺ لبيته ليلة السابع والعشرين من شهر صفر سنة أربع عشرة من

---

(١) يس: ١-٩.

النبوة الموافق للثالث عشر من سبتمبر سنة ٦٢٢ م إذا اعتبرنا بداية السنة من المحرم، وإذا اعتبرنا بداية السنة من الشهر الذي أكرم الله به نبيه بالنبوة فيكون شهر خروجه ﷺ هو صفر في السنة الثالثة عشرة قطعاً.

قال رواة السيرة: ومرَّ بهم رسول الله ﷺ وهم لم يروه فأعمى الله أبصارهم، وهذه السورة التي تلا منها رسول الله ﷺ هي سورة ـ يس ـ التي ورد في فضلها حديث أخرجه الترمذي مرفوعاً عن أنس أن النبي ﷺ قال: «**يس قلب القرآن الكريم، لا يقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة إلا غفر له، اقرؤوها على موتاكم**»، والحديث ضعيف.

قال العلماء: والسبب والسر في كونها قلب القرآن الكريم، أن الإيمان لا يكون صحيحاً من العبد إلا إذا آمن واعترف بالحشر، والحشر مقرر في هذه السورة على أبلغ وجه، وقُرر فيها الأصول الثلاثة: الوحدانية، والرسالة، والحشر بأقوى البراهين. قال صاحب «إنسان العيون»: من خصائصه ﷺ أن الله تعالى أقسم على رسالته فقال: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾.

وقد ورد في أثر ذكره البروسوي أن الله عز وجل قرأ طه ويس قبل خلق آدم بكذا وكذا من السنين فلما سمعت الملائكة ذلك قالوا: طوبى لأمة ينزل عليها هذا، وطوبى لألسن تتكلم بهذا، وطوبى لأجواف تحمل هذا. وفي حديث عن أبي الدرداء أو أم الدرداء أنه ﷺ قال: «**ما من ميت يقرأ عليه سورة يس إلا هون الله عليه**».

انصرف رسول الله ﷺ إلى حيث أراد أن يذهب، كما قال كل مؤلفي السيرة. أما المتآمرون المشركون، فقد استمروا في الحصار ينتظرون النبي ﷺ حتى يخرج فيقتلوه، إلى أن أتاهم آتٍ ممن لم يكن معهم، ولعله رأى النبي ﷺ بعد أن خرج في بعض فجاج مكة، فقال للمؤتمرين والمتآمرين: ما تنتظرون هنا؟ فقالوا: محمداً، فقال: خيبكم الله، والله لقد خرج محمد عليكم ثم ما ترك منكم رجلاً إلا وقد وضع على رأسه تراباً، ثم مضى لحاجته، أما ترون ما بكم؟ فوضع كل رجل منهم يده على رأسه فإذا عليها تراب، ولكن لم يصدقوا، فجعلوا يتطلعون من صَيْرِ الباب ـ أي من شَقّ الباب ـ فيرون في الفراش رجلاً متسجياً ببرد رسول اله ﷺ، فيقولون: والله إن هذا لمحمد نائماً على برده، فلم يبرحوا كذلك حتى أصبحوا فقام علي من الفراش، فقالوا: والله لقد صدقنا الرجل.

الفصل الخامس والسبعون
الخروج مع الصديق

إذاً خرج رسول الله ﷺ من البيت بعد منتصف الليل، وأتى إلى بيت أبي بكر الصديق ظهيرة اليوم الثاني، هنا يرد سؤال مهم: أين قضى رسول الله ﷺ بقية ليلته، وصباح اليوم التالي إلى وقت الظهيرة؟

والجواب: تعالوا نستعرض أصح الروايات الواردة في بدء الهجرة، وذلك في رواية البخاري التي تشير إلى أن النبي ﷺ لم يذهب إلى بيت الصديق إلا في نحو الظهيرة من اليوم الذي أعقب ليلة خروجه ﷺ فأين أمضى ﷺ ذلك الوقت قبل أن يأتي إلى بيت أبي بكر في وقت لم تَجْرِ به عادته في الذهاب إليه؟ مع أنه ﷺ كان دائم الذهاب إلى الصديق في كل يوم بكرة وعشياً، كما في حديث عائشة الذي في الصحيح قالت: لم يكن يمر علينا يوم إلا يأتينا ﷺ طرفي النهار. والبخاري لم يذكر أين قضى رسول الله ﷺ هذه المدة بقية الليل ونصف اليوم التالي، والروايات الأخرى المروية كلها مخالفة للصحيح ومتضاربة فلنذكر طرفاً من هذه الروايات.

رواية تقول: إن الصديق خرج ليلتها مع رسول الله ﷺ وتوجها معاً إلى غار ثور، وهذه الرواية تدل على أن الصديق كان مع رسول الله ﷺ في البيت، وهذا مخالف لرواية الصحيح المروي عن عائشة من أنه ﷺ لم يذهب إلى بيت الصديق إلا في نحو الظهيرة حيث خرجا منه إلى غار ثور، ورواية ثانية تقول: إن الرسول ﷺ خرج لوحده إلى غار ثور أولاً، وبات في تتمة ليلته، ثم أتى منه إلى بيت الصديق نحو الظهيرة من اليوم الثاني ثم خرجا معاً.

وهذه الرواية ذكرها الزرقاني في شرح المواهب، ولكنه ذكر رواية أخرى عن المفسر البيضاوي تعارض الرواية الأولى حيث قال: فبيَّتَ علياً على مضجعه وخرج مع أبي بكر إلى الغار، وأن خروج أبي بكر مع النبي كان ليلاً إلى غار ثور، وكل هذا يخالف ما ورد في الصحيح من حيث كان مجيئه ﷺ إلى بيت الصديق ظهراً، ولأن أبا بكر لو كان مع النبي ﷺ وخرجا معاً من بيت النبي ليلاً لما دُهش الصديق عند مجيئه ﷺ ظهراً في ذلك اليوم حيث قال لما رآه: بأبي هو وأمي ما جاء إلا لأمر.

ورواية ثالثة تقول: إن النبي ﷺ قال لعلي»: **إذا أتى ابن أبي قحافة فقل له يلحق بي في غار**

ثور»، وهذه الرواية تخالف الصحيح؛ لأنها تدل على أن النبي ﷺ توجه من بيته إلى غار ثور، وإن أبا بكر لحق به، مع أنه في الصحيح أن النبي ﷺ أتى إلى بيت الصديق في الظهيرة وخرجا معاً.

ورواية رابعة تقول: إن الصديق أتى وسأل علياً أين رسول الله؟ فقال علي: توجه إلى بئر ميمون فالْحَقْ به هناك، وهذا البئر بئر عذبة حوله بيوت بني هاشم.

ورواية خامسة تقول: إن النبي ﷺ أمر علياً أن يشتري ثلاثة أبعرة وأن يستأجر له دليلاً، وهذا مخالف للصحيح الثابت القائل: إن الصديق هو الذي اشترى الراحلتين وعلفهما، وأعطى الرسول خيرهما.

إذاً ما هو الجواب؟ قال الصادق عرجون: بقي أمر مهم وخطير لم تذكره الروايات، وهو موقف بني هاشم من المؤامرة على قتله ﷺ ، ولا شك بأن هذه المؤامرة كانت أخطر أمر على رسول الله ﷺ فهل يسكت بنو عبد مناف عنه؟

قال العلماء: موقف بني هاشم وبني عبد مناف من نصرة النبي ﷺ معروف، لقد وقفوا معه يوم حصار الشعب، وموقف حمزة أسد الله وأسد رسوله من أبي جهل حين شجه لأنه آذى النبي ﷺ بكلمات معروف، أفيكون حمزة على بعد خطوات من بيت رسول الله ﷺ ومن تجمع الطغاة المتآمرين لقتله ثم يسكت عنه؟ أين الأماجد؟ هل ذلوا؟ هل استكانوا؟ إن قريشاً تحسب المؤامرة تمت ولا حِسَّ لبني هاشم ولا خَبَر، ولا وِرْدَ، ولا صَدَر. والروايات كلها أجمعت على هذا الموقف العجيب. إذاً لابد أن يكون في الأمر سرٌّ فما هو؟ وفي هذا السر يكمن الجواب على السؤال الماضي: أين كان رسول الله ﷺ وأين ذهب من بعد منتصف الليل إلى ظهر اليوم التالي؟

قال الصادق عرجون: الجواب واحد تدل عليه أمور وقرائن وإشارات إذ ليس عندنا نصوص قاطعة في الجواب، ومن تلك الإشارات، ما رواه البخاري أن النبي ﷺ أتى إلى الصديق ظهيرة اليوم التالي للمؤامرة، وهذا يدل على أن الصديق لم يكن مع النبي ليلتها، ولم يكن عنده علم بمكر قريش لاغتياله ﷺ.

استغرب الصديق مجيء النبي ﷺ إليه في وقت الظهيرة إذ ليس من عادته ﷺ ذلك، ولهذا قال الصديق: بأبي هو وأمي ما جاء به في مثل هذه الساعة إلا أمر، ثم كان قوله ﷺ: «**قد أذن لي بالخروج**». ثم الروايات المخالفة للبخاري مضطربة ومشوشة.

وعدم ذكر بني هاشم في الروايات، يدل على الدهشة والعجب، والأحداث تأبى أن يكون بنو هاشم بعيدين عن معتركها.

فالبداهة تقتضي أن بني هاشم كانوا في حومة الأحداث، يديرونها بتدبير محكم، وسياسة خفية، وأنهم كانوا على علم بمكر قريش فرأوا أن يقاتلوها بسلاح المكرِ كما مكرت هي، فأحكموا أمرهم، ومكَّنوا محمداً من الهجرة إلى المدينة وأهلِها الذين بايعوه بمشهد من العباس عمه.

هذا التفسير وهذا الجواب يوحي بترابط الأحداث ويجلّي الغموض، ويدّلك على أن بني هاشم كان لهم دور في سلامة النبي ﷺ والمعقول القريب أن يقال: إن النبي ﷺ قد خرج من بيته بعد أن بيت علياً مكانه، ثم خرج إلى بيت من بيوت بني هاشم القريبة، وفيه قضى بقية ليلته وصدرَ يومها حتى إذا أظهر، وهدأتْ الحياة خامدة تحت وطأة حر مكة وسعير لهيبها. .

خرج رسول الله ﷺ ميمماً شطر بيت الصديق في وقت الظهر، فيتلقاه الصديق بلهفةِ المشفق المتوجس متسائلاً أن يكشف له عن سبب مجيئه في هذا الوقت الذي لم يتعود أن يأتي فيه الصديقَ، وعندها جاء الجواب من رسول اله ﷺ للصديق: «**إنه قد أُذن لي بالخروج**».

قال الصديق: الصحبة يا رسول الله، فقال ﷺ: نعم.

قالت عائشة: ورأيت أبي يبكي ـ وما كنت أحسب أن أحداً يبكي من الفرح.

بهذا الربط تستقيم الأمور، ويظهر دور بني هاشم وكيف كانت تصرفاتهم حكيمة، فقد فوَّتوا على المشركين مكرهم، وحقنوا دماءهم، وبهذا مكَّنوا النبي ﷺ من الخروج.

قالت عائشة: فلما دخل رسول الله ﷺ علينا، تأخر له أبو بكر عن سريره فجلس رسول الله ﷺ ، وليس عن أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر. فقال رسول الله ﷺ: «**أخرج عني من عندك**» فقال الصديق: يا رسول الله إنما هما ابنتاي، وما ذاك فداك أبي وأمي؟ فقال رسول الله: «**إن الله قد أذن لي بالخروج والهجرة**»، وقد مر معنا أن الصديق طلب من النبي ﷺ أن يكون صاحبه، فقال: الصحبةَ يا رسول الله، فقال ﷺ: «**الصحبة**» فبكى الصديق سروراً، وقالت عائشة عندها: ما كنت أحسب أحداً يبكي من الفرح حتى رأيت ذلك من أبي. وقد أخذ الشعراء هذا المعنى ـ أي البكاء فرحاُ ـ

فقال الطائي يصف سحاباً:

دُهْمٌ إذا وَكَفتْ في روضةٍ طَفِقَت عيونُ أزهارها تبكي من الفرح

ولله در القائل في هذا المعنى:

ورد الكتـــابُ من الحبيـــب بأنه　　　سيزورنـــي فاسـتعبَرَتْ أجفاني

غلب الســـرورُ عليّ حتـــى إنه　　　من فـــرطِ مـــا قد سرني أبكاني

يا عينُ صـــار الدمعُ عندك عادةً　　　تبكيـــــن في فـــرحٍ وفي أحزان

إذا الإنسان قد يبكي من الفرح، ولذلك لما قال ﷺ لأُبي بن كعب: «**إن الله أمرني أن أقرأ عليك سورة كذا**» ـ لم يكن الذين كفروا. . . ـ فبكى أُبَيٌّ من الفرح وقال: أو ذكرني ربي، وفي لفظ: وسماني ربي؟؟ فقال ﷺ «**نعم**». وقد ذكر صاحب كتاب «إنسان العيون» أن نبياً من السالفين اجتاز بحجرٍ يخرج منه الماء، فسأل ربَّه أن يُنطقِ له الحجر، فسأل النبي الحجرَ: منذ كم يجري منك الماء؟؟ فقال الحجر: منذ سمعت قوله تعالى: ﴿**فَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِي وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ**﴾ (١) فأنا أبكي خوفاً من النار، فاشفع لي عند ربك، فشفع له وبشره، ثم مر به بعد سنين والماء يتفجر منه، قال له النبي: أما زلت تبكي، ألم أبشرك؟ قال الحجر: يا نبي الله كان البكاء الأول من الخشية، أما هذا البكاء فمن السرور.

وقد قسم العلماء البكاء إلى عشرة أقسام كما ذكر ذلك صاحب كتاب سفر السعادة وهي: بكاء فرح، وبكاء حزن لما فات، وبكاء رحمة، وبكاء خوف لما يحصل، وبكاء كذب كبكاء النائحة فإنها تبكي بشجوِ غيرها، وبكاء موافقة بأن يرى جماعة يبكون فيبكي مع عدم معرفته بالسبب، وبكاء المحبة والشوق، وبكاء الجزع من حصول ألم لا يتحمله وبكاء الخَوَر والضعفِ وبكاء النفاق وهو أن تدمع العين مع كون القلب قاسياً.

بكى الصديق، ثم التفت إلى النبي ﷺ قائلاً له بعد أن اطمئن أن يكون رفيقاً للحبيب: يا رسول الله إن هاتين راحلتان وقد كنت أعددتهما لهذا ـ وكانتا من نجائب بني قشير ـ فخذ بأبي أنت وأمي إحداهما. فقال ﷺ له: «**بالثمن الذي ابتَعْتَها به**»، فقال الصديق أخذتُها بأربعمائة درهم كما روى الواقدي.

---

(١) البقرة: ٢٤.

والناقة التي أخذها النبي ﷺ هي القصواء كما ذكر جمهور أهل السيرة، وماتت أيام خلافة الصديق رضي الله وتعالى عنه.

هنا سؤال لماذا قال النبي ﷺ. . بالثمن. . ؟ والجواب واضح، ذلك لتكون هجرته ﷺ إلى الله تعالى بماله ﷺ وبنفسه أكما في ذلك دلالة على تعظيم شأن الهجرة.

بأنها ـ كما قال الصادق عرجون ـ:

تمتاز عن سائر الأعمال بما فيها من مفارقة الأهل والولد والمال، واحتمال شظف العيش، ولذلك فضل الله المهاجرين على أهل الإيمان وأنزلهم منزلة الحمد من فاتحة الكتاب فيجب أن تكون خالصة فلا يدخلها شيء من فواضل المواساة الأخوية. والمعروف أن النبي ﷺ قد قبل من الصديق كثيراً من المواساة الأخوية، وأنفق الصديق على الدعوة وعلى النبي ﷺ مالاً كثيراً، حتى قال ﷺ: «**إن من أَمَنِّ الناس عليّ في ماله أبا بكر**» وفي رواية «**ما أحد أمنُّ عليّ في صحبته وذات يده من أبي بكر، وما نفعني مالٌ كما نفعني مال أبي بكر**» فقال الصديق عندها: وهل أنا ومالي إلا لك يا رسول الله. وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ: «**ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافأناه ما خلا أبي أبا بكر ، فإن له عندنا يداً الله يكافؤه بها يوم القيامة**».

قال المؤرخون: وكانت ثروة الصديق أربعين ألف درهم، أنفقها كلها على الدعوة وعلى رسول اللهﷺ وكان آخرها ستة آلاف درهم أخرجها الصديق معه إلى المدينة في هجرته ولم يترك لأهله وولده شيئاً. قالت أسماء: لما خرج رسول اله ﷺ ومعه أبو بكر، احتمل أبوبكر ماله كله ستة آلاف درهم، فدخل علينا جدي أبو قحافة معترضاً وقد ذهب بصره، وقال: والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه. فقالت أسماء: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيراً كثيراً، قالت: فأخذت حصى فوضعتها في كوة في البيت كان أبي يضع ماله فيها، ثم وضعت عليها ثوباً، ثم أخذت بيده فقلت: يا أبت ضع يدك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه فقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم. قالت أسماء: ووالله ما ترك لنا شيئاً، ولكن أردت أن أسكن الشيخ بذلك.

قالت عائشة: فجهزناهما أحثَّ الجهاز ـ أي أسرع الجهاز ـ والجَهاز: ما يحتاجه الميت، والعروس، والمسافر. والمُراد هنا: سُفرة المسافر من طعام وغيره، ووضعنا السفرة في جراب،

فقطعت أسماء قطعة من نطاقها فربطت به على فم الجراب، وأبقت الباقي نطاقاً لها.

وقد ورد في صحيح مسلم عن أسماء أنها قالت للحجاج: بلغني أنك تقول ـ أي لولدها عبد الله بن الزبير ـ تُعَيِّره بابن ذات النطاقين، أمّا أنا والله ذات النطاقين، أما أحدهما فكنت أرفع به طعامَ رسول الله، وطعامَ الصديق، وأما الآخر فنطاقُ المرأة التي لا تستغني عنه، أي عند اشتغالها في البيت حتى لا تعثر بذيلها.

قال المفسرون: ومنذ اعتزام رسول الله ﷺ الهجرة ألهمه الله تعالى دعاء مباركاً بيَّنه الله تعالى في سورة الإسراء: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا . . ﴾[(١)].

قال القاسمي: هذه الآية مع ما سبقها يدل على أن نزولها في أوقات الاهتمام بالهجرة إلى المدينة، ومفارقة مكة، وأنه تعالى أمر نبيه بأن يبتهل إليه في تيسير إدخاله لمهاجرَه على ما يُرضيه، وإخراجه من بلده كذلك، وأن يجعل له حماية من لدنه.

قال العلماء: معنى مُدخل صدق، ومخرج صدق: أنك إذا دخلت مكاناً فليكن دخولك لهدف مشروع، وإن خرجت فليكن خروجك موافقاً لطبيعة مهمتك، فإذا دخلت محلاً مثلاً فادخل لهدفٍ كشراء حاجة فهو عندها دخول صدق، أما لو دخلت دون هدف أو لغرض غير مشروع فليس في هذا دخول صدق. وهكذا خرج رسول الله ﷺ خروج صدق؛ لأنه ﷺ ما خرج إلا حين آذاه قومه وهمّوا بقتله، وما دخل المدينة إلا لما رأى النصرة من أهلها فكان دخوله لها دخول صدق.

أما قوله تعالى: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا . . ﴾ فقد طلب ﷺ النصرة من الله تعالى؛ لأنه ﷺ جاء بمنهج الحق، وهذا الحق سيصطدم بأهلِ الباطل وأهلِ الفساد الذين ينتفعون بالفساد، لذلك سيحاربون دعوته ﷺ؛ ولذلك توجه ﷺ إلى ربه الذي أرسله وطلب النصرة منه فقال ﷺ: ﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا . . ﴾.

والسلطان كما بينه العلماء إما حجة تقنع، وإما سيف يردع، ولذلك تقرأ في سورة الحديد قوله تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ

---

(١) الإسراء: ٨٠.

بِٱلۡقِسۡطِۖ ..﴾[1]

قال الشعراوي ـ رحمه الله ـ: وهذه أدوات الحجة والإقناع، ثم يقول تعالى تتمة الآية: ﴿وَأَنزَلۡنَا ٱلۡحَدِيدَ فِيهِ بَأۡسٞ شَدِيدٞ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعۡلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلۡغَيۡبِۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٞ . . ﴾. والحديد أداة الردع.

قال القاشاني: البينات: المعارفُ والحِكم، والكتاب: الكتابة، والميزان: العدل؛ لأنه آلته. والحديد: السيف لأنه مادته. وهذه الأمور الأربعة ينضبط النظام الكلي المؤدي إلى صلاح المعاش والمعاد.

وهذه الدعوة التي دعاها النبي ﷺ بقوله: ﴿ وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ ..... ﴾ هي دعوة عامة منه ﷺ في جميع موارده ومصادره، دنيوية وأخروية، ولذلك قال ابن عطية صاحب المحرر الوجيز: الآية عامة في كل ما يتناول من الأمور، وما يحاول من الأسفار والأعمال، وما يُنتظر من تصرف المقادير في الموت والحياة، فهي دعاء ومعناه: رب أصلح لي وردي في كل الأمور، وصدري، وأدخلني حيثما أدخلتني بالصدق، وأخرجني بالصدق ولا تجعلني ممن يدخل بوجه ويخرج بوجه، فإن ذا الوجهين لا يكون عند الله وجيهاً.

وقوله ﷺ في دعائه هذا: «**واجعل من لدنك سلطانا نصيرا. .**». أي من عندك ومن خزائن نصرك ورحمتك، وما عندك من الخوارق، ولما كان عمله ﷺ الدعوةَ إلى الحق، وإلى الدين الحنيف، كان نصره ﷺ تأييداً لهذه الدعوة، ولذلك لم يسأله ﷺ سلطاناً أو نصراً للاستعلاء على الناس، وإنما طلب النصر والسلطان للتبليغ ونشر الدعوة، فإن الله ليزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن، وهذا الأثر يدل على أن من يكفه السلطان عن المعاصي أكثرُ ممن يكفه القرآن بالأمر والنهي والإنذار.

قال الحسن: المعنى: اجعل لي مُلْكاً قوياً تنصرني به على من عاداني وعزاً ظاهراً أقيم به دينك.

وقال مجاهد: اجعل لي حجة ظاهرة بينة تنصرني بها على جميع من خالفني. وقد ذكرنا من قبل أن النصرَ يجمع المعنيين، الحجة الظاهرة، والقوة الغالبة.

قال صاحب اللباب ـ عمر الحنبلي المتوفى بعد سنة ٨٨٠ لما سأل النبي ﷺ ربه النصرة طمأنه

---

(١) الحديد: ٢٥.

بأنه قد أجاب دعوته، وليس بين دعائه وبين الاستجابة له ﷺ إلا أن يُخبِر بها،

فقال عز وجل: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ [1] أي قل لأعدائك وأوليائك ﴿جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾، أي جاء كل ما أمرني به ربي، وأنزله إلي، ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ ﴾ أي اضمحل وبطل كل ما خالف النبي ﷺ ، ثم علل الله عز وجل زهوقه بقوله: ﴿إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾ أي قضاء قضاه الله في الأزل، بل وقد يكون الباطل نفسه من جنود الله؛ لأن الباطل عندما يؤلم الناس ويلدغهم يعرفون الحق فيميلون إليه.

روى الحافظ أبو يعلى حديث جابر قال: دخلنا مع رسول الله ﷺ مكة عام الفتح وحول البيت ثلاثُمائة وستون صنماً تُعبد من دون الله عز وجل، فأمر رسول الله ﷺ فأُكِبّتَ على وجوهها وقال: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ . . . . ﴾ ورواه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود بنحوه.

قال في الإكليل كما ذكر القاسمي في تفسيره: يستحب تلاوة هذه الآية عند إزالة المنكر ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ . . . . ﴾.

قال العلماء: وإنك لتعجب أن هذا الحق الذي جاء على يد النبي ﷺ قد انتفع به حتى من لم يؤمن، ألا ترى إلى ما رواه البيهقي في دلائل النبوة من حديث أبي هريرة أن رسول الله ﷺ حين فتح مكة أن صناديد قريش دخلوا الكعبة، وظن هؤلاء المشركون أن السيف لا يُرفع عنهم، ثم طاف ﷺ بالبيت وصلى ركعتين، ثم أتى الكعبة فأخذ بعضادتي الباب فقال: «**ما تظنون أني فاعل بكم؟**».

قالوا: ابن أخ وابن عم حليم رحيم ثلاثاً فقال ﷺ: اقول كما قال يوسف. قال: «**لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين**». قال: فخرجوا كأنما نُشروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

إذاً جاء الحق ليس لاستعباد الناس، ولكن لراحتهم ونجاتهم وسعادتهم في الدارين. من ذلك ما روى ابن هشام في السيرة أن «فضالة بن عمير الليثي» أراد قتلَ النبي ﷺ عام الفتح وهو يطوف بالبيت، فلما دنا منه قال ﷺ: «**أفضالة؟!**» قال: نعم فضالة يا رسول الله، قال ﷺ: «**ماذا كنت تحدث به نفسك؟**» قال: لا شيء، كنت أذكر الله تعالى، قال: فضحك النبي ﷺ

ثم قال: «**أ ستغفِر الله**» ثم وضع يده على صدره، فسكن قلبه، فكان فضالة يقول: والله ما

---

(١) الإسراء: ٨١.

رفع يده عن صدري حتى ما من خلق الله من شيء أحب إلي منه ﷺ.

أليس هذا قد انتفع بالحق الذي جاء به محمد ﷺ رغم أنه من أعدائه.

وهكذا حقق الله عز وجل لنبيه دعوته، وما وعده به، فعصمه وحفظه من الناس فقال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾ (١)، كما وعده بإظهار دينه بقوله تعالى: ﴿لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾ (٢) ووعده الله لينزعنَّ ملكَ فارس والروم وغيرَها فيجعله له ﷺ ، وقد جُعل لأمته من بعده.

قال أهل السيرة: بعد وصول النبي ﷺ في حر الظهيرة إلى بيت الصديق مكثا إلى الليل، ثم غادرا البيت من خوخة له في ظهر البيت، والخوخة كوة يدخل منها الضوء إلى البيت ـ على عجل ـ وقصدا الغار ليلاً، وكانا قد استأجرا للرحلة دليلاً حاذقاً خرِّيتاً بمعرفة الطرق والمنازل، وهو على شركه، واسمه «عبد الله بن أريقط» فأمَّناه، ودفعا إليه راحلتيهما، وواعداه غار ثور بعد ثلاث ليال، وعمدا إلى غار ثور بأسفل مكة، وكان خروجهما ليلاً كما في كتاب إنسان العيون، وكما في مغازي عروة، ومغازي موسى بن عقبة، وكما في طبقات ابن سعد.

قال العلماء: وكان أبو بكر قد أمر ابنَه عبد الله أن يتسمع لهما أخبار ما يقوله الناس في شأنهما نهاره، ثم يأتيهما ليلاً بأخبار ما كان في ذلك اليوم، كما أمر الصديق عامرَ بن فهيرة ـ مولاه ـ أن يرعى غنمه نهاره، ثم يُريحُها ـ أي يرجع بها ـ عليهما مساء فيحتلبان من ألبانها، فإذا أتى عبد الله بالأخبار جاءت الغنم بعده يقودُها عامر بن فهيرة، فيُعفِّي أثر الأقدام فلا تظهر.

---

(١) المائدة: ٦٧.

(٢) التوبة: ٣٣.

الفصل السادس والسبعون
في الغار

قال صاحب الرحيق المختوم: أدرك النبي ﷺ أن قريشاً ستجِدُّ في طلبه، وأدرك أن أنظار قريش ستتجه إلى طريق المدينة المتجه شمالاً؛ ولذلك سلك طريقاً معاكساً وهو الطريق الواقع جنوب مكة المتجه نحو اليمن، ومشى خمسة أميال في طريق صعبة جداً، شديدة المرتقى، ذات أحجار كبيرة، وكان الجبل شامخاً يُعرف بجبل ثور، وطفق ﷺ يشتد في الجبل حتى انتهى إلى غار في قمة الجبل عرف في التاريخ باسم غار ثور.

قال صاحب إنسان العيون: وسُمي جبل ثور بذلك لأنه على صورة الثور الذي يُحرث عليه. مكثا في الغار ثلاث ليال كان عبد الله بن أبي بكر يقربهما ليلاً. قالت عائشة: وعبد الله شاب غلام، ثَقِفٌ لَقِنٌ، والثقف: هو الحاذق الخفيف الحركة، واللقن: الفَهِمُ الواعي، فَيَدَّلِجُ من عندهما بسحر قبل الفجر فيصبح مع قريش بمكة كبائت فيها، فلا يسمع أمراً يُكتادان به إلا وعاه حتى يأتيَهما بخبر ذلك حين يختلط الظلام.

أما قريش: فقد جن جنونها حين تأكد لديها إفلات رسول الله ﷺ صباح ليلة التنفيذ، فانشغلوا بعلي فضربوه، ثم قادوه إلى الكعبة وحبسوه فترة لعلهم يظفرون منه بخبر عن المهاجرَيْن، فلم يفلحوا.

وتروي أسماء بنت الصديق قالت: لما خرج رسول الله ﷺ مع أبي بكر، أتانا نفر من قريش فيهم أبو جهل فوقفوا على الباب، فخرجت إليهم، فقالوا، أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ فقلت: والله لا أدري أين أبي، قالت: فرفع أبو جهل يده ـ وكان فاحشاً خبيثاً ـ فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي، ثم انصرفوا.

قال المباركفوري في كتابه «الرحيق المختوم»: وقررت قريش في جلسة طارئة مستعجلة، استخدامَ كل الوسائل التي يمكن بها القبض على الرجلين، فوضعت جميع الطرق النافذة من مكة ـ في جميع الجهات ـ تحت المراقبة الشديدة المسلّحة، ورصدت مكافأة قدرها مائةُ ناقةٍ بدل كل واحد منهما لمن يُعيدهما إلى قريش حيين أو ميتين كائناً من كان، كما ذكر البخاري.

انتشر الفرسان والمشاة وقُصاص الأثر في الجبال والوديان، ولكن بدون جدوى، وبغير

فائدة وقد وصل المطاردون على باب الغار، ولكن الله غالب على أمره.

قال صاحب كتاب «محمد رسول الله» واقتصوا الأثر بمهارة حتى وصلوا إلى الغار، وعند باب الغار قال لهم قائفهم ـ العالم بالآثار ـ: ههنا انقطع الأثر، ولا أدري أخذ يميناً أم شمالاً، أم صعد الجبل!!

وقد روى البخاري من حديث أنس عن أبي بكر قال: كنت مع النبي ﷺ في الغار، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القوم، فقلت: يا نبي الله لو أن بعضهم طأطأ بصره لرآنا، قال ﷺ: «**اسكت يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما**».

قال العلماء: وقد كانت معجزة أكرم الله بها نبيه ﷺ، فقد رجع المطاردون حين لم يبق بينهم وبينه ﷺ إلا خطوات معدودة، وقد ذكر صاحب كتاب «عيون ألأثر: لابن سيد الناس، عن أبي مصعب المكي قال: أدركت أنس بن مالك، وزيد بن أرقم، والمغيرة بن شعبة، فسمعتهم يتحدثون أن النبي ﷺ ليلة الغار أمر الله شجرة فنبتت في وجه النبي ﷺ فَسَتَرَتْه، وأمر حمامتين وحشيتين فوقفتا في فم الغار، وأقبل فتيان قريش من كل طرف بسيوفهم وعصيهم حتى إذا كانوا من النبي ﷺ على بعد أربعين ذراعاً وقفوا، وتقدم بعضهم متعجلاً ينظر في الغار، فلم ير هؤلاء المتقدمون إلا حمامتين وحشيتين في فم الغار فرجعوا إلى رفاقهم، فقالوا: ما لكم؟ قالوا: رأينا حمامتين وحشيتين فعرفنا أنه ليس في الغار أحد، فسمع النبي ﷺ ذلك فعلم أن ذلك من حماية الله لهما.

وقد ذكر قاسم بن ثابت في الدلائل كما روى السهيلي: أن مما أنبت الله على باب الغار ـ الراءة ـ فحجبت النظر.

قال أبو حنيفة: والراءة، من أغلاث الشجر ـ أي من أخلاط الشجر ـ تكون مثل قامة الإنسان، ولها خيطان وزهْر أبيض تُحشى به الوسائد، فيكون كالريش لخفته ولينه، وهو كالقطن، وأنشد:

ترى وَدَكَ الشريف على لحاهم … كمِثل الراءِ لبَّده الصَقيعُ

وفي مسند البزار: أن الله أمر الحمامتين فوقفتا على فم الغار، وأمر العنكبوت فنسجت على وجه الغار، وأن ذلك صدَّ المشركين عنه.

وروى الإمام أحمد في مسنده من حديث طويل عن ابن عباس في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَإِذْ

﴿ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ . . . . .وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَـٰكِرِينَ ﴾ (١) وفي هذا الحديث: لما بلغوا ـ أي فتيان قريش ـ الجبل اختلط عليهم فتصعدوا في الجبل، فمروا بالغار فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا: لو دخل أحد ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه. قال ابن كثير في البداية: وهذا على فم الغار، ولك من حماية الله لرسوله ﷺ. وقد همَّ بعضُهم بدخول الغار فقال أمية بن خلف: وما أَرَبُكُم في الغار؟ إن فيه لعنكبوتاً أقدم من ميلاد محمد. وقال آخر: لو دخل الغار لتفسخ العنكبوت.

وروى ابن كثير عن الحسن قال: انطلق النبي ﷺ وأبو بكر إلى الغار، وجاءت قريش يطلبون النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوا على باب الغار نسج العنكبوت قالوا: لم يدخل أحد، وكان النبي ﷺ قائماً يصلي، وأبو بكر يرتقب، فقال أبو بكر للنبي ﷺ هؤلاء قومك يطلبونك، أما والله ما على نفسي أئِل ـ أي أجزع وأخاف ـ ولكن مخافة أن أرى فيك ما أكره.

وقد ذكر صاحب الرحيق المختوم، أن فزع الصديق لم يكن على نفسه، فقد ذكرنا أن الصديق لما رأى القافة اشتد حزنه على رسول الله ﷺ وقال: إن قُتِلْتُ فإنما أنا رجل واحد، وإن قُتلتَ أنت هلكتْ الأمة. عندها قال رسول اله ﷺ: «**لا تحزن إن الله معنا**»، وطمأن الرسول أبا بكر بقوله: «**يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما**». وفي هذا التأييد الرباني لرسوله ﷺ أنزل الله عز وجل قوله في سورة التوبة: ﴿ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (٢).

والمعنى: إن لم تنصروا محمداً بالخروج معه إلى غزوة تبوك بالنفر لما استنفركم له، فإن الله تعالى قد ضمن له النصر من قبل في مواطن كثيرة، ولعل من أوضحها وأهمها نصره له في الهجرة ولم يكن معه إلا رجل واحد.

ونلاحظ أن لفظة ـ إذ ـ تكررت في الآية ثلاث مرات، وهي ظرف زمان، وورودها بهذا

---

(١) الأنفال: ٣٠.

(٢) التوبة: ٤٠.

الشكل مُبْدلاً بعضها من بعض في غاية البلاغة ـ كما يقول صاحب المنار ـ فبهذا التكرار يتجلى تأييده تعالى لرسوله أكمل التجلي، فنحن هنا أمام أزمنة ثلاثة، زمن الإخراج، وزمن دخوله ﷺ مع صاحبه الصديق إلى الغار، ووقت حديثه وكلامه مع أبي بكر، وقد جاء النصر له ﷺ في هذه الأزمنة الثلاثة، فقد ذكَّر الله المؤمنين بأن الله نصره وقت خروجه مهاجراً من شدة الاضطهاد، ثم ذكر لهم إيواءه لنبيه مع صاحبه إلى الغار لا يملكان شيئاً من أسباب الدفاع عن أنفسهما، ثم خص بالذكر زمن قوله ﷺ لصاحبه: ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ﴾، فهو ﷺ الذي كان يسلي الصديق ويثبته لا أنه ﷺ كان يَتَثَبَّتُ به وهكذا كان شأنه ﷺ مع أصحابه في كل وقت يشتد فيه القتال، وسبب ذلك وعلته إيمانه ﷺ الأكملُ بمعية الله عز وجل الخاصة.

وقوله تعالى: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ وصاحبه ﷺ هو الصديق هنا، ولذلك قال العلماء: من أنكر صحبة أبي بكر كفر؛ لأنه ردَّ كتابَ الله تعالى. وقال السيوطي في الإكليل: من أنكر صحبة أبي بكر كَفَرَ وقُتِل لنص القرآن على صحبته بخلاف غيره من الصحابة.

ولقد أخرج الترمذي من حديث ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال لأبي بكر: «**أنت صاحبي على الحوض، وصاحبي في الغار**». قال الترمذي: حديث حسن غريب.

وقد ذكر البروسوي في تفسيره: أن الصديق قال لجماعة: أيكم يقرأ سورة التوبة؟ قال رجل: أنا أقرأ، فلما بلغ إلى قوله تعالى ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ﴾ بكى الصديق وقال: أنا والله صاحبه. وقوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا . . .﴾ فكان إنزال السكينة على الصديق إذ هو المنزعج، قال ابن عباس: على أبي بكر؛ لأن النبي ﷺ لم تزل السكينة معه.

وقوله تعالى: ﴿وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾. كالملائكة نزلوا ليحرسوه في الغار. فكل شيء في هذا الكون من جنود الله تعالى، حتى الكافر قد يسخره الله تعالى لخدمة الإيمان، ونظرةٌ إلى الدليل المشرك عبد الله بن أريقط توضح لك هذه الحقيقة، فكلُّ مغريات قريش، وما رصدتْه من الإبل لمن يدلهُّا على مكان رسول الله وصاحبه، لم يُغر الدليل الكافرَ في الخيانة.

من الذي أدخل على قلب الكافر هذه الأمانة على رسول اله ﷺ وصاحبه؟ والتأييد هنا بالجنود غير المرئية يخص رسول الله ﷺ ، ولكن بعض المفسرين ومنهم صاحب روح المعاني ـ

الألوسي ـ البغدادي المتوفى سنة ١٥٧٠م أنه لا مانع أن يكون هذا التأييد لأبي بكر كذلك، ويؤيده ما أخرجه ابن مردويه من حديث أنس أن النبي ﷺ قال لأبي بكر: «**يا أبا بكر إن الله أنزل سكينته عليك وأيدك**».

وأخرج ابن عساكر من حديث ابن عباس كما أخرج ابن عدي من طريق الزهري عن أنس أن رسول الله ﷺ قال لشاعره حسان: «**هل قلت في أبي بكر شيئاً؟**» قال: نعم. قال: «**قل وأنا أسمع**».

فقال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

وثاني اثنين في الغار المنيـــــــفِ   وقد طاف العدو به إذ صاعَدَ الجبلا

وكان حِبّ رسول الله قد علمــوا   مــــــن البريــة لم يعدل به أحدا

فقال ﷺ: «**صدقت يا حسان هو كما قلتَ**». ثم قال تعالى في الآية نفسها: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَاۗ﴾.

قال المفسرون: أراد الله أن يلفت نظرنا إلى أن الباطل لا يمكن أن يعلوَ على الحق، وأن الحق دائماً هو الأعلى، ولذلك قال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾. ولا يجعل الله كلمة الكفار هي السفلى إلا في وقتٍ كانت فيه عالية ولكن علوٌّ كعلوِّ الزبد، فلابد أن يُقذَف ويزول. اقرأ معي قوله تعالى في سورة الرعد: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾(١). أي مثَّل اللهُ هذا المثَل الذي ضربه للحق في بقائه، والباطِل في تلاشيه وإن علا وطفا في بعض الأوقات. فعلو كلمة الكفار كعلو الزبد، ولكن: لماذا أوجد الله علواً ولو مؤقتاً للكفر؟

قال الشعراوي: أراد الحق أن يكون الانتصارُ على شيء عالٍ فيجعله أسفل؛ ولذلك قال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ﴾، ثم قال ﴿وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾؛ لأن كلمة الله دائماً هي العليا من الأساس، وليست جعلاً كما في كلمة الذين كفروا. ولهذا لم يُعطَف عليها بالنصب؛ لأنها كلمة عالية أزلاً وأبداً.

---

(١) الرعد: ١٧.

وإذا كان الكفار قد أرادوا قتلَه ﷺ أو حبسه فإنهم لم يظفروا بشيء، ولذلك قال في ختام الآية: ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ولكن متى تظهر علوية كلمةِ الله؟ إذا قام المكلفون بتطبيقها علماً وعملاً وأخلاقاً، ولذلك ذكر صاحب المنار أن ملكاً من ملوك ألمانيا وهو آخر ملك من ملوكهم قبل زوالِ الملكية عندهم قال لشيخ الإسلام في الدولة العثمانية لما زار الآستانة في الحرب العالمية الأولى: يجب عليكم ـ وأنتم دولة الخلافة الإسلامية ـ أن تفسروا هذا القرآن تفسيراً تظهر به عُلويته!! وقد أدرك هذه العلوية الأزلية الوليدُ بن المغيرة من كبار مشركي قريش بذكائه ودقة فهمه وبلاغته إذ كان مما قال في القرآن: وإنه ليعلو ولا يُعلى، وإنه ليحطم ما تحته.

الفصل السابع والسبعون
الطريق إلىٰ المدينة

قال صاحب كتاب «نور اليقين»: ولما انقطع الطلب خرجا بعد أن جاءهما الدليل عبد الله بن أريقط بالراحلتين صُبحَ ثلاث: أي بعد ثلاث ليال، وكان ذلك يوم الاثنين الموافق ١٦ أيلول (سبتمبر) سنة ٦٢٢ م الموافق غرة ربيع الأول سنة واحد للهجرة، فيكون مكثهما في الغار ثلاثة أيام هي الجمعة والسبت والأحد، وقبل أن يركبا على راحلتيهما تكلم رسول الله ﷺ مستشعراً ما يحيط بع من أخطار في هذا السفر، وما يُحدق بالركب من الشدائد، وكان ذلك يتطلب نوعاً من الصبر والرضا واللجوء إلى الله تعالى، والاعتصام به في ضراعةِ العبودية، وذُلِّ الاستكانة إلى رحمته عز وجل ـ كما قال الصادق عرجون في سيرته ـ فالتجأ ﷺ إلى الدعاء.

قال ابن كثير في البداية والنهاية، وأبو نعيم في الدلائل: لما خرج رسول الله ﷺ من مكة مهاجراً إلى المدينة قال: «**الحمد لله الذي خلقني ولم أك شيئاً، اللهم أعنّي على هول الدنيا، وبوائق الدهر، ومصائبِ الليالي والأيام، اللهم اصحبني في سفري واخلفني في أهلي وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذللني، وعلى صالح خُلقي فقومني، وإليك فحببني، وإلى الناس فلا تكلني، ربُّ المستضعفين وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السماوات والأرض، وكُشفت به الظلمات، وصلح عليه أمر الأولين والآخرين أن تُحِل عليَّ غضَبك، وتُنزل بي سخطَك، لك العتبى عندي خيرُ ما استطعتُ ولا حول ولا قوة إلا بك**».

مضى الركب الميمون في طريقه إلى المدينة المنورة تحفُّهُ رعايةُ الله سالكاً طريقاً إلى جهة الجنوب نحو اليمن، ثم غرباً نحو الساحل حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالاً على مقربة من شاطئ البحر الأحمر وسلك طريقاً لم يسلكه أحد إلا نادراً، ونترك الحديث في هذا المقام للصاحب الأول إسلاماً، والصاحب الفرد هجرةً، إلى الصديق كما جاء في كتاب «محمد رسول الله». . .

فقد أخرج البخاري في الجامع الصحيح من حديث البراء بن عازب قال: اشترى أبو بكر الصديق من ـ عازب ـ وهو والد البراء رحلاً بثلاثة عشر درهماً فقال أبو بكر لعازب ـ صاحب الرحل ـ مُرِ البراءَ ولدَك ليحمل رحلي، فقال عازب: لا والله لا أمره بحملِ الرحل حتى تحدثنا

كيف صنعت أنت ورسول الله ﷺ حين خرجتم من مكة والمشركون يطلبونكم.

فقال الصديق: ارتحلنا من مكة فسرينا ليلَتَنا ويومنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة، فرميت ببصري هل أرى من ظل فآوي إليه فإذا صخرة أتيتها فنظرت بقيةَ ظلٍ لها فسويته، ثم فرشت للنبي ﷺ فيه، ثم قلت: اضطجع يا نبي الله، فاضطجع ﷺ ثم انطلقت أنظر ما حولي هل أرى من الطلب أحداً؟ فإذا أنا براعي غنم يسوق غنمه إلى الصخرة يريد منها الذي أردناه، فسألته فقلت له: لمن أنت يا غلام؟ فقال: لرجل من قريش سماه، فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن؟ قال: نعم، قلت: فهل أنت حالب لنا؟ قال: نعم. فأمرته فاعتقل شاة من غنمه، ثم أمرته أن ينفض ضرعها من الغبار، ثم أمرته أن ينفض كفيه فقال: هكذا ـ ضرب إحدى كفيه بالأخرى ـ فحلب لي كُثْبَةً من لبن ـ أي شيئاً منه ـ ويعني حلبةً خفيفة وقد جعلت لرسول الله إداوة على فمها خِرقة، فصببتُ على اللبن حتى برد أسفله، فانطلقتُ إلى النبي ﷺ فوافقته قد استيقظ، فقلت: اشرب يا رسول الله، فشرب حتى رضيتُ، ثم قلت قد آن الرحيل يا رسول الله؟ قال ﷺ: بلى، فارتحلنا والقوم يطلبوننا، فلم يدركْنا أحدٌ منهم غير سُراقة بن مالك بن جُعْشُم على فرس لـه. فقلتُ: هذا الطلب قد لحقنا يا رسول الله، فقال ﷺ: «**لا تحزن إن الله معنا**».

قال العلماء كما ذكر الصادق عرجون: وهذا الحديث ورد في صحيح البخاري في عدة مواضع، ولابد من وقفة مع هذا الحديث لنرى بعض لوامع الإيمان، وومضات الإخلاص ووفاءِ الحب.

وأول ما يلفت النظر في هذا الحديث الصحيح حرص العازب ـ أبي البراء ـ على سماع ما وقع للنبي ﷺ والصديق في هذه الرحلة الخطرة، ولذلك قال للصديق: لا أرسل لك الرحل مع ولدي البراء حتى تحدثنا عما جرى لكما في الهجرة.

ولكن نتساءل ما الذي دفع العازب لاشتراط هذا الشرط لإرسال الرحل، وهذا الشرط هو نوع من المكارَمَةِ بين الأخوة؟ كما قال الصادق عرجون.

والجواب:

ليكون سرد حادثة الهجرة وما فيها من الشدائد نبراساً يضيء للعاملين وللمؤمنين، يضيء لهم طريق الجهاد في سبيل نشر الدعوة، وتبليغ الرسالة، وليحيط المسلمين علماً بما لقي رسول الله

ﷺ وصاحبه من مشقة وأخطار ليكون ذلك نموذجاً للصبر واحتمال الشدائد في سبيل الله وإعلاء كلمة الحق.

والأمر الثاني الذي يلفت النظر في هذا الحديث الصحيح: صدق محبة أبي بكر للنبي ﷺ، وقوة حرصه على راحته، وكيف تولى خدمةَ النبي ﷺ بنفسه مع وجودِ عامرِ بن فهيرة مولى الصديق ـ عبده ـ حيث اصطحبه للخدمة.

فالصديق شعر بمشقة السفر على رسول الله ﷺ بعد مكثه في الغار ثلاثة أيام، ثم سارا بعد خروجهما منه، ثم سارا يوماً وليلة ونصف اليوم حتى دخلا في وقت الظهيرة، ثم رمى ببصره إلى الأفق ليجد ظلاً يأوي إليه ليهيئ للنبي ﷺ مكاناً مريحاً، ثم يمضي فيسوي المكان، ويستبرئ من حوله هل يرى من طلب يلاحق رسول الله ﷺ، ثم لما رأى الراعي سأله ليتعرف عليه، هل هو راع للغنم فعلاً، أم أنه مخبر متستر، فلما تعرف الصديق عليه وعرف لمن هو من قريش، اطمأن الصديق، وأدرك أنه ليس عيناً، وليس ممن يطلب النبي ﷺ مقابل الجائزة المرصودة من قريش، ثم سأله اللبنَ بعد أن اطمأن إليه وعرفه، ثم أمره أن ينفض الضرع والكفين من الغبار، ثم أعد الإداوة النظيفة لتصفية اللبن من الشعر والغبار، كما أعدَّ ماء طيباً ليبرّد به اللبن للنبي ﷺ، وبعدها ينطلق إلى النبي ﷺ في مضجعه، فوافق ذلك استيقاظ النبي ﷺ فقدم له الصديق الإداوة، وطلب إليه أن يشرب فشرب ﷺ حتى رضي الصديق عن شربه، والصديق أعلم الناس بحاجة النبي ﷺ لذلك وعندما انتهى ﷺ من الشرب قال الصديق بتلطف مستأذناً قائلاً: قد آن الرحيل يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «**بلى**».

فارتحلوا والطلب لا يَفتُر ولكن الله حفظهم برعايته فلم يدركهم أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جشعم كما سنرى.

وهذا المشهد من الهجرة مليء ـ كما قال العلماء ـ بالحياة والإخلاص للفكرة وهي: العقيدة والإيمان والإيثار لقائد الدعوة ﷺ التي جاءت ضياء للبشرية، ثم تابعوا الرحلة محفوفين بعناية الله وحفظه.

قال العلماء: وكان دأب الصديق أن يكون رِدفاً ـ تابعاً وملازماً ـ لرسول الله ﷺ، وكان شيخاً يُعرف ونبي الله ﷺ شاب لا يُعرف، فيلقى الرجل أبا بكر فيقول: من هذا الرجل الذي بين

يديك؟ فيقول الصديق: هذا الرجل يهديني إلى الطريق، فيحسب السائل أنه يعني بذلك الطريق العادي، وإنما قصد الصديق أنه يهديني سبل الخير. كما روى البخاري عن أنس رضي الله تعالى عنه.

والآن ننتقل إلى آية من آيات نبوته ﷺ وهي من الأمور التي واجهها الركب الميمون في طريق هجرته. هذه الآية هي:

قصة سراقة بن مالك الجعشمي المدلجي:

قال العلماء: والحديث عن سراقة رواه البخاري بالسند الموصول إلى عائشة رضي الله عنها من حديث عبد الرحمن بن مالك المدلجي ـ ابن أخي سراقة ـ عن أبيه قال: سمعت سراقة بن مالك يقول: جاءنا رسل كفار قريش، يجعلون في رسول الله ﷺ وأبي بكر دية كل واحد منهما لمن قتله أو أسره. فبينما أنا جالس في مجلس قومي ـ بني مدلج ـ ومكان بني مدلج قريب من رابغ في قُدَيْد، وهو اسم موضع قرب مكة، وسمي قديداً لأن تبع ملك اليمن لما حارب المدينة نزل قديداً، فهبت ريح قدَّت خيم أصحابه فسمي ذلك المكان قديداً كما ذكر ابن الكلبي.

قال الشاعر:

قل لفندٍ تُشيّع الأظعانـــــا   ربما سُــــــر عيشنا وكــفانا
صادرات عشيةً من قُديــــــد   وارداتٍ على الضحى عُسفانا

وعُسفان على مرحلتين من مكة على طريق المدينة، والجحفة: على ثلاث مراحل، وهي قريبة من رابغ.

إذ أقبل رجل منهم ـ أي من قوم سراقة بن مالك حيث كان في مجلسهم حتى قام علينا ونحن جلوس فقال: يا سُراقة إني رأيت آنفاً أَسْودةً بالساحل ـأي أشخاص ـ أراها محمداً وأصحابه.

قال سراقة: فعرفت أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم ولكنك رأيت فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيننا.

قال سراقة: ثم لبثت في المجلس ساعة، ثم قمت فدخلت بيتي فأمرت جاريتي أن تخرج بفرسي وراء الأكمة فتحبسها علي، وأخذت رمحي فخرجت به من ظهر البيت، فخططت بزجه الأرض ـ الزج: الحديدة في أسفل الرمح ـ وخفضت عاليه حتى أتيت فرسي فركبتها، وفي رواية

لابن إسحاق: ثم أخذت قداحي التي أستقسم بها، ثم انطلقت فلبست لأمتي ـ الدرع ـ ثم استقسمت بالأقداح، فخرج السهم الذي أكره ـ أي لا أضرهم ـ ثم دفعتها ففرَّتْ بي حتى دنوتُ منهم، فَعَثَرت بي فرسي فخررتُ عنها فأهويت، فهويت يدي إلى كنانتي فاستخرجتُ منها الأزلام فاستقسمت بها، أضرهم أم لا؟ فخرج الذي أكره ـ لا يضرهم ـ فركبت فرسي، وعصيت الأزلام، وجعلت فرسي يقرب بي حتى إذا سمعت قراءة النبي ﷺ وهو لا يلتفت، وأبو بكر يكثر الالتفات، ساخت يدا فرسي في الأرض حتى بلغتْ الركبتين فخررت عنها ثم زجرتها فنهضت، فلم تكد تُخرج يديها، فلما استوت قائمة إذا لأثر يديها عنانٌ ساطع في السماء مثلُ الدخان، فاستقسمت بالأزلام فخرج الذي أكره، فناديتهم بالأمان فوقفوا، فركبت فرسي حتى جئتهم ووقع في نفسي حين لقيتُ ما لقيت من حفظهم والحبس عنهم، أن سيظهر أمر رسول الله ﷺ، فقلت له: إن قومك قد جعلوا فيك الديةَ، وأخبرتُهم أخبار ما يريد الناس بهم، وعرضت عليهم الزادَ والمتاع، فلم يرزآني، ولم يسألاني.

وقد ذكر صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب» أن سراقة قال للنبي ﷺ: خذ يا رسول الله سهماً من كنانتي وإن إبلي بمكان كذا وكذا فخذ منها ما شئت، فقال ﷺ: «**لا حاجة لي بإبلك**» ثم قال له الحبيب ﷺ: «**كيف بك يا سراقة إذ لبست سواري كسرى**». قال سراقة: كسرى بن هرمز؟ قال ﷺ: «**نعم**». ثم قال له رسول الله ﷺ: «**أخْف عنا**» فكان سراقة عند عودته إلى قومه لا يرى أحداً إلا قال له: كُفيتُم ما ههنا.

قال سراقة: فسألته أن يكتب لي كتاب أمن، فأمر النبي ﷺ عامر بن فهيرة فكتب لي رقعة من أدم، ثم ألقاه إلي فأخذته فجعلته في كنانتي، وفي رواية أخرى أن الصديق هو الذي كتب الكتاب بأمر رسول الله ﷺ، ثم رجعت فسكت فلم أذكر شيئاً مما كان.

وقد ذكر ابن إسحاق في سيرته أن سراقة حدَّث بعدها فقال: بقيت ساكتاً حتى إذا كان فتح مكة على رسول الله ﷺ وفرغ من حنين والطائف، خرجت ومعي الكتاب لألقاه، فلقيته بالجِعْرانة ـ وهي ما بين الطائف ومكة ـ وهي إلى مكة أقرب وقد نزلها رسول الله ﷺ حين رجع من حنين لما قسم غنائم هوازن.

قال سراقة: فلقيته بالجعرانة فدخلت في كتيبة من كتائب الأنصار، قال: فجعلوا يقرعونني بالرماح ويقولون: إليك إليك ماذا تريد؟ إليك: اسم فعل أمر بمعنى تَنَحَّ، وهو منقول عن جار

ومجرور، ولا يستعمل إلا متصلاً بضمير المخاطب وموضع الكاف في محل جر بإلى.

قال سراقة: فدنوت من رسول الله ﷺ وهو على ناقته، والله لكأني أنظر إلى ساقه في غرزه ـ ركاب من جلد يضع الراكب رجله فيه ـ كأنها جُمَّارة ـ شحم النخلة ـ فرفعتُ الكتاب بيدي، ثم قلت: يا رسول الله هذا كتابك، أنا سراقة بن جعشم، فقال ﷺ: «**يوم وفاء وبر، ادنه**». . .

قال: فدنوت منه، فأسلمتُ، ثم تذكرت شيئاً أسأل رسول الله ﷺ عنه فما أذكره إلا أني قلت: يا رسول الله، الضالةُ من الإبل تغشى حياضي وقد ملأتها لإبلي هل لي من أجرٍ في أن أسقيهَا؟ قال ﷺ: «**نعم، في كل ذات كبد حرى أجر**». قال سراقة: ثم رجعت إلى قومي فَسُقْتُ إلى رسول الله ﷺ صدقتي.

قال أهل السيرة: لما رجع سراقة بن مالك إلى مكة سكتَ حتى تيقن أن رسول الله ﷺ قد وصل إلى المدينة جعل يقصُّ على الناس ما رآه من أمر محمد ﷺ، ومن أمر فرسه، واشتهر هذا عنه فخاف زعماء قريش أن يكون هذا الحديث سبباً في إسلام الكثيرين فكتب أبو جهل كتاباً إلى بني مدلج ـ قوم سراقة ـ

قائلاً:

بني مدلج إني أخاف سفيهَكُم ... سُـــراقـةَ مُستَغْوٍ لنصرِ محمدِ
عليكم به ألا يـفرقَ جمعكــم ... فيصبح شتى بعدَ عزٍّ وسؤددِ

فأجابه سراقة شعراً فقال:

أبا حكم والله لو كنتَ شاهــداً ... لأمرِ جوادي إذ تســوخُ قوائمه
عجبتَ ولم تشكك بأن محمـداً ... رسولٌ وبرهـــانٌ فمن ذا يقاومه
عليك بكـفِ القوم عنـــــه ... فإنني إخال لنا يوماً ستبدو معالمه
بأمرٍ يود الناسُ فيه بأسـرهـم ... وأنَّ جميــــع الناسِ طراً تسالم

ويوم تولى عمر بن الخطاب الخلافة، وفتح بلاد فارس وجاءت الغنائم إلى عمر وفيها سوارا كسرى وتاجه ومِنطَقَتَهُ، دعا سراقةَ أمام الجموع وقال له: ارفع ذراعيك وكان أَزَبَّ الذراعين ـ أي قصير الذراعين ـ فحلاه حليةَ كسرى، ثم قال: ارفع ذراعيك وقل الحمد لله الذي

سلب هذا كسرى الملك الذي كان يزعم أنه رب الناس، وكساها أعرابياً من بني مدلج.

لماذا فعل عمر هذا؟ والجواب: لأن سراقة كان شاكاً بوعد النبي ﷺ عندما قال له ﷺ وهو يتبعه: «**كيف بك يا سراقة إذا لبست سواري كسرى؟**» فقال حينها سراقة: كسرى بن هرمز؟ قال ﷺ: «**نعم**».

الفصل الثامن والسبعون
قصة أم معبد

هذه القصة رواها البخاري في التاريخ وابن خزيمة والطبراني والبيهقي وغيرهم، كما أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي، وقال: صحيح، وله شواهد كثيرة، كما قال صحيح السيرة النبوية: ترفع إلى مرتبة الحسن رغم تضعيف البعض لهذه القصة. وأم معبد الخزاعية، اسمها عاتكة بنت خالد من خزاعة، لها أخ اسمه حُبيش بن خالد صحابي له رواية عن رسول الله ﷺ وكان منزلها بقُديد محل سراقة بن مالك، ولكن المسافة بين المنزلين بعيدة لكون منزل سراقة في الجانب الذي يلي مكة، ومنزل أم معبد في الطرف الذي يلي المدينة، والمسافة بينهما متسعة لاتساع قديد.

قال حبيش أخو أم معبد: لما خرج رسول الله ﷺ في الهجرة ومعه أبوبكر وعامر بن فهيرة وابن أريقط يدلهم على الطريق مرّوا بقديد على أم معبد، وكانت برزة ـ أي تبرز للقوم يتحدثون إليها وهي جليلة عفيفة ـ جلدة تحتبي بِفناء القبة ـ أي تشتمل بثوبها تسقي وتُطعم من يمر بها، وكان القوم مرملين مسنتين، أي لا زاد عندهم من القحط والجدب، فطلبوا لبناً أو لحماً أو تمراً يشترونه منهم فلم يجدوا عندهم شيئاً، وقالت أم معبد: أما والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى. فنظر رسول الله ﷺ إلى شاة في كسر الخيمة ـ جانبها ـ خلّفها الجَهْدَ عن الغنم، فسألها النبي ﷺ: «**هل بها من لبن؟**» فقالت: هي أجـــهد من ذلك، فقال ﷺ: «**أتأذنين لي أن أحلبها؟**» فقالت: نعم بأبي أنت وأمي. إن رأيتَ بها حليباً فاحلبها، فدعا النبي ﷺ بالشاة فاعتقلها ـ أي وضعها أمامه لحلبها ـ ومسح ضرعها وسمَّ الله تعالى، فتفاجَّت ودرَّت ودعا بإناء يربِضُ الرهطَ ـ يكفيهم من الحليب ـ فحلب فيه ثجاً ـ صباً ـ وسقى القوم حتى رُوُوا، ثم شرب ﷺ آخرهم. .

ثم حلب فيه مرة أخرى عَللاً بعد نَهَلٍ ـ أي شربة ثانية بعد الأولى ـ ثم غادره عندها وذهبوا، فما لبث أن جاء أبو معبد زوجها يسوق أعنزاً عجافاً يتساوَكْن ـ يمشين بضعف ـ هزالاً، فلما رأى أبو معبد اللبن عجب وقال: ما هذا يا أم معبد؟ أنى لك هذا والشاة عازب حَيال، ولا حلوب في البيت؟ فقالت أم معبد: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك من شأنه كذا وكذا، فقال أبو معبد: صِفيه يا أم معبد. فقالت: رأيت رجلاً ظاهرَ الوضاءة، مُبَلَّجَ الوجه، حسنَ الخَلْق، وسيم قسيم ـ كأن كل قسم منه حاز الجمال كله ـ ، في عينيه دَعَجٌ ـ شدة سواد العين مع سعتها ـ، وفي أشفاره

وَطَفٌ، وفي صوته صَحَل، أحور أكحل أزجُّ ـ دقيق الحاجبين ـ أقرنُ، شديد سواد الشعر، في عنقه سَطَعٌ وفي لحيته كثافة، إذا صمتَ فعليه الوقار، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء، وكأن منطقه خرزات نَظْمٍ يتحدرن، حلوُ المنطق، فصل ـ قوله حق ـ أجهرُ الناس، وأجمله من بعيد ـ يملأ العين مهابة ـ وأحلاه وأحسنه من قريب، ربعة لا تشنؤه من طول، ولا تقتحمه عين من قصر، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظراً، وأحسنهم قدراً، له رفقاء يحفُّون به، إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا لأمره، محفود محشود ـ أي مخدوم مطاع ـ لا عابس ولا مُفْنِدّ.

فقال أبو معبد لما سمع من زوجته وصف النبي ﷺ: هذا والله صاحب قريش، لو رأيتُهُ لاتبعتُهُ.

وقد ذكر السهيلي أن آل أبي معبد كانوا يؤرخون بذلك اليوم الذي مر عليهم رسول الله ﷺ فيه فكانوا يقولون: فعلنا كيت وكيت قبل أن يأتينا الرجلُ المبارك، أو بعد ما جاء الرجل المبارك. وكانوا يقولون عن ذلك اليوم يوم الرجل المبارك.

وقد ورد في بعض الآثار أن أم معبد أتت المدينة بعد ذلك بمدة ومعها ابنٌ صغير قد بلغ السعي فمر بالمدينة على مسجد رسول الله ﷺ وهو يكلم الناس على المنبر، فانطلق إلى أمه يشتد فقال لها: يا أماه إني رأيت اليومَ الرجل المبارك، فقالت: ويحك يا بني هذا رسول الله ﷺ.

قال ابن كثير في البداية والنهاية: قال عبد الملك بن وهب: بلغني أن أبا معبد أسلم وهاجر إلى النبي ﷺ.

وروى الحافظ أبو نعيم مثل ذلك، وزاد قائلاً: وبلغني أن أم معبد هاجرت وأسلمت، ولحقت برسول الله ﷺ.

قال صاحب الروض الأنف وغيره: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق أنه حين خفي عليهم أمر رسول الله ﷺ، ولم يدروا أين توجه حتى أتى رجل من الجن يسمعون صوته ولا يرونه، أتى من أسفل مكة وخرج من أعلاها وهو ينشد والناس يسمعونه ويتبعونه على الصوت:

جزى الله ربُّ الناس خيرَ جزائـــه رفيقين حـلا خيْمَتَي أم معبــد

هما نــزلا بالبِرِ وارتحلا بـــــه فـأفلح من أمســـى رفيقَ محمد

ليهْنِ بني كعب مكـانَ فتاتهـــم ومقعَدهـــا للمؤمنين بمَرْصَد

سلوا أختكم عن شـاتها وإنائهـا فـإنكـم إن تسألوا الشاة تَشهد

دعاها بشــاةٍ حائـلٍ فتحلَّبت لـه بصــــــريح ضَرَّةُ الشـاةِ مزبد

قالت أسماء: فلما سمعنا صوته عرفنا أين توجه رسول الله ﷺ وصحبه. . .

وقد ورد أن حسان بن ثابت رضي الله عنه لما بلغه شعر الجني وما هتف به في مكة. . . .

قال يجيبه:

لقد خابَ قوم غـاب عنهم نبيُّهُـم وقد سُرَّ من يسـري إليه ويغتــــدي

ترحَّلَ عن قوم فضلَّت عقولهـــم وحلَّ على قـــوم بنور مجــــــدَّدِ

هداهم به بعد الضلالــة ربُّهــــم وأرشـــدهم من يتبعِ الحق يَرْشُـــدِ

وهل يستوي ضُلالُ قوم تسفهــوا عميً وهداةً يهتدون بمــــهتـــدي

لقد نـزلتْ منه إلى أهل يثــــرب ركابُ هدى حلَّت عليهم بأَسعُـــد

نبيّ يرى ما لا يرى الناسُ حولــه ويتلو كتاب الله في كل مشـــهـــد

وإن قال في يوم مقالـةَ غائــــب فتصديقُه في اليوم أو في ضحى الغـد

ليَهنِ أبا بكر ســعادة جـــــدّه بصحبتــــةِ من يُسعد الله يَسْـــعد

قال العلماء: وتابع النبي ﷺ مسيرته المباركة باتجاه المدينة، فلقي في الطريق ـ بُريدة بن الحُصَيْب الأسلمي ـ وكان سيد قومه، ثم كانت له مع الرسول ﷺ قصة ذكرها البيهقي، وفيها يقول بُريدة بن الحُصَيْب الأسلمي: لما جعلت قريش مائة من الإبل لمن يرد النبي ﷺ حملني الطمع، فركبتُ في سبعين من بني سهم فلقيتُه، فقال له النبي ﷺ: «**من أنت؟**»

فقلت: بُريدة بن الحُصَيْب، فالتفت النبي ﷺ إلى الصديق وقال: «**برد أمرنا وصلح**»، ثم

قال ﷺ «**ممن أنت؟**» قلت: من أسلم، قال النبي ﷺ «**سلمنا يا أبا بكر**» ثم قـال ﷺ: «**ممن؟**» قلت: من بني سهم. قال ﷺ «**خرج سهمك يا أبا بكر**» وهذا من النبي ﷺ تفاؤل، وهو عليه الصلاة والسلام يحب الفأل الحسن، لأنه نوع من البشارة يُسَرُّ به العبد ولا يعتمد عليه، بخلاف التطيُّر، فهو منهي عنه، والطِيرة حدُّها معروف في حديثه ﷺ الذي أخرجه الإمام أحمد عن الفضل بن العباس قال فيه ﷺ: «**إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك**» فإذا منعك التطير من المضي في أمر أردْتَهُ، أو حملك على فعلِ أمرٍ تريده فذلك هو المنهي عنه لأنك اعتمدت عليه.

قال بُريدة للنبي ﷺ: من أنت؟ فقال ﷺ «**أنا محمد بن عبدا لله رسول الله**». فقال بريدة: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله، فأسلم بريدة وأسلم من كان معه جميعاً، ثم قال: الحمد لله الذي أسلم بنو سهم طائعين غير مكرهين، ثم صلوا مع النبي ﷺ العِشاء الآخرة. ولما أصبح قال بريدة: يا رسول الله لا تدخل المدينة إلا ومعك لواء، فحل بريدة عمامته ثم شدها على رمح، ثم مشى بين يدي رسول الله ﷺ حتى دخلوا المدينة.

ولقد كان رسول الله ﷺ مسروراً بدخول هذه القاعدة الجديدة في الإسلام، إذ قال ﷺ فيما رواه أحمد، والطبراني، والحاكم في مستدركه وصححه: «**أسلمْ سالَمها الله، وغِفار غفر الله لها، أما والله ما أنا قلتُهُ، ولكن الله عز وجل قاله**». وقد كان انضمام بُريدة ومن معه إلى الإسلام مرحلةً جديدة هامة فالطريق إذاً بين مكة والمدينة لم يعد آمناً بالنسبة لقريش وتجارتها.

وفي الطريق لقي النبي ﷺ الزبير بن العوام وكان في تجارة عائداً من الشام فأهدى لرسولِ ﷺ ولمن معه ثياباً، كما روى ذلك البخاري.

قال ابن شهاب الزهري أخبرني عروة بن الزبير، أن رسول الله ﷺ لقي الزبير بن العوام في ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبيرُ رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابَ بياضٍ.

الفصل التاسع والسبعون
الوصول إلىٰ قباء ونزوله ﷺ بها

واصل الركب الميمون سيره يتقدُّمه الدليل حتى وصلوا إلى قُباء، ديارِ بني عمرو بن عوف يوم الاثنين لاثنتي عشرة ليلة خلت من ربيع الأول وهي السنة الأولى من الهجرة، الموافق للثالث والعشرين من سبتمبر سنة ٦٢٢ م. وفي هذا اليوم تم عمره ﷺ ثلاثةً وخمسين عاماً تماماً لا وكس ولا شطط. وقباء: ضاحية من ضواحي المدينة على بعد ميلين أو ثلاثة منها على يسار القاصد إلى مكة.

قال أهل السيرة: وقبل وصوله ﷺ إلى قباء كان رجال من الأنصار لما بلغهم خروج رسول الله ﷺ من مكة، وتوقعوا قدومه إلى المدينة، دأبوا على الخروج بعد صلاة الصبح إلى خارج المدينة عند ـ الحرة الجنوبية ـ ينتظرون الحبيب ﷺ ويبقون عند الحرة إلى حين لم يبق ظل يستظلون به من حر الشمس، ثم يعودون إلى بيوتهم.

ولما كان اليوم الذي وصل فيه ﷺ كانوا قد خرجوا كعادتهم، ولما ارتفع النهار، وانعدم الظل عادوا إلى بيوتهم، وإذا بصائح يصيح بأعلى صوته: ـ يا بني قَيْلَةَ هذا جدكم قد جاء ـ وكان الصائح رجلاً من اليهود وكان قد علم بخروجهم كل يوم انتظاراً لرسول الله ﷺ، وكان اليهودي قد رأى الركب الميمون وهو مبيِّضون ـ أي يلبسون ثياباً بيضاً ـ وهي ثياب أهداها لهم الزبير بن العوام عند عودته بتجارة من الشام، فرآهم اليهودي يزول بهم السراب مُبَيِّضين، أي يلبس جميعهم البياض، وهذا يدلك على أن الزبير قدم هديته لرسول الله ﷺ أخذاً بأدب التعظيم والإكرام كما قال عرجون في كتابه (محمد رسول الله)، ثم قسمها رسول الله ﷺ بينه وبين من معه في رحلته جرياً على عادته الكريمة ﷺ في عدم استئثاره بشيء عن أصحابه. وناداهم اليهودي بعبارة: يا بني قَيْلة: نسبةً إلى جدةٍ لهم تسمى قيلة، والقيلة: الملكة، وتجمع على قيلات.

لما سمع الأنصار الصراخ بادروا إلى السلاح مكبرين وخرجوا جميعاً، وإذا برسول الله ﷺ مع صاحبه تحت ظل نخلةٍ، وأكثرهُم لم يكن قد رأى النبي ﷺ من قبل، وركبهما الناس يسلمون عليهما، وما يعرفون رسول الله ﷺ من أبي بكر لأنهما في سن واحدة، وبقي الحال كذلك حتى زال الظل عن رسول الله ﷺ، فقام أبو بكر فأظلَّه بردائه، فعرفوا النبي ﷺ عند ذلك.

قال الصادق عرجون: وفي مبادرة الأنصار إلى السلاح عند استقباله ﷺ تلميح بالوفاء بما عاهدوا الله عليه في بيعتهم لرسول الله ﷺ وازدياد في طمأنته ﷺ أنهم يفدونه بالأموال والأولاد والأنفس، كما أن في التكبير دليلاً على حفاوة الاستقبال وعظمته.

وسار النبي ﷺ حتى نزل بقُباء على ـ كلثوم بن الهِدم ـ، أخي بني عمرو بن عوف، وكان شيخاً كبيراً، وهو أول من مات من الأنصار بعد قدوم النبي ﷺ إلى المدينة بقليل، وكان ﷺ إذا خرج من بيت كلثوم ابن الهِدم يجلس للناس في بيت سعد بن خيثمة، وذلك لأن سعداً كان عَزَباً لا أهل له، وكان الأعازب المهاجرون من أصحاب رسول الله ﷺ ينزلون فيه، فقيل لبيت ـ سعد بن خيثمة ـ: بيتُ الأعازب.

أما الصديق فنزل في ـ السُّنح ـ وهو حي من أحيـاء المدينة عند ـ خبيب بن إساف ـ.

أما علي رضي الله عنه فقد بقي بمكة ثلاثة أيام ولياليها، حتى أدى عن رسول الله ﷺ الودائع التي كانت عنده للناس، فكان رضي الله عنه يخرج كل يوم إلى الأبطح، وهو مسيل ماء واسع فيه دقاق الحصى وينادي: ـ من كان له عند رسول الله ﷺ وديعة فليأتِ تؤدى إليه أمانته ـ. ثم هاجر إلى المدينة يكمن في النهار، ويسير في الليل، وقد ذكر البيهقي في الدلائل، أن علياً هاجر ولم يُفتن في دينه، ولم يُحبس، ووصل رضي الله عنه إلى قباء والتقى برسول الله ﷺ في بيت كلثوم بن هِدم.

ويروي أهل السيرة: أنه جرت لعلي أول وصوله إلى قباء حادثة طريفة، قال علي: كانت بقباء امرأة مسلمة لا زوج لها، فرأيت إنساناً يأتيها من جوف الليل، فيضرب عليها بابها، فتخرج إليه، فيعطيها شيئاً ثقيلاً معه فتأخذه، قال: فاسترِبْت بشأنه، فقلت لها: يا أمة الله: من هذا الرجل الذي يضرب عليك بابك كل ليلة فتخرجين إليه، فيعطيك شيئاً لا أدري ما هو، وأنت امرأة مسلمةٌ لا زوج لك؟ قالت: هذا سهل بن حنيف بن وهب، قد عرف أني امرأة لا أحد لي، فإذا أمسى عدا على أصنام قومه فكسّرها ثم جاءني بها فقال: احتطبي بهذا، وكان علي يَأْثِر ذلك من أمرِ سهلِ بن حنيف، حتى هلك عنده بالعراق رضي الله عنهم أجمعين. يأثِر: أي يحدث.

قضى رسول الله ﷺ بقُباء مدة، أرجحُها أنها كانت أربع عشرة ليلة في بني عمرو بن عوف وكان أولَ عمل قام به في قباء هو بناءُ مسجدها، وهو أول مسجد بني في الإسلام، وقد ورد في

الصحيحين أن النبي ﷺ كان يأتيه راكباً أو ماشياً كل سبت، كما ثبت في الصحيحين من حديث ابن عمر أنه ﷺ قال: «**من صلى في مسجد قباء كان كعدل عمرة**». ومسجد قباء هو الذي أنزل الله تعالى فيه قوله: ﴿ . . . لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾(١).

قال الصادق عرجون: ومسجد قباء أول مسجد في الإسلام أسس بعد النبوة عامّاً للمسلمين، أسسه رسول الله ﷺ، وأكمل بناءه وعمل فيه بيده ﷺ، وكان ينقل حجارته مع المسلمين، وذكر صاحب الروض الأنف عن ابن خيثمة أن رسول الله ﷺ كان أوّلَ من وضع حجراً في قبلة المسجد المبارك، ثم جاء أبو بكر الصديق بحجر فوضعه، ثم جاء عمر بحجر فوضعه إلى جانب حجر الصديق، ثم أخذ الناس في البنيان.

وروى الخطابي عن (الشموس بنت النعمان) الأنصارية قالت: كان النبي ﷺ حين بنى مسجد قباء يأتي بالحجر قد هصره ـ أي ألصقه إلى بطنه ـ وشدَّه بيديه فيضعه، فيجيء الرجل يريد أن يقله فلا يستطيع حتى يأمره أن يدعه، ويأخذ غيره. وقوله تعالى: ﴿فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ . . . ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾.

المقصود منه هم الأنصار من أهل قباء، والإجماع منعقد على ذلك وقد دل على ذلك حديث أخرجه الدار قطني عن جابر، وأبي أيوب وأنس عن رسول الله ﷺ أنه قال «**يا معشر الأنصار: إن الله قد أثنى عليكم خيراً في الطهور فما طهوركم؟**» قالوا: إن أحدنا إذا خرج من الغائط أحب أن يستنجي بالماء فقال: ﷺ: «**هو ذلك فعليكموه**». وهذا يعم الأنصار جميعاً، ولا يعارضه الحديث الأول: أن ذلك في أهل قباء، لأن أهل قباء من الأنصار، فسؤاله ﷺ لأهل قباء لتَحقُّقِ إطراد هذا التطهر في قبائل الأنصار عموماً. وقوله تعالى: ﴿يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ . . ﴾.

أي صارت الطهارة خلقاً لهم، فلو لم يوجبها الله عليهم لفعلوها من تلقاء أنفسهم، فكيف وقد أوجبها الله؟ ولذلك ختمت الآية بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴾. فكان في هذا التنزيل إشارة إلى أن نفوسهم وافقت خلقاً يحبه الله، كما أن فيه إشارةً إلى أن نفوسهم زكية طيبة، ولذلك كان الحب هنا متبادلاً، وهذا من أرفع درجات الحب، فليس شيء أقسى على النفس من

---

(١) التوبة: ١٠٨ .

أن يكون الحب من طرف واحد، وهذا هو الشقاء بعينه

كما قال العلماء:

أنت الحبيب ولكني أعوذُ به		من أن أكون محباً غيرَ محبوب.

فحين يكون الحب متبادلاً تجد المحبَّ كلما رأى حُباً من حبيبه رد عليه بحبٍ فينمو الحب ويزداد، ولكن لا يكون الأمر كذلك إلا إذا كان حب القلوب فيما لا يتغير وهو الحب في الله.

فإذا رأيت حباً بين اثنين يتناقص بمرور الزمن، فاعلم أنه حب لغير الله، وإذا رأيت أن الحب ينمو كل يوم، فاعلم أنه حب في الله.

وقوله تعالى: ﴿لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ. . .﴾ قال ابن عاشور في تفسيره: المعنى أن كل مسجد كانت هذه صفته أي مقاماً على التقوى، لا مسجداً معيناً لأنه مسجده ﷺ في المدينة أسس على ذلك. ثم ليس ذلك من قبل المفاضلة بين مسجد ومسجد وإنما هو من قبيل المدح الرفيع في مقابلة الذم الشنيع.

فالمدحُ لمسجدٍ أسس على التقوى خالصاً لوجه الله، نقياً من الشوائب، والذمُّ لمسجد أسس على دعائم الكفر والنفاق، مُضَارَّةً لدين الله ومخادعةً لرسول الله ﷺ، وتفريقاً لكلمة المسلمين، وهو مسجد الضرار الذي ذكرته الآية التي قبل هذه الآية من سورة التوبة ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ . . . . . وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ﴾ (١) قال العلماء: وسبب نزول هذه الآيات: أنه كان بالمدينة قبل قدوم رسول الله ﷺ إليها رجل من الخزرج يقال له أبو عامر الراهب واسمه عبد عمرو، وكان قد تنصَّر في الجاهلية، كما كانت له مكانة كبيرة عند الخزرج، فلما قدم رسول الله ﷺ إلى المدينة، واجتمع عليه المسلمون وعلا شأن الإسلام، وانتصر المسلمون في بدر، جاهر بالعداوة للإسلام ولرسول الإسلام ﷺ، وهرب إلى مكة، وناصرهم على قتال النبي ﷺ في أُحُدٍ، وتقدم أبو عامر عند بدء المبارزة في أُحُد وخاطب قومَه الخزرج وحاول أن يستميلَهم، فلما سمعوا مقالته قالوا: لا أنعم الله عليك يا فاسق، يا عدو الله ونالوا منه وسبوه.

---

(١) التوبة: ١٠٦ – ١٠٧.

وكان النبي ﷺ قد دعاه قبل أن يهرب إلى مكة، وقرأ عليه القرآن، فأبى أن يسلم وتمرد.

وذكر الآلوسي: أن أبا عامر الراهب هذا ـ وهو والد حنظلة غسيل الملائكة ـ قال للنبي ﷺ حين قدم المدينة: ما هذا الدين الذي جئت به؟ قال النبي ﷺ: «**الحنيفية البيضاء، دين إبراهيم**»، فقال أبو عامر: فأنا عليها، فقال ﷺ «**إنك لست عليها**»، فقال أبو عامر: بلى ولكنك أنت أدخلت فيها ما ليس منها، فقال ﷺ: «**ما فعلت، ولكن جئتك بها بيضاء نقية**». فقال أبو عامر: أمات الله الكاذب منا طريداً وحيداً، فقال النبي ﷺ «**آمين**». فسماه النبي الفاسقَ، وسماه الناس الكذابَ، وكان يقول للنبي يوم أحد: لا أجد قوماً يقاتلونك إلا قاتلتك معهم.

قال علماء السيرة: فلما انتهت معركة أحد ولم تؤثر على قوة المسلمين ذهب أبو عامر الراهب إلى هرقل ملك الروم يطلب نصرته لقتال رسول الله ﷺ فوعده هرقل بذلك، وأقام عنده، ثم كتب كتاباً إلى جماعة من أهل النفاق من الأنصار وكانوا اثني عشر رجلاً يعدهم ويمنيهم بأنه سيأتي بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ويُخرج المسلمين من المدينة، وأمر أتباعه أن يبنوا مسجداً بجانب مسجد قُباء، فقام هؤلاء الرجال وكانوا من بني عمرو بن عوف، ومن بني ضَبيعة بن زيد، فبَنوه وأحكموه، وأمرهم أن يتخذوه معقلاً بعد ذلك إذا جاء عليهم بجيش هرقل.

فلما فرغوا من البناء، كان رسول الله ﷺ يتجهز إلى غزوة تبوك، فأتوه وقالوا: يا رسول الله: بنينا مسجداً لذي العلة، والحاجة، والليلة المطيرة ونحن نحب أن تصلي لنا فيه، فقال ﷺ: «**إني على جناح سفر، ولو قدمنا إن شاء الله أتيناكم فصلينا لكم فيه**».

فلما خرج النبي ﷺ من المدينة قاصداً تبوك، وبعد مسيرة ساعة واحدة ، وصل فيها إلى مكان يقال له ـ ذو أوان ـ أتاه الوحي يخبر عن هذا المسجد الضرار، فدعا رسول الله ﷺ مالكَ بن الدُّخْشُم، ومعَن بن عدي، وعمار بن ياسر وغيرَهم وقال لهم: «**انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله، فاهدموه وحرقوه**».

ولما وصل هؤلاء الرجال إلى المسجد قال مالك بن الدُّخشم لمعن بن عدي: انتظرني حتى أخرج إليك بنار من أهلي، فدخل مالك أهله، فأخذ سَعَفاً من النخل، فأشعل فيه ناراً، ثم خرج الاثنان يشتدان حتى دخلا المسجد وفيه أهله فحرّقاه وهدماه وتفرق أهله.

وقد روى المؤرخون: أن بني عمرو بن عوف الذين بنوا مسجد قباء، أتوا إلى عمر بن الخطاب أيام خلافته فسألوه أن يأذن لمجِمّع بن جارية أن يكون إماماً لهم في مسجد قباء، فقال عمر: لا ونعمةُ عين، أليس هو إمام مسجد الضرار؟ فقال مجمع: يا أمير المؤمنين: لا تعجل علي، فوالله لقد صليت فيه وأنا لا أعلم ما أضمروا عليه، ولو علمت ما صليت معهم فيه، وكنت غلاماً قارئاً للقرآن، وكانوا شيوخاً لا يقرؤون فصليت بهم، ولا أحسب إلا أنهم يتقربون إلى الله، ولم أعلم ما في نفوسهم، فعذره عمر وصدَّقه، وأمره بالصلاة في مسجد قباء كما ذكر ذلك القاسمي في تفسيره ـ محاسن التأويل ـ.

قال العلماء: ولم يزل أبو عامر الراهب يقاتل النبي ويعاديه إلى يوم حنين ثم مات وحيداً طريداً في قنسرين. واستجاب الله دعاء نبيه ﷺ فيه.

الفصل الثمانون
لقاء سلمان الفارسي مع الحبيب ﷺ في قباء

قال العلماء: وفي قُباء التقى سلمان الفارسي بالنبي ﷺ الذي طالما انتظر مبعثه، وقد روى ابن عساكر في تاريخه عن البيهقي والخطيب حديثا حدثه سلمان عن نفسه في ذلك فقال: كان أبي دِهقان أرضِه، وكان يحبني حبا شديدا، ولشدة حبه لي حبسني في البيت كما تحبس الجارية، واجتهدتُ في المجوسية – عبادة النار – حتى كنت قَطِنَ النار التي يوقدها. فلا يتركها تخبو ساعة، وكنت لا أعلم من أمر الناس شيئا إلا ما أنا فيه حتى بنى أبي بنيانا فانشغل فيه، وكانت له ضيعة فيها بعض الأعمال، فقال لي: يا سلمان انطلق إلى الفلاحين فقل لهم كذا وكذا. . . فأنا مشغول بالبناء، ولا تتأخر عني، فإنك إن تأخرت شغلَتني عن كل شيء.

قال سلمان: فخرجت أريد الضيعة، فمررت بكنيسة للنصارى فسمعت أصواتهم، فقلت ما هؤلاء؟ قالوا: النصارى يصلون. . فجلست إليهم حتى غربت الشمس ولم أذهب إلى الضيعة، فبعث أبي في طلبي حتى جئتُهُ مساء. . . فسألني، فذكرت له ما رأيت من النصارى وصلاتهم، فقال والدي: أي بني، ديُنك ودين آبائك خير من دينهم. . ؟!!

فقلت والله ما هو خير من دينهم هؤلاء يعبدون الله. . ونحن إنما نعبد ناراً نوقدها بأيدينا، إذا تركناها ماتت.

قال: فحبسني والدي في بيت، وجعل في رجلي حديداً، فاتصلت بأصحاب الكنيسة سراً، وطلبت إليهم أن يرسلوني إلى البلاد التي فيها أصل دينهم. . فقالوا: هيا إلى الشام وأرسلوني مع تجار إلى بلاد الشام بعد أن كسرتُ القيد وهربت ليلاً من المكان الذي قيدني فيه والدي.

فلما وصلنا وضعوني عند أسقف الكنيسة في دمشق، وكان رجلَ سوء يأخذ صدقات المتصدقين ويكتنـزها لنفسه فكرهتُهُ، ولما حضرته الوفاة أخبرتُ أهل الكنيسة بسرقاته، ثم عيَّنوا مكانه أُسقفاً كبيراً، زاهداً، صادقاً فأحببته. . فلما حضرته الوفاة سألته إلى من توصي بي؟ قال: إلى رجلُ في الموصل فهو على مثل حالي.

قال سلمان: فذهبت إلى الموصل، فكان نعم الرجل كصاحبه الأسـقف الذي أرسـلني إليه، فلما حضرته الوفاة. . أوصى بي إلى رجل في نصيبين، وهي مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على

جادة القوافل من الموصل إلى الشام، وفي قراها التابعة لها أربعون ألف بستان وقد قيل فيها: ظاهرها مليح المنظر، وباطنها قبيح المخبر، ولذلك ابتليت بظلم الولاة. .

قال الشاعر:

نصيب نصيبين من ربها		ولايةُ كل ظلــومِ غشـوم

فباطُنها منهم في لـــظىً		وظاهِرُها من جِنان النعيم

قال سلمان: فما لبثت في نصيبين إلا قليلاً حتى نزل بصاحبي الموت، فلما حضر قلت له: يا فلان: إن فلانا كان قد أوصى بي إلى فلان، وفلان أوصى لي إليك فإلى من توصي لي بعدك؟ وبم تأمرني؟ قال: يا بني: والله ما أعلمه بقي أحد على أمرنا وعلى مثل ما نحن عليه إلا رجل من عمورية من أرض الروم، فأتِه، فأتيت عمورية وذهبت إلى أسقفها، فوجدته صالحا وعملتُ في عمورية، واكتسبت مالاً وبقراتٍ، ثم حضرتْ الأسقفَ الوفاةُ، فقلت له: أوصني إلى من أذهب بعدك؟ فقال الأسقف: أي بني: والله ما أعلمه أصبح اليوم أحد على مثل ما كنا عليه من الناس آمرك أن تذهب إليه، ولكنه قد أظلَّ زمانُ نبي، وهو مبعوث بدين إبراهيم عليه السلام يخرج بأرض العرب، مُهاجَره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل، به علامات لا تخفى: يأكل الهدية، ولا يـأكل الصدقة، وبين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك البلاد فافعل

قال سلمان: ومات الرجل، ودفناه، وسافرت مع تجار من العرب من قبيلة كلب بأجرٍ، فلما كنا في الطريق أوثقوني وباعوني عبداً في وادي القُرى لرجل يهودي.

قال صاحب معجم البلدان: ووادي القرى، وادٍ من أعمال المدينة على طريق الشام، وهو وادٍ كثير القُرى والزراعة، وإلى هذا الوادي أشار جميل بثينة في شعره حيث. .

يقول:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلةً		بـــوادي القرى إني إذا لســعيد

وهل أَرَيَنْ جُمْلا به وهــي أَيِّمٌ		وما رثَّ من حبلِ الوصال جديد

كما جاء ذكر هذا الوادي في شعر القاضي عبد الباقي ابن أبي الحسين المُعِزّي يذكر شوقه إلى صديق له فيقول:

إذا غبتَ عـن ناظري لم يكـد   يمـــــر بـه وأبيك الكـرى
فـيؤلمـــني أنـي لا أرا ك إذا   مـا طلبتُـــــك في مَــن أرى
لقد كذبَ النوم فيما استقـل   بشـخصِك في مقلتـي وافـترى
وكيف وَداري بأرض الشآم   ودارُك أرضٌ بـــوادي الـقرى
وبعدُ فلي أمل في اللـقـــاء   لأني وإيـاك فـــوقَ الثــــرى

وهذا الوادي فتحه النبي ﷺ سنة ٧ هـ بعد فتح خيبر. قال سلمان: لما باعني بنو كلب على أنني عبد إلى يهودي في وادي القرى ورأيت النخل في ذلك المكان طمعت أن يكون هو بلد خروج النبي ﷺ الذي وصفه لي أسقف عمورية. . ثم قدم رجل من بني قريظة فاشتراني من صاحبي وذهب بي إلى المدينة فلما رأيتها تأكد ظني أنها المدينة التي وصفها لي صاحبي في عمورية.

قال سلمان: ولما كان رسول الله ﷺ بمكة لم أسمع عنه شيئا؛ لما أنا فيه من عمل الرق، حتى قَدِمَ ﷺ قباء، وأنا أعمل لصاحبي في نخل له، فوا الله إني لفي النخلة، إذ جاء ابن عم لمالكي اليهودي فقال: يا فلان، قاتل الله بني قَيْلة، إنهم الآن مجتمعون في قباء على رجل جاء من مكة يزعمون أنه نبي.

قال سلمان: فوا الله ما إن سمعتها حتى أخذتني رِعدة، كدتُ أسقط على صاحبي من فوق النخلة، ونزلت مسرعا أقول: ما الخبر؟ فرفع مولاي اليهودي يده ولكمني لكمة شديدة وقال: ما لك ولهذا؟ أقبل على عملك.

قال سلمان: فلما أمسى المساء وكان عندي شيء من طعام، فحملته وذهبت به إلى النبي ﷺ وهو بقباء، فقلت: إنه قد بلغني أنك رجل صالح، وأن معك أصحابا لك غرباء، وعندي شيء للصدقة، فرأيتكم أحقَّ به من غيركم، فهاك هذا فكل منه.

قال سلمان: فأمسك رسول الله ﷺ يده ولم يأكل، وقال لأصحابه: كلوا. . . فقلت في نفسي: يا سلمان هذه أول صفة مما وصف لي صاحبي في عمورية، ثم رجعت، وتحول الرسول ﷺ إلى المدينة، فجمعت شيئاً كان عندي ثم جئت به فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة، وهذه هدية وكرامة ، فأكل منها، وأكل أصحابه، فقلت في نفسي: يا سلمان: هذه العلامة الثانية.

قال سلمان: ثم جئته وهو ﷺ يتبع جنازة ومعه أصحابه، فاستدرت به لأنظر خاتم النبوة

في ظهره، فلما رآني ﷺ عرف أني أستَثْبِتُ شيئاً قد وُصف لي، فوضَع ﷺ فأنزله حتى أرى الخاتم، فلما نظرتُ الخاتم بين كتفيه ﷺ كما وصف لي صاحب عمورية، أكببت عليه أقبله وأبكي، فقال لي ﷺ: «**تحول يا سلمان هكذا**»، فتحولتُ فجلست بين يديه، وأحب أن يَسمع أصحابُه حديثي عنه فحدثته بما جرى لي فلما فرغتُ من حديثي، قال ﷺ«**يا سلمان كاتب**». .

فكاتبت صاحبي اليهودي على ثلاثمائة نخلة أحييها له، وأربعين أوقية، فأعانني أصحاب رسول الله ﷺ، كل رجل على قدر ما عنده من وَدِيَّةِ النخل فقال ﷺ: «**احفر لها، فإذا فرغتَ فأخبرني حتى أكون أنا الذي أضعها بيدي**».

قال سلمان: فحفرت لها، فلما فرغت أخبرت النبي ﷺ بذلك، فكنا نحمل إليه الوَدِيَّةَ ـ الفسيلة من النخلة ـ فيضعها ﷺ بيده، ثم يسوي عليها الأرض، والذي نفسي بيده ما مات منها وديّة واحدة.

الفصل الواحد والثمانون
سيرته ﷺ من قباء إلىٰ المدينة

قال العلماء: وبعد الفراغِ من مسجد قُباء المبارك، ومضيِّ المدة التي قدرها الله لنبيه في قباء، تحرك ركب رسول الله ﷺ يوم الجمعة ضحىً، وهو آخر يوم ودَّعِ فيه ﷺ قباء وأهلها الميامين ميمماً مستقرَّهُ الدائم في المدينة، ومثوى جسده الطاهر، ومهبط روحه ﷺ الأنور للرد على سلام أمته إذا سلّمت عليه لتجديد العهد لرسولها بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كما قال الصادق عرجون عليه رحمة الله تعالى، ثم قال: مشى الركب النبوي يحيط به أوفى الأوفياء من المهاجرين والأنصار، يتنازعون زمام ناقته، أيهم يكون له شرف قيادها، وهؤلاء هم الذين أعدوا أنفسهم لفداء الدعوة، ومتابعة الداعي في كل قول أو فعل يصدر منه، لأن قوله وفعله ﷺ وحي من الله تعالى، قال تعالى: ﴿ **وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤** ﴾ (١).

ولما بلغ الركب الكريم منازلَ سالم بن عوف ، وهي من قباء على مرمى البصر، كانت الشمس قد توسطت كبدَ السماء، ونزل رسول الله ﷺ في بطن الوادي ـ وادي رانُوناء ـ يؤم مسجدَ غُبَيْبٍ وهو مسجُد بني سالم بن عوف لأداء أول صلاةِ جمعةٍ يصلّيها رسول الله ﷺ في الإسلام، وهذا المسجد مبنيٌّ بالحجارة قدر نصف قامة، وهو على يمين السالك إلى مسجد قباء.

وقد ذكر الفيروزبادي في كتابه ـ المغانم المطابة في فضائل طابة ـ أن هذا المسجد يقال له: مسجدُ بني سالم بن عوف، ومسجد غُبيب، ويسمى أيضاً مسجد الجمعة، لصلاة أول جمعة فيه.

وخطب رسولُ الله ﷺ الناس في هذه الصلاة بعد ارتفاع أذان الجمعة، الله أكبر الله أكبر، وأصغتْ الدنيا إلى هذا النداء تسمعه بآذانها وقلوبها كما قال الصادق عرجون. . وكان فيما قاله ﷺ في خطبته وموعظته: «**أحبوا من أحب اللهُ، وأحبوا الله من كل قلوبكم**». وقد علّق السهيلي في كتابه «الروض الأنف» على قوله ﷺ «**أحبوا الله من كل قلوبكم**»، فقال: يريد أن يستغرق حبَّ الله تعالى جميع أجزاء القلب، فيكون ذكره وعمله خارجَين من قلبه خالصَين له عز وجل.

ثم أم النبي ﷺ المصلين، وبعدها ركب راحلته متوجهاً إلى المدينة وهي في لهفة انتظار وصوله ﷺ.

---

(١) النجم: ٣ - ٤ .

توجه ﷺ إلى المدينة، وقد أرخى زمام ناقته ولم يحركها، وهي تنظر يميناً وشمالاً، فأتته وفود بني سالم بن عوف في عددهم وعُددهم وأسلحتهم وفي مقدمتهم: عتبان بن مالك، وعباس بن عبادة بن نضلة، فقالوا: يا رسول الله: أقم عندنا في العدد والعدة والمنعة، ونحن أصحاب الحدائق والدَّرَك، ـ تحمُّل التبعة ـ. يا رسول الله كان الرجل من العرب يدخل هذه البحيرة ـ المكان أو البلد فيه ماء ـ خائفاً فيلجأ إلينا، فقال ﷺ لهم وكانوا قد أخذوا بزمام ناقته: «**خلوا سبيلها ـ أي الناقة ـ فإنها مأمورة**». فسمعوا وأطاعوا، فكان ﷺ يبتسم لهم ويقول: «**بارك الله عليكم**».

وتابعت الناقة سيرها، حتى إذا وازنت أرضَ بني بياضة ودارهم، تلقتْه جموعُهم في مظهر وفاء رائع يتقدمهم زياد بن لبيد، وفروة بن عمرو، فأخذوا بخطام الناقة لينزلوه عندهم، وقالوا له: يا رسول الله: هلم إلى العدة والعَدَد والمنعة، فقال لهم ﷺ كما قال لمـن قبلهم «**دعوها فإنها مأمورة، فإنما أَنزل حيث أنزلني الله**»، فتركوها.

ثم انطلقت الناقة حتى إذا مرت بديار بني ساعدة تلقته حشودهم يتقدمهم: سعد بن عبادة، والمنذر بن عمرو، وأخذوا بزمام ناقته ﷺ وقالوا: يا رسول الله: هلم إلى العدة والعدد والمَنَعَة، فقال ﷺ: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**». فخلوا سبيلها.

فانطلقت حتى إذا أتت ديار بني الحارث بن الخزرج تلقته جموعهم في مظاهر قوتهم يتقدمهم: سعد بن الربيع، وخارجة بن زيد وعبدا لله بن رواحة، فأخذوا بزمام الناقـة وقالوا: يا رسول الله: هلم إلى العدد والعدة والمنعة فقال ﷺ «**دعوها فإنها مأمورة**»، فخلوا سبيلها. وانطلقت حتى إذا مرت بديار عدي بن النجار ـ وهم أخواله ـ تلقتْه جحافلهم في أهبة السلاح، يتقدمهم سليط بن قيس وأبو سليط في رجال من بني النجار، فقالوا: يا رسول الله: هلم إلى أخوالك إلى العدد والعدة والمنعة، فقال ﷺ: «**خلوا سبيلها فإنها مأمورة**»، فخلوا سبيلها، فانطلقت، حتى إذا أتت ديار بني مالك بن النجار بركت في مكان مسجده ﷺ، وهو يومئذ مِرْبد ـ مكان يجفف فيه التمر والثمار ـ مملوك لغلامين يتيمين من بني النجار هما سهل وسهيل ابنا عمرو، وكانا في حِجْر أسعد بن زرارة.

هنا يأتي سؤال: ما الحكمة من إحالة الأمر إلى الناقة؟ حيث كان ﷺ يقول «**دعوها فإنها مأمورة**»؟ والجواب كما نقله العلماء أن في ذلك حكمة بالغة وآية معجزة، تطيب بها النفوس

وتذهب معها المنافسة، ولا يحيك ذلك في صد أحدهم شيئاً، حيث أن التخصيص لمن خصه الله بنزوله عنده.

وقد ذكر السهيلي أن الناقة لما ألقت بجرانها في دار بني النجار، جعل رجل من بني سلمة وهو جبار بن صخر ينخَسُها رجاء أن تقوم فتبرك في دار بني سلمة، فلم تفعل.

خرج أهل المدينة لاستقبال الحبيب ﷺ عن بكرة أبيهم، فامتلأت بهم الطرق، وظهروا على سطوح المنازل رجالاً ونساءً وأطفالاً وهم يقولون: الله أكبر جاء رسول الله، الله أكبر جاء محمد ﷺ، الله أكبر جاء رسول الله ﷺ.

وقد ذكر البخاري ومسلم هذا الهتاف من رواية الصديق رضي الله تعالى عنه.

استقرت الناقة وضربت بجرانها، وصوتت من دون أن تفتح فاها، فنزل عنها رسول الله ﷺ وقال: ﴿. . . . رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾ (١). ثم أخذه ﷺ ما كان يأخذه عند الوحي ثم سُرِّي عنه فقال ﷺ: «**هنا إن شاء الله يكون المنزل**».

كان بروك الناقة عند دار أبي أيوب الأنصاري، وذلك محلُّ مسجده ﷺ الشريف، فخرجت جَوارٍ ـ فتيات صغيرات ـ من بناتِ الأنصار ومن بني النجار بالدفوف يقلن:

نحن جوارٍ من بني النجار ... يا حبـــذا محمدٌ من جار

فخرج إليهن رسول الله ﷺ فقال «**أتحببنني؟**» قلن: نعم، فقال ﷺ: «**الله يعلم أن قلبي يحبكن**». أخرجه ابن ماجه من حديث أنس.

وفي البخاري من حديث أنس قال: أتى النساء والصبيان مقبلين، فقام ﷺ ممتثلاً ـ أي منتصباً ـ وقال: «**اللهم أنتم من أحب الناس إلي**» ـ قال ذلك ثلاثاً.

استأذن أبو أيوب الأنصاري أن يحمل رحل النبي ﷺ، فأذن له، فحمله ووضعه في بيته، فجعل رسول الله ﷺ يقول: «**المرء مع رحله**» ، كما روى الطبراني في الأوسط.

وجاء أسعد بن زرارة فأخذ بخطام ناقة النبي ﷺ فكانت عنده، وكان نزوله عند أبي

---

(١) المؤمنون: ٢٩.

أيوب الأنصاري واسمه خالد بن زيد ، من توفيق الله تعالى، لأنه ﷺ أراد أن ينزل على أخواله يكرمهم وأبو أيوب أحد أخوال أبي النبي ﷺ.

كان بيت أبي أيوب الأنصاري من طابقين، فنزل رسول الله ﷺ في السّفل من الدار، قال أبو أيوب: وأنا وأم أيوب في العلو، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي، إني لأكره

وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتي، فاظهر أنت فكن في العلو وننزل نحن فنكون في السّفل.

فقال ﷺ: «**يا أبا أيوب إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن أكون في أسفل البيت**». وبذلك طابت نفس أبي أيوب. واتفق يوماً أن انكسر حُبٌّ مليء بالماء بيد زوجة أبي أيوب في العلو ليلاً، فقام الرجل وزوجه بقطيفة عندهما ليس لديهما سواها فهي لحافهما يمسحان الماء وينشفانه خوفاً أن ينزل منه شيء على رسول الله ﷺ بالسُّفل فيتأذى بذلك.

ويروي صاحب نور اليقين: أن أبا أيوب لم يزل يستعطف النبي ﷺ حتى كـان في العلو. كانت الجفانُ تأتي إلى بيت أبي أيوب من سُراة الأنصار كسعد بن عبادة، وأسعد بن زرارة، وأم زيد بن ثابت، فما من ليلة إلا وعلى بابه الثلاثُ أو الأربع من جفان الثريد.

قال أبو أيوب: وكنا نصنع له ﷺ العشاء، ثم نبعث به إليه، فإذا رد علينا فضله، تيممت أنا وأم أيوب موضَع يده فأكلنا نبتغي بذلك البركة، حتى بعثْنا إليه ليلة بعشائه وقد جعلنا فيه بصلاً أو ثوماً، فردَّه ﷺ ولم أر ليده فيه أثراً، قال أبو أيوب: فجئته فزعاً، فقلت: يا رسول الله بأبي أنت وأمي رددت عشاءَك ولم أر فيه موضعَ يدك، وكنتُ إذا رددته علينا تيممتُ أنا وأم أيوب موضع يدك نبتغي بذلك البركة،

قال ﷺ: «**إني وجدت فيه ريح هذه الشجرة، وأنا رجل أناجي، فأما أنتم فكلوه**»، قال: فأكلناه ولم نصنع له تلك الشجرة بعد.

قال صاحب كتاب «هذا الحبيب يا محب»: في تتبع آثار أصابع النبي ﷺ من أبي أيوب، دليل على مشروعية التزام البركة من آثار النبي ﷺ إن وجدت كسؤره، وشعره، وثيابه. . . ولكن: ما هي نظرتنا إلى هذه الآثار إن وُجدت؟ والجواب: أننا عندما نرى شيئاً من هذه الآثار ـ إن وجدت ـ فإن هذه الرؤية تثير في النفس لوناً من السكينة والإشراق الروحي كما قال العلماء.

فعندما نرى مصحف عثمان نذكر أيام جمع المصحف من العُسُب واللخاف والجلود، وهذا المصحف لا يختلف عن بقية المصاحف، ولكن يثير في أنفسنا الصلة الندية، وصلة حرص المسلمين الأوائل في الحفاظ على كتاب الله تعالى. ولكن، لا بد أن تكون نظرتنا إلى آثار النبي ﷺ بعيدة عن الوثنيات فهي ـ هذه الآثار ـ لا تشفع لنا، ولكن تذكرنا فقط بأمر يتصل بالنبي ﷺ.

الفصل الثاني والثمانون
فرح المدينة بالرسول ﷺ

قال المؤرخون: لم تعرف المدينة في تاريخها فرحـاً كفرحها بمقدم رسول الله ﷺ، فقد أخرج الترمذي وابن ماجه من حديث أنس قال: لما كان اليوم الذي دخل فيه رسول الله ﷺ المدينة أضاء منها كل شيء.

وأخرج الدرامي وابن خيثمة عن أنس قال: شهدت يوم دخول النبي ﷺ المدينة، فلم أرَ يوماً أحسن منه ولا أضوأ من يوم دخوله. وروى أبو داوود عن أنس قال: لما قدم النبي المدينة لعبت الحبشة بحرابهم فرحاً بقدومه. قال القسطلاني: وصعدت ذوات الخدور على الأجاجير ـ الأسطحة ـ.

عند قدومه يقلن:

طلـع البدر علينـا　　من ثنيـات الوداع
وَجَبَ الشكر علينا　　مـا دعـا لله داع
أيـها المبعوث فينـا　　جئت بالأمر المطاع.

وقد روى البيهقي من حديث ابن عائشة قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل الصبيان والنساء يقلن: طلع البدر علينا من ثنيات الوداع. . . . وهذا الشعر لم ينسب لقائل ولا لشاعر، ولكنه مشهور على الألسنة كما قال الصادق عرجون. وقد ذكر ابن القيم: أن هذا الشعر أنشده أهل المدينة عند رجوعه ﷺ من غزوة تبوك وليس عند هجرته ﷺ إلى المدينة، واعتبر من قال أن هذا النشيد كان عند الهجرة متوهماً، ولكن العلامة المنصور فوزي رجح أن ذلك كان عند وصوله ﷺ إلى المدينة مهاجراً من مكة، وجاء بأدلة لا تدحض في كتابه ـ رحمة للعالمين ـ [1].

والتحقيق الذي تستريح إليه النفس، أن هذا النشيد، قيل في هجرته ﷺ، وقيل حين عودته من تبوك لأنه غناء عام مشهور في أهل المدينة فلا مانع في إنشاده أكثر من مناسبة، ولذلك قال الصادق عرجون ناقلاً عن «صاحب الخميس»: ولا مانع من تعدد وقوع هذا الشِّعر مرةً عند

---

(١) ج ١ ص ١٠٦ .

الهجرة ومرة عند قدومه من تبوك، وهذا لا يخالف ما في البخاري، ولا يخالف ما قاله ابن القيم، وبذلك تجتمع الأدلة كلها في هذا القول، ويدفع القادم والتضاد

بين الروايات، ويؤيد المشهور من الأخبار.

قال صاحب كتاب» هذا الحبيب يا محب» إنه ما إن بركت الناقة أما محلة بني مالك بن النجار، حتى سأل رسول الله ﷺ عن هذا المكان ولمن هو؟ وقال ﷺ «**يا معشر الأنصار ثامنوني بمكانكم هذا لأتخذه مسجداً**»، وكان المكان كما ذكرنا مربداً للتمر وتنشيفه. ودعا النبي ﷺ الغلامين صاحبي المربد وساومهما عليه، فقالا: بل نهبه لك يا رسول الله، فأبى ﷺ أن يقبله هبة وابتاعــه منهما بعشرة دنانير ذهبية، كما جاء في بعض الروايات. وكان في المربد الذي اشتراه ﷺ من اليتيمين قبور للمشركين ونخل وحفر، فأمر ﷺ بالقبور فنبشت» وغيبت العظام» وبالحفَر فسويت، وبالنخل فقطع، ثم أمر باتخاذ اللَّـبِن فاتُخذ، وشرعوا في البناء وجعلوا عضادتي الباب من الحجارة، وسقفوه بالجريد، وجُعلت عمده من جذوع النخل، ولا يزيد ارتفاعه عن القامة إلا قليلاً، وقد عمل فيه رسول الله ﷺ بنفسه ليرغّب المسلمين في العمل وصاروا يرتجزون: اللهم لا خير إلا خير الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة. وكان ﷺ ينقل الأحجار ويقول: «**لا عيش إلا عيش الآخرة، اللهم ارحم المهاجرين والأنصار**».

وجُعلت قبلة المسجد في شماله إلى بيت المقدس، وجُعل له ثلاثة أبواب، ثم حصبت أرضه ولم يزين المسجد بفُرُش ولا حتى حصرٍ، وبُني بجانبه حجرتان، إحداهما لسودة بنت زمعة والأخرى لعائشة، ولم يكن ﷺ متزوجاً من غيرهما إذ ذاك.

فكانت الحجرتان متجاورتين وملاصقتين للمسجد على شكل بنائه، وصارت الحجرات تبنى بعد ذلك كلما جاء زوج للنبي ﷺ، كما ذكـر ذلك صاحب كـتاب» نور اليقين» للخضري رحمه الله تعالى.

والروايات تفيد كلها أنه ﷺ اتخذ منزل أبي أيوب مستقراً له قبل بناء المسجد والمساكن المحيطة به فكان يأوي إليه لطعامه ونومه وما يتطلبه من الاستقرار الشخصي، أما في النهار.

فقد روى البيهقي من حديث عبدا لله بن الزبير أن رسول الله ﷺ كان يدخل عريشاً هناك يستظلون به، فاتخذ النبي ﷺ هذا العريش مكاناً لراحته المؤقتة يستظل به ويتبرد أثناء النهار،

ويلقى فيه أصحابه، ويشرف منه على بناء المسجد، كما جعل العريش مظلة يقابل فيها أصحابه للتزود من معالم الإيمان والفقه في الدين.

ونزوله ﷺ عند الأنصار منقبة عظيمة لهم جميعاً، حيث أكرموا الرسول ﷺ غاية الإكرام، ويروي زيد بن ثابت قال: إن أول هدية أهديت للرسول ﷺ حين نزل دار أبي أيوب أنا جئت بها، وكانت قصعة من ثريد فيها خبز ولبن وسمن، فقلت للنبي ﷺ: أرسلت بهذه القصعة أمي، فقال ﷺ: «**بارك الله فيك**»، ودعا أصحابه فأكــلوا، ثم جاءت قصعة سعد بن عبادة، ثريد وعراقُ لحمٍ، وما كان من ليلـة إلا وعلى باب رســول الله الثلاثة والأربعة يحملون الطعام يتناوبون. وثبت ﷺ في العريش اثنتي عشرة ليلة حتى بنى المسجد، يشهد مع أصحابِه عملهم، ويشاركهم الصغار والكبار، وكان علي يعمل ويرتجز. .

قائلاً:

لا يستوي من يعمر المساجدا

يدأب فيه قائماً وقاعــــــدا

ومن يُرى عن الغبار حـائـدا

فأخذ عمار بن ياسر يرتجزها، فظن أحدُ الأصحاب «عثمان بن مظعون» أنه يعنيه بها تعريضاً به، فقال لعمار: يا ابن سمية، والله لأراني سأعرض هذه العصا لأنفك، فسمع ذلك النبي ﷺ، فغضب وقال «**ما لهم ولعمار؟ يدعوهم إلى الجنة ويدعونه إلى النار**».

قال ابن اسحق: وتلاحق المهاجرون إلى رسول الله ﷺ، فلم يبق بمكة أحد منهم إلا مفتون أو محبوس، وقد هاجرت بعض الأسر بأكملها، فلجأ المشركون إلى امتلاك دورهم وبيعها، كما حصل لبني جحش بن رئاب، فإنهم لما خرجوا مهاجرين استولى على البيت أبو سفيان بن حرب وباعها من عمرو بن علقمة، فلما علم بنو جحش ما فعل أبو سفيان بدارهم، ذكر عبدا الله بن جحش ـ أبو أحمد ـ للنبي ﷺ ذلك، فقال له رسول الله ﷺ: «**ألا ترضى يا عبدا الله أن يعطيك الله بها داراً خيراً منها في الجنة**». قال: بلى يا رسول الله، فقال ﷺ «**فذلك لك**».

فقال عبدا الله لأبي سفيان شعراً يعاتبه فيه على فعلته:

أبلـغ أبا سفيان عن　　　أمرٍ عـــــواقبُه ندامــة

دارُ ابنِ عمك بعتها تقضي بها عنك الغرامة

اذهب بها اذهب بها طُوّقتها طــوقَ الحمامـة

قال المؤرخون فلما افتتح النبي ﷺ مكة كلَّمه أبو أحمد في داره فأبطأ عليه رسول الله ﷺ فقال الناس لأبي أحمد: يا أبا أحمد إن رسول الله ﷺ يكره أن تَرجعوا في شيء من أموالكم أُصيب منكم في الله عز وجل، فأمسك عن كلام رسول الله ﷺ في الموضوع، وهو أخو زينب بنت جحش أم المؤمنين وتوفي في خلافة عمر.

الفصل الثالث والثمانون
الاستقرار بالمدينة

قال صاحب كتاب فقه السيرة» الغزالي»: لقد عاش النبي ﷺ في مكة ثلاثة وخمسين عاماً حتى ألفها وألفته، لكنه اليوم يخرج منها إلى وطن جديد يرى فيه امتدادَ قلبه، وثمارَ غرسه، فلا غرو إذا دخل محمد ﷺ المدينة دخولَ الوامق المعتز، واستبشر بما آتاه الله فيها من فتح، وتوسم من وراء هذه الهجرة الخيرَ والنصر، وهذا هو الذي أشار إليه شاعر الأنصار» أبو قيس حرمة بن أبي أنس الأنصاري» في قصيدة جميلة كان ابن عباس يتردد على الشاعر ليحفظها ومنها قوله:

كثوى في قريش بضْعَ عشرةَ حَجَّةً ... يُذَكِّر لـــو يلقى حبيباً مـواتيا
ويعــرِض في أهل المـواسم نفسَـه ... فلم يَرَ مَنْ يــؤدي ولم يـرَ داعيا
فـلما أتـانـــــا أظهـر الله ديـنَه ... فأصبح مسـروراً بـطـيبةَ راضيا
وألفى صديقاً واطمأنت به النـوى ... وكان لنا عوناً من الله بـــاديـا
يقصُّ لنا ما قال نوح لقومـــــه ... وما قال موسى إذ أجاب المناديـا
فأصبح لا يخشى من الناس واحداً ... قريباً، ولا يخشى من الناس نائيـا
بذلنا له الأموالَ من حِلّ مـالنـــا ... وأنفسنا عند الوغـى والتآسيـــا
ونعلــم أن الله لا ربَّ غيـــــرُه ... وأنَّ كتابَ الله أصبح هـاديـــا
نعادي الذي عادى من الناس كلِّهم ... جميعاً وإن كان الحبيب المصافيـــا

وقد أشار حسان بن ثابت، شاعر النبي ﷺ إلى هذا الاطمئنان والاستقرار في المدينة في قصيدة منها قوله:

قومي الــذين همو آوَوْا نبيَّهُــمُ ... وصـدَّقوه وأهـلُ الأرض كفار
مستبشرين بقَسْــم الله قولُهُــم ... لمـا أتاهـم كـريمُ الأصل مختار
أهلاً وسهلاً ففي أمنِ وفي سَعَةٍ ... نعم النبيُّ ونـعم القسْـمُ والجار
فـأنزلـوه بـدار لا يَخاف بهـــا ... مـن كان جارهم، دار هي الدار

وقاسموه بها الأموال إذ قـدموا مهاجرين، وقسْـم الجاحد النار

وقد أشار صاحب فقه السيرة» الغزالي» إلى استقرار النبي ﷺ بالمدينة، وكيف اطمأن بها وعلق على ذلك رحمه الله تعالى بقوله: وهكذا رجل العقيدة يجد طمأنينته حيث تلقى عقيدته الرحب والسعة والاحترام. والناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به همومهم على ضوء الأمر المستقر في نفوسهم. فطالب المنصب والزعامة، يرضى ويغضب، وينشط أو يكسل على مقدار قُربه من المنصب أو بعده عنه، ثم يقول رحمه الله تعالى: انظر إلى المتنبي كم مدح وهجا، وسافر واستقر من الشام إلى مصر ومن مصر إلى غيرها، ثم انظر إلى أحاديث الناس عنه وعما يريد، تلمس جواب ذلك في قوله:

يقولون لي ما أنت في كل بلدة   وما تبتغي؟ ما ابتغى جل أن يسمى

وهذا الشيء الذي لم يذكره في هذا البيت، صرح به في قصائد أخرى، فطلب أن تُناط به ولاية أو ضيعة!! أي طلب بعض ما كان في أيدي السلاطين، أو الملاك، ولذلك تعجل هذا الأمل وهذا المراد من كافور في أكثر من مناسبة. .

فمن ذلك قوله:

أبا المسك، هل في الكأسِ فضلٌ أنا له؟   فإني أغني منذ حين وتشـــــرب

وقال في مكان آخر:

وليس عجباً أن يزورك راجل   فيرجع ملْكاً للطرفين واليا

ولكن على العبد أن يعلم، أن التطلع إلى أمر من أمور الدنيا بشوق ولهفة وإلحاح، ولو كان هذا العبد المتطلع أهلا لمنصب رفيع، محكوم بمشيئة الله التي قـال عـز وجـل فيها: ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾ (١).

والمعنى: أن من يريد متع الدنيا، ورقيها، وإياها يبتغي، ولها يعمل ويسعى، لا يوقن بمعاد، ولا يرجو ثوابا ولا عقابا من ربه على عمله، وهذه صفة الملاحدة وأهـل النفاق ﴿..عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾.

---

(١) الإسراء: ١٨.

وهذا العطاء يكون للمؤمن والكافر إذا اخذوا بالأسباب، فالمؤمن الذي يترك مقومات الحياة، ويدع الكافر يأخذ بأسباب الرقي، ثم بعدها تكون لهذا الكافر الغلبة والقهر، لم يعرف حقائق دينه الذي جعل المؤمن أولى بالأخذ بمقومات الحياة. وقوله تعالى: ﴿مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ هذا يعني أننا نعجل له من نعيمها ومتعها ما نشاء تعجيله لا كلَّ ما يريده، وهذا يدل كما قال العلماء على طلاقة قدرة الله تعالى، فقد تأخذ بالأسباب، ولكن الأشياء لا تستجيب لك، لحكمة عليا، فالمشيئة الإلهية تتدخل في هذه المسالة.

فالحكمة تقتضي ألا يصل كل طالب إلى جميع ما يهواه فإن الله تعالى قد يبتلى بعض العباد بالطلب من غير حصول المطلوب، وبعضهم يبتلى بحصول المطلوب المشروط به، أما مقارنا لطلبه، وإما بعده ، وبعضهم لا يبتلى بالطلب، بل يصل إليه العطاء بلا طلب، فالأول طَلَبٌ ولا شيء، والثاني طلبٌ وشيء، والثالث شيء ولا طلب كما قال البروسوي رحمه الله.

ثم يتابع الغزالي رحمه الله تعالى تعليقه على الآية فيقول مبينا أن الناس ينشدون سعادتهم فيما تعلقت به هممهم، وبعد أن ذكر أن فريقا من الناس يتطلع إلى المنصب كما ذكرنا، قال: ومن الناس من يعشق الجمال، ويجري وراء النساء، وليس له غاية فوق ذلك، فإذا وصل إلى ما يريد سكن وهدأ ولسان حاله يقول:

لا أرى الدنيا على نور الضحى   بل أرى الدنيا على نور العيون

ونحن نرى طرفة ابن العبد في شعره يشير إلى تعلق همته بشيء من ذلك فيقول:

ولولا ثلاثٌ هن من عيشة الفتى   وجدِّك لم احفل متى قام عُوَّد
فمنهن سبقي العاذلاتِ بشربةٍ   كُميتٍ متى ما تُعْلَ بالماء تُزبد
وكري إذا نادى المضاف محنّبا   كسيد الغضا ذي السورة المتورد
وتقصير يومِ الدَّجْن والدجنُ معجب   ببَهْكنةٍ تحت الطراف المعمد

ومن الناس من يبحث عن المال، ويقضي كل نهاره، وشطر ليله في تتبع الأرقام في دفتره، وماذا في رصيده، يطلب المزيد وربما شغلته الأرقام حتى عن طعامه وشرابه، لا يعرف الشمس الذهبية، ولا الفجر الفضي، وإنما فجره فضة تملأ كيسه، وشمسه ذهب يملأ جوفَه وطمَعَه.

وغريزةُ التملك عنده سدت عليه منافذَ السعادة الحقة، ويقول الغزالي رحمه الله بعد ذلك:

والى جانب هؤلاء تجد فريقا من الناس لا يطيق الكف عن إسداء الجميل، وبذل المعروف، وإزداء النصيحة يبيت مسهدا إن قصَّر في واجب، وسعادتُهُ القصوى أن يغني ذاته في سبيل الفضائل والمثل.

ثم يقول رحمه الله تعالى: وأنقل هنا بتعرف يسير: أما أصحابُ الرسالات، ومن سار على نهجهم، فهم يرون أن مغانمهم ومغارمهم، وحِلَّهم وترحالَهم، وصداقاتهم وخصوماتهم، ترجع كلها إلى معاني عقيدتهم التي ارتبطوا بها، وعاشوا من أجلها، ونبينا محمد ﷺ صاحب الرسالة العظمى كـــان مثلا للمكافحين في سبيل العقيدة، فهو ﷺ منذ حمل على عاتقه أمانة الدعوة التي جاءت لتمزيق الشرك والخرافة، لم يفلح احد في ثَنِيْه عن عزمه، أو ترضِيَتِهِ برغبة أو رهبة، وعُرضت عليه الدنيا بمالها وملكها ونسائها، فلم يلتفت ﷺ إلا إلى نصرة عقيدته، وفنيت أمام عينه فوارقُ الزمان والمكان – كما يقول الغزالي.

فالغريبُ عنه إذا عرف الحق قريبٌ، ووطنه إذا تنكر للهدى فهو منه بريء، والمؤمنون به ولو أَتوا في آخر الزمان هم أخوتُه وإن لم يشاهدوه. وهكذا ترك ﷺ مكة، وفيها نشأ، وهاجر إلى المدينة لأنها أصبحت محضِنا للعقيدة، ومأوى للمهاجرين إليها في سبيل الله ودعوة الله.

ولا بد أن نشير هنا إلى أن تنظيم الهجرة، واستقبال الفارين بدينهم ليس أمرا سهلا كما قال الغزالي في فقه السيرة، بل هو في عصرنا يعتبر مشكلة تحتاج إلى حل سريع والرجل العظيم لا تخلو حياته من مشكلات.

وقد واجه النبي ﷺ إبان الهجرة بعضَ هذه المشكلات، ولعل أولها أن المدينة كانت موبوءة بالحمى فلم يكن هواؤُها ملائما للمهاجرين، فأصيبَ الكثير منهم بالمرض – الملاريا- وكان النبي ﷺ يزورهم ويصبرهم ويطلب منهم التضحية والصبر لنصرة دين الله.

وكان ﷺ يقول كما ورد في صحيح مسلم، ومسند أحمد من حديث سعد بن أبي وقاص «**لا يصبر على لأواء المدينة وشدتها أحد من أمتي إلا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة، ولا يدعها رغبة عنها إلا أبدل الله فيها من هو خير منه**». وهذا نوع من تأليف القلوب على المهجر الجديد حتى تطيب النفوس فيه، ولا يفكر أحد في مغادرته.

وقد ذكر ابن اسحق في حديث عائشة: قالت: لما قدم النبي ﷺ المدينة قدمها وهي أوبأ

أرض الله من الحمى، وكان بطحان يجري نجلا – أي نَزّاً، وهو ماء قليل مستنقع– فأصاب أصحابَه منها سَقَم، وصرف الله ذلك عن نبيه، وكان أبو بكر، وعامر بن فهيرة، وبلال في بيت واحد، فأصابتهم الحمى، فدخلتُ عليهم أعودهم – وكان ذلك قبل فرض الحجاب – وبهم ما لا يعلمه إلا الله من الشدة، فدنوت من أبي بكر فقلت: كيف تجدك يا أبتي؟

فقال:

كل امرئ مصبحٌ في رحله والموت أدنى من شِراك نعله

قالت: فقلت والله إن أبي لا يدري ما يقول، قالت: ثم دنوت من عامر بن فهيرة فقلت: كيف تجدك يا عامر؟

فقال:

لقد وجدتُ الموتُ قبل ذوقه إن الجبانَ حتفُه من فوقه

كل امرئ مجاهد بطوقه كالثور يحمي جلدَه بروقه

فقالت: قلت والله ما يدري عامر ما يقول. قالت عائشة: فكان بلال إذا أدركته الحمى اضطجع بفناء البيت ثم رفع عقيرته..

فقال:

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بفخ وحولي إذخِرٌ وجليل

وهل أرِدن يوما مياه مِجَنَّة وهل يبدون لي شامة وطفيل

طفيل من جبال مكة، وفخ: مكان قرب مكة فيه ماء. والإذخر نبات، والجليل الثمام وهو نبات ضعيف.

ونلاحظ هنا في شعر بلال استيقاظ غرائز الحنين إلى الوطن المفقود مكة قالت عائشة: فذكرت ذلك للنبي ﷺ، وقلت: إنهم ليهذون وما يعقلون من شدة الحمى، فنظر ﷺ إلى السماء وقال «**اللهم حبب إلينا المدينة كما حببت إلينا مكة أو أشد، اللهم بارك لنا في صاعها، ومدها، وانقل وباءها إلى مَهْيَعَة**» ومهيعة هي الجحفة، والجحفة على بعد ٨٢ ميلا من مكة وهي ميقات أهل الشام.

وفي البخاري من حديث أنس أن النبي ﷺ قال «**رأيت كأن امرأة سوداء ثائرة الرأس خرجت من المدينة حتى أقامت بمهيعة، فأولتها أن وباء المدينة انتقل إلى مهيعة**».

وذكر الزهري عن عبدا الله بن عمر بن العاص، أن المهاجرين لما قدموا المدينة جَهدوا مرضا من حمامها، حتى كانوا ما يصلون إلا وهم قعود، فخرج عليهم رسول الله ﷺ وهم يصلّون كذلك فقال لهم: «**اعلموا أن صلاة القاعد على النصف من صلاة القائم**». قال: فتجشم المسلمون القيام على ما بهم من الضعف والمرض التماس الفضل والأجر.

وقال هشام بن عروة: وكان وباء المدينة معروفاً في الجاهلية، وكانوا يعتقدون أن الوادي إذا كان وبيئا فأشرف عليه إنسان قيل له: أن ينهقَ نهيق الحمار، فإذا فعل ذلك لم يضره وباء ذلك الوادي.

ولهذا قال الشاعر حين أشرف على المدينة:

لعمري عُبّرتُ من جيفة الردى   نهيقَ الحمـــار إني لجزوع

وكان من دعائه ﷺ للمدينة ما ورد في الصحيحين عن أنس أنه ﷺ قال: «**اللهم اجعل في المدينة ضعفي ما جعلت في مكة من البركة**».

وعند مسلم من حديث أبي هريرة قال: كان رسول الله ﷺ إذا أتى بأول الثمر قال: «**اللهم بارك لنا في مدينتنا، وفي ثمارها، وفي مُدّنا وفي صاعنا، بركة مع بركة، الله إن إبراهيم عَبدك، ونبيك، وخليلك، وإني عبدُك ونبيك، وإنه دعاك لمكة، وأنا أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومِثلِه معه**» ثم يعطيه ﷺ أصغر من يحضر من الولدان.

قال العلماء بهذا التشويق ارتفع الروح المعنوي بين المسلمين واتجهت السواعد القوية للبناء، متناسية الماضي وما يضم من ذكريات.

إن الهجرة الخالصة لله لا تعود في هِبَةٍ، ولا ترجع في تضحيةٍ، ولا تبكي على فائت كما قال الشاعر:

إذا عزفت نفسي عن الشيء لم تكن   إليه بوجه آخر الدهر تقبل

قال صاحب النور اليقين: وبهذه الهجرة تمت لرسولنا ﷺ سنةُ إخوانه من الأنبياء من قبله، فما من نبي إلا ويَنَت به بلادُ نشأته، من إبراهيم خليل الله إلى عيسى كلمة الله، ألم يخرج

يعقوب وبنوه إلى مصر حين رحب بهم أهلها وتمسكوا بالتوحيد وتركوا ما يخالفهم ولِمَا رأوه من يوسف وحكمته، ثم تنكروا بعد سنين طويلة لفضل يوسف وآذوا موسى وقومه، فهاجر موسى، وهارون بقومهم ليتمكنوا من عبادة الله والمسيح عليه السلام ألم يهرب من اليهود حين كذبوه وأرادوا قتله، وكان من كلامه ـ طوبى للمطرودين من اجل البر لأن لهم ملكوت السموات ـ.

ثم قال لتلامذته: افرحوا وتهللوا لأن أجركم عظيم في السموات فإنهم طردوا الأنبياء الذين قبلكم، وسل القرى التي حلت بها نقمة الله بكفر أهلها كديار لوط وعاد وثمود تنبئك عن مهاجَرَة الأنبياء منها قبل حلول النقم فيها، فلا غرابة أن هاجر ﷺ من بلد منعه أهلها من إقامة دعوته فيها، وتتميم ما آمر وما أحب الله، إلى طيبة حيث وادعة الإيمان ولطف المعشر، والوفاء بالعهد، وشدة البأس، قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلًا ...﴾[1].

(١) الأحزاب: ٦٢.

الخاتمة

إلى هنا، وانتهت هذه الدروس في السيرة النبوية للعهد المكي التي ألقيتها في مساجد الإمارات عندما كنت واعظاً في وزارة الأوقاف كما ذكرت في المقدمة، وكل أملي أن يفسح الله عز وجل لي في الأجل لعلي أتمم السيرة النبوية في المرحلة المدنية لتكتمل حلقات السيرة التي كان همي فيها إبراز المواقف التربوية والروحية في سيرة سيد المرسلين ﷺ والله أسأل أن يدخر لي أجر عملي عنده وقد بذلت ما بوسعي، فإن أصبت فمن الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان والله عز وجل يأخذ بأيدينا إلى كل ما فيه رضاه. . والسلام عليكم ورحمة الله. .

المراجع

١. القران الكريم.

٢. تفسير الطبري – محمد بن جرير الطبري.

٣. تفسير الكبير (الرازي) – فخر الدين الرازي.

٤. تفسير معالم التنزيل (البغوي) – الحسين بن مسعود البغوي.

٥. تفسير التحرير والتنوير (ابن عاشور) – محمد الطاهر بن عاشور.

٦. تفسير الغزالي (الغزالي) – جمع وتوثيق محمد الرحماني.

٧. ارشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبو السعود)- أبو السعود.

٨. تفسير الكشاف (الزمخشري) – جار الله أبو القاسم الزمخشري الخوارزمي.

٩. تفسير الشعراوي – الشيخ محمد متولي الشعراوي.

١٠. ايسر التفاسير لكلام العلى الكبير – أبو بكر الجزائري.

١١. تفسير محاسن التأويل (تفسير القاسمي) – محمد جمال الدين القاسمي.

١٢. تفسير ابن كثير – الامام عماد الدين ابي الفداء القرشي الدمشقي.

١٣. تفسير روح المعانى (الالوسي) – أبو الثناء الالوسي.

١٤. تفسير الخازن – علاء الدين الخازن.

١٥. تفسير البحر المحيط – أبو حيان الغرناطي الاندلسي.

١٦. تفسير القرطبي – شمس الدين القرطبي.

١٧. الدر المنثور – جلال الدين السيوطي.

١٨. روح البيان في تفسير القرأن – البروسوي.

١٩. اللباب في علوم الكتاب (تفسير ابن عادل)- عمر بن علي الحنبلى.

٢٠. تفسير ابن ابى حاتم الرازي – عبد الرحمن بن محمد الرازي ابن ابي حاتم.

٢١. اجكام القرأن – أبو بكر بن عربي.

٢٢. تفسير ابن فوريك – ابن فوريك.
٢٣. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (تفسير ابن عطيه) – أبو محمد عبد الحق ابن عطيه.
٢٤. الدر المصون في علوم الكتاب المكنون – السمين الحلبي.
٢٥. نظم الدرر في تناسب الايات والسور –برهان الدين البقاعى.
٢٦. صحيح البخاري- محمد بن اسماعيل البخاري.
٢٧. صحيح مسلم- مسلم ابن الحجاج.
٢٨. الموطأ مالك- الإمام مالك.
٢٩. سنن الترمذي- الترمذي.
٣٠. سنن الدارقطني- الدارقطني.
٣١. سنن النسائي- أحمد بن شعيب النسائي.
٣٢. مسند الإمام أحمد- أحمد بن حنبل.
٣٣. مسند البزاز- أبو بكر البزاز.
٣٤. المعجم الكبير- الطبراني.
٣٥. دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة- البيهقي.
٣٦. فقه السيرة- الغزالي.
٣٧. فقه السيرة- البوطي.
٣٨. المنهج الحركي للسيرة النبوية- منير محمد الغضبان.
٣٩. نور اليقين- الخضري.
٤٠. محمد رسول الله- الصادق عرجون.
٤١. السيرة النبوية- ابن إسحاق.
٤٢. السيرة النبوية الصحيحة- أكرم ضياء الدين العمري.

٤٣. خاتم النبيين- محمد أبو زهرة.

٤٤. مختصر سيرة الرسول- محمد عبد الوهاب.

٤٥. هذا الحبيب يا محب- أبو بكر الجزائري.

٤٦. زاد المعاد في هدى خير العباد- ابن القيم الجوزية.

٤٧. حدائق الأنوار ومطالع الأسرار- عبدالرحمن بن علي بن الدبيغ.

٤٨. الرحيق المختوم – المباركفوري.

٤٩. الروض الأنف- أبو القاسم السهيلي.

٥٠. إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون- نور الدين الحلبي وعلي بن إبراهيم بن أحمد.

٥١. شرح الزرقاني على المواهب اللدنية بالمنهج المحمدية- محمد عبدالباقي الزرقاني.

٥٢. الطبقات الكبير- محمد بن سعد البغدادي.

٥٣. الإصابة في تمييز الصحابة-ابن حجر العسقلاني.

٥٤. معجم ياقوت الحموي- الإمام شهاب الدين الحموي.

٥٥. البداية والنهاية- ابن كثير الدمشقي.

٥٦. المغانم المطابة في معالم طابة- محمد بن يعقوب الفيروزبادي.

٥٧. البستان- القيرواني.

٥٨. الإستيعاب في معرفة الأصحاب- ابن عبدالبر.

٥٩. رجال من التاريخ- علي الطنطاوي.

٦٠. الروض المعطار في خير الأقطار- محمد بن عبدالله الحميري.

٦١. أخبار عمر- علي الطنطاوي.

٦٢. تاريخ دمشق- ابن عساكر.

٦٣. المستفاد من قصص القرآن للدعوة والدعاة- عبدالكريم زيدان.

٦٤. كتاب التوحيد- محمد بن عبدالوهاب.

٦٥. كتاب الأغاني- أبو فرج الأصفهاني.

٦٦. كتاب الأصنام- هاشم بن محمد الكلبي.

٦٧. من المعتقدات والقيم للشعر الجاهلي- محمد الشيخ محمود الصيام.

٦٨. البيان والتبيين- الجاحظ.

٦٩. الشعر الجاهلي- محمد بن عبد المنعم الخفاجي.

٧٠. فهرس ابن عطية- أبو محمد بن عطية.

٧١. علو الهمة- محمد بن أحمد المقدم.

٧٢. زهرة الآداب وثمرة الألباب- جمعة إسحاق المصري.

٧٣. الفتاوى الكبرى- ابن تيمية.

٧٤. مجمع الوسيط- مجمع اللغة العربية في القاهرة.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
١. المقدمة	٥
٢. الفصل الأول: الغرض من دراسة السيره النبوية	٧
٣. الفصل الثانى: خير في ذاته ﷺ هو خير الكمالات المتعدده	١٤
٤. الفصل الثالث: تفرغ ساعه في الأسبوع لدراسة سيرة الرسول ﷺ	٢١
٥. الفصل الرابع: مصدر من مصادر فقه الواقع	٢٧
٦. الفصل الخامس: تاريخ إبراهيم عليه السلام	٣٤
٧. الفصل السادس: هاجر وزمزم	٤٠
٨. الفصل السابع: عمارة مكه وقصة الذبيح	٤٨
٩. الفصل الثامن: نتائج مما سبق وبداية امر الحبيب ﷺ	٥٥
١٠. الفصل التاسع: نبينا محمد ﷺ والده ووالدته	٦٢
١١. الفصل العاشر: نسبه ﷺ ومكانته في قومه	٦٨
١٢. الفصل الحادى عشر: حالة العرب قبل بزوغ فجر الإسلام	٧٤
١٣. الفصل الثانى عشر: الحاله الاجتماعية عند العرب	٨٣
١٤. الفصل الثالث عشر: وأد البنات	٩١
١٥. الفصل الرابع عشر: تبرج النساء وانواع الأنكحة عندهم	٩٩
١٦. الفصل الخامس عشر: زواج الشغار والمقت والعصبيه القبليه	١٠٦
١٧. الفصل السادس عشر: شن الغارات والحروب على بعضهم	١١٠
١٨. الفصل السابع عشر: العادات الحسنه عند العرب قبل الإسلام	١١٨
١٩. الفصل الثامن عشر: تتمت هذه العادات المستحسنه	١٢٣
٢٠. الفصل التاسع عشر: الحاله الدينيه عند العرب قبل الإسلام	١٢٩
٢١. الفصل العشرون: تتمة الحاله الدينيه عند العرب قبل الإسلام	١٣٤
٢٢. الفصل الواحد والعشرون: البدع والضلالات عند العرب قبل الإسلام	١٤١
٢٣. الفصل الثاني والعشرون: تتمة البدع والضلالات عند العرب قبل الإسلام	١٤٩

٢٤. الفصل الثالث والعشرون: ولادته ﷺ اضخم حدث ١٥٦
٢٥. الفصل الرابع والعشرون: حادثة الفيل وأبرهه الحبشي ١٦٢
٢٦. الفصل الخامس والعشرون: الحمل والميلاد ١٦٩
٢٧. الفصل السادس والعشرون: فرح الكائنات بمولده ﷺ ١٧٦
٢٨. الفصل السابع والعشرون: تسمية الحبيب وإرضاعه ﷺ ١٨٣
٢٩. الفصل الثامن والعشرون: شق الصدر ونتائج هذا القسم من السيرة ١٩٠
٣٠. الفصل التاسع والعشرون: كفلاؤه ﷺ ١٩٥
٣١. الفصل الثلاثون: مظاهر كمالاته ﷺ قبل النبوه ٢٠٠
٣٢. الفصل الواحد والثلاثون: تتمة مظاهر كمالاته ﷺ قبل النبوه ٢٠٦
٣٣. الفصل الثاني والثلاثون: تتمة الكمالات المحمديه قبل بعثته ﷺ ٢١٥
٣٤. الفصل الثالث والثلاثون: الإملاك ونتائج هذا المظهر الكمالي وعبره ٢٢١
٣٥. الفصل الرابع والثلاثون: أول مابدء به النبوه ومقدماتها ٢٢٧
٣٦. الفصل الخامس والثلاثون: فترة الوحى وعودته ٢٣٦
٣٧. الفصل السادس والثلاثون: أنواع الوحى المحمدى وصوره ٢٤٢
٣٨. الفصل السابع والثلاثون: بدء الدعوه وأول من أسلم ٢٤٩
٣٩. الفصل الثامن والثلاثون: إسلام الصديق وعثمان ٢٥٧
٤٠. الفصل التاسع والثلاثون: إسلام عدد من كبار الصحابه ٢٦١
٤١. الفصل الأربعون: ماهي النتائج والعبر التي يمكن أن نستنتجها من هذا القسم من السيرة ٢٧٠
٤٢. الفصل الحادي والأربعون: فرضية الصلاه وسمات هذه المرحلة ٢٧٥
٤٣. الفصل الثانى والأربعون: فشو الإسلام والجهر بالدعوه وإهلاك المستهزئين ٢٧٩
٤٤. الفصل الثالث والأربعون: إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب ٢٩٠
٤٥. الفصل الرابع والأربعون: أثر إسلام عمر على الدعوه ومساومة الرسول ﷺ ٢٩٧
٤٦. الفصل الخامس والأربعون: التحدي بالمعجزات وطلبهم لها ٣٠٤
٤٧. الفصل السادس والأربعون: محاولة ابي جهل إيذاء النبي ﷺ ٣٠٨

٤٨. الفصل السابع والأربعون: العرض الجديد أسئلة تطرح على النبي ﷺ اقترحها اليهود على قريش ٣١١
٤٩. الفصل الثامن والأربعون: الحرب الكلاميه ٣١٧
٥٠. الفصل التاسع والأربعون: موقف أبو طالب ٣٢١
٥١. الفصل الخمسون: إثارة الشبهات حول القرآن الكريم ٣٢٣
٥٢. الفصل الواحد والخمسون: القرار بالإضطهاد ٣٢٩
٥٣. الفصل الثانى والخمسون: الاضطهاد بالنسبه للمستضعفين ٣٣٥
٥٤. الفصل الثالث والخمسون: تواصل العذاب والإشارة إلى الهجره ٣٤٥
٥٥. الفصل الرابع والخمسون: الخروج إلى الحبشة ووفد قريش لمحاولة إعادتهم ٣٤٩
٥٦. الفصل الخامس والخمسون: نوع هذه الهجره ٣٥٧
٥٧. الفصل السادس والخمسون: أنواع الهجره ٣٦٢
٥٨. الفصل السابع والخمسون: عودة المهاجرين من الحبشه وقصة الغرانيق ٣٦٧
٥٩. الفصل الثامن والخمسون: المقاطعة والحصار ٣٧٣
٦٠. الفصل التاسع والخمسون: نقض الصحيفه وموقف الوحي ٣٧٧
٦١. الفصل الستون: عودة النشاط إلى مسيرة الدعوه ٣٨٥
٦٢. الفصل الواحد والستون: عام الحزن وإشتداد المحن على رسول الله ﷺ ٣٩١
٦٣. الفصل الثانى والستون: خروجه ﷺ إلى الطائف ٣٩٥
٦٤. الفصل الثالث والستون: العوده إلى مكه واستكماع الجن لقراءته ٤٠١
٦٥. الفصل الرابع والستون: دخوله مكه في جوار المطعم بن عدي ٤٠٣
٦٦. الفصل الخامس والستون: الإسراء والمعراج ٤٠٧
٦٧. الفصل السادس والستون: قريش والإسراء ٤١٧
٦٨. الفصل السابع والستون: معجزات أخرى للنبي ﷺ ٤٢١
٦٩. الفصل الثامن والستون: فتح الأفاق امام الدعوه ٤٢٧
٧٠. الفصل التاسع والستون: بدء إسلام الأنصار ٤٣٣
٧١. الفصل السبعون: بيعة العقبه الثانية الكبرى ٤٤٠

٧٢. الفصل الواحد والسبعون: بدء هجرة الصحابه من مكه إلى المدينه ٤٤٨
٧٣. الفصل الثاني والسبعون: تتابع افواج المهاجرين إلى المدينه ٤٥٤
٧٤. الفصل الثالث والسبعون: قلق قريش ولقاؤهم في دار الندوه للتأمر على الرسول ﷺ ٤٦٠
٧٥. الفصل الرابع والسبعون: ويمكرون ويمكر الله ٤٦٣
٧٦. الفصل الخامس والسبعون: الخروج مع الصديق ٤٦٨
٧٧. الفصل السادس والسبعون: في الغار ٤٧٧
٧٨. الفصل السابع والسبعون: الطريق إلى المدينه ٤٨٣
٧٩. الفصل الثامن والسبعون: قصة أم معبد ٤٩٠
٨٠. الفصل التاسع والسبعون: الوصول إلى قباء ونزوله ﷺ بها ٤٩٤
٨١. الفصل الثمانون: لقاء سلمان الفارسي مع الحبيب ﷺ في قباء ٥٠٠
٨٢. الفصل الواحد والثمانون: سيره ﷺ من قباء إلى المدينه ٥٠٤
٨٣. الفصل الثانى والثمانون: فرح المدينه بالرسول ﷺ ٥٠٩
٨٤. الفصل الثالث والثمانون: الاستقرار بالمدينه ٥١٣
٨٥. الخاتمه ٥٢٠
٨٦. المراجع ٥٢١
٨٧. الفهرس ٥٢٥

تم بحمد الله. . .